

إِعْتَادُ الْعَمَلِ
عَلَى
إِتْقَانِ الْمِهْمَةِ
فِي شَرِكَةِ الْحَاكِمِ

لِلْعَارِفِ بِاللَّهِ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدَ بْنَ عَجِيْبَةَ الْحَسَنِيَّ
المتوفى نحو سنة ١٢٦٦هـ

هَذِيهِ رَفَعَهُ وَصَحَّحَهُ وَنَسَقَهُ وَعَلَوْهُ عَلَيْهِ
السَّيِّدُ الرَّكْتُوبِيُّ عَاصِمُ إِبْرَاهِيمَ الْكِيَالِي
الحسيني الثاني في الدرقاوي



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah
DKI

أسستها في بيروت سنة 1971 في بيروت - لبنان
Est. by Mohamad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

Title: **IBĀD AL-ĠUMAM
'AN 'ĪQĀZ AL-HIMAM
FĪ ŠARĤ AL-ĤIKAM**

الكتاب: إبعاد الغمم
عن إيقاظ الهمم في شرح الحكم

Classification: Sufism

التصنيف: تصوف

Author: Ibn 'Ajibah al-Hasani

المؤلف: ابن عجيبة الحسني

Editor: Dr. 'Ashim Ibrāhīm al-Kayyālī

المحقق: د. عاصم إبراهيم الكيالي

Publisher: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

Pages: 440

عدد الصفحات: 440

Year: 2009

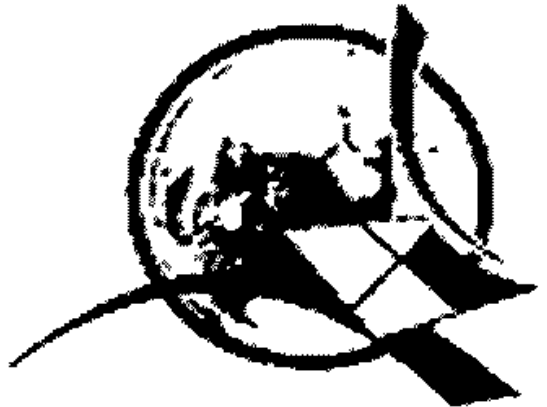
سنة الطباعة: 2009

Printed in: Lebanon

بلد الطباعة: لبنان

Edition: 1st

الطبعة: الأولى



DKi

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بهيرون
سنة 1971 بيروت - لبنان

عرمون-القبه مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: +961 5 804 810/11/12
فاكس: +961 5 804 813
ص.ب: 11-9424 بيروت-لبنان
رياض الصلح بيروت 11-77290

Aramoun, al-Quebbah,
Immbf. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel: +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804 813
B.P: 11-9424 Beyrouth-Liban,
Riyad al-Solh Beyrouth 1107 2290

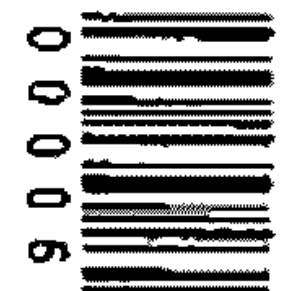
جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية
بيروت-لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب
كاملاً أو مجزاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على اسطوانات ضوئياً إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah**
Beirut-Lebanon No part of this publication may be
translated, reproduced, distributed in any form or by any
means, or stored in a data base or retrieval system, without
the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah**
Beyrouth-Liban Toute représentation, édition, traduction ou reproduction
même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation
préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à
des poursuites judiciaires.

ISBN 978-2-7451-6206-9

ISBN 978-2-7451-6206-9



9 782745 162069

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

بسم الله الأعظم الجامع للكمالات الأسمائية الجلالية والجمالية، والباطن بهويته الذاتية الأحدية، والظاهر بتجلياته الصفاتية الواحدية، والقاهر بشؤونه اليومية بحضرته الفردانية.

والحمد لله الذي أحكم كل شيء خلقه ثم هداه لأحكام استعدادات عينه الثابتة في العلم القديم.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الخليفة الكامل في أرض ناسوت جسمه، وسما ملكوت قلبه ولاهوت جبروت روحه، والمبعوث رحمة للعالمين بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية 107]، وقوله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة» بما جاء لهم به من مقامات الدين الإسلامي الكامل؛ الإسلام والإيمان والإحسان؛ الشريعة والطريقة والحقيقة، الفقه والعقيدة والتصوف؛ الملك والملكوت والجبروت، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية 3].

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل فقال: «ما الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وبلغائه ورسوله وتؤمن بالبعث، قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربها وإذا تناول رعاة الإبل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله. ثم تلا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [الغمان: الآية 34] الآية، ثم أدبر فقال: ردوه، فلم يروا شيئاً، فقال: هذا جبريل جاء

يَعْلَمُ النَّاسَ دِينَهُمْ». وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوْرَثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَماً وَأُوْرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِظِّ وَافِرٍ». (رواه ابن حبان برقم 88).

وَمِنْ هَذَا الْعِلْمِ الَّذِي وَرَثَهُ الْعُلَمَاءُ عِلْمُ جَوَامِعِ الْكَلِمِ بِمَا فِيهِ مِنْ شَرِيعَةٍ وَطَرِيقَةٍ وَحَقِيقَةٍ، أَي مِنْ فِقْهِ وَتَرْبِيَةٍ وَيَقِينٍ مُصَدِّقاً لِقَوْلِهِ ﷺ: «أُوْتِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ»، وَقَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ».

وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ الْمَخْلُصِينَ الَّذِينَ يَصْدُقُ فِي حَقِّهِمْ هَذَا الْحَدِيثُ الْعَلَامَةُ الْعَارِفُ بِاللَّهِ تَعَالَى الشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ عَطَاءِ اللَّهِ السَّكَنْدَرِيُّ الَّذِي تَفَجَّرَ مِنْ قَلْبِهِ مَا يَقَارِبُ ثَلَاثِمِائَةَ حِكْمَةٍ فِي التَّرْبِيَةِ وَالسَّلُوكِ وَفِي التَّوْحِيدِ دَلِيلاً وَبِرْهَاناً وَشَهْرَداً وَعَيَاناً، قَالَ عَنْهَا الشَّيْخُ ابْنُ عَبَّادِ النَّفْرِيِّ فِي مَقْدَمَةِ كِتَابِهِ غَيْثُ الْمَوَاهِبِ الْعَلِيَّةِ فِي شَرْحِ الْحِكْمِ الْعَطَائِيَّةِ: «أَمَا بَعْدَ فَإِنَّا لَمَّا رَأَيْنَا كِتَابَ الْحِكْمِ الْمُنْسُوبَ إِلَى الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْمُحَقِّقِ الْعَارِفِ ابْنِ عَطَاءِ اللَّهِ السَّكَنْدَرِيِّ مِنْ أَفْضَلِ مَا صَنَفَ فِي عِلْمِ التَّوْحِيدِ وَأَجَلِ مَا اعْتَمَدَهُ بِالتَّفْهِيمِ وَالتَّحْفُظِ كُلِّ سَالِكٍ وَمُرِيدٍ، لِكَوْنِهِ صَغِيرَ الْجَرْمِ، عَظِيمَ الْعِلْمِ، ذَا عِبَارَاتٍ رَائِعَةٍ وَمَعَانٍ حَسَنَةٍ فَائِقَةٍ، قَصَدَ فِيهَا إِلَى إِضْوَاحِ طَرِيقِ الْعَارِفِينَ وَالْمُوحِدِينَ وَإِبَانَةِ مَنَاهِجِ السَّالِكِينَ وَالْمُتَجَرِّدِينَ، أَخَذْنَا فِي وَضْعِ تَنْبِيهِ يَكُونُ كَالشَّرْحِ لِبَعْضِ مَعَانِيهِ الظَّاهِرَةِ وَالْكَاشَفِ لِلْمَعْنَى بِسِيرَةٍ مِنْ أَنْوَارِهِ الْبَاهِرَةِ، لِأَنَّ كَلَامَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ مَنْطُورٌ عَلَى أَسْرَارٍ مُصَوَّنَةٍ، وَجَوَاهِرِ حِكْمٍ مَكْنُونَةٍ، لَا يَكْشِفُهَا إِلَّا هُمْ وَلَا تَتَبَيَّنُ حَقَائِقُهَا إِلَّا بِالتَّلَقِّيِ عَنْهُمْ».

وَلِأَهْمِيَّةِ هَذِهِ الْحِكْمِ اعْتَنَى بِهَا الْعُلَمَاءُ شَرْقاً وَغَرْباً مَا بَيْنَ تَالِي لَهَا وَمُدْرَسٍ وَشَارِحٍ وَنَازِمٍ وَمُتَرْجِمٍ وَمَنْ شَرَّاحَهَا⁽¹⁾ الشَّيْخُ ابْنُ عَبَّادِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ النَّفْرِيِّ الرَّفْدِيِّ الْمُتَوَفَى سَنَةَ 792 هـ، وَالشَّيْخُ أَبِي الْمَوَاهِبِ صَفِيِّ الدِّينِ بْنِ مُحَمَّدِ الشَّاذَلِيِّ الْمُتَوَفَى سَنَةَ 882 هـ، وَالشَّيْخُ زُرُوقُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ الْبُرْنُوسِيِّ الْمُتَوَفَى سَنَةَ 899 هـ، وَالشَّيْخُ الْمُنْتَقِي الْهِنْدِيُّ عَلَاءُ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ حَسَامِ الدِّينِ الْمُتَوَفَى سَنَةَ 975 هـ، وَالشَّيْخُ الْمُنَاوِيُّ مُحَمَّدُ عَبْدِ الرَّؤُوفِ الْمُتَوَفَى سَنَةَ 1031 هـ، وَالشَّيْخُ الشَّرْقَارِيُّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حِجَازِيِّ الْمُتَوَفَى سَنَةَ 1227 هـ. لِأَنَّ شَرْحَ الشَّيْخِ الْعَارِفِ بِاللَّهِ تَعَالَى أَحْمَدَ بْنَ عَجِيْبَةَ الْمَسْمُومِيَّ بِ«إِيقَاطِ الِهِمَمِ فِي شَرْحِ الْحِكْمِ» يَعْتَبَرُ مِنْ أَكْثَرِ الشَّرُوحِ نَفْعاً وَتَدَاوُلَاً بَيْنَ مَرِيدِي الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ وَكَثِيراً مَا يُوَصِّي الشُّيُوخُ تَلَامِيذَهُمْ بِقِرَاءَتِهِ. لِذَلِكَ - وَبَعْدَمَا طَبَعْنَاهُ بِحِلَّةٍ جَدِيدَةٍ تَحْقِيقاً وَتَصْحِيحاً وَضَبْطاً وَتَنْسِيقاً وَتَعْلِيقاً، خَدَمْنَا لِلرُّكْنِ الثَّلَاثِ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ الْكَامِلِ، الَّذِي هُوَ مَقَامُ الْإِحْسَانِ مَقَامَ التَّرْبِيَةِ وَالسَّلُوكِ إِلَى مَلِكِ الْمُلُوكِ وَعَلَامِ الْغُيُوبِ، مَقَامِ «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». وَانْطِلَاقاً مِنْ

(1) انظر كشفاً بيانياً عن أسماء شيوخ شارح الحكم العطائية في كتابنا «اللطفائف الإلهية في شرح مختارات من الحكم العطائية»، دار الكتب العلمية - بيروت.

خبرتنا الطويلة مع هذا الكتاب دراسة وتدريساً للطلبة والمريدين - ارتأينا بذل المزيد من الجهد في تصحيحه وتنقيحه وتنسيقه والتعليق عليه كما قمنا بتشكيل الأشعار الواردة في الكتاب وبترجمة عدد من الأعلام وبترقيم الحكم (تشكيلها) وتهذيب الشرح بحذف بعض العبارات والفقرات الصعبة أو المبهمة أو المكررة، وبإضافة عناوين فرعية تلخص ما ستحدث عنه كل حكمة إضافة لأشياء أخرى سواء من حيث الشكل أو المضمون سيلاحظها قارئ الكتاب في حلته الجديدة المَهْدَبَة .

وفي الختام لا بد من الإشارة إلى أن كتب التصوف الإسلامي تساعد المرید على الاطلاع على الأحوال والمقامات، التي يمر بها السالك إلى الله تعالى، كما يطلع على الحكم والقواعد الصوفية التي يستلهم منها كفية التحقق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الجعر: الآية 99]. كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض، لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان.

هذا ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين ومن أنوار أسرار ما تعبدنا الله به على لسان نبيه ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْرَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية 21]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: الايتان 3، 4]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: الآية 69]، لتنال السعادة الحقيقية المتمثلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿رُجُوعٌ يُّوْمَهُمْ نَاصِرَةٌ﴾ [إن رَّبَّهَا نَاطِرَةٌ] [القيامة: الايتان 22، 23].

كتبه الشيخ الدكتور

عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

ترجمة شارح الحكم

سيدي [الشيخ] أحمد بن عجيبة الحسني⁽¹⁾

(... منتصف القرن 13)

[هو] الشريف الحسيب، قطب دائرة الولاية الكبرى، ومنبع أسرار أهل الحقيقة، شيخ الطريقتين، وعمدة الفريقين، ولي الله الأكبر، وغوثه الأشهر، سيدنا ومولانا أحمد بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي.

كان رضي الله عنه من أهل التمكين، تلقى في بدايته العلوم الشرعية.

وكان رضي الله عنه يلبس الملابس الحسنة، ومال إلى طريقي التصوف، فأخذ أنوار الطريقة، وتلقى أسرار الحقيقة من أستاذه فرد هذه الطائفة سيدي محمد البوزيدي رضي الله عنه، ولقنه العهود والأوراد، والذكر، وقال له: يا أحمد، يا ولدي، شروط الطريق عندنا الصدق والمحبة. وقال رضي الله عنه: فقلت له: يا سيدي، نحب أن تكتب لنا ذلك في كاغد⁽²⁾. قال: فكتب لي بذلك، ولما خلوت بنفسي، نظرت إلى الكاغد، وقرأت ما فيها، ففتح علي في الحين، وصرت من أهل الحقائق والتمكين.

وبلغ رضي الله عنه وأرضاه مقامات العارفين بصدقه وحبّه، فخلع ما كان عليه من الثياب، لما فتحت له الأبواب، وناداه منادي الأحاب: ما هذا الحال يا ابن عجيبة؟ فأبيضت عليه الأنوار، فارتدى مرقعة وإزاراً، وعلق سبحة وقرابه⁽³⁾ في عنقه كما هو شأن الأخيار، وصار يمر في الأسواق معلقاً قرابه في عنقه، لابساً لمرقعته وسبحة، وهو يقول بأعلى صوته: الله الله، أش هادي الفريبة؟ لو كان العلم يغني عن الحال، ما يعلق القراب ابن عجيبة.

واستمر على هذا الحال حتى نال ما نال، وتكلم على أسرار أهل الكمال، فأبدى علوماً غريبة، وأسراراً عجيبة، وأجمعت على ولايته أهل المغرب بأسرها، وتبركوا بتقبيل يديه، وأقبلت الوفود عليه، وكان قدس الله سره نظره إكسيراً، إذا أتاه أو التقى

(1) هذه الترجمة مأخوذة من كتاب «طبقات الشاذلية» المسمى بـ«جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية» للشيخ أبي علي الحسن بن محمد بن قاسم الكوهن الفاسي المغربي، المثنوى سنة 1347هـ.

(2) الكاغد: ورق الكتابة، والجمع: كواغد.

(3) القراب: غمد السيف ونحوه. والجمع: قُرَب وأقربة. والقِرْبَة: ما يستقى فيه الماء.

معه من يعرفه يرقيه في ميدان «حسنيات الأبرار سيئات المقربين»⁽¹⁾ حتى كثرت على يديه الأتباع والمريدون .

ومن يطالع شرحه على «الحكم» يعرف قدره ومكانته عند ربه، وكان شرحه لهذه «الحكم العطائية» بأمر من لا تسعه مخالفته فرد الطائفة الشاذلية أستاذه وموصله بسلسلة الأنوار سيدي محمد البوزيدي، قال قدس سره: وجل هذا الشرح الذي نقيده إنما هو مواهب، لأنني أكتب الحكمة ولا أدري ما أكتب، فأقف مفتقراً إلى ما عند الله .

وله تأليف وشروح كثيرة، منها: كتاب «قواعد التشوف في حقائق التصوف»، وله تفسير للقرآن في الظاهر والباطن . قال قدس الله سره: إذا أردت أن نتكلم في التفسير أو غيره نشرع في الكلام، ثم نغيب، فكنت نحس بالكلام يخرج مني من غير اختيار، كأنه السحاب، فتصدر مني علوم وحكم، ولقد حضر معنا ذات يوم رجل كبير السن، فسمع ذلك، فقال: والله لقد حضرت مجالس العلماء والصالحين، والله ما رأيت مثل هذه الجواهر واليوافيت التي تخرج من سيدي أحمد بن عجيبة، وذلك كله ببركة صحبة أشياخنا، فجزاهم الله عنا أحسن جزائه .

ومن تفسيره عند قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ﴾ [الأحزاب: الآية 56] وأما كونها - أي الصلاة - تقوم مقام الشيخ في دخوله مقام الفناء والبقاء حتى تعتدل حقيقته وشريعته، فلا تنقطع رعونات النفس إلا بأمر وناه من غيره، يكون عالماً بدسائس النفوس وخدعها، وغاية ما توصل إليه الصلاة على رسول الله ﷺ إن لم يظفر بالشيخ الفناء في الصفات، وينال مقام الصلاح الأكبر، وتظهر له كرامات وخوارق، ويكون من أرباب الأحوال، وإن وصل إلى مقام الفناء، تكون شريعته أكبر من حقيقته، هذا ما ذقناه وسمعناه من أشياخنا، والطريق التي أدركناهم يستعملونها، وأخذنا عنهم أنهم يأمرون المرید إن راوه أهلاً للتربية أن يلتزم الاسم المفرد، ويفنى فيه حتى تنعدم عوالمه، فإذا تحقق فناؤه، وغاب عن نفسه ورسمه، ردّوه إلى مقام البقاء، وحينئذ يأمرونه بالصلاة على رسول الله ﷺ؛ لتكون صلاته عليه كاملة، يُصلي على روحه وسره بلا حجاب، ويشاهده في كل ساعة كما شاهد ربه .

أقول: ولهذا كانت الطريقة الشاذلية بدايتها نهاية غيرها، ونهايتها تحقيق، فافهم .

وتأليفه قدس الله سره، ونفعنا به عليها لوائح نفثات أهل المعرفة الكمّل، فإنه أعطي رضي الله عنه ناطقة أسرار أهل الله، وأدرك مقامات العارفين بربهم، حتى عُذَّ

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (1137) [428/1] والهروي في المصنوع [110/1].

قطبَ الزمان، وواحد الأوان.

وكلامه قدّس الله سرّه عالٍ، حلّ مشكلات القوم، وفكّ طلاسم أسرارهم، وتكلّم بما أبهر عقول الأعيان.

توفّي قدّس الله سرّه في منتصف القرن الثالث عشر، ومقامه بالمغرب مشهورٌ يُتوسّل به إلى الله في قضاء الحاجات، ودفع الكُربات، أمدّنا الله بمدده، ونفعنا به، وجعلنا على أثره. آمين.

ترجمة مؤلف الحكيم

سيدي الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري (1)

(.... 709هـ)

الأستاذ الإمام، قطبُ العارفين، وثرجمان الواصلين، مُرشد السالكين، مُنقذ الهالكين، مُظهر شمس المعارف، ومُبيدي أسرار اللطائف، الواصل إلى الله، والموصل إليه، تاج الدين ومنبع أسرار الواصلين، أبو الفضل سيدي أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله الجذامي نسباً، المالكي مذهباً، الإسكندري داراً، القَرَافي مزاراً، الصوفي حقيقةً، الشاذلي طريقةً، أعجوبةً زمانه، ونخبة عصره وأوانه، الجامع لأنواع العلوم، من تفسير، وحديث، وفقه، وتصوف، ونحو، وأصول، وغير ذلك.

كان رضي الله عنه ونفعنا بأسراره، مُنكلماً على طريق أهل التصوف واعظاً، انتفع به خلقٌ كثير وسلكوا طريقه، وقد شهد له شيخه بالتقديم قال في «لطائف المنن»: قال لي الأستاذ: الزم فوالله لئن لزمتم لتكونن مفتياً في المذهبين. يريد مذهب أهل الشريعة ومذهب أهل الحقيقة.

وقال فيه أيضاً: والله لا يموتُ هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله تعالى.

قال رحمه الله: ودخلتُ عليه ذات يوم، فلما دخلت عليه قال: لا تطالبوا الأستاذ بأن تكونوا في خاطره، بل طالبوا أنفسكم بأن يكون الأستاذ في خاطركم، فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونوا عنده.

وقد كنتُ قد حدثتُ بعض أصحابه: أريد لو نظرَ إليَّ الأستاذ بعنايته، وجعلني في خاطره، ثم قال لي: أي شيء تريد؟ والله ليكونن لك شأنٌ عظيم، والله، ليكونن لك شأنٌ عظيم، والله، ليكونن لك كذا وكذا. فكان كما أخبر.

وقال رضي الله عنه في «لطائف المنن»: جرت مُخاصمة بيني وبين أحد أصحاب سيدي أبي العباس المرسي قبل صحبتي له، وقلت لذلك الرجل: ليس إلا أهل العلم الظاهر، وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظيمة، وظاهر الشرع ياباها. قال رحمه الله:

(1) هذه الترجمة مأخوذة من كتاب «طبقات الشاذلية» المسمى به جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية للشيخ أبي علي الحسن بن محمد بن قاسم الكوهن الفاسي المغربي، المتوفى سنة 1347هـ. هذا وسيرجم له الشارح الشيخ ابن عجيبة لاحقاً.

وسبب اجتماعي به أن قلت في نفسي بعد أن جرت المخاصمة : دعني أذهب، أنظر إلى هذا الرجل فصاحب الحق له أمارات . قال : فأتيت، فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارع بها، فأذهب الله ما كان عندي . وصار رحمه الله من خواص أصحابه، ولازمه اثني عشر عاماً حتى أشرقت أنواره عليه، وصار من صدور المقربين .

وله مؤلفات رحمه الله متداولة سارت بذكرها الركبان، منها : «الحكم العطائية» وهي أفضل ما صنّف في علم التوحيد، وأجل ما اعتمده بالتفهم والتحفظ كل سالك ومريد، ذات عبارات راثقة، ومعان حسنة فائقة، قصد فيها إلى إيضاح طريق العارفين والموخدين، وإبانة مناهج السالكين والمتجردين . وله كتاب «التنوير» وكتاب «مفتاح الفلاح» في الذكر ومراتبه، وكتاب «تاج العروس» وكتاب «عنوان التوفيق» وهو شرح لقصيدة العارف بالله سيدنا أبي مدين التلمساني، وكتاب «القول المجرد في الاسم المفرد» وله غير ذلك .

توفي رحمه الله بالمدرسة المنصورية بمصر ثالث عشر جمادى الآخرة سنة 709هـ، ودُفن بسفح الجبل المقطم بزاويته التي كان يتعبد فيها، ومقامه يُزار، يعرفه الكبير والصغير، ويتوسل به إلى الله الغني والفقير . نفع الله به المسلمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يقول العبد الفقير إلى مولاه، الغني به عما سواه، أحمد بن محمد بن محمد بن عجيبة الحسيني لطف الله به وحباه:

إن أولى ما عقد عليه الجنان، ونطقت به السنة الفصححة والبيان، وخطت به أقلام البنان، حمدُ الفتاح العليم الكريم المنان.

الحمد لله الذي ملأ قلوب أوليائه بمحبته، واختص أرواحهم بشهود عظمتهم، وهباً أسرارهم لحمل أعباء معرفته، فقلوبهم في روضات جنات معرفته يُحبرون⁽¹⁾، وأرواحهم في رياض ملكوته يتنزهون، وأسرارهم في بحار جبروته يسبحون، فاستخرجت أفكارهم يواقيت العلوم، ونطقت ألسنتهم بجواهر الحكم ونتائج الفهوم. فسبحان من اصطفاهم لحضرته، واختصهم بمحبته، فهم بين سالك ومجذوب، ومحِب ومحبوب، أفناهم في محبة ذاته، وأبقاهم لشهود آثار صفاته. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد منبع العلوم والأنوار، ومعدن المعارف والأسرار، ورضي الله تعالى عن أصحابه الأبرار، وأهل أبيته الأطهار، أما بعد:

كل شيء وقبله ومعه، فعلم التصوّف من أجل العلوم قدراً، وأعظمها محلاً وفخراً، وأسناها شمساً وبدراً، وكيف لا وهو لباب الشريعة، ومنهاج الطريقة، ومنه تشرق أنوار الحقيقة. وكان أعظم ما صنّف فيه الحكم العطائية، التي هي مواهب لدنية، وأسرار ربّانية، نطقت بها أفكار قدوسية، وأسرار جبروتية.

ولقد سمعت شيخ شيخنا مولاي العربي [الدرقاوي] رضي الله عنه يقول: سمعت الفقيه البناني يقول: كادت حكم ابن عطاء الله [السكندري] أن تكون وحياً، ولو كانت الصلاة تجوز بغير القرآن لجازت بكلام الحكم، أو كما قال.

ولقد طلب مني شيخنا العارف الواصل، المحقق الكامل، سيدي محمد البوزبدي الحسيني، أن أضع عليها شرحاً متوسطاً يبيّن المعنى ويحقق المبنى، معتمداً في ذلك

(1) الحبور: السرور. ويحبرون: يُعمون ويُكرمون ويُسرون (الصحاح للجواهر).

على حول الله وقوته، وما يفتح الله به من خزائن علمه وحكمته، أو ما كان مناسباً لتلك الحكمة من كلام القوم.

فأجبت طلبته وأسعفت رغبته، رجاء أن يقع به الإمتاع ويعم به الانتفاع، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وسميته «إيقاظ الهمم في شرح الحكمة»^(*) جعله الله خالصاً لوجهه العظيم بجاء نبينا المصطفى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

(*) وهو هذا الكتاب الذي عملنا على تصحيحه وتنقيحه وتنسيقه والتعليق عليه وتهذيبه وأسميناه كما ذكرنا في التقديم (إِعَادُ الْغَمِّ عَنْ إِيقَاطِ الْهِمِّ فِي شَرْحِ الْحِكْمِ) مدللين الله تعالى أن ينفعنا بما فيه وأن يحققنا بتوحيد الشهود والعبان وما ذلك على الله بعزيز.

[مقدمتا الكتاب]

ولنقدم بين يديّ الكتاب مقدمتين :

إحدهما في حدّ التصوّف وموضوعه وواضعه واسمه واستمداده وحكم الشارع فيه وتصوّر مسائله وفضيخته ونسبته وثمرته .
والمقدمة الثانية في ترجمة الشيخ وذكر محاسنه .

[حدّ التصوف]

أما حدّه، فقال الجنيد: هو أن يملك الحق عنك ويحيبك به . وقال أيضاً: أن تكون مع الله بلا علاقة [تحول بينه وبين الإقبال بكلية على الله تعالى].
وقيل: الدخول في كل خلق سنّي، والخروج من كل خُلق ديني .
وقيل: أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء .
وقيل: استرسال النّفس مع الله على ما يريد .
وقيل: التصوّف مبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التدبير والاختيار .
وقيل: الأخذ بالحقائق [العمل بمقام الإحسان]، والإيأس مما في أيدي الخلائق [بالزهد فيها].
وقيل: صفوة القرب [من الله تعالى شهوداً وعياناً] بعد كدرة البعد [بالانحجاب عنه تعالى].

وقيل: الجلوس مع الله بلا همّ .

وقيل: هو العصمة عن رؤية الكون [من حيث كونه مستقلاً بالوجود].

والصوفي الصادق علامته: أن يفتقر بعد الغنى، ويُدلّ بعد العزّ، ويخفي بعد الشهرة .
وعلامة الصوفي الكاذب: أن يستغني بعد الفقر، ويعزّ بعد الدُّلّ، ويشتهر بعد الخفاء .
قاله أبو حمزة البغدادي . [وهذا بالنسبة للصوفي في بدايته أما في نهايته فيستوي عنده كل شيء الفقر والغنى والعز والدل والشهرة والخفاء، لأنه يكون بالله لا بنفسه].
وقال الحسين بن منصور [الحلاج]: الصوفي واحد في الذات لا يقبله أحد ولا يقبل أحداً⁽¹⁾ . [وهذا أيضاً بالنسبة للصوفي في بدايته أما في نهايته فيأنس بكل شيء ويأنس به كل شيء].

(1) قال الشيخ عبد الغني النابلسي المولود سنة 050 : هجرية والمثوني سنة 1143 هجرية :
فإن الحق مظهر بين أهلي كالغريب
وهكذا لا يستقيم أمر الصوفي بين أهله إلا بعد تفضّحه .

وقيل: الصوفي كالأرض يطرح عليه كل قبيح ولا يخرج منه إلا كل مليم، ويطؤه البر والفاجر. وقالوا: من أقبح كل قبيح صوفي شحيح.

وقال الشبلي: الصوفي منقطع عن الخلق متصل بالحق لقوله تعالى: ﴿وَأَسْطَنَّمُكَ لِلنَّفْسِ﴾ [طه: الآية 41].

وقيل: الصوفي لا تقله الأرض ولا تظله السماء، يعني لا يحصره الكون. وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: قد حُدَّ التَّصَوُّفُ وَرُسِيمٌ وَقُفِّرَ بِوَجْهِهِ تَبْلُغُ نَحْوِ الْأَلْفَيْنِ تَرْجِعُ كُلُّهَا لَصَدَقِ التَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا هِيَ وَجْهِهِ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم قال: والاختلاف في الحقيقة الواحدة إن كثرت على بعد إدراك جملتها، ثم إن هو رجع لأصل واحد يتضمن جملة ما قيل فيها كانت العبارة عنه بحسب ما فهم منه، وجملة الأقوال واقعة على تفاصيله واعتبار كل واحد على حسب مثاله، عملاً وحالاً وذوقاً، وغير ذلك. والاختلاف في التصوف من ذلك، فمن أجل ذلك ألحق الحافظ أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله بغالب أهل حليته⁽¹⁾ عند تحلية كل شخص قولاً من أقوالهم يناسب حاله قائلاً: وقيل إن التصوف كذا، فاقضى أن كل من له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوف، وأن تصوف كل أحد صدق توجهه، فافهم انتهى.

وقال أيضاً: قاعدة: صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى وبما يرضاه، ولا يصح مشروط بدون شرطه، ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: الآية 7] فلزم تحقيق الإيمان ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا بَرِّئْنَا لَكُمْ﴾ [الزمر: الآية 7] فلزم العمل بالإسلام، فلا تصوف إلا بفقده إذ لا تعرف أحكام الله تعالى الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا عمل إلا بصدق توجهه، ولا هما إلا بإيمان، إذ لا يصح واحد منهما بدون، فلزم التجمع لتلازمهما في الحكم كتلازم الأرواح للأجساد، إذ لا وجود لها إلا فيها، كما لا كمال لها، أي للأشباح، إلا بها [أي الأرواح].

ومنه قول مالك رحمه الله: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحققت.

قلت: تزندق الأول لأنه قائل بالجبر الموجب لنفي الحكمة والأحكام. وتفسق الثاني لخلو علمه عن صدق التوجه الحاجز عن معصية الله وعن الإخلاص المشروط في الأعمال. وتحقق الثالث لقيامه بالحقيقة في عين تمسكه بالحق. فاعرف ذلك إذ لا وجود لها إلا فيها كما لا كمال له إلا به، فافهم.

[موضوع التصوف]

وأما موضوعه: فهو الذات العلية لأنه يبحث عنها باعتبار معرفتها، إما بالبرهان

(1) يقصد كتابه (حلية الأولياء).

أو بالشهود والعيان، فالأول للطالبيين، والثاني للواصلين. وقيل: موضوعه النفوس والقلوب والأرواح لأنه يبحث عن تصنيفها وتهذيبها وهو قريب من الأول لأن من عرف نفسه عرف ربه.

[واضع علم التصوف]

وأما واضع هذا العلم: فهو النبي ﷺ، علّمه الله له بالوحي والإلهام، فنزل جبريل عليه السلام أولاً بالشریعة، فلما تقررت نزل ثانياً بالحقیقة، فخصّ بها بعضاً [من أصحابه] دون بعض. وأول من تكلم فيه وأظهره سيدنا علي كرم الله وجهه، وأخذه عنه الحسن البصري وأمه اسمها خيرة مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ، وأبوه مولى زيد بن ثابت، توفي الحسن سنة عشر ومائة، وأخذه عن الحسن حبيب المعجمي، وأخذه عن حبيب أبو سليمان داود الطائي [و] توفي سنة ستين ومائة، وأخذه عن داود أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي رضي الله عنه، وأخذه عن معروف الكرخي أبو الحسن سري بن مغلّس السقطي، توفي سنة إحدى وخمسين ومائة، وأخذه عن السري إمام هذه الطريقة ومظهر أعلام الحقيقة أبو القاسم محمد بن الجنيد [الزجاج البغدادي]، أصله من نهاوند، ومنشؤه العراق، تفقه على أبي ثور، وصحب الشافعي فكان يفتي على مذهب أبي ثور. ثم صحب خاله السري وأبا الحارث المحاسبي وغيرهما، وكلامه وحقايقه مدوّن في الكتب، وتوفي رضي الله عنه سنة سبع وتسعين ومائتين، وقبره ببغداد مشهور يُزار. ثم انتشر التصوف في أصحابه وهلمّ جرا ولا ينقطع حتى ينقطع الدين.

ومن رواية أخرى: أخذه عن سيدنا علي رضي الله عنه أول الأقطاب سيدنا الحسن ولده، ثم عنه أبو محمد جابر، ثم القطب سعيد الغزواني، ثم القطب فتح السعود، ثم القطب سعد، ثم القطب سعيد، ثم القطب سيدي أحمد المرواني، ثم إبراهيم البصري، ثم زين الدين القزويني، ثم القطب شمس الدين، ثم القطب تاج الدين، ثم القطب نور الدين أبو الحسن، ثم القطب فخر الدين، ثم القطب تقي الدين الفقير بالتصغير فيهما، ثم القطب سيدي عبد الرحمن المدني، ثم القطب الكبير مولاي عبد السلام بن مشيش، ثم القطب الشهير أبو الحسن الشاذلي، ثم خليفته أبو العباس المرسي، ثم العارف الكبير سيدي أحمد بن عطاء الله، ثم العارف الكبير سيدي داود البلخي، ثم العارف سيدي محمد بحر الصفا، ثم العارف ولده سيدي علي بن وفا، ثم الولي الشهير سيدي يحيى القادري، ثم الولي الشهير سيدي أحمد بن عقبة الحضرمي، ثم الولي الكبير سيدي أحمد زروق، ثم سيدي إبراهيم الفحام، ثم سيدي علي الصنهاجي المشهور بالدوار، ثم العارف الكبير سيدي عبد الرحمن المجذوب، ثم الولي الشهير سيدي يوسف الفاسي، ثم العارف سيدي عبد الرحمن الفاسي، ثم العارف سيدي محمد بن عبد الله، ثم العارف سيدي قاسم الخصاصي، ثم العارف سيدي أحمد بن عبد الله، ثم العارف سيدي العربي بن عبد الله، ثم العارف الكبير

سيدي علي بن عبد الرحمن العمراني الحسني ، ثم العارف الشهير شيخ المشايخ سيدي ومولاي العربي الدرقاوي الحسني ، ثم العارف الكامل المحقق الواصل شيخنا سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الحسني ، ثم عبد ربه وأقل عبيده أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني ثم عنه خلق كثير ، والمئة لله العلي الكبير .

[اشتقاق اسم التصوف]

وأما اسمه : فهو علم التصوف ، واختلف في اشتقاقه على أقوال كثيرة ، ومرجعها إلى خمس :

أولها : أنه من الصوفة ، لأنه مع الله كالصوفة المطروحة لا تدبير له .

الثاني : أنه من صوفة القفا⁽¹⁾ ، لئنها فالصوفي هيّن لئّن كهي .

الثالث : أنه من الصُفّة إذ جملة اتصاف بالمحامد رترك الأوصاف المذمومة .

الرابع : أنه من الصفاء ، وصُحّح هذا القول حتى قال أبو الفتح البستي رحمه الله في الصوفي :

تَخَالَفَ النَّاسُ فِي الصُّوفِيِّ وَاجْتَلَفُوا جَهْلًا وَظَنُّوا أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الصُّوفِ

وَلَسْتُ أَمْنَحُ هَذَا الْأَسْمَ إِلَّا فِتًى صَافِي فَصُوفِي حَتَّى سُمِّيَ الصُّوفِيُّ

الخامس : أنه منقول من صُفّة المسجد النبوي الذي كان منزلاً لأهل الصُفّة لأن

الصوفي تابع لهم فيما أثبت الله لهم من الوصف حيث قال : ﴿ وَأَصِيرَ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ ﴾ [الكهف: الآية 28] ، وهو الأصل الذي يرجع إليه كل قول فيه . قاله الشيخ [أحمد] زروق رحمه الله .

[استمداد التصوف]

وأما استمداده : فهو مستمد من الكتاب والسنة وإلهامات الصالحين وفتوحات العارفين ، وقد أدخلوا فيه أشياء من علم الفقه لمس الحاجة إليه في علم التصوف ، حررها حجة الإسلام محمد لغزالي في الإحياء في أربعة كتب : كتاب العبادات ، وكتاب العادات ، وكتاب المهلكات ، وكتاب المنجيات . وهو [أي الفقه] فيه [في التصوف] كمال لا شرط ، إلا ما لا بد منه في باب العبادات ، والله تعالى أعلم .

[حكم التصوف]

وأما حكم الشارع فيه : فقال الغزالي : إنه فرض عين إذا لا يخلو أحد من عيب أو مرض إلا الأنبياء عليهم السلام .

وقال الشاذلي . من لم يتغلغل في علمنا هذا [أي التصوف] مات مصرّاً على

(1) زغبات القفا : صوف الرقبة . (لسان العرب) .

الكبائر وهو لا يشعر، وحيث كان فرض عين [على كل مكلف] يجب السفر إلى من يأخذه عنه إذا عُرف بالتربية واشتهر الدواء على يده، وإن خالف والديه حسبما نص عليه غير واحد كالبلالي⁽¹⁾ والسنوسي⁽²⁾ وغيرهما.

قال الشيخ السنوسي: النفس إذا غلبت كالعدو إذا فجأ، تجب مجاهدتها والاستعانة عليها، وإن خالفت الوالدين، كما في العدو إذا برز. قاله في شرح الجزائري^(*). وما أحسن قول القائل:

أخاطر في محبتكم بروحي وأركب بحركم أمّا وإمّا⁽³⁾
 وأسلك كل فج في هواكم وأشرب كأسكم لو كان سُمّا
 ولا أصفي إلى من قد نهاني ولي أذن عن العذال صمّا
 أخاطر بالخواطير في هواكم وأترك في رضاكم أباً وأمّا

[مسائل تصور التصوف]

وأما تصور مسأله: فهي معرفة اصطلاحاته والكلمات التي تتداول بين القوم كالإخلاص، والصدق، والتوكل، والزهد، والورع، والرضى، والتسليم، والمحبة، والفناء، والبقاء، [والسكر والصحو، والقبض والبسط، والجلال والجمال، والتشبيه والتنزيه، والوحدة والكثرة، والخلوة والجلوة] وكالذات، والصفات، [والأحادية والواحدية] والقدرة، والحكمة، والروحانية، والبشرية. وكمعرفة حقيقة الحال والوارد والمقام، وغير ذلك.

وقد ذكر الشيخ [عبد الكريم] القشيري في أول رسالته جملة شافية، وقد كنت جمعت كتاباً فيه مائة حقيقة من حقائق التصوف سمّيته «معراج التشوف إلى حقائق التصوف» فليطالع من أرادَه ليستعين به على فهم كلام القوم⁽⁴⁾.

ثم قلت: بل التحقيق في مسائل هذا العلم، أنها القضايا التي يبحث عنها السالك في حال سيره ليعمل بمقتضاها ككون الإخلاص شرطاً في العمل، وكون الزهد ركناً في الطريق، وكون الخلوة والصمت مطلوبين، وأمثال هذه القضايا فهي مسائل هذا الفن، فينبغي تصوورها قبل الشروع في الخوض فيه علماً وعملاً، والله تعالى أعلم.

(1) أبو عبد الله محمد البلالي الشافعي المتوفى سنة 820 هجرية. اختصر إحياء علوم الدين لحجة الإسلام محمد الغزالي.

(2) أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي الحسيني مؤلف أم البراهين في العقيدة توفي سنة 895 هجرية.

(*) يقصد شرحه لكتاب كفاية المرید في الكلام للشيخ أحمد بن عبد الله الجزائري المتوفى سنة 899 هجرية وسماء المنهج السديد في شرح كفاية المرید.

(3) للشيخ محمد الحراق بيناً قريباً منه، هو:

وأركب بحركم طلباً لحتفي ولست بقائل أمّا وإمّا

(4) أيضاً عليه بكتاب (لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام) للشيخ عبد الرزاق القاشاني مطبوع في الدار بتحقيقتنا.

[فضل التصوف]

وأما فضيلته: فقد تقدّم أن موضوعه الذات العليّة، وهي أفضل على الإطلاق، فالعلم الذي يتعلق بها أفضل على الإطلاق، إذ هو دال بأوله على خشية الله تعالى، وبوسطه على معاملته، وبآخره على معرفته والانقطاع إليه.

ولذلك قال [الإمام أبو القاسم] الجنبند [بن محمد بن الجنيد]: لو نعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه.

وقال الشيخ الصقلي^(*) رضي الله عنه في كتابه المسمى بـ«أنوار القلوب في العلم الموهوب»: وكل من صدّق بهذا العلم فهو من الخاصة، وكل من فهمه فهو من الخاصة الخاصة، وكل من عبّر عنه وتكلّم فيه فهو النجم الذي لا يدرك والبحر الذي لا ينزف.

وقال آخر: إذا رأيت من فتح له في التصديق بهذه الطريقة فبشره، وإذا رأيت من فتح له في الفهم فاغبطه، وإذا رأيت من فتح له في النطق فيه فعظمه، وإذا رأيت منتقداً عليه ففرّ منه فرارك من الأسد واهجره. وما من علم إلا وقد يقع الاستغناء عنه في وقت ما إلا علم التصوّف فلا يستغني عنه أحد في وقت من الأوقات.

[نسبة التصوف من العلوم]

وأما نسبه من العلوم: فهو كلّها لها وشرط فيها، إذ لا علم ولا عمل إلا بصدق التوجه إلى الله تعالى. فالإخلاص شرط في الجميع، هذا باعتبار الصحة الشرعية والجزاء والثواب. وأما باعتبار الوجود الخارجي، فالعلوم توجد في الخارج بدون التصوّف لكنها ناقصة أو ساقطة، ولذلك قال السيوطي: نسبة التصوّف من العلوم كعلم البيان مع النحو - يعني هو كمال فيها ومُحَسَّنٌ لها -.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: نسبة التصوّف من الدين نسبة الروح من الجسد لأنه مقام الإحسان الذي فسره رسول الله ﷺ لجبريل: «أن تعبد الله كأنك تراه»⁽¹⁾ الحديث، إذ لا معنى له سوى ذلك، إذ مداره على مراقبة بعد مشاهدة أو مشاهدة بعد مراقبة، وإلا لم يقم له وجود ولم يظهر له موجود، فافهم انتهى. ولعله أراد بالمراقبة بعد المشاهدة الرجوع للبقاء بشهود الأثر بالله⁽²⁾.

(*) أغلب الظن أنه الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكري الصقلي المالكي الصوفي المنوفي سنة 380 هجرية من آثاره: صفة الأولياء ومراتب أحوال الأصفياء، وكرامات الأولياء والمطيعين من الصحابة والتابعين. (معجم المؤلفين [5/181]).

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب سؤال جبريل النبي ﷺ... حديث رقم (50) [27/1] وفي باب لا تشرك بالله... حديث رقم (4499) [4/1793]. ومسلم في صحيحه، في أبواب عدّة منها: باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان... حديث رقم (8) [1/36-37] ورواه غيرهما.

(2) أي الرجوع لمقام البقاء بعد مقام الفناء، فناء من لم يكن وهو توحيد الشهود والعيان مقام كان الله ولا شيء معه. أي الرجوع إلى الحسن بالله لا بنفسه ويرى الكون قائماً بالله تعالى لا بنفسه.

[فائدة التصوف]

وأما فائدته: فتهذيب القلوب ومعرفة علائم الغيوب، أو تقول: شرته سخاوة النفوس وسلامة الصدور وحسن الخلق مع كل مخلوق.

وأعلم أن هذا العلم الذي ذكرنا ليس هو اللقلقة باللسان وإنما هو أذواق ووجدان، ولا يؤخذ من الأوراق، وإنما يؤخذ من أهل الأذواق، وليس ينال بالقبيل والقال، وإنما يؤخذ من خدمة الرجال وصحبة أهل الكمال، والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح، وبالله التوفيق.

[ترجمة الماتن الشيخ ابن عطاء الله السكندري]

وأما ترجمة الشيخ: فهو الشيخ الإمام تاج الدين وترجمان العارفين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله، الجذامي نسباً، المالكي مذهباً، الإسكندري داراً، القرافي مزاراً، الصوفي حقيقة، الشاذلي طريقة، أعجوبة زمانه ونخبة عصره وأوانه، المتوفى في جمادى الآخر سنة تسع وسبعمائة، قاله الشيخ [أحمد] زروق.

وقال [إبراهيم بن فرحون المالكي المتوفى سنة 799 هـ] في الديباج المذهب [في علماء المذهب المالكي]: كان جامعاً لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه ونحو وأصول وغير ذلك. كان رحمه الله متكلماً على طريقة أهل التصوف، واعظاً انتفع به خلق كثير وسلكوا طريقه.

قلت: وقد شهد له شيخه أبو العباس المرسي بالتقديم، قال [الشيخ ابن عطاء الله السكندري] في [كتابه] لطائف المنن: قال لي الشيخ: الزم فوالله لئن لزمتم لتكونن مفتياً في المذهبين، يريد مذهب أهل الشريعة أهل العلم الظاهر، ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن. وقال فيه أيضاً: والله لا يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله. وقال فيه أيضاً: والله ليكونن لك شأن عظيم، والله ليكونن لك شأن عظيم، قال: فكان بحمد الله ما لا أنكره.

وله من التأليف خمسة: (التنوير في إسقاط التدبير)، و(لطائف المنن في مناقب شيخه أبي العباس وشيخه أبي الحسن)، و(تاج العروس) وهو مؤلف منهما، و(مفتاح الفلاح في الذكر وكيفية السلوك). وله أيضاً (القول المجرد في الاسم المفرد)، و(الحكم) الذي أردنا أن نتكلم عليه ومضمنه من علوم القوم أربعة:

الأول: علم التذكير والوعظ وقد حاز منه أوفر نصيب، وهو لمقام العوام، وتستفاد مواده من كتب [أبي الفرج] ابن الجوزي وبعض تأليف المحاسبي⁽¹⁾، وصدور

(1) ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج ولد سنة 508 هـ. توفي سنة 597. والمحاسبي: هو الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله توفي سنة 243 هـ.

كتب الإحياء والقوت وتحبير القشيري⁽¹⁾ وما جرى مجراها، والله أعلم.

الثاني: نضفية الأعمال وتصحيح الأحوال بتحلية الباطن بالأخلاق المحمودية وتطهيره من الأوصاف المذمومة، وهذا حظ المتوجهين من الصادقين والمبتدئين من السالكين، وقد حاز منها جملة صالحة ومادتها من كتب الغزالي والسهروردي ونحوهما.

الثالث: تحقيق الأحوال والمقامات وأحكام الأذواق والمنازلات، وهو نصيب المستشرفين من المريدين والمبتدئين من العارفين، وهذا النوع من أكثر ما وقع فيه، ومادته من مثل كتب الحاتمي⁽²⁾ في المعاملات والبوني⁽³⁾ في المنازلات إلى غير ذلك.

الرابع: المعارف والعلوم الإلهامية، وفيه منها ما لا يخفى، لكن كتبه ملئت بشرحها لا سيما (التنوير في إسقاط التدبير) و(لطائف المنن) اللذان هما كالشرح لجملة هذا الكتاب، وبالجملة فهو جامع لما في كتب الصوفية المطولة والمختصرة مع زيادة البيان واختصار الألفاظ، والمسلك الذي سلك فيه مسلك توحيدي لا يسع أحد إنكاره ولا الطعن فيه، ولا يدع للمعتني به صفة حميدة إلا كسأها إياها ولا صفة ذميمة إلا أزالها عنه بإذن الله.

- (1) كتاب إحياء علوم الدين لحجة الإسلام محمد الغزالي أبو حامد. وكتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي. والقشيري: هو مسلم بن حجاج الإمام الحافظ المتوفى سنة 261 هـ.
- (2) الحاتمي: هو الشيخ الأكبر محي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي المتوفى سنة 638 هـ من أشهر كتبه (الفتوحات المكية) و(فصوص الحكم).
- (3) البوني: هو الشيخ أبو العباس أحمد بن علي بن يوسف، نسبته إلى بونة بالمغرب، توفي سنة 622 هجرية. من أشهر كتبه: (شمس المعارف الكبرى) و(مواقف الغايات في أسرار الرياضات).

[الباب الأول]

[الأعمال الحسية والمعنوية]

ولمّا كان علم التصوّف إنّما هو نتائج الأعمال الصحيحة وثمرات الأحوال الصافية [مصدّقاً لقول النبي ﷺ]: «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم»⁽¹⁾ بدأ بالكلام على العمل فقال [رضي الله عنه]:

1 - (مِنْ عَلامَاتِ الاِغْتِمادِ عَلَى العَمَلِ، نُقصانُ الرّجاءِ هِنْدَ وُجودِ الرّزْلِ).

الاهتماد على الشيء: هو الاستناد عليه والركون إليه، والعمل: حركة الجسم أو القلب، فإن تحرك بما يوافق الشريعة سمي طاعة، وإن تحرك بما يخالف الشريعة سمي معصية.

[أقسام الأعمال]

والأعمال عند أهل الفن⁽²⁾ على ثلاثة أقسام: عمل الشريعة، وعمل الطريقة، وعمل الحقيقة.

أو تقول: عمل الإسلام، وعمل الإيمان، وعمل الإحسان.

أول تقول: عمل العبادة، وعمل العبودية، وعمل العبودة، أي الحرية.

أو تقول: عمل أهل البداية، وعمل أهل الوسط، وعمل أهل النهاية.

فالشريعة أن تعبده، والطريقة أن تقصده، والحقيقة أن تشهدده.

أو تقول: الشريعة لإصلاح الظواهر [متطلبات الجسم]، والطريقة لإصلاح

الضمائر [متطلبات القلب]، والحقيقة لإصلاح السرائر [متطلبات الروح].

وإصلاح الجوارح بثلاثة أمور: بالتوبة، والتقوى والاستقامة. وإصلاح القلوب

بثلاثة أمور: بالإخلاص، والصدق، والطمانينة. وإصلاح السرائر بثلاثة أمور:

بالمراقبة، والمشاهدة، والمعرفة.

أو تقول: إصلاح الظواهر باجتنباب النواهي وامتنال الأوامر، وإصلاح الضمائر

بالتخلية من الرذائل والتحلية بأنواع الفضائل، وإصلاح السرائر - وهي هنا الأرواح

(1) أورده الألويسي في روح المعاني، تفسير الغائبة، آية (1) بسم الله [6 / 1]، وأورده المجلوني في كشف

الخفاء، ضمن حديث: «من أراد أن يؤتبه الله علماً بغير تعلم وهدى...» برقم (2346) [287 / 2]

والمناوي في فيض القدير، حرف السين [4 / 388]، وأورده ابن تيمية في رسالة في التوبة، فصل: وجميع

ما يتوب العبد منه [1 / 238] وأورده السخاوي في فتح المغيب، وآداب طالب الحديث [2 / 359].

(2) الفن: يقصد علم التصوف.

بذلها وانكسارها حتى تهذب وترتاض - بالأدب والتواضع وحسن الخلق .

واعلم أن الكلام هنا إنما هو في الأعمال التي توجب تصفية الجوارح أو القلوب أو الأرواح، وهي ما تقدم تعيينها لكل قسم . وأما العلوم والمعارف فإنما هي ثمرات التصفية والتطهير، فإذا تطهرت الأسرار ملئت بالعلوم والمعارف والأنوار، ولا يصح الانتقال إلى مقام حتى يحقق ما قبله، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، فلا ينتقل إلى عمل الطريقة حتى يحقق عمل الشريعة وترتاض جوارحه معها بأن يحقق التوبة بشروطها، ويحقق التقوى بأركانها، ويحقق الاستقامة بأقسامها، وهي متابعة الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، فإذا تزكى الظاهر وتنور بالشريعة انتقل من عمل الشريعة الظاهرة إلى عمل الطريقة الباطنة وهي التصفية من أوصاف البشرية على ما يأتي، فإذا تطهر من أوصاف البشرية تحلّى بأوصاف الروحانية وهي الأدب مع الله في تجلياته التي هي مظاهره، فحينئذ ترتاح الجوارح من التعب وما بقي إلا حسن الأدب .

قال بعض المحققين : من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عن العمل، ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان لم يقدر أن يلتفت إلى العمل بسوى الله، ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله، انتهى .

ولا يعتمد المرید في سلوك هذه المقامات على نفسه ولا على عمله ولا على حوله وقوته، وإنما يعتمد على فضل ربه وتوفيقه وهدايته وتسديده، قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ [القصص: الآية 68] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام: الآية 112] ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [هود: الآية 118] .

وقال ﷺ : «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»⁽¹⁾ .

فالاعتماد على النفوس من علامة الشقاء والبؤس، والاعتماد على الأعمال من عدم التحقق بالزوال، والاعتماد على الكرامة والأحوال من عدم صحبة الرجال، والاعتماد على الله من تحقق المعرفة بالله . وعلامة الاعتماد على الله أنه لا ينقص رجاؤه إذا وقع في العصيان، ولا يزيد رجاؤه إذا صدر منه إحسان .

أو تقول: لا يعظم خوفه إذا صدرت منه غفلة كما لا يزيد رجاؤه إذا وقعت منه يقظة، قد استوى خوفه ورجاؤه على الدوام، لأن خوفه ناشيء عن شهود الجلال

(1) روى نحوه ابن حبان في صحيحه، ذكر الأمر بالتشديد في الأمور . . . حديث رقم (348) [2/60] والطبراني في المعجم الأوسط، عن أبي هريرة، حديث رقم (8004) [8/74] وروى نحوه غيرهما .

ورجاؤه ناشيء عن شهود الجمال، وجلال الحق وجماله لا يتغيران بزيادة ولا نقصان فكذا ما ينشأ عنها، بخلاف المعتمد على الأعمال إذا قل عمله قل رجاؤه، وإذا كثر عمله كثر رجاؤه لشركه مع ربه وتحققه بجهله، ولو فني عن نفسه وبقي بربه لاستراح من تعبته وتحقق بمعرفة ربه.

ولا بُدُّ من شيخ كامل يخرجك من تعب نفسك إلى راحتك بشهود ربك، فالشيخ الكامل هو الذي يُريحك من التعب لا الذي يَدُلُّك على التعب. [فإن] من ذلك على العمل فقد أتعبك، ومن ذلك على الدنيا فقد غشك، ومن ذلك على الله فقد نصحك، كما قال الشيخ [عبد السلام] بن مشيش رضي الله عنه.

والدلالة على الله هي الدلالة على نسيان النفس، فإذا نسيت نفسك ذكرت ربك، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: الآية 24] أي ما سواه. وسبب التعب هو ذكر النفس والاعتناء بشؤونها وحفظها، وأما من غاب عنها فلا يلقى إلا الراحة.

وأما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البند: الآية 4] أي في تعب، فهو خاص بأهل الحجاب. أو تقول: خاص بأحياء النفوس.

وأما من مات فقد قال تعالى فيه: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [فروح وريحان وحنث] نبيير ﴿[الوايعة: الأبتان 88، 89] أي فروح الوصال وريحان الجمال وجنة الكمال، وقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الجبر: الآية 48] أي تعب ولكن لا تدرك الراحة إلا بعد التعب ولا يحصل الظفر إلا بالطلب «حفت الجنة بالمكاره»⁽¹⁾.

أثها العاشق معنى حُسينًا	مهرنا غالي لمن يخطبنا
جسد مضمنى وروح في المعنا	وجفون لا تسدوق الوسنا
وفؤاد ليس فيه غيرنا	وإذا ما شئت أذ الثمنا
فان إن شئت فناء سمرمدًا	فالفنا يدني إلى ذاك الفنا
واخلع النملين إن جئت إلى	ذلك الحني فيه قُدُسنا
وعن الكونيين كُنْ مُنْخَلَعًا	وأزل ما بيئنا من بيئنا
وإذا قيل من تهوى قُقل	أنا من أهوى ومن أهوى أنا

تتميم أشكل على بعض الفضلاء

قوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: الآية 32] مع قوله ﷺ: «الن

(1) حديث شريف تمته: «وحفت النار بالشهوات» رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم (2822) [2174/4].

يدخل أحدكم الجنة بعمله»⁽¹⁾ الحديث، والجواب: أن الكتاب والسنة وردا بين شريعة وحقيقة، أو تقول: بين تشريع وتحقيق، فقد يُشرعان في موضع ويُحققان في آخر في ذلك الشيء بعينه، وقد يحققان في موضع ويشرعان فيه في آخر، وقد يشرع القرآن في موضع وتُحققه السنة، وقد تشرع السنة في موضع ويحققه القرآن.

فالرسول عليه الصلاة والسلام مبين لما أنزل الله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: الآية 44] فقوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَمَلُونَ﴾ [التحل: الآية 32] هذا تشريع لأهل الحكمة، وهم أهل الشريعة، وقوله ﷺ: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» هذا تحقيق لأهل القدرة وهم أهل الحقيقة، كما أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية 30] تحقيق، وقوله ﷺ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ»⁽²⁾ تشريع.

والحاصل: أن القرآن تقيده السنة والسنة يقيدها القرآن، فالواجب على الإنسان أن تكون له عينا إحداهما تنظر إلى الحقيقة والأخرى تنظر إلى الشريعة، فإذا وجد القرآن قد شرع في موضع، فلا بد أن يكون قد حقق في موضع آخر، أو تحققه السنة، وإذا وجد السنة قد شرعت في موضع فلا بد أن تكون قد حققت في موضع آخر أو حققها القرآن، ولا تعارض حيثنذ بين الآية والحديث ولا إشكال.

وهنا جواب آخر وهو: أن الله تعالى لما دعا الناس إلى التوحيد والطاعة على أنهم لا يدخلون فيه من غير طمع فوعدهم بالجزاء على العمل، فلما رسخت أقدامهم في الإسلام أخرجهم عليه السلام من ذلك الحرف ورفاههم إلى إخلاص العبودية والتحقق بمقام الإخلاص فقال لهم: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»⁽³⁾ والله تعالى أعلم، وهنا أجوبة لأهل الظاهر لا تجدي شيئا.

[أحكام التجرد والتسبب]

ولما كان الانتقال من عمل الظاهر إلى عمل الباطن لا بد أن يظهر أثره على الجوارح، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: الآية 34] الآية،

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب إذ هم العبد بحسنة...، حديث رقم (130) [1/117] وابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن الله جل وعلا قد يكتب للمرء بالحسنة...، حديث رقم (384) [2/107] برواه غيرهما ونص رواية مسلم هي: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تَكُتِبْ وَإِنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ.»

(3) هذا الحديث سبق تخريجه.

وظهور الأثر هو التجريد أشار إليه بقوله :

2 - (إِرَادَتُكَ التَّجْرِيدَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ بِتَاكَ فِي الْأَسْبَابِ مِنَ الشُّهُورِ الْخَفِيَّةِ، وَإِرَادَتُكَ الْأَسْبَابَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ بِتَاكَ فِي التَّجْرِيدِ أَنْحِطَاطَ عَنِ الْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ).

قلت : التجريد في اللغة : هو التكريط والإزالة ، تقول : جردت الثوب أزلته عني ، وتجرّد فلان أزال ثوبه ، وجردت الجلد أزلت شعره .

وأما عند الصوفية فهو على ثلاثة أقسام : تجرد الظاهر فقط ، أو الباطن فقط ، أو هما معاً .

فتجريد الظاهر : هو ترك الأسباب الدنيوية وخرق العوائد الجسمانية . والتجريد الباطني : هو ترك العلائق النفسانية والعوائق الرومية .

وتجريدتهما معاً : هو ترك العلائق الباطنية والعوائد الجسمانية .

أو تقول : تجريد الظاهر هو ترك كل ما يشغل الجوارح عن طاعة الله ، وتجريد الباطن هو ترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله ، وتجريدتهما [معاً] هو إفراغ القلب والقالب لله .

والتجريد الكامل في الظاهر هو ترك الأسباب وتعرية البدن من معتاد الثياب ، وفي الباطن هو تجريد القلب من كل وصف ذميم وتحليته بكل وصف كريم .

وأما من جرّد ظاهره دون باطنه فهو كذاب كمن كسى النحاس بالفضة ، باطنه قبيح وظاهره ملبح . ومن جرّد باطنه دون ظاهره إن تآتى ذلك فهو حسن كمن كسى الفضة بالنحاس وهو قليل ، ومن جمع بين تجريدي الظاهر والباطن فهو الصديق الكامل ، وهو الذهب المشحّر الصافي الذي يصلح لخزانة الملوك .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : آداب الفقير المتجرّد أربعة : الحرمة للأكابر ، والرحمة للأصاغر ، والإنصاف من نفسك ، وعدم الانتصار لها . وآداب الفقير المتسبّب أربعة : موالة الأبرار ، ومجانبة الفجار ، وإيقاع الصلاة في الجماعة ، ومواساة الفقراء والمساكين بما يفتح عليه . وينبغي له أيضاً أن يتأدب بآداب المتجرّدين إذ هو كمال في حقه .

ومن آداب المتسبّب : إقامته فيما أقامه الحق تعالى فيه من فعل الأسباب ، حتى يكون الحق تعالى هو الذي ينقله منها على لسان شيخه إن كان ، أو بإشارة واضحة كتعذرهما [أي الأسباب] من كل وجه ، فحينئذ ينتقل للتجريد .

فإرادته التجريد مع إقامته تعالى له في الأسباب من الشهرة الخفية ، لأن النفس قد تقصد بذلك الراحة ، ولم يكن لها من اليقين ما تحمل به مشاق الفاقة ، فإذا نزلت بها

الفاقة تزلزلت واضطربت ورجعت إلى الأسباب، فيكون أقبح لها من الإقامة فيها، فهذا وجه كونها شهوة.

وإنما كانت خفية لأنها في الظاهر أظهرت الانقطاع والتبتل، وهو مقام شريف وحال منيف، لكنها في الباطن أخفت حظها من قصد الراحة أو الكرامة أو الولاية أو غير ذلك من الحروف، ولم تقصد تحقيق العبودية وتربية اليقين. وفاتها أيضاً الأدب مع الحق حيث أرادت الخروج بنفسها ولم تصبر حتى يؤذن لها. وعلامة إقامتها فيها دوامها له مع حصول النتائج وعدم العوائق القاطعة له عن الدين، وحصول الكفاية بحيث إذا تركها حصل له التشؤف إلى الخلق والاهتمام بالرزق، فإذا انخرمت هذه الشروط انتقل إلى التجريد.

وأما المتجرّد إذا أراد الرجوع إلى الأسباب من غير إذن صريح فهو انحطاط من الهمة العلية إلى الهمة الدنية، أو سقوط من الولاية الكبرى إلى الولاية الصغرى.

قال شيخ شيوخنا سيدي علي [الجميل] رضي الله عنه: قال لي شيخي سيدي العربي [الدرقاوي]: يا ولدي لو رأيت شيئاً أعلى من التجريد وأقرب وأنفع لأخبرتكَ به، ولكن هو عند أهل هذه الطريقة بمنزلة الإكسير الذي قيراط منه يغلب ما بين الخافقين ذهباً، كذلك التجريد في هذه الطريق. انتهى.

والحاصل أن التجريد من غير إذن سبب، والسبب مع الإذن تجريد، وبالله التوفيق.

تنبيه: هذا الكلام كله مع السائرين، وأما الواصلون المتمكنون فلا كلام عليهم إذ هم رضي الله عنهم مأخوذون عن أنفسهم يقبضون من الله ويدفعون بالله، قد تولى الحق تعالى أمورهم وحفظ أسرارهم وحرس قلوبهم بجنود الأنوار فلا تؤثر فيها ظلم الأغيار، وعليه يحمل حال الصحابة في الأسباب رضي الله عنهم ونفعنا ببركاتهم آمين.

واهلّم أن المتسبب والمتجرّد عاملان لله إذ كل واحد منهما حصل له صدق التوجه إلى الله تعالى حتى قال بعضهم: مثل المتجرّد والمتسبب كعبيدين للملك قال لأحدهما: اعمل وكل، وقال للآخر: الزم أنت حضرتي وأنا أقوم لك بقسمتي. ولكن صدق التوجه في المتجرّد أقوى لقلة عوائقه وقطع علاقته كما هو معلوم.

[هَمُّ الْعِبَادِ لَا تَوْثُرُ بِأَقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى]

ولما كانت همة الفقير المتجرّد لا تخطيء في الغالب لقوله عليه السلام: «إن الله رجلاً لو أقسموا على الله لأبرهه في قسمهم»⁽¹⁾ - قال شيخنا: والله رجال إذا اهتموا بالشيء

(1) أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب برقم (8578) [409/5] ورواه ابن أبي الدنيا في الأولياء برقم (42) [22/1] ورواه غيرهما. ونصه: «يكون في أمي رجال طلس رؤوسهم دنس ثيابهم، لو أقسموا على الله لأبرهه».

كان بإذن الله . وقال أيضاً عليه السلام : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»⁽¹⁾ .

خشى الشيخ أن يتوهم أحد أن الهمة تخرق سور القدر وتفعل ما لم يجرب به القضاء والقدر فرفع ذلك بقوله :

3 - (سَوَابِقُ الْهَمِّ لَا تُخْرِقُ أَسْوَارَ الْأَقْدَارِ) .

قلت : السوابق : جمع سابقة ، وهي المتقدمة . والهمم : جمع همة ، والهمة قوة انبعاث القلب في طلب الشيء والاهتمام به ، فإن كان ذلك الأمر رفيعاً كمعرفة الله وطلب رضاه سميت همة عالية ، وإن كان أمراً خسيماً كطلب الدنيا وحفظها سميت همة دنية . وسوابق الهمم : من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أي الهمم السوابق لا تخرق أسوار الأقدار ، أي إذا اهتم العارف أو المرید بشيء وقويت همته بذلك ، فإن الله تعالى يكون ذلك بقدرته في ساعة واحدة حتى يكون أمره بأمر الله .

وكان شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول : المرید الصادق إذا كان فانياً في الاسم مهتماً بالشيء كان ، وإن كان فانياً في الذات تكون الشيء الذي يحتاجه قبل أن يهتم به . أو كلام هذا معناه ، وهو صحيح .

وفي بعض الأخبار ، يقول الله تعالى : «يا عبدي أنا الله الذي أقول للشيء كن فيكون فأطعني أجعلك تقول للشيء كن فيكون»⁽²⁾ ، وفي الحديث الصحيح أيضاً : «فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومويداً ، إن سألتني أعطيت»⁽³⁾ الحديث . ومع ذلك لا ينفصل بذلك ولا يتكون إلا ما أحاط به قدر الله وقضاه . فهمة العارف تتوجه للشيء ، فإن وجدت القضاء سبق به كان ذلك بإذن الله ، وإن وجدت سور القدر مضروباً عليه لا تخرقه بل تتأدب معه وترجع لوصفها وهي العبودية ، فلا تتأسف ولا تحزن بل ربما تفرح لرجوعها لمحلها وتحققها بوصفها .

وقد كان شيخ شيخنا سيدي علي [الجمل العمراني] رضي الله عنه يقول : نحن إذا قلنا شيئاً فخرج فرحنا مرة واحدة ، وإذا لم يخرج فرحنا عشر مرات . وذلك لتحققه بمعرفة الله .

قيل لبعضهم⁽⁴⁾ : بماذا عرفت ربك؟ قال : بنقض العزائم [وفسخ الهمم] . وقد

(1) رواه الترمذي في جامعه الصحيح ، باب : ومن سورة الحجر ، حديث رقم (3127) [298/5] والطبراني في المعجم الأوسط حديث رقم (3254) [312/3] وحديث رقم (7843) [23/8] وفي المعجم الكبير برقم (7497) [102/8] ورواه غيرهما .

(2) أورده ابن تيمية في توحيد الألوهية ، النوع الرابع [377/4] .

(3) أخرجه السيوطي في الدر المنثور [353/7] وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء ، ترجمة الحسين بن يحيى الحسن [319/8] وأخرجه غيرهما .

(4) هذا البعض هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كما في تفسير عرائس البيان للشيخ محمد بن محمد الفقيه البجلي من علماء القرن الثامن عشر الميلادي أورد ذلك عند تفسيره لسورة الأنفال الآية : 44 .

يحصل هذا التأثير للهمة القوية وإن كان صاحبها ناقصاً، كما يقع للعابن والساحر عن خبثهما أو لخاصية جعلها الله فيهما، إذا نظرا لشيء بقصد انفعال ذلك بإذن الله، وهذا كله أيضاً لا يخرق أسوار الأقدار، بل لا يكون إلا ما أراد الواحد القهار، قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية 102]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [الفجر: الآية 49]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية 30] . وقال ﷺ: «كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس»⁽¹⁾ أي النشاط للفعل .

[حكم التدبير والاختيار]

وإذا كانت الهمة لا تخرق أسوار الأقدار فما بالك بالتدبير والاختيار الذي أشار إليه بقوله :

4 - (أرْخَ نَفْسِكَ مِنَ التَّدْبِيرِ، فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ لَا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ)

قلت: التدبير في اللغة: هو النظر في الأمور وأواخرها، وفي الاصطلاح هو كما قال الشيخ [أحمد] زروق رضي الله عنه: تقدير شؤون يكون عليها في المستقبل بما يخاف أو يرجى بالجزم لا بالتفويض، فإن كان مع تفويض وهو أخروي فنية خير أو طبعي فشهرة أو دنوي فأمنية . انتهى .

[اقسام التدبير]

فاقتضى كلامه أن التدبير على ثلاثة أقسام: قسم مذموم، وقسم مطلوب، وقسم مباح .

فأما القسم المذموم: فهو الذي يصحبه الجزم والتصميم سواء كان دينياً أو دنيوياً، لما فيه من قلة الأدب وما يتمجله لنفسه من التعب، إذ ما قام به الحي القيوم عنك لا تقوم به أنت عن نفسك، وغالب ما تدبره لنفسك لا تساعد رباح الأقدار، وتعقبه الهموم والأكدار .

قال رسول الله ﷺ: «إن الله جعل الروح والراحة في الرضى واليقين»⁽²⁾ . وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: لا تختار من أمرك شيئاً واختار أن لا تختار، وفر من ذلك المختار ومن فرارك ومن كل شيء إلى الله تعالى، وربك يخلق ما يشاء ويختار .

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب كل شيء بقدر، حديث رقم (2655) [4/2045] وابن حبان في صحيحه، ذكر الأخبار بأن كل شيء بمشيئة الله جل وعلا . . . حديث رقم (6149) [14/17] .
(2) رواه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، خبثة بن عبد الرحمان، [4/121] والبيهقي في شعب الإيمان، ذكر حديث جمع القرآن، حديث رقم (208) [1/221-222] ورواه غيرهما .

فكلام هؤلاء السادات محمول على ما إذا كان [التدبير] بالنفس مع الجزم، وأما ما كان مع التفويض فليس بمذموم ما لم يطل.

وأما القسم المطلوب: فهو تدبير ما كلفت به من الواجبات وما نذبت إليه من الطاعات مع تفويض المشيئة والنظر إلى القدرة، وهذا يسمى النية الصالحة. وقد قال عليه السلام: «نية المؤمن خير من عمله»⁽¹⁾ وقال أيضاً حاكياً عن الله سبحانه: «إذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة»⁽²⁾ الحديث. وهذا مفهوم قول الشيخ: فما قام به غيرك. إذ مفهومه أن ما لم يقم به عنك، وهو الطاعة، لا يضرك تدبيره.

وأما القسم المباح فهو التدبير في أمر دنيوي أو طبيعي مع التفويض للمشئنة والنظر لما يبرز من القدرة غير معول على شيء من ذلك، وعليه يحمل قوله ﷺ: «التدبير نصف العيش»⁽³⁾ بشرط أن لا يردده المرّة بعد المرة، فالقدر المباح منه هو مروره على القلب كالريح يدخل من طاق ويخرج من أخرى، وهذا هو التدبير بالله، وهو شأن العارفين المحققين، وعلامة كونه بالله أنه إذا برز من القدرة عكس ما دبر لم ينقبض ولم يضطرب بل يكون كما قال الشاعر:

سَلَّمَ لَسَلْمَى وَسِرَّ حَيْثُ سَارَتْ وَاتَّبَعَ رِيَّاحَ الْقَضَا وَدَرَّ حَيْثُ دَارَتْ
وقال [الشيخ ابن عطاء الله السكندري] في التنوير [في إسقاط التدبير]: فائدة: اهلّم أن الأشياء إنما تدمّ وتمدح بما تؤدي إليه، فالتدبير المذموم: ما شغلك عن الله وعطلك عن القيام بخدمة الله وصدك عن معاملة الله. والتدبير المحمود: هو الذي يؤديك إلى القرب من الله ويوصلك إلى مرضاة الله.

مَا تَمَّ إِلَّا مَا أَرَادَ فَاتْرُكْ هَمْسَمَكَ وَأَنْطَرِحْ
وَاتْرُكْ شَوَاغِلَكَ الَّتِي شَغَلْتْ بِهَا تَسْتَرِحْ

[حكم الاجتهاد في المضمون وترك المطلوب]

ولما كان الانهماك في التدبير والاختيار يدل على انطماس البصيرة، وتركهما أو فعلهما بالله يدل على فتح البصيرة، ذكّر علامة أخرى أظهر وأشهر منهما على فتح البصيرة أو طمسها، فقال:

5 - (اجتهدك فيما شئت لك وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك)

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (6860) [343 / 5] والربيع الأزدي في مسنده، حديث رقم (1) [23 / 1] ورواه غيرهما.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

(3) أورده الديلمي في الفردوس، برقم (3421) [75 / 2] ورواه غيره بلفظ «الاقتضاء» في النفقة نصف المعيشة... ورواه غيرهما.

قلت: الاجتهاد في الشيء: استفراغ الجهد والطاقة في طلبه، والتقصير: هو التفريط والتضييع، والبصيرة ناظر القلب كما أن البصر: ناظر القالب، فالبصيرة لا ترى إلا المعاني والبصر لا يرى إلا المحسوسات.

أو تقول: البصيرة لا ترى إلا اللطيف والبصر لا يرى إلا الكثيف.

أو تقول: البصيرة لا ترى إلا القديم والبصر لا يرى إلا الحادث.

أو تقول: البصيرة لا ترى إلا المكون والبصر لا يرى إلا الكون، فإذا أراد الله فتح بصيرة العبد أشغله في الظاهر بخدمته وفي الباطن بمحبته، فكُلَّمَا عَظُمَتِ الْمَحَبَّةُ فِي الْبَاطِنِ وَالْخِدْمَةُ فِي الظَّاهِرِ قَوِيَ نَوْرُ الْبَصِيرَةِ حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى الْبَصْرِ فَيَغِيبُ نَوْرُ الْبَصْرِ فِي نَوْرِ الْبَصِيرَةِ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا تَرَاهُ الْبَصِيرَةُ مِنَ الْمَعَانِي اللَّطِيفَةِ وَالْأَنْوَارِ الْقَدِيمَةِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ شَيْخِ شَيْوَحْنَا [عَبْدِ الرَّحْمَنِ] الْمَجْذُوبِ:

غَيْبَتْ نَظْرِي فِي نَظْرٍ وَأَفْنَيْتُ عَنْ كُلِّ فَانِي
حَقَّقْتُ مَا وَجَدْتُ غَيْرُ وَأَمْسَيْتُ فِي الْحَالِ هَانِي

وإذا أراد الله خذلان عبده أشغله في الظاهر بخدمة الأكوان وفي الباطن بمحبتها، فلا يزال كذلك حتى ينطمس نور بصيرته، فيستولي نور بصره على نور بصيرته فلا يرى إلا الحسن ولا يخدم إلا الحسن، فيجتهد في طلب ما هو مضمون من الرزق المقسوم ويقصر فيما هو مطلوب منه من الفرض المحتوم، ولو كان بدل الاجتهاد استغراقاً وبدل التقصير تركاً لكان بدل الطمس عمى، وهو الكفر والعياذ بالله، لأن الدنيا كنهر طالوت لا ينجو منها إلا من لم يشرب أو اغترف غرفة بيده لا من شرب على قدر عطشه⁽¹⁾.

[الإلحاح في الدعاء وتأخر العطاء لا يوجب اليأس]

ولما كان الاجتهاد في المضمون كله مذموم، كان بالفعل كما تقدم، أو بالقول وهو الاستعجال في تحصيله قبل إبانته بالدعاء أو بغيره، أشار إلى ذلك بقوله:

6 - (لَا يَكُنْ تَأَخَّرُ أَمَدِ الْعَطَاءِ مَعَ الْإِلْحَاحِ فِي الدُّعَاءِ مُوجِباً لِيَأْسِكَ. فَهُوَ ضَمِينٌ لَكَ الْإِجَابَةُ فِيمَا يَخْتَارُهُ لَكَ لَا فِيمَا تَخْتَارُهُ لِنَفْسِكَ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُ، لَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُرِيدُ)

قلت: الإلحاح في الشيء: هو تكرره من وجه واحد، والدعاء: طلب مصحوب بأدب في بساط العبودية لجناب الربوبية، والموجب للشيء: ما كان أصلاً في وجوده، واليأس: قطع المطامع.

اعلم أن من أسمائه تعالى القيوم وهو مبالغته في القيام، فقد قام تعالى بأمر خلقه

(1) يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَلَّمَا فَسَلَّ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّكُم مَّبْتَلِيكُمْ فَنَهَرَ كَسْرَ سَرَبٍ وَنَهَ فَنَبَسَ بِسِيِّئِهِ فَمَنْ لَمْ يَطْمَعْهُ فَإِنَّهُ بَيْنِي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ حُرْفَةً يَدُوهُ فَنَشَرُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: 249].

من عرشه إلى فرشه، وعين لكل مظهر وقتاً محدوداً وأجلاً معلوماً، ولكل واحد شكلاً معلوماً ورزقاً مقسوماً، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فإذا تعلق قلبك بحاجة من حوائج الدنيا والآخرة، فارجع إلى وعد الله واقنع بعلم الله ولا تحرص ففي الحرص تعب ومذلة.

قال شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه: الناس تقضي حوائجهم بالحرص فيها والجري عليها، ونحن نقضي حوائجنا بالزهد فيها والاشتغال بالله عنها انتهى.

وإن كان ولا بد من الدعاء فليكن دعاؤك عبودية لا طلباً للحظ، فإن تركت الحظوظ ضُبت عليك الحظوظ، وإن غلب عليك وارد الطلب وطلبت شيئاً ثم تأخر عنك رنت العطاء فيه فلا تتهم الله في وعده حيث قال: ﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [مفهر: الآية 60].

ولا تياس من نواله ورفده، فإن الله قد ضمن لك الإجابة فيما يريد من خير الدنيا وخير الآخرة، وقد يمنحك لطفاً بك لكون ذلك المطلب لا يليق بك كما قال الشيخ أبو الحسن: اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم.

وقد قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصر: الآية 68] ما: موصولة، أي ويختار الأمر الذي لهم فيه خيرتهم، وقد يكون أجابك وعين لذلك وقتاً هو أصلح لك وأنفع، فيعطيك ذلك في الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد، وقد يؤخر لك ذلك لدار الكرامة والبقاء وهو خير لك وأبقى. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «ما من داع إلا وهو بين إحدى ثلاث: إما أن تعجل له طلبته، وإما أن يدخر له ثوابها، وإما أن يصرف عنه من سوء مثلها»⁽¹⁾ الحديث.

[وقت إنجاز الوعد الإلهي ونفوذ الموعد به]

ثم حقق لك ما تقدم من إنجاز الوعد ونفوذ الموعد ولكن على الوجه الذي يريد وفي الوقت الذي يريد، وأمرك في ذلك بالصدق والتصديق ونهاك عن الشك والترديد ليكمل بذلك فتح بصيرتك وتبتهج أنوار سريرتك فقال:

7 - (لا يُشْكِكَنَّكَ فِي الْوَعْدِ هَدْمٌ وَقَوِّعِ الْمَوْعُودِ بِهِ وَإِنْ تَمَيَّنَ زَمَنُهُ، لِئَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ قَدْحاً فِي بَصِيرَتِكَ، وَإِخْماداً لِنُورِ سَرِيرَتِكَ)

(1) روى نحوه البيهقي في شعب الإيمان، ذكر فصول الدعاء...، رقم 122 [2/ 44-45] والقرطبي في الاستذكار، باب ما جاء في الدعاء، [2/ 520] ونص رواية القرطبي هي: «ما من داع إلا كان بين إحدى ثلاث: إما أن يستجاب وإما أن يؤخر عنه وإما أن يكفر عنه».

التشكيك في الشيء: هو التردد في الوقوع وعدمه، والوعد: الإخبار بوقوع الشيء في محله، والموهود: المخبر به، والقدح في الشيء: التنقيص له والغض من مرتبته، والبصيرة: القوة المهيئة لإدراك المعاني، والسريرة: القوة المستعدة لتمكّن العلم والمعرفة.

واعلم أنّ النَّفْسَ والعقل [والقلب] والروح والسرّ شيء واحد، لكن تختلف التسامي باختلاف المدارك، فما كان من مدارك الشهوات فمدركه النَّفْسُ، وما كان من مدارك الأحكام الشرعية فمدركه العقل، وما كان من مدارك التجليات والواردات فمدركه [القلب] والروح، وما كان من مدارك التحقيقات والتمكّنات فمدركه السرّ والمحل واحد، وإخماد الشيء: خفاؤه بعد ظهوره.

قلت: إذا وعدك الحق تعالى بشيء على لسان الوحي أو الإلهام من نبي أو ولي أو نجل قوي فلا تشك أيها المرید في ذلك الوعد إن كنت صديقاً، فإن لم يتعين زمنه فالأمر واسع، وقد يطول الزمان وقد يقصر، فلا تشك في وقوعه وإن طال زمنه، وقد كان بين دعاء سيدنا موسى وهارون على فرعون بقوله: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ﴾ لئوس: الآية [88] أربعون سنة على ما قيل.

وإن تعين زمنه ولم يقع ذلك عند حلوله فلا تشك في صدق ذلك الوعد، فقد يكون ذلك مترتباً على أسباب وشروط غيبية أخفاها الله تعالى عن ذلك النبي أو الولي لتظهر قهريته وعزته وحكمته. وتأمل قضية سيدنا نوح عليه السلام حيث قال: ﴿إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هُود: الآية 43] فوقف مع ظاهر العموم فقال له تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُمْ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هُود: الآية 46] ونحن إنما وعدناك بنجاة الصالح من أهلك، وإن فهمت العموم فعلمنا متسع، ولهذا السر الخفي كان الرسل عليهم السلام وأكابر الصديقين لا يقفون مع ظاهر الوعد، فلا يزول اضطرابهم ولا يكون مع غير الله قرارهم، بل ينظرون لسعة علمه تعالى ونفوذ قهره.

وقضية نبينا ﷺ يوم بدر حيث دعا حتى سقط رداؤه وقال: «اللهم عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصاة لم تُعبد بعد اليوم»⁽¹⁾ فقال له الصديق: حسبك يا رسول الله فإن الله منجز لك ما وعدك. فنظر المصطفى أوسع لعدم وقوفه مع ظاهر الوعد، روقف الصديق مع الظاهر، فكل على صواب [حسب حاله ومقامه] والنبي ﷺ أوسع نظراً وأكمل علماً [وآتم حالاً ومقاماً] إذ منه تنبثق جميع المراتب والمقامات والأحوال.

(1) روى نحوه البخاري، باب (بل الساعة مرعدهم...)، حديث رقم (4596) [4/1846] ومسلم في صحيحه، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر...، حديث رقم (1762) [3/1383] وروى نحوه غيرهما.

وأما قضية الحديبية فلم يتعين فيها زمن الوعد لقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ [الفتح: الآية 27] وقد قال عليه السلام لعمر حين قال له: ألم تخبرنا أنا ندخل مكة؟ فقال له: «أقلت لك هذا العام؟» فقال: لا، فقال: «إنك داخلها ومطوف بها»^(*). فشد يدك يا أخي على تصديق ما وعدك الله به، وحسن ظنك به وبأوليائه ولا سيما شيخك، فإياك أن تضمير التكذيب أو الشك فيكون ذلك قدحاً في بصيرتك، وقد يكون سبباً في طمسها، ويكون أيضاً إخماداً أي إخفاءً وإطفاءً لنور سريرتك، فترجع من حيث جئت وتهدم كل ما بنيت، فانظر أحسن التأويلات والنس أحسن المخارج.

تنبيه: كان شيخنا الفقيه العلامة سيدي التاودي بن سودة يستشكل هذه الحكمة ويقول: كيف يتصور تعيين الزمان؟ إن كان بالوحي فقد انقطع، وإن كان بالإلهام فلا يلزم من الشك فيه القدح في البصيرة، إذ لا يجب الإيمان به.

قلنا: كلامنا مع المريدين الصديقين السائرين أو الواصلين، وهم مطالبون بالتصديق للأشياخ في كل ما نطقوا به إذ هم ورثة الأنبياء فهم على قدمهم، فللأنبياء وحي الأحكام وللأولياء وحي الإلهام، لأن القلوب إذا صفت من الأكدار والأغيار وملئت بالأنوار والأسرار لا يتجلى فيها إلا الحق، فإذا نطقوا بشيء من وعد أو وعيد يجب على المريد تصديقه، فإذا دخله تشكيك أو تردد فيما وعده الله على لسان نبيه أو شيخه قدح ذلك في نور بصيرته وأحمد سريره، فإذا لم يعين زمنه انتظر وقوعه وإن طال، وإن عيّن زمنه ولم يقع تأول فيه ما تقدم في حق الرسل من توقفه على أسباب وشروط خفية. وبهذا فرّقوا بين الصديق والصادق لأن الصديق لا يتردد ولا يتعجب، والصادق يتردد ثم يجزم، وإن رأى خرق عادة تعجب واستغرب، والله تعالى أعلم.

[انفتاح التعريفات الإلهية وقلة الأعمال]

ولما كانت التعريفات القهرية ظاهرها جلال وباطنها جمال لما يعقبها من أوصاف

(*) انظر قضية الحديبية في تفسير الطبري [26/107] وتفسير ابن كثير سورة الفتح، رقم (3268) [4/200 وما بعدها]. ومما كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرويا تفسر هذا العام. فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به، قال: بلى، فأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟ قال: لا، قال النبي ﷺ: «فإنك آتية ومطوف به». ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَمَلَ مِنْ ذَلِكَ فَمَثَا قَرِيبًا﴾ [الفتح:

الكمال، وربما يشك المرید فيما وعد الحق عليها من الخيرات وما رتب عليها من الفتوحات، نبه الشيخ على ذلك فقال:

8 - (إِذَا فَتَحَ لَكَ وَجْهَةً مِنَ التَّعْرِفِ فَلَا تُبَالِ مَعَهَا إِنَّ قَلَّ حَمَلُكَ، فَإِنَّهُ مَا فَتَحَهَا لَكَ إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَّعَرَّفَ إِلَيْكَ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعْرِفَ هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ، وَالْأَعْمَالَ أَنْتَ مُهْدِيهَا إِلَيْهِ، وَأَيْنَ مَا تُهْدِيهِ إِلَيْهِ مِمَّا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ)

فتح هنا بمعنى هياً ويستر، والغالب استتماله في الخير، فأشعر الإتيان به هنا أن جهة التعريف من الأمور الجميلة. والوجهة: هي الجهة، والمراد هنا الباب والمدخل. والتعريف: طلب المعرفة، تقول: تعرف لي فلان إذا طلب مني معرفته، والمعرفة: تمكن حقيقة العلم بالمعروف من القلب حتى لا يمكن الانفكاك عنه بحال، والمبالاة: التهمم بفوات الشيء.

قلت: إذا تجلّى لك الحق تعالى باسمه الجليل أو باسمه القهار، وفتح لك منها باباً ووجهة لتعرفه منها، فاعلم أن الله تعالى قد اعتنى بك وأراد أن يجتبيك لقربه ويصطفيك لحضرتة، فالتزم الأدب معه بالرضى والتسليم وقابله بالفرح والسرور، ولا تبال بما يفوتك بها معها من الأعمال البدنية، فإنما هي وسيلة للأعمال القلبية، فإنه ما فتح هذا الباب إلا وهو يريد أن يرفع بينك وبينه الحجاب، ألم تعلم أن التعريفات الجلالية هو الذي أوردتها عليك لتكون عليه وارداً، والأعمال البدنية أنت مهديها إليه لتكون إليه بها واصلاً، وفرق كبير بين ما تهديه أنت من الأعمال المدخولة والأحوال المعلولة، وبين ما يورده عليك الحق تعالى من تحف المعارف الربانية والعلوم اللدنية.

فطب نفساً أيها المرید بما ينزل عليك من هذه التعريفات الجلالية والنوازل القهرية. ومثل ذلك كالأمرض والأوجاع والشدائد والأهوال، وكل ما يشغل على النفس ويؤلمها كالفقر والذلّ وأذية الخلق وغير ذلك مما تكرهه النفوس، فكل ما ينزل بك من هذه الأمور فهي نعم كبيرة ومواهب غزيرة تدل على قوّة صدقك، إذ بقدر ما يعظم الصدق يعظم التعريف، أشدكم بلاء الأنبياء فالأمثل فالأمثل⁽¹⁾.

وما زالت الشيوخ والعارفون يفرحون بهذه النوازل ويستعدون لها في كسب المواهب، وذلك لأجل ما يجتنيه العبد منها من أعمال القلوب، التي الذرّة منها أفضل

(1) عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فإذا كان الرجل صلب الدين يتلى الرجل على قدر دينه، فمن ثخن دينه ثخن بلاؤه ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه. رواه الحاكم في المستدرک على الصحيحين، كتاب الإيمان، حديث رقم (120) [99/1] ورواه غيره.

من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، وقد قلت في ذلك بيتين وهما:
 إذا طرقت بابي من الدهر فاقه فتخث لها باب المسرة والبشر
 وقلت لها أهلاً وسهلاً ومرحباً فوكتك عندي أحظى من ليلة القدر
 راهلم أن هذه التعريفات الجلالية هي اختبار من الحق ومعيار للناس وبها تعرف
 الفضة والذهب من النحاس، فكثير من المدعين يظهرون على ألسنتهم المعرفة واليقين،
 فإذا وردت عليهم عواصف رياح الأقدار ألقتهم في مهاوي القنط والإنكار، من ادعى ما
 ليس فيه فضحته شواهد الامتحان.

وكان شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول: العجب كل العجب ممن
 يطلب معرفة الله ويحرص عليها فإذا تعرف له الحق تعالى هرب منه وأنكره.

[التعريفات الإلهية الجلالية]

وقال شيخنا البوزيدي رضي الله عنه: هذه التعريفات الجلالية على ثلاثة أقسام:
 قسم عقوبة وطرده، وقسم تأديب وتبنيه، وقسم زيادة وترقى.
 أما الذي هو عقوبة وطرده، فهو الذي يسيء الأدب ليعاقبه الحق تعالى، ويجعله
 فيها فيسخط ويقنط وينكر، فيزداد من الله طرداً وبعداً.
 وأما القسم الذي هو تأديب، فهو الذي يسيء الأدب فيؤدبه الحق تعالى، فيعرفه
 فيها، ويتب لسوء أدبه وينهض من غفلته، فهي في حقه نعمة في مظهر النعمة.
 وأما الذي هي في حقه زيادة وترقى، فهو الذي تنزل به هذه التعريفات من غير سبب،
 فيعرفه فيها ويتأدب معها ويترقى بها إلى مقام الرسوخ والتمكين. انتهى بالمعنى.
 فائدة: إذا أردت أن يسهل عليك الجلال فقابله بضده وهو الجمال، فإنه ينقلب
 جمالاً في ساعته، وكيفية ذلك أنه إذا تجلى باسمه القابض في الظاهر فقابله أنت
 بالبسط في الباطن فإنه ينقلب بسطاً، وإذا تجلى لك باسمه القوي فقابله أنت بالضعف،
 أو تجلى باسمه العزيز فقابله بالذل في الباطن، وهكذا يقابل الشيء بضده قياماً بالقدرة
 والحكمة.

وكان شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول: ما هي إلا حقيقة واحدة إن
 شربتها عسلاً وجدتها عسلاً، وإن شربتها لبناً وجدتها لبناً، وإن شربتها حنظلاً وجدتها
 حنظلاً، فاشرب يا أخي المليح ولا تشرب القبيح. انتهى.

[تنوعت الأعمال بسبب تنوع الواردات]

ولما تكلم على الأعمال وثمراتها وهو الأدب، ومرجعه إلى السكون تحت

مجاري الأقدار من غير تدبير ولا اختيار ولا تعجيل لما تأخر ولا تأخر لما تعجل، بل يكون محط نظره إلى ما يبرز من عنصر القدرة فيتلقاه بالمعرفة، تكلم على تنويعها وتهذيبها بتهذيب عاملها، فقال:

9 - (تَنَوَّعَتْ أَجْنَاسُ الْأَعْمَالِ، لِتَنَوُّعِ وَاِرِدَاتِ الْأَحْوَالِ)

تنوع الشيء تكثيره. والأعمال هنا عبارة عن حركة الجسم، والواردات والأحوال عبارة عن حركة القلب.

فالخاطر والوارد والحال محلها واحد وهو القلب، لكن ما دام القلب تخطر فيه الخواطر الظلمانية والنورانية سمي ما يخطر فيه خاطراً، وإن انقطعت عنه الخواطر الظلمانية سمي ما يخطر فيه وارداً أو حالاً، بإضافة أحدهما إلى الآخر إضافة بيانية وكلاهما يتحولان، فإن دام ذلك سمي مقاماً.

قلت: قد تنوعت أجناس الأعمال الظاهرة بتنوع الأحوال الباطنة. أو تقول: أعمال الجوارح تابعة لأحوال القلوب.

فإن ورد على القلب قبض ظهر على الجوارح أثره من السكون.

وإن ورد عليه بسط ظهر على الجوارح أثره من الخفة والحركة.

وإن ورد على القلب زهد وورع ظهر على الجوارح أثره وهو ترك وإحجام أي تأخر.

وإن ورد على القلب رغبة وحرص ظهر على الجوارح أثره وهو كد وتعيب.

وإن ورد على القلب محبة وشوق ظهر على الجوارح أثره وهو شطح ورقص.

وإن ورد على القلب معرفة وشهود ظهر على الجوارح أثره وهو راحة وركود، إلى غير ذلك من الأحوال وما ينشأ عنها من الأعمال.

وقد تختلف هذه الأحوال على قلب واحد فيتلوّن الظاهر في أعماله، وقد يغلب على قلب واحد حال واحد فيظهر عليه أثر واحد، فقد يغلب على الشخص القبض فيكون مقبوضاً في الغالب، وقد يغلب عليه البسط كذلك إلى غير ذلك من الأحوال، والله تعالى أعلم.

وفي الحديث: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»⁽¹⁾.

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (52) [28 / 1] ومسلم في صحيحه، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم (1599) [3 / 1219] ورواه غيرهما.

قلت: ولأجل هذا المعنى اختلفت أحوال الصوفية فمنهم عباد ومنهم زهاد ومنهم الورعون والمريدون والعارفون.

[الإخلاص روح الأعمال]

ولما كان الإخلاص شرطاً في كل عمل ذكره بإثره فقال:

10 - (الأعمال صورٌ قائمةٌ، وأرواحها وجودٌ سيرٌ الإخلاص فيها)

الأعمال هنا: عبارة عن الحركة الجسمانية أو القلبية، والصور: جمع صورة وهو ما يتشخص في الذهن من الكيفيات، والروح: السر المودع في الحيوانات، وهو هنا عبارة عما يقع به الكمال المعتبر في الأعمال، والإخلاص: إفراد القلب لعبادة الرب، وسره: لبه وهو الصدق المعتبر عنه بالتبري من الحول والقوة إذ لا يتم إلا به وإن صح دونه، إذ الإخلاص نفي الرياء والشرك الخفي، وسره نفي العجب، وملاحظة النفس والرياء قاذحة في صحة العمل، والعجب قاذح في كماله فقط.

قلت: الأعمال كلها أشباح وأجساد، وأرواحها وجود الإخلاص فيها. فكما لا قيام للأشباح إلا بالأرواح وإلا كانت ميتة ساقطة، كذلك لا قيام للأعمال البدنية والقلبية إلا بوجود الإخلاص فيها، وإلا كانت صوراً قائمة وأشباحاً خاوية لا عبرة بها. قال تعالى: ﴿رَمَا أَمْراً إلاً لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: الآية 5] وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: الآية 2]. وقال ﷺ حاكياً عن الله تعالى: «يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»⁽¹⁾، وقال ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي»⁽²⁾ وهو الرياء. وفي رواية: «اتقوا هذا الشرك الخفي فإنه يدب دبيب النمل، قيل: وما الشرك الخفي؟ قال: الرياء»⁽³⁾ انتهى بالمعنى لطول العهد به.

وفي حديث مسلسل إلى النبي ﷺ: أنه سئل عن الإخلاص، فقال: «حتى أسأل جبريل»، فلما سأله قال: «حتى أسأل رب العزة»، فلما سأله قال له: «هو سر من

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب من أشرك في عمله غير الله... حديث رقم (2985) [4/2289] ودرى غيره نحوه.

(2) روى نحوه البزار في مسنده، حديث رقم (2663) [7/106] والبيهقي في شعب الإيمان، الخامس والأربعون من شعب الإيمان... حديث رقم (6852) [5/237] ونصه: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي» وهو موقوف على معاذ بن جبل.

(3) هذا اللفظ لم أجده إنما ورد بلفظ: «عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء». (رواه أحمد في المسند حديث رقم (23680) [5/428] ورواه غيره).

أسراري، أودعه قلب من أحببت من عبادي، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده. ⁽¹⁾ قال بعضهم: هو مقام الإحسان [أي مقام] أن تعبد الله كأنك تراه. [فإن لم تكن تراه فإنه يراك].

والإخلاص على ثلاث درجات: درجة العوام، والخواص، وخواص الخواص. فإخلاص العوام: هو معاملة الحق مع طلب الحفظ الدنيوية والأخروية كحفظ البدن والمال وسعة الرزق والنقصور والحوار. وإخلاص الخواص: طلب الحفظ الأخروية دون الدنيوية. وإخلاص خواص الخواص: إخراج الحفظ بالكلية لعبادتهم تحقيق العبودية والقيام بوظائف الربوبية أو محبة وشوقاً إلى رؤيته، كما قال ابن الفارض:

ليس سُؤلي من الجنانِ نعيماً غيرَ أنني أحبُّها لأراك
وقال آخر:

كلُّهم يعبُدون مِن خوفِ نارٍ ويرون النجاةَ حَقّاً جزيلاً
أو بأنْ يَسْكُنُوا الجنانَ فيضحوا في رياضٍ ويشربُوا السلسبيلاً
ليس لي في الجنانِ والنارِ رأيٌ أنا لا أبتغي بحُبي بديلاً
وسمعت شيخنا يقول: ما دام العبد يراقب الناس ويهابهم لا يتحقق إخلاصه أبداً. وقال أيضاً: لا تجتمع مراقبة الحق مع مراقبة الخلق أبداً، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه. انتهى. والحاصل: لا يمكن الخروج من النفس والتخلص من دقائق الرياء من غير شيخ أبداً، والله تعالى أعلم.

[الخمول من الإخلاص]

ولما كان الخمول من مضامين الإخلاص بل لا يتحقق في الغالب إلا به، إذ لا حظ فيه للنفس ذكره بعده فقال:

11 - (اذْفِنُ وَجُودَكَ فِي أَرْضِ الْخُمُولِ، فَمَا نَبَتْ مِمَّا لَمْ يُدْفَنَ لَا يَتِمُّ نَتَاجُهُ)

الدفن: هو التغطية والستر. والخمول: سقوط المنزلة عند الناس. ونتاج الشجرة: ثمرتها، استعير هنا للحكم والمواهب والعلوم التي يجتنيها العبد من المعرفة بالله، وذلك عند موت نفسه وحياة روحه.

قلت: استر نفسك أيها المرید وادفنها في أرض الخمول حتى تستأنس به وتستحليه ويكون عندها أحلى من العسل، ويصير الظهور عندها أمر من الحنظل، فإذا

(1) أورده العيني في عمدة القاري، باب الصوم كفارة [10/261]. وكذلك ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، باب فضول الصوم [4/109]. وأورده غيرهما.

دفنتها في أرض الخمول وامتدت عروقها فيه، فحينئذ تجني ثمرتها ويتم لك نتاجها، وهو سر الإخلاص والتحقق بمقام خواص الخواص.

وأما إذا لم تدفنها في أرض الخمول وتركتها على ظهر الشهرة تجول، ماتت شجرتها أو أسقطت ثمرتها، فإذا جنى العارفون ما غرسوه من جنات معارفهم من العلوم، وما دفنوه من كنوز الحكم ومخازن الفهوم، بقيت أنت فقيراً سائلاً أو سارقاً صائلاً.

وقال رسول الله ﷺ: «رب أشعث أضر ذي طمرين تنبو عنه أهين الناس لو أقسم على الله لأبره في قسمه»⁽¹⁾. وكان عليه الصلاة والسلام جالساً مع الأقرع بن حابس، كبير بني تميم، فمر عليه رجل من فقراء المسلمين فقال عليه السلام للأقرع بن حابس: «ما نقول في هذا؟ فقال: هذا يا رسول الله من فقراء المسلمين حقيق إن خطب أن لا يزوج، وإن استأذن أن لا يؤذن له، وإن قال أن لا يُسمع له. ثم مرّ بهما رجل من المترفين فقال له عليه السلام: وما تقول في هذا؟ فقال: هذا حقيق إن خطب أن يزوج، وإن استأذن أن يؤذن له، وإن قال أن يُسمع له، فقال له ﷺ: هذا - يعني الفقير - خير من ملء الأرض من هذا»⁽²⁾. وفي مدح الخمول أحاديث كثيرة ونضائل مشهورة، ولو لم يكن فيه إلا الراحة وفراغ القلب لكان كافياً. وأنشد بعضهم، وهو الحضرمي:

عشّ حامل الذكر بين الناس وارض به فذاك أسلم للدينيا وللدين

من عاشر الناس لم تسلم ديانته ولم يزل بين تحريك وتسكين

وقال بعض الحكماء: الخمول نعمة والنفس تأباه، والظهور نقمة والنفس تهواه.

وقال آخر: طريقتنا هذه لا تصلح إلا بقوم كنت بأرواحهم المزابل.

قلت: ويجب على من ابتلي بالجاء والرياسة أن يستعمل من الخراب ما يسقط به جاهه، وإن كان مكروهاً دون الحرام المتفق عليه بقصد الدواء، كالسؤال في الحوائث أو الديار، والأكل في السوق وحيث يراه الناس، وكالترقاد فيه، وكالسقي بالقربية، وحمل الزبل على الرأس بوقائه، وكالمشي بالحفا، وإظهار الحرص والبخل والشح، وكلبس المرقعة، وتعليق السبحة الكبيرة، وكل ما يثقل على النفس من المباح أو المكروه دون الحرام.

فإن قلت: هذا الخراب الذي ذكرت فيه شهرة أيضاً، إذ الخمول هو الخفاء عن أعين الناس، وهذا فيه ظهور كبير.

(1) رواه الحاكم في المستدرک، کتاب الرقاق، حدیث رقم (7932) [4/364] وروی نحوه الطبرانی فی المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، حدیث رقم (1882) [5/254] وروی نحوه غيره.

(2) روى نحوه البخاري في صحيحه باب الأكفاء... حدیث (4803) [5/1958] ورواه البيهقي في شعب الإيمان، حدیث رقم (10481) [7/330].

قلت: الخمول هو إسقاط المنزلة عند الناس وكتمان سر لولاية، وكل ما يسقط المنزلة عندهم وينفي نعمة الولاية فهو خمول وإن كان في الحس ظهوراً، ولذلك كان شيخنا رضي الله عنه يقول: طريقتنا منها الخمول في الظهور والظهور في الخمول.

ومن ذلك قصة الغزالي رضي الله عنه من حمله جلد الثور على ظهره حين ملاقاته شيخه الخراز، وكنسه السوق واستعماله القربة ليسقي الناس.

وكذلك قصة الششتري رضي الله عنه مع شيخه ابن سبعين لأن الششتري كان وزيراً وعالماً وأبوه كان أميراً، فلما أراد الدخول في طريق القوم قال له شيخه: لا تنال منها شيئاً حتى تبيع متاعك وتلبس قشابة⁽¹⁾ وتأخذ بنديراً وتدخل السوق. ففعل جميع ذلك، فقال له: ما نقرول في السوق؟ فقال: قل بدأت بذكر الحبيب. فدخل السوق يضرب بنديره ويقول: بدأت بذكر الحبيب، فبقي ثلاثة أيام وخرقت له الحجب فجعل يغي في الأسواق بعلوم الأذواق. ومن كلامه رضي الله عنه:

سُوَيْخٌ مِنْ أَرْضِ مَكْنَسٍ فِي وَسْطِ الْأَسْوَاقِ يَفْسَنِي
أَمَّنْ عَلَيَّ مِنَ النَّاسِ وَإِنَّ عَسَى النَّاسَ مَنِّي

وكذا قصة الرجل الذي كان مع أبي يزيد البسطامي، بقي معه ثلاثين سنة فكان لا ينقطع عن مجلسه ولا يفارقه، فقال له يوماً: يا أستاذ أنا منذ ثلاثين سنة أصوم النهار وأفوم الليل، وقد تركت الشهوات ولست أجد في قلبي شيئاً من هذا الذي تذكر البتة، وأنا أؤمن بكل ما تقول وأصدقك.

فقال له أبو يزيد رضي الله عنه: لو صليت ثلاثمائة سنة وأنت على ما أراك عليه لا تجد منه ذرة، قال: فلم يا أستاذ؟ قال: لأنك محجوب بنفسك، قال: أفلهذا دواء حتى ينكشف هذا الحجاب؟ قال: نعم ولكنك لا تقبل ولا تعمل، قال: بل أقبل وأعمل ما تقول.

قال له أبو يزيد: اذهب الساعة إلى الحجام واحلق رأسك ولحيثك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك مخللة وأملأها جوزاً واجمع حولك صبياناً وقل بأعلى صوتك: يا صبيان من يصفني صفة أعطه جوزة، وادخل سوقك الذي تعظم فيه وأنت على هذه الحالة حتى ينظر إليك كل من عرفك، فقال: يا أبا يزيد سبحان الله أيقال لمثلي هذا وتحسبني أفعله.

قال له: قولك سبحان الله شرك، فقال له: وكيف؟ فقال أبو يزيد: لأنك عظمت نفسك فسبحتها.

قال: يا أبا يزيد نست أقدر على هذا ولا أفعله، ولكن دلني على غير هذا حتى أفعله.

(1) قُشِبَ الشيء: دُنُسَ والقشِب من الكلام الغري. والقشِب والقشيب الجديد والمخلِق وهو من الأضداد. وفي الحديث: أنه مرَّ وعليه قُشْبَانِيَتَانِ: أي بردتان خُلِقَانِ أو خُلِقَتَانِ وقيل جديدتان. (لسان العرب).

فقال له أبو يزيد: ابدأ بهذا قبل كل شيء حتى تسقط جاهك وتذلّ نفسك، ثم بعد ذلك أعرفك بما يصلح لك، قال: لا أطيق هذا، قال: إنك قد قلت إنك تقبل وتعمل، وأنا أعلم أن لا مطمع لعبد فيما حجب عن العامة من أسرار الغيب حتى تموت نفسه ويخرق عوائد العامة، فحينئذ تخرق له العوائد وتظهر له الفوائد انتهى.

فهذه الحكايات تدل على أن الخمول ليس هو ما يفهمه العوام من لزوم البيوت والفرار إلى الجبال، فذلك هو عين الظهور عند المحققين، وإنما الخمول هو كما قال الشيخ زروق رضي الله عنه: تحقق النفس بوصفها الأدنى وشعورها به أبدأ. ووصفها الأدنى هو الذل.

فإن قلت: في فعل هذه الأحوال التعرّض لكلام الناس وإيقاعهم في الغيبة، قلت: هذا مبني على القصد والنية، وكل من فعل شيئاً من ذلك فإنما قصده قتل نفسه وتحقيق إخلاصه ودواء قلبه، وهم مسامحون لمن قال فيهم عاذرون له.

تنبيه: هذه الأدوية التي ذكرنا إنما هي في حالة المرض، وأما من تحقق شفاؤه وكمل فناؤه فهو عبد الله سواء أظهره أو أخفاه، وفي هذا قال أبو العباس المرسي رضي الله عنه: من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، وعبد الله سواء عليه أظهره أم أخفاه انتهى.

[العزلة والفكرة]

ولما كان التخلص من دقائق الرياء ومخادع النفوس لا يكون في الغالب إلا بالفكرة ولا تتم الفكرة إلا بالعزلة ذكرها، فقال:

12 - (ما نفع القلب شيء مثل هُرْزَةٍ بِدُخْلٍ بِهَا مَبْدَانٌ فِكْرَةٌ)

النفع: إيصال الفائدة. والقلب: القوة المستعدة لقبول العلم، والعزلة: انفراد القلب بالله، وقد يراد بها الخلوة التي هي انفراد القلب عن الناس، وهو المراد هنا إذ لا يتفرد القلب في الغالب إلا إذا انفرد القلب، ومبدان بالفتح والكسر في الميم: مجال الخيل، استعير هنا للأفكار، إذ ترددها في مواقعها كتردد الخيل في مجالها، والفكرة: سير القلب إلى حضرة الرب، وهي على قسمين: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان على ما يأتي.

قلت: لا شيء أنفع للقلب من عزلة مصحوبة بفكرة، لأن العزلة كالحمية والفكرة كالدواء، فلا ينفع الدواء من غير حمية، ولا فائدة في الحمية من غير دواء، فلا خير في عزلة لا فكرة فيها، ولا نهوض لفكرة لا عزلة معها، إذ المقصود من العزلة هو تفرُّغ القلب، والمقصود من التفرُّغ هو جولان القلب واشتغال الفكرة، والمقصود من اشتغال الفكرة تحصيل العلم وتمكُّنه من القلب، وتمكن العلم بالله من القلب هو دواؤه وغاية

صحته وهو الذي سقاه الله القلب السليم، قال الله تعالى في شأن القيامة: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّرَاء: الأيتان 88، 89] أي صحيح، وقد قالوا: إن القلب كالمعدة إذا قويت عليها الأخلاط مرضت ولا ينفعها إلا الحمية، وهي قلة موادها ومنعها من كثرة الأخلاط. وفي الحديث: «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء»⁽¹⁾ وكذلك القلب إذا قويت عليه الخواطر واستحوذ عليه الحس مرض وربما مات، ولا ينفعه إلا الحمية منها والفرار من مواطنها، وهي الخلطة، فإذا اعتزل عن الناس واستعمل الفكرة نجح دراهه واستقام قلبه، وإلا بقي سقيماً حتى يلقي الله بقلب سقيم بالشك والخواطر الرديئة، نسأل الله العافية.

[فوائد الخلوة]

واعلم أن في الخلوة عشر فوائد:

الأولى: السلامة من آفات اللسان، فإن من كان وحده لا يجد معه من يتكلم، وقد قال عليه السلام: «رحم الله عبداً سكوت فسلم أو تكلم فغنم»⁽²⁾. ولا يسلم في الغالب من آفاته إلا من أثر الخلوة على الاجتماع.

الفائدة الثانية: حفظ البصر والسلامة من آفات النظر، فإن من كان معزلاً عن الناس سلم من النظر إليهم وإلى ما هم منكبون عليه من زهرة الدنيا وزخرفها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ﴾ [طه: الآية 131] فتمنع بذلك النفس من التطلع إليها والاستشراق لها ومنافسة أهلها.

الفائدة الثالثة: حفظ القلب وصونه عن الرياء والمداهنة وغيرهما من الأمراض.

قال بعض الحكماء: من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا.

وقال بعض الصوفية: قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله: كيف الطريق إلى التحقيق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق، فإن النظر إليهم ظلمة. قلت: لا بد لي؟ قال: فلا تسمع كلامهم، فإن كلامهم قسوة. قلت: لا بد لي؟ قال: فلا تعاملهم، فإن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة، قلت: أنا بين أظهرهم ولا بد لي من معاملتهم، قال: فلا تسكن إليهم، فإن السكون إليهم هلكة، قلت: هذا لعله يكون.

(1) أورده الهروي في المصنوع [304 / 1] والمعجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2320) [279 / 2] وأورده غيرهما.

(2) رواه القضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (582) [339 / 1] والبيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (4934) [241 / 4] ورواه غيرهما.

الفائدة الرابعة: حصول الزهد في الدنيا والقناعة منها، وفي ذلك شرف العبد وكماله وسبب محبته عند مولاه لقوله ﷺ: «أزهد في الدنيا يعحبك الله، وأزهد فيما لي أيدي الناس يعحبك الناس»⁽¹⁾ انتهى.

ولا شك أن من انفرد عن الناس ولم ينظر إلى ما هم فيه من الرغبة في الدنيا والانكباب عليها يسلم من متابعتهم في ذلك، ويسلم من متابعة الطباع الرديئة والأخلاق الدنيئة، وقل من يخالطهم أن يسلم مما هم فيه. وقد روي عن عيسى عليه السلام: لا تجالسوا الموتى فتموت نلوبكم. قالوا: من الموتى، يا روح الله قال: المحبون للدنيا الراغبون فيها.

الفائدة الخامسة: السلامة من صحبة الأشرار ومخالطة الأردال وفي مخالطتهم فساد عظيم وخطر جسيم ففي بعض الأخبار: مثل الجلوس السوء كمثل الكبر إذا لم يحرقك بشره علق بك من ريحه.

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود ما لي أراك متبذراً وحدانياً؟ فقال: إلهي قلت الخلق من أجلك، فقال: يا داود كن يقظان وارقد لنفسك إخواناً، وكل أخ لا يوافقك على مسرتي فلا تصحبه، فإنه لك عدو يقسي قلبك ويباعدك مني. انتهى.

الفائدة السادسة: التفرغ للعبادة والذكر والعزم على التقوى والبر، ولا شك أن العبد إذا كان وحده تفرغ لعبادة ربه، وانجمع عليها بجوارحه وقلبه لقلته من يشغله عن ذلك.

الفائدة السابعة: وجدان حلاوة الطاعات وتمكن لذيق المناجاة لفراغ سره وهذا مجرب صحيح. قال أبو طالب [المكي]: ولا يكون المرید صادقاً حتى يجد في الخلوة من الحلاوة والنشاط والقوة ما لا يجده في العلانية.

الفائدة الثامنة: راحة القلب والبدن، فإن في مخالطة الناس ما يوجب تعب القلب بالاهتمام بأمرهم، وتعب البدن بالسعي في أغراضهم وتكميل مرادهم، وإن كان في ذلك الثواب فقد يفوته ما هو أعظم وأهم، وهو جمع القلب في حضرة الرب.

الفائدة التاسعة: صيانة نفسه ودينه من التعرض للشرور والخصومات التي توجبها الخلطة، فإن للنفس تولعاً وتسارعاً للخوض في مثل هذا إذا اجتمعت بأرباب الدنيا وزاحمتهم فيها. وللشافعي رضي الله عنه:

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها وسيق إلي عذبتها وعذابها

(1) رواه الحاكم في المستدرک علی الصحیحین، کتاب الرقاق، حدیث رقم (7873) [4/348] والطبرانی فی المعجم الكبير، حدیث رقم (5972) [6/193] ورواه غیرهما.

فلسم أرها إلا غروراً وباطلاً كما لاخ في ظهر الفلاة سرائها
وما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها عشت سلماً لأهلها وإن تجذبها ناهشتك كلابها
فطوبى لنفس أوطات قعر بيتها مفلقة الأبواب مرخى حجابها

الفائدة العاشرة: التمكن من عبادة التفكير والاعتبار، وهو المقصود الأعظم من الخلوة. وفي الخبر: «تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة»⁽¹⁾. وكان عيسى عليه السلام يقول: طوبى لمن كان كلامه ذكراً وصمته تفكراً ونظره عبرة، وإن أكثس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت.

فهذه ثمرات عزلة أهل البداية. وأما أهل النهاية فعزلتهم مصحوبة معهم ولو كانوا وسط الخلق، لأنهم أقرباء رضي الله عنهم، محجوبون بالجمع عن الفرق⁽²⁾ وبالمعنى عن الحسن، استوى عندهم الخلوة والخلطة، لأنهم يأخذون النصيب من كل شيء ولا يأخذ النصيب منهم شيئاً. وفي هذا المعنى قال شيخ شيوخنا المجدوب رضي الله عنه: الخلق نور وأنا رعيت فيهم هم الحجاب الأكبر والمدخل فيهم

[عدم إشراق القلب المنطبع فيه صور الأكوان]

فإن أضاف المرید إلى العزلة الصمت والجوع والسهر، فقد كملت ولايته، وظهرت عنايته، وأشرقت عليه الأنوار، وانمحت من مرآة قلبه صور الأغيار. وقد أشار الشيخ إلى بعض ذلك متعجباً من ضده فقال:

13 - (كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبُ صُورِ الْأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةً فِي مِرْآتِهِ؟)

يشرق: بضم الياء أي يستنير ويضيء، وصور الأكوان: أشخاصها وتمثيلها الحسية والمعنوية، والأكوان: أنواع المخلوقات دقت أو جلّت، ومنطبعة: أي ثبتة وانطبع الشيء في الشيء ظهر أثره فيه، والمرآة بكسر الميم: آلة صقيلة ينطبع فيها ما يقابلها، فكلما قوي صقلها قوي ظهور ما يقابلها فيها، واستعيرت هنا للبصيرة التي هي عين القلب التي تتجلى فيها الأشياء حسنها وقبيحها.

(1) روى نحوه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب برقم (2397) [70/2] ونصه: «تفكر ساعة في اختلاف الليل والنهار خير من عبادة ثمانين سنة».

(2) الجمع شهود الحق بلا خلق وجمع الجمع شهيد الخلق قائماً بالحق ويسمى الفرق بعد الجمع ويسمى الفرق الثاني. أما الفرق الأول فهو الاحتجاب بالخلق عن الحق وبقاء الرسوم الخلقية. (اصطلاحات صوفية للشيخ عبد الرزاق القاشاني).

قلت: جعل الله قلب الإنسان كالمرآة الصقيلة ينطبع فيها كل ما يقابلها، وليس لها إلا وجهة واحدة، فإذا أراد الله عنايته بعبد شغل فكرته بأنوار ملكوته وأسرار جبروته، ولم يعلق قلبه بمحبة شيء من الأكوان الظلمانية والخيالات الوهمية، فانطبعت في مرآة قلبه أنوار الإيمان والإحسان، وأشرقت فيها أقمار التوحيد وشموس العرفان.

وإذا أراد الله تعالى خذلان عبد بعدله وحكمته، أشغل فكرته بالأكوان الظلمانية والشهوات الجسمانية، فانطبعت تلك الأكوان في مرآة قلبه، فانحجب بظلماتها الكونية وصورها الخيالية عن إشراق شمس العرفان وأنوار الإيمان، فكلما تراكمت فيها صور الأشياء انطمس نورها واشتد حجابها، فلا ترى إلا الحس، ولا تتفكر إلا في الحس.

لمنها: ما يشتد حجابها وينطمس نورها بالكلية فتنكر وجود النور من أصله، وهو مقام الكفر والعياذ بالله.

ومنها: ما يقل صداها ويرق حجابها، فتقرّ بالنور ولا تشاهده، وهو مقام عوام المسلمين، وهم متفاوتون في القرب والبعد وقوة الدليل وضعفه، كل على قدر يقينه وقلة تعلقاته الدنيوية وعوائقه الشهوانية وخیالاته الوهمية.

وفي الحديث: «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، وإن الإيمان يخلق، (أي يبلى) كما يخلق الثوب الجديد»⁽¹⁾ الحديث.

وفي حديث آخر: «لكل شيء مصقلة ومصقلة القلوب ذكر الله»⁽²⁾، وقال أيضاً ﷺ: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر صقلت، وإن هاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله ﷻ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ [المطففين: الآية 14]»⁽³⁾. أو كما قال عليه السلام.

(1) أورده العسقلاني في لسان الميزان، ترجمة النضر بن عبيد الأزدي برقم (576) [6/164] ونصه: «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وجلالها الاستغفار». وأما نصف الحديث الثاني فقد رواه الحاكم في المستدرک بلفظ: «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب الخلق فاسألوا الله أن يحدد الإيمان في قلوبكم». (كتاب الإيمان، حديث رقم (5) [1/45] والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (387) [1/114]).

(2) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع. وأورد نحوه أحمد الدهلوي في حجة الله البالغة، باب أسرار أنواع من البر [1/160] ونصه: «لكل شيء مصقلة ومصقلة القلب تلاوة القرآن» والمعنى واحد لأن تلاوة القرآن هي من أنواع الذكر.

(3) رواه الترمذي في سننه، باب ومن سورة ويل للمطففين، حديث رقم (3334) [5/434] والنسائي في سننه الكبرى، حديث رقم (11657) [6/509] ورواه غيرهما.

[القلب المكبل بالشهوات لا يرحل إلى الله تعالى]

وإذا علمت أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة إذا قابلها النور أشرقت وإذا قابلتها الظلمة أظلمت، ولا تجتمع الظلمة والنور أبداً، علمت وجه تعجب الشيخ بقوله:

13 - (كَيْفَ بُشِرْتُ قَلْبٌ) بنور الإيمان والإحسان و (صُورُ الْأَكْوَانِ) الظلمانية (مُنْطَبِعَةٌ فِي مِرَاةِ قَلْبِهِ)

فالضدان لا يجتمعان، قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ﴾ [الأحراب: الآية 4] فما لك أيها الفقير إلا قلب واحد، إذا أقبلت على الخلق أدبرت عن الحق، وإذا أقبلت على الحق أدبرت عن الخلق، فترحل من عالم الملك إلى الملكوت، ومن الملكوت إلى الجبروت، وما دمت مقيداً في هذا العالم بشهواتك وعوائدك فلا يمكنك الرحيل إلى ربك، وإلى ذلك أشار بقوله:

13 - (أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُكْبَلٌ بِشَهَوَاتِهِ؟)

الرحيل: هو النهوض والانتقال من وطن إلى وطن، وهو هنا من نظر الكون إلى شهود المكون، أو من الملك إلى الملكوت، أو من الوقوف مع الأسباب إلى رؤية مسبب الأسباب، أو من وطن الغفلة إلى اليقظة، أو من حظوظ النفس إلى حقوق الله، أو من عالم الأقدار إلى عالم الصفا، أو من رؤية الحس إلى شهود المعنى، أو من الجهل إلى المعرفة، أو من علم اليقين إلى عين اليقين، أو من عين اليقين إلى حق اليقين، أو من المراقبة إلى المشاهدة، أو من مقام السائرين إلى وطن [الواصلين] المتمكنين، والمكبل: هو المقيد. والمراد بالشهوات: كل ما تشتهي النفس وتميل إليه.

قلت: الرحيل مع التكبيل لا يجتمعان، فما دام القلب محبوساً بالميل إلى شيء من هذا العرض الفاني ولو كان مباحاً في الشرع فهو مقيد به ومكبل في وطنه، فلا يرحل إلى الملكوت ولا تشرق عليه أنوار الجبروت، فتعلق القلب بالشهوات مانع له من النهوض إلى الله لاشتغاله بالالتفات إليها، وعلى تقدير النهوض معها تكون مشبطة له عن الإسراع بالميل إليها، وعلى تقدير الإسراع فلا يأمن العثار معها لأنس النفس بها، ولذلك ترك الأكابر لذتها حتى قال بعضهم: لدغ الزنابير على الأجسام المُفَرَّحة أيسر من لدغ الشهوات على القلوب المتوجهة. انتهى.

[تطهير القلب شرط دخول حضرة الحق تعالى]

وإذا رحل القلب من وطن شهواته، وتطهر من لوث غفلاته، وصل إلى حضرة ربه، وتنعم بشهود قربه، ولذلك أشار بقوله:

13 - (أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللَّهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلَاتِهِ؟)

الحضرة: هي حضور القلب مع الرب، وهي على ثلاثة أقسام: حضرة القلوب، وحضرة الأرواح، وحضرة الأسرار. فحضرة القلوب للساثرين، وحضرة الأرواح للمستشرفين، وحضرة الأسرار [للواصلين] المتمكنين. أو تقول: حضرة القلوب لأهل المراقبة، وحضرة الأرواح لأهل المشاهدة، وحضرة الأسرار لأهل المكالمة. وسر ذلك أن الروح ما دامت تتقلب بين الغفلة والحضرة كانت في حضرة القلوب، فإذا استراحت بالوصال سميت روحاً وكانت في حضرة الأرواح، وإذا تمكنت وتصفت وصارت سرّاً من أسرار الله سميت سرّاً وكانت في حضرة الأسرار، والله تعالى أعلم.

قلت: الحضرة: مقدّسة منزّهة مرفعة لا يدخلها إلا المطهرون، فحرام على القلب الجنب أن يدخل مسجد الحضرة. وجنابة القلب: غفلته عن ربه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء: الآية 43] أي لا تقربوا صلاة الحضرة وأنتم سكارى بحب الدنيا وشهود السوى حتى تتيقظوا وتتدبروا ما تقولون في حضرة الملك، ولا جنباً من جماع الغفلة وشهود السوى حتى تتطهروا بماء الغيب الذي أشار إليه [الشيخ الأكبر ابن عربي] الحاتمي رضي الله عنه كما في الطبقات الشعرانية [للشيخ عبد الوهاب الشعراني] في ترجمة أبي المواهب [الشاذلي] بقوله:

توضاً بماء الغيب إن كنت ذا سرٍ وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر
وقدم إماماً كنت أنت إمامه وصل صلاة الظهر في أول العصر
فهذي صلاة العارفين بربهم فإن كنت منهم فانضح البّر بالبحر

يعني تطهر من شهود نفسك بماء الغيبة عنها بشهود ربك، أو تطهر من شهود الحس بشهود المعنى، أو تطهر من شهود عالم الشهادة بماء شهود عالم الغيب، أو تطهر من شهود السوى بماء العلم بالله فإنه يغيب عنك كل ما سواه، وإذا تطهرت من شهود السوى تطهرت من العيوب كلها، وإلى ذلك أشار الششتري رضي الله عنه بقوله:

طهر العين بالمدمع سكباً من شهود السوى نزل كل علة

وهذا الماء الذي هو ماء الغيب هو النازل من صفاء بحار الجبروت إلى حياض رياض الملكوت، فتفرقه سحاب الرحمة وتشيره رياح الهداية فتسوقه إلى أرض النفوس الطيبة، فتملا منه أودية القلوب المنورة وخلجان الأرواح المطهرة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّبِيلُ زَبَدًا زَبِيًّا﴾ [الرعد: الآية 17] الآية. شبه الحق تعالى العلم النافع بالمطر النازل من السماء، فكما أن المطر تعمر منه الأودية والغدران ونجري منه العيون والأنهار كل على قدر سعته وكبره، كذلك العلم النافع نزل من سماء عالم الغيب إلى أرض عالم الشهادة فسالت به أودية القلوب، كل على قدر طاقته وحسب استعداده.

وكما أن المطر يطهر الأرض من الأوساخ وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَأَحْتَلَّ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ [الرعد: الآية 17] أي مرتفعاً على وجه الماء، كذلك العلم النافع يطهر النفوس من الأدناس، والقلوب من الأغيار، والأرواح من الأكدار، والأسرار من لوث الأنوار.

وهذا الماء هو الذي أشار إليه بقوله: توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سر، أي كنت صاحب سر، والشهود شهود الوحدة ونفي الكثرة.

ومن لم يتحقق بهذا فلا يمكنه التطهير بماء الغيب بالكلية لففده ذلك الماء أو لعدم قدرته عليه، فينتقل للتيمم الذي هو رخصة للضعفاء وطهارة للمرضى، وإلى ذلك أشار بقوله: وإلا تيمم بالصعيد أو بالصخر، أي وإن لم تقدر على الطهارة الأصلية، وهي الغيبة عن السوى لمرض قلبك مع عدم صدقك، فانتقل للطهارة الفرعية التي هي العبادة الظاهرية.

أو تقول: وإن لم تقدر على الطهارة الحقيقية التي هي الطهارة الباطنية، فانتقل للطهارة المجازية التي هي الطهارة الظاهرية.

أو تقول: وإن لم تقدر على طهارة المقرّبين، فانتقل لطهارة أهل اليمين.

أو تقول: وإن لم تقدر على طهارة أهل المحبة، فانتقل لطهارة أهل الخدمة.

قوم أقامهم الله لخدمته وقوم اختصهم بمحبته ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِنْ عَظَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَظَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: الآية 20].

فطهارة أهل المحبة الفكرة والنظرة، وطهارة أهل الخدمة بالمجاهدة والمكابدة بين عبادة ظاهرة كصلاة وصيام وذكر وتلاوة وتعليم وغير ذلك، وبين عبادة خفية كخوف ورجاء وزهد وصبر وورع ورضى وتسليم ورحمة وشفقة، وغير ذلك مما لا يظهر للعيان، وهذا هو تصوف أهل الظاهر.

وأما تصوف أهل الباطن فهو الغيبة عن الأكوان بشهود المكوّن، أو الغيبة عن الخلق بشهود المملك الحق، وهو الذي عبر عنه الناظم بماء الغيب، فكل من لم يدرك تصوف أهل الباطن فهو من أهل التيمم.

فإن كان مشغولاً بالعمل الظاهر كالصلاة والصيام ونحوهما، فهو كالتيمم بالصعيد لظهورها كظهور أثر التراب على الجوارح.

وإن كان مشغولاً بالعبادة الخفية كالزهد والورع ونحوهما، فهو كالتيمم بالصخر لعدم ظهورها في الغالب كعدم ظهور أثر الصخر.

ولما أمرك بالغيبة عن السوى خاف عليك إنكار الواسطة وإسقاط الحكمة فتقع في الزندقة، فقال: وقدم إماماً كنت أنت إمامه، والمراد بالإمام هو النبي ﷺ ومن كان على قدمه ممن جمع بين الحقيقة والشريعة، فأمرك باتباع الشريعة المحمدية في حال غيبتك

عن السوى، فيكون ظاهره سلوكاً وباطنك جذباً، ظاهره مع الحكمة وباطنك مع القدرة، ولا بد أن تقتدي بإمام كامل سلك الطريقة على يد شيخ كامل، يعلمك كيفية العمل بالشرعية، ويدلك على الحقيقة، وإلاً بقيت مريضاً على الدوام، تستعمل طهارة المرضى على الدوام.

وانظر قول القرافي رضي الله عنه لما سقط على شيخ التربية قال: تيممت بالصعيد زماناً والآن سقطت على الماء، إذ لا تجد ماء الغيب ولا تقدر على استعماله إلا بصحبة أهل هذا الماء، الذين شربوه وسكروا به ثم صحوا من سكرتهم وسلخوا من جذبتهم، فتملكهم زمام أمرك وتنقاد إليهم بكليتك، بعد أن أطلعك الله على خصوصيتهم، وكشف لك عن أسرارهم، فشهدت لهم روحك بالتقديم، وسرك بالتعظيم، فتقدمهم أمامك بعد أن كنت أنت أمامهم وهم يطلبونك للحضرة، وكذلك النبي ﷺ كان يدعو الناس إلى الله وهم فارّون أمامه، فلما عرفوا الحق قدموه أمامهم، وهذا معنى قوله: كنت أنت إمامه.

وقوله: وصل صلاة الفجر في أول العصر، وفي بعض النسخ: وصل صلاة الظهر في أول العصر، أي اجمع ظهر الشريعة لعصر الحقيقة. وفي أكثر النسخ: وصل صلاة الفجر في أول العصر، أي: ارجع إلى البقاء بعد كمال الفناء، أو إلى السلوك بعد الجذب، إذ الغالب على المرید أن يتقدمه السلوك ثم يأتيه الجذب، فأوله سلوك وآخره جذب، كما أن أول النهار صلاة الفجر وآخره صلاة العصر، أي ارجع إلى صلاة الفجر التي كانت في أول نهارك، فصلها في آخر نهارك، فارجع إلى السلوك الذي كان في أول أمرك، فاجعله في آخر أمرك، وهو معنى قولهم: منتهى الكمال مبدأ الشرائع. وقالوا أيضاً: نهاية السالكين بداية المجذوبين، ونهاية المجذوبين بداية السالكين. وقالوا أيضاً: علامة النهاية الرجوع إلى البداية، وسيأتي الكلام على هذا في محله إن شاء الله.

وقوله: فهدي صلاة العارفين بربهم، لأنهم تطهروا الطهارة الأصلية وصلوا الصلاة الدائمة، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المآرج: الآية 23]، فالعوام حد صلاتهم أوقاتهم، والعارفون في الصلاة على الدوام. قيل لبعضهم: هل للقلوب صلاة؟ فقال: نعم، إذا سجد لا يرفع رأسه أبداً، أي إذا سجدت الروح لهيبة الجلال والجمال لا ترفع رأسها أبداً، وإليه أشار الششتري بقوله:

فاسجد لهيبة ذي الجلال عند التداني ولتقرأ آيات الكمال سبعاً مثاني

وقوله: فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر، أي فإن كنت من العارفين المحققين فانضح بر شريعتك ببحر حقيقتك، بحيث ترش على شريعتك من بحر حقيقتك حتى تغمرها وتغطيها، فتصير الشريعة عين الحقيقة والحقيقة عين الشريعة، حتى يصير عملك كله بالله، والله تعالى أعلم، وبالله التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

[التوبة من الهفوات شرط فهم دقائق الأسرار]

وإذا دخل القلب حضرة القدس ومحل الأنس فهيم دقائق الأسرار ومليء بالمواهب والأنوار وإلى ذلك أشار بقوله:

13 - (أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ الْأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَوَاتِهِ؟)

الرجاء: تمنى الشيء مع السعي في أسبابه وإلا فهو أمنية، والفهم: حصول العلم بالمطلوب، ودقائق الأسرار: غوامض التوحيد، والتوبة: الرجوع عن كل وصف ذميم إلى كل وصف حميد، وهذه توبة الخواص، والهفوات: جمع هفوة وهي الزلّة والسقطة.

قلت: فهم دقائق الأسرار لا يكون أبداً مع وجود الإصرار⁽¹⁾. أو تقول: فهم غوامض التوحيد لا يكون إلا بقلب فريد، فمن لم يتب من هفواته ويتحرر من رق شهواته، فلا يطمع في فهم غوامض التوحيد، ولا يذوق أسرار أهل التفريد⁽²⁾.

قال أحمد بن أبي الحواري: وسمعت شيخي أبا سليمان الداراني رضي الله عنه يقول: إذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالت في الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علماً.

قال أحمد بن حنبل: ما سمعت في الإسلام بحكاية أعجب إليّ من هذه: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

فإذا انفرد القلب بالله وتخلص مما سواه فهم دقائق التوحيد وغوامضه التي لا يمكن التعبير عنها، وإنما هي رموز وإشارات لا يفهمها إلا أهلها ولا تفسى إلا لهم وقليل ما هم، ومن أفسى شيئاً من أسرارها مع غير أهلها فقد أباح دمه وتعرض لقتل نفسه كما قال أبو مدين رضي الله عنه:

وفي السِّرِّ أسرارٌ دقائقٌ لطيفةٌ تراق دماناً جهرَةً لو بها بُحناً

[تجلي الحق أزال ظلمة الكون]

وهذه الأسرار هي أسرار الذات وأنوار الصفات، التي تجلى الحق بها في مظهر الأكوان، وإلى ذلك أشار بقوله:

14 - (الْكُونُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُورُ الْحَقِّ فِيهِ)

الكون: ما كوّنته القدرة وأظهرته للعيان، والظلمة: ضد النور، وهي عدمية، والنور وجودي، وأناره: أي صيره نوراً، وظهور الحق: تجليه.

(1) الإصرار: العزم على شيء لا يُهْمُ بالفلوع عنه.

(2) التفريد: هو شهود الحق ولا شيء معه يشهد، منفرداً، وذلك لفناء الشاهد في المشهود. (انظر لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام للشيخ عبد الرزاق القاشاني بتحقيقنا).

قلت: الكون من حيث كونيته وظهور حته كله ظلمة، لأنه حجاب لمن وقف مع ظاهره عن شهود ربه، ولأنه سحاب يغطي شمس المعاني لمن وقف مع ظاهره حسن الأواني، وإليه أشار الششتري بقوله:

لا تنظر إلى الأواني وخض بحر المماني
لعملك أن تراني على أيدي الصرفية

فصار الكون بهذا الاعتبار كله ظلمة، وإنما أناره تجلي الحق به وظهوره فيه، فمن نظر إلى ظاهر حسه رآه حساً ظلمانياً، ومن نفذ إلى باطنه رآه نوراً ملكوتياً، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [التور: الآية 35] فتحصل أن قول الشيخ: الكون كله ظلمة، إنما هو في حق أهل الحجاب لانطباع ظاهر صور الأكوان في مرآة قلوبهم، وأما أهل العرفان فقد نفذت بصيرتهم إلى شهود الحق، فرأوا الكون نوراً فائضاً من بحر الجبروت، فصار الكون عندهم كله نوراً، قال الله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: الآية 101] أي من نور ملكوته وأسرار جبروته، أو من أسرار المعاني القائمة بالأواني.

وهذه المعاني إنما هي أذواق لا تدرك بالمقل ولا بنقل الأوراق وإنما تدرك بصحبة أهل الأذواق فسلم ولا تنتقد.

إن لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

[أقسام الناس في شهود تجليات الحق تعالى]

ثم قسم الناس في شهود الحق على ثلاثة أقسام: عموم وخصوص وخصوص
الخصوص، فقال:

14 - (فَمَنْ رَأَى الْكَوْنَ وَلَمْ يَشْهَدْ فِيهِ أَوْ حِنْدَهُ أَوْ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ فَقَدْ أَهْوَزَهُ وَجُودُ
الْأَنْوَارِ وَحُجِبَتْ عَنْهُ شُمُوسُ الْمَعَارِفِ بِسُحُبِ الْآثَارِ)

فأهل مقام البقاء يشهدون الحق بمجرد وقوع بصرهم على الكون، فهم يشبتون الأثر بالله ولا يشهدون سواه، [لأنهم لكمالهم يشبتون الواسطة والموسوط، فهم يشهدون الحق بمجرد شهود الواسطة أو عندها بلا تقديم ولا تأخير ولا ظرفية ولا مظروف.

مذ عرفت الإله لم أر غيراً وكذا الغير عندنا ممنوع
وقال بعضهم: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه، فأهل السير من المريدين يشهدون الكون ثم يشهدون المكوّن عنده وبإثره، فيمتحق الكون من نظرهم بمجرد نظرهم إليه، وهذا حال المستشرقين.

وأهل مقام الفناء يشهدون الحق قبل شهود الخلق بمعنى أنهم لا يرون الخلق

أصلاً، إذ لا ثبوت له عندهم لأنهم لسكرتهم غائبون عن الوساطة فانون عن الحكمة، غرقى في بحر الأنوار، مطمرس عليهم الآثار، وفي هذا المقام قال بعضهم: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله.

وأهل الحجاب من أهل الدليل والبرهان إنما يشهدون الكون ولا يشهدون المكون لا قبله ولا بعده، إنما يستدلون على وجوده تعالى بوجود الكون، وهذا لعامة المسلمين من أهل اليمين، قد أعوزهم، أي فاتهم وجود الأنوار ومنعوا منها، وحجبت عنهم شمس المعارف بسحب الآثار بعد طلوعها وإشراق نورها، لكن لا بد للشمس من سحاب وللحسنة من نقاب، والله در القائل:

وما احتجبت إلا برفع حجابها ومن عجب أن الظهور تستر
وقال آخر:

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد إلا على أكمه لا يبصر القمر
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا وكيف يعرف من بالعزة استترا

[شدة ظهور الحق تعالى حجبته عن خلقه]

ثم احتجابه تعالى في حال ظهوره مما يدل على وجود قهره كما أشار إليه بقوله:

15 - (مِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى وُجُودِ قَهْرِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ حَجَبَكَ عَنْهُ بِمَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ مَعَهُ)

قلت: من أسمائه تعالى القهار، ومن مظاهر قهره احتجابه في ظهوره، وظهوره في بطونه، وبطونه في ظهوره.

ومما يدل على وجود قهره تعالى أن احتجب بلا حجاب وقرب بلا اقتراب، بعيد في قربه قريب في بعده، احتجب عن خلقه في حال ظهوره لهم، وظهر لهم في حال احتجابه عنهم، فاحتجب عنهم بشيء ليس بموجود وهو الوهم، والوهم أمر عديم مفقود، فما حجبته إلا شدة ظهوره، وما منع الأبصار من رؤيته إلا قهارية نوره.

فحصّل انفراد الحق بالوجود وليس مع الله موجود، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصر: الآية 88] واسم الفاعل حقيقة في الحال، وقال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية 3]، وقال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَؤُنَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية 115]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: الآية 4]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: الآية 60]، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَيْكَ اللَّهُ رَحِيماً﴾ [الأنفال: الآية 17]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ﴾ [الفتح: الآية 10] الآية.

وقال ﷺ: «أفضل كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: الا كل شيء ما خلا الله باطل،

وكل نعيم لا محالة زائل»⁽¹⁾. وقال ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، فيقول: يا رب كيف أعودك وانت رب العالمين، فيقول الله: أما أنه مرض عبيدي فلان فلم تعده، فلو عدته لوجدتني عنده، ثم يقول: يا عبيدي استطعمتك فلم تطعمني، ثم يقول: استسقيتك فلم تسقني»⁽²⁾ الحديث، فدلّ الحديث على أن هذه الهياكل والأشخاص خيالات لا حقيقة لها فهي أشبه شيء بالظلال.

قال الششتري رضي الله عنه:

الخلقُ خلقكمُ والأمرُ أمركمُ فأبى شيءُ أنا لكنت من ظلل
ما للحجابِ مكانٌ في وجودكمُ إلا بسرّ حروف انظر إلى الجبل
أنتم دللتُم عليكم منكم ولكنم ديمومة عبثت عن غامض الأزل
عرّفتم بكم هذا الخبير بكم أنتم هم يا حياة القلب يا أملي

قوله: الخلق خلقكم الخ، المراد بالخلق صور الأشباح، وبالأمر سرّ الأرواح، أي الأشباح حكمتكم، والأرواح سرّ من أسراركم، فأنا لا وجود لي أصلاً فأبى شيء قدرت نفسي وجدتها لكم ومظهراً من مظاهركم، وإنما أنا ظلل من ظلل وجودكم. ثم قال: ما للحجاب مكان في وجودكم، أي لا موضع للحجاب الحسي في وجودكم، إذ لو كان للحجاب مكان في وجودكم لكان أقرب إلينا منكم، وهو محال لأنك قلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: الآية 16].

وقوله: إلا بسرّ حروف الخ، الاستثناء منقطع أي لا موضع للحجاب الحسي بيننا وبينكم، لكن حجاب القهرية ورداء العزّة والكبرياء هو الذي منع الأبصار من رؤية نوركم الأصلي الجبروتي، إذ لو ظهر ذلك النور لاضمحلت المكونات ولاحترقت من نور السبحات، ولهذا السرّ أمر الله سيدنا موسى عليه السلام حين طلب الرؤية بالنظر إلى الجبل، لما أراد الله تعالى أن يتجلى له بشيء من ذلك النور، فلما لم يثبت الجبل لشيء قليل منه، علمنا أنه لا طاقة للعبد الضعيف في هذه الدار على رؤية الواحد القهار إلا بواسطة الأكوان الكثيفة بعد أن نشر عليها الأردية المعنوية، وهذا معنى قوله: إلا

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب أيام الجاهلية، حديث رقم (3628) [3/ 1395] ومسلم في صحيحه، كتاب الشعر، حديث رقم (2256) [4/ 1763] ورواه غيرهما.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب فضل عبادة المريض، حديث رقم (2569) [4/ 1990] وابن حبان في صحيحه، ذكر الخبر الدال على أن هذه الألفاظ...، حديث رقم (269) [1/ 503] ورواه غيرهما.

ونص رواية مسلم هي: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال: يا رب كيف أعودك وانت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبيدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب وكيف أطعمتك وانت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبيدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب كيف أسقيتك وانت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبيدي فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي».

بسر حروف انظر إلى الجبل أي إلا بحجاب القهرية المفهوم من سر قوله تعالى : ﴿ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ [الأعراف: الآية 143] ، أو إلا حجاباً ملتبساً بسر الحكمة المفهوم من قوله تعالى : ﴿ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ [الأعراف: الآية 143] وكأنه تعالى يقول : يا موسى لن تقدر أن تراني من غير حجاب الحكمة ، ولكن انظر إلى الجبل فإن أطاق ذلك فسوف تراني أنت ، فلما تجلّى له الحق تعالى من غير واسطة الحس جعله دكاه⁽¹⁾ والله تعالى أعلم .
وقال أيضاً في هذا المعنى :

لقد أنا شيءٌ عجيبٌ لمن رآني أنا المحب والحبيب ليس ثم ثاني
يا قاصداً عين الخبير غطاءً عينك الخمر منك والخبر والسر عندك
ارجع لذاتك واعتبر ما ثم غيرك وفيك يطوى ما انتشر من الأواني
فقوله : يا قاصداً عين الخبير ، أي عين خبر التحقيق .

وقوله : غطاءً عينك ، أي مكان وجودك الوهمي ، إذ لو غبت عن وجودك لوقعت على عين التحقيق .

وقوله : الخمر منك ، أي شربة خمرة المحبة منك ، وهذا كما قال : مني علي دارت كؤوسي .

وقوله : والخبر ، أي والخبر عن عين التحقيق منك أيضاً ، وسر الربوبية عندك لأنك كنز مطلسم ، فإذا أردت أن تعرفه فارجع لذاتك واعتبر تجد الوجود كله واحداً وأنت ذلك الواحد .

قال الشاعر :

هذا الوجود وإن تمدد ظاهراً وحياتكم ما فيه إلا أنتم
وقد اتفقت على هذا المعنى ، وهو سر الوحدة ، مقالات العارفين ومواجيد المحبين وأشعارهم ، كل على قدر ذوقه وشربه ، جزاهم الله عنا وعن المسلمين خيراً .
ولا يفهم هذه العبارات إلا أهل الأذواق والإشارات ، وحسب من لم يبلغ لها فهمه ولم يحط بها علمه أن يسلم ويكل فهمها إلى أربابها ، وليعتقد كمال التنزيه وبطلان التشبيه ، لأن هذه المعاني أذواق لا تنال إلا بصحبة أهل الأذواق .

[بطلان وجود ما يحجبه تعالى]

ثم استدل على بطلان وجود الحجاب في حقه تعالى بعشرة أمور متعجباً من كل واحد لظهوره مع خفائه ، أي لشدة ظهوره عند العارفين وشدة خفائه عند الغافلين

(1) الدُّكُّ انْدَقُّ وَالْهَذْمُ وَقَالَ اللَّيْثُ كَسْرُ الْحَائِطِ وَالْجَبَلُ وَدَكُّ الشَّيْءِ يَدْكُهُ دَكًّا ضَرْبُهُ وَكَسْرُهُ حَتَّى سَوَّاهُ بِالْأَرْضِ كَمَا فِي الصُّحَاخِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فَدُكَّتْنَا دَكَّةً وَاجِدَةً أَي دُكَّتْنَا دَقَّةً وَاجِدَةً فَصَارَتْهَا هَبَاءً مُنْبِتًا (تاج العروس لمحمد مرتضى الزبيدي 150/27) .

الجاهلين، فأشار إلى الأول بقوله:

16 - (كَيْفَ يُتَّصَرُّ أَنْ يَحْجِبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ؟)

والظاهر هو الباطن، ما بطن في عالم الغيب هو الذي ظهر في عالم الشهادة، فحياض الجبروت متدفقة بأنوار الملكوت.

انظر جمالي شاهداً فسي كل إنسان
كالماء يجري نافداً فسي أس الأغصان
تجده ماء واحداً والسمر ألوان

ثم ذكر الثاني فقال:

16 - (كَيْفَ يُتَّصَرُّ أَنْ يَحْجِبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ بِكُلِّ شَيْءٍ؟)

بياء الجر، أي تجلى بكل شيء، فلا وجود لشيء مع وجوده، فكيف يحجبه شيء والغرض أن لا شيء. قال [الشيخ عبد الكريم الجيلي] صاحب العينية رضي الله عنه:

تجلت في الأشياء حين خلقتها فهما هي مبطت عنك فيها البراقع

ثم ذكر الثالث فقال:

16 - (كَيْفَ يُتَّصَرُّ أَنْ يَحْجِبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ؟)

بقدرته وحكمته، القدرة باطنة والحكمة ظاهرة، فالوجود كله بين قدرة وحكمة وبين جمع وفرق، وقد تقدم قول بعضهم: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه، أي بقدرته وحكمته، فلولا ظهور أنوار الصفات ما عرفت الذات، لولا الحس ما قبضت المعنى ولولا الكثيف ما عرفت اللطيف. وللشعري رحمه الله:

محبوبي قد عمّ الوجود وقد ظهر في بيض وسود
وفي النصاري مع اليهود وفي الحروف وفي النقط⁽¹⁾

ثم ذكر الرابع فقال:

16 - (كَيْفَ يُتَّصَرُّ أَنْ يَحْجِبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ لِكُلِّ شَيْءٍ؟)

بلام الجر، أي المتجلي لكل شيء بأسرار ذاته وأنوار صفاته، ولما تجلى لكل شيء، وعرفه في الباطن كل شيء، وسبح بحمده كل شيء فلم يحجبه شيء عن شيء، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: الآية 44] يقول بلسان حاله: سبحان المتجلي لكل شيء، الظاهر بكل شيء، يفقهه العارفون ويجهله الغافلون.

(1) أي من حيث أن الأثر يدل على المؤثر فهذا الكون بما فيه من أضداد جمال وجلال وخير وشر وكفر وإيمان وتوحيد وشرك كله يدل على ذات الواحد القهار، فعلم الله تعالى يكشف المعلومات على ما هي عليه والإرادة تخصصها على وفق ما كشفه العلم والقدرة تبرزها إلى عالم الشهادة على وفق ما كشفه العلم وتخصصه الإرادة إن خيراً فخير وإن شراً فشر، لذلك قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التعل: الآية 118].

ثم ذكر الخامس فقال:

16 - (كَيْفَ يَنْصَوِّرُ أَنْ يَخْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الظَّاهِرُ قَبْلَ وُجُودِ كُلِّ شَيْءٍ؟)

فكل ما ظهر فمنه وإليه، فكان في أزله ظاهراً بنفسه ثم تجلّى لنفسه بنفسه، فهو الغني بذاته عن أن يظهر بغيره أو يحتاج إلى من يعرفه غيره، فالكون كله مجموع والغير عندنا ممنوع. ثم ذكر السادس فقال:

16 - (كَيْفَ يَنْصَوِّرُ أَنْ يَخْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؟)

إذ لا وجود للأشياء مع وجوده، ولا ظهور لها مع ظهوره، وعلى تقدير ظهورها، فلا وجود لها من ذاتها، فلولا ظهوره في الأشياء ما وقع عليها إبصار:

مَنْ لَا وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ فَوْجُودُهُ لِسِوَاهُ عَيْنٍ مُحَالٌ⁽¹⁾

فالعبد في حالة الحجاب يكون وجود نفسه عنده ضرورياً ووجود الحق تعالى عنده نظرياً، فإذا عرف الحق وفني عن نفسه وتحقق بزوالها صار عنده وجود الحق ضرورياً ووجود نفسه نظرياً بل محال ضروري. قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إنا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان، فأغنانا عن الدليل والبرهان، وإنا لا نرى أحداً من الخلق فهل في الوجود أحد سوى الملك الحق، وإن كان ولا بد فكالهباء في الهواء، إن فتشتهم لم تجدهم شيئاً. انتهى. ثم ذكر السابع فقال:

16 - (كَيْفَ يَنْصَوِّرُ أَنْ يَخْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الوَاحِدُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ؟)

ليس معه شيء لتحقق وحدانيته أزلاً وأبداً، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان، ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: 63]، ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: 10]؟ فكل ما ظهر للعبان فإنما هو مظاهر الرحمن. قال صاحب العينية [الشيخ عبد الكريم الجيلي] رضي الله عنه:

تجلّى حبيبي في مرآتي جماله ففي كل مرآى للحبيب طلائع
فلما تجلّى حسنه متنوعاً تسمى بأسماء فهن مطالع

فالحق تعالى واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، فلا شيء قبله ولا شيء بعده ولا شيء معه. ثم ذكر الثامن فقال:

16 - (كَيْفَ يَنْصَوِّرُ أَنْ يَخْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؟)

(1) هذا البيت من البحر الكامل وهو للصوفي الكبير أبو مدين التلمساني شبيب بن الحسن الأندلسي المتوفى سنة 594 هـ. 1198 م (موسوعة الشعر العربي، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية 16] ، وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُعِثُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: الآية 85] ، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالنُّزُولِ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْيُسْرَى وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: الآية 7] . وقربه تعالى قرب علم وإحاطة [ومعية] وشهود لا قرب مسافة إذ لا مسافة بينك وبينه .

وقال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: قيل لي: يا علي بي قل وعلي دل وأنا الكل . انتهى . هذا كما في حديث البخاري: «يقول الله تعالى يسب ابن آدم الدهر، وأنا الدهر بيدي الليل والنهار»⁽¹⁾ . وقال أيضاً عليه السلام: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»⁽²⁾ وتفسيره ما في الحديث قبله، والله تعالى أعلم . ثم ذكر التاسع فقال:

16 - (كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَلَوْلَاهُ مَا كَانَ وَجُودُ كُلِّ شَيْءٍ؟)

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان: الآية 2] وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿١٠١﴾﴾ [القمر: الآية 49] فكل ما ظهر في عالم الشهادة فهو فائض من عالم الغيب، وكل ما برز في عالم الملكوت فهو فائض من بحر الجبروت، فلا وجود للأشياء إلا منه، ولا قيام لها إلا به، ولا نسبة لها معه، إذ هي عدم محض وعلى توهم وجودها فهي حادثة فانية، ولا نسبة للعدم مع الوجود ولا للحادث مع القديم، ولذلك تعجب الشيخ من اجتماعهما فقال:

16 - (يَا حَجَبًا كَيْفَ يَظْهَرُ الْوُجُودُ فِي الْعَدَمِ؟ أَمْ كَيْفَ يَثْبُتُ الْحَادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ الْقَدَمِ)

قلت: وهذا هو العاشر، فالوجود والعدم ضدان لا يجتمعان، والحادث والقديم متنافيان لا يلتقيان، وقد تقرر أن الحق واجب الوجود، وكل ما سواه عدم على التحقيق، فإذا ظهر الوجود انتفى ضده وهو العدم، فكيف يتصور أن يحجبه وهو عدم، فالحق لا يحجبه الباطل، قال تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الَّذِي فَعَادَا بِمَدِّ الْحَقِّ إِلَّا الْمَسَلَّةُ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: الآية 32] فلا وجود للأشياء مع وجوده، فانتفى القول بالحلول إذ الحلول يقتضي وجود السوى حتى يحل فيه معنى الربوبية، والفرض أن السوى عدم محض فلا يتصور

(1) ورواه الطبراني في الدعاء، باب النهي عن سب الدهر، حديث رقم (2032) [564/1] وتعام الرازي في الفوائد، الجزء الخامس عشر من حديث رقم (1053) ورواه غيرهما .

(2) رواه مسلم، باب النهي عن سب الدهر، حديث رقم (2246) [1763] والنسائي في السنن الكبرى، قوله تعالى: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الجمانية: الآية 24] ، حديث رقم (11487) [457/6]

الحلول، وإلى هذا أشار في العينية⁽¹⁾ بقوله:

ونزّهه في حكم الحلول فما له سوى وإلى توحيدده الأمر راجع
والقديم والحادث لا يلتقيان، فإذا قرن الحادث بالقديم تلاشى الحادث وبقي
القديم. وقد يطلقون الاتحاد على الوحدة كقول ابن الفارض:
وهامت بها رُوجي بحيث تمازجاً اتحاداً ولا جرم تخلّله جرم
فأطلق الاتحاد على اتصال الروح بأصلها بعد صفائها، ولذلك قال بعده: ولا
جرم تخلّله الخ، فتحصل أن الحق سبحانه واحد في ملكه قديم أزلي باق أبدي منزّه عن
الحلول والاتحاد، مقدّس عن الشركاء والأضداد، كان ولا أين ولا مكان وهو الآن
على ما عليه كان. ومما ينسب لسيدنا عليّ كرم الله وجهه:

رَأَيْتُ رَبِّي بِمَعِينِ قَلْبِي فَقُلْتُ لَا شَيْءَ أَنْتَ أَنْتَ
أَنْتَ الَّذِي حَزَتْ كَسَلٌ أَيْسِي بِحَيْثُ لَا أَيْنَ نَسَمٌ أَنْتَ
فَلَيْسَ لِلْأَيْنِ مِنْكَ أَيْسٌ فِيمَلَمُ الْأَيْنُ أَيْنَ أَنْتَ
وَلَيْسَ لِلرَّهْمِ فَيْسٌ وَهَمٌ فِيمَلَمُ الرَّهْمُ كَيْفَ أَنْتَ
أَحْطَتْ عِلْمًا بِكُلِّ شَيْءٍ فَكُلُّ شَيْءٍ أَرَاهُ أَنْتَ
وَفِي فَنَائِي فَنَائِي وَفِي فَنَائِي وَجَدْتُ أَنْتَ

وسئل أبو الحسن النوري رضي الله عنه: أين الله من مخلوقاته؟ فقال: كان الله
ولا أين والمخلوقات في عدم، فكان حيث هو، وهو الآن حيث كان، إذ لا أين ولا
مكان. فقال له السائل، وهو علي بن ثور القاضي في قصة محنة الصوفية: فما هذه
الأماكن والمخلوقات الظاهرة، فقال: عز ظاهر وملك قاهر، ومخلوقات ظاهرة به
وصادرة عنه، لا هي متصلة به ولا منفصلة عنه، فرغ من الأشياء ولم تفرغ منه، لأنها
تحتاج إليه وهو لا يحتاج إليها.

قال له: صدقت فأخبرني ماذا أراد الله بخلقها، قال: ظهور عزته وملكه
وسلطانه. قال: صدقت، فأخبرني ما مراده من خلقه، قال: ما هم عليه. قال: أو يريد
من الكفرة الكفر، قال: أفكفرون به وهو كاره.

ثم قال: أخبرني ماذا أراد الله باختلاف الشيع وتفريق الملل، قال: أراد إبلاغ
قدرته وبيان حكمته وإيجاب لطفه وظهور عدله وإحسانه. انتهى المراد منه.

(1) أي الشيخ عبد الكريم الجيلي المنوفى سنة 805 في عينته المشهورة.

وفيه إشارة إلى أن تجليات الحق على ثلاثة أقسام:

قسم أظهرهم ليظهر فيهم كرمه وإحسانه، وهم أهل الطاعة والإحسان، وقسم أظهرهم ليظهر فيهم عفوه وحلمه، وهم أهل العصيان من أهل الإيمان، وقسم أظهرهم ليظهر فيهم نقمته وغضبه وهم أهل الكفر والطغيان. فهذا سر تجليه تعالى في الجملة، والله تعالى أعلم.

[خلاصة ما ورد في الباب الأول]

فذلكة: حاصل ما اشتمل عليه هذا الباب من أول الكتاب ثلاثة أمور: عمل الشريعة، والطريقة، والحقيقة. أو تقول: عمل الإسلام، والإيمان، والإحسان. وهي البداية والوسط والنهاية. ومن علامة النجاح في النهاية الرجوع إلى الله في البداية.

فأمرك بالرجوع إليه والاعتماد عليه دون الاعتماد على العمل مع وجود العمل، ثم ذلك على الأدب في حال التجريد والأسباب.

ثم نهاك في حالة المسير عن شغل باطنك بكد التدبير فإنه سبب التكدير، ثم أنهضك إلى الاجتهاد في الأعمال المطلوبة منك مع التقصير فيما هو مضمون لك ليكون سبباً في فتح بصيرتك.

ومن جملة ما هو مضمون ما تطلبه بدعائك، فلا تستعجل ما تأخر عن وقته، ولا تياس من رحمته، وإذا وعدك بشيء فلا تشك في وعده، ولا تتهمه فيما ينزل بك من تعرفاته وقهره، فهذه أعمال أهل البدايات اختلفت أجناسها باختلاف أحوالهم.

فقوله: من علامة الاعتماد على العمل، إلى قوله: الأعمال صور قائمة، كله من عمل الشريعة الذي هو مقام الإسلام.

وقوله: الأعمال صور قائمة إلى قوله: الكون كله ظلمة، هو من عمل الطريقة الذي هو مقام الإيمان، ومداره على تخليص الباطن وتهذيبه، فأمرك بالإخلاص والصدق وهو سر الإخلاص، والخمول لأنه محله ومظهره، والعزلة لتتمكن من الفكرة، وتصفية مرآة القلب من صور الأكوان لتتهيأ لإشراق شمس العرفان.

ثم فتح لك الباب ورفع عنك الحجاب وقال لك: ها أنت وربك، وهو قوله: الكون كله ظلمة، إلى آخر الباب، فقد قطع لك توهم الحجاب من جميع الوجوه، فجزاه الله أحسن جزائه، ومثعه برضوانه مع أنبيائه وأحبابه، وخرطنا في سلكهم مع كافة الأحباب آمين.

ولما أدخلك الحضرة ذلك على آدابها في أول الباب الثاني. وجملة أبواب الكتاب خمسة وعشرون باباً وثلاث رسائل وجواب، ثم مناجات.

[الباب الثاني]

[شهود ما أبرزته القدرة للعيان في الوقت]

فلما فرغ من الباب الأول أشار إلى الباب الثاني فقال:

17- (ما تَرَكَ مِنَ الْجَهْلِ شَيْئاً مَنْ أَرَادَ أَنْ يَحْدُثَ فِي الْوَقْتِ غَيْرُ مَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ فِيهِ).

الجهل: هو ضد العلم، وقيل: هو عدم العلم بالمقصود، وهو على قسمين: بسيط ومركب، فالبسيط: أن يجهل ويعلم أنه جاهل، والمركب: أن يجهل جهله، وأقبح الجهل الجهل بالله وإنكاره بعد طلب معرفته.

قلت: من آداب العارف الحقيقي أن يقرّ الأشياء في محلها ويسير معها على سيرها، فكلما أبرزته القدرة للعيان فهو في غاية الكمال والإتقان. وفي ذلك قال صاحب العينية رضي الله عنه:

وَكُلُّ قَبِيحٍ إِنْ نَسَبْتَ لِحَسَنِهِ أَتَتْكَ مَعَانِي الْحُسْنِ فِيهِ تَسَارُعُ
يُكْمَلُ نَقْصَانَ الْقَبِيحِ جَمَالُهُ فَمَا تَمَّ نَقْصَانٌ وَلَا تَمَّ بَاشِعٌ

وقال أبو الحسن النوري رضي الله عنه: مراد الله من خلقه ما هم عليه، فإذا أقام الله عبداً في مقام من المقامات، فالواجب على العارف أن يقرّه فيه بقلبه كائناً ما كان، فإن كان لا تسلمه الشريعة رغبه في الخروج عنه بالسياسة وينظر ما يفعل الله.

قال بعضهم: من عامل الخلق بالشريعة طال خصامه معهم، ومن عاملهم بالحقيقة عذرهم، والواجب أن يعاملهم في الظاهر بالشريعة فيذكرهم، وفي الباطن بالحقيقة فيعذرهم. ومن أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله تعالى في نفسه أو في غيره، فقد جمع الجهل كله ولم يترك منه شيئاً حيث عارض القدر ونازع القادر، وقد قال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: الآية 107] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: الآية 112]

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس: الآية 99]. وفي بعض الأخبار:

يقول الله تبارك وتعالى: «من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي فليخرج من تحت

سمائي وليتخذ رباً سواي»⁽¹⁾. وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما⁽²⁾:

لأن الحسّ جمره أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحبّ إليّ من أن أقول لشيء كان

(1) روى نحوه الطبراني في المعجم الكبير، عن أبي هند الداري، حديث رقم (807) [320/22]

والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (4449) [169/3] ورواه غيرهما.

(2) أورد قولهما الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين، كتاب المحبة والشفقة والأنس والرضا [257/4].

وأورده أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره المسمى تفسير الثعلبي، تفسير سورة الحديد آية 23 ﴿نُكِّي لَا نَأْسُوا﴾.

ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن ليته كان. وقال أبو عثمان [الحيري] رضي الله عنه: منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حال فكرهه، ولا نقلني إلى غيره فسخطه.

وقيل: إن الولي الكامل يتطوّر بجميع الأطوار ويقضي جميع الأوطار. انتهى.

قلت: ومن تأمل الأحاديث النبوية وجدها على هذا المنوال، لأن النبي ﷺ كان سيد العارفين وقدوة المرابين، فكان يقرّ الناس على ما أقامهم الله في حكمتهم ويرغبهم فيها، فلذلك تجد الأحاديث متعارضة ولا تعارض في الحقيقة. فإذا نظرت في أحاديث الذكر قلت: لا أفضل منه، وإذا نظرت في أحاديث الجهاد قلت: لا أفضل منه، وإذا نظرت في أحاديث فضل العلم قلت: لا أفضل منه، وإذا نظرت في أحاديث الزهد والتجريد من أسباب الدنيا قلت: لا أفضل منه، وإذا نظرت في أحاديث الكسب والخدمة على العيال كذلك، فكل حكمة رغب النبي ﷺ فيها حتى تقول: لا أفضل منها تطيباً لخاطر أهلها ليكونوا فيها على بينة من ربهم، ولم يأمرهم عليه السلام بالانتقال عنها، إذ مراد الله منهم هو تلك الحكمة، فأقرهم عليه السلام عليها ورغبهم فيها حتى يظن من يسمع أحاديثها أنه لا أفضل منها، وهو كذلك إذ لا أفضل منها في حق أهلها.

والحاصل: أن العارف لا ينكر شيئاً ولا يجهل شيئاً. وقد قال بعض العارفين: ليس في الإمكان أبدع مما كان. وتأويله: أن ما سبق في علم الله يكون لا يمكن غيره، فلا أبدع منه، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله، والله تعالى أعلم.

[تأجيل الأعمال من الرعونات النفسية]

ثم ذكر الأدب الثاني من آداب الحضرة القدسية، وهي ترك الرعونات البشرية فقال:

18 - (إِحَالَتِكَ الْأَعْمَانَ عَلَى وُجُودِ الْفَرَاغِ مِنْ رُحُونَاتِ النَّفْسِ)

الإحالة على الشيء: هو تسليطه وإغراؤه عليه، والمراد هنا توقف الأمر عليه بحيث لا يتوجه له حتى يتيسر وجوده، والفراغ من الشيء: خلوه منه، وفراغ القلب خلوه مما يشغله، وفراغ الجوارح خلوها من الأشغال، والرعونة: نوع من الحمق.

قلت: من آداب العارف أن يكون كامل العقل ثاقب الذهن، ومن علامة العقل انتهاز الفرصة في العمل ومبادرة العمر من غير تسويف ولا أمل، إذ ما فات منه لا عوض له وما حصل لا قيمة له. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا وإن من علامة العقل التجافي عن دار الفرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزوّد لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور»⁽¹⁾. وقال ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت،

(1) روى نحوه الحاكم في المستدرک علی الصحیحین، کتاب الرفاق، حدیث رقم (7863) [4/346] وابن أبي شيبة في مصنفه، حدیث رقم (34314) [7/76] ورواه غيرهما.

والأحمق من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمان⁽¹⁾ انتهى. والكيس هو العاقل، ودان نفسه حاسبها.

فإحالتك الأعمال وتأخيرها إلى وقت آخر تكون فيه فارغ القلب أو القلب من علامة الرعونة والحمق وهو غرور، ومن أين لك أن تصل إلى ذلك الوقت والموت هاجم عليك من حيث لا تشعر، وعلى تقدير وصولك إليه لا تأمن من شغل آخر يعرض لك. وفراغ الأشغال من حيث هو نادر لقوله عليه السلام: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»⁽²⁾ أي كثير من الناس فقدوهما وغبنوا فيهما، إذ كثير منهم لا تجده إلا مشغولاً بدنياً، أو مفتوناً بهوى، أو مريضاً مبتلى. ومفهوم الكثير أن القليل من الناس رزقهم الله الصحة والفراغ، فإن عمروهما بطاعة مولاهم فقد شكروا وربحوا ربحاً عظيماً، وإن ضيعوهما فقد خسروا خسراناً مبيناً وكفروا بهاتين النعمتين، فجدير أن تسلبا عنهما. وهو أيضاً من علامة الخذلان، وسيأتي كلام الشيخ: الخذلان كل الخذلان أن تقل عوائقك ثم لا تقبل عليه.

فالواجب على الإنسان أن يقطع علاقته وعوائقه، ويخالف هواه ويبادر إلى خدمة مولا، ولا ينتظر وقتاً آخر، إذ الفقير ابن وقته، فلا تجده مشغولاً إلا بفكرة أو نظرة، أو ذكر أو مذاكرة، أو خدمة شيخ يوصله إلى مولا. وقد قلت لبعض الإخوان: الفقير الصديق ليس له فكرة ولا هدرية إلا في الحضرة، أو ما يوصله للحضرة، والله تعالى أعلم.

[مقامك حيث أقامك الحق تعالى]

ثم ذكر الأدب الثالث، وهو إقامته حيث أقامه الله تعالى فقال:

19 - (لا تَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ لِيَسْتَعْمَلَكَ لِيَمَا سِوَاهَا، فَلَوْ أَرَادَكَ لِاسْتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ)

قلت: من آداب العارف الاكتفاء بعلم الله والاستغناء به عما سواه، فإذا أقامه الله تعالى في حالة من الأحوال، فلا يستحقها ويطلب الخروج منها إلى حالة أخرى، فلو أراد الحق تعالى أن يخرجك من تلك الحالة ويستعمله فيما سواه لا يستعمله من غير أن يطلب منه أن يخرجك، بل يمكنك على ما أقامه فيه الحق تعالى حتى يكون هو الذي يتولى إخراجه كما تولى إدخاله ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾

(1) رواه الحاكم في المستدرک، کتاب الإیمان، حدیث رقم (191) [125 / 1] والترمذی فی جامعہ الصحیح، باب 25 حدیث رقم (2459) [638 / 4] ورواه غیرهما.

(2) رواه البخاری فی صحیحہ کتاب الرقاق، حدیث رقم (6094) [2357 / 5] والحاکم فی المستدرک، کتاب الرقاق، حدیث رقم (7845) [341 / 4] ورواه غیرهما.

[الإسراء: الآية ٨٠] ، فالمدخل الصدق هو أن تدخل فيه بالله، والمخرج الصدق هو أن تخرج منه بالله، وهذا هو الفهم عن الله، وهو من علامة تحقق المعرفة بالله.

فالعارف بالله إذا كان أعزباً لا يتمنى التزويج، وإذا كان متزوجاً لا يتمنى الفراق، وإذا كان فقيراً لا يتمنى الغنى، وإذا كان غنياً لا يتمنى الفقر، وإذا كان صحيحاً لا يتمنى المرض، وإذا كان مريضاً لا يتمنى الصحة، وإذا كان عزيزاً لا يتمنى الذل، وإذا كان ذليلاً لا يتمنى العز، وإذا كان مقبوضاً لا يتمنى البسط، وإذا كان مبسوطاً لا يتمنى القبض، وإذا كان قوياً لا يتمنى الضعف، وإذا كان ضعيفاً لا يتمنى القوة، وإذا كان مقيماً لا يتمنى السفر، وإذا كان مسافراً لا يتمنى الإقامة، وهكذا باقي الأحوال ينظر ما يفعل الله به، ولا ينظر ما يفعل بنفسه لتحقيق زواله، بل يكون كالميت بين يدي الغاسل أو كالقلم بين الأصابع، كما قال صاحب العينية^(١) رضي الله عنه:

أراني كالآلات وهو محركي أنا قلم والاقتدار أصابع
قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصر: الآية 68] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية 30] . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال: يا داود تريد وأريد ولا يكون إلا ما أريد، فإن سلمت لي ما أريد أتيتك بما تريد، وإن لم تسلم لي ما أريد أتعتك فيما تريد، ولا يكون إلا ما أريد.
وقال رسول الله ﷺ لأبي هريرة: «جفت القلم بما أنت لاق»⁽²⁾ وفي حديث آخر: «جفت الأقلام وطويت الصحف»⁽³⁾.

وهذا كله إذا كان الحال الذي هو فيه موافقاً للشريعة، وإلا فليطلب الخروج منه بما يمكن.

[رفع الهمة عن الأكوان ومتابعة السير في مقامات المعرفة]

ثم ذكر الأدب الرابع وهو: رفع الهمة عن الأكوان ودوام الترقى في مقامات العرفان، فقال:

(1) أي الشيخ عبد الكريم الجيلي مؤلف كتاب «الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والآخر» وقد سبقت الإشارة إليه.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب ما يكره من التبتل والخصاء، حديث رقم (4788) [5/1953]، والبيهقي في سننه الكبرى، باب النهي عن التبتل والخصاء، حديث رقم (13243) [7/79] ورواه غيرهما.

(3) رواه الطبراني في المعجم الكبير، عن حنث الصنعاني عن ابن عباس، حديث رقم (12988) [12/238] وأبو يعلى في مسنده، عن شهر بن حوشب بن أبي هريرة، حديث رقم (6468) [11/355] ورواه غيرهما.

20 - (ما أرادت همة سالك أن تقف عندما تُكشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذي تطلب أمامك، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا ونادته حقائقها: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾)

همة السالك: هي القوة الباعثة له على السير، ووقوفها مع الشيء: هو اعتقادها أن ما وصلت إليه هو الغاية أو فيه كفاية، وهواتف الحقيقة: هي لسان حال الكشف عن عين التحقيق، وتبرج الشيء: ظهوره في حال الزينة لقصد الإمامة، وظواهر المكونات: هو ما كساها من الحسن والحكمة، وتزيينها هو خرق عوائدها له، وانقيادها لحكمه، وحقائقها نورها الباطني وهو تجلي المعنى فيها.

قلت: السالك هو الذي يشهد الأثر، فإن كان يشهده في نفسه فهو سالك فقط، وهو في حالة السير، وإن كان يشهده بالله فهو سالك مجذوب، والمقامات التي يقطعها ثلاث: فناء في الأفعال، وفناء في الصفات، وفناء في الذات. أو تقول: فناء في الاسم، وفناء في الذات، وفناء في الفناء وهو مقام البقاء، ثم الترقى إلى ما لا نهاية له، فإذا كشف للسالك عن سر توحيد الأفعال وذاق حلاوته، وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام، نادته هواتف حقيقة الفناء في الصفات الذي تطلب أمامك.

وإذا ترقى إلى مقام الفناء في الصفات، وكشف له عن سر توحيد الصفات، واستشرف على الفناء في الذات، وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام، نادته هواتف حقيقة الفناء في الذات: الذي تطلب أمامك.

وإذا ترقى إلى الفناء في الذات، وكشف له عن سر توحيد الذات، وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام، نادته هواتف حقيقة فناء الفناء أو حقيقة البقاء: الذي تطلب أمامك.

وإذا وصل إلى البقاء نادته هواتف العلوم الغيبية ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية 114]، وقد قال عليه السلام: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»⁽¹⁾.

أو تقول: إذا كشف للمريد عن الفناء في الاسم وذاق حلاوة العمل والذكر، وأرادت همته أن تقف معها، نادته هواتف حقائق الفناء في الذات: الذي تطلب أمامك.

فإذا ترقى إلى مقام الفناء في الذات وذاق حلاوته ولم يتمكن وقنع بذلك وأرادت همته أن تقف مع ذلك نادته هواتف حقيقة التمكين: الذي تطلب أمامك.

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم (486) [1/352] والحاكم في المستدرک علی الصحیحین، کتاب الوتر، حديث رقم (1150) [1/449] ورواه غيرهما.

وإذا تمكن ولم يطلب زيادة الترقى نادته هواتف الترقى: الذي تطلب أمامك، وهكذا كل مقام ينادي على ما قبله ﴿بِتَأْمَلْ يَتْرَبَ لَا مَقَامَ لَكَ﴾ [الأحزاب: الآية 13].

وإذا تبرجت، أي ظهرت بزینتها وحُلَّيها للسالك أو للعارف، ظواهر المكوّنات بخرق عوائدها وانقيادها له وتصرفه فيها بهمته، كالمشي على الماء والطيران في الهواء ونبع الماء وجلب الطعام، وغير ذلك من الكرامات الحسية، وأرادت همة السالك أن تقف مع ظواهرها وتشتغل بحلاوة حسنها، نادته هواتف المعاني الباطنة: إنما نحن فتنة لك نخبرك هل تقنع بها دون معرفة مالکها ومنشئها المتجلى فيها، أو تعرض عنها وتنفذ إلى نور معانيها وشهود مالکها ومجريها، فلا تكفر وتجدد المتجلى بها فتكره فتكون من الجاهلين.

وقد أشار الششتري إلى التنبيه على عدم الوقوف مع هذه المقامات والكرامات، فقال:

فلا تلتفت في السیر غيراً وكل ما
وكل مقام لا تقم فيه أنه
ومهما ترى كل المراتب تجتلي
وقل ليس لي في غير ذاتك مطلب
سوى الله غير فاتخذ ذكراً حصنا
حجاب فجذ السیر واستنجد العونا
عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا
فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى

واعلم أن هذه الآداب التي ذكرها الشيخ في هذا الباب قد تكون خاصة بالمعارف، وقد يشاركه فيها غيره، فلذلك يعبر بعبارة واسعة لتكون عامة، لأن المرید قد يترقى إلى مقام وقد بقيت عليه بقية مما قبله، فيكملها فيه، والله تعالى أعلم.

[وحكم الطلب من الحق تعالى ومن غيره]

ثم ذكر الأدب الخامس، وهو ترك الطلب من حيث هو، قال فيما يأتي: ربما دلهم الأدب على ترك الطلب، فقال:

21 - (طَلْبُكَ مِنْهُ أَتْهَامٌ لَهُ، وَطَلْبُكَ لَهُ غِيْبَةٌ مِنْكَ عَنْهُ، وَطَلْبُكَ لِغَيْرِهِ لِقَلَّةِ حَيَاتِكَ مِنْهُ، وَطَلْبُكَ مِنْ غَيْرِهِ لَوْجُودِ بَعْدِكَ عَنْهُ)

قلت: طلبك منه يكون بالتضرع والابتهاال، وطلبك له يكون بالبحث والاستدلال، وطلبك لغيره يكون بالتعرف والإقبال، وطلبك من غيره يكون بالتملق والسؤال.

وحاصلها أربعة، وكلها مدخولة عند المحققين، أما طلبك منه، فلوجود تهمتك له، لأنك إنما طلبته مخافة أن يهملك أو يغفل عنك، فإنما ينه من يجوز منه الإغفال، وإنما يذكر من يمكن منه الإهمال ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: الآية 74]، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: الآية 36]، وقال ﷺ: «من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته

أفضل ما أعطي السائلين⁽¹⁾. فالسكون تحت مجاري الأقدار أفضل عند العارفين من التضرع والابتهاال.

وكان شيخ شيوخنا مولاي العربي [اندرقاوي] رضي الله عنه يقول: الفقير الصادق لم تبق له حالة يطلبها، وإن كان ولا بد من الطلب فليطلب المعرفة بالله. انتهى.

قلت: وإذا ورد منهم الدعاء فإنما هو عبودية وحكمة لا طلباً للقسمة، إذ ما قسم لك واصل إليك، ولو سألته أن يمنعك ما أجابك.

وفي المسألة خلاف بين الصوفية: هل السكوت أولى أو الدهاء؟ والتحقيق أن ينظر ما يتجلى فيه وينشرح له الصدر فهو المراد منه.

وأما طلبك له، فهو دليل على غيبتك عنه بوجود نفسك، فلو حضر قلبك وغبت عن نفسك ووهمك لما وجدت غيره.

وقال أبو مدين التلمساني⁽²⁾ رضي الله عنه:

ومن عجب أني أحسن إليهم وأسأل شوقاً عنهم وهم معي
وتبكيهم عيني وهم في سوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي
وللرفاعي⁽³⁾ رضي الله عنه:

قالوا أتسى الذي تهوى فقلت لهم يا قوم من هو روعي كيف أنساه
وكيف أنساه والأشياء به حسنت من العجائب ينسى العبد مولاه
ما غاب عني ولكن لست أبصره إلا وقلت جهاراً قل هو الله

وأما طلبك لغيره أي لمعرفة غيره، فلقلة حياتك منه وعدم أنسك به.

أما وجه قلة حياتك منه، فلأنه يناديك إلى الحضرة وأنت تفر منه إلى الغفلة، ومثال ذلك كمن كان في حضرة الملك والملك مقبل عليه، ثم يجعل هو يريد الخروج منها ويلتفت إلى غيره، فهذا يدل على قلة حياته وعدم اعتناؤه بالملك، فهو حقيق بأن يطرده إلى الباب أو إلى سياسة الدواب.

وأما وجه عدم أنسك به، فلأنك لو أنست به لاستوحشت من خلقه، فلا يتصور منك طلب معرفتهم وأنت تفر منهم، فإذا أنسك به أوحشتك من خلقه وبالعكس.

(1) رواه الترمذي في سننه (25 باب) حديث رقم (2926) [184/5] والقضاعي في مسند الشهاب، باب (378 من شغله ذكرى...)، حديث رقم (584) [340/1] ورواه غيرهما.

(2) شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني. صوفي، من مشاهيرهم، أصنه من الأندلس، أقام بفاس، وسكن بجاية، وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور، وتوفي بتلمسان سنة 594 هـ وقد قارب الثمانين أو تجاوزها. له: (مفاتيح الغيب لإزالة الريب ومتر العيب - ط) [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

(3) أغلب الظن أنه القطب أحمد الرفاعي الكبير لحسيني أبو العباس المتوفى سنة 558 هـ.

والاستئناس بالناس من علامة الإفلاس . إقبالك على الحق إديبارك عن الخلق، وإقبالك على الخلق إديبارك عن الحق .

وأما طلبك من غيره، فلو وجود بعدك عنه إذ لو تحققت بقربه منك وهو كريم ما احتجت إلى سؤال غيره وهو لثيم .

وفي بعض الكتب المنزلة يقول الله تبارك وتعالى : «إذا أنزلت بعدي حاجة فرفعها إليّ أعلم ذلك من نيته ، لو كادته السماوات السبع والأرضون السبع لجعلت من أمره فرجاً ومخرجاً ، وإذا أنزلت بعدي حاجة فرفعها إلى غيري أضحت⁽¹⁾ الأرض من تحته وأسقطت السماء من فوقه ، وقطعت الأسباب فيما بيني وبينه - أو كما قال : - لطول العهد به .»

فتحصل أن الأدب هو الاكتفاء بعلم الله والتحقق بمعرفة الله والاستغناء به عما سواه، والله تعالى أعلم .

[التسليم والرضى بالقضاء والقدر]

ثم ذكر الأدب السادس، وهو التسليم والرضى بما يجري به القدر والقضاء فقال :

22 - (ما مِنْ نَفْسٍ تُبَدِّيه، إِلَّا وَلَهُ قَدْرٌ فَبِكَ يُنْضِيهِ)

قلت : النفس : بفتح الفاء عبارة عن دقيقة من الزمان قدر ما يخرج النفس ويرجع، وهو أوسع من الطرفة، والطرفة أوسع من اللحظة وهي رمق البصر ورده، والقدر : هو العلم السابق للأشياء قبل أن تظهر، وهو علم أوقاتها وأماكنها ومقاديرها وعدد أفرادها وما يعرض لها من الكيفيات وما ينزل بها من الآفات .

فإذا علمت أيها الإنسان أن أنفاسك قد عمها القدر، ولا يصدر منك ولا من غيرك إلا ما سبق به علمه، وجرى به قلمه، لزمك أن ترضى بكل ما يجري به القضاء، فأنفاسك معدودة، وطرفاتك ولحظاتك محصورة، فإذا انتهى آخر أنفاسك رحلت إلى آخرتك، وإذا كانت الأنفاس معدودة فما بالك بالخطوات والخطرات وغير ذلك من التصرفات، والله در القائل⁽²⁾ :

مَشِينَاهَا خُطِي كُتِبَتْ عَلَيْنَا وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطِي مَشَاهَا
وَمَنْ قُسِمَتْ مِنْيْتُهُ بِأَرْضِي فَلَيْسَ يَمُوتُ فِي أَرْضِي سِوَاهَا

وحقيقة الرضى : هو تلقي المهالك بوجه ضاحك، وحقيقة التسليم : استواء النعمة

(1) أَضْحَتْ : أبرزت، وضاحية كل شيء ناحيته البارزة . والمعنى هنا : أي رفع من تحته الأرض فلا يستطيع الوقوف عليها .

(2) البيت الأول هو للشاعر العباسي أحمد بن فارس المولود سنة 329 هـ والمتوفى سنة 395 هـ ورضاع أكثر شعره ولم يصل إلينا إلا القليل منه [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

والنعيم بحيث لا يختار في أيهما يقيم. وهذا هو مقام أهل الكمال الذين تحققوا بالزوال، نفعنا الله بذكرهم وخرطنا في سلكهم آمين.

[مداومة مراقبة الله في جميع الأحوال]

ثم ذكر الأدب السابع، وهو دوام المراقبة ومواصلة المشاهدة فقال:

23 - (لا تترقب فروع الأغيار، فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو

مقيمك فيه)

الترقب: هو الانتظار، والأغيار: جمع غير بكسر الغين، وهو ما يغير القلب عن حاله، والغالب استعماله فيما يغيره من حالة الكمال إلى حالة النقص. وعند الصوفية: كل ما يشغل عن الحضرة ويغير القلب عنها فهو غير، والمراقبة: هي العسة⁽¹⁾ على القلب لئلا يخرج من حضرة الرب. والمراد بها في كلام الشيخ مطلق العسة، فتصدق بمراقبة القلب كما تقدم، وتصدق بمراقبة الروح وهي عساها على دوام الشهود، وبمراقبة السر وهي عسته على دوام الترقى والأدب.

قلت: إذا أقامك الحق تعالى في حال يغلب فيها وجود الأغيار لغلبة الحسن فيها، كما إذا أقامك في شغل دنيوي في الظاهر لا محيد لك عنه، فجاهد قلبك في العسة عليه في الحضور لئلا تسرقك الغفلة، أو جاهد روحك في العسة عليها في دوام الشهود لئلا يسرقك الحسن، أو جاهد سرك في استمداد المواهب والعلوم لئلا يحصل من ذلك فتور.

ولا تترقب، أي تنتظر فراغ شغل يدك من تلك الأغيار فتؤخر حضور قلبك إلى تمام شغل يدك، فيفوتك وجود المراقبة في تلك الحال التي أقامك الحق فيها، فكون في حقلك سوء أدب، وفيه أيضاً تضييع ذلك الوقت وخلوه من معاملة الحق، وصرف الأوقات لا يمكن قضاؤها.

تنبيه: ليس هذا تكرار مع ما تقدم في قوله: إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس، لأن ذلك في عمل الجوارح وهذا في عمل القلوب، بذلك على ذلك تعبيره هنا بالمراقبة وتعبيره ثم بالأعمال، وبالله التوفيق.

[استمرار وقوع الأكدار في الدنيا]

وإذا حصلت لك المراقبة أو المشاهدة في حال الأغيار، فلا تستغرب ما تراه من الأكدار لئلا يحصل لك الإنكار، وإلى هذا أشار بقوله:

(1) عس: عسى يُعَسُّ عَساً وِعْساً أي طاف بالليل، وهو نقض الليل عن أهل الريبة، فهو عاس ومنه حديث عمر، رضي الله عنه: أنه كان يُعَسُّ بالمدينة، أي يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة. فتكون العسة هنا هي الحراسة على القلب. (لسان العرب).

24 - (لا تَسْتَفْرِبُ وَقُوعَ الْأَكْدَارِ، مَا دُمْتَ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَإِنَّهَا مَا أَبْرَزَتْ إِلَّا مَا هُوَ مُسْتَحَقُّ وَصَفُهَا وَوَاجِبُ نَعْتِهَا)

الاستغراب: تصيير الشيء غريباً حتى يتعجب منه، والأكدار: كل ما يكدر على النفس ويؤلمها، ومستحق وصفها: ما تستحق أن توصف به، وواجب نعتها: ما يجب أن تنعت به.

قال بعضهم: الوصف يكون بالأمر اللازمة، والنعمة يكون بالعوارض الطارئة. فالأمر اللازمة كالبياض والسواد والطول والقصر، وانعوارض كالمرض والصحة والفرح والحزن وغير ذلك. والمراد هنا بالأوصاف ما يتكرر وقوعه كالموت والأمراض وما يقع كثيراً، وبالنعوت ما يقل وقوعه في العادة كالفتن والهرج والزلازل لأنهم يقولون: الأوصاف لوازم والنعوت عوارض. وقيل: [هما] شيء واحد وهو الأصح.

قلت: من آداب العارف أن لا يستغرب شيئاً من تجليات الحق، ولا يتعجب من شيء منها كائنه ما كانت جلالية أو جمالية، فإن نزلت به نوزل قهرية أو وقعت في هذه الدار أكدار وأغيار جلالية، فلا يستغرب وقوع ذلك، لأن تجليات هذه الدار جلها جلالية، لأنها دار أهوال ومنزل فرقة وانتقال.

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال في بعض خطبه: «أيها الناس، إن هذه الدار دار التواء، (أي هلاك)، لا دار استواء. ومنزل ترح، (أي حزن)، لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخائها ولم يحزن لشقائها، ألا وإن الله خلق الدنيا دار بلوى والآخرة دار عقبى، فجعل بلوى الدنيا لنواب الآخرة سبباً، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي، وإنها لسريعة الثوى وشيكة الانقلاب، فاحذروا حلاوة رضائها لمرارة نطامها، واهجروا لذيتها عاجلها لكربة آجلها، ولا تسعوا في عمران دار قد قضى الله خرابها، ولا تواصلوها وقد أراد الله منكم اجتنابها، فتكونوا لسخطه متعرضين ولعقوبته مستحقين»⁽¹⁾.

فلا تستغرب أيها العارف ما يقع بك أو لغيرك من الأكدار ما دمت مقيماً في هذه الدار، لأنها ما برز فيها من التجليات الجلالية إلا ما هو مستحق أن تتصف به، وواجب أن تنعت به، فلا تستغرب شيئاً ولا تتعجب من شيء، بل الواجب عليك أن تعرف الله في الجلال والجمال والحلوة والمرارة، وأما إن كنت لا تعرفه إلا في الجمال فهذا هو مقام العوام، والمعرفة في الجلال هو السكون والأدب والرضى والتسليم.

وكما لا تستغرب وقوع الأكدار بحيث لا تحزن ولا تخف ولا تجزع، كذلك لا

(1) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، عن ابن عمر، حديث رقم (9186) [5/281].

تتعجب من وقوع المَسَارَ وهو الجمال بحيث لا تفرح ولا تبطر، فإن الجلال مقرون بالجمال، والجمال مقرون بالجلال، يتعاقبان تعاقب الليل والنهار، والعارف يتلون مع كل واحد منهما، لا يستغرب شيئاً ولا يتعجب من شيء، إذ كل ما يبرز من عنصر القدرة كله واحد.

[يُسْرُ التَّصْرِفِ بِاللَّهِ وَغُسْرُ التَّصْرِفِ بِالنَّفْسِ]

ثم ذكر الأدب الثامن، وهو أن يكون تصرفه بالله والله ومن الله وإلى الله، وهو مقام الصديق الذي هو لب الإخلاص وإخلاص خواص الخواص، فقال:

25 - (مَا تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبِّكَ، وَلَا تَيْسَّرَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِنَفْسِكَ)

التوقف: الحبس والتعذر، والمطلب: ما يطلب قضاؤه، والتيسر: التسهيل.

قلت: إذا عرضت لك حاجة من حوائج الدنيا والآخرة وأردت أن تقضى لك سريعاً، فاطلبها بالله ولا تطلبها بنفسك، فإنك إذا طلبتها بالله تيسر أمرها وسهل قضاؤها، وإن طلبتها بنفسك صعب قضاؤها وتعسر أمرها، ولا يتوقف ويحبس أمر طلبته بربك، ولا يتيسر ويسهل أمر طلبته بنفسك، قال تعالى حاكياً عن سيدنا موسى عليه السلام، وقال مرسى لقومه: ﴿أَسْتَوْعِينُوا بِاللهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: الآية 128]، فكل من استعان بالله وصبر في طلب حاجته كانت العاقبة له وكان من المتقين، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: الآية 3] أي كفيه كل ما أهمه. وقال ﷺ لبعض أصحابه وهو سويد بن غفلة: «لا تطلب الإمارة فإنك إن طلبتها وركلت إليها، وإن أتتك من غير مسألة أعنت عليها»⁽¹⁾.

وهلامة الطلب بالله هو الزهد في ذلك الأمر والاشتغال بالله عنه، فإذا جاء وقته تكوّن بإذن الله. وعلامة الطلب بالنفس هو الحرص والبطش إليه، فإذا تعذر عليه انقبض وتغير عليه، فهذا ميزان من كان طلبه بالله وطلبه بنفسه، فمن طلب حوائجه بالله قضيت معنى وإن لم تقض حسناً، ومن طلب حوائجه بنفسه خاب سعيه وضاع وقته وإن قضيت نهمته وحاجته.

والحاصل: أن تصرفات العارف كلها بالله، وتصرفات غيره كلها بالنفس ولو كانت لله، فالعمل بالله يوجب القربة، والعمل لله يوجب المثوبة، العمل بالله صاحبه

(1) روى نحوه البخاري عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة ركلت إليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فات الذي هو خير وكفر عن يمينك» (باب الكفارة...، حديث رقم 6342 [6/2471] ورواه مسلم في صحيحه، باب تدب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها، حديث رقم (1652) [3/1273] ورواه غيرهما).

داخل الحجاب في مشاهدة الأحباب، والعمل لله يوجب الثواب من وراء الباب، العمل بالله من أهل التحقيق، والعمل لله من أهل التشريع، العمل لله من أهل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: الآية 5] والعمل بالله من أهل قوله تعالى: ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: الآية 5].

[الرجوع إلى الله والاعتماد عليه في كل شيء]

ومن كان علمه بالله كان راجعاً إليه في كل شيء ومعتمداً عليه في كل حال، وإليه أشار بقوله:

26 - (مِنْ عَلَامَاتِ النُّجْحِ فِي النِّهَايَاتِ، الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ فِي الْبُدَايَاتِ)

النجاح في الشيء: هو بلوغ القصد والمراد فيه، ونجحت مطالبه إذا قضيت وبلغ منها ما أحب، ونهاية الشيء: تمامه، وبدايته: أوله.

قلت: إذا توجهت همتك أيها المرید إلى طلب شيء، وكنت فيه معتمداً على الله ومفوضاً أمرك إلى الله، تنظر ما سبق في علم الله، كان ذلك علامة نجاح نهايتك وحصول مطلبك، قضيت في الحس أو لم تقض، لأن مرادك مع مراد الله لا مع مراد نفسك، قد انقلبت حظوظك حقوقاً لا تشتهي إلا ما قضى الله، ولا تنظر إلا ما يبرز من عند الله، قد فنيت عن حظوظك وشهواتك.

وإن طلبت حاجة بنفسك، معتمداً على حولك وقوتك، حريصاً على قضائها، جاهداً في طلبها، كان ذلك علامة على عدم قضائها، وخيبة الرجاء فيها، وعدم نجاح نهايتها، وإن قضيت في الحس.

وهذه الحكمة تميم لما قبلها وشرح لها، والله تعالى أعلم.

[إشراق البداية سبب إشراق النهاية]

ثم كمل هذه المسألة بقاعدة كلية تصدق بما تقدم وبغيره، فقال:

27 - (مَنْ أَشْرَقَتْ بُدَايَتُهُ، أَشْرَقَتْ نِهَائَتُهُ)

قلت: إشراق البداية: هو الدخول فيها بالله وطلبها بالله والاعتماد فيها على الله مع السعي في أسبابها والاعتناء في طلبها قياماً بحق الحكمة وأدباً مع القدرة، ويعظم السعي في السبب بقدر عظمة المطلب، فبقدر المجاهدة تكون بعدها المشاهدة، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التكوير: الآية 69]

إشراق البداية في طلب حوائج الدنيا أو المقامات أو المراتب أو الخصوصية مثلاً، فهو بالزهد فيها والإعراض عنها والاشتغال بالله عنها، قال بعضهم: لا تدرك المراتب إلا بالزهد فيها. قال الشيخ أبو الحسن [الشاذلي]: كنت أنا وصاحب لي نعبد الله في مغارة

ونقول: في هذا الشهر يفتح الله علينا، في هذه الجمعة يفتح الله علينا. فوقف على باب المغارة رجل عليه ميماء الخير فقال: السلام عليكم، فرددنا عليه السلام، وقلنا له: كيف أنت، فنهض علينا وقال: كيف يكون حال من يقول في هذا الشهر يفتح الله، في هذه الجمعة يفتح الله، لا فتح ولا فلاح هلا عبدنا الله كما أمرنا. ثم غاب عنا، ففهمنا من أين أخذنا، فرجعنا على أنفسنا باللوم، ففتح الله علينا. انتهى بالمعنى، ذكره في التنوير⁽¹⁾.

[الظواهر صور البواطن]

ثم إن هذه الأمور التي تشرق بها البداية، وتكون علامة على إشراق النهاية هي أمور باطنية كالاعتماد على الله والرجوع إليه، أو كثرة الشوق والاشتياق إليه، لكن لا بد من ظهور أثرها على الظاهر، وإليه أشار بقوله:

28 - (ما استودع في قَيبِ السَّرَائِرِ، ظَهَرَ فِي شَهَادَةِ الظُّوَاهِرِ)

استودع: أي وضع، فالاستيداع هو وضع الشيء في محل ليحفظ، وغيب السرائر: هو باطنها، والمراد بالسرائر: هو القلوب والأرواح، وشهادة الظواهر [أي] في ظاهر الجوارح.

قلت: ما استودع الله سبحانه في القلوب وجعله فيها من خير أو شر، من نور أو ظلمة، من علم أو جهل، من رحمة أو قسوة، من بخل وشح أو كرم وسخاء، ومن قبض أو بسط، ومن يقظة أو غفلة، ومن معرفة أو نكران، أو غير ذلك من الأخلاق المحمودة أو المذمومة، لا بد أن يظهر آثار ذلك على الجوارح من أدب وتهذيب وسكون وطمأنينة ورزاق، وبذل وعفو، أو طيش وقلق وغضب، وغير ذلك من الأحوال القلبية والأعمال القلبية، قال تعالى: ﴿تَمْرِفُهُمْ بِسِيئَتِهِمْ﴾ [البقرة: الآية 273]، وقال: ﴿سِيئَاتِهِمْ فِي رُجُومِهِمْ﴾ [الفتح: الآية 29]، وقال ﷺ: «من سر سريرة كساه الله رداءها»⁽²⁾. فأفعال الجوارح تابعة لأحوال القلوب، فمن أودع في سر غيبه معرفة مولاه لم يطلب من سواه، ومن أودع في سر غيبه الجهل بمولاه تعلق بما سواه، وهكذا أحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن.

وما فيك ظهر على فيك، وكل إناء بالذي فيه يرشح، وما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره، والله تعالى أعلم.

(1) أي ذكره الشيخ أحمد بن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى في كتابه «التنوير في إسقاط التدبير».
(2) هذا الحديث ورد بلفظ: «ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر». (رواه الطبراني في الأوسط عن جندب بن سفيان البجلي، حديث رقم 7906 [8/43] وفي الكبير برقم 1702 [2/171] ورواه غيره.)

[معرفة الدليل والبرهان ومعرفة الشهود والعيان]

وأعظم ما استودع في غيب السرائر معرفة الله، وهي على قسمين: معرفة البرهان، ومعرفة [الشهود و] العيان، أشار إلى الفرق بينهما فقال:

29 - (شَتَانٌ بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ أَوْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ، الْمُسْتَدِلُّ بِهِ حَرَفَ الْحَقِّ لِأَهْلِيهِ، فَأَثَبَتْ الْأَمْرَ مِنْ وُجُودِ أَضْلِيهِ، وَالْأَسْتَدْلَالُ عَلَيْهِ، مِنْ حَدَمِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ. وَإِلَّا فَمَتَى غَابَ حَتَّى يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ؟ وَمَتَى بَعْدَ حَتَّى تَكُونَ الْأَثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْهِ؟)

شأن: بمعنى بعد وافتراق، ولا تكون إلا في افتراق المعاني دون الحسيات.

قلت: اعلم أن الحق سبحانه لما أراد أن يتجلى بأسرار ذاته وأنوار صفاته، أظهر بقدرته قبضة من نوره الأزلي، فاقتضت القدرة ظهور آثارها وشهود أنوارها، واقتضت الحكمة إسدال حجابها وإظهار أستارها، فلما فرغت القدرة نورها في مظاهر الكون أسدلت عليها الحكمة، ورداء الصون، فصارت الأكران كلها نوراً في حجاب مستور.

ثم إن الحق سبحانه قسّم الخلق على قسمين وفرّقهم فرقتين.

قسم اختصاصهم بمحبته وجعلهم من أهل ولايته، ففتح لهم الباب وكشف لهم الحجاب، فأشهدهم أسرار ذاته ولم يحجبهم عنه بآثار قدرته.

وقسم أقامهم لخدمته وجعلهم من أهل حكمته، أسدل عليهم حجاب الوهم وغيب عنهم نور العلم والفهم، فوقفوا مع ظواهر القشور ولم يشهدوا بواطن النور مع شدة الظهور، فسبحان من أخفى سره بحكمته وأظهر نوره بقدرته.

فأما أهل المحبة، وهم أهل الولاية والعرفان من أهل الشهود والعيان، فهم يستدلون بالنور على وجود الستور، فلا يرون إلا النور، وبالحق على وجود الخلق [يستدلون] فلا يجدون إلا الحق، وبقدرته [يستدلون] على حكمته فوجدوا قدرته عين حكمته، وحكمته عين قدرته، فغابوا بشهود الحق عن رؤية الخلق، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه.

وأما أهل الخدمة من أهل الحكمة، فهم يستدلون بظهور الستور على وجود النور، وبالخلق على وجود الحق، غابوا عنه في حال حضوره، وحجبوا عنه بشدة ظهوره.

قال بعض العارفين: أثبت الله تعالى للعامّة المخلوق فآثبتوا به الخالق، وأثبت للخاصة نفسه فآثبتوا به المخلوق، انتهى. فشتان، أي فرق كبير، بين من يستدل به على ظهور أثره، وبين من يستدل بظهور أثره على وجوده، لأن من يستدل به عرف الحق وهو الوجود الحقيقي لأهله، أي لمن هو أهل له ويستحقه، وهو الله الواجب الوجود الملك

المعبود، وأثبت الأمر وهو القدم للوجود الحقيقي من وجود أصله، وهو الجبروت الأصلي القديم الأزلي، يعني أن من عرف الله حتى صار عنده ضرورياً، عرف الوجود إنما هو الله، وانتفى عنه وجود ما سواه، وأثبت القدم لأوله ومنتهاه.

أو تقول: عرف الحق وهو الوجود الأصلي لأهله وهو الله تعالى، وأثبت الأمر وهو الوجود الفرعي من وجود أصله، أي الحقه بأصله. فإذا التحق الفرع بالأصل صار الجميع جبروتياً أصلياً.

وأما من يستدل عليه فلبعده عنه في حال قربه منه، ولغيبته عنه في حال حضوره معه، بقده الوهم وغيبه عدم الفهم، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه إذ هو أقرب إليك من حبل الوريد، ومتى بعد حتى تكون الآثار الوهمية هي التي توصل إليه ﴿وَهُوَ مَعَكُزْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [العديد: الآية 4] إذ أثر القدرة هو عينها، فالصفة لا تفارق الموصوف، إذ لا قيام لها إلا به، ولا ظهور لها إلا منه، وسيأتي له في المناجاة: إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، والله تعالى أعلم.

[حكم المستدل بالله والمستدل عليه تعالى]

ولما كان المستدلون بالله قد وسع الله عليهم دائرة العلوم وفتحت لهم مخازن الفهوم بخلاف المستدلين عليه قد قُتِرَ الله عليهم أرزاق العلم بوجود حجاب الوهم، أشار إلى ذلك بقوله:

30 - ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ الواصلون إليه. ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ السائرون إليه.

السعة: هي الغنى، وقدر عليه: ضيق عليه.

قلت: أما الواصلون إليه: فلأنهم لما نفذت أرواحهم من ضيق الأكوان إلى فضاء الشهود والعيان، أو تقول: لما عرجت أرواحهم من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، أو من عالم الملك إلى عالم الملكوت، اتسعت عليها دائرة أرزاق العلوم، وفتحت لها مخازن الفهوم، فأنفقوا من سعة غناهم جواهر العلم الممكنون، ومن مخازن كنوزهم يواقيت السر المصون.

وأما السائرون إلى الله: فلأنهم باقون في ضيق الأكوان وفي عالم الأشباح، مسجونون في سجن الوهم لم يفتح لهم شيء من مخازن الفهم، مشغولون بجهاد نفوسهم ومعاناة تصفية قلوبهم، مضيق عليهم في العلوم ومقتر عليهم في سائر الفهوم، فإن جدوا في السير وصلوا، وانتقلوا من ضيق الأكوان، ورحلوا وتبختروا في رياض

العلوم، ورفلوا فظفروا بما أمَلُوا، واستغنوا بعد أن ملوا [من الفقر الحسي والمعنوي]، وإن رجعوا من الطريق أو قصرُوا نقد خابوا وخسروا.

تنبيه: إن أردت أن يتسع عليك علم الأذواق فاقطع عنك مادة الأوراق، فما دمت متكلاً على كثر غيرك لا تحضر على كثرك أبداً، فاقطع عنك المادة وافتقر إلى الله تفيض عليك المواهب من الله ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [الثوبة: الآية 60] إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك. وقد قال الشيخ الدباس⁽¹⁾ لتلميذه ابن ميمون حين تأخر عنه الفتح فرصده فوجده يطالع رسالة القشيري: اطرح كتابك واحفر في أرض نفسك بخرج لك ينبوع وإلا فاذهب عني. انتهى وبالله التوفيق.

[الفرق بين انوار التوجه وانوار المواجهة]

ثم ذكر سبب اتساع العلوم على الواصلين دون السائرين، وهو أن الواصلين هم يقفوا مع شهود الأنوار بل نفذوا إلى نور الأنوار، بخلاف السائرين فإنهم واقفون مع الأنوار مفتقرون إليها مملوكون في يدها فقال:

31. (اهتدى الرّاجلون إليه بأنوار التّوجّه، والواصلون لهم أنوار المواجهة. قالوا لولون لالأنوار، وهولاء الأنوار لهم، لأنهم لله لا لشيء دونه، ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْمُونَ﴾ [الأنعام: 91])

قلت: أنوار التوجه هي أنوار الإسلام والإيمان، وأنوار المواجهة هي أنوار الإحسان.

أر تقول: أنوار التوجه أنوار الطاعة الظاهرة والباطنة، وأنوار المواجهة هي أنوار الفكرة والنظرة.

أر تقول: أنوار التوجه أنوار الشريعة والطريقة، وأنوار المواجهة أنوار الحقيقة.

أر تقول: أنوار التوجه أنوار المجاهدة والمكابدة وأنوار المواجهة هي أنوار المشاهدة والمكالمة.

وبيان ذلك أن الحق سبحانه إذا أراد أن يوصل عبده إليه.

توجه إليه أولاً بنور حلاوة العمل الظاهر، وهو مقام الإسلام، فيهتدي إلى العمل ويفنى فيه ويذوق حلاوته.

(1) قال الذهبي: الشيخ حماد بن مسلم أبو عبد الله البغدادي الثّاهد القدوة ببغداد وكان له معمل للذّبس وكان أمياً لا يكتب. له أصحاب وأتباع دونوا كلامه في مجلدات وكان شيخ العارفين في زمانه، من تلاميذه الشيخ أبو النّجيب السهروردي والشيخ عبد القادر الجيلاني. (الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للشيخ عبد الرؤوف المناوي مطبع في الدار بتحقيق الشيخ أحمد فريد المزدي).

ثم يتوجه إليه بنور حلاوة العمل الباطن، وهو مقام الإيمان من الإخلاص والصدق والطمانينة والانس بالله والتوحيش مما سواه، فيهتدي إليه ويفنى فيه ويذوق حلاوته ويتمكن من المراقبة، وهذا النور أعظم من الأول وأكمل.

ثم يتوجه إليه بنور حلاوة المشاهدة، وهو عمل الروح، وهو أول نور المواجهة، فتأخذه الدهشة والحيرة والسكر، فإذا أفاق من سكرته وصحا من جذبته وتمكن من الشهود وعرف الملك المعبود ورجع إلى البقاء كان لله وبالله، فاستغنى عن النور بمشاهدة نور النور لأنه صار عين النور، فصار مالكا للأنوار بعد أن كانت مائكة له لافتقاره لها قبل وصوله إلى أصلها، فلما وصل صار عبداً لله حرّاً مما سواه، ظاهره عبودية وباطنه حرية.

والحاصل: أن المرید ما دام في السير فهو يهتدي بأنوار التوجه مفتقراً إليها لسيره بها، فإذا وصل إلى مقام المشاهدة حصلت له أنوار المواجهة، فلم يفتقر إلى شيء لأنه لله لا لشيء دونه، فالراحلون وهم الساترون للأنوار لافتقارهم إليها وفرحهم بها، وهؤلاء الواصلون الأنوار لهم لاستغنائهم عنها بالله، فهم لله وبالله لا لشيء دونه.

[خلاصة ما ورد في الباب الثاني]

هذا آخر الباب الثاني، وحاصله: آداب العارف وعلاماته. فالآداب ثمانية والعلامات أربع، الرجوع إليه في كل شيء، والاعتماد عليه في كل حال، والغيبة فيه عن كل شيء، والاستدلال به على كل شيء. واتساع أرزاق العلوم، وفتح مخازن الفهوم، والوصول إلى مواجهة الأنوار والغيبة عنها بشهود الواحد القهار.

[الباب الثالث]

[التخلية والتحلية]

ثم افتتح الباب الثالث بذكر التخلية والتحلية، فقال رضي الله عنه :
32 - (تَشَوُّفُكَ إِلَى مَا بَطَّنَ فِيكَ مِنَ الْغُيُوبِ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ تَشَوُّفِكَ إِلَى مَا حُجِبَ عَنْكَ مِنَ الْغُيُوبِ)

التشوف إلى الشيء : الاهتمام به والتطلع له .

قلت : تشوفك أيها الإنسان إلى ما بطن فيك من العيوب ؛ كالحسد، والكبر، وحب الجاه، والرياسة، وهم الرزق، وخوف الفقر، وطلب الخصوصية، وغير ذلك من العيوب، والبحث عنها والسعي في التخلص منها، أفضل من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب ؛ كالاتلاع على أسرار العباد، وما يأتي به القدر من الوقائع المستقبلية، وكالاتلاع على أسرار غوامض التوحيد قبل الأهلية له، لأن تشوفك إلى ما بطن من العيوب سبب في حياة قلبك، وحياة قلبك سبب في الحياة الدائمة والنعيم المقيم، والاتلاع على الغيوب إنما هو فضول، وقد يكون سبباً في هلاك النفس ؛ كاتصافها بالكبر ورؤية المزية على الناس، وسيأتي للشيخ : من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه وسبباً يجر الوبال إليه .

[عيوب الإنسان]

واعلم أن العيوب ثلاثة : عيوب النفس، وعيوب القلب، وعيوب الروح .

لعيوب النفس : تعلقها بالشهوات الجسمانية ؛ كطيب المأكول والمشرب والملابس والمراكب والمساكن والمناكح، وشبه ذلك .

وعيوب القلب : تعلقه بالشهوات القلبية ؛ كحب الجاه والرياسة والعز والكبر والحسد والحقد وحب المنزلة والخصوصية، وشبه ذلك مما يأتي إن شاء الله في أوصاف البشرية .

وعيوب الروح : تعلقها بالحفظوظ الباطنية، كطلب الكرامات والمقامات والقصور والحدور، وغير ذلك من الحروف .

فتشوف المرید إلى شيء من ذلك كله قاذح في عبوديته مانع له من القيام بحقوق ربوبيته، فاشتغاله بالبحث عن عيوبه النفسانية والقلبية والروحانية وسعيه في التطهير من جميع ذلك، أولى من تشوفه إلى ما حجب عنه من علم الغيوب كما تقدم، وبالله التوفيق .

[استحالة الحجاب في حق الله تعالى]

ولما ذكر التخلية ذكر ثمرتها، وهي التحلية بالمعرفة، إذ ما منع منها إلا تشوف

النفس أو القلب أو الروح إلى حظوظها الوهمية فقال :

33 - (الْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ عَنْكَ وَإِنَّمَا الْمَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ، إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ لَسْتَرَهُ مَا حَجَبَهُ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَاتِرٌ، لَكَانَ لِيُوجِدَهُ حَاصِرٌ، وَكُلُّ حَاصِرٍ لَشَيْءٍ فَهُوَ لَهُ قَاهِرٌ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾)

قلت : الحق تعالى محال في حقه الحجاب ، فلا يحجبه شيء لأنه ظهر بكل شيء وقبل كل شيء وبعد كل شيء ، فلا ظاهر معه ولا موجود في الحقيقة سواء⁽¹⁾ ، فهو ليس بمحجوب عنك وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه ، لاعتقادك الغيرية وتعلق قلبك بالأمور الحسية ، فلو تعلق قلبك بطلب المولى وأعرضت بالكلية عن رؤية السوى لنظرت إلى نور الحق ساطعاً في مظاهر الأكوان ، وصار ما كان محجوباً عنك بالوهم في معد الشهود والعيان ، والله در القاتل⁽²⁾ :

لَقَدْ تَجَلَّى مَا كَانَ مَخْبِيًّ وَالْكَوْنُ كُلُّهُ طَوَيْتَ طَيِّ
مَنِي عَلَيَّ دَارَتْ كَوْسِي مَن بَعْدِ مَوْتِي تَرَانِي حَسِي

فالناس كلهم يشاهدون ولا يعرفون ، وكلهم في البحر ولا يشعرون .

وسمعت شيخنا رضي الله عنه يقول : والله ما حجب الناس عن الله إلا الوهم ، والوهم أمر عديم لا حقيقة له انتهى .

وسياتي للشيخ : ما حجبك عن الحق وجود موجود معه إذ لا شيء معه ، وإنما حجبك عنه توهم موجود معه . انتهى . إذ لو حجبه تعالى شيء حسّي لستره ذلك الحجاب ، ولو كان له ساتر حسّي لكان لوجوده حاصر ، إذ محال أن يستره من جميع الوجوه ولا يحصره ، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر ، كيف والله تعالى يقول : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام : الآية 18] أي لأنهم في قبضته وتحت تصرف قدرته وتخصيص إرادته ومشيتته .

والفوقية عبارة عن رفعة الجلال والمكانة لا المكان ، كما يقال : السلطان فوق الوزير ، والسيد فوق عبده ، والمالك فوق المملوك ، وغير ذلك مما يثبت الكبرياء وينفي سماء الحدوث ، والله تعالى أعلم .

[وجوب إزالة الأوصاف البشرية المناقضة لخصوص العبودية]

ولما كان حجاب الروح عن المعرفة أمراً وهمياً عديماً لا حقيقة له وهو مرضها

(1) أي لا موجود قائم بذاته غيره تعالى لأن ما سواه من المخلوقات قائم به تعالى ويستمد وجوده منه بدليل قوله تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي الْقِيَوْمُ﴾ [البقرة : الآية 255] وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُعَلِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا﴾ [ناظر : الآية 41] . ويقول الشيخ ابن عطاء الله السكندري في إحدى حكمه موضحاً ذلك : «نعمتان ما خرج موجود عنهما ولا بد لكل مكوّن منهما ، نعمة الإيجاد (من العدم) ونعمة الإمداد (بالوجود) .

(2) هو القطب الغوث أبر مدين الثلماني : شبيب بن الحسن الأندلسي الثلماني المتوفى سنة 594 هـ .

بأوصاف البشرية، فلو صحت لعرفت، أشار إلى ذلك بقوله:

34 - (اَخْرُجْ مِنْ اَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ، عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعِبَادِيَّتِكَ، لِتَكُونَ لِنِدَائِ الْحَقِّ مُجِيبًا، وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيبًا)

قلت: أوصاف البشرية هي الأخلاق التي تناقض خلوص العبودية. ومرجعها إلى أمرين:
الأول: تعلق القلب بأخلاق البهائم، وهي شهوة البطن والفرج، وما يتبعهما من حب الدنيا وشهواتها الفانية، قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّكَاحِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: الآية 14].

الثاني: تخلُّفه بأخلاق الشياطين كالكبر والحسد والحقد والغضب، والحدة وهي القلق، والبطر وهي خفة العقل، والأشر وهو التكبر، وحب الجاه والرياسة والمدح، والقسوة والفظاظة والغلظة، وتعظيم الأغنياء واحتقار الفقراء، وكخوف الفقر وهم الرزق، والبخل والشح، والرياء والعجب، وغير ذلك مما لا يحصى، حتى قال بعضهم: للنفس من النقائص ما لله من الكمالات. وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي كتاباً في عيوب النفس وأدويتها، ونظمه الشيخ أحمد زروق في نحو ثمانمائة بيت.

ومن ألقاه الله إلى شيخ التربية فلا يحتاج إلى شيء سوى الاستماع والاتباع، فإذا خرج المرید من أخلاق البهائم تخلَّق بأخلاق الروحانيين، كالزهد والورع والقناعة والعفة والغنى بالله والأنس به.

وإذا خرج من أخلاق الشياطين تخلَّق بأخلاق المؤمنين أو بأخلاق الملائكة، كالتواضع، وسلامة الصدر، والحلم، والسكينة والرزانة والطمأنينة، والسهولة والليونة، والخمول، والاكتفاء بعلم الله، والشفقة والرحمة، وتعظيم الفقراء والمساكين وأهل النسبة وجميع الأمة، ولكرم والسخاء والجود، والإخلاص، والصدق، والمراقبة والمشاهدة والمعرفة.

فإذا تخلَّق العبد بهذه الأخلاق، وتحقَّق بها ذوقاً بعد أن تخلَّص من أضدادها، كان عبداً خالصاً لمولاه حرّاً مما سواه، وكان لندائه مجيباً ومن حضرته قريباً، فإذا قال له ربه: يا عبدي، قال له: يا رب، فكان صادقاً في إجابته لصدق عبوديته، بخلاف ما إذا كان منهمكاً في شهواته الظاهرة والباطنة كان عبداً لنفسه وشهواته، فإذا قال: يا رب، كن كاذباً، إذ من أحب شيئاً فهو عبد له، وهو لا يحب أن تكون عبداً لغيره.

وإذا تخلَّص من رق الشهوات والحفظ كان أيضاً قريباً من حضرة الحق بل عاكفاً فيها، إذ ما أخرجنا عن الحضرة إلا حب هذه الخيالات الوهمية، فإذا تحررنا منها وتحققنا بالعبودية وجدنا أنفسنا في الحضرة.

واعلم أن هذه الأوصاف البشرية التي احتجبت بها الحضرة، إنما جعلها الله مندبلاً لمسح أقدار [آثار] القدرة كالنفس والشيطان والدنيا، فجعل الله النفس والشيطان

مندبلاً للأفعال المذمومة، وجعل البشرية مندبلاً للأخلاق الدنيئة، وما ثم إلا مظاهر الحق وتجليات الحق، وما ثم سواه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[مساوىء الرضى عن النفس]

ثم إن هذه العيوب سبب بقائها في الإنسان باعتبار الحكمة هي الغفلة عن البحث عنها، وسبب الغفلة عن البحث عنها هو الرضى عن النفس، إذ لو أساء ظنه بها لبحث عن مساويها فاستخرجها وتطهر منها، فلذلك قال:

35 - (أَضِلُّ كُلُّ مَعْصِيَةٍ وَغَفْلَةٍ وَشَهْوَةٍ الرُّضَا عَنِ النَّفْسِ)

قلت: إذ كل من رضى عن نفسه استحسن أحوالها وغطى مساويها لقول الشاعر:

وَعَيْنُ الرُّضَى عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ

35 - (وَاضِلُّ كُلُّ طَاعَةٍ وَيَقْظَةٌ وَهَفْءٌ حَدَمُ الرُّضَا مِنْكَ عَنْهَا)

قلت: لأن من اتهم نفسه وأساء ظنه بها ونظر إليها بعين السخط بحث عن عيوبها واستخرج مساويها لقول الشاعر⁽¹⁾:

[وَعَيْنُ الرُّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ] ولكن عين السخط تُبْدي المَسَاوِيَا

فابحث أيها المرید عن مساويك، واتهم نفسك، ولا تستحسن شيئاً من أحوالها، فإنك إذا رضيت عنها واستحسننت أحوالها لدغتك وأنت لا تشعر، وحجبتك عن الحضرة وأنت تنظر.

وكيف يصح لعاقل الرضى عن نفسه والكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يقول: ﴿رَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنْ أَلْفَسَ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوهِ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: الآية 53] انتهى. وفي معنى ذلك أنشدوا:

تَوَقَّ نَفْسَكَ لَا تَأْمَنْ غَوَائِلَهَا فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانًا

فابحث يا أخي عن عيوبك إن أردت نصح نفسك، فإذا بحثت عن عيوبها وفضحت عوراتها، تخلصت وتحررت وتحققت ودخلت الحضرة.

ومن أراد أن يتخلص فليصحب من تخلص، ولذلك قال:

35 - (وَلَا أَنْ تَصْحَبَ جَاهِلًا لَا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ عَالِمًا

يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ)

قلت: إذ صحبة من لا يرضى عن نفسه خير محض لتحقيقه بالإخلاص، فيسري ذلك في الصحاب حتى يتحلّى بالإخلاص، ويصير من جملة الخواص، وصحبة من

(1) ينسب هذا البيت للإمام الشافعي: محمد بن إدريس الهاشمي القرشي المطليبي أبو عبد الله أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه نسبة الشافعية كافة، ولد بغزة بفلسطين وحمل منها إلى مكة وهو ابن ستين، وزار بغداد مرتين وقصد مصر سنة 199 هـ فتوفي بها وقبره معروف في القاهرة [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

يرضى عن نفسه شرّ محض ولو كان أعلم أهل الأرض، لأن الطباع تسرق الطباع، إذ الجهل الذي يقرب للحضرة أحسن من العلم الذي يبعد عن الحضرة، ولذلك قال بعض العارفين: أشد الناس حجاباً عن الله العلماء، ثم العبّاد، ثم الزهاد لوقوفهم مع علمهم وعبادتهم وزهدهم. والجهل الذي يوصل إلى الله علم على الحقيقة، والعلم الذي يحجب عن الله جهل على الحقيقة، ولذلك قال:

35 - (فَأَيُّ عِلْمٍ لِعَالِمٍ يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ؟)

قلت: لأنه صار حجاباً له عن ربه.

35 - (وَأَيُّ جَهْلٍ لِحَاجِلٍ لَا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ؟).

قلت: إذ بعدم الرضى عن نفسه بحث عنها وتخلص من رقها، فصار عبداً حقيقة لله، فحينئذ أحبه سيده، واصطفاه لحضرته، واجتباها لمحبتة، وأطلعه على مكنون علمه، فكان أعلم خلقه، والله تعالى أعلم.

[البصيرة وأقسامها]

وإذا تخلص العبد من حظوظه، وأوصاف بشريته، قرب من حضرة ربه، لصحة قلبه وإشراقه بنور ربه، ثم امتحن وجوده في وجود محبوبه، وشهوده في شهود معبوده، وإلى ذلك أشار بقوله:

36 - (شُعَاعُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ، وَعَيْنُ الْبَصِيرَةِ تُشْهِدُكَ هَدَمَكَ لِوُجُودِهِ، وَحَقُّ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ وُجُودَهُ لَا هَدَمَكَ وَلَا وُجُودَكَ. كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، وَهُوَ الْآنَ عَلَيَّ مَا عَلَيْهِ كَانَ)

قلت: البصيرة ناظر القلب كما أن البصر ناظر القلب، فالبصيرة ترى المعاني اللطيفة النورانية، والبصر يرى المحسوسات الكثيفة الظلمانية الوهمية، ثم البصيرة باعتبار إدراك نور المعاني اللطيفة على خمسة أقسام:

قسم فسد ناظرها فعميت، فأنكرت نور الحق من أصله، قال سيدي البوصيري⁽¹⁾:

(1) شرف الدين البوصيري: محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري شرف الدين أبو عبد الله، شاعر حسن الأديباجة، مليح المعاني، نسبت إلى بوصير من أعمال بني سريف بمصر، أمه منها. وأصله من المغرب من قلعة حماد من قبيل يعرفون ببني جنون. ومولده في بهشيم من أعمال البهنساوية سنة 608 هجرية ووفاته بالإسكندرية سنة 696 هجرية. له (ديوان شعر)، وأشهر شعره البردة مطلعها:

أمن تذكّر جيران بدي سلم

شرحها وعارضها الكثيرون، والهمزية ومطلعها:

كيف ترقى رقيبك الأنبياء

وعارض (بانث سعاد) بقصيدة مطلعها:

إلى متى أنت بالذات مشغول

قد تنكر العين ضوء الشمس من رَمِدٍ وَيُنْكَرُ الْفُتْمُ طَعْمَ السَّمَاءِ مِنْ سَقَمٍ
وهذه بصيرة الكفار. قال تعالى: ﴿أَنْتُمْ يَسْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا
أَوْ أَعْيُنٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿١١١﴾ [الْحَجَّ:
الآية 46].

وقسم صح ناظرها لكنها مسدودة لضعف ناظرها لمرض أصابه، فهي تقرّ بالنور
لكنها لا تقوى على مشاهدته، ولا تشهد قربه منها ولا بعده عنها، وهي لعامة
المسلمين.

وقسم صح ناظرها وقوي شيئاً ما حتى قرب أن يفتح عينه، لكن لشدة الشعاع لم
يطلق أن يفتح عينه، فأدرك شعاع النور قريباً منه، وهو لعامة المتوجهين، ويسمى هذا
المقام شعاع البصيرة.

وقسم قوي ناظرها ففتح عين بصيرته فأدرك النور محيطاً به حتى غاب عن نفسه
بمشاهدة النور، وهذا لخاصة المتوجهين، ويسمى هذا المقام عين البصيرة.

وقسم صححت بصيرته واشتد نورها فاتصل نورها بنور أصلها فلم تر إلا النور
الأصلي، وأنكرت أن يكون ثم شيء زائد على نور الأصل «كان الله ولا شيء معه»⁽¹⁾
وهو الآن على ما عليه كان»⁽²⁾، ويسمى هذا حق البصيرة.

ووجه تسميته بشعاع البصيرة أن صاحبها لما كان يرى وجود الأكوان انطبعت في
مرآة بصيرته فحجبته عن شهود النور من أصله، لكن لما رقت كثافتها وتنوّرت دلائلها،
رأى شعاع النور من ورائها قريباً منه، فأدرك الشعاع ولم يدرك النور، وهذا هو نور
الإيمان وهو مقام علم اليقين.

ووجه تسميته بعين البصيرة، أن البصيرة لما صححت وقويت انفتحت عينها، فرأت
النور محيطاً ومتصلاً بها، فسميت عين البصيرة لانفتاحها وإدراكها ما خفي على
غيرها، وهذا مقام عين اليقين.

ووجه تسميته بحق البصيرة أن البصيرة لما أدركت الحق من أصله وغابت عن نور
الفروع بنور الأصول، سميت حق البصيرة، لما أدركته من الحق وغابت عن شهود
الخلق، وهذا مقام حق اليقين.

(1) رواه الحاكم في المستدرک بلفظ: «كان الله ولا شيء غيره»، وكان عرشه على الماء فكتب في الذكر كل شيء... (تفسير سورة هود، حديث رقم (3307) [2/371] ورواه النسائي في السنن الكبرى، قوله تعالى: وكان عرشه على الماء، حديث رقم (11240) [6/363] ورواه غيرهما.

(2) جملة «وهو الآن على ما عليه كان» زادها العارفون بالله تعالى المتحققون بمقام الإحسان ذوقاً لقوله تعالى: ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام﴾ ولقوله تعالى: ﴿أين ما تولوا فثم وجه الله﴾، ولقوله تعالى: «هو الأول والآخر والظاهر والباطن»، ولقول النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل». (البخاري، باب أيام الجاهلية، حديث رقم 3627، ومسلم كتاب الشعر، حديث رقم (2256) ورواه غيرهما).

فشعاع البصيرة هو نور الإيمان لأهل المراقبة، وعين البصيرة هو نور الإحسان لأهل المشاهدة، وحق البصيرة هو نور الرسوخ والتسكين لأهل المكالمة.

أو تقول: شعاع البصيرة نور علم اليقين، وعين البصيرة هو نور عين اليقين، وحق البصيرة هو نور حق اليقين.

فعلم اليقين لأهل الدليل والبرهان، وعين اليقين لأهل الكشف والبيان، وحق اليقين لأهل الشهود والعيان، مثال ذلك كمن سمع بمكة مثلاً ولم يرها فهذا عنده علم اليقين، فإذا استشرف عليها ورآها ولم يدخلها فهو عين اليقين، فإذا دخلها وتمكّن فيها فهو حق اليقين، وكذلك طالب الحق فما زال من وراء الحجاب فانياً في الأعمال فهو في علم اليقين، فإذا استشرف على الفناء في الذات ولم يتمكن من الفناء فهو عين اليقين، فإذا رسخ وتمكّن فهو في حق اليقين.

أو تقول: شعاع البصيرة لأهل عالم الملك، وعين البصيرة لأهل عالم الملكوت، وحق البصيرة لأهل عالم الجبروت.

أو تقول: شعاع البصيرة لأهل الفناء في الأعمال، وعين البصيرة لأهل الفناء في الذات، وحق البصيرة لأهل الفناء في الفناء.

فشعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك، أي يوجب لك شهود قرب نور الحق منك، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: الآية 16]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: الآية 4].

وعين البصيرة بشهدك عدمك، أي زوالك بزوال وهمك لوجوده، أي وجود الحق إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواء، فإذا زال عنك الوهم وفنيت عن وجودك شهدت ربك بربك، وهو علامة فتح البصيرة.

وحق البصيرة يشهدك وجود الحق وحده، لا وجودك لأنك مفقود من أصلك، ولا عدمك إذ لا يعدم إلا ما ثبت له وجود، ولم يكن مع الله موجود «كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان»⁽¹⁾، وهذه الزيادة وإن لم تكن في الحديث لكن معناها صحيح إذ التغير عليه تعالى محال. قال محيي الدين بن محمد بن علي بن العربي الحاتمي رضي الله عنه: من شهد الخلق لا فعل لهم فقد فاز، ومن شهدهم لا حياة لهم فقد جاز، ومن شهدهم عين العدم فقد وصل، انتهى.

والله تعالى أعلم.

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

[الباب الرابع]

[تعلق الهمة بالله تعالى]

ثم إذا تقرر انفراد الحق بالوجود فلا تتعد همتك إلى غيره إذ هو مفقود، وإلى ذلك أشار بقوله في أول الباب الرابع:

37 - (لا تَعُدَّ نِيَّةُ هِمَّتِكَ إِلَى غَيْرِهِ، فَالْكَرِيمُ لَا تَتَخَطَّأُ الْأَمَالَ)

قلت: لا تتعدى أي لا تتجاوز، ونية الهمة قصدها الذي تترجعه به، والهمة القوة المنبثقة في طلب المقاصد، والآمال قصود القاصدين، ومعنى لا تتخطاه أي لا تتجاوز إلى غيره.

قلت: إذا تعلقت همتك أيها المرید بشيء تريد تحصيله فردها إلى الله، ولا تتعلق بشيء سواه لأنه سبحانه كريم على الدوام ونعمه سبحانه على مر الليالي والأيام، والكريم لا تتخطاه الآمال، وهو يحب أن يُسأل فيجيب السؤال، وقد قالوا في تفسير اسمه تعالى الكريم: هو الذي إذا سئل أعطى، ولا يبالي كم أعطى، ولا لمن أعطى، وإذا رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى:

وذكرُ اللَّهِ مَرْهُمُ كُلِّ جِرْحٍ وَأَنْفَعُ مِنْ زَلَالٍ لِلأَوَارِ (1)
ولا مَرَجُودَ إِلَّا اللَّهُ حَقًّا فَذَعُ عَنْكَ التَّمَلُّقَ بِالْفِشَارِ

[لا ترفع الحاجات إلا إلى الله]

وإذا علمت كرمه وجوده وكماله وإحسانه فلا ترفع إلى غيره ما هو موردك عليك كما قال:

38 - (لا تَرْفَعَنَّ إِلَى غَيْرِهِ حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ)

قلت: قد علمت أن ما سوى الحق خيال وهمي لا حقيقة لوجوده، فإذا أنزل الله بك حاجة، كفاية أو شدة أو غير ذلك من العوارض فانزلها بالله، واجعلها تحت مشيئة الله، وغب عنها في ذكر الله، ولا تلتفت إلى ما سواه تعلقاً ولا تملقاً، ففي الحديث: «من لم يسأل الله بغضب عليه» (2). وقال أبو علي الدقاق: من علامة المعرفة أن لا تسأل حوائجك كلها إلا من الله، قلت أو جللت، مثل موسى عليه السلام اشتاق إلى رؤيته

(1) الأوار بالضم: شدة حر الشمس ولفح النار ووهجها والعطش.

(2) رواه الترمذي في سننه (2 باب منه) حديث رقم (3373) [456/5] والبخاري في الأدب المفرد، باب من لم يسأل الله... حديث رقم (658) [229/1] ورواه غيرهما.

فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣] ، واحتاج يوماً إلى رغي ففقال: ﴿إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصاص: الآية ٢٤] انتهى.

ثم تعجب ممن رفع أحكام الحق إلى غيره مع عجزه وضعفه، فقال:

38 - (فَكَيْفَ يَرْفَعُ غَيْرُهُ مَا كَانَ لَهُ وَاضِعاً؟)

قلت: من قلّة حياء الإنسان أن يرفع إلى غيره ما أنزله عليه الحق تعالى من أحكام قهره مع علمه بإحسانه وبرّه وعدم انفكاك لطفه عن قدره. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: أيسر من نفع نفسي لنفسي، فكيف لا أياس من نفع غيري لها؟ ورجوت الله لغيري فكيف لا أرجوه لنفسي؟

ثم بين وجه التعجب، فقال:

38 - (مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَةً عَنْ نَفْسِهِ فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ لَهَا عَنْ

غَيْرِهِ رَافِعاً؟)

قلت: من عجز عن إصلاح نفسه فكيف يقدر أن يصلح غيره؟ قال بعضهم: من اعتمد على غير الله فهو في غرور، لأن الغرور ما لا يدوم، ولا يدوم شيء سواه، وهو الدائم القديم الذي لم يزل ولا يزال، وعطاؤه وفضله دائمان، فلا تعتمد إلا على من يدوم لك منه العطاء والفضل انتهى.

[حسن الظن بالله تعالى]

ثم إن الاعتماد على الله ورفع الحوائج إليه والرجوع في كل النوازل إليه سببه حسن الظن به كما أشار إليه بقوله:

39 - (إِنْ لَمْ تُحْسِنِ ظَنُّكَ بِهِ لِأَجْلِ حُسْنِ وَضْفِهِ، فَحَسِّنْ ظَنُّكَ بِهِ لِوُجُودِ مُعَامَلَتِهِ مَعَكَ، فَهَلْ عَوَّدَكَ إِلَّا حَسَنًا؟ وَهَلْ أَسَدَى إِلَيْكَ إِلَّا مِثْنًا؟)

قلت: الناس في حسن الظن بالله على قسمين: خواص وعوام.

أما الخواص فحسن ظنهم بالله تعالى ناشيء عن شهود جماله ورؤية كماله، فحسن ظنهم بالله لا ينقطع سواء واجههم بجماله أو بجلاله، لأن اتصافه تعالى بالرحمة والرافة والكرم والجود لا ينقطع.

وأما العوام، فحسن ظنهم بالله ناشيء عن شهود إحسانه وحسن معاملته وامتنانه، فإذا نزلت بهم قهرية أو شدة نظروا إلى سالف إحسانه وحسن ما أسدى إليهم من حسن لطفه وامتنانه، فحاسوا ما يأتي على ما مضى، فتلقوا ما يرد عليهم بالقبول والرضى، وقد يضعف هذا الظن بضعف النظر والتفكير ويفوى بقوتها، بخلاف الأول فإنه ناشيء عن شهود الوصف والوصف لا يتخلف، والثاني ناشيء عن شهود الفعل وهو يتخلف، فإن لم تقدر أيها المرید أن تحسن ظنك بالله لشهود وصفه بالرافة والرحمة التي لا تتخلف، فحسّن ظنك به لوجود معاملته معك بلطفه ومننه، فهل عوّدك الحق تعالى إلا

براً حسناً ولطفاً جميلاً؟ وهل أسدى إليك أي أوصل إليك إلا منناً كبيرة ونعماً غزيرة؟ قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما بغدوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي»⁽¹⁾. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «إنا لا نحب إلا الله، فقال رجل: أبى ذلك جدك يا سيدي بقوله: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها»⁽²⁾. فقال الشيخ أبو الحسن: «إنا لما لم نر محسناً غير الله لم نحب سواه انتهى».

[التعجب ممن يترك الحق الباقي ويتوجه لغيره الفاني]

وإذا كان الحق تعالى ما عودك إلا الإحسان وما أسدى إليك إلا الامتنان، فمن العجب أن تتركه وتطلب ما سواه، وإلى ذلك أشار بقوله:

40 - (الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّنْ لَا أَنْفِكَاكَ لَهُ عَنْهُ، وَيَطْلُبُ مَا لَا بَقَاءَ لَهُ مَعَهُ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]

قلت: ما لا انفكاك منه هو الحق تعالى وقضاؤه وقدره، وما لا بقاء له هو الدنيا أو ما تدبره النفس وتقدره، فمن أعجب العجائب أن يفر العبد من مولاه ويتوجه بالطلب لما سواه، مع أنه لا انفكاك له منه ولا محيد له عنه، إذ لا وجود له إلا منه ولا قيام له إلا به، فكيف يهرب منه بترك طلب معرفته، وبترك التقرب منه بامتنان أمره واجتناب نهيه، ويطلب ما لا بقاء له من حظوظ الدنيا الفانية، التي إن لم تزل عنها في الحياة زالت عنك بالممات، فاطلب ما يبقى دون ما يفنى. والله در القائل⁽³⁾:

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى زَوَالٍ
وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلُ ظِلٍّ أَظْلَمَكَ ثُمَّ آذَنَ بَارْتَسِحَالٍ

[الرحيل من الكون المخلوق الفاني إلى المكوّن الخالق الباقي]

ثم إذا طلبت الحق الذي لا انفكاك لك عنه ورحلت إليه، فاطلب معرفة ذاته لا زخارف جناته، إذ هي كون من مكوّناته، ولذلك قال:

41 - (لَا تَرْحَلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ فَتَكُونَ كَجِمَارِ الرَّحَى يَسِيرُ وَالْمَكَانُ الَّذِي أَرْتَحَلُ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي أَرْتَحَلُ مِنْهُ، وَلَكِنْ أَرَحَلْ مِنْ الْأَكْوَانِ إِلَى الْمُكُونِ ﴿وَأَنَّ إِنْ رَبِّكَ أَلْسُنَهُنَّ﴾ [النجم: 42]).

(1) رواه انحاكم في المستدرک، ومن مناقب أهل رسول الله، حديث رقم (4716) [3/162]. ورواه

الترمذي في سننه، باب مناقب معاذ بن جبل...، حديث رقم (3789) [5/664] ورواه غيرهما.

(2) رواه انقضاعي في مسند الشهاب برقم (599) [1/350] ورواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب برقم (2588) [2/111] ورواه غيرهما.

(3) البيت الأول من هذين البيتين هو للشاعر أبو العتاهية: إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، العنزري أبو

إسحاق، شاعر مكثر، سريع الخاطر، في شعره إبداع، يعد من مقدمي المولدين، من طبقة بشار وأبي نواس

وأمثالهما. كان يجيد القول في الزهد والمدح وأكثر أنواع الشعر في عصره. ولد ونشأ قرب الكوفة،

وسكن بغداد ولد سنة 130 هـ، وتوفي سنة 211 هـ. [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

قلت : الرحيل من الكون إلى الكون هو الرحيل من السوى إلى طلب السوى ، وذلك كمن زهد في الدنيا وانقطع إلى الله يطلب بذلك راحة بدنه وإقبال الدنيا عليه نقوله **﴿كَلِمَةً : «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مونة ورزقه من حيث لا يحتسب»⁽¹⁾ ، ولقوله أيضاً : «من كانت الآخرة نيته جمع الله عليه أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي صاغرة»⁽²⁾ .**

وكم من زهد فيها يطلب الخصوصية كإقبال الخلق والعز وتربية المهابة في قلوب الناس ، أو زهد فيها يطلب الكرامة وخوارق العادات ، أو زهد فيها يطلب القصور والحدود ، فهذا كله رحيل من كون إلى كون ، فمثله كحمار الطاحونة يسير الليل والنهار وهو في موضعه ، فالذي ارتحل منه هو الذي ارتحل إليه ، فمن كانت همته الحفظ النفسانية فحاله حال حمار الساقية ، في السير دائم وهو في موضعه قائم ، يظن أنه قطع مسافة مما طلب وما زاد إلا نقصاً مع تعب .

فينبغي لك أيها المرهد أن ترفع همتك إلى الملك المجيد ، فترحل من رؤية الأكوان إلى طلب شهود الملك الديان ، أو ترحل من الدليل والبرهان إلى رتبة الشهود والعيان ، وهو غاية القصد وبلوغ المنتهى **﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾** [التجم : الآية 42] .
ولا ترحل من كون إلى كون بأن تترك حفظاً من حظوظ نفسك طلباً لحظ آخر ، فتكون كحمار الرحى الذي سار منه هو الذي عاد إليه .

والرحيل إلى المكوّن يكون بثلاثة أمور :

الأول : قصر همتك عليه دون ما سواه حتى يطلع على قلبك فلا يجده محبباً لسواه .

الثاني : الرجعى إليه بإقامة الحقوق والفرار من الحظوظ .

الثالث : دوام اللجوء إليه والاستعانة به والتوكل عليه والاستسلام لما يورده عليك .

[الهجرة إلى الله تعالى]

ثم استدل على طلب رفع الهمة إلى الله مع الإعراض عما سواه بحديث الهجرة الذي في الصحيح فقال :

41 - (وَأَنْظُرْ إِلَىٰ قَوْلِهِ : «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَىٰ امْرَأَةٍ يَتَرَوَّجُهَا فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ

(1) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ، من اسمه جعفر ، حديث رقم (3359) [3/346] ورواه القضاعي

في مسند الشهاب باب من انقطع إلى الله . حديث رقم (493) [1/298] .

(2) روى نحوه ابن حنبل في الزهد ، أخبار الحسن بن أبي الحسن [1/286] ، وأورده بلفظه أبو الفرج

البيгдаي في جامع العلوم والحكم [1/300] . وأورد نحوه غيره .

إِلَيْهِ»⁽¹⁾ فَالْهَيْمُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ وَتَأَمَّلْ هَذَا الْأَمْرَ إِنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ وَالسَّلَامُ)

قلت: الهجرة هي الانتقال من وطن إلى وطن آخر، بحيث يهجر الوطن الذي خرج منه ويسكن الوطن الذي انتقل إليه، وهي هنا من ثلاثة أمور: من وطن المعصية إلى وطن الطاعة، ومن وطن الغفلة إلى وطن اليقظة، ومن وطن عالم الأشباح إلى وطن عالم الأرواح.

أو تقول: من وطن الملوك إلى وطن المنكوت، أو من وطن الحس إلى وطن المعنى، أو من وطن علم اليقين إلى وطن عين اليقين، أو حق اليقين.

فمن هاجر من هذه المواطن قاصداً بهجرته الوصول إلى رضى الله ورسوله، أو الوصول إلى معرفة الله ورسوله، فهجرته موصلة له إلى الله ورسوله على حسب قصده وهيمته.

ومن كانت هجرته إلى حظوظ نفسه وهواه، فقد خاب قصده ومسعاه، وغاية هجرته ما هاجر إليه، وكانت هجرته زيادة في جر الوبال إليه، فافهم أيها السامع قوله عليه السلام: فهجرته إلى ما هاجر إليه، وتدبره واعرضه على قلبك ونفسك. فإن الله غيور لا يحب لمن طلبه أن يطلب معه سواه، ولن يوصل إليه من بقي فيه بقية من حظه وهواه. قال الششتري [على لسان الحضرة]:

إِنْ تَرَدَّ وَصَلْنَا فَمَوْتُكَ شَرْطٌ لَا يَنَالُ الْوَصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلُهُ
وَقَالَ أَيْضاً:

لَيْسَ يُذْرِكُ وَصَالِي كُلُّ مَنْ فِيهِ بَقِيَّةٌ

وختم هذا الباب بالسلام لما اشتملت عليه [الحكمة] من الرحيل والمقام، نكلها تدل على سفر القلب من شهود الخلق إلى شهود الخالق، فناسب ختمها بالسلام لما فيه من ذكر السلامة.

(1) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب ما جاء أن الأعمال بائنية... حديث رقم (54) [30/1] ورواه مسلم في صحيحه، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية...» حديث رقم (1907) [3/1515] ورواه غيرهما.

[الباب الخامس]

[ذكر الصحبة وشروط المصحوب]

ولما كان السفر لا بد فيه من دليل وإلا ضلّ عن سواء السبيل، افتتح الباب الخامس بذكر الصحبة وشروط المصحوب وآدابها فقال:

42 - (لا تَصْحَبْ مَنْ لا يَنْهَضُكَ حَالُهُ، وَلا يَدُلُّكَ عَلَى اللَّهِ مَقَالُهُ)

قلت: الذي ينهضك حاله هو الذي إذا رأته ذكرت الله، فقد كنت في حال الغفلة، فلما رأته نهض حالك إلى اليقظة، أو كنت في حالة الرغبة، فلما رأته نهض حالك إلى الزهد، أو كنت في حالة الاشتغال بالمعصية، فلما رأته نهض حالك إلى التوبة، أو كنت في حالة الجهل بمولاك، فنهضت إلى معرفة من تولاك، وهكذا.

والذي يدل على الله مقاله، هو الذي يتكلم بالله ويدل على الله ويغيب عما سواه، إذا تكلم أخذ بمجامع القلوب، وإذا سكت أنهضك حاله إلى علام الغيوب.

والصحبة في طريق التصوّف أمر كبير في السير إلى الله تعالى حسبما جرت به عادة الله تعالى وحكمته، حتى قال بعضهم: من لا شيخ له فالشيطان شيخه.

ومن شروط الشيخ أربعة: علم صحيح، وذوق صريح، وهمة عالية، وحالة مرضية. فالعلم الصحيح: هو ما يتقن به فرضه.

ولا بد أن يكون عالماً بالمقامات والمنازل التي يقطعها المرید، وبغرور النفس ومكائدها، قد سلك ذلك على يد شيخ كامل، وذاق ذلك ذوقاً لا تقليداً وهو المراد بالذوق الصريح. والهمة العالية: هي المتعلقة بالله دون ما سواه. والحالة المرضية: هي الاستقامة بقدر الاستطاعة.

ولا بد أن يكون جامعاً بين حقيقة وشريعة، وبين جذب وسلوك، فيجذبه بجذب القلوب، وبسلوكه يخرج من حالة الجذب إلى البقاء.

قال في أصول الطريقة: ومن فيه خمس لا تصح مشيخته: الجهل بالدين، وإسقاط حرمة المسلمين، ودخول ما لا يعني، واتباع الهوى في كل شيء، وسوء الخلق من غير مبالاة. انتهى.

[المنع من صحبة المسيء]

فصحبة مثل هذا ضرر محض، وإليه أشار بقوله:

43 - (رُبَّمَا كُنْتَ مُسِينًا فَأَرَاكَ الْإِحْسَانَ مِنْكَ صُحْبَتِكَ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالًا

مِنْكَ)

قلت: رب هنا للتكثير، وصحبتك فاعل بأراك، والإحسان مفعول مقدم. والتقدير: ربما تكون مسيناً في حالك مقصراً في عملك، فإذا صحبت من هو أسوأ حالاً منك أراك، أي أبصرتك صحبتك إلى من هو أسوأ حالاً منك الإحسان منك، لما ترى ما يصدر منها من الإحسان، ومن المصحوب من التقصير والنقصان، فتعتقد المزية عليه لأن النفس مجبولة على رؤية الفضل لها ومشاهدة التقصير من غيرها علماً أو عملاً أو حالاً، بخلاف ما إذا صحبت من هو أحسن حالاً منها، فإنها لا ترى من نفسها إلا التقصير، وفي ذلك خير كثير.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: أوصاني حبيبي فقال: لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالباً من معصية الله، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقيناً وقليل ما هم.

وقال سيدي علي [الجمل] رضي الله عنه في كتابه: اهلّم أنه لا يُقَرَّبُ طالب الله إلى الله شيء مثل جلوسه مع عارف بالله إن وجدته، وإن لم يجده فعليه بذكر الله ليلاً ونهاراً، قائماً وقاعداً، مع العزلة عن أبناء الدنيا بعدم الجلوس معهم، وعدم الكلام كذلك، وعدم النظر فيه، م لأنهم سم خارق.

ولا يبعد من الله شيء مثل جلوسه مع فقير جاهل، الفقير الجاهل أقبح من العامي الغافل بألف ضعف، الجلوس مع العارف بالله أفضل من العزلة، والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام الغافلين.

وقال سهل بن عبد الله [التستري] رضي الله عنه: احذر صحبة ثلاث من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوّفة الجاهلين. انتهى. وزاد الشيخ [أحمد] زروق: علماء الظاهر، قال: لأن نفوسهم غالية عليهم. انتهى.

قلت: الجلوس معهم اليوم أقبح من سبعين عامياً غافلاً وفقيراً جاهلاً، لأنهم لا يعرفون إلا ظاهر الشريعة، ويرون أن من خالفهم في هذا الظاهر خاطيء أو ضال. ويرحم الله أبا ذر الغفاري رضي الله عنه حيث قال: والله لا أسألهم دنيا ولا أستفتيهم عن دين⁽¹⁾. انتهى.

قال: هذا في علماء الصحابة الأخيار رضي الله عنهم، فما بالك اليوم حين

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب ما أدى زكاته نليس بكثر...، حديث رقم (1342) [2/510] ورواه غيره..

اشتغلوا بجمع الدنيا، وتزيين الملابس، وتكبير العمائم، وتحسين المأكل والمساكن والمراكب، ورأوا ذلك سنة نبوية، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

[الزهد يكثر العمل والرغبة في الدنيا تقلله]

ومما يتأكد النظر إليه في المصحوب: الزهد في الدنيا، ورفع الهمة عنها، ولو قل عمله في الظاهر وإلى ذلك أشار بقوله:

44 - (ما قلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبِ زَاهِدٍ، وَلَا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبِ رَاغِبٍ)

قلت: الزهد في الشيء: هو [عدم الرغبة في الشيء والحرص عليه] وخروج محبته من القلب، وعند القوم بغض كل ما يشغل عن الله ويحبس عن حضرة الله.

ويكون أولاً في المال، وعلامته أن يستوي عنده الذهب والثراب، والفضة والحجر، والغنى والفقر، والمنع والعطاء.

ويكون ثانياً في الجاه والمراتب. وعلامته: أن يستوي عنده العز والذل، والظهور والخمول، والمدح والذم، والرفعة والسقوط.

ويكون ثالثاً في المقامات والكرامات والخصوصيات، وعلامته أن يستوي عنده الرجاء والخوف، والقوة والضعف، والبسط والقبض، يسير بهذا كما يسير بهذا، أو يعرف في هذا كما يعرف في هذا، ثم يكون الزهد في الكون بأسره بشهود المكرون وأمره، فإذا تحقق المرید بهذه المقامات في الزهد أو جلها، كان عمله كله عظيماً كبيراً في المعنى عند الله وإن كان قليلاً في الحسن عند الناس. وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «عمل قليل في سنة خير من عمل كثير في بدعة»⁽¹⁾.

عبادة الزاهد بالله الله، وعبادة الراغب بالنفس للنفس. عبادة الزاهد حية باقية، وعبادة الراغب ميتة فانية.

وسمعت شيخنا رضي الله عنه يقول: الراغب في الدنيا غافل ولو كان يقول: الله الله، بلسانه على الدوام، إذ لا عبرة باللسان. والزاهد في الدنيا ذاكراً على الدوام ولو قل ذكره باللسان. انتهى. قلت: وبهذا فسر بعضهم قوله تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: الآية 142] أي مع الغفلة والرغبة ولو كثر في الحسن. انتهى.

وفي بعض الأخبار: أن سيدنا عيسى عليه السلام مرّ برجل نائم والناس يتعبّدون، فقال له عيسى عليه السلام: قم تتعبّد مع الناس، فقال: تعبدت يا روح الله، فقال له:

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه، باب الرخص في الأعمال والنقص، حديث رقم (20568) [291/11] والبيهقي في شعب الإيمان، فصل ومن هذا الباب مجانبة الظلمة، حديث رقم (9523) [72/7] ورواه غيرهما.

وما عبادتك، قال: تركت الدنيا لأهلها، فقال له: نعم نعمت العباداة هذه، أو كما قال عليه السلام.

[ثمرات مقامات الإنزال]

ولما كان حسن الظاهر وإتقانه الذي يكون به كماله ونقصانه إنما هو نتائج حسن الباطن وأحواله، أشار إلى ذلك بقوله:

45 - (حُسْنُ الْأَعْمَالِ نَتَائِجُ حُسْنِ الْأَحْوَالِ وَحُسْنُ الْأَحْوَالِ مِنَ التَّحَقُّقِ فِي مَقَامَاتِ الْإِنزَالِ)

قلت: الأعمال: حركة الجسم بالمجاهدة، والأحوال: حركة القلب بالمكابدة، والمقامات: سكون القلب بالطمأنينة، مثال ذلك مقام الزهد مثلاً فإنه يكون أولاً عمله مجاهدة بترك الدنيا وأسبابها، ثم يكون مكابدة بالصبر على الفاقة حتى يصير حالاً، ثم يسكن القلب ويذوق حلاوته فيصير مقاماً.

وكذلك التوكل يكون مجاهدة بترك الأسباب، ثم يكون مكابدة بالصبر على مرارة تصرفات الأقدار، ثم يصير حالاً، ثم يسكن القلب فيه ويذوقه فيصير مقاماً.

وكذلك المعرفة تكون مجاهدة بالعمل في الظاهر كخرق العوائد من نفسه، ثم تكون مكابدة بالمعرفة والإقرار عند التعريفات، ثم تصير حالاً، فإذا سكنت الروح في الشهود وتمكنت صارت مقاماً.

فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب، يعني أن الأحوال مواهب من الله جزاء لثواب الأعمال، فإذا دام العمل واتصل الحال صار مقاماً، فالأحوال تتحول، تذهب وتجيء، فإذا سكن القلب في ذلك المعنى صار مقاماً وهو مكتسب من دوام العمل.

فعلامه التحقق بمقامات الإنزال هو حسن الحال، وعلامه حسن الحال هو حسن العمل، فاتقان الأعمال وحسنها هو ثمرة ونتيجة حسن الأحوال، وحسن الأحوال وإتقانها هو نتيجة التحقق بمقامات الإنزال أي التحقق بالإنزال في المقامات.

والحاصل: أن حركة القلب تدل على صلاح القلب أو فساد له لقوله ﷺ: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»⁽¹⁾. فإذا تحقق القلب بالزهد مثلاً، وصار له حالاً أو مقاماً، ظهر ذلك على جوارحه من الثقة بالله والاعتماد عليه، وقلة الحركة عند الأسباب المحركة لقوله عليه السلام: «ليس الزهد بتحریم الحلال، ولا بإضاعة المال، إنما الزهد أن تكون بما في

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (52) [28/1] ومسلم في صحيحه، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم (1599) [3/1219] ورواه غيرهما.

يد الله أوثق مما في يدك⁽¹⁾.

وقال الصديق رضي الله عنه لأبي الحسن الشاذلي في النوم:

علامة - [التحقق بالإنزال في مقام الزهد] - خروج حب الدنيا من القلب وبذلها عند الوجد، ووجود الراحة منها عند الفقد.

وعلامة التحقق بالإنزال في مقام التوكل: السكون والطمأنينة عند محركات الأسباب.

وعلامة التحقق بالإنزال في مقام المعرفة هو: الأدب ظاهراً وباطناً وحسن الخلق مع كل مخلوق، ولذلك قال أبو حفص الحداد رضي الله عنه: حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن، فإن النبي ﷺ قال: «لو خشع قلب هذا لخشمت جوارحه»⁽²⁾ انتهى. وراجع ما تقدم من شرح قوله: تنوعت أجناس الأعمال بتنوع واردات الأحوال، ففيه زيادة شرح على هذا المحل، والله تعالى أعلم.

[ذكر الله تعالى وثمراته]

وأفضل الأعمال التي يقطع بها المرید المقامات وأقربها هو ذكر الله، ولذلك ذكره بأثره فقال:

46 - (لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأن عقلك عن وجود ذكره أشد من عقلك في وجود ذكره. فمسي أن يرفحك من ذكر مع وجود عقلية، إلى ذكر مع وجود بقلية، ومن ذكر مع وجود بقلية، إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور، إلى ذكر مع وجود هيبه عما سوى المذكور، ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ [إبراهيم: 20])

قلت: الذكر ركن قوي في طريق القوم، وهو أفضل الأعمال، قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: الآية 152]، وقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية 41] والذكر الكثير أن لا ينساه أبداً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل عبادة فرضها الله تعالى جعل لها وقتاً مخصوصاً، وعذر العباد في غير أوقاتها إلا الذكر لم يجعل الله له وقتاً مخصوصاً، قال الله تعالى: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية 41]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ

(1) روى نحوه الترمذي في سننه، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا، حديث رقم (2340) [4/ 571] وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، حديث رقم (4100) [2/ 1373] ورواه غيرهما ونصه: عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يدي الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك».

(2) رواه ابن شيبه في مصنفه، في مس اللحية في الصلاة، حديث رقم (6787) [2/ 86] أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في الأصل الخامس والأربعون والمائتان [3/ 210] وأورده غيرهما.

الصَّلَاةَ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴿[النساء: الآية 103] ، وقال رجل : يا رسول الله كثرت عليّ شعائر الإسلام فأوصني بأمر أدرك به ما فاتني وأوجز ، فقال : « لا يزال لسانك رطباً بذكر الله »⁽¹⁾ . وقال عليه السلام : « لو أن رجلاً في حجره دراهم يقسمها وآخر يذكر الله لكان الذاكر الله أفضل »⁽²⁾ . وقال ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ، قالوا : وما ذاك يا رسول الله ، قال : ذكر الله »⁽³⁾ .

وعن علي كرم الله وجهه : قلت : يا رسول الله أي الطرق أقرب إلى الله وأسهلها على عباد الله وأفضلها عند الله تعالى ؟ فقال : « يا علي عليك بمداومة ذكر الله » ، فقال علي : كل الناس يذكرون الله⁽¹⁾ ، فقال ﷺ : « يا علي لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول : الله » ، فقال له : كيف أذكر يا رسول الله ، فقال له ﷺ : « ضمض عينيك واسمع مني ثلاث مرات ثم قل مثلها وأنا أسمع ، فقال ﷺ : لا إله إلا الله - ثلاث مرات مغمضاً عينيه - »⁽⁴⁾ ثم قالها علي كذلك ، ثم لقنها علي للحسن البصري ، ثم الحسن للحبيب العجمي ، ثم حبيب لداود الطائي ، ثم داود لمعروف الكرخي ، ثم معروف للسري ، ثم السري للجنيد ، ثم انتقلت إلى أرباب التربية ، فلا مدخل على الله إلا من باب الذكر ، فالواجب على العبد أن يستغرق فيه أوقاته ، ويبذل فيه جهده ، فإن الذكر منشور الولاية ، ولا بد منه في البداية والنهاية ، فمن أعطى الذكر فقد أعطى المنشور ، ومن ترك الذكر فقد عجز . وأنشدوا :

والذكرُ أعظمُ بابٍ أنتَ داخلُهُ لله فاجعل له الأنفاسَ حراساً

فبقدر ما يفنى في الاسم يفنى في الذات ، وبقدر ما يتفتر في الفناء في الاسم يكون متفتراً في الفناء في الذات ، فليلتزم المرید الذكر على كل حال ، ولا يترك الذكر باللسان لعدم حضور قلبه فيه ، بل يذكره بلسانه ولو كان غافلاً بقلبه ، فإن غفلت عن وجود ذكره أشد من غفلت في وجود ذكره ، لأن غفلت عن ذكره إعراض عنه بالكلية ، وفي وجود ذكره إقبال بوجه ما .

فليلتزم الإنسان ذكر اللسان حتى يفتح الله في ذكر الجنان ، فمسي أن ينقلك الحق

(1) رواه الحاكم في المستدرک ، کتاب الدعاء حديث رقم (1822) [1\672] وابن ماجه في سننه ،

باب فضل لا إله إلا الله ، حديث رقم (2793) [2\1246] ورواه غيرهما

(2) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ، من اسمه محمد ، حديث رقم (5969) [6\116] وذكر تخريجه

السيوطي في الدر المنثور ، قوله تعالى : ﴿ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [البقرة: الآية 152] [1\363]

(3) رواه الحاكم في المستدرک على الصحيحين ، كتاب الدعاء حديث رقم (1825) [1\673]

وابن ماجه في سننه ، باب فضل الذكر ، حديث رقم (3790) [2\1245] ورواه غيرهما .

(4) أورده عبد الرحمن الجبرتي في عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، فصل في ذكر أخذ العهد بطريق

الخلوتية [1\346] .

تعالى من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، أي انتباه لمعاني الذكر عند الاشتغال به .

ومن ذكر مع [وجود] يقظة إلى ذكر مع وجود حضور المذكور وارتسامه في الخيال حتى يطمئن القلب بذكر الله، ويكون حاضراً بقلبه مع دوام ذكره، وهذا هو ذكر الخواص والأول ذكر العوام .

فإن دمت على ذكر الحضور، رفعتك إلى ذكر مع الغيبة عما سوى المذكور لما يغمر قلبك من النور، وربما يعظم قرب نور المذكور فيغرق في النور حتى يغيب عما سوى المذكور، [و] حتى يصير الذاكر مذكوراً والطالب مطلوباً والواصل موصولاً ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: الآية 20] أي بمرتاح، فقد يرفع في أعلى الدرجات من كان في أسفل الدرجات، وها هنا يسكت اللسان وينتقل الذكر للجنان، فيصير ذكر اللسان غفلة في حق أهل هذا المقام، كما قال الشاعر⁽¹⁾:

ما إن ذكرتك إلا همّ يلسعني
سري وقلبي وروحي عند ذكراك
حتى كأن رقيباً منك يهتف بي
إسأك ويحكك والتذكّار إيساك
أما ترى الحقّ قد لاحت شواهده
وواصل الكلّ من معناه معنأك

وقال القشيري رضي الله عنه: الذكر اندراج الذاكر في مذكوره، واستقلال السر عند ظهوره. وفي معنى ذلك أنشدوا⁽²⁾:

ذكرتك لا أني نسيئتك لمحّة
وأيسر ما في الذكر ذكر لسانی
وصرت بلا وجد أهيم من الهوى
وهام علي القلب بالخفقان
فلما أراني الوجد أنك حاضري
شهدتك موجوداً بكل مكان
فخاطبت موجوداً بغير تكلم
وشاهدت موجوداً بغير عيان

وفي هذا المقام يتحقق المرید بعبادة الفكرة أو النظرة، وفكرة ساعة خير من عبادة سبعين سنة. ولذلك قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: أوقاتنا كلها ليلة القدر، أي عبادتنا كلها مضاعفة مع خفائها وتحقيق الإخلاص فيها، إذ لا يطلع عليها ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده. وفي ذلك قال بعضهم، قيل: هو الحلاج:

قلوب العارفين لها عيون
تري ما لا يرى للناظرين
والسنن بأسرار تنساجي
تغيب عن الكرام الكاتبين
وأجنحة تطير بغير ريش
إلى ملكوت رب العالمين

(1) هو الإمام أبو بكر الشبلي كما في تفسير السلمى لأبي عبد الرحمن محمد الأزدي السلمى المتوفى سنة 412 هجرية، (سورة آل عمران آية 191) (والذين يذكرون الله...) [132/1] ونسبه للشبلي أيضاً أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي في تاريخ مدينة دمشق، ذكر من اسمه أبو بكر [66/66].

(2) المنشد هو أبو بكر الشبلي كما في تاريخ مدينة دمشق لابن هبة الله الشافعي ذكر من اسمه أبو بكر [76/66] وكما في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، باب الكنى [390/14].

[الباب السادس] [موت القلب وحياته]

ولما كان الذكر هو سبب حياة القلب وتركه سبب موته، وفي الحديث: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت»⁽¹⁾. ذكر علامة حياته وموته في أول الباب السادس، فقال:

47 - (مِنْ عَلَامَاتِ مَوْتِ الْقَلْبِ عَدَمُ الْحُزْنِ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنَ الْمَوَاقِفَاتِ، وَتَرْكُ النَّدَمِ عَلَى مَا فَعَلْتَ مِنْ وُجُودِ الزَّلَّاتِ)

قلت: موت القلب سببه ثلاثة أشياء: حب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله، وإرسال الجوارح في معاصي الله.

وسبب حياته ثلاثة أشياء: الزهد في الدنيا، والاشتغال بذكر الله، وصحبة أولياء الله.

وعلامة موته ثلاثة أشياء: عدم الحزن على ما فاتك من الطاعات، وترك الندم على ما فعلت من الزلات، وصحبتك للغافلين الأموات، وذلك لأن صدور الطاعة من العبد عنوان السعادة، وصدور المعصية علامة الشقاوة، فإن كان القلب حياً بالمعرفة والإيمان، ألمه ما يوجب شقاوته، وأفرحه ما يوجب سعادته.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من سرته حسناته وساءته سيئاته فهو مؤمن»⁽²⁾.

[الذنوب وأحكام الخوف والرجاء وأقسام الناس فيهما]

لكن لا ينبغي للعبد أن يغلب النظر إلى جانب الذنب، فيقل رجاؤه ويسيء الظن بسيد، كما أشار إليه بقوله:

48 - (لَا يَعْظُمُ الذَّنْبُ هِنْدَكَ عَقْلَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ)

قلت: الناس في الخوف والرجاء على ثلاثة أقسام:

أهل البداية ينبغي لهم تغليب جانب الخوف، وأهل الوسط ينبغي لهم أن يعتدل

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب فضل ذكر الله، حديث رقم (6044) [2353 / 5].

(2) أورده أبو الفرج البغدادي في جامع العلوم والحكم، [33 / 1] ورواه الحاكم في المستدرک، بلفظ: «من سرته حسناته وساءته سيئاته فهو مؤمن» حديث رقم (35) [59 / 1] ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب لا يخلو رجل بامرأة أجنبية، حديث رقم (13299) [91 / 7].

خوفهم ورجاؤهم، وأهل النهاية يغلّبون جانب الرجاء .

أما أهل البداية فلأنهم إذا غلبوا جانب الخوف جدّوا في العمل وانكفوا عن الزلل، فبذلك تشرق نهايتهم ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [المنكوت: الآية 69] .

وأما أهل الوسط فلأنهم قد انتقلت عبادتهم إلى تصفية بواطنهم، فعبادتهم قلبية، فلو غلبوا جانب الخوف لرجعوا إلى عبادة الجوارح، والمطلوب منهم عبادة البواطن على رجاء الوصول وخوف القطيعة، فيعتدل خوفهم ورجاؤهم .

وأما الواصلون فلا يرون لأنفسهم فعلاً ولا تركاً، فهم ينظرون إلى تصريف الحق وما يجري به سابق القدر، فيتلقونه بالقبول والرضا، فإن كان طاعة شكروا وشهدوا مئة الله، وإن كان معصية اعتذروا وتأذّبوا ولم يقفوا مع أنفسهم، إذ لا وجود لها عندهم، وإنما ينظرون إلى ما يبرز من عنصر القدرة، فنظرهم إلى حلمه وعفوه وإحسانه وبرّه أكثر من نظرهم إلى بطشه وقهره . ويرحم الله الشافعي حيث قال :

فلما قسا قلبي وضاعت مذاهبي جعلت الرجاء مني لعفوك سلماً
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كأن عفوك أعظماً
فما زلت ذا جودٍ وفضلٍ ومنةٍ تجودٌ وتعفو منةً وتسكرماً
فيا ليت شعري هل أصيرُ لجنّةٍ أمناً وإما للسسمير فأندماً

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتُوبَإِلَى اللَّهِ الَّذِينَ آسَرُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: الآية 53] .

وتأمل قضية الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً، ثم سأل راهباً فقال له: هل لي من توبة؟ فقال له: لا توبة لك، فكمّل به المائة . ثم أتى عالماً فسأله فقال له: من يحول بينك وبينها؟ ولكن اذهب إلى قرية كذا ففيها قوم يعبدون الله فكن فيهم حتى تموت . فلما توسط الطريق؟ أدركه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إليهم أن قيسوا القرية التي خرج إليها والقرية التي خرج منها، فإلى أيهما كان أقرب فهو من أهلها . فأوحى الله إلى القرية التي يريد: أن تفاربي، وإلى القرية التي خرج منها: أن تباعدني، فوجد أقرب إلى القرية التي يريد بشبر، فأخذته ملائكة الرحمة . والحديث في الصحيحين⁽¹⁾ نقلته بالمعنى .

(1) رواه البخاري حديث الغار، رقم (3278) [3/ 1278] ومسلم، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث رقم (2766) [2118] ورواه غيرهما . ونص رواية مسلم هي: «عن أبي سميد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كان في بني إسرائيل رجل قتل نعمة وتسعين إنساناً ثم خرج يسأل فأتى راهباً فسأله فقال له: هل من توبة؟ قال: لا . فقتله فجعل يسأل، فقال له رجل: انت قرية كذا وكذا . فأدركه الموت فناء بصدرة نحوها فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وأوحى الله إلى هذه أن تباعدني، وقال: قيسوا ما بينهما . فوجد إلى هذه أقرب بشبر فغفر له» .

ثم ذكر موجب تصغير الذنب فقال :

48 - (فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ، اسْتَضْفَرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ)

قلت : بل من عرف ربه غاب عن رؤية ذنبه لفنائه عن نفسه بشهود ربه ، فإن صدر منه فعل يخالف الحكمة غلب عليه شهود النعمة ، قال تعالى : ﴿ نِعْمَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الجبر : الآية 49] ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الجبر : الآية 50] فإنما هو لمن لم يتب . وقال رسول الله ﷺ : «لو أذنبتم حتى تبلغ خطاياكم عنان السماء ثم تبتم لثاب الله عليكم ، ولو أن العباد لم يذنبوا للذهب الله بهم ثم جاء بقوم آخرين يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم وهو الغفور الرحيم»⁽¹⁾ . والله أفرح بتوبة عبده من الظمان الوارد ، ومن العقيم الوالد ، ومن الضال الواجد ، لكن لا ينبغي أن يصغر عنده ذنبه حتى يغتر بحلم الله .

وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود قل لعبادي الصديقين لا يغتروا فإني إن أقم عليهم عدلي وقسطي أعذبهم غير ظالم لهم ، وقل لعبادي المذنبين لا يقنطوا فإنه لا يعظم علي ذنب أغفره لهم . انتهى .

وقال الجنيد رضي الله عنه : إذا بدت عين من الكريم ألحقت المسيء بالمحسن .

[أحوال العارف بالله تعالى مع المعصية والطاعة]

فتحصّل أن العارف لا يقف مع معصية وإن جلّت ، ولا مع طاعة وإن عظمت ، وهو معنى قوله :

49 - (لا صغيرة إذا قابلك عدلُهُ، ولا كبيرة إذا واجهك فضلُهُ)

قلت : الصغيرة : هي الجريمة التي لا وعيد فيها من القرآن ولا من الحديث ، والكبيرة ، هي التي توعد عليها بالعذاب ، أو الحد في القرآن أو في السنة ، وقيل غير ذلك .

هذا كله بالنظر لظاهر الأمر ، وأما باعتبار ما عند الله من أمر غيبه ، وبالنظر إلى حلمه وعدله ، فقد يبرز خلاف ما يظن ، قال تعالى : ﴿ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا

(1) هذا النص هو مجموع حديثين اثنين والأول هو : «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأنيتك بقرابها مغفرة» . رواه الترمذي ، باب فضل التوبة والاستغفار . . . حديث رقم (3540) [5/548] ورواه غيره . وأما الحديث الثاني فهو : «والذي نفسي بيده لو لم تذبوا للذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم» . رواه مسلم في صحيحه ، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة ، حديث رقم (2749) [4/2106] ورواه غيره .

يَحْتَسِبُونَ ﴿ [الرؤس: الآية 47] فمن سبقت له العناية لا تضره الجناية ﴿ فَأَوْلَتْكَ يَدُّ اللَّهِ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان: الآية 70] .

وإن كانت الأعمال علامات، فقد تختلف في بعض المقامات، فوجب استواء الرجاء والخوف في بعض المقامات، والتسليم لله في كل الأوقات، إذ قد تمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً ولا مبدل لكلماته .

فإذا قابلك الحق سبحانه وتعالى بعدله وجلاله، لم تبق لك صغيرة وعادات صفاتك كبائر، وإذا واجهك الحق تعالى بفضله وكرمه وإحسانه وجماله، لم تبق لك كبيرة وعادات كبائر صفاتك .

قلت: وحديث الرجل الذي تمد له تسع وتسعون سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم تخرج له بطاقة قدر الأنملة فيها شهادة أن لا إله إلا الله، فتطيش تلك السجلات⁽¹⁾، يدل على عظيم حلمه ورحمته وشمول كرمه ومته .

[الأعمال التي تحيي القلوب]

ولما ذكر رضي الله عنه علامة موت القلب ذكر الأعمال التي توجب حياته فقال:
50 - (لا حَمَلَ أَرْجَى لِلْقَبُولِ مِنْ حَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ شُهُودُهُ، وَيُخْتَفِرُ هِنْدَكَ وَجُودُهُ)
قلت: يعني أنه لا عمل أرجى لحياة القلوب من عمل يكون بالله والله، غائباً فيه عما سواه، غير ملاحظ فيه حظوظه وهواه، متبرئاً فيه من حوله وقواه، فإذا أظهرته عليه القدرة غاب عن شهوده وصغر في عينه صورة وجوده، لِمَا تجلّى في قلبه من عظمة مولاه فصغر عنده كل ما سواه، فمثل هذا العمل تحيا به القلوب، وتحظى بمشاهدة علام الغيوب، وهو روح اليقين، وهو حياة قلوب العارفين، فإذا أراد الله أن يتولى عبده أنهضه للعمل وصغره في عينه، فلا يزال جاداً في عمل الجوارح حتى ينقله إلى عمل القلوب، فتستريح الجوارح من التعب ولا يبقى إلا شهود العظمة مع الأدب .

(1) رخص الحديث هو: «سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «يصاح برجل من أمته يوم القيامة على رؤوس الخلائق لمبشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر ثم يقول الله عز وجل: هل تنكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا، يا رب. فيقول: أظلمت كتبتي المحافظون؟. ثم يقول: ألك عن ذلك حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم. فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. قال: فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة». رواه ابن ماجه في سننه، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، حديث رقم (4300) [2/1437] ورواه غيره .

[أنواع الواردات الإلهية وثمراتها]

وإذا حيا القلب بمعرفة الله كان محلاً لتجلي الواردات الإلهية، وإلى ذلك أشار

بقوله:

51 - (إِنَّمَا أُوْرِدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ وَارِدًا)

قلت: الوارد: نور إلهي يقذفه الله في قلب من أحب من عباده، وهو على ثلاثة أقسام: على حسب البداية والوسط والنهاية. أو تقول: على حسب الطالبين والساثرين والواصلين.

القسم الأول: وارد الانتباه: هو نور يخرجك من ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة، وهو لأهل البداية من الطالبين، فإذا تيقظ من نومه وانتبه من غفلته استوى على قدمه طالباً لربه، فيقبل عليه بقلبه وبقالبه، وينجمع عليه بكليته.

القسم الثاني: وارد الإقبال، وهو نور يقذفه الله في قلب عبده، فيحركه لذكر مولاه ويفتيه عما سواه، فلا يزال مشتغلاً بذكره غائباً عن غيره حتى يمتلىء القلب بالنور ويغيب عما سوى المذكور، فلا يرى إلا النور، فيخرج من سجن الأغيار، ويتحرر من رق الآثار.

القسم الثالث: وارد الوصال، وهو نور يستولي على قلب العبد، ثم يستولي على ظاهره وباطنه، فيخرجه من سجن نفسه، ويفتيه عن شهود حسه. وقد أشار إلى القسم الأول، وهو وارد الانتباه، بقوله: إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه وارداً، أي إنما أشرق عليك نور اليقظة والانتباه وهو الوارد، لتكون بسببه وارداً عليه وساثراً إليه.

ثم أشار إلى القسم الثاني، وهو وارد الإقبال، فقال:

51 - (أُوْرِدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِتَسْلَمَكَ مِنْ يَدِ الْأَغْيَارِ، وَلِيُحَرِّزَكَ مِنْ رِقِّ الْأَثَارِ)

أي إنما أورد عليك وارد الإقبال ليؤنسك بذكر الكبير المتعال، فإذا اشتغلت بذكره، وغبت عن غيره تسلمك، أي أنقذك، من يد لصوص الأغيار بعد أن شدوا أوثاقك بحبل هواك، وسجنوك في سجن حظوظك ومناك.

وليحررك ويعتفك أيضاً من رق الآثار بعد أن ملكتك بما أظهرته لك من زخرف الاغترار، فإذا تسلمت من يد الأغيار أفضيت إلى شهود الأنوار، وإذا تحررت من رق الآثار ترقيت إلى شهود الأسرار، فالأنوار أنوار الصفات، والأسرار أسرار الذات، فالأنوار لأهل الفناء في الصفات، والأسرار لأهل الفناء في الذات.

ثم أشار إلى القسم الثالث، وهو وارد الوصال، فقال:

52 - (أُوْرِدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِتُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وُجُودِكَ، إِلَى فِضَاءِ شُهُودِكَ)

أي إنما أورد عليك وارد الوصال بعد أن أهبّ عليك نفحات الإقبال، ليخرجك من سجن رؤية وجودك إلى فضاء، أي اتساع، شهودك لربك، فرؤيتك وجودك مانعة

لك من شهود ربك، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه، وجودك ذنب لا يقاس به ذنب. وأنشد الجنيد:

وجودي أن أغيبَ عن السجودِ بما يبذو عليّ من الشهودِ
فالفناء عن النفس وزوالها، أصعب من الفناء عن الكون وهدمه، فمهما زالت النفس وهدمت انهدم الكون، ولم يبق له أثر، وقد يهدم الكون وتبقى في النفس بقية. ثم فتر تلك الواردات فقال:

53 - (الأنوار، مطايا القلوب والأسرار)

قلت: النور: نكتة تقع في قلب العبد من معنى اسم أو صفة يسري معناها في كليته حتى يبصر الحق والباطل إبصاراً لا يمكنه التخلف معه عن مرجبه. قاله الشيخ [أحمد] زروق.

والمطايا: جمع مطية، وهي الناقة المهيئة للركوب، والقلوب: جمع قلب وهو الحقيقة القابلة للمفهومات، والأسرار: جمع سر وهو الحقيقة القابلة للتجليات، والسر أدق وأصفي من القلب، والكل اسم للروح.

فإن الروح ما دامت متظلمة بالمعاصي والذنوب والشهوات والعيوب سميت نفساً.

فإذا انزجرت وانعقلت انعقال البعير سميت عقلاً.

فما زالت تتقلب في الغفلة والحضور سميت قلباً، فإذا اطمأنت وسكنت واستراحت من تعب البشرية سميت روحاً، فإذا تصفت من غبش الحس سميت سرّاً، لكونها صارت سرّاً من أسرار الله حين رجعت إلى أصلها، وهو سر الجبروت.

فإذا أراد الله تعالى أن يوصل عبده إلى حضرة قدسه، ويحمله إلى محل أنسه، أمده بواردات الأنوار كالمطايا، فيحمل عليها في محفة العناية، مروحاً عليه بنسيم الهداية، محفوظاً بنصرة الرعاية، فترحل الروح من عوالم البشرية إلى عوالم الروحانية، حتى تصير سرّاً من أسرار الله لا يعلمها إلا الله ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: الآية 85].

فالأنوار التي هي الواردات مطايا القلوب، تحملها إلى حضرة علام الغيوب، وهي أيضاً مطايا الأسرار، تحملها إلى جبروت العزيز الجبار، فالسلوك هداية والجدب عناية، فوارد الانتباه والإقبال حمله سلوك، ووارد الوصال حمله جذب.

وأما الأنوار التي تحملهم على مطايا الأسرار، فإنها تحملهم على جهة الجذب ممزوجاً بسلوك، فيكونون بين جذب وسلوك، وهذا الحمل أعظم، والله تعالى أعلم.

[جنود القلب وجنود النفس]

ثم بين كيفية السير على هذه المطايا وما يعوقها عن السير، فقال:

54 - (النُّورُ جُنْدُ الْقَلْبِ، كَمَا أَنَّ الظُّلْمَةَ جُنْدُ النَّفْسِ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ أَمَدَّهُ بِجُنُودِ الْأَنْوَارِ، وَقَطَعَ عَنْهُ مَدَدَ الظُّلْمِ وَالْأَغْيَارِ)

قلت: الظلمة: نكتة تقع من الهوى في النفس عن عوارض الوهم، فتوجب العمى عن الحق لتمكن الباطل من الحقيقة، فيأتي العبد ويذر على غير بصيرة. قاله الشيخ زروق.
قلت: قد تقدم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر أسماء لمسمى واحد، وهو اللطيفة الربانية النورانية المودعة في هذا القالب الجسماني الظلماني، وإنما اختلفت أسماءها باختلاف أحوالها وتنقل أطوارها، ومثال ذلك كماء المطر النازل في أصل الشجر، ثم يصعد في فروعها، فيظهر ورقاً، ثم نوراً وأزهاراً، ثم يعقد ثمرة، ثم ينمو حتى يكمل، فالماء واحد، واختلفت أسماءه باختلاف أطواره.

فعلى هذا يكون تقابل القلب مع النفس بالمحاربة، كناية عن صعوبة انتقال الروح من وطن الظلمة، التي هي محل النفس، إلى وطن النور، الذي هو القلب وما بعده، فالقلب يحاربها لينقلها إلى أصلها، وهي تتقاعد وتسقط إلى أرض البشرية وشهواتها، فالقلب له أنوار الواردات تقربه وتنصره حتى يترقى إلى الحضرة، التي هي أصله وفيها كان وطنه، وكأنها جنود له من حيث إنه يتقوى بها وينتصر على ظلمة النفس، وهذه الأنوار هي الواردات المتقدمة.

والنفس لما ركنت إلى الشهوات واستحللتها صارت كأنها جنود لها، وهي ظلمة من حيث إنها حجبتها عن الحق ومنعتها من شهود شمس العرفان.
فإذا هاجت النفس بجنود ظلماتها وشهواتها إلى معصية أو شهوة، رحل إليها القلب بجنود أنواره، فيلتحم بينهما القتال.

فإذا أراد الله عناية عبده ونصره، أمد قلبه بجنود الأنوار، وقطع عنه من جهة النفس مدد الأغيار، فيستولي النور على الظلمة، وتولي النفس منهزمة.

وإذا أراد الله خذلان عبده، أمد نفسه بالأغيار، وقطع عن قلبه شوارق الأنوار، فيأتي المنصور بالأمر على وجهه، والمخدول بالشيء على عكسه.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: وإمداد الأنوار ثلاثة، أولها: يقين لا يخالطه شك ولا ريب. الثاني: علم تصحبه بصيرة وبيان. الثالث: إلهام يجري معه العيان.

وإمداد الظلم ثلاثة، أولها: ضعف اليقين. الثاني: غلبة الجهل على النفس. الثالث: الشفقة على النفس. وذلك كله أصله الرضى عن النفس.

[أنواع الأنوار]

ولما كان النور هو جند القلب لأنه يكشف عن حقائق الأشياء، فيتميز الحق من

الباطل، فيحق الحق ويبطل الباطل، فينتصر القلب بإقباله على الحق على بيّنة واضحة، وتنهزم النفس بانهزام جند ظلماتها، إذ لا بقاء للظلمة مع وضوح النور، كما أشار إلى ذلك بقوله:

55 - (النور له الكشف، والبصيرة لها الحكم، والقلب له الإنباء والإدبار)

قلت: النور من حيث هو من شأنه أن يكشف الأمور ويوضحها حتى يظهر حسناتها من قبيحها، ومن شأن البصيرة المفتوحة أن نحكم على الحسن بحسنه وعلى القبيح بقبحه، والقلب يقبل على ما فيه نفعه ويدبر عما فيه ضرره، ومثال ذلك: رجل دخل بيتاً مظلماً فيه عقارب وحيات، وفيه سبائك ذهب وفضة، فلا يدري ما يأخذ ولا ما يذر، ولا ما فيه نفع ولا ضرر، فإذا أدخل فيه مصباحاً رأى ما ينفعه وما يضره، وما يأمنه وما يحذره.

كذلك قلب المؤمن العاصي لا يفرق بين مرارة المعصية وحلاوة الطاعة، فإذا استضاء بنور التقوى، عرف ما يضره وما ينفعه، وفرق بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَشَاءُ إِنَّ تَتَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ لِكَيْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنفال: الآية 29] أي نوراً يفرق بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ﴾ [الأنعام: الآية 122]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الزمر: الآية 22] فهو على نور من ربه، وهذا النور الذي يكشف الأمور، هو نور الواردات المتقدمة، الذي هو مطايا القلوب إلى علام الغيوب.

أولها نور وارد الانتباه ومن شأنه أن يكشف ظلمة الغفلة ويظهر نور اليقظة، فتحكم البصيرة بقبح الغفلة وحسن اليقظة، فيقبل القلب حينئذ على ذكر ربه ويدبر عما يغفله عن ربه، وهذا هو نور الطالبين.

الثاني: نور وارد الإقبال، ومن شأنه أن يكشف ظلمة الأغيار ويظهر بهجة المعارف والأسرار، فتحكم البصيرة بضرر الأغيار وحسن الأسرار، فيقبل القلب على بهجة الأسرار، ويدبر عن ظلمة الأغيار، وهذا هو نور السائرين.

الثالث: نور وارد الوصال، ومن شأنه أن يكشف ظلمة الكون ورداء الصون، ويظهر نور تجليات المكون، فيقبل القلب على مشاهدة مولا، ويدبر عن الالتفات إلى ما سواه، وهذا هو نور الواصلين، وهو نور المواجهة، ونور ما قبله نور التوجه.

وإن شئت قلت: هو نور الإسلام والإيمان والإحسان.

فنور الإسلام يكشف ظلمة الكفر والعصيان، ويظهر نور الانقياد والإذعان، فتحكم البصيرة بقبح الكفر والعصيان، وحسن نور الإسلام والإذعان، فيقبل القلب على طاعة ربه، ويعرض عما يعده من ربه.

ونور الإيمان يكشف ظلمات الشرك الخفي، ويظهر بهجة الإخلاص والصدق الرفي، فتحكم البصيرة بقبح الشرك وضرره، وحسن الإخلاص وخيره، فيقبل القلب على توحيد ربه، ويعرض عن الشرك وشره.

ونور الإحسان يكشف ظلمة السوى ويظهر نور وجود المولى، فتحكم البصيرة بقبح ظلمة الأثر وحسن نور المؤثر، فيقبل القلب على معرفة مولاه، ويغيب بالكلية عما سواه. وإن شئت قلت: هذا النور هو نور الشريعة والطريقة والحقيقة.

فنور الشريعة يكشف ظلمة البطالة والتقصير، ويظهر نور المجاهدة والتشمير، فتحكم البصيرة بقبح البطالة وحسن المجاهدة، فيقبل القلب على مجاهدة الجوارح في طاعة مولاه ويدبر عن متابعة حظوظه وهواه.

ونور الطريقة يكشف ظلمة المساوى والعيوب، ويظهر بهجة الصفاء وما يثمره من علم الغيوب، فتحكم البصيرة بقبح العيوب، وحسن الصفا وعلم الغيوب، فيقبل القلب على ما يوجب التصفية، ويدبر عما يمنعه من التخلية والتولية.

ونور الحقيقة يكشف له ظلمة الأكوان، ويظهر نور الشهود والعيان، فيقبل القلب على مشاهدة الأحباب داخل الحجاب، ويدبر عما يقطعه عن الأدب مع الأحباب، جعلنا الله معهم على الدوام في هذه الدار وفي دار السلام آمين.

[أقسام الناس بالفرح بالطاعة]

ولما كان أصل كل نور وسر وخير هو طاعة الله، وأصل كل ظلمة وحجاب وبعد هر معصية الله، ومن علامة حياة القلب فرحه بالطاعة وحزنه على صدور المعصية، نبهك الشيخ على وجه الفرح بالطاعة التي هي سبب نور القلوب ومفاتيح الغيوب فقال:

56 - (لا تُفْرِخَكَ الطَّاعَةَ لِأَنَّهَا بَرَزَتْ بِكَ، وَأَفْرَخَ بِهَا لِأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنْ اللُّو إِلَيْكَ، ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ، فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨) ﴿

قلت: قد تقدم في الحديث: «من سرته حسناته وساءته سيئاته فهو مؤمن»⁽¹⁾ والناس في الفرح بالطاعة على ثلاثة أقسام:

قسم فرحوا بها لما يرجون عليها من النعيم، ويدفعون بها من عذابه الأليم، فهم يرون صدورها من أنفسهم لأنفسهم، لم يتبرؤوا فيها من حولهم وقوتهم، وهم من أهل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: الآية 5].

وقسم فرحوا بها من حيث إنها عنوان الرضى والقبول، وسبب في القرب

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

والوصول، فهي هدايا من الملك الكريم، ومطايا تحملهم إلى حضرة النعيم، لا يرون لأنفسهم تركاً ولا فعلاً ولا قوة ولا حولاً، يرون أنهم محمولون بالقدره الأزلية مصرفون عن المشيئة الأصلية، وهم من أهل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: الآية 5]. فاهل القسم الأول عبادتهم لله، وأهل القسم الثاني عبادتهم بالله وبقدرة الله، وبينهما فرق كبير.

وقسم ثالث فرحهم بالله دون شيء سواه، فانون عن أنفسهم باقون بربهم، فإن ظهرت منهم طاعة فالمنة لله، وإن ظهرت منهم معصية اعتذروا لله أدباً مع الله، لا ينقص فرحهم إن ظهرت منهم زلة، ولا يزيد إن ظهرت منهم طاعة أو يقظة، لأنهم بالله والله من أهل لا حول ولا قوة إلا بالله، وهم العارفون بالله.

فإن ظهرت منك أيها المرید طاعة أو إحسان، فلا تفرح بها من حيث إنها برزت منك فتكون مشركاً بربك، فإن الله تعالى غني عنك وعن طاعتك. وقال ﷺ حاكياً عن ربه عز وجل: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئاً»⁽¹⁾ الحديث. وافرح بها من حيث إنها هدية من الله إليك.

فالفرح إنما هو بفضل الله وبرحمته، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [بونس: الآية 58] ففضل الله هو هدايته وتوفيقه. وقيل: فضل الله توحيد الدليل والبرهان، ورحمته توحيد الشهود والعيان.

[أحكام طاعة السائرين والواصلين إلى الله تعالى]

ولما كان الفرع بالطاعة قد يتوهم أنه فرع رؤيتها والنظر إليها رَفَعَ ذلك بقوله:

57 - (قَطَعَ السَّائِرِينَ لَهُ وَالْوَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَةِ أَعْمَالِهِمْ وَشُهُودِ أَحْوَالِهِمْ. أَمَّا السَّائِرُونَ فَلِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَحَقَّقُوا الصُّدُقَ مَعَ اللَّهِ فِيهَا، وَأَمَّا الْوَاصِلُونَ فَلِأَنَّهُ غَيْبَهُمْ بِشُهُودِهِ عَنْهَا)

قلت: قطع هنا بمعنى غيَّب، يعني أن الحق تعالى غيَّب السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم الظاهرة وشهود أحوالهم الباطنة.

أما السائرون فلأنهم يتهمون أنفسهم على الدوام، فمهما صدر منهم إحسان ولاح لهم يقظة أو وجدان رأوها في غاية الخلل والنقصان، فاستحيوا من الله أن يعتمدوا عليها أو يعتدوا بها، فغابوا عن أعمالهم وأحوالهم، واعتمدوا على فضل ربهم،

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم الظلم، حديث رقم (2577) [4/1994] والحاكم في المستدرک، کتاب التوبة...، حديث رقم (7606) [4/269] ورواه غيرهما.

فالصدق هو لب الإخلاص وسره، أي لم يتحققوا بسر الإخلاص فيها، فلم يروها ولم يركنوا إليها.

وأما الواصلون فلأنهم فانن عن أنفسهم، غائبون في شهود معبودهم، فحركاتهم وسكناتهم كلها بالله ومن الله وإلى الله، إذ محال أن تشهد وتشهد معه سواه، فإن ظهرت عليهم طاعة أو صدر منهم إحسان، شهدوا في ذلك الواحد المنان.

[خلاصة ما ورد في الباب السادس]

هذا آخر الباب السادس وبه انتهى ربع الكتاب.

وحاصله: علاج القلوب، وعلامة موتها ومرضها وصحتها، واستمداد أنوارها واتصال وارداتها، حتى تغيب عن شهود أعمالها وأحوالها، وتفنى عن دائرة حسنها باتساع فضاء شهودها، وفي ذلك شرفها وعزها، وفي ضد ذلك وهو رؤية المخلوق والركون إليه ذلها وهوانها.



[الباب السابع]

[الطمع والذل]

وبذلك افتتح الباب السابع فقال:

58 - (ما بَسَقْتُ أَغْصَانُ ذُلٍّ إِلَّا عَلَى بَذْرِ طَمَعٍ)

قلت: البسوق: هو الطول، قال تعالى: ﴿وَأَلْتَمَلْنَا بِأَيْمَانِنَا﴾ [ق: الآية 10] أي طويلات، والبلر الزريعة [يقال بَذَرَ البذر زرعه]، والطمع: تعلق القلب بما في أيدي الخلق، وتشوف القلب إلى غير الرب، وهو أصل شجرة الذل، فما بسقت أغصان شجرة الذل إلا على زريعة الطمع، ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسي: والله ما رأيت العز إلا في رفع الهمة عن الخلق.

وإنما كان الطمع هو أصل الذل، لأن صاحب الطمع ترك رباً عزيزاً وتعلق بعبد حقير فاحتقر مثله، ترك رباً كريماً وتعلق بعبد فقير فافتقر مثله، ترك رفع همته إلى الغني الكريم، وأسقط همته إلى الدني اللثيم، إن الله يرزق العبد على قدر همته. وأيضاً كان عبد الله حراً مما سواه، صار عبداً للمخلوق وعبداً لنفسه وهواه، لأنك مهما أحببت شيئاً وطمعت فيه إلا كنت عبداً له، ومهما أيست من شيء ورفعت همتك عنه إلا كنت حراً منه. قال في التنوير: وكن أيها العبد إبراهيمياً، فقد قال أبوك إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه: ﴿لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: الآية 76]، وكل ما سوى الله آفل إما وجوداً وإما مكاناً، وقد قال سبحانه: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: الآية 78] فواجب على المؤمن أن يتبع ملة إبراهيم، ومن ملة إبراهيم رفع الهمة عن الخلق، فإنه يوم زج به في المنجنيق تعرض له جبريل عليه السلام فقال: ألك حاجة، فقال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى، قال: فأسأله، قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي⁽¹⁾.

فانظر كيف رفع إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه همته عن الخلق ووجهها إلى الملك الحق.

ومن ملة إبراهيم معادة كل ما شغل عن الله، وصرف الهمة بالود إلى الله.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: صحبني إنسان وكان ثقيلاً عليّ، فباسطته فانبسط وقلت: يا ولدي ما حاجتك ولم صحبتني؟ قال: يا سيدي قيل لي إنك تعلم الكيمياء، فصحبتك لأتعلم منك، فقلت له: صدقت وصدق من حدثك، ولكن أخالك أي أظنك، لا تقبل، فقال: بل أقبل، فقلت: نظرت إلى الخلق فوجدتهم على قسمين أعداء

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (1136) [1/427] وأورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في عقاب من غش العرب، [1/335] وأورده غيرهما وخصوصاً في كتب التفسير.

وأحباء، فنظرت إلى الأعداء، فعلمت أنهم لا يستطيعون أن يشوكوني بشوكة لم يردني الله بها، فقطعت نظري عنهم، ثم تعلقت بالأحباء فرأيتهم لا يستطيعون أن ينفعوني بشيء لم يردني الله به فقطعت يآسي منهم، وتعلقت بالله فقيل لي: إنك لا تصل إلى حقيقة هذا الأمر حتى تقطع يأسك منّا كما قطعت من غيرنا أن نعطيك غير ما قسمنا لك في الأزل.

وقدم الإمام علي رضي الله عنه البصرة، فدخل جامعاً، فوجد القصاص يقصون فأقامهم حتى وجد الحسن البصري فقال: يا فتى إني سائلك عن أمر فإن أجبت عنه أبقيتك، وإلا أقمته كما أقمته أصحابك، وكان قد رأى عليه سماً وهدياً، فقال الحسن: سل عما شئت، فقال: ما ملاك الدين؟ قال: الورع، قال: فما فساد الدين؟ قال: الطمع، قال: اجلس فمثلك يتكلم على الناس.

قال: وسمعت شيخنا أبا العباس المرسي رضي الله عنه يقول: كنت في ابتداء أمري بالإسكندرية، فجئت إلى بعض من يعرفني، فاشتريت منه حاجة بنصف درهم، فقلت في نفسي: لعله لا يأخذه مني، فهتف بي هاتف: السلامة في الدين بترك الطمع في المخلوقين، وسمعته يقول: صاحب الطمع لا يشبع أبداً، ألا ترى أن حروفه كلها مجوفة، الطاء والميم والعين، فعليك أيها المرید برفع همتك عن الخلق، ولا تذلل لهم في شأن الرزق، فقد سبقت قسمته وجودك، وتقدم ثبوته ظهورك، واسمع ما قال بعض المشايخ: أيها الرجل، ما قدر لماضيك أن يمضغاه، فلا بد أن يمضغاه، فكله ويحك بعز ولا تاكله بذل انتهى.

وفي معنى هذا أنشدوا⁽¹⁾:

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس واقنع بيأس فإن العز في اليأس
واستغن عن كل ذي قربى وذي رجم إن العني من استغنى عن الناس

[الوهم ونتائجه على المرید]

ولما كان سبب وجود الطمع هو الوهم والجزع، ذكره بإثره فقال:

59 - (ما قَادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الْوَهْمِ)

قلت: يقال: قاد الشيء يقوده جرّه إليه، وقُذت البهيمة جررتها إليك. والوهم: أول الخاطر وهو أضعف من الشك. والمراد هنا ما خالف اليقين فيصدق بالظن والشك.

يقول رضي الله عنه: ما جرك شيء وقادك إلى الطمع في الخلق والتعلق لهم

(1) المنشد هو الشاعر محمد بن حازم الباهلي أبو جعفر، كثير الهجاء لم يمدح غير المأمون العباسي.

ولد ونشأ في البصرة وسكن بغداد ومات فيها سنة 215 هـ وثمة الأبيات هي:

فَالرُّزْقُ عَن قَدْرِ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ فِي كَفِّ لَا ضَافِلَ عَنِّي وَلَا نَاسِي
فَكَيْفَ أَبْنَعُ فَضْرًا حَاضِرًا بِفَيْسِي وَكَيْفَ أَطْلُبُ حَاجَاتِي مِنِّ النَّاسِي

[الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

والتذلل لما في أيديهم شيء مثل الوهم، يعني أنك لما توهمت أن بيدهم نفعاً أو ضرراً أو عطاءً أو منعاً، طمعت فيهم وتذلللت لهم واعتمدت عليهم وخفت منهم، ولو حصل لك اليقين أن أمرهم بيد الله، وأنفسهم في قبضة الله، عاجزين عن نفع أنفسهم فكيف يقدرون على نفع غيرهم، لقطعت يأسك منهم، ولرفعت همتك عنهم، ولتعلقت همتك برب الأرباب ولتنبذت الأصحاب والأحباب.

أو تقول: ما قالك شيء عن حضرة الشهود والعيان إلا توهمك وجود الأكوان، ولو انهتك عنك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان، ولو أشرق نور الإيقان لغطى وجود الأكوان.

قال بعض العارفين: لا تظن أن تدخل الحضرة الإلهية وشيء من ورائك يجذبك، وافهم هنا قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: الآية 88]. والقلب السليم: هو الذي لا تعلق له بشيء دون الله، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: الآية 94] يفهم منه أيضاً أنه لا يصح مجيئك إلى الله بالوصول إليه إلا إذا كنت فرداً مما سواه. وقوله عليه السلام: «إن الله وتر يحب الوتر»⁽¹⁾ أي يحب القلب الذي لا يشفع بشئ من الآثار، كما قال. وقال بعضهم: لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع، فإنه لا غير معه حتى أشهده معه، انتهى.

[الطمع سبب الذل والاستعباد]

ولما كان الوهم ينشأ عنه الطمع، والطمع ينشأ عنه الذل والعبودية، واليقين ينشأ عنه الورع، والورع ينشأ عنه العز والحرية، نبه عليه بقوله:

60 - (أَنْتَ حُرٌّ مِمَّا أَنْتَ عَنْهُ آيسٌ، وَعَبْدٌ لِمَا أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ)

قلت: إنما كان الإنسان حراً مما آيس منه، لأنه لما آيس من ذلك الشيء، رفع همته عنه، وعلّقها بالملك الحق، فلما علّق همته بالملك الحق، سخر الحق تعالى له سائر الخلق فكانت الأشياء كلها عبيداً له ومسخرة لأمره.

أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوّن، فإذا شهدت المكوّن كانت الأكوان معك، فمن كان عبداً لله كان حراً مما سواه، وإنما كان الإنسان عبداً لما طمع فيه، لأن الطمع في الشيء يقتضي المحبة له والخضوع والانقياد إليه، فيكون عند أمره ونهيه لأن حبك الشيء يعمي ويصم، وهذه حقيقة العبودية.

فتحصل أن محبة الأشياء والطمع فيها هو سبب الذل والهوان والتعبد لسائر

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب في أسماء الله تعالى... حديث رقم (2677) [4/2062] والحاكم في المستدرک، کتاب الوتر، حديث رقم (1118) [1/441] ورواه غيرهما.

الأكران، وإن الإيأس من الأشياء، ورفع الهمّة عنها، هو سبب العز والحرية والتيه على الأقران، والله در القائل⁽¹⁾ حيث قال:

رأيتُ القنْعاةَ رأسَ الفَنى فصرتُ بأذيالها متمسك
فألْبسني عِزُّها حلَّةً يمرُّ الزمانُ ولا تنهتكَ
فصرتُ غنيًّا بلا درهم أتية على الناسِ تية المملك

قلت: وهذا هو الغنى الأكبر والإكسير عند الأكياس، ويسمى في اصطلاح الصوفية: الورع، أعني الورع الخاص، وهو رفع الهمّة عن السوى.

قال [تاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندري] في لطائف المنن: واعلم رحمك الله أن ورع الخصوص لا يفهمه إلا قليل، فإن من جملة ورعهم تورعهم أن يسكنوا لغيره، أو يميلوا بالحب لغيره، أو تمتد أطماعهم بالطمع في غير فضله وخيره.

ومن ورعهم: ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا أو توقفهم الآخرة، تورعوا عن الدنيا وفاء وعن الآخرة صفاء.

قال الشيخ عثمان بن عاشوراء: خرجت من بغداد أريد الموصل، فأنا أسير وإذا بالدنيا قد عرضت عليّ بعزّها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيناتها ومشتهياتها، فأعرضت عنها، فعرضت عليّ الجنة بحورها وقصورها وأنهارها وثمارها، فلم أشتغل بها، فقليل لي: يا عثمان لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية، ولو وقفت مع الثانية لحجبناك عنها، فما نحن لك وقسطك من الدارين يأتيك.

وقال أبو الحسن [الشاذلي]: الورع نعم الطريق، فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله، والقول بالله، والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة، فهم في عموم أوقاتهم ومسائر أحوالهم لا يُدَبِّرون، ولا يختارون، ولا يريدون، ولا يتفكرون، ولا ينظرون، ولا ينطقون ولا يبطنون ولا يمشون ولا يتحركون إلا بالله والله من حيث يعلمون، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فهم مجموعون في عين الجمع لا يفترون.

قلت: هذا الورع الذي ذكره الشيخ هو ورع الخواص أو خواص الخواص، وهو الذي يقابل الطمع كما تقدم في قول الحسن البصري: صلاح الدين الورع وفساد الدين الطمع. لا ورع العوام الذي هو ترك المتشابه والحرام، فإنه لا يقابل الطمع كل المقابلة.

وحاصله صحة اليقين، وكمال التعلق برب العالمين، ووجود السكون إليه، وعكوف الهمّ عليه، وطمأنينة القلب به حتى لا يكون له ركون إلى شيء من السوى، فهذا هو الورع الذي يقابل الطمع المفسد، وبه يصلح كل عمل مُقَرَّب وحال مُسعد.

(1) هذه الأبيات هي للإمام محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة 204 هجرية وورد في موسوعة الشعر

العربي إصدار المجمع الثقافي أبو ظبي باختلاف في البيتين الثاني والثالث عن النحو التالي:

فلا ذا يراني على بابي ولا ذا يراني به مُنْهَمِك

فصرتُ غنيًّا بلا درهم أمرُ على الناسِ شبة المملك

قال يحيى بن معاذ [الرازي]⁽¹⁾ رضي الله عنه: الورع على وجهين: ورع في الظاهر، وهو ألا تتحرك إلا لله. وورع في الباطن، وهو أن لا يدخل قلبك إلا الله.

قال الشيخ عبد العزيز المهدوي⁽²⁾ رضي الله عنه: الورع ألا تتحرك ولا تسكن إلا وترى الله في الحركة والسكون، فإذا رأى الله ذهبت الحركة والسكون وبقي مع الله. فالحركة ظرف لما فيها. كما قال: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه، فإذا رأيت الله ذهبت [وذهب الشيء].

وقال أيضاً: أجمع العلماء على أن الحلال المطلق ما أخذ من يد الله بسقوط الوسائط، وهذا مقام التوكل، ولهذا قال بعضهم: الحلال هو الذي لا ينسى الله فيه. انتهى. على نقل ابن عباد [النفري] رضي الله عنه.

[ملاطفات الإحسان وسلاسل الامتحان]

وإذا أراد الله تعالى أن يعزّ عبده ويرفعه إلى هذا المقام قطع عنه زمام الوهم والجزع وحرّره من رقب الطمع، فقاده إليه بملاطفة الإحسان أو بسلاسل الامتحان كما أشار إلى ذلك بقوله:

61 - (مَنْ لَمْ يُقْبَلْ عَلَى اللَّهِ بِمُلاَطَفَاتِ الإِحْسَانِ، قِيدَ إِلَيْهِ بِسَلْسِلِ الأَمْتِحَانِ)

قلت: قد قسّم الله تعالى عبادته ثلاثة أقسام: أهل الشمال، وأهل اليمين، والسابقون.

أما أهل الشمال فلا كلام عليهم إذ لا إقبال لهم على الله أصلاً.

وأما أهل اليمين فلهم إقبال بوجه ما لكن لا خصوصية لهم لأنهم قنعوا بظاهر الشريعة، ولم يلتفتوا إلى سلوك طريقة ولا حقيقة، وقفوا مع الدليل والبرهان، ولم ينهضوا إلى مقام الشهود والعيان، ولا كلام معهم أيضاً.

وأما السابقون فقد أقبلوا على الله متوجهين إليه طالبين الوصول إلى معرفته، وهم في ذلك على قسمين:

قسم أقبل على الله بملاطفة إحسانه وقياماً بشكر إنعامه وامتنانه، وهم أهل مقام الشكر.

وقسم أقبل على الله بسلاسل الامتحان وضروب البلايا والمحن، وهم أهل مقام الصبر.

(1) الواظظ نكلنم في علم الرجاء وأحسن الكلام فيه مات بنيسابور سنة 258 هجرية. روى الحديث [طبقات الصوفية للسلمي].

(2) عبد العزيز بن أبي بكر الفرشي المهدوي. أخذ العلم عن الشيخ أبي مدين، كان ذا اتصاف جميل، وعلم جليل، أتى عليه الأئمة وأخذ عنه الأكابر، مات سنة 671 هـ ودفن بمرسا عبده [الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للشيخ عبد الرؤوف المناوي].

أهل المقام الأول، أقبلوا على الله ضوعاً، وأهل المقام الثاني أقبلوا على الله كرهاً. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَسْجُدُونَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الزهد: الآية 15].

قال [الفوثن] أبو مدين رضي الله عنه: سنة الله استدعاء العباد لطاعته بسعة الأرزاق ودوام المعافاة ليرجعوا إليه بنعمته، فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعينهم يرجعون، لأن مراده عز وجل رجوع العباد إليه طوعاً وكرهاً. انتهى.

فقوم بسط الله عليهم النعم، وصرف عنهم البلايا والنقم، ورزقهم الصحة، وأمدهم بالأموال والعافية، فأذوا حقها، وقاموا بشكرها، وتشوقوا إلى معرفة المنعم بها، فكانت مطية لهم على السير إليه، ومعونة لهم على التدوم عليه، أخرجوها من قلوبهم، وجعلوها في أيديهم وقليل ما هم، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: الآية 13]. وفي مثل هؤلاء ورد الحديث: «نعمت الدنيا مطية المؤمن، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر»⁽¹⁾.

وقوم أمدهم الله بالنعم، وبسط لهم في المال والعافية، وصرف عنهم النقم، فشغلهم ذلك عن النهوض إليه، ومنعهم من المسير إلى حضرته، فسلب ذلك عنهم وضربهم بالبلايا والمحن، فأقبلوا على الله بسلاسل الامتحان، عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل، وقد مدح الله الغني الشاكر والفقير الصابر بمدح واحد، فقال تعالى في حق سليمان عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ [ص: الآية 30] ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: الآية 30] وقال في حق أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: الآية 44]، ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: الآية 30].

وقال بعضهم: لأن أعطى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فاصبر. وكان الشيخ أبو العباس المرسي يرجع الغني الشاكر على الفقير الصابر. وهو مذهب [أحمد] بن عطاء الله ومذهب أبي عبد الله الترمذي الحكيم، ويقول: الشكر صفة أهل الجنة، والفقر ليس كذلك، قاله [ابن عطاء الله] في لطائف المنن.

والتحقيق أن الفقير الصابر هو الغني الشاكر وبالعكس، لأن الغني إنما هو بالله، فإذا استغنى القلب بالله فصاحبه هو الغني الشاكر، ولا عبرة بما في اليد، فقد تكون اليد معمورة والقلب فقير، وقد يكون القلب غنياً بالله واليد فقيرة، وقد تكون اليد معمورة والقلب مع الله غنياً به عما سواه.

فأحوال الأولياء لا تنضبط بفقر ولا غنى، لأن الولاية أمر قلبي لا يعلمها إلا من خصهم بها، وبالله التوفيق.

(1) ونصه كما رواه الشاشي في مسنده، باب بسم الله الرحمن الرحيم ربِّ يسر وأعن... حديث رقم (383) [387/1]: عن مسروق عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الدنيا فنعم مطية الرجل عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر».

[قَيْدُ النِّعَمِ شُكْرُهَا وَزَوَالُهَا كُفْرُهَا]

ومن أقبل على الله بملاطفة إحسانه وجب عليه شكر ما أسدى إليه من لطائف كرمه وامتنانه، وإلا زالت عنه بسبب كفره وعصيانه، وإلى ذلك أشار بقوله:

62 - (مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا، وَمَنْ شَكَرَهَا فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا)

قلت: اتفقت مقالات الحكماء على هذا المعنى، وإن الشكر قيد الموجود وصيد المفقود. وقالوا أيضاً: من أعطي ولم يشكر سلب منها ولم يشعر، فمن شكر النعمة فقد قيدها بعقالها، ومن كفرها فقد تعرض لزوالها. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: الآية 11] أي إن الله لا يغير ما بقوم من النعم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الشكر، وتغييرهم الشكر هو اشتغالهم بالمعاصي والكفر، ولذلك قال الجنيد رضي الله عنه: الشكر أن لا يعصى الله بنعمه. وقيل: الشكر فرح القلب بالمنعم لأجل نعمته حتى يتعدى ذلك إلى الجوارح، فنبسط بالأوامر وتنكف عن الزواجر.

وقال في لطائف المنن: الشكر على ثلاثة أقسام: شكر اللسان، وشكر الأركان، وشكر الجنان.

فشكر اللسان التحدث بنعم الله، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: الآية 11].

وشكر الأركان العمل بالطاعة لله تعالى، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا آتَى دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: الآية 13].

وشكر الجنان بالاعتراف بأن كل نعمة بك أو بأحد من العباد هي من الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [التعل: الآية 53].

ومن القسم الأول قول النبي ﷺ: «التحدث بالنعم شكر»⁽¹⁾، ومن الثاني أنه ﷺ قام حتى تورمت قدماء فقيل له: أتتكلف كل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»⁽²⁾ انتهى.

واعلم أن الناس في الشكر على ثلاث درجات: عوام وخواص وخواص الخواص.

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب، باب التحدث بالنعم، حديث رقم (44) [61 / 1] والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (2437) [77 / 2] ونتمته حسب رواية الديلمي: «وتركها كفر ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير».

(2) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب قيام النبي ﷺ...، حديث رقم (1078) [380\1] ومسلم في صحيحه، باب إكثار الأعمال...، حديث رقم (2819 - 2820) [2171] [2172] ورواه غيرهما.

فشكر العوام على النعم فقط، وشكر الخواص على النعم والنقم، وشكر خواص الخواص الغيبة في المنعم عن شهود النعم والنقم.

والنعم التي يقع الشكر عليها ثلاثة أقسام: دنيوية كالصحة والعافية والمال الحلال، ودينية كالعلم والعمل والتقوى والمعرفة، وأخروية كالثواب على العمل القليل بالعطاء الجزيل.

وأجل النعم الدينية التي يتأكد الشكر عليها نعمة الإسلام والإيمان والمعرفة. وشكرها: هو اعتقاد أنها منة من الله تعالى بلا واسطة ولا حول ولا قوة، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِعْيَانَ﴾ [الحجرات: الآية 7]، ثم قال: ﴿فَضَلَّ مِنْ اللَّهِ رِئْصَةً﴾ [الحجرات: الآية 8].

[الاستدراج]

فإن غفل العبد عن شكر هذه النعم ثم دامت صورتها عنده فلا يفتقر فقد يكون ذلك استدراجاً كما أشار إلى ذلك بقوله:

63 - (خَفَ مِنْ وُجُودِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجاً لَكَ، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 182])

الاستدراج هو كمون المحنة في عين المنة، وهو مأخوذ من دَرَجَ الصبي أي أخذ في المشي شيئاً بعد شيء، ومنه الدَّرَج الذي يرتقي عليه إلى العلو، كذلك المُسْتَدْرِج هو الذي تؤخذ منه النعمة شيئاً بعد شيء، وهو لا يشعر. قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية 182] أي نأخذهم بالنعم حتى نجرهم إلى النقم وهم لا يشعرون. قاله الشيخ زروق رضي الله عنه.

فخف أيها المرید من دوام إحسان الحق إليك بالصحة والفراغ، وسعة الأرزاق ودوام الإمدادات الحسية أو المعنوية مع دوام إساءتك معه بالغفلة والتقصير، وعدم شكرك للملك الكبير أن يكون ذلك استدراجاً منه تعالى، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية 182].

قال سهل بن عبد الله [التستري] رضي الله عنه: نمدهم بالنعم وتنسيهم الشكر عليها، فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أخذوا. وقال ابن عطاء [الله] رضي الله عنه: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة، ونسيتناهم الاستغفار من تلك الخطيئة. ثم قال الحق تعالى: ﴿إِنَّمَا نُكَلِّمُ هُنَّ﴾ [آل عمران: الآية 178] أي نمدهم بالعوافي والنعم حتى نأخذهم بغتة، قال تعالى: ﴿فَلَسْنَا نَسُرُّ مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: الآية 44]. فالواجب على

الإنسان إذا أحس بنعمة ظاهرة أو باطنة حسبة أو معنوية أن يعرف حقها ويبادر إلى شكرها نطقاً واعتقاداً وعملاً، فالنطق بالحمد، والشكر باللسان، والاعتقاد شهود المنعم في النعمة وإسنادها إليه، والغيبة عن الوسطة بالقلب مع شكرها باللسان، «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»⁽¹⁾، «أشكركم للناس أشكركم لله»⁽²⁾. فإذا قال له: جزاك الله خيراً، فقد أدى شكرها، والشكر بالعمل صرفها في طاعة الله كما تقدم، فإن لم يقم بهذا الواجب خيف عليه انسلب والاستدراج.

[حكم إساءة الأدب وتأخر العقوبة]

والحاصل: أن الشكر هو الأدب مع المنعم ومن جاءت على يديه، فإن أساء الأدب أدب، وقد يؤدب في الباطن وهو لا يشعر، كما أشار إلى ذلك بقوله:

64 - (مِنْ جَهْلِ الْمُرِيدِ أَنْ يُسِيءَ الْأَدَبَ فَتَوَخَّرَ الْعُقُوبَةُ عَنْهُ فَيَقُولَ: لَوْ كَانَ هَذَا سُوءَ أَدَبٍ لَقَطَعَ الْإِنْدَادَ، وَأَوْجَبَ الْإِبْعَادَ، فَقَدْ يَنْقَطِعُ الْمَدَدُ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَنَعُ الْمَزِيدِ، وَقَدْ يُقَامُ مَقَامَ الْبُعْدِ وَهُوَ لَا يَدْرِي، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ يُخَلِّبَكَ وَمَا تُرِيدُ)

قلت: من الأمور المؤكدة على المرید الصادق أن يرعى الأدب مع الله في كل شيء، ويلتزم التعظيم لكل شيء، ويحفظ الحرمة في كل شيء، فإن أخل بشيء من هذه الأمور، وأساء الأدب مع ربه، فليبادر بالتوبة والاعتذار مع الذلة والانكسار.

فإن أصر التوبة إلى رقت آخر انقطعت عنه الإمدادات، واستوجب الطرد والبعاد، وقد لا يشعر بذلك في الحين، فيحتج لنفسه ويقول: لو كان هذا سوء أدب لانقطع عني المدد، وهذا منه جهل قبيح يفضي إلى العطب إن لم تدركه العناية من رب الأرباب.

وإنما كان هذا جهلاً من المرید لانتصاره لنفسه وقت سوء أدبه وعدم شعوره بنقصان قلبه، إذ لو كان عالماً بمخادع النفس لاتهمها وما انتصر بها، ولو كان عارفاً بربه لشعر بنقصان قلبه، فقد جمع بين جهالة وجهل، فالجهالة هي سوء الأدب الذي صدر منه، والجهل هو مخاصمته عن نفسه وإنكاره أن يكون ما صدر منه سوء أدب.

وما احتج به من كونه لم يحس بالعقوبة، ولو كان ذلك سوء أدب لأحس بقطع الإمداد، ولأوجب الطرد والبعاد، لا ينهض [دليلاً] فقد يقطع عنه المدد وهو لا يشعر.

(1) رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في الشكر، حديث رقم (1955) [339/4] ورواه أبو يعلى في المسند برقم (1122) [365/2] ورواه غيرهما.

(2) رواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (648) [236/1] ورواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (9120) [517/6].

ومثال ذلك الأشجار التي على الماء، فإذا قطع عنها الماء لا يظهر أثر العطش إلا بعد حين، فإذا ظال الأمر يبست شيئاً فشيئاً.

كذلك قلب المرید قد لا يحس بقطع المدد في القرب حتى يفرق في الوهم ويحترق بالحس، فإن كانت له سابقة خير تاب وأصلح ما أفسد فيرجع إليه المدد، وإن لم تكن له سابقة رجع إلى وطنه وأقام في بعده، نسأل الله السلامة من سلب نعمته بعد عطائه.

ولو لم يكن من العقوبة إلا منع المزيد من السير والترقي لكان كافياً لأن من لم يكن في زيادة فهو في نقصان، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو في الخسران.

وقوله: في الاحتجاج أيضاً: لو كان هذا سوء أدب لأوجب البعاد، فقد يقام مقام البعد وهو يقطن أنه في محل القرب، لأن مراتب القرب والبعد لا نهاية لها، وما من مقام في القرب إلا وما بعده أعظم منه حتى يكون ذلك القرب بالنسبة إلى ما بعده بعداً.

ولو لم يكن ذلك البعد إلا أن يتركك مع ما تريد لكان كافياً في الطرد والبعد، إذ ترك العبد مع هواه وشهوته من علامة الإهمال، وإخراج العبد عن هواه وما تركز إليه نفسه من علامة الاعتناء والإقبال.

فإذا اعتنى الله تعالى بعبد وأراد أن يوصله إلى حضرته شوّش عليه كل ما تركز إليه نفسه، وأزعجه طوعاً أو كرهاً حتى يؤيسه من هذا العالم، ولم يبق له ركون إلى شيء منه، فحينئذ يصطفيه لحضرته ويجتبيه لمحبتة، فليس له حينئذ عن نفسه أخبار، ولا مع غير الله قرار.

وأصل ذلك قضية سيدنا موسى عليه السلام لما علم الله تعالى محبتة لعصاه وركونه إليها قال له الحق تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَمْؤُوسِي﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنِيٍّ وَلِي فِيهَا مَثَرَبٌ أُخْرَى ﴿١٨﴾ [طه: الآيات 17، 18] أي حوائج آخر، قال له: ألقها يا موسى، فألقاها فإذا هي حية تسعى، فلما فرّ عنها وقطع يأسه منها قال له: خذها ولا تخف، لأنها لا تضرك حيث رجعت إليها بالله.

ويقال للفقير [الصوفي السالك]: وما تلك يمينك أيها الفقير، فيقول: هي دنياي أعتمد عليها وأقضي بها مآربي، فيقال له: ألقها من يدك، فإذا هي حية تسعى كانت تلدغه وهو لا يشعر، فإذا أيس منها واستأنس بالله واطمأن به، قيل له: خذها ولا تخف، لأنك تأخذها بالله لا بنفسك، والله تعالى أعلم.

[مواطن تادب المرید]

ومواطن الآداب التي يُخل بها المرید فيعاقب عليها ثلاثة: آداب مع الله ورسوله، وآداب مع الشيخ، وآداب مع الإخوان.

فأما الآداب مع الله باعتبار العوام فبامثال أمره واجتناب نهيه. ومع رسوله باتباع

السنة ومجانبة البدعة، فإذا قصرنا في الأمر أو خالفوا في النهي عوقبوا عاجلاً في الحس أو أجلاً في المعنى والحس.

وباعتبار الخواص مع الله بالإكثار من ذكره ومراقبة حضوره وإيثار محبته. زاد الشيخ زروق: وحفظ الحدود، والوفاء بالمعهد، والتعلق بالملك الودود، والرضى بالموجود، وبذل الطاقة والمجهود. انتهى.

ومع رسوله ﷺ بإيثار محبته والاهتداء بهديه والتخلق بأخلاقه.

وباعتبار خواص الخواص وهم الواصلون يكون مع الله بالتواضع معه في كل شيء، والتعظيم لكل شيء، ودوام معرفته في تجليات الجلال والجمال، أو مع اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار. ومع رسوله ﷺ بالتحقق بحسبه وتعظيم أمته وشهود نوره، كما قال أبو العباس المرسي: لي ثلاثون سنة ما غاب عني رسول الله ﷺ طرفه عين، ولو غاب عني ما أعددت نفسي من المسلمين. فإذا قصر العارف فيما تقدم في حقه أو في حق غيره من الآداب، عوقب في الحس أو في المعنى، والغالب تيقظه في الحين فيستدرك ما فات ﴿إِنَّ الْذِّكْرَ أَتَقْوَى إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية 201] فهذه جملة الآداب التي تكون مع الله من العوام والخواص وخواص الخواص.

أو تقول: من الطالبين والسائرين والواصلين، والله تعالى أعلم.

[الآداب مع الشيخ]

وأما الآداب التي تكون مع الشيخ فمرجعها إلى ثمانية أمور، أربعة ظاهرة وأربعة باطنة.

[الآداب الظاهرة]

فأما الظاهرة، فأولها: امتثال أمره وإن ظهر له خلافه، واجتناب نهيه وإن كان فيه حتفه، فخطأ الشيخ أحسن من صواب المرید.

وثانيها: السكينة والوقار في الجلوس بين يديه، فلا يضحك بين يديه، ولا يرفع صوته عليه، ولا يتكلم حتى يستدعيه للكلام، أو يفهم عنه بقرائن الأحوال، كحال المذاكرة بخفض صوت ورفق ولين، ولا يأكل معه ولا بين يديه، ولا ينام معه أو قريباً منه.

وكل ما يشبه هذه الأوصاف يؤدي لعدم التعظيم والازدراء بجانب الشيخ، وذلك هو الخسران المبين، والعياذ بالله من السلب بعد العطاء، والطرده بعد الإقبال.

وثالثها: المبادرة إلى خدمته بقدر الإمكان بنفسه أو بماله أو بقوله، فخدمة الرجال سبب الرصال لمولى الموالي. وقال سيدي عبد الله الهبطي الزجاجي رضي الله عنه في منظومة له في السلوك:

إن الخديمَ ظنُّهُ جميلٌ دَلَّ عَلى فِلاحِهِ دَلِيلٌ

أَهْلَ نَفْسِهِ لِسُخْدمَةِ الرِّجَالِ لَكِي يَنَالَ مِنْ حَبِيبِهِ الوَصَالِ
 ذُلُّ المَحَبِّ فِي طَلِبِ القُرْبِ عَزُّ عَزِيزٍ عِنْدَ أَهْلِ السَّحْبِ
 أَتَى بِيوتِ القُرْبِ مِنْ أَبوابِهَا فَفُتِحَتْ لَهُ إِذَا بِأَسْرَهَا
 طَوْبِي لَهُ بِشَرِي لَهُ اسْتِفَادَ وَنَالَ خَيْرَ قَرِيبَةٍ وَسَادَ
 ورابعها : دوام حضور مجلسه ، فإن لم يكن فتكرير الوصول إليه ، إذ يدل على
 شدة المحبة ، ويقدر المحبة تكون الشربة .

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنه في كتابه⁽¹⁾ : اهللم أنه لا
 يُقَرَّبُ طالِبُ الوَصُولِ إلى الله تعالى شيء مثل جلوسه مع عارف بالله إن وجدته . ثم قال :
 الجلوس مع العارف بالله أفضل من العزلة والعزلة ، أفضل من الجلوس مع العوام
 الغافلين ، والجلوس مع العامي الغافل أفضل من الجلوس مع الفقير الجاهل .

[الآداب الباطنة مع الشيخ]

وأما الآداب الباطنية : فأولها : اعتقاد كماله وأنه أهل للمشيخة والتربية لجمعه
 بين شريعة وحقيقة ، وبين جذب وسلوك ، وأنه على قدم النبي ﷺ .
 وثانيها : تعظيمه وحفظ حرمة غائباً وحاضراً ، وتربية محبته في قلبه ، وهو دليل
 صدقه ، ويقدر التصديق يكون التحقيق ، فمن لا صدق له لا سير له ، ولو بقي مع الشيخ
 ألف سنة .

وثالثها : انعزائه عن عقله ورياسته وعلمه وعمله إلا ما يرد عليه من قبل شيخه ،
 فكل من أتى شيخه في هذه الطريقة الشاذلية ، فلا بد أن يغتسل من علمه وعمله قبل أن
 يصل إلى شيخه لينال الشراب الصافي من بحر مدده الوافي .

ورابعها : عدم الانتقال عنه إلى غيره ، وهذا عندهم من أقبح كل قبيح وأشنع كل
 شنيع ، وهذا كله مع شيوخ التربية كما تقدم . وأما شيوخ أهل الظاهر فلا بأس أن ينتقل
 عنهم إلى أهل الباطن إن وجدتهم ولا يحتاج إلى إذن ، والله تعالى أعلم .
 وأما الآداب مع الإخوان فأربعة :

أولها : حفظ حرمتهم غائبين أو حاضرين ، فلا يفتاب أحداً ولا ينقص أحداً . وقد
 قال بعض الصوفية : من كسره الفقراء لا يجبره الشيخ ، ومن كسره الشيخ فقد يجبره
 الفقراء ، وهو صحيح مجرب ، لأن إذاية ولي واحد ليس كإذاية أولياء كثيرة ، ومن كسره
 الشيخ يشفع فيه الإخوان فيجبر قلب الشيخ ، بخلاف قلوب الفقراء إذا تغيرت قل أن
 تتفق على الجبر ، والله تعالى أعلم .

وثانيها : نصيحتهم بتعليم جاهلهم ، وإرشاد ضالهم ، وتقوية ضعيفهم ولو بالسفر
 إليه .

(1) نصيحة المرید وهو مطبوع في الدار بتحقيقنا .

فإن فيهم أهل بدايات ونهايات، والقوي والضعيف، فكل واحد يذكره بما يليق بمقامه. خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون، كما في الحديث.

وثالثها: التواضع لهم، والاستنصاف من نفسك معهم، وخدمتهم بقدر الإمكان. فخدم القوم سيدهم.

فمن عرض له شغل لا ينفك عنه، فالواجب إعانته ليتفرغ منه إلى ذكر الله إن كان خفيفاً، قال تعالى: ﴿رَتَعَارُوا عَلَى الْبِرِّ وَالْتَّقْوَى﴾ [المائدة: الآية 2] فكل ما يشغل قلب الفقير فدفعه جهاد وبر.

ورابعها: شهود النقصا فيهم واعتقاد كمائلهم، فلا ينقص أحداً ولو رأى منه ما يوجب النقص في الظاهر، فالمؤمن يلتصم المعاذر، فليلتصم له سبعين عذراً، فإن لم يزل عنه موجب نقصه فليشهد في نفسه، فالمؤمن مرآة أخيه. وتقدم في الحديث عنه ﷺ: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير: حسن الظن بالله وحسن الظن بعباد الله، وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر: سوء الظن بالله وسوء الظن بعباد الله»⁽¹⁾ وبالله التوفيق.

فهذه من جملة الآداب التي يجب على الفقير مراعاتها والتحفظ عليها، سواء كان طالباً أو سائراً أو واصلاً. وقال أبو حفص^(*) رضي الله عنه: التصرف كله آداب، لكل وقت آداب، ولكل حال آداب، ولكل مقام آداب، فمن لزم الأدب بلغ مبلغ الرجال، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب، مردود من حيث يظن القبول. وقال⁽²⁾ في المباحث الأصلية:

والأدب الظاهر للميان	دلالة الباطن في الإنسان
وهو أيضاً للفقير سند	وللغني زينة وسود
وقيل من يخرم الأدب	فهو بعيد ما تدانى واقترب
وقيل من تحبسه الأساب	فإنما تطلقه الآداب
فالقوم بالآداب حقاً سادوا	منه استفاد القوم ما استفادوا

وقال أبو حفص السراج رحمه الله: والناس في الآداب على ثلاثة طبقات: أهل الدنيا، وأهل الدين، وأهل الخصوصية من أهل الدين.

(1) لم أجده بهذا النص والذي ورد هو: «... حسن الظن بالله من حسن العبادة...» رواه الحاكم في المستدرک، كتاب التوبة...، حديث رقم (7657) [285/4] وروى الطبراني في مسند الشاميين عن ابن الديلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل العبادة حسن الظن بالله، بقول الله عز وجل: أنا عند حسن ظنك بي» حديث رقم (524) [300/1].

(*) لعله أبو حفص النيسابوري: عمرو بن سلمة الحداد شيخ خراسان. مات سنة 267 هـ [الرسالة انقضية (32) وطبقات السنني (115) وغيرهما].

(2) أي الشيخ أحمد التجيبي المعروف بابن البنا السرقسطي، وقد سبقت الإشارة إليه وإلى كتابه.

فأما أهل الدنيا فأكثر آدابهم في البلاغة وأخبار الملوك وأشعار العرب .
وأما أهل الدين فأكثر آدابهم حفظ العلوم، ورياضة النفوس، وتأديب الجوارح،
وتهديب الطباع، وحفظ الحدود، وترك الشهوات، واجتناب الشبهات، والمصارعة إلى
الخيرات .

وأما أهل الخصوصية من أهل الدين فأدابهم حفظ القلوب، ومراعاة الأسرار،
واستواء السر والعلانية، فالمريدون يتفاضلون بالعلم، والمتوسطون بالآداب،
والعارفون بالهمم . انتهى .

ثم ما ذكره الشيخ من لزوم الجهل للمريد مقيد بما ذكره من احتجاجه لنفسه
ومدافعتة عنها . وأما لو اعترف بإساءته وأنصف من نفسه لم يكن ذلك في حقه جهلاً
ولا جهالة . والله تعالى أعلم .

[عدم استحقاق الأوراد]

ومن جملة الآداب ألا يستحقر مقاماً أقام الحق تعالى فيه عبداً من عباده كائناً ما
كان، كما أشار إليه بقوله :

65 - (إِذَا رَأَيْتَ عَبْدًا أَقَامَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِوُجُودِ الْأُورَادِ، وَأَدَامَهُ عَلَيْهَا مَعَ طَوْلِ
الْإِمْدَادِ، فَلَا تَسْتَحْقِرَنَّ مَا نَنَحَهُ مَوْلَاهُ لِأَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ سِيمَا الْعَارِفِينَ، وَلَا بَهْجَةَ
الْمُحِبِّينَ، فَلَوْلَا وَارِدُ مَا كَانَ وَرْدًا)

قلت : ما ذكره الشيخ هنا من مؤكدات هذا الباب كلها في الآداب، وهو أن لا
يستحقر شيئاً من تجليات الحق على أي حال كانت، فلا ينبغي أن ينازع مقتدر ولا أن
يضاد قهار، ولا أن يعترض على حكيم، فإذا رأيت عبداً أقامه الحق تعالى بوجود
الأوراد، ككثرة صلاة وصيام وذكر وتلاوة واجتهاد، وأدامه عليها مع طول الإمداد -
بكسر الهمزة - أي استمراره معه، وهو تقويته في الباطن، وصرف الشواغل والشواغب
في الظاهر، لكنه لم يفتح عليه في علم الأذواق وعمل القلوب، فلا تستحقرن حاله وما
منحه مولاه، لأجل أنك لم تر عليه سيماء العارفين من السكينة والطمأنينة وراحة
الجوارح والقلب، بسبب هبوب نسيم الرضى والتسليم على أرواحهم .

وقال الشيخ زروق : سيماء العارفين ثلاث :

أولها الإعراض عما سوى معروفهم بكل حال وعلى كل وجه .

الثاني : الإقبال عليه بترك الحفظ وإقامة الحقوق .

الثالث : الرضى عنه في مجاري أقداره . انتهى . ولا تستحقر حاله أيضاً لأجل

أنك لم تر عليه بهجة المحبين، وهي الفرحة بمحبوبه، والإكثار من ذكره، والقيام

بشكره، والاعتباط بمحبته، والمسارعة إلى محابه، وطلب مرضاته، والخضوع لعظمته، والتذلل لقهره وعزته.

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل إذا رضي المحبوب صح لك الوصل
تذلل له تحظى برؤيا جماله ففي وجهه من تهوى الفرائض والنفل⁽¹⁾
فكيف تستحقر من دامت خدمته واتصلت أوراده، فلولا وجود الوارد الإلهي في
باطنه ما قدر على إدامة أوراده، فلولا وارد ما كان ورد، فالوارد ما منه إليك والورد ما
منك إليه، فلولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: أكرم المؤمنين وإن كانوا عصاة فاسقين، وأقم
عليهم الحدود واهجرهم رحمة بهم لا تقذراً لهم. ولأبي الحسن الحراني رحمه الله:
إِرْحَمْ بَنِيَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ وَنَظِرْ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ اللَّطْفِ وَالشَّفَقَةِ
وَقَرِّ كَبِيرَهُمْ وَارْحَمْ صَغِيرَهُمْ وَرَاعِ فِي كُلِّ خَلْقٍ حَقَّ مَنْ خَلَقَهُ

[أهل الخدمة وأهل المحبة]

ثم إن الإقامة على دوام الأوراد، وهي خدمة الجوارح، من شأن أهل الخدمة،
وهم العباد والزهاد، والانتقال منها إلى عمل القلوب من شأن أهل المحبة والمعرفة،
وهم العارفون وكلهم عباد الله، ومن أهل عنايته، فلا يستحقرهم إلا جاهل أو مطرود،
كما بين ذلك بقوله:

66 - (قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الْحَقُّ لِعِزَّتِهِ، وَقَوْمٌ اخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ، ﴿كُلًّا نُمِذُّ هَتُوَلَاءَ وَهَتُوَلَاءَ
مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾)

قلت: العباد المخصوصون بالعناية على تسمين:

قسم وجههم الحق لخدمته وأقامهم فيها، وهم أنواع:

فمنهم من انقطع في الفياض والقفار لقيام الليل وصيام النهار، وهم العباد
والزهاد.

ومنهم من وجهه الحق لإقامة الدين وحفظ شرائع المسلمين، وهم العلماء
والصلحاء.

ومنهم من أقامه الحق لنصرة الدين وإعلاء كلماته، وهم المجاهدون في سبيل
رب العالمين.

ومنهم من أقامه الحق لتمهيد البلاد وتسكين العباد، وهم الأمراء والسلاطين.

وقسم أقامهم الحق لمحبتة واختصهم بمعرفته، وهم العارفون الكاملون، سلكوا

(1) لم أقف على اسم قائل هذين البيتين.

سواء الطريق، ووصلوا إلى عين التحقيق، وبينهما فرق كبير لأن أهل الخدمة طالبون الأجور، وأهل المحبة رفعت عنهم الستور.

أهل الخدمة يأخذون أجورهم وراء الباب، وأهل المحبة في مناجاة الأحباب.
أهل الخدمة مسدول بينهم وبينه الحجاب، وأهل المحبة مرفوع بينهم وبينه الحجاب.
أهل الخدمة من أهل الدليل والبرهان، وأهل المحبة من أهل الشهود والعيان.
أهل الخدمة لا تنفك عنهم الحفظ، وأهل المحبة تصب عليهم الحفظ.

وقال أبو يزيد رضي الله عنه: اطلع الله على قلوب أوليائه، فمنهم من لم يصلح لحمل المعرفة صرفاً فشغلهم بالعبادة. وقال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: الزاهد صيد الحق من الدنيا والعارف صيد الحق من الجنة. انتهى. يعني أن الزاهد اصطاده الله من الدنيا فقبضه وأدخله الجنة، والعارف اصطاده الله من الجنة فأدخله الحضره، اصطاده من جنة الحس وجعله في جنة المعنى، وهي جنة المعارف.

أهل الخدمة تجلّى لهم الحق بصفة الجلال والهيبة، فصاروا مستوحشين من الخلق، قلوبهم شاخصة لما يرد عليها من حضرة الحق، قد نحلت أجسادهم واصفرت ألوانهم وخمصت بطونهم، وبالشرق ذابت أكبادهم، وقطعوا الدياجي بالبكاء والنحيب، واستبدلوا الدنيا بالمجاهدة في الدين، ورجبوا في جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

وأهل المحبة تجلّى لهم الحق تعالى بصفة الجمال والمحبة، وسكروا بخمر لذيد القرية، اشتغلوا بالظاهر والباطن وهو الله، فحجبوا عن كل ظاهر وباطن [غيره]، زهدوا في التنعم والإنعام واشتغلوا بمشاهدة الملك العلام. انتهى كلامه رضي الله عنه.

[خلاصة ما ورد في الباب السابع]

هذا آخر الباب السابع، وحاصله: رفع الهمة، وشكر النعمة، وحسن الأدب في الخدمة، ونفوذ العزيمة بالانتقال من دوام الخدمة إلى المحبة والسمرقة.

[الباب الثامن]

[أسباب مباغثة الواردات الإلهية للمريدين]

وإذا أراد الله أن يصطفي عبداً لحمل معرفته وينقله من تعب خدمته، قَوَّى عليه الواردات الإلهية فجذبتة إلى الحضرة الربانية، وهي مواهب لا مكاسب تنال بأعمال وبحيل، وقل أن تأتي إلا بغتة، كما أشار إلى ذلك في أول الباب الثامن فقال: رضي الله عنه:

67 - (قَلَّمَا تَكُونُ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَّا بَغْتَةً صِيَانَةً لَهَا أَنْ يَدْعِيَهَا الْعِبَادُ، بِوَجُودِ الْأَسْتِعْدَادِ)

قال القشيري: الوارد: هو ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة مما لا يكون للعبد فيه تحمل، والواردات أعم من الخواطر لأن الخواطر تختص بنوع خطاب أو ما تضمن معناه، والواردات تكون وارد سرور، ووارد حزن، ووارد قبض، ووارد بسط، إلى غير ذلك من المعاني، وهو قريب من الحال.

وسئل الشيخ عبد القادر الجيلاني نفعنا الله بذكره عن صفات الواردات الإلهية والطوارق الشيطانية فقال: الوارد الإلهي لا يأتي باستعداد، ولا يذهب بسبب، ولا يأتي على نمط واحد ولا في وقت واحد، والطوارق الشيطانية بخلاف ذلك غالباً. انتهى.

قلت: والمراد به هنا نوع خاص وهو نفحات إلهية يهب نسيمها على القلوب والأرواح أو الأسرار، فتغيب القلوب في حضرة علام الغيوب، وتغيب الأرواح والأسرار في جبروت العزيز الجبر، فتطيش فرحاً وسروراً، وترقص شوقاً وحبوراً⁽¹⁾. إذا اهتزت الأرواح شوقاً إلى اللقا ترقصت الأتباع يا جاهل المعنى

(1) مطلع قصيدة للقطب أبو مدين التلمساني: شعيب بن الحسن الأنلسي، من مشاهير الصوفية، توفي بتلمسان سنة 594 هجرية والقصيدة كاملة هي:

وتذنبُ بالأشواقِ أرواحنا متنا
فإن غبتموا عنا ولو نفساً متنا
وإن جاءنا عنكم بشيرُ اللقا عشنا
ألا إن تذكرَ الأحبةَ بسنمنا
إذا نحنُ أبقاظُ وفي النومِ إن غبنا
ولكنُ في المعنى معانيكم معنا
ولولا هواكم في الحشا ما تحركنا
إذا لم تدقْ معنى شرابِ الهوى دعنا
ترقصت الأتباع يا جاهل المعنى
إذا ذكر الأوصان حنُّ إلى المفضي

تضيقُ بنا الدنيا إذا غبتمُ عنا
فبمذُكُم موتٌ وقربُكُم حيا
نموت ببعديكم ونحيا بقربكم
ونحيا بذاكركم إذا لم نراكم
فلولا معانيكم تراها قلوبنا
لمننا أسى من بعدكم رصباية
يحرُكنا ذكر الأحاديث عنكم
فقل للذي ينهى عن الوجد أهله
إذا اهتزت الأرواح شوقاً إلى اللقا
أما تنظرُ الطير المفقص يا فتى

وَقَلَّمَا تَكُونُ هَذِهِ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَّا بَغْتَةً لِأَنَّهَا لَا تَنَالُ بِاِكْتِسَابٍ، وَإِنَّمَا هِيَ فَتْحٌ مِنْ لِكْرِيمِ الْوَهَّابِ، وَلَوْ كَانَتْ تَنَالُ بِجِدِّ وَاجْتِهَادٍ لِادْعَاةِ الْعِبَادِ وَالزَّهَادِ بِوَجُوبِ التَّأَمُّبِ وَالِاسْتِعْدَادِ، فَتَصِيرُ حِينَئِذٍ مَكَّاسِبٍ، وَالْأَحْوَالُ وَالْوَارِدَاتُ إِنَّمَا هِيَ مَوَاهِبٌ، ﴿يَخْتَمُرُ بِرَحْمَتِهِ، مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: الآية 105].

قال: والحكمة في إتيانها بغتة ثلاثة أمور، أحدها: ليعرف مئة الله فيها. الثاني: ليقدر قدرها ويعظم الفرح بها. الثالث: الغيرة عليها وتعزيزها لأن ما كان من العزيز لا يكون إلا عزيزاً انتهى.

[كيفية الاستدلال على جهل الجاهل]

ثم إن هذه الواردات الإلهية والمواهب الاختصاصية أسرار من الكريم الغفار لا يمنحها إلا لأهل الصيانة والأمانة لا لأهل الإفشاء والخيانة، كما أشار إلى ذلك بقوله: 68 - (مَنْ رَأَيْتَهُ مُجِيباً عَنْ كُلِّ مَا سُئِلَ، وَمُعَبِّراً عَنْ كُلِّ مَا شَهِدَ، وَذَاكِرًا كُلَّ مَا عَلِمَ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى وُجُودِ جَهْلِهِ)

قلت: أما وجه جهله في كونه مجيباً عن كل ما سئل، فلما يقتضيه حاله من الإحاطة بالعلوم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أُرِيْتُمْ مِنْ آلَاءِ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: الآية 85]. وسئل بعضهم عن العلم النافع، فقال: أن تعرف قدرك ولا تتعدى طورك. وقد سئل [الإمام] مالك رحمه الله عن اثنتين وثلاثين مسألة فأجاب عن ثلاث وقال في الباقي: لا أدري، فقال له السائل: وما نقول للناس، فقال: قل لهم قال مالك لا أدري. وأيضاً إجابة كل سائل جهل وضرر، إذ قد يكون السائل متعنتاً لا يستحق جواباً، وقد تكون المسألة التي سأل عنها لا تليق به، لأنه لا يفهمها ولا يطبق معرفتها، فتوقعه في الحيرة أو الإنكار، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تؤثوا الحكمة غير

فتضطربُ الأعضاء في الحس والمعنى
فتهتزُّ أربابُ العقول إذا غنى
تهزَّزها الأشواقُ للعالمِ الأسنى
وهل يستطيع الصبر من شاهد المعنى
فبالله يا خالي الحشا لا تمنفنا
إذا غلبت أشواقنا ربما صحنا
إذا لم نجد كتم المواجهيد صرحنا
تراق دمانا جهرة إن بها بحنا
وزمزم لنا باسم الحبيب وروحنا
وان أنكرت عيناك شيئاً فسامحنا
وخامرنا خمراً الفرام تهشكنا
فقد رفع التكليف في سُكرنا عنا

يُفَرِّجُ بِالتَّفْرِيدِ مَا يَفْرَادِهِ
وَيَرْتَضُ فِي الْأَنْفَاصِ شَوْقاً إِلَى اللَّفَا
كَذَلِكَ أرواحُ الْمُحِبِّينَ بِأَفْتِي
أَنْلِزْمُهَا بِالصَّبْرِ وَهِيَ مُشْرِفَةٌ
إِذَا لَمْ تَذُقْ مَا ذَاقَتِ النَّاسُ فِي الْهَوَى
وَسَلَّمَ لَنَا فِيمَا ادْعَيْنَا لِأَنَّا
وَنَهْتَزُّ عِنْدَ الْاسْتِمَاءِ قُلُوبُنَا
وَفِي السُّرِّ أَسْرَارٌ دَفَاقٌ لَطِيفَةٌ
فِيَا حَادِيَّ الْعَشَاقِ قِمِّ وَأَحْدُ قَائِمًا
وَصِن سِرُّنَا فِي سُكْرِنَا عَنْ حُودِنَا
فَلِئَا إِذَا طَلَبْنَا وَطَابَتِ عَقُولُنَا
فَلَا تَلِمُ السُّكْرَانُ فِي حَالِ سُكْرِهِ

أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»⁽¹⁾ . وفي ذلك يقول الشاعر^(*) :

سأكتف علمي عن ذوي الجهل طاقتي ولا أنثر الدرّ النفيسَ على البُهم
فإن قدر الله الكريم بلطفه ولاقيت أهلاً للعلوم وللجكم
بذلتُ علمي واستفدتُ علومهم وإلّا فمخزونٌ لسدي ومكتتم
فمن منع الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وقال [الإمام] علي [رضي الله عنه] [كرّم الله وجهه] : حدثوا الناس بقدر ما يفهمون أتريدون أن يكذب الله ورسوله . وقد نيل للجنيد رضي الله عنه : يسألك الرجالان فتجيب هذا بخلاف ما تجيب به هذا ، فقال : الجواب علي قدر السائل . قال عليه الصلاة والسلام : «أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم»⁽²⁾ انتهى .

وقال رجل لبعض العلماء وقد سأله فلم يجبه : أما علمت أن رسول الله ﷺ قال : «من كتم علماً نافلاً ألجم يوم القيامة بلجام من النار»⁽³⁾ فقال له العالم : اترك اللجام واذهب ، فإن جاء من يستحقه وكتمته فليلجمني به ، انتهى .

وأما وجه جهله في كونه معبراً عن كل ما شهد من الكرامات ، وما وصل إليه من المقامات ، وما ذاقه من الأنوار والأسرار ، فلأن هذه الأمور أذواق باطنية وأسرار ربانية لا يفهمها إلا أربابها ، فذكرها لمن لا يفهمها ولا يذوقها جهل بقدرها . وأيضاً هي أمانات وسر من أسرار الملك وسر الملك لا يحل إفشاؤه ، فمن أفشاه كان خائناً واستحق الطرد والعقوبة ، ولا يصلح أن يكون أميناً بعد ذلك ، فكتم الأسرار من شأن الأخيار ، وهتك الأسرار من شأن الأشرار ، وقد قالوا : قلوب الأحرار قبور الأسرار . وقال الشاعر^(*) :

لا يكتتم السرّ إلا كلُّ ذي ثقة فالسرُّ عند خيار الناس مكتوم
وينخرط في سلك الأحوال التي يجب كتمانها خرق هوائد النفوس ، فمن خرق عادة في نفسه فلا يفشي ذلك لغيره ، فإن في ذلك دسيئة لها لأنها تحب أن تذكر بالقوة والنجدة ، فيكون كل ما قتل منها أحياء في ساعته ، وفيه أيضاً نقص الإخلاص وإدخال الرياء وهو سبب الهلاك والعياذ بالله .

وأما وجه جهله في كونه ذكراً لكل ما علم من الحقائق والعلوم والمعارف فلأنه

(1) رواه الحاكم في المستدرک ، كتاب الأدب ، حديث رقم (7707) [4/301] وابن حميد الكشي في مسنده ، مسند عبد الله بن عباس ، حديث رقم (675) [1/225] ورواه غيرهما .

(*) ينسب نحو هذه الأبيات للإمام الشافعي رحمه الله تعالى (انظر طبقات الشافعية الكبرى للبيهي ، [1/294] ومعجم الأدباء لياقوت الحموي [5/206] .

(2) أورده العجلوني في كشف الخفاء ، حديث رقم (592) [1/225] وأورده غيره .

(3) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ، من اسمه عبد الصمد ، حديث رقم (4815) [5/108] والأصبهاني في المسند المستخرج على صحيح مسلم ، حديث رقم (16) [1/42] .

(*) ثم أتف على اسم هذا الشاعر .

جهل قدرها واستخف شأنها، فلو كانت عنده ربيعة عزيزة ما أفشاها لغيره إذ صاحب الكنز لا يبوح به وإلا سلبه من ساعته. وانظر قول شيخ شيوخنا [عبد الرحمن] المجذوب رضي الله عنه:

أحفر لسرك ودكو في الأرض سبعين قامه
 وغل الخلائق يشكو إلى يوم القيامة
 وإذا كان الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: الآية 5] فكيف
 بالعلم الذي هو لؤلؤ مكنون. قال عليه الصلاة والسلام: «إن من العلم كهينة المكنون
 لا يعرفه إلا العلماء بالله، فإذا أظهروه أنكروه أهل الغرة بالله»⁽¹⁾ انتهى. وقال أبو هريرة
 رضي الله عنه: حفظت من رسول الله ﷺ جرابين من علم، أما أحدهما فبثته في الناس
 وأما الآخر فلو بثته لقطع مني هذا البلعوم⁽²⁾ انتهى. والله درّ زين العابدين سيدنا علي بن
 الحسين بن علي كرم الله وجهه حيث يقول:

يا ربّ جوهر علم لو أبوح به لقييل لي أنت ممّن يعبد الوثنا
 ولاستحلّ رجالٌ مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا
 إني لا أكتم من علمي جواهره كي لا يرى الحقّ ذو جهلٍ فيفتننا
 وقال [أبو علي حسين بن محمد] الروذباري رحمه الله: علمنا هذا إشارة فإذا
 صار عبارة خفي.

قلت: قد يرخص للعارف الماهر إلقاء الحقائق مع من لا يعرفها بعبارة رقيقة
 وإشارة لطيفة وغزل رقيق بحيث لا يأخذ السامع منها شيئاً، فقد كان الجنيد رضي الله
 عنه يلقي الحقائق على رؤوس الأشهاد، ف قيل له في ذلك فقال: جانب العلم أحمى من
 أن يأخذه غير أهله. أو علمنا محفوظ من أن يأخذه غير أهله، والله تعالى أعلم.

[حكمة كون الآخرة محل جزاء المؤمنين]

ثم إن الإجابة عن كل ما سئل، والتعبير عن كل ما شهد، وذكر كل ما علم،
 يوجب إقبال الخلق عليهم وتعظيمهم وإكرامهم في هذه الدار، لأن من ظهرت مزيتته
 وجبت خدمته، ومن شأن العامة تعظيم صاحب الكرامة، فيجني ثمرة علمه وعمله في
 هذه الدار الفانية، وتفوته درجات الصديقين في تلك الدار الباقية، فأمره بكتمها، ويقنع
 بعلم الله، ويدخر الجزاء عليها ليوم لقاء الله، وعلى ذلك نبه بقوله:

69 - (إِنَّمَا جَعَلَ الدَّارَ الآخِرَةَ مَحَلًّا لِحِجَابِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ هَذِهِ الدَّارَ لَا

(1) رواه اندليسي في الفردوس، حديث رقم (141) [58 / 1] وأورده المنذري في الترغيب والترهيب،
 فصل عن أبي هريرة، حديث رقم (141) [53 / 1].

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب حفظ العلم، حديث رقم (120) [56 / 1] ولفظه عنده: «حفظت من
 رسول الله ﷺ وعاءين فأما أحدهما فبثته وأما الآخر فلو بثته قطع هذا البلعوم».

تَسَعُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ، وَلِأَنَّهُ أَجَلَ أَقْدَارِهِمْ عَنْ أَنْ يُجَازِيَهُمْ فِي دَارٍ لَا بَقَاءَ لَهَا) قلت: لا شك أن الله تعالى وسم هذه الدار بدار الغرور، وحكم عليها بالهلاك والشبور، فهي دار دنبة دانية زائلة فانية، فلذلك سميت الدنيا، إما لدنرها وإما لدناءتها، فهي ضيقة الزمان والمكان.

ووسم الآخرة بدار القرار، ومحل ظهور الأنوار، وانكشاف الأسرار، محل النظرة والحبور، ودوام النعمة والسرور، محل شهود الأحباب، ورفع الحجاب، نعيمها دائم، ووجودها على الدوام قائم، فلذلك جعلها الحق تعالى محلاً لجزاء عباده المؤمنين، ومقعد صدق للنبئين والصدّيقين، ولم يرض سبحانه أن يجازيهم في دار لا بقاء لها، ضيقة الزمان والمكان، ومحل الأكدار والأغيار، والذلّ والهوان، لأنها ضيقة لا تسع ما يريد أن يعطيهم، أي: لا يسع فيها ما يريد أن يكرمهم به تعالى زماناً ولا مكاناً، لأن أدنى أهل الجنة يملك قدر الدنيا عشر مرات، فكيف بأعلاهم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التّجدة: الآية 17]. وقال ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»⁽¹⁾.

ولأنه جلّ وعلا أجلّ أي عظم أقدار عباده المؤمنين والمقربين أن يجازيهم في دار لا بقاء لها، فعمارتها خراب، ووجودها سراب، ففي بعض الأخبار: «لو كانت الدنيا من ذهب يفتنى والآخرة من خزف يبقى لاختار العاقل الذي يبقى على الذي لا يبقى، لا سيما بالعكس، فالآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفتنى»⁽²⁾.

وفي حديث آخر: «ألا وإن السميد من اختار باقية يدوم نعيمها على فانية لا ينفك عذابها، وقدم لما يقدم عليه مما هو الآن في يده قبل أن يخلفه لمن يسعد بإنفاقه وقد شقي هو بجمعه واحتكاره»⁽³⁾. انتهى.

[ميزان قبول الأعمال الصالحة]

ثم إن الجزاء في تلك الدار إنما يكون على العمل في هذه الدار بشرط كونه مقبولاً، وقبوله مغيب لكن له علامات يعرف بها هنا، أشار إليها بقوله:

70 - (مَنْ وَجَدَ ثَمْرَةَ هَمَلِهِ هَاجِلاً، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الْقَبُولِ أَجْلاً)

(1) رواه البخاري في أبواب عدة منها، باب ما جاء في صفة الجنة...، حديث رقم (3072) [3/1185]

(2) رواه القرطبي في التفسير عن مالك بن دينار، تفسير سورة الأعلى / 17 [24/20]. وانظر أضواء البيان

لمحمد الأمين الشنقيطي تفسير سورة (الأعلى / 16 - 19 [504/8]) وعزاه الفزالي في الإحياء للفضيل بن عياض [3/169].

(3) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

قلت: ثمرة العمل هي لذيذ الطاعة، وحلاوة المناجاة، وأنس القلب بالمراقبة، وفرح الروح بالمشاهدة، والسر بالمكالمة، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ [البقرة: الآية 60] ودليل وجود هذه الثمرة النشاط في النهوض إليها، والاعتباط بها، والمداومة عليها، وزيادة المدد فيها، وهي علامة حلول الهداية في القلب، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مریم: الآية 76]. وللبوصيري في همزته:

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء

ومن ثمرة العمل أيضاً الاستيحاش من الخلق والأنس بالملك الحق، ومن ثمرة العمل أيضاً الاكتفاء بعلم الله والاستغناء به عما سواه.

[ميزان مقادير الرجال]

ولما ذكر ميزان مقادير الأعمال ذكر ميزان مقادير الرجال، أو تقول: لما ذكر ميزان العمل المقبول من المردود، ذكر ميزان العامل المحبوب من المطرود، فقال:

71 - (إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ فَانظُرْ فِيمَاذَا يُقِيمُكَ)

قلت: جعل الله تعالى بحكمته خلقه على قسمين، أشقياء وسعداء، وجعل السعداء قسمين: أهل قرب وأهل بعد. أو تقول: أهل يمين ومقربين وهم السابقون. فإن أردت أن تعرف نفسك، هل أنت من أهل الشقاوة أو من أهل السعادة؟ فانظر في قلبك، فإن كنت تصدق بوجود ربك وتوحدته في ملكه وتنقاد لمن عرفك به - وهو رسوله عليه السلام - فأنت ممن سبقت له الحسنی، وإن كنت تنكر أو تشك في ربك، أو تشرك به غيره في اعتقادك، أو لم تدعن لمن عرفك به، فأنت من أهل الشقاء.

ثم إن وجدت نفسك من أهل السعادة، وأردت أن تعرف هل أنت من أهل القرب أو من أهل البعد؟ فانظر، فإن كنت ممن يستدل بأثره عليه، فأنت من أهل البعد من أصحاب اليمين، وإن كنت ممن يستدل به على غيره، فأنت من أهل القرب من المقربين.

ثم إن عرفت أنك من أهل اليمين، وأردت أن تعرف قدرك عنده هل أنت من المكرمين أو من المهانين؟ فانظر، فإن كنت تمثل أمره، وتجتنب نهيه، وتسارع في مرضاته، وتتجنب إلى أوليائه وأحبائه، فأنت من المكرمين المعظمين، وإن كنت تتهاون في أمره، وتتساهل في نواهيته، وتتكاسل عن طاعته، وتهتك حرماته، وتعادي أوليائه، فأنت والله عنده من المهانين المحرورين المطرودين، إلا أن تتداركك عناية من رب العالمين.

وإن تحققت أنك من أهل القرب، وأنت بلغت مقام الشهود تستدل به على غيره

فلا ترى سواه، فإن كنت تقرّ بالواسطة، وثبتت الحكمة، وتعطي كل ذي حق حقه، فأنت من المقرّبين الكاملين، وإن كنت تنكر الحكمة، وتغيب عن الواسطة، فإن كنت مجذوباً مغلوباً فأنت في هذا المحل ناقص، وإن كنت صاحباً فأنت ساقط إلا أن يأخذ بيدك شيخ واصل أو عارف كامل.

وهنا ميزان آخر تعرف به نفسك في القرب والبعد، فإن وجدت شيخاً مريباً كشف الله لك عن أنواره، وأطلعك على خصائص أسراره، فأنت قطعاً من أهل القرب بالفعل أو بالإمكان، لقول الشيخ رضي الله عنه: سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه. وإن لم تجد شيخاً مريباً وغرّك قول من قال: إنه انقطع وجوده، فأنت قطعاً من أهل اليمين من عوام المسلمين، هذا الغالب والناذر لا حكم له، والله تعالى أعلم.

وفي الحديث عنه عليه السلام: «يقول الله تبارك وتعالى: أنا الله لا إله إلا أنا، خلقت الخير والشر، فطوبى لمن خلقت للخير وأجريت الخير على يده، وويل لمن خلقت للشر وأجريت الشر على يده»⁽¹⁾ وفي حديث آخر: «من أراد أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده»⁽²⁾. وفي رواية: «من أراد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه، فإن الله تعالى ينزل العبد حيث أنزله العبد من نفسه»⁽³⁾.

ثم ذكر ميزاناً آخر تعرف به المقرّبين والأغنياء الشاكرين، فقال:

(مَنْ رَزَقَكَ الطَّاعَةَ وَالْغِنَى بِهِنَّهَا، فَأَعْلَمَ أَنَّهُ نَدَّ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعْمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً).

قلت: الطاعة في الظاهر هي رسوم الشريعة، والغنى به في الباطن هو شواهد الحقيقة، فإذا جمع لك بين الطاعة في جوارحك، والغنى به عنها في باطنك، فقد أسبغ عليك أي أكمل وأطال عليك نعمه ظاهرة وباطنة، وهذه سيما العارفين المقرّبين الأغنياء بالله الفقراء مما سواه، استغنوا بمعبردهم عن رؤية عبادتهم، وبمعلومهم عن

(1) خرجه المناوي في الإنحافات السننية بالأحاديث القدسية، برقم (106) [50/1] والخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق، [153/2] وأورده غيرهما.

(2) أورد نحوه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في الأصل السادس والسبعون والمائة [278/2] ورواه ابن المبارك في الزهد، باب التواضع، حديث رقم (849) [291/1] ورواه غيرهما.

(3) رواه الحاكم في المستدرک، كتاب الدعاء، حديث رقم (1820) [671/1] ونصه: قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: خرج علينا النبي صلى الله عليه وآله فقال: «يا أيها الناس، إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر في الأرض فارتعوا في رياض الجنة، قالوا: وأين رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر فاغدوا وروحوا في ذكر الله وذكره أنفسكم من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه». ورواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، حديث رقم (2501) [67/3] ورواه غيرهما.

علمهم، وبمصلحتهم عن صلاحهم.

قال الشيخ أبو الحسن في حزبه الكبير: نسألك الفقر مما سواك، والغنى بك حتى لا نشهد إلا إياك، فهؤلاء الأغنياء بالله الغائبون فيه عما سواه عبادتهم بالله ولله ومن الله قياماً بشكر النعمة وإتماماً لوظائف الحكمة. وفي الحديث عنه ﷺ: «أحب العباد إلى الله الأغنياء الأخفياء الأتقياء»⁽¹⁾ أو كما قال عليه الصلاة والسلام. وفي حديث آخر: «ليس الغنى بكثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»⁽²⁾ انتهى. وهو الغنى بالله، وهذه هي النعمة الحقيقية.

فالنعم الظاهرة: هي تزيين الجوارح بالشريعة، والنعم الباطنة: هي إشراق الأسرار بالحقيقة.

وقيل: النعم الظاهرة: هي الكفاية والعافية، والنعم الباطنة: هي الهداية والمعرفة.

وقيل: النعمة المعظمى: الخروج من رؤية النفس. وقيل: هي: ما وصلك بالحقائق وطهرتك من العلائق، وقطعتك عن لخلائق، وبالله التوفيق.

[خلاصة ما ورد في الباب الثامن]

هذا آخر الباب الثامن، وحاصله: تحقيق الآداب مع الواردات الإلهية لأنها مواهب اختصاصية، فمن أراد مدد أنوارها فعليه بكتمان أسرارها، وليؤخر جزاء ثوابها لدار يدوم بقاءها، فحينئذ يتحقق إخلاصه ويظهر اختصاصه، فيذوق حلاوة الطاعة والإيمان، ويعظم قدره عند الملك الديان، فيغيبه به عما سواه، ويسبغ عليه مننه [الظاهرة والباطنة، الحسية والمعنوية].

(1) رواه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، ترجمة أبي بكر الصديق [15 / 1] ونظفه: «أحب العباد إلى الله تعالى الاتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا شهدوا لم يعرفوا أولئك هم أئمة الهدى ومصابيح العلم».

(2) رواه البخاري بلفظ: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس» (الصحيح، باب الغنى عن النفس، حديث رقم (6081) [2368 / 5] ورواه مسلم في صحيحه، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، حديث رقم (1051) [726 / 2] ورواه غيرهما.

[الباب التاسع]

[أفضل الطلب من الله تعالى]

ومهما أغناك به استغنيت به عن طلبه، وإن كان ولا بد من الطلب فاطلب منه ما هو طالبه منك، كما أشار إليه في أول الباب التاسع فقال رضي الله عنه :

72 - (خَيْرُ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ)

قلت : والذي طالبه منا : هي الاستقامة ظاهراً وباطناً، ومرجعها إلى تحقيق العبودية في الظاهر وكمال المعرفة في الباطن .

أو تقول : الذي هو طالبه منا : إصلاح الجوارح الظاهرة بالشرعية قياماً برسوم الحكمة، وإصلاح القلوب والأسرار الباطنة بالحقيقة قياماً بوظائف القدرة .

ومن دعاء الجنيد رضي الله عنه : اللهم وكلُّ سؤال فعن أمرك لي بالسؤال، فاجعل سؤالي لك سؤال محابك، ولا تجعلني ممن يتعمد بسؤاله مواضع الحفظ، بل يسأل القيام بواجب حقتك .

[علامة الاغترار]

ثم إذا طلبت منه، فاطلب منه ما طلبه منك، وهو الطاعة والاستقامة، وإذا لم تساعفك الأقدار ومنعت منها قبل أن تسأل، فإن لم تنهض إليها بقلبك وتأسفت عليها بنفسك فذلك علامة الاغترار كما أشار إلى ذلك بقوله :

73 - (الْحُزْنُ عَلَى فَقْدَانِ الطَّاعَةِ مَعَ حَدَمِ النُّهُوضِ إِلَيْهَا مِنْ هَلَامَاتِ الْإِغْتِرَارِ)

قلت : الحزن : هو التحسر على شيء، فإن لم تحصله وندمت على عدم تحصيله، أو التوجع على شيء منعت منه ولم تقدر على تحصيله، فإن كان حزنك على شيء منعت منه ونهضت إلى أسبابه المرصلة إليه فهو حزن الصادقين .

وإن لم تنهض إلى أسبابه فهو حزن الكاذبين، وإن كان هلى ما فات ونهضت إلى استدراك ما يمكن استدراكه فهو حزن الصادقين، وإن لم تنهض إلى استدراكه فهو حزن الكاذبين . وقد سمعت رابعة العلوية رجلاً يقول : واحزناء، فقالت له : قل واقله حزناه فلو كان حزنك صادقاً لم يتهياً لك أن تتنفس . انتهى .

[أقسام الحزن]

فالحزن ينقسم إلى ثلاثة أقسام: حزن الكاذبين، والصادقين، والصدّيقين السائرين.

فحزن الكاذبين هو ما تقدم من عدم النهوض والاستدراك لما فات.

وحزن الصادقين هو الحزن المصحوب بالجهد والاجتهاد، والتوسط في العمل والاقتصاد مع اغتنام ما بقي من الأوقات لاستدراك ما فات.

وحزن الصدّيقين من السائرين هو الحزن على فوات الأوقات، أو حصول شيء من الغفلات، أو وقوع ميل أو ركون إلى الحظوظ والشهوات، إلا أن حزنهم لا بدوم، إذ لا يقفون مع شيء ولا يقبضهم شيء.

وأما الواصلون فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّكَ أَرْسِلْنَا اللَّهَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: الآية 62] إذ الحزن إنما يكون على فقد شيء أو فوات غرض، وماذا فقد من وجد الله؟ وقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن. وفي هذا المقام ينقطع البكاء إذ لا بكاء في الجنة.

وقد رأى الصدّيق قوماً بقرؤون ويكفون، فقال: كذلك كنا ثم قست القلوب، فعبث بالقسوة عن التمكين أدباً وتسترأ، لأن القلب في بدايته رطب يتأثر بالمواعظ وتحركه الأحوال، فإذا استمر معها وتصلب لم يتأثر بشيء ويكون كالجبل الراسي ﴿وَوَرَى الْجِبَالِ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: الآية 88].

[العارف الحقيقي بالله تعالى]

ثم إذا أعطاك ما طلبت من كمال الاستقامة ونهضت إليه نادماً على ما فاتك من الطاعة، كانت نهايتك الوصول إلى الحبيب ومناجاة القريب، هناك تكل الألسن عن العبارة وتنقطع الإشارة كما أبان ذلك بقوله:

74 - (ما أَعَارِفُ مَنْ إِذَا أَشَارَ وَجَدَ الْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ، بَلِ أَعَارِفُ مَنْ لَا إِشَارَةَ لَهُ، لِفَنَائِهِ فِي وُجُودِهِ، وَأَنْطَوَائِهِ فِي شُهُودِهِ)

قلت: الإشارة: أرق وأدق من العبارة، والرمز أدق من الإشارة، فالأمور ثلاثة: عبارات وإشارات ورموز، وكل واحدة أدق مما قبلها، فالعبارة توضح، والإشارة تلوح، والرمز يفرح، أي يفرح القلوب بإقبال المحبوب.

وقالوا: علمنا كله إشارة، فإذا صار عبارة خفي، أي خفي سره، أي فإذا صار عبارة بإفصاح اللسان لم يظهر سره على الجنان، فإشارة الصوفية هي تغزلاتهم وتلويحاتهم بالمحبوب كذكر سلمى وليلى، وذكر الخمرة والكيزان⁽¹⁾ والنديم وغير ذلك مما هو

(1) الأكوام لا أذن لها (انظر كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي).

مذكور في أشعارهم وتغزلاتهم، وكذكر الأقمار والنجوم والشموس والبدور واللوائح والطواع، وكذكر البحار والإغراق وغير ذلك مما هو مذكور في اصطلاحاتهم.

وأما الرموز: فهي إيماء وأسرار بين المحبوب وحبيبه لا يفهما غيرهم، ومنها في القرآن فواتح السور، ومنها في الحديث كقول رسول الله ﷺ لأبي بكر: «أريد أن أدهوك لأمر، قال: وما هو يا رسول الله، قال: هو ذلك»⁽¹⁾ فرمز لأمر بينهما لا يعرفه غيرهما. وقال له أيضاً: «يا أبا بكر أتعلم يوم يوم - بتكرير لفظ يوم - قال: نعم يا رسول الله، سألتني عن يوم المقادير»⁽²⁾. فهذه رموز بين الصديق وحبيبه.

وأما الإشارات: فيدركها أربابها من أهل الفن. والناس في إدراكها وعدمه على أقسام:

فمنهم من لا يفهم منها شيئاً ولا يعرف إلا ظاهر العبارة وهم الجهال من عموم الناس.

ومنهم من يفهم المقصود ويجد الحق بعد الإشارة أي بعد سماع الإشارة، وهم أهل البداية من السائرين.

ومنهم من يفهم الإشارة ويجد المشار إليه وهو الحق أقرب إليه من إشارته، وهم أهل الفناء في الذات قبل التمكين، ولهذا تجدهم يتواجدون عند السماع ويتحركون وتطيب أوقاتهم وتهيم أرواحهم أكثر مما يتواجدون عند الذكر، لأن الإشارة تهيج أكثر من العبارة، بخلاف المتمكنين قد رسخت أقدامهم واطمأنت قلوبهم وتحقق وصولهم، فاستغنوا عن الإشارة والمشير ولذلك قيل للجنيد: ما لك كنت تتحرك عند السماع وتتواجد واليوم لا نراك تتحرك بشيء، قال: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّعَابِ﴾ [الثل: الآية 88] انتهى. وهذا هو العارف الذي لا إشارة له لفنائه في وجود الحق وانطوائه في شهوده.

أو تقول: لتحقق وصوله وتمكنه في شهوده، فصار المشير عين المشار إليه لفناء وجوده في وجود محبوبه، وانطواء ذاته في ذات مشهوده. أو تقول: لزوال همه وثبوت علمه، فتحققت الوحدة وامتحت الغيرية.

رَقُّ الزَّجَاجِ وَرَقَّتِ الْخَمْرُ فَتَشَابَهَا وَتَشَاكَلُ الْأَمْرُ
فَكَأَنَّهَا خَمْرٌ وَلَا قَدْحٌ وَكَأَنَّهَا قَدْحٌ وَلَا خَمْرٌ⁽³⁾

(1) أورده علي بن برهان الدين الحلبي في السيرة، أي لا معادل ولا مماثل، [1/239].

(2) أورده الخفاجي في السيرة الحلبية [1/229].

(3) هذان البيتان هما للشيخ أبي الفتح يحيى بن حبش الحكيم، شهاب الدين السهروردي المرلود سنة 549 هجرية والمقتول سنة 587 هجرية. والبيان من البحر الكامل وتفعيلته:

كامل الجمال من البحور الكامل متفاعلن متفاعلن متفاعلن

فالأقداح أشباح والخمور أرواح . أو تقول : لذهاب حسنه وانطماس رسمه ، فانكسرت الأواني وسطعت المعاني :

قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه : إن الله عبادةً محق أفعالهم بأفعاله ، وأوصافهم بأوصافه ، وذاتهم بذاته ، وحملهم من أسرارهم ما تعجز عنه الأولياء .

وقال إمام الطريقة أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه في وصف العارف : عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرقت قلبه أنوار هدايته ، وصفا شرابه من كأس وده ، تجلّى له الجبار عن أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن سكت فمن الله ، وإن تحرك فبإذن الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله والله ومع الله ، ومن الله وإلى الله . انتهى .

فهذه صفات العارف الحقيقي الراسخ المتمكن قد كلّ لسانه عن التعبير ، واستغنى عن الإشارة والمشير ، فإذا صدرت منه إشارة أو تعبير ، فإنما ذلك لفيضان وجد أو هداية فقير ، وقد صدرت إشارات من المتمكنين فتحمل على هذا القصد كقول الشيخ أبي العباس [المرسي] رضي الله عنه :

أَعْنَدَكَ عَنْ لَيْلَى حَدِيثٌ مَحْرَرٌ بِإِرَادِهِ يَخْبِي الرَّمِيمُ وَيُنْشَرُ
فَعَهْدِي بِهَا الْعَهْدُ الْقَدِيمُ وَإِنِّي عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي هَوَاهَا مُقْصِرُ
وَقَدْ كَانَ عَنْهَا الطَّيْفُ قَدَمًا يَزُورُنِي وَلَمَّا يَزُرُ مَا بَالَهُ يَتَعَسِّرُ
وَهَلْ بَخَلْتُ حَتَّى بَطِيفِ خِيَالِهَا أَمْ اغْتَلَّ حَتَّى لَا يَصْخُ التَّصَوُّرُ
وَمِنْ وَجْهِ لَيْلَى طَلَعَةُ الشَّمْسِ تَسْتَضِي وَفِي الشَّمْسِ أَبْصَارُ الْوَرَى تَتَحَيَّرُ
وَمَا احْتَجَبَتْ إِلَّا بِرَفْعِ جِجَابِهَا وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الظُّهُورَ تَسْتَرُ

فقول الشيخ : ما العارف الخ ، أي ليس العارف الكامل وهو الراسخ المتمكن .
وأما السائر فيحتاج إلى الإشارة ، ريجد الحق أقرب إليه من الإشارة أو معها ، وهي إعانة له وقوة كالعبارة للمتوجهين .

وقوله : من إذا أشار ، أي أشير له ، وقوله : بل العارف من لا إشارة له ، أي لا يحتاج إليها في نفسه ، وقد يشير لأجل غيره كما تقدم ، وإنما استغنى عن الإشارة لأن الإشارة والعبارة قوت الجائع ، وهو قد شبع واستغنى . أو تقول : لأن الإشارة تقتضي البينونة والفرق وهو مجموع في فرقه ، ولذلك قال الشيخ أبو يزيد رضي الله عنه :
أبعدهم من الله أكثرهم إشارة إليه .

وأما الواصل فلا يحتاج إلى إشارة لكونه قد تحقق فناؤه وانطوى وجوده في وجود محبوبه ، فلم يحتج إلى إشارة لتمكن حاله وتحقق مقامه ، والله تعالى أعلم .

وسئل أبو سعيد بن الأعرابي عن الفناء فقال : هو أن تبدو العظمة والإجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة والأحوال والدرجات والمقامات والأذكار، تفنيه عن كل شيء وعن عقله وعن نفسه، وفنائه عن الأشياء وعن فنائه عن الفناء لأنه يفرق في التعظيم، انتهى.

[الفرق بين الرجاء والأمنية]

ولما كان المطلوب من العبد القيام بوظائف العبودية ومعرفة عظمة الربوبية، تشوّقت القلوب إلى نيلها، وطمعوا في إدراكها، ورجوا بلوغ آمالهم فيها، فبيّن الشيخ علامة الرجاء الصادق من الكاذب فقال :

75 - (الرَّجَاءُ مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ وَإِلَّا فَهُوَ أُمْنِيَّةٌ)

قال بعض العلماء : الرجاء تعلق القلب بمطموع يحصل في المستقبل مع الأخذ في العمل المحض له، وأقرب منه طمع يصحبه عمل في سبب المطموع فيه لأجل تحصيله انتهى. والأمنية : اشتهاه وتمني لا يصحبه عمل، فإن كان مع الحكم والجزم فهو تدبير وهو أتم قبحاً. قاله الشيخ [أحمد] زروق.

قلت : فمن رجا أن يدرك النعيم الحسي كالقصور والحدور فعليه بالجد والطاعة والمسارة إلى نوافل الخيرات وإلا كان رجاؤه حمقاً وغروراً. ومن كان رجاؤه تحقيق العلوم وفتح مخازن الفهوم فعليه بالمدارسة والمطالعة ومجالسة أهل العلم المحققين العاملين مع تحليته بالتقوى والورع، قال تعالى : ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة : الآية 282].

وقد قال بعض المحققين : من أعطى كُليته في العلم أخذ كليته، ومن لم يعط كليته لم يأخذ بعضه ولا كليته. وفي الحديث عنه ﷺ : «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ مِنْ يَطْلُبُ مِنَ الْخَيْرِ يُوْتَهُ وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوْتَهُ»⁽¹⁾ انتهى.

والذي تفيده التقوى إنما هو فهم يوافق الأصول ويشرح الصدور ويوسع العقول، ومن كان رجاؤه الوصول إلى إدراك المقامات، وتحقيق المنازلات ومواجيد المحبتين وأذواق العارفين، فعليه بصحبة الفحول من الرجال أهل السر والحال، بحط رأسه وذبح

(1) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، حديث رقم (2663) [3/118] ونصه : عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَنْ يَطْحَرِ الْخَيْرَ يَعْطَهُ وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوْتَهُ، ثَلَاثٌ مِنْ كُنْ فِيهِ نَمَّ يَسْكُنُ الدَّرَجَاتِ الْعُلَا وَلَا أَقُولُ لَكُمْ الْجَنَّةَ، مَنْ تَكْهَنَ أَوْ اسْتَقْسَمَ أَوْ رَدَّ مِنْ سَفَرٍ تَطْبِيرُهُ». ورواه الديلمي في مسند الفردوس، حديث رقم (1367) [1/342] ورواه غيرهما.

نفسه والأخذ فيما كلفوه به من الأعمال مع الذنِّ والافتقار والخضوع والانكسار، فإن زعم أنه لم يجدهم فليصدق في الطلب، فسر الله كله في صدق الطلب، وليستغرق أوقاته في ذكر الله، وليلتزم الصمت والعزلة، وليحسن ظنه بالله وبعباد الله، فإن الله يقبض له من يأخذ بيده ﴿إِنْ يَتْلُمْ اللَّهُ لِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: الآية 70].

وفي الخبر عنه عليه الصلاة والسلام: «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم»⁽¹⁾.

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت، ورجعت إلى صاحبها بطرائف العلوم من غير أن يؤدي إليها عالم علماً. انتهى.

فمن رجا أن يدرك هذه الأمور المتقدمة وشرع في أسبابها وتحصيل مبادئها كان علامة على نجاح مطلبه وكان رجاؤه صادقاً، ومن طمع فيها من غير أن يأخذ بالجد في أسباب تحصيلها كان أمنية أي غروراً وحمقاً.

[الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية]

ولما كان من رجا شيئاً وطمع فيه الغالب أنه يطلبه، بين الشيخ خير ما يطلبه العبد ويرجوه، فقال:

76 - (مَطْلَبُ الْعَارِفِينَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى الصُّدْقُ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَالْقِيَامُ بِحُقُوقِ الرَّبُوبِيَّةِ)

قلت: المطلب مصدر بمعنى المفعول، أو اسم مكان أي مطلوب العارفين ومقصودهم، أو محل قصدهم ومحل نظرهم، إنما هو تحقق الصدق في العبودية بحيث لا تبقى فيهم بقية، فما دام العبد مسجوناً بمحيطاته محصوراً في هيكل ذاته لا تنفك عنه الحفظ [ما دنيوية أو أخروية، فلا تتحقق عبوديته لله وفيه عبودية لحفظه وهواه، فلا يكون صادقاً في عبوديته وهو مملوك لحظ نفسه، فإذا قال: أنا عبد الله نازعته حفظه وهواه، فلا تتحقق عبوديته لله حتى يتحرر من رقِّ الأكوان ويتحقق بمقام الأحرار من أهل العرفان، فحينئذ يكون سالماً لله حراً مما سواه. قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ [الزمر: الآية 29] - أي متخاصمون - ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: الآية 29] أي لا يستويان أبداً، إذ العبد الخالص لسيد واحد يكون أحظى وأعز وأقرب من العبد المشترك، وكذلك العبد الخالص لله أحظى بمحبة مولاه.

(1) أورده المناوي في فيض القدير، حرف السين، [388/4]، والسخاري في فتح المغيب [265/1] وأورده غيرهما. وأورده السخاري في فتح المغيب، آداب طالب الحديث [359/2] وأورده غيرهما.

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه : شتان بين من همته الحور والقصور وبين من همته الحضور ورفع الستور . انتهى . ولأجل هذا كان مطلب العارفين إنما هو التحقق بالعبودية لمولاهم بالتححرر من رق هواهم والقيام بوظائف الربوبية بالأدب والتعظيم والإجلال لمولاهم وهما متلازمان ، فمهما تحقق الصدق في العبودية إلا حصل القيام بوظائف الربوبية ، فإن النفس إذا ماتت بترك حظوظها حييت الروح ، وإذا حييت الروح عرفت ، وإذا عرفت أذعنت وخضعت لهيبة الجلال ، وهذا هو القيام بحقوق الربوبية وهو مراد العارفين ، ومقصود السائرين ، ومحط نظر القاصدين والطالبين .

فإذا طلب العبد من مولاه ما هو طالبه منه من استقامة ظاهره بالنهوض إلى كمال الطاعات والحزن على ما سلف من الغفلات ، واستقامة باطنه بمعرفة معبوده والفناء في شهوده ، فيكون ظاهره قائماً بوظائف العبودية وباطنه متحققاً بحقوق الربوبية .

[القبض والبسط]

ثم إذا أحس بإجابة المطلب وحصول المنى والمرغب ، فرح قلبه وانبسطت روحه حيث شمت نسيم الإقبال وروح الوصال ، فربما يقبضها البسط عن شهود مولاهما فيخرجها منه إلى القبض ، ثم يرحلها عنهما إليه ، كما أشار الشيخ إلى ذلك بقوله :

77 - (بَسَطَكَ كُنِيَ لَا يُبْقِيكَ مَعَ الْقَبْضِ ، وَقَبْضَكَ كُنِيَ لَا يَتْرُكُكَ مَعَ الْبَسْطِ ،
وَأَخْرَجَكَ هُنُّمَا حَتَّى لَا تَكُونَ لِشَيْءٍ دُونَهُ)

قلت : البسط : فرح يعتري القلوب أو الأرواح ، إما بسبب قرب شهود الحبيب أو شهود جماله ، أو بكشف الحجاب عن أوصاف كماله وتجلّي ذاته ، أو بغير سبب .

والقبض : حزن وضيق يعتري القلب ، إما بسبب فوات مرغوب أو عدم حصول مطلوب أو بغير سبب ، وهما يتعاقبان على السالك تعاقب الليل والنهار .

فالمعوم إذا غلب عليهم الخوف انقبضوا ، وإذا غلب عليهم الرجاء انبسطوا .
والخواص إذا تجلّى لهم بوصف الجمال انبسطوا ، وإذا تجلّى لهم بوصف الجلال انقبضوا .

وخواص الخواص استوى عندهم الجلال والجمال ، فلا تغيّرهم واردات الأحوال لأنهم بالله والله ولا لشيء سواه .

فالأولون ملكتهم الأحوال ، وخواص الخواص مالكون الأحوال ، فمن لطفه بك أيها السالك أخرجك من الأغيار ودفعتك إلى حضرة الأسرار .

فإذا أخذك القبض وتمكّن منك الخوف وسكنت تحت قهره وأنست بأمره ، أخرجك إلى البسط لئلا يحترق قلبك ويذوب جسمك .

فإذا حبسك البسط وفرحت به وأنت بجماله قبضك لئلا يتركك مع البسط فتسيء الأدب وتجر إلى العطب، إذ لا يقف مع الأدب في البسط إلا القليل.

هكذا يسبرك بين شهود جلاله وجماله، فإذا شهدت أثر وصف الجلال انقبضت وإذا شهدت أثر وصف الجمال انبسطت.

ثم يفتح لك الباب ويرفع بينك وبينه الحجاب، فتتنزه في كمال الذات وشهود الصفات، فتغيب عن أثر الجلال والجمال بشهود الكبير المتعال، فلا جلاله يحجبك عن جماله ولا جماله يحجبك عن جلاله، ولا ذاته تحبسك عن صفاته ولا صفاته تحبسك عن ذاته، تشهد جماله في جلاله وجماله في جماله، وتشهد ذاته في صفاته وصفاته في ذاته، أخرجك عن شهود أثر الجلال والجمال لتكون عبد الله في كل حال، أخرجك عن كل شيء لتكون حراً من كل شيء وعبداً له في كل شيء.

[آداب القبض والبسط]

واعلم أن القبض والبسط لهما آداب، فإذا أساء فيهما الأدب طرد إلى الباب أو إلى سياسة الدواب.

فمن آداب القبض الطمأنينة والوقار والسكون تحت مجاري الأقدار والرجوع إلى الواحد القهار، فإن القبض شبيه بالليل والبسط شبيه بالنهار، ومن شأن الليل الرقاد والهدوء والسكون والحنو، فاصبر أيها المرید واسكن تحت ظلمة ليل القبض حتى تشرق عليك شمس نهار البسط، إذ لا بد لليل من تعاقب النهار، ولا بد للنهار من تعاقب الليل، ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: الآية 61] هذا آداب القبض الذي لا تعرف له سبباً.

وأما إن عرفت له سبباً فارجع فيه إلى مسبب الأسباب ولذّب بجانب الكريم الوقاب، فهل عودك إلا حسناً وهل أسدى إليك إلا منناً، فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار، فالذي أنزل الداء هو الذي بيده الشفاء، يا مهموم بنفسه لو ألقيتها إلى الله لاسترحت، فما تجده القلوب من الأحزان فلأجل ما منعه من الشهود والعيان.

والحاصل: أن سبب القبض إنما هو النظر للسوى والغفلة عن المولى، وأما أهل الصفاء فلا يشهدون إلا الصفاء، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول: «من أصابه هم أو غم فليقل: الله الله لا أشرك به شيئاً، فإن الله يذهب همه وغمه»⁽¹⁾ أو كما قال

(1) روى نحوه الطبراني في الكبير عن أسماء بنت عميس، حديث رقم (396) [24/154] ولفظه: «من أصابه هم أو غم أو سقم أو شدة فقال الله ربي لا شريك له، كشف ذلك عنه». ورواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (10228) و(10229) [7/257] ولفظه: «من أصابه هم أو غم أو سقم أو أزل أو لأواء فقال: الله الله لا أشرك به شيئاً، فإن الله يذهب همه وغمه».

عليه السلام، والحديث صحيح، فانظر كيف دلّ عليه الصلاة والسلام المقبوض إلى الدواء، وهو شهود التوحيد والغيبة عن الشرك، فدلنا بالتحقيق على القول. والمراد منه المعنى فكأنه قال: اعرفوا الله ووجدوه ينقلب قبضكم بسطاً ونقمتكم نعمة، وكذلك في حديث آخر قال: «ما قال أحد اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ في حكمك عدلٌ في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور بصري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همه وغمه وأبدل مكان همه فرحاً وسروراً»⁽¹⁾.

فدلهم أولاً في الحديث الأول على شهود الربوبية، وفي الحديث الثاني على القيام بوظائف العبودية، وهو الصبر والرضى، إذ من شأن العبد أن يصبر على أحكام سيده ويسلم ويرضى لما يجريه عليه من أوصاف قهره.

ومن آداب البسط كف الجوارح عن الطفيان وخصوصاً جارحة اللسان، فإن النفس إذا فرحت بطرت وخفت ونشطت، فربما تنطق بكلمة لا تلقي لها بالاً فتسقط في مهاوي القطيعة بسبب سوء أدبها، ولذلك كان البسط مزلة أقدام، فإذا أحس المرید بالبسط فليذم نفسه بلجام الصمت، وليتحلّ بحلية السكينة والوقار، وليدخل خلوته وليلتزم بيته.

[خوف العارفين بالبسط]

ولأجل هذا كان العارفون يخافون من البسط أكثر من القبض، كما نبّه عليه بقوله:

78 - (العارفون إذا بسطوا أخوفٌ مِنْهُمْ إذا قبضوا)

قلت: كل من فتح عليه في شهود المعاني فهو عارف، فإن تمكن من شهود المعنى على الدوام فهو واصل متمكّن وإلا فهو سائر.

وإنما كان العارف إذا انبسط أخوف منه إذا انقبض، لأن القبض من شأنه أن يقبض النفس عن حظوظها ومن شأنه أيضاً السكون، والسكون كله أدب. ومن شأن البسط أن يبسط النفس وينشطها، فربما تبطش لما فيه حظها فتزل قدم بعد ثبوتها بسبب قلة آدابها، ولذلك قال:

78- (وَلَا يَقِفُ عَلَى حُدُودِ الْأَدَبِ فِي الْبَسْطِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(1) روى نحوه أحمد في المسند، آخر أحاديث عبد الله بن عباس، حديث رقم (3712) [1 / 391] ورواه غيره.

قلت: وهم أهل الطمأنينة والتمكين لأنهم كالجبال الرواسي لا يحركهم قبض ولا بسط، فهم ما لكون الأحوال لا يخرجهم القبض ولا البسط عن حالة الاعتدال، بخلاف السائرين وإن كانوا عارفين، فإنهم ربما تؤثر فيهم الواردات، فيرد عليهم وارد البسط، فيخرجهم عن حد الأدب. وقد قيل: قف على البساط وإياك والانبساط.

[حفظ النفس في البسط والقبض]

ثم علل عدم الوقوف على حدود الأدب في البسط فقال:

79 - (الْبَسْطُ تَأْخُذُ النَّفْسَ مِنْهُ حَظًّا بِوُجُودِ الْفَرَحِ، وَالْقَبْضُ لَا حَظَّ لِلنَّفْسِ فِيهِ)

قلت: لأن البسط جمال والقبض جلال، ومن شأن الجمال أن يأتي بكل جمال، وأين هو الجمال ثم هو عين الجلال، أين هو حبيبك ثم هو عدوك، أين هو الربح ثم هو الخسارة. ومعنى ذلك أن الموضع الذي يلائم النفس ويليق بها ثم هو خسارة القلب وحجاب الروح، لأن الموضع الذي تحيا به النفس يموت فيه القلب. والموضع الذي تموت فيه النفس يحيا به القلب والروح. ولذلك قال ابن الفارض رضي الله عنه:

المموت فيه حسياتي وفي حياتي قتلسي

وقال الششتري رضي الله عنه:

إن تُرِدْ وَصَلْنَا فَمَوْتِكَ شَرْطٌ لَا يَنَالُ الْوَصَالَ مِنْ فِيهِ فَضْلَةٌ

وقال أبو علي الدقاق رضي الله عنه: القبض حق الحق منك، والبسط حظك منه، ولأن تكون بحق ربك أولى من أن تكون بحظ نفسك. انتهى.

وهذا كله في حق السائرين. وأما الواصلون المتمكنون؛ فلا يؤثر فيهم جلال ولا جمال، ولا يحركهم قبض ولا بسط، لأنهم لله لا لشيء دونه.

قال الجنيد رضي الله عنه: الخوف يقبضني، والرجاء يبسطني، والحقيقة تجمعني، والحق يفرقني، إذا قبضني بالخوف أفناني عني، وإذا بسطني بالرجاء ردني علي، وإذا أجمعني بالحقيقة أحضرني، وإذا فرقني بالحق أشهدني غيري.

قوله رضي الله عنه: الخوف يقبضني لأن العبد في حالة الخوف يشهد ما منه إلى الله من الإساءة فينفتح له باب الحزن، وفي حالة الرجاء يشهد ما من الله إليه من الإحسان فينفتح له باب الرجاء والبسط.

وقوله: والحقيقة تجمعني أي تغيبيني عن نفسي وتجمعني به، فلا نشهد إلا ما من الله إلى الله، فلا قبض ولا بسط.

وقوله: والحق يفرقني، المراد بالحق الحقوق اللازمة للعبودية، فلا ينهض إليها إلا بشهود نوع من الفرق وإن كان نهوضه بالله.

وقوله : إذا قبضني بالخوف الثاني هني أي إذا تجلى لي باسمه الجليل ذاب جسمي من هيبة المتجلي ، وإذا بسطني بالرجاء بأن تجلى لي باسمه الجميل أو الرحيم رد نفسي ووجودي عليّ ، وإذا جمعني إليه بشهود الحقيقة أحضرني معه بزوال وهمي ، وإذا فرقني بالحق الذي أوجبه عليّ للقيام بوظائف حكمته أشهدني غيري حتى يظهر الأدب مني معه ، وقد يقوى الشهود فلا يشهد الأدب إلاّ منه إليه .

[المنع عين العطاء]

ثم ذكر أسباب القبض والبسط وهو العطاء والمنع في الغالب، فقال:

80 - (رُبَّمَا أَخْطَاكَ فَمَنَعَكَ ، وَرُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَخْطَاكَ)

قلت : الغالب على النفس الأمانة واللّوامة أن تنبسط بالعطاء وتنقبض بالمنع ، لأن في العطاء متعتها وشهوتها ، فلا جرم أنها تنبسط بذلك ، وفي المنع قطع موادها وترك حظوظها ، ولا شك أنها تنقبض بذلك ، وذلك لجهلها برّبها وعدم فهمها ، فلو فهمت عن الله لعلمت أن المنع عين العطاء والعطاء عين المنع كما يأتي .

فافهم أيها الفقير عن مولاك ولا تتهمه فيما به أولاك ، فربما أعطاك ما تشتهي النفوس فمنعك بذلك حضرة القدوس . وربما منعك ما تشتهي نفسك فيتم بذلك حضورك وأنسك .

ربما أعطاك متعة الدنيا وزهرتها فمنعك جمال الحضرة وبهجتها ، وربما منعك زينة الدنيا وبهجتها فأعطاك شهود الحضرة ونظرتها .

ربما أعطاك قوت الأشباح فمنعك قوت الأرواح . وربما منعك من قوت الأشباح فمتعك بقوت الأرواح .

ربما أعطاك إقبال الخلق فمنعك من إقبال الحق . وربما منعك من إقبال الخلق فأعطاك الأنس بالملك الحق .

ربما أعطاك المعلوم وفتح لك مخازن النهوم ، فحجبك بذلك عن شهود المعلوم ومعرفة الحي القيوم ، وربما منعك من كثرة العلوم وأعطاك الأنس بالحي القيوم فأحطت بكل مجهول ومعلوم .

ربما أعطاك عز الدنيا ومنعك عز الآخرة ، ربما منعك من عز الدنيا وأعطاك عز الآخرة .

وربما أعطاك التعزز بالخلق ومنعك من التعزز بالحق . وربما منعك من التعزز بالخلق وأعطاك التعزز بالملك الحق .

ربما أعطاك خدمة الكون فمنعك من شهود المكوّن .

وربما منعك من خدمة الكون وأعطاك شهود المكوّن .
 ربما أعطاك التصرف في المُلْك ومنعك دخول الملكوت . وربما منعك من
 التصرف في المُلْك ومنحك شهود الملكوت .
 ربما أعطاك أنوار الملكوت فمنعك الترقّي إلى بحر الجبروت . وربما حجب
 عنك أنوار الملكوت فأعطاك الدخول إلى حضرة الجبروت .
 ربما أعطاك القطبانية ومنعك التمتع بشهود الفردانية ، وربما منعك القطبانية
 وتمعك بشهود سر الوحدةانية ، إلى غير ذلك مما لا يحصيه إلاّ علّام الغيوب .
 وشاهده قوله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة: الآية 216]

الآية .

[فتح باب الفهم في المنع]

فإذا فهمت هذا علمت أن المنع هو العطاء كما بيّنه بقوله :

81 - (مَنْ فَتَحَ لَكَ بَابَ الْفَهْمِ فِي الْمَنْعِ عَادَ الْمَنْعُ عَيْنَ الْعَطَاءِ)

قلت : إذا فهمت أيها العبد عن الله ، بعد تحقّقك برحمته ورأفته وكرمه وجوده
 ونفوذ قدرته وإحاطة علمه ، علمت أنك إذا سألته شيئاً أو هممت بشيء أو احتجت إلى
 شيء فمنعك منه ، فإنما منعك ذلك رحمة بك وإحساناً إليك ، إذ لم يمنعك من بخل ولا
 عجز ولا جهل ولا غفلة ، وإنما ذلك حسن نظر إليك وإتمام لنعمته عليك ، لكونه أتم
 نظر وأحمد عاقبة ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 216] .

فربما دبرنا أمراً ظننا أنه لنا فكان علينا ، وربما أتت الفوائد من وجوه الشدائد
 والشدائد من وجوه الفوائد ، وربما كمنت المنن في المحن والمحن في المنن ، وربما
 انتفعنا على أيدي الأعداء وأوذينا على أيدي الأحياء ، وربما تأتي المسار من حيث
 المضار وقد تأتي المضار من حيث المسار .

فمتى فتح لك أيها المرید باب الفهم عنه في المنع ، وعلمت ما فيه من الشر
 والخير وحسن النظر لك ، عاد المنع في حفاك هو عين العطاء . ومثال ذلك كصبي رأى
 طعاماً حسناً أو حلواً أو عسلاً وفيه سم وأبوه عالم بما فيه ، فكلما بطش الصبي لذلك
 الطعام رده أبوه ، فالصبي يبكي عليه لعدم علمه ، وأبوه يرده بالقهر لوجود علمه ، فلو
 عقل الصبي ما فيه ما بطش إليه ، ولعلم نصح أبيه وشدة رأفته به .

كذلك العبد يبطش للدنيا أو الرياسة أو غير ذلك مما فيه ضرره ، فيمنعه الحق
 تعالى منه رحمة به وشفقة عليه واعتناء به ، فإذا فهم عن الله سلم الأمر إلى مولاه ولم

يتهمه فيما أبرمه وقضاه، وإذا لم يفهم عن الله تحسر وربما سخط، فإذا انكشف له سر ذلك بَعْدُ، علم ما كان في ذلك من الخير لكن فاتته درجة الصبر لقوله عليه السلام: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»⁽¹⁾.

وانظر قضية الرجل الذي كان يسكن في البادية، وكان من العارفين، فاتفق له ذات يوم أن مات حماره وكلبه وديكته، فأتى إليه أهله فقالوا له: حين مات الحمار مات حمارنا، فقال: خير، ثم قالوا: مات الكلب، فقال: خير، ثم قالوا له: مات الديك، فقال: خير، فغضب أهل الدار وقالوا: أي خير في هذا متاعنا ذهب ونحن ننظر.

فاتفق أن بعض العرب ضربوا على ذلك الحي في تلك الليلة، فاجتاحوا كل ما فيه، وكانوا يستدلون على الخيام بنهيق الحمار ونباح الكلاب وصراخ الديكة، فأصبحت خيمته سالمة إذ لم يكن بقي من يفضحها.

فانظر كيف كان حسن نظر الحق لأوليائه وحسن تدبيره لهم، وكيف فهم الرجل العارف ما في ذلك من السر في أول مرة، فهذا هو الفهم عن الله، رزقنا الله من ذلك الحظ الأوفر آمين.

قال الشبلي: الصوفية أطفال في حجر الحق تعالى. انتهى. يعني أنه يتولى حفظهم وتدبيرهم على ما فيه صلاحهم ولا يكلهم إلى أنفسهم والله تعالى أعلم.

[الغرة والعبرة]

وسبب عدم الفهم عن الله هو الوقوف مع ظواهر الأشياء دون النظر إلى بواطنها كما أبان ذلك بقوله:

82 - (الأكوانُ ظاهرُها غِرَّةٌ، وباطنُها صِبْرَةٌ)

قلت: الغِرَّةُ بكسر الغين وفتح الغرور، وإنما كانت الأكوان ظاهرها غرة لوجهين:

أحدهما: ما جعل الله سبحانه على ظاهر حسنها من البهجة وحسن المنظر، وما تشتهيه النفوس من أنواع المآكل والمشارب والملابس والمراكب، وشهوة المناكح والمساكن والبساتين والرياضات، وكثرة الأموال والبنين وكثرة الأصحاب والعشائر والأجناد والعساكر، وغير ذلك من بهجتها وزخرفتها، فانكبَّ جُلَّ الناس على الاشتغال بجمعها وتحصيلها والجري عليها الليل والنهار والشهور والأعوام، حتى هجم عليهم هاذم اللذات، فأعقبهم الندم والحسرات، ولم ينفع الندم وقد جفت القلم،

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب زيارة القبور، حديث رقم (1223) [430/1] ومسلم في صحيحه، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، حديث رقم (926) [637/2] ورواه غيرهما.

سافروا بلا زاد، وقدموا على الملك بلا تأهب ولا استعداد، فاستوجبوا من الله الطرد والبعاد، ولأجل هذا حذر الله سبحانه من غرورها وزخرفها والوقوف مع ظاهرها، قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلثَّائِبِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14]، ثم قال: ﴿قُلْ أُوذِيكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مِنْ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: الآية 15]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَتَّبِلُوهُمُ أَهْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: الآية 7] أي: لنختبرهم أيهم أزهدها فيها، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [طه: الآية 131] أي أصنافاً ﴿مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنُفِثَنَّهُمْ فِيهَا﴾ [طه: 131].

وقال [أمير المؤمنين] عليّ كرم الله وجهه فيما كتبه إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه: إنما مثل الدنيا كمثل الحية لئن مسها قاتل سمها، فأعرض عنها و عما يعجبك منها لقلّة ما يصحبك منها، ودع عنك ممومها لما تيقنت من فراقها، وكن أسراً ما تكون فيها أحذر ما تكون منها، فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخص منها إلى مكروه. انتهى.

فقد جعل الحق سبحانه هذه الأكوان، وهي الدنيا وما اشتملت عليه، ظاهرها فنة وباطنها عبرة، فمن وقف مع ظاهرها كان مغروراً، ومن نفذ إلى باطنها كان عند الله مبروراً، فأهل الغفلة والبطالة وقفوا مع متعة عاجلها وبهجة ظاهرها، ففرتهم بزخرفها وخدعتهم بغرورها حتى أخذتهم بغتة، وأهل اليقظة والحزم نفذوا إلى باطنها فعرفوا سرعة ذهابها وقلّة بقائها، فاشتغلوا بجمع الزاد ونأهبوا ليوم المعاد، أولئك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

الوجه الثاني: إنما جعل الله سبحانه الأكوان ظاهرها غرة تغطية لسره وإظهاراً لحكمته، وذلك أن الحق سبحانه لما تجلّى في مظاهر خلقه غطى سرّه بظهور حكمته.

أو تقول: الأكوان ظاهرها ظلمة وباطنها نور، فمن وقف مع الظلمة كان محجوباً، ومن نفذ إلى شهود النور كان عارفاً محبوباً.

أو تقول: الأكوان ظاهرها حس وباطنها معنى، فمن وقف مع الحس كان جاهلاً، ومن نفذ إلى المعنى كان عارفاً.

أو تقول: الأكوان ظاهرها ملك وباطنها ملكوت، فمن وقف مع الملك كان من عوام أهل اليمين، ومن نفذ إلى شهود الملكوت كان من خواص المقرّبين. والله تعالى أعلم.

[نظر النفس ونظر القلب]

ثم بين الشيخ الواقف مع الظواهر والنافذ إلى البواطن، فقال:

82 - (فَالنَّفْسُ تَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِ غَرَّتِهَا، وَالْقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَى بَاطِنِ هَيْبَتِهَا)

قلت: إنما كانت النفس تنظر إلى ظاهر غرتها لما فيها من متعة شهوتها وحفظها، فلا يخرجها عن ذلك إلا شوق مقلق أو خوف مزعج أو عناية ربانية، إما بواسطة شيخ كامل له إكسير يقلب به الأعيان، أو بغير واسطة، والله ذو الفضل العظيم. وإنما كان القلب ينظر إلى باطن عبرتها لما فيه من نور العرفان الذي يفرق بين الحق والباطل، ويميز بين النافع والضار، وهو ثمرة التقوى والتصفية. أو تقول: لما فيه من عين البصيرة التي لا ترى إلا المعاني بخلاف عين البصر التي لا ترى إلا الحسن.

فحصل أن أهل النفوس وقفوا مع ظواهر الأشياء، واغثروا بعاجلها، ولم يهتموا بأجلها، فحجبوا عن العمل، وغرهم الأمانى وطول الأمل. وأهل القلوب لم يقفوا مع ظواهر الأشياء بل نفذوا إلى بواطنها واهتموا بأجلها، ولم يغثروا بعاجلها، فاشتغلوا بالجد والاجتهاد وأخذوا في الأهبة والاستعداد، وهم العباد والزهاد.

وأهل الأرواح والأسرار لم يقفوا مع الأكوان لا ظاهرها العاجل ولا باطنها الآجل، بل نفذوا إلى نور الملكوت فاشتغلوا بتطهير القلوب والتأهب لحضرة علام الغيوب حتى صلحوا للحضرة وتنزهوا في رياض الفكرة والنظرة، ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [السجادة: الآية 22]، أولئك المقربون في جنات النعيم ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: الآية 55] جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

[العز الذي لا يفنى]

وهؤلاء من تعلق بهم هم الأعراء عند الله تعزوا بطاعة العزيز فعزهم العزيز كما أشار إلى ذلك بقوله:

83 - (إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ حِزٌّ لَا يَفْنَى، فَلَا تَسْتَعِزَّنْ بِعِزِّ يَفْنَى)

قلت: العز الذي لا يفنى هو العز بالله والغنى بطاعة الله أو بالقرب ممن تحقق عزه بالله، فالعز بالله يكون بتعظيمه وإجلاله وهيئته ومحبته ومعرفة وحسن الأدب معه في كل شيء وعلى كل حال، ويكون بالرضى بأحكامه والخضوع تحت قهر جلاله وكبريائه، وبالحياء والخوف منه، ويكون بالذل والانكسار، كما قال الشاعر⁽¹⁾:

تذلل لمن تهوى لتكسب عزة فكم عزة قد نالها المرء بالذل

(1) لم أقف على اسم هذا الشاعر.

إذا كان من تهوى عزيزاً ولم تكن ذليلاً له فاقراً السلام على الوصل
وسمعت شيخنا رضي الله عنه يقول: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله
عنه: والله ما رأيت العز إلا في الذل. وقال شيخ شيخنا مولاي العربي: وأنا أقول والله
ما رأيت الذل إلا في الفقر، يعني أن الشيخ فسر الذل بالفقر إذ لا يتحقق ذل الإنسان إلا
بالفقر، فهو ذل الذل لأن النفس تموت بالفقر ولا يبقى لها عرق أصلاً، والله أعلم.
وأما العز بطاعة الله فهو بالمبادرة لامثال أمره واجتناب نهيه والإكثار من ذكره
وبذل المجهود في تحصيل برّه.

وأما العز بالقرب ممن تحقق عزّه بالله فيكون بصحبتهم وتعظيمهم وخدمتهم
وحسن الأدب معهم، وهذا في التحقيق يرجع إلى التعزّز بالله لكونه وسيلة إليه، فإذا
تحقق عزّه بالله استغنى بعز الله عن عز غيره، فمن حصل هذا العز وتحقق به فقد تعزّز
بعز لا يفنى أبداً، ينسحب عليه وعلى أولاده وأولاد أولاده إلى يوم القيامة. قال تعالى:
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: الآية 10]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُغْلِبُونَ﴾ [المائدة: الآية 56] والمراد بالذين آمنوا: هم
الأولياء أهل الإيمان الكامل. وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَالرَّسُولُ بِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ
الْمُتَنَفِّينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: الآية 8]. وقال سيدنا علي كرم الله وجهه: «من أراد
الغنى بغير مال والكثرة بغير عشيرة فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة» انتهى. فمن
تحقق عزّه بالله لم يقدر أحد أن يذله.

وانظر قضية الرجل الذي أمر هارون الرشيد بالمعروف فحنق عليه فقال: اربطوه
مع بغلة سيئة الخلق لتقتله، فلم تقض فيه شيئاً، ثم قال: اسجنوه وطينوا عليه البيت،
ففعّلوا فرؤي في بستان فأتي به فقال له: من أخرجك من السجن، فقال: الذي أدخلني
البستان، فقال: ومن أدخلك البستان، فقال: الذي أخرجني من السجن. فعلم هارون
أنه لم يقدر على ذلك، فأمر هارون أن يركب على دابة وينادي عليه: ألا إن هارون أراد
أن يذل عبداً أعزّه الله فلم يقدر. انتهى.

وأما التعزّز بالعز الذي يفنى فهو التعزّز بالمخلوق كتعزّز ملوك الجور ومن انتسب
إليهم بكثرة الاتباع والأجناد وبالعصي والقهر، وكالتعزّز بالأموال والجاه في غير
محلّه، والرياسة وغير ذلك مما ينقطع ويبيد، فمن تعزّز بهذا مات عزّه واتصل ذلّه فإن
التعزّز بالمخلوق قطعاً يعقبه الذل عاجلاً وآجلاً.

ودخل عارف على رجل يبكي فقال له: وما يبكيك، فقال له: مات أستاذي،
فقال له: ولم جعلت أستاذك من يموت. فنبهه على رفع همته وإنفاذ بصيرته، وقد مات
شيخه قبل أن يرشد، والله تعالى أعلم.

فإن أردت أيها المرید أن يكون لك عز لا يفنى، فاستعز بالله وبطاعة الله وبالقرب من أولياء الله، ولا تستعزن بعز مخلوق يفنى، فإن من تعزز بمن يموت مات عزّه، قال الله تعالى: ﴿أَيَّبَنُوتُ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: الآية 139]. وقال أبو العباس المرسي رضي الله عنه: والله ما رأيت العز إلا في رفع الهمة عن الخلق.

تنبيه وإرشاد: اهلّم أن سبب العز الذي يعطيه الله لأوليائه هو حبه لهم، فالعز نتيجة الحب. ففي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماوات: إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض فيحبه أهل الأرض»⁽¹⁾. وفي رواية: يلقى له القبول في الماء فيشربه الناس فيحبونه جميعاً. أو كما قال عليه السلام.

وسبب حب الله للعبد هو زهده في الدنيا، ففي حديث الترمذي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»⁽²⁾.

ثم اهلّم أن هذا العز الذي يعطيه الله لأوليائه لا يكون في بدايتهم ولا في أول أمرهم لثلا يفتنهم الخلق عن الوصول إلى الحق، بل من لطف الله بهم وإغارته عليهم أن ينفر عنهم الخلق أو يسلبهم عليهم حتى يتخلصوا من رقي الأشياء ويتحققوا بالوصول والتمكين، فحينئذ إن شاء أظهر عزهم لينفع بهم عباده ويهدي بهم من شاء من خلقه، وإن شاء أخفاهم واستأثر بعزهم حتى يقدموا عليه، فينشر عزهم ويظهر مكانتهم في دار لا فناء لها. وسيأتي الكلام على هذا في محله إن شاء الله.

[أقسام الطي الحقيقي]

ثم ذكر الشيخ سبب العز الذي لا يفنى، وهو الزهد في الدنيا كما ذكرنا، فقال:
84 - (الطَيُّ الْحَقِيقِيُّ أَنْ تَطْوِيَّ مَسَافَةَ الدُّنْيَا هُنَاكَ، حَتَّى تَرَى الْآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْكَ)

قلت: الطي: هو اللف والضم بحيث يصير الطويل قصيراً والكبير صغيراً. يقال: طويت الثوب أي ضمته. وينقسم عند الصوفية إلى أربعة أقسام: طي الزمان، وطي المكان، وطي الدنيا، وطي النفوس.

(1) رواه البخاري برقم (3037) [3/1175] باب ما جاء في قوله: «وهو الذي أرسل الرباح بشراً بين يدي رحمة». ومسلم برقم (2637) [4/2030] باب إذا أحب الله عبداً. ورواه غيرهما.

(2) رواه الحاكم في المستدرک، كتاب الرقاق، حديث رقم (7873) [4/348] والطبراني في المعجم الكبير، عن سهل بن سعد، حديث رقم (5972) [6/193] ورواه غيرهما.

فأما طَيِّ الزمان، فهو أن يقصر في موضع ويطول في موضع آخر، كمن مرَّ عليه سنون في موضع وفي موضع آخر ساعة أو يوم، كالرجل الذي خرج يفتسل في الفرات يوم الجمعة قرب الزوال فلما فرغ من غسله لم يجد ثيابه، فسلك طريقاً حتى دخل مصر، فتزوج فيها وولد له أولاد وبقي سبع سنين، ثم ذهب يفتسل يوم الجمعة بنيل مصر، فلما فرغ إذا ثيابه الأولى، فسلك طريقاً فإذا هو ببغداد قبل صلاة الجمعة من ذلك اليوم الذي خرج فيه، والحكاية مطولة للفرغاني في شرح التائية⁽¹⁾.

وأما طَيِّ المكان فمثاله أن يكون بمكة مثلاً فإذا هو بغيرها من البلدان، وهذا مشهور لأولياء الله. قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: والله ما سار الأولياء من قاف إلى قاف حتى يلقوا رجلاً مثلنا فإذا لاقوه كان بغيتهم.

وأما طَيِّ الدنيا، فهو أن تطوى عنك مسافتها بالزهد فيها والغيبة عنها وحصول اليقين التام في قلبك حتى يكون الآتي عندك واقعاً، أو كالواقع.

وأما طَيِّ النفوس، فهو بالغيبة في الله عنها، ولذلك يتحقق الزوال، وتتمام الوصال. هو الطَيِّ الحقيقي المعتبر عند المحققين لا طَيِّ الزمان أو المكان، إذ قد يكون استدراجاً أو مكرراً أو تخيلاً وسحراً، فالطَيِّ الحقيقي هو أن تطوي عنك مسافة الدنيا كلها حتى يكون الموت أقرب إليك من نفسك التي بين جنبيك، وكما قال الصديق رضي الله عنه:

كل امرئ مصبوح في أهله والموت أدنى من شرك نعله
وحتى ترحل عنها بالكلية، فلا تبقى فيك منها بقية، هنالك ترحل إلى عالم الملكوت وتكشف لك أسرار الجبروت. وقد قيل في قوله عليه السلام: «الدنيا خطوة مؤمن»⁽²⁾ بمعنى أنه يتخطاها بالزهد فيها. وقال بعضهم: لا تتعجبوا ممن يدخل يده في جيبه فيخرج ما يريد، ولكن تعجبوا ممن يضع يده في جيبه ولم يجد شيئاً ولم يتغير.

وقيل لأبي محمد المرتعش: إن فلاناً يمشي على الماء، قال: عندي من مكته الله من مخالفة هواه، فهو أعظم من المشيء على الماء وفي الهواء. انتهى. وكان شيخ شيخنا رضي الله عنه يقول: لا تفرحوا للفقير إذا رأتموه يصلي كثيراً أو يذكر كثيراً أو يصوم كثيراً أو يعتزل كثيراً حتى تروه زهد في الدنيا ورحل عنها ولم يبق له التفات إليها، فحينئذ يفرح به ولو قلت صلواته وصيامه وذكره وعزله.

(1) راسم الكتاب الكامل هو «منتهى المدارك شرح تائية ابن الفارض» والفرغاني هو محمد بن أحمد بن محمد المدعو سعيد الدين الفرغاني المتوفى سنة 700 هجرية.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

قال في التثوير: لا تدل على فهم العبد كثرة علمه ولا مداومته على ورده، وإنما يدل على نوره وفهمه غناه بربه وانحياشه إليه بقلبه، وتحزّره من رِقّ الطمع وتحليه بحلية الورع، وبذلك تحسن الأعمال وتزكو الأحوال، انتهى. فما قاله شيخ شيخنا صحيح لكن لا يفهمه إلا أهل الفن من أهل الذوق، إذ لا تجتمع مجاهدة ومشاهدة، وإنما تكون المجاهدة أولاً، فإذا حصلت المشاهدة في الباطن ركّدت الجوارح في الظاهر، وما بقي إلا فكرة أو نظرة، والأدب مع الحضرة.

[عطاء الخلق ومنع الحق تعالى]

وإنما يتحقق طي مسافة الدنيا بتحقيق الزهد فيها، ولا يتحقق الزهد فيها إلا برفع الهمة عن الخلق والتعلق بالملك الحق، وبالإيأس مما في أيدي الناس، كما أبان ذلك بقوله:

85 - (الْعَطَاءُ مِنَ الْخَلْقِ حِرْمَانٌ، وَالْمَنَعُ مِنَ اللَّهِ إِحْسَانٌ)

قلت: إنما كان العطاء من الخلق حرماناً لثلاثة أوجه:

أحدها: ما في ذلك من حظها وفرحها والتوصل إلى شهواتها وحفظها، وفي ذلك موت القلب وقسوته.

الوجه الثاني: ما في ذلك من نقص الدرجات والغض عن كمال المراتب والمقامات، ولذلك ترك الأكابر التمتع بالشهوات لقوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طِبْيَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا﴾ [الأحزاب: الآية 20]، [ومن هنا كان الجهاد] الذي لا غنيمة فيه أعظم من الجهاد الذي فيه الغنيمة. فقد ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا خرجت طائفة للفرز فجاهدوا وغنموا فقد تعبوا ثلثي أجرهم، وإذا لم يغنموا رجعوا بأجرهم كاملاً»⁽¹⁾ أو كما قال ﷺ.

الوجه الثالث: ما في ذلك من الركون إليهم وميل القلب بالمحبة لهم، إذ النفس مجبولة على حب من أحسن إليها، فَتَسْتَرِقُ لَهُمْ وَتَكُونُ أُسِيرَةً فِي أَيْدِيهِمْ. وفي وصية سيدنا علي كرم الله وجهه: «لا تجعل بينك وبين الله منعاً وعدّ نعمة غيره عليك مغرماً». وأنشد رضي الله عنه:

لعمرك من أوليته منك نعمة ومدّ لها كفاً فأنت أميرُهُ
ومن كنت محتاجاً إليه فإنه أميسرك تحقيقاً وأنت أسيرُهُ
ومن كنت عنه ذا غنى وهو مالك أزمة أهل الدهر أنت نظيرُهُ

(1) روى نحوه مسلم في صحيحه، باب بيان قدر ثواب من غزا... حديث رقم (1906) [3/1514] والحاكم في المستدرک، کتاب الجهاد، حديث رقم (2414) [2/87] ورواه غيرهما.

فَعِشْ قَانِعاً إِنَّ الْقِنَاعَةَ لِلْفَتَى غِنَاءٌ وَهَذَا مُقْتَضَى مَا أَشِيرُهُ
وقال شيخ شيوخنا ومادة طريقنا بعد نبينا مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله
عنه لأبي الحسن رضي الله عنه: يا أبا الحسن اهرب من خير الناس أكثر من أن تهرب
من شرهم، فإن خيرهم يصيبك في قلبك، وشرهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في
بدنك خير من أن تصاب في قلبك، ولعدو نصل به إلى ربك خير من حبيب يقطعك عن
ربك انتهى.

وقال بعضهم: عزّ النزاهة أكمل من سرور الفائدة. ولأجل هذا المعنى قال عليه
السلام: «إذا أسدى إليكم أحد معروفاً فكافئوه»⁽¹⁾ أي لتسقطوا منته عليكم وتقطعوا
رقبته لكم، والله تعالى أعلم.

وإنما كان المنع من الله إحساناً لوجهين:

أحدهما ما تقدم من أن الله سبحانه ما منعك بخلاً ولا عجزاً، وإنما هو حسن نظر
لك، إذ لعل ما طلبته لا يليق بحالك في الوقت وأخره لوقت هو أولى لك وأحسن، أو
ادخر لك ذلك ليوم فقرك.

الثاني: ما في ذلك من دوام الوقوف ببابه واللياذ بجنابه، وفي ذلك غاية شرفك
ورفع لقدرك. وفي الحديث: «إذا دعا العبد الصالح يقول الله تعالى للملائكة: أخرجوا
حاجته فإنني أحب أن أسمع صوته، وإذا دعا الفاجر قال للملائكة: اقضوا حاجته فإنني
أكره صوته»⁽²⁾ أو كما قال عليه السلام لطول العهد به.

تنبيه: ما ذكره الشيخ من كون العطاء من الخلق حرماناً، إنما هو باعتبار السائرين
أو باعتبار الزهاد والعباد، وأما الواصلون إلى الله المتمكنون مع الله فقد تولاهم الحق
وغيبهم عن شهود الخلق، فهم يتصرفون بالله يأخذون من الله ويدفعون بالله ولا يرون في
الوجود إلا الله.

مُدَّ عَرَفْتُ الْإِلَهَ لَمْ أَرَ غَيْراً وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعٌ

(1) روى نحوه ابن حبان في صحيحه، ذكر الأمر بالمكافأة...، حديث رقم (3408) [8/199] وأبو
داود في سننه، باب عطية من سأل، حديث رقم (1672) [2/128] وروى نحوه غيرهما. ونص رواية
أبي داود هو: «من استعاذ بالله فأعذوه، ومن سأل الله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم
معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا به حتى تروا أنكم قد كافأتموه».

(2) روى نحوه الطبراني في المعجم الأوسط عن جابر بن عبد الله، حديث رقم (8442) [8/216]
ونصه: عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد يدعو الله وهو يحبه فيقول الله عزّ
وجل: يا جبريل أفض لعبي هذا حاجته وأخرها فإنني أحب ألا أزال أسمع صوته وإن العبد ليدعو الله
وهو يبغضه فيقول الله عزّ وجل: يا جبريل أفض لعبي هذا حاجته وعجلها فإنني أكره أن أسمع صوته»
ورواه غيره.

مُذْ تَجْمَعْتُ مَا خَشِيتُ افْتِرَاقاً فسأنا اليومَ وأصلُ مجموعُ
 فلا يرون العطاء إلا من الله، ولا يرون الخلق البتة إلا ما يشهدون فيهم من واسطة
 الحكمة، كما قال القائل⁽¹⁾:

إذا ما رأيت اللّه في الكلِّ فاعلاً رأيت جميع الكائنات ملاحاً
 وبالله التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[خلاصة ما ورد في الباب التاسع]

هذا آخر الباب التاسع، وحاصله: علامة كمال العارف وآدابه في الطلب، وفي
 البسط والقبض، وفي المنع والعطاء.

(1) لم أقف على اسم هذا الغائل.

[الباب العاشر]

[أعمال الخلق وعطاء الله تعالى]

ومن جملة العطاء ما يعطيه الحق سبحانه عباده من الخيرات في مقابلة أعمالهم الصالحات كما أشار إلى ذلك في أول الباب العاشر بقوله :

86 - (جَلَّ رَبُّنَا أَنْ يُعَامِلَهُ الْعَبْدُ نَقْدًا فَيُجَازِيَهُ نَسِيئَةً)

قلت : النقد : ما كان مُعَجَّلًا ، والنسيئة : ما كان مؤخرًا . ومن شأن الكريم إذا اشترى شيئاً أن ينجز نقده ويزيد إحسانه ورفده ، وقد اشترى الحق تعالى منا أنفسنا وأموالنا فعوضنا بها الجنة ، فمن باع نفسه وماله ونقدهما وسلمهما إليه عوضه الله جنة المعارف عاجلاً ، وزاده جنة الزخارف أجلاً ، مع ما يتحفه به من أنواع النعيم ودوام الشهود والنظر إلى وجهه الكريم .

فجَلَّ رَبُّنَا ، أي تنزهه وترفعه ، أن يعامله العبد نقداً ، أي معجلاً ، فيجازه نسيئة ، أي مؤخرًا ، بل لا بد أن يعجل له ما يليق به في هذه الدار ويدخر له ما يليق به في تلك الدار .

والذي عجل له سبحانه في هذه الدار أمور ، منها : ما يدفع عنه من المضار ويجلب له من المنافع والمسار لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف : الآية 196] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّكَ أَوْلَىٰ بِآلِ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [بونس : الآية 62] وقد يتعدى ذلك إلى عقبه كما تقدم .

ومنها : ما يشرق عليه من الأنوار ويكشف لقلبه من الأسرار وهي أنوار التوجه وأنوار المواجهة ، قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ سَأَلُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : الآية 29] وهو نور يفرق بين الحق والباطل ، وقال تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ اللَّهُ ﴾ [البقرة : الآية 282] وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة : الآية 257] يخرجهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، ومن ظلمة المعصية إلى نور الطاعة ، ومن ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة ، ومن ظلمة الحس إلى نور المعنى ، أو من ظلمة الكون إلى نور المكوّن .

[الجزاء على الطاعة]

ومنها : التوفيق والهداية لها قبل عملها حتى جعلك أهلاً للوقوف بين يديه ، وهو الذي أبانه بقوله :

87 - (كَفَىٰ مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى الطَّاعَةِ أَنْ رَضِيكَ لَهَا أَهْلًا)

قلت: لأن الملك لا يدعو لخدمته إلا من يريد أن يكرمه، ولا يدخل لحضرته إلا من يريد أن يعظمه، ولا ينسب له إلا أهل الفضل والتكرمة، فلولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً، فالتوفيق لها أعظم منة وأكبر جزاء.

[المحاضرة والمراقبة والمشاهدة والموانسة]

ومنها ما يرد على قلبه حال عملها من الموانسة به والقرب له، وهو الذي ذكره بقوله:

88 - (كَفَى الْعَامِلِينَ جَزَاءَ مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ)

قلت: والذي فتحه على قلوبهم في حالة العمل ثلاث: محاضرة أو مراقبة أو مشاهدة. فالمحاضرة للطالبين، والمراقبة للساثرين، والمشاهدة للواصلين. فالمحاضرة للعموم، والمراقبة للخصوص، والمشاهدة لخصوص الخصوص، والكل يسمى خشوعاً.

قال بعضهم: الخشوع إطراق السرّ على بساط النجوى باستكمال نعت الهيبة، والذوبان تحت سلطان الكشف، والامحاء عند غلبات التجلي، انتهى.

قال بعضهم: في الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة ولا إلى شيء ولم يستوحش أبداً، قيل: وما هي، قال: معرفة الله.

وقال بعض العلماء: ليس في الدنيا ما يشبه نعيم الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة.

ومنها ما يجده من الثمرات بعد عملها، وهو الذي أشار إليه بقوله:

88 - (وَمَا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُودِ مُوَانَسَتِهِ)

قلت: هذه الموانسة التي يجدها العامل بعد العمل على ثلاثة أقسام: موانسة ذكر، وهو لأهل الفناء في الأفعال. وموانسة قرب، وهو لأهل الفناء في الصفات وهم أهل الاستشراق. وموانسة شهود، وهو لأهل الفناء في الذات. فالأول لأهل الإسلام، والثاني لأهل الإيمان. والثالث لأهل الإحسان.

فموانسة الأول توجب له الفرار من الناس والوحشة منهم. وموانسة الثاني توجب القرب لهم على حذر منهم. وموانسة الثالث توجب الصحبة لهم ومخالطتهم لأنه يأخذ منهم ولا يأخذون منه.

قال بعض العارفين: ليس شيء من الطاعات إلا ودونه عقبة كؤود يحتاج فيها إلى الصبر، فمن صبر على شدتها أفضى إلى الراحة والسهولة، وإنما هي مجاهدة النفس ومخالفة الهوى، ثم والله مكابدة في ترك الدنيا، ثم اللذة والتنعم، أي ثم تكون لذة

الطاعة وتنعم المعرفة .

[أقسام الناس في عبادتهم الله تعالى]

ثم ينبغي لك أيها المرید ألا تقصد شيئاً من هذه الأمور التي يجازيك الحق تعالى بها كانت معجلة أو مؤجلة، فإن ذلك نقص في إخلاصك وناقض لصدق عبوديتك كما أشار إليه بقوله :

89 - (مَنْ عَبَدَهُ لِشَيْءٍ يَرْجُوهُ مِنْهُ، أَوْ لِيَدْفَعَ بِطَاعَتِهِ وُرُودَ الْعُقُوبَةِ عَنْهُ، فَمَا قَامَ

بِحَقِّ أَوْصَافِهِ)

قلت : الناس في عبادة الله باعتبار إخلاصهم على ثلاثة أقسام :

فمنهم من يعبد الله خوفاً من عقوبته معجلة أو مؤجلة، أو طمعاً في رحمته وحفظه عاجلاً وأجلاً، وهم عوام المسلمين، وفيهم قال عليه السلام : «لولا النار ما سجد لله ساجداً»⁽¹⁾.

ومنهم من يعبد الله محبة في ذاته وشوقاً إلى لقائه لا طمعاً في جنته وحفظه ولا خوفاً من ناره ونكاله، وهم المحبون العاشقون من السائرين .

ومنهم من يعبد الله قياماً بوظائف العبودية وأدباً مع عظمة الربوبية . أو تقول : صدقاً في العبودية وقياماً بوظائف الربوبية، وهم المحبون العارفون .

فالقسم الأول عبادته بنفسه لنفسه . والثاني : عبادته بنفسه لله . والثالث : عبادته بالله لله ومن الله إلى الله .

فمن عبد الله تعالى لشيء يرجوه منه في الدنيا أو في الآخرة، أو ليدفع عنه بطاعته ورود العقوبة في الدنيا أو في الآخرة، فما قام بحق أوصاف الربوبية التي هي العظمة والكبرياء والعزة والغنى، وجميع أوصاف الكمال ونعوت الجلال والجمال، إذ نعوت الربوبية من العظمة والجلال تقتضي خضوع العبودية بالانكسار والإذلال، أرأيت إن لم تكن جنة ولا نار ألم يكن أهلاً لأن يعبد الواحد القهار، أرأيت من أنعم بنعمة الإيجاد والإمداد أليس أهلاً لأن يشكره جميع العباد، فمن كان عبداً مملوكاً لسيدته لا يخدمه في مقابلة نواله ورفده، بل يخدمه لأجل عبوديته ورقه، وسيدته لا محالة يقوم بمؤونته ورزقه، أيرزك لوجوده ويمنعك من جوده؟ ومما وجد مكتوباً بقلم القدرة في حجر في الكعبة :

تذكر جميلي فيك إذ كنت نطفة ولا تنسى تصويري لشخصك في الحشا
وكن واثقاً بي في أمورك كلها ساكفك منها ما يخاف ويخشى

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع .

وسلم إليّ الأمر واعلم بأنني أصرف أحكامي وأفعل ما أشاء
 فاستحي من الله أيها الإنسان أن تطلب أجراً على عبادة أجراها عليك الواحد
 المنان، واذكر قوله تعالى: ﴿لُحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾
 [الأعراف: الآية 43]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية 30].
 قال رسول الله ﷺ: «لا يكن أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء
 إن لم يعط الأجرة لم يعمل»⁽¹⁾.

ونال وهب بن منبه في زبور داود عليه السلام: يقول الله تعالى: «ومن أظلم ممن
 عبدني لجنة أو نار لو لم أخلقجنة ولا نار ألم أكن أهلاً أن أصاع» انتهى. وفي أخبار داود
 أيضاً عليه السلام: «إن الله أوحى إليه أن أود الأوداء إليّ من عبدني لغير نوال لكن ليعطي
 الربوبية حقها» انتهى. ثم إن رفعت همّتك عن طلب الحفظ صبّت عليك الحفظ.

[معرفة الله تعالى في الجلال والجمال]

ثم إن مدد الحق وهو لطفه وإبراره جار على الطائعين في كل وقت وحين، سواء
 أعطاهم في الحس أو منعهم، وسواء بسطهم أو قبضهم، وهو ظاهر لمن يفهم عن الله،
 كما أشار إليه بقوله:

90 - (مَتَى أَعْطَاكَ أَشْهَدَكَ بِرَّهُ، وَمَتَى مَنَعَكَ أَشْهَدَكَ قَهْرَهُ، فَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ
 مُتَعَرِّفٌ إِلَيْكَ، وَمُقْبِلٌ بِوُجُودِ لُطْفِهِ عَلَيْكَ)

قلت: من أسمائه تعالى اللطيف والرحيم، فهو تعالى لطيف بعباده رحيم بخلقه
 في كل وقت وعلى كل حال، سواء أعطاهم أو منعهم، وسواء بسطهم أو قبضهم.
 فإن أعطاهم أو بسطهم أشهدهم برّه وإحسانه، فعرفوا أنه سبحانه بارّ بعباده،
 لطيف بخلقه، رحيم كريم جواد محسن، فتعظم محبتهم فيه، ويكثر شوقهم واشتياقهم
 إليه، ويكثر شكرهم فيزداد نعيمهم.

وإن منعهم أو قبضهم أشهدهم قهره وكبريائه، فعلموا أنه تعالى قهار كبير عظيم
 جليل، فخافوا من سطوته، وذابوا من خشيته، وخضعوا تحت قهره، فدامت عبادتهم،
 وقلّت ذنوبهم، ومحيت مساويهم، واضمحلت خطيئتهم، فوردوا يوم القيامة خفافاً
 مطهرين نرحين.

فلا تنهم ربك أيها العبد في المنع ولا في العطاء، فإنه متى أعطاك أشهدك برّه،
 ورحمته وكرمه، فعرفت بذلك أنه برّ كريم رؤوف رحيم، فتتعلق بكرمه وجوده دون
 غيره، فتتحرر من رقّ الطمع ويذهب عنك الغم والجزع، وتتخلق أيضاً بوصف الكرم
 والرحمة والإحسان، فإن الله يحب أن يتخلق عبده بخلقه، وفي الحديث: «تخلّقوا

(1) روى نحوه أبو نعيم الأصبهاني في حية الأولياء، عن وهب بن منبه [54/4].

بأخلاق الرحمن»⁽¹⁾. وقالت عائشة رضي الله عنها: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن. والقرآن فيه أوصاف الرحمن، فكأنها قالت: كان خلقه خلق الرحمن، إلا أنها احتشمت الحضرة وتأذبت مع الربوبية.

ومتى منعك أو قبضك أشهدك قهره وكبريائه، فعرفت أنه قهار جبار، فيعظم خوفك وتشد هيبتك وحيائك منه، فلا جرم أن الله يعظمتك ويكرمك ويحفظك ويستحيي منك كما استحييت منه، فإن الله ينزل عبده على قدر منزلته منه، وإنما يطيع العبد ربه على قدر معرفته به وخوفه منه، فهو سبحانه في كل ذلك من إعطاء ومنع وقبض وبسط متعرف إليك، أي طالب منك، أن تعرفه بصفاته وأسمائه، وما من اسم من أسمائه تعالى إلا اقتضى ظهور ما يطلبه.

فاسمه الكريم اقتضى الإعطاء والإحسان وهو ظاهر في خلقه. واسمه المانع اقتضى ظهور المنع فظهر في عباده أيضاً. واسمه المنتقم، اقتضى ظهوره في قوم وجههم لمخالفته. واسمه القهار، اقتضى ظهوره في قوم يقهرهم على ما يريد من منع أو غيره، وظهر قهره أيضاً في عباده بالموت، فهو من مقتضى اسمه القهار. وهكذا كل اسم يقتضي ظهوره في الوجود وكلها في بني آدم.

فإذا تحققت هذا في حالة الإعطاء والمنع، علمت أيضاً أنه تعالى مقبل بوجوه لطفه وإبراره عليك، إذ هو متعرف إليك في كل شيء، ومقبل عليك في كل وجه، فاطلب أيضاً أنت معرفته في كل حال، واعرف منته عليك في الجمال والجلال، واقبل عليه بكليتك، واستسلم لنهره بروحك وبشريتك، تكن عبده حقاً وهو ربك حقاً وصدقاً، والله تعالى أعلم.

ويؤخذ من هذه الحكمة أن المدار إنما هو على قوة الروحانية التي هي المعرفة في الجلال والجمال، لا على قوة البشرية لأن بمنه يحصل للعبد الكمال، وبالله التوفيق.

[عدم الفهم عن الله تعالى في المنع]

ثم هذا كله إنما يذوقه من يفهم عن الله كما تقدم، وإليه أشار بقوله:

91 - (إِنَّمَا يُؤَلِّمُكَ الْمَنِعُ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ اللَّهِ فِيهِ)

قلت: لأن الفهم عن الله يقتضي وجود المعرفة به، ولا تكون المعرفة كاملة حتى يكون صاحبها يعرفه في الجلال والجمال، والمنع والعطاء، والقبض والبسط، وأما إن كان لا يعرفه إلا في الجمال، فهذه معرفة العوام الذين هم عبيد أنفسهم، فإن أعطوا رضوا وإن لم يعطوا إذا هم بسخطون. وأيضاً من ثمرات المعرفة التسليم والرضى لما

(1) ورد بلفظ: «تخلقوا بأخلاق الله» أورده الرازي في التفسير الكبير، سورة البقرة، آية 269، قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْمَعْتَمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: 269] [60/7] والماري في التعاريف فصل اللام [564/1] والجرجاني في التعريفات [216/1].

يجري به القضاء، ومن ثمرات المحبة والهوى الصبر عند الشدائد والبلوى.

تدعي مذهب الهوى ثم تشكو أين دعواك في الهوى قل لي أين
لو وجدناك صابراً لهواناً لأعطيناك كل ما نتمنى⁽¹⁾

فلا يكون المحب صادقاً في محبه ولا العارف صادقاً في معرفته حتى يستوي
عنده المنع والعطاء، والقبض والبسط، والفقر والغنى، والعز والذل، والمدح والذم،
والفقد والوجد، والحزن والفرح، فيعرف محبوبه في الجميع كما قال القائل: حبيبي
ومحجوبي على كل حالة، ويرضى ويسلم له في الجميع، فإن لم يجد ذلك عنده سواء
فلا يدعي مرتبة العشق والهوى، فيعرف قدره ولا يتعدى طوره، ولا يتراعى على مراتب
الرجال، من ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان. ولا ين الفارض رضي الله عنه:
فإن شئت أن تحيا سعيداً فمت به شهيداً وإلا فالنرام له أهل
وقيل لبعضهم: ما الزهد عندكم، قال: إذا وجدنا شكرنا وإذا فقدنا صبرنا،
فقال: هذه حالة الكلاب عندنا يبلغ، فقال: وما الزهد عندكم أنتم، قال: إذا فقدنا
شكرنا وإذا وجدنا آثرنا.

فهذا هو الفهم عن الله حيث شكر حين الفقد، فقد عذ الفقد نعمة والفاقة غنى،
لما يجد فيها من المواهب والأسرار، ولما يترقب بعدها من ورود الواردات والأنوار.

[العبرة بقبول العمل لا بصورة وجوده]

ولو لم يكن إلا التفرغ من الشواغل والأغيار، وبهذا تزكو الأحوال وتعمم
الأعمال ويتأهل صاحبها للقبول والإقبال وإلا فلا عبرة بصور وجودها مع عدم قبولها،
كما نبه على ذلك بقوله:

92 - (رُبَّمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الطَّاعَةِ وَمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الْقَبُولِ)

قلت: لا عبرة بالطاعة إذا لم يصحبها قبول، كما لا عبرة بالسؤال حيث لم
يحصل به مأمول، إذ الطاعة إنما هي وسيلة لمحبة المطاع وإقباله على المطيع بحيث
يفتح في وجهه الباب، ويرفع عن قلبه وجود الحجاب، ويجلسه على بساط الأحياب.

فإذا فتح لك باب العمل وبلغت في تحصيله غاية الأمل، غير أنك لم تجد له
ثمرة، ولم تذوق له حلاوة من الأنس بالله والوحشة مما سواه، ومن الفنى به والانحياش
إليه والاكتفاء بعلمه والقناعة بقسمته، فلا تغتر بذلك أيها المرید، فربما فتح لك باب
طاعته وأنهضك إلى خدمته، ولم يفتح لك باب القبول، ومنعك بها من الوصول حيث
اعتمدت عليها، وركنت إليها، وأنت بها، وأشغلتك حلاوتها عن الترقى إلى حلاوة
شهود المنعم بها، ولذلك قال بعضهم: احذروا حلاوة الطاعات، فإنها سموم قاتلة،

(1) هذان البيتان وردا في تخميس للشيخ محمد الحراق الحسيني المولود سنة 1184 هـ والمتوفى سنة 1261 هـ. [انظر الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

لأنها تقبض صاحبها في مقام الخدمة ويحرم من مقام المحبة .
وفرق كبير بين من شغله بخدمته ، وبين من اصطفاه لمحبتة واجتباها لحضرته ،
فأجراه الذنب على العبد أحسن من مثل هذه الطاعة التي تكون سبب الحجاب ، كما نبه
عليه بقوله :

92 - (قَضَى عَلَيْكَ بِالدُّنْبِ فَكَانَ سَبِيًّا فِي الْوُصُولِ)

قلت : وذلك أن العبد إذا كان سائراً لمولاه ، قاصداً لوصول حضرة حبيبه
ورضاه ، قد يحصل له كلل ، أو يصيبه مثل ، أو يركبه كسل ، فسلب الحق عليه ذنباً ، أو
تغلبه نفسه فيسقط ، فإذا قام من سقطته جد في سيره ، ونهض من غفلته ، ونشط من
كسله ، فلا يزال جاداً في طنب مولاه غائباً عما سواه حتى يدخل حضرة ويشاهد
طلعته ، وهي الحضرة التي هي تجليات الحق وأسرار ذاته .

ومثال ذلك : رجل مسافر أصابه في الطريق نوم أو كسل فيسقط فيضربه حجر ،
فإذا قام ذهب كسله وجد في سيره . وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال
رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده لو لم تذنّبوا للذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون
فيستغفرون فيغفر لهم»⁽¹⁾ انتهى . وقال ﷺ في شأن الطاعة التي لم تقبل : «رب صائم
ليس له من صيامه إلا الجوع ، وقائم ليس له من قيامه إلا السهر»⁽²⁾ .

[المعصية الموجبة للذل والانكسار والطاعة الموجبة للاستكبار والعز]

فمثل هذه الطاعة المعصية التي يصحبها الانكسار أحسن منها بكثير ، كما أبان
ذلك بقوله :

93 - (مَنْصِيَّةٌ أَوْرَثَتْ ذُلًّا وَأَفْتِقَارًا ، خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ هِزًا وَاسْتِكْبَارًا)

قلت : إنما كانت المعصية التي توجب الانكسار أفضل من الطاعة التي توجب
الاستكبار ، لأن المقصود من الطاعة هو الخضوع والخشوع والانقياد والتذلل
والانكسار ، «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي» ، فإذا خلت الطاعة من هذه المعاني
وانصفت بأضدادها ، فالمعصية التي توجب هذه المعاني وتجلب هذه المحاسن أفضل
منها ، إذ لا عبرة بصورة الطاعة ولا بصورة المعصية ، وإنما العبرة بما يتبع عنهما : «إن
الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم»⁽³⁾ فثمره الطاعة هي

(1) رواه مسلم في صحيحه ، باب سقوط الذنوب بالاستغفار ، حديث رقم (2749) [2106/4] والطبراني

في المعجم الأوسط ، من اسمه محمد ، حديث رقم (5073) [199/5] ورواه غيرهما .

(2) رواه النسائي في السنن الكبرى ، ما ينهى عنه الصائم من قول الزور . . . ، حديث رقم (3249) [2/

239] وابن ماجه في سننه ، باب ما جاء في الغيبة والنزف ، حديث رقم (1690) [1/539] ورواه

غيرهما .

(3) رواه مسلم في صحيحه ، باب تحريم ظلم المسلم . . . ، حديث رقم (2564) [4/1987] وابن حبان

في صحيحه ذكر الإخبار بأن على المرء نهد قلبه . . . ، حديث رقم (394) [2/119] ورواه غيرهما .

الذل والانكسار، وثمره المعصية هي الفسوة والاستكبار.

فإذا انقلبت الثمرات انقلبت الحقائق، وصارت الطاعة معصية والمعصية طاعة، ولذلك قال المحاسبي رضي الله عنه: إنما مراد الله سبحانه من عباده قلوبهم، فإذا تكبر العالم أو العابد وتواضع الجاهل والعاصي، وذل هيبة الله عز وجل وخروفاً منه، فهو أطوع لله عز وجل من العالم والعابد بقلبه. انتهى.

وكان الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله، حتى أنه ربما يدخل عليه مطيع فلا يبالي به، وربما يدخل عليه عاص فأكرمه، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله وناظر لفعله، وذلك العاصي دخل بكثرة معصيته وذلة ومخالفته.

وقال أبو يزيد رضي الله عنه: نوديت في سري: خزائني مملوءة بالخدمة، فإن أردتنا فعليك بالذلة والافتقار. وقال رسول الله ﷺ: «لو لم تذبوا لخشيت عليكم ما هو أشد من ذلك العجب»⁽¹⁾ كذا في الصحيحين. وقال عليه السلام: «الولا أن الذنب خير من العجب ما تحل الله بين مؤمن وذنب أبدأ»⁽²⁾.

وقال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه: انكسار العاصي خير من صولة المطيع. وقال شيخ شيوخنا رضي الله عنه: معصية بالله خير من ألف طاعة بالنفس. انتهى. ومعنى كلام الشيخ: أن العبد إذا أجريت عليه زلة ثم يقصدها بقلبه وإنما جزته القدرة إليها رغماً على أنفه، ثم ندم وانكسر فهي في حقه خير من ألف طاعة يشهد فيها نفسه ويتبجح بها على عباد الله. والله در صاحب العيبة⁽³⁾ حيث يقول:

فَلَمْتُ نَفْسِي حَيْثُ أَسْلَمَنِي الْقَضَا	وما لي مع فعل الحبيب تنازع
فَطَوَّراً تَرَانِي فِي الْمَسَاجِدِ رَاكِعاً	واني طوراً في الكنائس رافع
أَرَانِي كَالْأَلَاتِ وَهُوَ مُحَرَّكِي	أنا فلم والاقنذار أصابع
وَلَسْتُ بِجَبْرِي وَلَكِنْ مُشَاهِدٌ	فقال مُرِيدٍ مَا لَهُ مَنْ يُدَافِعُ
فَأَوْنَةٌ بِقَضِي عَلَيَّ بِطَاعَةِ	وحيناً بما عنه نهتنا الشرائع
لِسَدَاكِ تَرَانِي كُنْتُ أَتْرُكُ أَمْرَهُ	وآني الذي ينهأ والجفن دافع
وَلِي نَكْنَةُ غَرًّا هُنَا سَأَقُولُهَا	وَحُوقُّ لَهَا أَنْ تَرَعُوبِهَا الْمَسَابِعُ

(1) رواه القضاة في مسند الشهاب، حديث رقم (882) [320/2] والعقبلي في كتابه صفاء العقيلي،

حديث رقم (665) [159/2] وأورده غيرهما.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) صاحب العيبة: هو الشيخ عبد الكريم الجيلي. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

هي الفرق ما بين الولي وفاسق
وما هو إلا أنه قبل وفع
فأجني الذي يقضيه في مرادها
فكنت أرى منها الإرادة قبل ما
فأتي الذي تهواه مني ومهجني
فإن كنت في حكم الشريعة عاصياً
فأشار إلى الفرق بين معصية الولي ومعصية الفاسق، وذلك من ثلاثة أوجه، الولي
لا يقصدها ولا يفرح بها ولا يصر عندها، والفاسق بالعكس في الجميع. وقيل للجنيد:
أبزني العارف، فقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

[نعمة الإيجاد من العدم ونعمة الإمداد بالوجود]

ولما كانت النعم تقتضي من العبد شكرها وشكرها، هو العمل بطاعة الله فيها،
قال الجنيد: الشكر ألا يعصى الله بنعمه.

بين الشيخ أصول النعم وفروعها، فقال:

94 - (نِعْمَتَانِ مَا خَرَجَ مَوْجُودٌ عَنْهُمَا، وَلَا بُدُّ لِكُلِّ مُكُونٍ مِنْهُمَا: نِعْمَةُ الْإِيجَادِ،

وَنِعْمَةُ الْإِمْدَادِ)

قلت: أما نعمة الإيجاد: فهي الإظهار من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، أو من
عالم الأمر إلى عالم الخلق، أو من عالم الأرواح إلى عالم الأشباح، أو من عالم
القدرة إلى عالم الحكمة، أو من عالم التقدير إلى عالم التكوين.

وأما نعمة الإمداد: فهي قيامه تعالى بالأشياء بعد وجودها، وإمداده إياها بما
تقوم به بنيتها.

وهاتان النعمتان عامتان، واختص الإنسان بما اجتمع فيه من الضدين وهما النور
والظلمة واللطافة والكثافة. فلو بقيت أيها الإنسان على ما كنت عليه من العدم في عالم
القدم لم تتمتع بنعمتين: نعمة الأشباح ونعمة الأرواح، ولو تجلى فيك بوجهة واحدة
لكنت ناقصاً في جهود المعرفة لأن مزية الأدمي في المعرفة أعظم، إذ يقدر المجاهدة
يكون الترقى في المشاهدة لما فيه من الكثافة واللطافة، فكلما لطف من كثافة ترقى في
مشاهدة ربه. ولما فيه من النور والظلمة، فكلما انتفت الظلمة قوي النور، بخلاف غيره
من الجن والملائكة غير المقربين، قال الله تعالى في حق الملائكة: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا لَهُمْ مَقَامٌ
مَقْلُومٌ﴾ [الصفوات: الآية 164].

فأنعم الحق سبحانه عليك أيها الإنسان أولاً: بنعمة الإيجاد وأصحبك الرأفة

والوداد لتظهر مزيتك وتكمل نعمتك، ثم أنعم عليك ثانياً بنعمة الإمداد حسية ومعنوية .
أما المدد الحسي فغذاء البشرية من أول النشأة إلى منتهاها . وأما المدد المعنوي
فغذاء الروح من قوت اليقين والعلوم والمعارف والأسرار . ثم إن هذا المدد المعنوي
من حيث هو ينقسم على ثلاثة أقسام :

منه ما لا يزيد ولا ينقص، وهو مدد الملائكة، قال تعالى فيهم : ﴿رَمَّا يَنَّا إِلَّا تَمُّ
مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: الآية 164] .

ومنه ما يزيد وينقص، وهو مدد عوام بني آدم .

ومنه ما يزيد ولا ينقص، وهو مدد خواصهم كالرسل والأنبياء وأكابر الأولياء،
ومن تعلق بهم ممن دخل تحت حضانتهم ولزم عيشهم من الفقراء والمريدين السائرين،
فمددهم في الزيادة على الدوام، وهذا المدد ثابت للروح قبل اتصالها بالبشرية، فلذلك
أقرت بالربوبية في عالم الذر .

قال في التنوير⁽¹⁾ : اهلم أن الحق سبحانه تولاك بتدبيره على جميع أطوارك،
وقام لك في كل ذلك بوجود إبرارك، فقام لك بحسن التدبير يوم المقادير يوم ﴿أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: الآية 172]، ومن حسن تدبيره لك أن عرفك به فعرفته، وتجلّى
لك فشهدته، واستنطقك وأهملك الإقرار بربوبيته فوحدته .

ثم إنه جعلك نطفة مستودعة في الأصلاب، تولاك بتدبيره هنالك حافظاً لك
وحافظاً لما أنت فيه، موصلاً لك المدد بواسطة ما أنت فيه من الآباء إلى أبيك آدم، ثم
قذفك في رحم الأم فتولأك بحسن التدبير، وجعل الرحم قابلة لك أرضاً يكون فيها
نباتك، ومستودعاً تعطى فيها حياتك، ثم جمع بين النطفتين وألف بينهما، فكنت عنهما
لما بنيت عليه الحكمة الإلهية من أن الوجود كله مبني على سرّ الازدواج، ثم جعلك
بعد النطفة علقه مهينة لما يريد سبحانه أن ينقلها إليه، ثم بعد العلقه مضغة، ثم فتق
سبحانه في المضغة صورتك وأقام فيها بنيتك، ثم نفخ فيك الروح بعد ذلك، ثم غذاك
بدم الحيض في رحم الأم، فأجرى عليك رزقه من قبل أن يخرجك إلى الوجود، ثم
أبقاك في رحم الأم حتى قويت أعضاؤك، واشتدت أركانك، ليهيئك إلى البروز إلى ما
قسم لك أو عليك، وليبرزك إلى دار يتعرّف فيها بفضله وعدله إليك .

ومن نعمة الإمداد المعنوي: نعمة الإسلام والإحسان، وحفظ ذلك وإدامته علينا
في كل وقت وحين، وزيادة الترقّي في المعرفة واليقين إلى يوم الدين، فالحمد لله رب
العالمين .

(1) سبغت الإشارة إلى هذا الكتاب .

[الفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض]

ثم المقصود بالنظر إلى هاتين النعمتين هو الإنسان وإن كانتا عامتين في جميع الأكوان، إذ هو المطلوب بشكرها والتحدث بذكرها، ولذلك خصه بالخطاب:

95 - (أَنْعَمَ عَلَيْكَ أَوْلَىٰ بِالْإِجَادِ، وَثَانِيًا بِتَوَالِي الْإِمْدَادِ)

قلت: توالي الإمداد هو تتابعه واتصاله سواء كان حسياً أو معنوياً، ففي كل ساعة ولحظة أنت مفتقر إلى إمداده قلباً وقالباً كما أبان ذلك بقوله:

96 - (فَاقْتُكَ لَكَ ذَاتِيَّةً، وَوُرُودُ الْأَسْبَابِ مُدْكَرَاتٌ لَكَ بِمَا خَفِيَ عَلَيْكَ مِنْهَا.

وَالْفَاقَةُ الذَّاتِيَّةُ لَا تَدْفَعُهَا الْعَوَارِضُ)

قلت: الفاقة الذاتية هي الأصلية الحقيقية، والأسباب المحركة لها هي العوارض الجلالية، وهي كل ما يقهر النفس ويزعجها عن حظوظها وتصرفاتها العادية، وإنما كانت فاقتنا ذاتية لا تفارقنا ساعة واحدة لأن نشأتنا مركبة من حس ومعنى ولا يقوم الحس إلا بالمعنى - والمعنى: هو أسرار الربوبية القائمة بالأشياء، فأشباحنا مفتقرة في كل لحظة إلى نعمة الإمداد بعد نعمة الإيجاد - ولا الحكمة إلا بالقدر، ولا البشرية إلا بالروحانية، والروح: سر من أسرار الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: الآية 85] فالبدن قائم بالروح، والروح أمر من أمر الله، وكل شيء قائم بأمر الله. فافتقار البشرية للروحانية حاصل على الدوام، قال تعالى في نعمة الإيجاد: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: الآية 15]، فهذا هو الافتقار إلى نعمة الإيجاد. ثم قال في نعمة الإمداد: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: الآية 19] وهذا هو افتقارنا إلى نعمة الإمداد. وقال تعالى في افتقار بقية العالم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُتِّسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: الآية 41] فالكون كله قائم بأمر الربوبية، مظهر من مظاهرها، لا قيام له بدونها.

ففاقتك، أي افتقارك، أيها الإنسان لك ذاتية، أي أصلية حقيقية لكنها خفية، وورود الأسباب المحركة لظهور تلك الفاقة، وهي الشدة والحيرة وكل ما يلجئك إلى مولاك مذكرة لك ما خفي عنك منها، يعني أن فاقتك لا تفارقك، إذ كل لحظة تفتقر إلى من يمدك بالوجود في الساعة الثانية، إلا أنها خفية لا تذكرها حتى يتحرك عليك أسباب ظهورها كالفتن والمرض وغيرهما.

والفاقة الأصلية الذاتية لا ترفعها العوارض وهي الصحة والعافية، فما دام العبد في العافية ففاقته خفية لا يتفطن لها إلا العارفون، لأنه لا يزول اضطرابهم، فإذا قام عليه جلال أو محرك، ظهر افتقاره وتحقق اضطرابه مع أنه دائم في الفاقة حسه ومعناه، والله تعالى أعلم.

[خير أوقات الإنسان وقت شهود فاقته وذلته]

ثم إن رجوع الشيء إلى أصله مرغّب فيه، وخروجه عن أصله لا خير فيه، وأصلك أيها الإنسان هو الفاقة والاضطرار والذلة والانكسار، فكل ما يردك إلى أصلك فهو لك في غاية الحسن والاختيار، كما أبان ذلك بقوله:

97 - (خَيْرُ أَوْقَاتِكَ وَفَتْ تَشْهَدُ فِيهِ وُجُودَ فِائِقِكَ، وَتُرَدُّ فِيهِ إِلَى وُجُودِ ذِلَّتِكَ)

قلت: إنما كان شهود الفاقة هو خير أوقانك لوجهين:

أحدهما: ما في ذلك من تحقيق العبودية وتعظيم شأن الربوبية، وفي ذلك شرف العبد وكماله، إذ بقدر تحقيق العبودية في الظاهر يعظم شهود الربوبية في الباطن. أو تقول: بقدر العبودية في الظاهر تكون الحرية في الباطن. أو تقول: بقدر الذل في الظاهر يكون العز في الباطن. أو تقول: بقدر وضع الظاهر يكون رفع الباطن، من تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره.

وانظر أشرف خلق الله وهم الأنبياء بماذا خاطبهم الله تعالى، فما خاطبهم إلا بالعبودية، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: الآية 1]، ﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: الآية 45]، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِي﴾ [ص: الآية 17]، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: الآية 41]، وقد اختارها نبينا ﷺ حين خيّر بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً، فاختر أن يكون نبياً عبداً، فدل على أن أشرف حال الإنسان هو العبودية، فبقدر ما يتحقق بها في الظاهر يعظم قدره في الباطن، ومهما خرج منها في الظاهر بإظهار الحرية، أدبته القدرة وردته القهيرية حتى يرجع إلى أصله ويعرف ما له وعليه.

الوجه الثاني: ما في الفاقة من مزيد المدد وطلب الاستمداد، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: الآية 60] إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك، كما يأتي إن شاء الله.

وقد جعل الله النصر والفتح مقرونين بالفاقة والذلة وتحقيق الضعف والقلّة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: الآية 123]، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا نَكَرَكُمُ﴾ [الأعراف: الآية 86].

وجعل الخذلان وهدم النصر والمعونة في إظهار الحرية والقوة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: الآية 25]، وذلك لما وقع من بعض الصحابة الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام فأذبههم الله بإظهار الحرية لكن عمّت الفتنة، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُغِيِبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: الآية 25] وهذا وجه ذكر الآية قبل ذكر القضية، والله تعالى أعلم.

وخير أوقاتك أيضاً وقت تشهد فيه وجود ذنبتك كما تقدم، لأنه سبب عزك ونصرك، إذ الأشياء كامنة في أصدادها، العز في الذل، والغنى في الفقر، والقوة في الضعف، والعلم في الجهل، أي في إظهار الجهل إلى غير ذلك قال تعالى: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْمَلَهُمْ أَتَمَّةً وَنَجْمَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [المقصص: الآية 5]، وقال تعالى في حق الصحابة رضي الله عنهم حين كانوا في حالة الاستضعاف والإذابة تسلياً لهم: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: الآية 55] الآية. ومما جرت به العادة الإلهية أن الفرج على قدر الضيق، فبقدر الفقر يكون الغنى، وبقدر الذل يكون العز، وبقدر العسر يكون اليسر.

والحاصل: بقدر الجلال يكون الجمال عاجلاً وآجلاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: الأيتان 5، 6] ولن يغلب عسر يسرين كما في الحديث حيث قال عليه السلام لابن عباس رضي الله عنه. «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»⁽¹⁾ انتهى.

[الوحشة من الخلق والأنس بالله تعالى]

ثم إذا صح ففرك إليه وتحققت ذنبتك بين يديه أتحنك بأنسه وزج بك في حضرة قدسه، كما أشار إلى ذلك بقوله:

98 - (مَتَى أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الْأُنْسِ بِهِ)

قلت: هذه سنة الله تعالى في خلقه، إذا أراد أن يؤنس عبده بذكره ويتحفه بمعرفته أوحشه من خلقه وشغله بخدمته وألهمه ذكره، حتى إذا امتلأ قلبه بالأنوار وتمكن من حلاوة الشهود والاستبصار رده إليهم رحمة لهم، لأنه حينئذ لقوته يأخذ منهم ولا يأخذون منه، ومثاله في الحس كفتيلة شعلتها فما دامت ضعيفة لا بد أن تحفظها من الريح وتقصد بها المواضع الخفية، فإذا اشتد نورها وأشعلتها في الحطب صعدت بها إلى ظهور الجبال فبقدر ما يصيبها الريح يعظم اشتعالها، كذلك الفقير ما دام في البداية لا يليق به إلا الوحشة من المخلوق والفرار منهم، فإذا تمكَّن في الشهود فلا يليق به حينئذ إلا الخلطة معهم لأنهم لا يضررونه.

فمتى أوحشك أيها الفقير من خلقه وعزلك عنهم في قلبك، فاعلم أنه تعالى أراد أن يؤنسك به ويغنيك بمعرفته، فقد كان عليه السلام حين قرب أوان النبوة والرسالة حَبَّبَ إليه الخلوة، فكان يخلو بغار حراء.

(1) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ، ذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ... حَدِيثٌ رَقْمٌ (6304) [3/624]. وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ، فَصَلَّ: قَالَ الْبَيْهَقِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَكَمَا لَا يَنْبَغِي... حَدِيثٌ رَقْمٌ (1074) [2/27-28] وَرَوَاهُ غَيْرُهُمَا.

وحكمة ذلك تصفية البواطن من الشواغل والشواغب لتتهيأ لقبول ما تتحملة من الأسرار والمواهب، فإذا تطهر من الأكدار ملئ بالأنوار، فأشرقت فيه شموس العرفان، وتمكّن من حضرة الشهود والعيان، فهذه سنة الله في أوليائه وأصفيائه، يفرون أولاً من الناس حتى يحصل لهم منهم الإياس، ثم يردّهم الحق إليهم رغماً على أنفسهم لمقام الدلالة والإرشاد، فينتفع بهم العباد وتحيا بوجودهم البلاد، وفي مثلهم قال الشاعر⁽¹⁾:

تحيا بكم كل أرض تنزلون بها كأنكم في بقاع الأرض أمطار
وتشتهي العين فيكم منظرأ حسناً كأنكم في عيون الناس أزهار
ونوركم يهتدي الساري برؤيته كأنكم في ظلام الليل أقمار
لا أوحش الله ربعا من زيارتكم يا من لهم في الحشا والقلب تذكار
نفعنا الله بهم وحققنا بمعرفتهم آمين.

[إطلاق اللسان بالطلب دليل على إرادة العطاء]

ثم إذا فتح لك باب الأنس وتشوّقت إلى حضرة القدس، ثم أطلق لسانك بطلبها فاعلم أنه يريد أن يفتح لك بابها كما أشار إلى ذلك بقوله:

99 - (مَتَى أَطْلَقَ لِسَانَكَ بِالطَّلَبِ فَأَعْلَمُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَكَ)

قلت: لأن الحق تعالى جعل الطلب سبباً من الأسباب، فإذا أراد أن ينجز للعبد ما سبق له فتح له فيه باب الطلب، فإذا حصل منه الطلب حصل ذلك الذي قسم له في الأزل، إظهاراً لحكمته وإخفاء لقدرته وتغطية لسره.

فالدعاء من جملة الأسباب العادية كالحرث والدواء والتزويج في الولد وغير ذلك، سبقت به المشيئة ونفذ به القضاء والقدر، فما بقي الدعاء إلا إظهاراً للفاقة وإبقاء لرسم العبودية لا طلباً لحصول ما لم يكن، جلّ حكم الأزل أن يضاف للأسباب والعلل. فمتى أطلق لسانك أيها المرید بالطلب لشيء تجلّى في قلبك أو احتجت إليه، فاعلم أن الحق تعالى أراد أن يعطيك ما طلبت منه، فلا تحرص ولا تستعجل، فكل شيء عنده بمقدار، فإن أطلق لسانك في الدعاء من غير سبب فخير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك كما تقدم.

قال رسول الله ﷺ: «من أعطى الدعاء لم يحرم الإجابة»⁽²⁾.

(1) هو القطب أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني، من مشاهير الصوفية، أصله من الأندلس، أقام بفاس وسكن بجاية، وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور، وتوفي بتلمسان، وقد قارب الثمانين أو تجاوزها. له كتاب (مفاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب) هذا وقد سبقت الإشارة إليه [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

(2) روى عبد الغني المقدسي في الترغيب في الدعاء، باب ما ورد في فضل الدعاء، حديث رقم (17) [49/1] وأبو عبد الله الحنبلي المقدسي في الأحاديث المختارة، ورواه ابن عمر عن ثابت... حديث رقم (1814) [192/5] وأخرجه السيوطي في الدر المنثور [9/5].

[العارف دائم الاضطرار لله تعالى ودائم السكون به تعالى]

ثم هذا كله قبل فتح باب المعرفة، وإذا فتح لك الباب فلا تحتاج إلى طلب لغناك بمسبب الأسباب، فيكون دعاؤك إنما هو إظهار للفاقة والاضطرار اللازمتين لك مع كل نفس وفي كل وقت وحال، كما أشار إليه بقوله:

100 - (الْعَارِفُ لَا يَزُولُ أَضْطِرَارُهُ، وَلَا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ اللَّهِ قَرَارُهُ)

قلت: أما وجه كونه لا يزول اضطراره، فلتحقق قيومية الحق به، إذ الحسن لا يقوم إلا بالمعنى، فحس العبودية لا يقوم إلا بمعنى الربوبية، فبقدر تحقق العبد بقيومية الربوبية يشتد اضطراره في ظاهر العبودية، وأيضاً العارف لا يزال في الترقى، فهو متعطش للزيادة على الدوام، كما قال النقشبندي⁽¹⁾ رحمه الله:

وذو الصبابة لو يُسقى على عدد الأنف ساس والكون كأس ليس يرويه⁽²⁾
وقال آخر⁽³⁾:

سقاني الحب كأساً بعد كأس فما نفذ الشراب ولا رويت
فالعارف لا يزال مفتقراً للزيادة على الدوام فلا يزول اضطراره على الدوام. وقد قال الله تعالى لسيد العارفين: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية 114] فالاضطرار إلى زيادة العلم لا ينقطع، ولو جمع علوم أهل السماوات والأرض، قال تعالى مخاطباً للكل: ﴿وَمَا أُوْتِيْتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية 85].

وأما وجه كونه لا يكون مع غير الله قراره، فلأن قلب العارف رحل إلى الله من الكون بأسره، فلم تبق له حاجة إلى غيره، فقراره إنما هو شهود الذات الأقدس، فإن نزل إلى سماء الحقوق أو أرض الحفظ فبالإذن والتمكن والرسوخ في اليقين، فالعارف ليس له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله قرار.

وأيضاً سابق العناية لا يتركه يركن إلى غير مولاه، فمهما ركن قلبه إلى شيء شوشته عليه العناية واكتفته الرعاية، فهو محفوظ من الأغيار محفوف من كل جهة بمدد الأنوار.

[أنوار الآثار وأنوار الصفات]

من كان ظاهره محفوفاً بالأنوار وبباطنه محشوراً بالأسرار فكيف يركن إلى شهود

(1) القائل حسب الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي هو ابن بنت الميلىق: محمد بن عبد الدائم ابن محمد، أبو المعالي، ناصر الدين المعروف بابن الميلىق، قاضي مصري شافعي شاذلي. ولد سنة 731 هـ وتوفي سنة 797 هـ.

(2) أحد أبيات قصيدة بلغت خمساً وستين بيتاً مطلعها:

من ذاق طعم شراب القوم يدريه ومن ذراه غداً بالسروح يشربه

(3) هو كما في تفسير السلمى: علي بن عبد الرحيم [تفسير السلمى، تفسير سورة الأحزاب الآية 43 / 2] 149. وينسب هذا البيت أيضاً إلى الشيخ أبي يزيد البسطامي كما في مرقاة المفاتيح لعلي بن سلطان محمد القاري. (الفصل الأول [11 / 187]).

الأغيار، كما أبان ذلك بقوله :

101 - (أَنَارَ الظُّوَاهِرِ بِأَنْوَارِ آثَارِهِ، وَأَنَارَ السَّرَائِرِ بِأَنْوَارِ أَوْصَافِهِ)

قلت : أنوار الظواهر هي ما ظهر على تجليات الأكران من تأثير قدرته وإبداع حكمته، كتزيين السماء بالكواكب والقمر والشمس، وما فيها من إبداع الصنع وتمام الإتقان، وكتزيين الأرض بالأزهار والثمار والنبات وسائر الفواكه، وكتزيين الإنسان بالبصر والسمع والكلام، وسائر ما فيه من عجائب الصنعة. قال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: الآية 4] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا﴾ [الكهف: الآية 7] فهذه أنوار الظواهر.

وأنوار الأوصاف هي العلوم والمعارف والأسرار. والمراد بالأوصاف، أوصاف الربوبية كالعظمة والعزة والجلال والجمال والكبرياء والكمال وغير ذلك من أوصاف الذات العلية. والذات لا تفارق الصفات، فإذا أشرقت السرائر بأنوار معرفة الصفات، فقد أشرقت بأنوار معرفة الذات للتلازم الذي بين الصفات والذات.

ثم الناس في شهود هذه الأنوار الباطنة التي هي أنوار الأوصاف على ثلاثة أقسام : قسم يشهدونها على البعد، وهم أهل مقام الإسلام. وقسم يشهدونها على القرب، وهم أهل المراقبة من مقام الإيمان. وقسم يشهدونها على الاتصال وهم أهل المعرفة من مقام الإحسان.

وتشبيه الأنوار المعنوية بالأنوار الحسية إنما هو تقريب، وإلا فأنوار القلوب كلها عظيمة حتى قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض، فما ظنك بنور المؤمن المطيع. وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه : لو كشف عن حقيقة الولي لعبد من دون الله. وقال في لطائف المنن : ولو كشف الحق عن مشرقات قلوب أنوار أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر في مشرقات أنوار قلوبهم، وأين نور الشمس والقمر من أنوارهم، الشمس والقمر يطرأ عليهما الكسوف والغروب، وأنوار قلوب أوليائه لا كسوف لها ولا غروب.

فأنار الحق سبحانه ظواهر الكائنات بأنوار الظواهر، وهي النجوم والقمر والشمس في الحسن، وأنار سبحانه القلوب والسرائر بأنوار أوصافه وهي عظمة الربوبية وأوصافها، فإذا أشرقت في سماء القلوب الصحية والأسرار الصافية، غاب العبد عن شهود الأغيار، وغرق في بحر الأنوار، فتفنى الأشكال والرسوم ولا يبقى إلا الحي القيوم.

ثم ذكر الفرق بين أنوار الظواهر وأنوار السرائر، فقال :

101 - (لِأَجْلِ ذَلِكَ أَفَلَتْ أَنْوَارُ الظُّوَاهِرِ، وَلَمْ تَأْفُلْ أَنْوَارُ القُلُوبِ وَالسَّرَائِرِ)

أي لأجل أن أنوار الظواهر إنما هي أنوار الأثر، ومن شأن الأثر أن يتأثر ويتغير بالطلوع والغروب، فأفلت أي غربت أنوار الظواهر، إما بالغروب المعلوم، أو بالعدم المحتوم، ولم تأفل، أي تغرب، أنوار القلوب، وهي أنوار الإسلام والإيمان، وأنوار

السراثر وهي أنوار الإحسان .

فأنوار الإسلام والإيمان هي أنوار التوجه وأنوار الإحسان هي أنوار المواجهة ،
فالنور عبارة عن اليقين الذي يحصل في القلب يثمر حلاوة العمل ، فإذا قوي اليقين قوي
النور واشتدت الحلاوة حتى يتصل بحلاوة الشهود ، فيغطي حلاوة العمل ، فلذلك يقل
عمل الجوارح عند العارف ، إذ حلاوة الشهود تغني عن كل شيء ليس الخبر كالعيان .

وفي بعض الأحاديث سئل رسول الله ﷺ : أي الأعمال أفضل ، قال : « العلم
بالله » ، قالوا : يا رسول الله سألناك عن العمل ، قال : « العلم بالله » ثم قال في الثالثة :
« عمل قليل كاف مع العلم بالله »⁽¹⁾ . ثم شبه به العلم واليقين والمعرفة لما بينهما من
الشبه في كشف حقيقة الأشياء وتمييزها ، فالنور الحسي ينقطع بانقطاع أصله ، والنور
المعنوي الذي هو نور القلوب لا ينقطع أبداً ، فلذلك أنشد الشيخ هذا البيت فقال .

101 - (وَلِلذِّكَ قِيلَ :

إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تُغْرِبُ بِالسُّبْحِ لِي وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيْبُ)

وليس هو من عند المؤلف بل هو لغيره⁽²⁾ وسيأتي في المناجاة بتمامه إن شاء الله .
قال الشيخ زروق رضي الله عنه : فشمس القلوب لا تغيب أبداً ، بل هي دائمة لا
تنقطع وباقية لا تنصرم لبقاء مددها ، وهي معاني الأوصاف الربانية ودوام محالها ، وهي
الآفاق الروحانية ، فالمتعلق بها متعلق بحقيقة لا تنصرم ، ومن هذا الوجه كان غنى القوم
بالله لا بالأسباب ، وتعلقهم به لا بشيء دونه . انتهى .

[خلاصة ما ورد في الباب العاشر]

هذا آخر الباب العاشر ، وحاصله ذكر كيفية الجزاء على الأعمال ، والزجر على
طلبه ، وتحقيق معرفته في عطائه ومنعه ، والاعتناء بإقباله وقبوله لا بخدمته ودوام
الاضطرار بين يديه ، والافتقار إلى نعمته ، والاستيحاش من خلقه بدوام أنسه ، ثم
إشراق أنواره على قلوب أوليائه وأسرار أصفياته جزاء لإقبالهم عليه وانحياسهم إليه ،
فإذا أتحفهم بذلك وهبهم لما هنالك تلى عليهم قوله : ﴿ أَمْ حَبِئْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ
وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: الآية 214] الآية ، كما نبه عليه في أول الباب
الحادي عشر بقوله :

(1) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، في الأصل السابع والستين والمنتين ، في فضل العلم بالله
[101 / 4] والمناوي في فيض القدير 2 / 26 .

(2) هذا البيت هو للشيخ الحسين بن منصور الحلاج المتوفى سنة 309 هـ . وهو أحد ثلاثة أبيات هي :

طَلَعَتْ شَمْسٌ مِنْ أَجِبٍ بِالسُّبْحِ	فَأَسْتَنَارَتْ فَمَالَهَا مِنْ غُرُوبِ
إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تُغْرِبُ بِالسُّبْحِ	لِي وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيْبُ
مَنْ أَحَبَّ الْحَبِيبَ طَارَ إِلَيْهِ	إِسْتَبَانَ إِلَى لِقَاءِ الْحَبِيبِ

[الباب الحادي عشر]

[بلاء الحبيب نعيم وكشف الحجاب يزيل الجحيم]

وقال رضي الله عنه :

102 - (لِيُخَفِّفَ عَنْكَ أَلَمَ الْبَلَاءِ عَلِمُكَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُبْتَلِي لَكَ، فَالَّذِي
وَاجِهَتَكَ مِنْهُ الْأَقْدَارُ، هُوَ الَّذِي هُوَدَّكَ حُسْنَ الْأَخْتِيَارِ)

قلت : إذا أصابتك أيها الإنسان مصيبة، أو نزلت بك بلية في بدن أو أهل أو مال، فاذا ذكر من أنزل ذلك عليك وما هو متصف به من الرحمة والرأفة بك والمحبة والعطف عليك، لعلك تفهم ما في طي ذلك من النعم وما يعقبه من سوابغ الفضل والكرم، ولو لم يكن إلا تطهيرك من الذنوب وتمحيصك من العيوب وتقريبك من حضرة علام الغيوب، فهل تعودت منه إلا الإحسان، وهل رأيت منه إلا غاية المبرة والامتنان، فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار؛ فالذي واجهتك منه أحكام قهره هو الذي عودك تمام إحسانه وبره، فالذي واجهتك منه ظواهر المحن هو الذي أسبغ عليك بواطن المنن، فالذي واجهتك من حضرة قهاريته الرزايا هو الذي أتحنف بأنواع الكرامات والهدايا، والله در صاحب العينية⁽¹⁾ حيث يقول :

تَلذُّ لِي الْأَلَامُ إِذْ أَنْتَ مُسَقِّمِي وَإِنْ تَمْتَجِحْنِي فَهِيَ عِنْدِي صَنَائِعُ
تَحَكُّمٍ بِمَا تَهَوَّأُ فِي فِلَائِنِي فَقِيرٌ لِسُلْطَانِ الْمَحَبَةِ طَائِعُ

قال الجنيد رضي الله عنه : كنت نائماً بين يدي السري [السقطي] فأيقظني وقال لي : يا جنيد رأيت كاني وقفت بين يديه [تعالى] فقال لي : يا سري خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتي، فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر، فخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العشر وبقي معي عشر العشر، فسلبت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر. فقلت للباقيين معي : لا الدنيا أردتم ولا الجنة أخذتم ولا من النار هربتم فما تريدون، قالوا : إنك تعلم ما نريد، فقلت : إني مسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي، أتصبرون. قالوا : إن كنت أنت المبتلي فافعل ما شئت. [فقال الحق تعالى] هؤلاء عبادي حقاً. انتهى.

وقال في التنوير⁽²⁾ : وإنما يعينهم على حمل الأحكام فتح باب الأفهام. ون

(1) هو الشيخ عبد الكريم الجيلي، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

(2) سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب.

ومقام الإحسان، فما ترك ﷺ شيئاً يقربنا إلى الله إلا دلنا عليه، ولا شيئاً يبعدنا عنه إلا حذرنا منه، لم يأل جهداً في إرشاد العباد وإظهار طريق السداد، فما رحل إلى الله تعالى حتى ترك الناس على الدين القويم والمنهاج المستقيم على طريق بيضاء لا يضل عنها إلا من كان أعمى. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَبَيَّنْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ وَيَسَّأَلُ﴾ [المائدة: الآية 3]، وقال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: الآية 256]. وقال عليه السلام: «لقد تركتكم على الحنيفية السمحة»⁽¹⁾. وفي رواية: «على المحجة البيضاء نهارها كليلها»⁽²⁾. أو كما قال عليه السلام.

فلا يخاف عليك أيها المرید أن تلتبس الطرق الموصلة إلى الله تعالى عليك لأنها في غاية الوضوح، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك فيصمك ويعميك، فلا يخاف عليك التباس الهدى إنما يخاف عليك اتباع الهوى، فلا يخاف عليك التباس الحق، وإنما يخاف عليك جهلة الخلق، وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، فلا يخاف عليك عدم وجود أهل التحقيق، وإنما يخاف عليك قطاع الطريق، لا يخاف عليك من خفاء أهل الحق، إنما يخاف عليك من قلة الصدق، فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم، والله ما حجبهم عنك إلا من عدم صدقك، فلو حسنت ظنك بالله وبأولياء الله لرفع الله الحجاب بينك وبينهم، ووجدتهم أقرب إليك من أن ترحل إليهم. فسبحان من سترهم في حال ظهورهم، وأظهرهم في حال خفائهم.

[البشرية غطاء للخصوصية، والعبودية إظهار للربوبية]

كما نبه عليه الشيخ بقوله:

105 - (سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الْخُصُوصِيَّةِ بِظُهُورِ الْبَشَرِيَّةِ، وَظَهَرَ بِعَظَمَةِ الرَّبُوبِيَّةِ فِي إِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ)

قلت: الخصوصية هي نور الحق يشرقه الله في قلوب خواص عباده المقربين بعد تطهيرها من الأكدار وتنزيهاها عن المساويء والأغيار، يغيبون به عن شهود أنفسهم بشهود محبوبهم، وسرها هو ما احتوى عليه ذلك النور من الكمالات العلية والنعوت القدسية والصفات السنية التي تليق بالمتحلّي بها كالكبرياء والعز والقوة والعظمة والإجلال، وكالاتصاف بالقدرة التامة والعلم المحيط وسائر أوصاف الكمال.

ثم إن الحق سبحانه من عظيم حكمته وباهر قدرته أن ستر تلك الأوصاف اللازمة

(1) لم أجده بهذا اللفظ، إنما ورد: «إن أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة». (رواه الطبراني في المعجم الأوسط، عن أبي هريرة، حديث رقم (7351) [229/7].

(2) رواه ابن كثير في تفسيره، سورة المائدة، حديث رقم (4266) [37/2].

لذلك النور بظهور أضدادها التي هي أوصاف العبودية، فستر كبرياءه وعظمته بظهور الذلّ والفقر والضعف على العبد، وستر قدرته وإرادته بظهور العجز والقهرية عليه، وستر علمه المحيط بظهور الجهل والسهو، إلى غير ذلك من أوصاف العبودية المقابلة لأوصاف الربوبية.

فسبحان من جعل الأشياء كامنة في أضدادها، ستر كمالات الربوبية بنقائص العبودية، ولولا ذلك لكان السر غير مصون والكنز غير مدفون.

ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: لو كشف عن نور الوليّ لعبد من دون الله. وثبت عن الشيخ أبي يزيد رضي الله عنه: أنه لما تجلّى له هذا النور قال: سبحاني ما أعظم شأنني. وقال الحلاج رضي الله عنه:

أَنَا أَنْتَ بِأَسْمَائِكَ فَسُبْحَانَكَ سُبْحَانِي
تَوْحِيدُكَ تَوْحِيدِي وَعَصِيَانُكَ عَصِيَانِي
وَقَالَ أَيْضاً:

سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ نَاسُوتَهُ بَسْرًا سَنَا لَاهُوتِهِ الشَّاقِبِ
ثُمَّ بَدَأَ فِي خَلْقِهِ ظَاهِرًا فِي صُورَةِ الْأَكْلِ وَالشُّارِبِ
حَتَّى لَقَدْ عَايَنَهُ خَلْقُهُ كَلْحَقْلَةِ الْحَاجِبِ بِالْحَاجِبِ

وبإظهار هذا وأمثاله قتل رضي الله عنه. فمن لطف الله تعالى ورحمته أن ستر ذلك السر بظهور نقائصه صوناً لذلك السر أن يظهر لغير أهله، ومن أفشاه لغير أهله قتل كما فعل بالحلاج.

وكما ستر سر الخصوصية بظهور أضدادها ظهر بعظمة الربوبية في مظاهر العبودية. قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية. انتهى. إذ الربوبية تقتضي مربوباً موصوفاً بضد ما اتصف به ربه من الكمالات الإلهية والنعوت القدسية، فما ظهرت أوصاف الربوبية التي هي الغنى والعزّ والقدرة وغير ذلك من الكمالات إلا في أضدادها من الفقر والذلّ والضعف وغير ذلك، فالفقر الحقيقي شامل لسائر الموجودات، والغنى المطلق واجب لمن تجلّى في الأرض والسموات ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: الآية 15].

واعلم أن سر الخصوصية الذي جعله الله في بواطن أوليائه، وستره بظهور وصف بشريتهم، قد يظهر عليهم على وجه خرق العادة، فقد يظهر على وليه من قدرته وعلمه وسائر كمالاته ما تحار فيه العقول وتذهل فيه الأذهان، لكن لا يدوم ذلك لهم بل يكون على سبيل الكرامات وخرق العادات، يشرق عليهم شمس أوصافه فيتصفون بصفاته، ثم يقبض ذلك عنهم فيردهم إلى حدودهم، فنور الخصوصية وهي المعرفة ثابت لا يزول

ساكن لا يحول، وسرها وهو كمالاته تعالى، تارة يشرق على أفق بشريتهم، فيستنير بأوصاف الربوبية وتارة ينقبض عنهم فيردون إلى حدودهم وشهود عبوديتهم. فالمعرفة ثابتة والواردات مختلفة، والله تعالى أعلم.

واعلم أيضاً أن أوصاف البشرية التي ستر الله بها سر الخصوصية إنما هي الأوصاف الذاتية اللازمة للبشر كالأكل والشرب والنوم والنكاح، لا الأوصاف المذمومة المناقضة للعبودية كالكبر والعجب والحسد والغضب وغير ذلك، فإن تلك أوصاف ذهبت بظهور نور العناية وسابق الهداية، إذ لا تثبت الخصوصية إلا بعد محوها، بخلاف الأوصاف الذاتية فإنها تجامع الخصوصية كما سيأتي إن شاء الله، بل هي حجابها وصوانها، وبوجوده وقع الستر للخلفاء ولأولياء الله تعالى، غيرة عليهم أن يعرفهم من لا يعرف قدرهم.

قال في لطائف المنن: سمعت الشيخ أبا العباس رضي الله عنه يقول: معرفة الولي أصعب من معرفة الله، فإن الله معروف بكماله وجماله، ومتى تعرف مخلوق مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب، وإذا أراد الله أن يعرفك بولي من أوليائه طوى عنك وجود بشريته وأشهدك وجود خصوصيته. انتهى.

تنبيه: هذا النور الذي أشرقه الله في قلوب أوليائه كان كامناً في الروح في أصل بروزها، فأصلها نورانية عالمية بأسرار الغيب، درأكة للأشياء على حقيقتها، وإنما حجبها عن ذلك سجنها في هذا لبدن الطيني واشتغالها بحفظه وشهواته، فمن أدبها وريضاها على يد شيخ كامل رجعت إلى أصلها. قال⁽¹⁾ في المباحث [الأصلية]:

ولم تزل كل نفوس الأحياء علامّة درأكة للأشياء
وانما تعمقها الأبدان والآنفسُ النزخ والشيطان
فكل من أذاقهم جهادَه أظهر للقاعدِ خرق العادة
فإذا كمل تطهير الروح من الأغيار، وأشرقت عليها شمس الأنوار، كوشفت بأسرار الذات وأنوار الصفات، ففرقت في بحر التوحيد الذي تكل عنه العبارة ولا تلحقه الإشارة، وهو التوحيد الخاص الذي أشار إليه [عبد الله] الهروي بقوله:

ما وَحَّدَ السَّوْجِدَ مِنْ وَاحِدٍ إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاوِدٌ
تَوْحِيدٌ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْيِهِ عَابِرِيَّةٌ أَبْطَلَهَا الْوَاحِدُ
تَوْحِيدُهُ إِسَاءُ تَوْحِيدُهُ وَنَعْمٌ مَنْ يَنْعَمُهُ لَاجِدٌ

ومضمونه: أن الحق سبحانه تولى توحيد نفسه بنفسه، فكل من ادعى أنه وحده بنفسه فهو جاحد لوحدانيته حيث أشرك معه نفسه، وكل من ينعمه بنفسه فهو لاجد أي مائل عن الصواب، والله تعالى أعلم.

(1) الشيخ ابن البنا السرقطي.

[سوء الأدب بسبب تأخر الطلب]

فإذا طالبت ربك في تطهيرك من وصف البشرية ليكشف لك سر الخصوصية، ثم تأخر مطلبك، فإنما ذلك من سوء أدبك كما نبه عليه بقوله:

106 - (لا تُطالِبِ رَبَّكَ بِتَأخُّرِ مَطْلَبِكَ ، وَلَكِنْ طَالِبِ نَفْسِكَ بِتَأخُّرِ أَدَبِكَ)

قلت: هذه قاعدة عامة وإن كانت مناسبتها خاصة، فإذا طلبت شيئاً ثم تأخر ظهور ذلك المطلب فإنما ذلك لما فاتك من حسن الأدب، ولو لم يكن إلا قصد خصوص ذلك الطلب، فلا تطالب ربك أن يعجل مطلبك بسبب تأخره عنك، ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك، فلو أحسنت الأدب في الطلب لقصيت حاجتك معنى، وإن لم تقض حساً، وحسن الأدب هنا هو اكتفاؤك بعلمه، ورضاك بحكمه، واعتمادك على ما اختاره لك دون ما اخترته لنفسك لفة علمك، فقد ضمن لك الإجابة فيما يريد لا فيما تريد، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد.

[الامتثال للأمر والاستسلام للقهر]

وأعظم الآداب وأكملها امتثال أمره والاستسلام لقهره، كما نبه عليه بقوله:

107 - (مَتَى جَعَلْتَ فِي الظَّاهِرِ مُمْتَثِلاً لِأَمْرِهِ ، وَرَزَقَكَ فِي الْبَاطِنِ الْأَسْتِسْلَامَ لِقَهْرِهِ ، فَقَدْ أَعْظَمَ الْمِنَّةَ عَلَيْكَ)

قلت: إنما كان من أعظم المنة لأنه شاهد المعرفة التي هي منتهى الهمم وأقصى غاية النعم، فامتثال الأمر في الظاهر يدل على كمال الشريعة وتحقيق العبودية، والاستسلام للقهر في الباطن يدل على كمال الطريقة ونهاية الحقيقة، والجمع بينهما هو غاية الكمال، إذ منتهى الكمالات الشرائع، فمتى جعلك أيها الإنسان في الظاهر ممتثلاً لأمره ومجتنباً لنهيه، وفي الباطن مستسلماً لقهره، فقد أعظم المنة عليك، حيث أراح ظاهرك من عنت المخالفة، وأراح باطنك من تعب المنازعة.

أو تقول: حيث زين ظاهرك بالطاعة وزين باطنك بالمعرفة، فالواجب عليك أن تشكر هذه النعمة، وتعرف قدرها حتى تعظم محبة الله في قلبك، وذلك أقصى مرادك وقصدك، والله ذو الفضل العظيم.

[التخصيص بالفضائل والتخليص من الشوائب]

ومتى أثبت لك هذا الأمر فقد خلصك من نفسك، وحررك من رق حظك، فلا تبال معها ما فاتك من تخصيص الكرامات الحسية لأنها أمور وهمية، كما أشار إلى ذلك بقوله:

108 - (لَيْسَ كُلُّ مَنْ ثَبَّتَ تَخْصِيصَهُ ، كَمُلَ تَخْلِيصُهُ)

قلت: المراد هنا بالتخصيص: تخصيصه بالكرامات الحسية، والمراد بالتخليص: تخليصه من رِقِّ الحفظ ومن بقية السوى، فليس كل من ثبت تخصيصه بالكرامات الحسية كمل تخليصه من حظوظه النفسية، [و] ليس كل من ثبت تخصيصه بالكرامات كمل تخليصه من العوائد والشهوات، بل قد يُعطى الكرامة الحسية بعض من لم يتخلص من حظوظه النفسية. وحكمة ظهورها عليه ثلاثة أمور:

أحدها: إنهاضه في العمل لحصول فترة أو وقعة.

الثاني: اختبار له هل يقف معها فيحجب أو يأنف عنها فيُقَرَّب.

الثالث: زيادة في يقينه أو يقين الغير فيه ليتتفع به، فهي مقصودة بالنكميل على كل حال.

قال سهل [التستري] رضي الله عنه لرجل قال له: إني أتوضأ فأجد الماء يسقط من يدي قضبان ذهب رفضة، فأجابه بقوله: أما علمت أن الصبيان إذا بكوا أعطوا خشخاشة يشتغلون بها.

قلت: الكرامة العظمى هي المعرفة والاستقامة ورفع الحجاب وفتح الباب، فلا كرامة أعظم من هذا، وسيأتي الكلام على هذا المعنى بعد إن شاء الله.

ويحتمل أن يريد بالتخصيص تخصيص التقريب والهداية، فليس كل من ثبت تخصيصه بالهداية وشروق الأنوار كمل تخليصه من رؤية الأغيار، فقد يخصص بالمجاهدة والمكابدة ولا يتحرف بالمعرفة والمشاهدة، قوم أقامهم لخدمته وقوم اختصهم بمحبته كما تقدم، فالعباد والزهاد ثبت تخصيصهم، فهم من عوام المقربين ولم يكمل تخليصهم من شهود السوى حتى يكونوا من خواص العارفين، وبالله التوفيق.

[خلاصة ما ورد في الباب الحادي عشر]

هذا آخر الباب الحادي عشر.

وحاصله: تحقيق الأدب في التعريفات الجلالية بدوام معرفته، وشهود نعمته في نعمته وجريان لطفه وبره في حال قضائه وقدره، حتى لا يغلبك الهوى فتلتبس عليك سبل الهدى، أو تقف مع ظاهر الأشياء التي هي محل الجلال، فتحجب عن البواطن التي هي مستقر الجمال، فالذات جلال والصفات جمال، فمن وقف مع ظواهر الجلال حجب عن شهود الجمال وحرَم من معرفة الرجال وكان محجوباً عن ذي العظمة والجلال، فيسيء الأدب ويحرم حصول المطلب، فإذا استدرسته العناية وهبت عليه ريح الهداية شغل ظاهره بوظائف العبودية وباطنه بشهود الربوبية، فكان في الظاهر ممثلاً لأمره وفي الباطن مستسلماً لقيهره، فتمت عليه نعمة مولاه وكمل تخليصه من رِقِّ حظوظه وهواه، فهو بعظم ما عظم مولاه، ولا يستحق شيئاً من أسباب محبته ورضاه.

[الباب الثاني عشر]

[أقسام الورد وأحكامه]

كما أبان ذلك في أول الباب الثاني عشر بقوله : وقال رضي الله عنه :

109 - (لا يَسْتَحْقِرُ الْوَرْدَ إِلَّا جَهْلٌ . الْوَارِدُ يُوَجَدُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَالْوَرْدُ يَنْظُوي بِأَنْطِواءِ هَذِهِ الدَّارِ ، وَأَوْلَى ما يُعْتَنى بِهِ ما لا يُخْلَفُ وَجُودُهُ . الْوَرْدُ هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ ، وَالْوَارِدُ أَنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْهُ ، وَأَبْنُ ما هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ مِمَّا هُوَ مَطْلُبُكَ مِنْهُ؟)

قلت : الورد في اللغة : هو الشرب ، قال تعالى : ﴿ رَبِّئِنَّ الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ ﴾ [هود : الآية 98] . وفي الاصطلاح : هو ما يرتبه العبد على نفسه ، أو الشيخ على تلميذه من الأذكار والعبادات . والوارد في اللغة : هو الطارق والقادم . يقال : ورد علينا فلان ، أي قدم . وفي الاصطلاح : هو ما يتحرف الحق تعالى به قلوب أوليائه من النفحات الإلهية فيكسبه قوة محرقة ، وربما يدهشه أو يغيبه عن حسه ولا يكون إلا بغتة ولا يدوم على صاحبه .

[أقسام الورد]

ثم إن الورد ينقسم إلى ثلاثة أقسام : ورد العباد والزهاد من المجتهدين ، وورد أهل السلوك من السائرين ، وورد أهل الوصول من العارفين .

فأما ورد المجتهدين : فهو استغراق الأوقات في أنواع العبادات ، وعبادتهم بين ذكر ودعاء وصلاة وصيام ، وقد ذكر في الإحياء⁽¹⁾ والقوت⁽²⁾ : أوراد النهار وأوراد الليل ، وعين لكل وقت ورداً معلوماً .

وأما ورد السائرين : فهو الخروج من الشواغل والشواغب ، وترك العلائق والعوائق وتطهير القلوب من المساوىء والعيوب ، وتحليلتها بالفضائل بعد تخليتها من الرذائل ، وعبادتهم ذكر واحد وهو ما يعينه لهم الشيخ لا يزيدون عليه مع جمع القلب وحضوره مع الرب .

وأما ورد الواصلين : فهو إسقاط الهوى ومحبة المولى ، وعبادتهم فكرة أو نظرة مع العكوف في الحضرة ، فكل من أقامه مولاه في ورد فليلتزمه ولا يتعدى طوره ، ولا يستحقر غيره ، إذ العارف لا يستحقر شيئاً بل يسير مع كل واحد في مقامه ، ويقرر كل شيء في محله ، فلا يستحقر الورد ويطلب الوارد إلا جهول أو معاند ، وكيف يستحقر

(1) الإحياء : كتاب إحياء علوم الدين للإمام حجة الإسلام محمد الغزالي رحمه الله تعالى ، المتوفى سنة 505 هجرية .

(2) كتاب (قوت القلوب في معاملة المحبوب) للشيخ أبي طالب المكي محمد بن عطية الحارثي .

الورد وبه يكون الورد على الملك المعبود؟ الورد يوجد ثوابه وثمرته في الدار الآخرة، والوارد الذي تطلبه ينطوي بانطواء هذه الدار، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ لَئِنَّهُ أَلْبَسُوا أَوْرَشُمُوهَا بِمَا كُتِبَتْ تَمَلُّوكَ﴾ [الزخرف: الآية 72].

وجاء في الأثر: أن الله يقول: «ادخلوا الجنة برحمتي وتقاسموها بأعمالكم»⁽¹⁾. وأيضاً المراد من الواردات: ثمراتها ونتائجها، وهو ما يعقبها من اليقين والطمأنينة والرضى والتسليم وغير ذلك من المحاسن، فإذا أعطتك نتائجها وجنيت ثمراتها فلك في الله غنى عنها، فلا يستحق الورد ويطلب الوارد إلا من كان عبد الوارد، وأما من كان عبد الله فلا يلتفت إلى ما سواه، بل يلزم ما هو مكلف به من وظائف العبودية قياماً بحق عظمة الربوبية، فهو الذي يدوم وبه يتوصل إلى رضى الحي القيوم، وأولى ما يعتني به الإنسان ما ينقطع وجوده بانقطاع موته، وهو ورده، فيغتنم وجوده ما دام في هذه الدار، فليس في تلك الدار عمل وإنما هي دار جزاء وحصول أمل، فالدنيا دار عمل لا جزاء فيها، والآخرة دار جزاء لا عمل فيه، فليغتنم الإنسان عمره قبل الفوات، فما من زمن يخلو عنه إلا وهو فانت منه.

وقد جاء في الحديث: «لا تأتي على العبد ساعة لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة يوم القيامة»⁽²⁾ انتهى. والذكر متنوع كل بحسب حاله، وقال الحسن رضي الله عنه: أدركت أقواماً كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنائركم ودرهمكم.

وفي بعض الأحاديث عنه عليه السلام: «من استوى يوماً فهو مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو محروم، ومن لم يكن في الزيادة فهو في النقصان، ومن كان في النقصان فالصوت خير له»⁽³⁾. وأولى ما يعتني به العبد أيضاً: ما هو طالبه منه الحق تعالى، وهو الورد دون ما يطلبه هو منه وهو الوارد، فالورد من وظائف العبودية وهو الذي طلبه منا الحق تعالى، والوارد من وظائف الحرية، ولذلك تطلبه النفس وتتعشق

(1) روى شطره الأول وهو قوله: «ادخلوا الجنة برحمتي» ضمن حديث طويل أبو بكر الإسماعيلي في معجم الشيوخ، برقم (226) [2، 596، 597] والسيوطي في الدر المنثور، قوله تعالى: ﴿وَرِثَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: الآية 172].

(2) لم أجده بلفظه، إنما الذي ورد: «ما من قوم جلسوا مجلساً وتفرقوا منه لم يذكروا الله فيه إلا كأنما تفرقوا عن جيفة حمار وكان عليهم حسرة يوم القيامة» (رواه الحاكم في المستدرک، كتاب الدعاء...، حديث رقم (1808) [1/668] ورواه غيره باختلاف يسير في لفظه.

(3) رواه الديلمي في الفردوس، حديث رقم (5910) [3/611] وفيه [ملعون] بدل [محروم] وكذا وجدتها في كل المصادر التي بين يدي. وممن رواه أيضاً البيهقي في كتاب الزهد الكبير، حديث رقم (987) [2/367] ورواه غيره ما.

إليه، وأين ما هو طالبه منا مما هو مطلبنا منه بينهما فرق كبير.

فنتحصّل: أن الاعتناء بالورد أفضل وأكمل من الاعتناء بالوارد، لأن الورد من وظائف العبودية، وهي لا تنقطع ما دام العبد في هذه السار، وكما أن حقوق الربوبية لا تنقص كذلك حقوق العبودية لا تنقطع.

قال النقشبندي رحمه الله: ولهذا لم يترك العبادة سيد هذا المقام ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: كيف تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»⁽¹⁾. فأفاد ﷺ أن شكر النعمة تمام الخدمة، وهو موجب المزيد، قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية 7].

قيل للإمام الجنيد: إن جماعة يزعمون أنهم يصلّون إلى حالة يسقط عنهم التكليف، قال: وصلوا ولكن إلى سقر.

وقال في كلام آخر: من يقول بالإباحة والسرقعة والزنى عندنا أهون حالاً ممن يقول بهذه المقالة. ولقد صدق رضي الله عنه في قوله هذا، فإن الزاني والسارق عاص بزناه وسرقته ولا يصل إلى حد الكفر، وأما القائل بسقوط الفرائض المعتقد لذلك فقد انسلّ من الدين كانسلال الشعرة من العجين. فعرض على هذا الأصل بالنواجذ يا أخي، ولا تسمع كلام من أخذ الحقائق من الكتب، وصار يتكلم بالزندقة والإلحاد وإسقاط الأعمال على حسب فهمه وهواه. قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تابعاً لما جئت به»⁽²⁾. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية 31].

فعليك بمتابعته ﷺ ومتابعة السلف الصالح في الأقوال والأفعال والأحوال تحز مقامهم وتكن معهم، فالمرء مع من أحب.

وقد رأى رجل الجنيد رضي الله عنه وفي يده سبحة فقال له: أنت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة، فقال: نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا فلا نتركه أبداً. انتهى. فالشريعة باب والحقيقة بيت الحضرة، قال تعالى ﴿وَأَتُوا الْبَيْتَ مِنْ أَبْوَابِهِ﴾ [البقرة: الآية 189]، ثم قال: فلا دخول للحقيقة إلا من باب الشريعة.

فبالشريعة التوصل للمنا كالفرز بالبقاء من بعد الفنا
ومن يظن الخير في سواها فلإنه والسُّله ما دراهما
قلت: وقد رأيت كثيراً من الفقراء قصرُوا في الشريعة فخرجوا من الطريقة وسلبوا

(1) رواه البخاري في صحيحه، في أبواب عدة منها: باب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه... حديث رقم (1078) [380/1]. ومسلم في صحيحه باب إكثار الأعمال... حديث رقم (2818)، (2819) [4/2171] ورواه غيرهما.

(2) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (7791) [5/153] وابن أبي عاصم الشيباني في السنة، حديث رقم (15) ورواه غيرهما.

نور الحقيقة، ورأيت آخرين طال أمدهم في صحبة القوم ولم يظهر عليهم بهجة المحبين ولا سيما العارفين، وما ذلك إلا لعدم التحفظ على مراسم الشريعة.

[العدد الإلهي بحسب استعداد المرید]

ثم ذكر ثمرة الورد ونتيجته وهو المدد الإلهي، إذ بقدر الاستعداد تحصل الإمداد ولا استعداد لها إلا بدوام الأوراد وتفريغ الفؤاد، فقال:

110 - (وَرُودُ الْإِمْدَادِ، بِحَسَبِ الْأَسْتِعْدَادِ)

قلت: المراد بالإمداد أنوار التوجه للسائرين، وأنوار المواجهة للواصلين، فهي تتوالى على قلوب العباد بحسب التأهب والاستعداد، فبقدر المجاهدة تكون المشاهدة، وبقدر التخلية تكون التحلية.

وفائدة هذا الإمداد تطهير القلوب من الأغيار، وتقديس الأسرار من غبش الحسن والأكدار، والوقوف مع الأنوار، فلا تزال أمطار المدد تنزل على أرض النفوس الطيبة والقلوب المطهرة والأرواح المنورة والأسرار المقدسة حتى تمتلئ بأنوار المعاني، فتنشق لها أسرار الذات، وتتعلق لها أنوار الصفات، فتغيب بشهود الذات عن أثر الصفات، ثم ترد إلى شهود الصفات بالذات، والذات بالصفات، لا يحجبها جمعها عن فرقها ولا فرقها عن جمعها، نعطي كل ذي حق حقه، وتوفي كل ذي قسط قسطه.

[صفاء الأسرار سبب شروق الأنوار]

ثم فسر الإمداد وكيفية الاستعداد، فقال:

110 - (وَشُرُوقُ الْأَنْوَارِ، هَلْ حَسَبَ صَفَاءِ الْأَسْرَارِ)

قلت: شروق أنوار المعارف في أفق سماء القلوب يكون على قدر صحتها من سحب الآثار وغيم الأغيار وغين لأنوار، كما قال الشاعر⁽¹⁾:

إِنْ تَلَاشَى الْكَوْنُ عَنْ عَيْنِ قَلْبِي شَاهَدَ السَّرُّ غَيْبَهُ فِي بَيَانِ
فَاطْرَحَ الْكَوْنُ عَنْ عَيَانِكَ وَامْعُ نَقْطَةَ الْغَيْبِ إِنْ أَرَدْتَ تَرَانِي

فبقدر صفاتها ومحوها يكون تمام إشراق نورها، فإذا انجلى عن سماء القلوب سحب الآثار وغيم الأغيار، أشرق فيها نور الفناء، فيغيب القلب والروح عن الرسوم ولم يبق إلا الحي القيوم، وإذا نجلت عن الأسرار غين الأنوار، وأشرق فيها نور البقاء، فيفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل. ولصاحب العينية رضي الله عنه:

فَنَيْتُ بِهَا عَنِّي فَمَا لِي أُنِيَّةٌ هَوِيَّةٌ لَيْلِي لَلْأُنِيَّةِ قَاطِعُ
رَكْنْتُ كَمَا أَنْ لَمْ أَكُنْ وَهُوَ أَنَّهُ كَمَا لَمْ يَزَلْ فَرْدًا وَلِلْكَوْنِ جَامِعُ

(1) ثم نف على اسم هذا الشاعر.

[العارف يشهد فعل الله فيه والغافل ينظر فعل نفسه]

فعلامه شروق هذه الأنوار ترك التدبير والاختيار والاكتفاء بنظر الواحد الفهار، كما أشار إليه بقوله:

111 - (الغافل إذا أصبح ينظر ماذا يفعل، والعاقِلُ ينظر ماذا يفعلُ اللهُ بِهِ)

قلت: الغافل هو الجاهل بالله ولو كثر ذكره باللسان، والعاقِل هو العارف بالله ولو قل له ذكر اللسان. إذ المعتبر هو ذكر الجنان، فالغافل نفسه موجودة وآماله ممدودة، إذا أصبح نظر ماذا يفعل بنفسه، فيدبر شؤونه ومآربه بعقله وحدثه، فهو ناظر لفعله معتمد على حوله وقوته، فإذا أفسخ القضاء ما أبرمه، وهدم له ما أمله، غضب وسخط وحزن وقنط، فنازع ربه وأساء أدبه، فلا جرم أنه يستحق من الله البعد، ويستوجب في قلبه الوحشة والطرود، إلا إن حصل له إياب وأدام الوقوف بالباب حتى يرفع عنه الحجاب، فحينئذ يلتحق بالأحباب.

وأما العاقِل وهو العارف، فقد تحققت في قلبه عظمة ربه، وانجم إليه بكلية قلبه، فأشرقت في قلبه شمس العرفان، وطوى من نظره وجود الأكوان، فليس له عن نفسه أخبار، ولا مع غير الله قرار، تصرّفه بالله ومن الله وإلى الله، فقد فني عن نفسه وبقي بربه، فلم ير لها تركاً ولا فعلاً ولا قوة ولا حولاً، فإذا أصبح نظر ماذا يفعل الله به، فيتلقى كل ما يرد عليه بالفرح والسرور والبهجة والحبور لما هجم عليه من حق اليقين والغنى برب العالمين.

قال سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أصبحت وما لي سرور إلا مواقع القدر. وقال أبو عثمان رضي الله عنه: منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطته. انتهى. فإذا أراد الفقير أن يكون تصرّفه بالله فلينعزل عن حظوظه وهواه، فإذا أراد أن يفعل أمراً فليتأن ويصبر ويستمع إلى الهاتف، فإن الله سبحانه يسمعه ما يريد أن يتوجه إليه فعلاً أو تركاً.

اتبع رياح القضا ودر حيث دارت وسلّم لسلمي وسر حيث سارت
واستن على هذا الأمر بأدعيته عليه السلام في هذا المقام كقوله: «اللهم إني أصبحت لا أملك لنفسي ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني، ولا أن أنقي إلا ما وتيتني، فوفّقني اللهم لما ترضاه مني من القول والفعل في عافية وستر إنك على كل شيء قدير»⁽¹⁾.

(1) روى نحوه أبو القاسم علي بن هبة الله الشافعي في تاريخ مدينة دمشق [396 / 51] وعزاه إلى محمد بن إدريس الشافعي، وابن الصلاح في طبقات الشافعية، ترجمة محمد بن الحسن [1 / 145]، والغزالي في إحياء علوم الدين، بيان منامات المشايخ [4 / 510].

وكقوله أيضاً عليه السلام: «اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيد غيري وأصبحت مرتيناً بعلمي، فلا فقير أفقر مني، اللهم لا تشمت بي عدوي، ولا تسيء بي صديقي، ولا تجعل مصيبتني في ديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي، ولا تسلط علي من لا يرحمني»⁽¹⁾ إلى غير ذلك من الأدعية التي تكسب الرضى والتسليم. والمقصود من دعائه عليه السلام فهم معانيها لا مجرد ألفاظها. فالمراد المعاني لا الأواني، والله تعالى أعلم.

[وحشة السالك من كل شيء وأنس العارف بكل شيء]

ثم إن العاقل الذي ينظر ما يفعل الله هو العارف كما تقدم، لأنه هو الذي يتحقق فيه ذلك. ومن علامته أنه لا يستوحش من شيء لمعرفته [بالله] في كل شيء، وفهمه عن الله في كل شيء، بخلاف غيره من العباد والزهاد، وهو الذي أشار إليه بقوله:

112 - (إِنَّمَا اسْتَوْحَشَ الْعِبَادُ وَالزُّهَادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لِغَيْبَتِهِمْ عَنِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَلَوْ شَهِدُوهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شَيْءٍ)

قلت: العباد: هم الذين غلب عليهم الفعل، فهم مستغرقون في العبادة الحسية، يقومون الليل ويصومون النهار، شغلهم حلاوة العبادة عن حلاوة شهود المعبود، فحجبوا بعبادتهم عن معبودهم.

والزهاد: هم الذين غلب عليهم التترك، فهم يفرون من الدنيا وأهلها، ذاقوا حلاوة الزهد فوققوا معه، وحجبوا عن الله، فهم يستوحشون من الأشياء لغيبتهم عن الله فيها، ولو عرفوا الله في كل شيء ما استوحشوا من شيء، ولأنسوا بكل شيء، وتأدبوا مع كل شيء.

والعارفون: - لنفوذ بصيرتهم - شهدوا الخلق مظاهر من مظاهر الحق، فحجبوا أولاً بالحق عن الخلق، وبالمعنى عن الحسن، وبالقدره عن الحكمة، ثم ردوا إلى شهود الحق

(1) روى نحوه الحاكم في المستدرک، کتاب الدعاء، حدیث رقم (1934) عن نافع عن ابن عمر أنه لم يكن يجلس مجلساً كان عنده أحداً ولم يكن إلا قال: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني، اللهم ارزقني من طاعتك ما تحول بيني وبين معصيتك وارزقني من خشيتك ما تبغي به رحمتك وارزقني من اليقين ما تهون به علي مصائب الدنيا وبارك لي في سمعي وبصري واجعلهما الوارث مني، اللهم وخذ بثأري ممن ظلمني وانصرتني على من عاداني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي اللهم ولا تسلط علي من لا يرحمني. فسنل عنهن ابن عمر فقال: كان رسول الله ﷺ يختم بهن مجلسه. هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

في الخلق والقدرة في الحكمة ، فحين عرفوه في كل شيء أنسوا بكل شيء ، وتأذّبوا مع كل شيء ، وعظّموا كل شيء . وفي هذا المقام قال المجذوب رضي الله عنه :

الخلق نوار وأنا رعيت فيهم هم الحجاب الأكبر والمدخل فيهم
وقال سيدي علي [الجميل] رضي الله عنه على قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي في
شأن الخلق : أراهم كالهباء في الهواء إن فتشتهم لم تجدهم شيئاً ، قال : بل إن فتشتهم
وجدتهم شيئاً ، وذلك الشيء ليس كمثله شيء ، يعني وجدتهم مظاهر من مظاهر الحق
أنواراً من أنوار الملكوت فائضة من بحر الجبروت ، كما قال صاحب العينية رضي الله
عنه :

تَجَلَّيْتُ فِي الْأَشْيَاءِ حِينَ خَلَقْتَهَا فَمَا هِيَ مِیْطَتْ عَنْكَ فِيهَا الْبَرَاقِعُ
قَطَعْتَ الْوَرَى مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ قِطْعَةً وَلَمْ تَكُ مَوْضُوعاً وَلَا فَصْلَ قَاطِعُ

والحاصل : أن العارفين بالله غابوا عن شهود الخلق بشهود الحق ، فهم مع الخلق
بالأشباح ومع الحق بالأرواح ، ماتوا وبعثوا وقامت قيامتهم وتبدلت في حقهم الأرض
غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار ، فهم يرون الأنوار والناس في ظلمة
الأغيار ، كشف لهم في هذه الدار عن أسرار مكنوناته مسدولة عليها قهارية أستاره ،
وسيكشف لهم في تلك الدار عن أسرار ذاته من غير حجاب الحكمة التي هي أثر صفاته
كما أشار إلى ذلك بقوله :

113 - (أَمْرُكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ بِالنَّظَرِ فِي مُكُونَاتِهِ وَسَيَكْشِفُ لَكَ فِي تِلْكَ الدَّارِ عَنْ

كَمَالِ ذَاتِهِ)

قلت : إنما أمرك في هذه الدار أن تنظر إليه بواسطة مُكُونَاتِهِ ، لأنك لا تقدر هنا
أن تنظر إلى حقيقة ذاته المقدسة في عظمة الجبروت الأصلي بلا واسطة ، لضعف
نشأتك وإن كان ذلك جائزاً عقلاً ، ولذلك طلبه سيدنا موسى عليه السلام ، لكن حكمة
الحكيم اقتضت تغطية أسرار الربوبية بأنوار سبحات الألوهية ، إذ لا بد للحسنة من
نقاب وللشمس من سحاب ، ولو ظهر من غير رداء الكبرياء لوقع الإدراك ولم يبق حينئذ
ترقي ، فالترقي في أسرار الذات إنما هو بالنظر إلى أنوار الصفات ، وهو لا ينقطع أبداً
في الدارين ، فلا تنال الذات من غير مظهر أصلاً .

فالمعنى : لا يقبض إلا بالحس ، هذا مذهب أهل التحقيق من أهل المعاني ، فإن
قلت : كيف فرّق الشيخ بين الرؤيتين باعتبار الدارين والتحقيق أنها رؤية واحدة لأن
المظهر متحد ، فالجواب : أنه لما كان مظهر هذه الدار الحس فيه غالب على المعنى ،
والحكمة ظاهرة والقدرة باطنة ، ومظهر الدار الآخرة بالعكس ، المعنى فيه غالب على

الحس والقدرة ظاهرة، انكشف ثم عن حقيقة الذات أكثر مما انكشف هنا. فبهذا المعنى وقع التفريق بين الرؤيتين. ومثله قول الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه في حزبه الكبير: عز الدنيا بالإيمان والمعرفة وعز الآخرة باللقاء والمشاهدة. انتهى. هذا باعتبار الخواص.

وأما العوام فلا يرون إلا الحس في هذه الدار وفي تلك الدار، وأما الرؤية التي تحصل لهم يوم المزيد، فيحتمل أن يظهر لهم نوراً من أنوار قدسه، ويلهمهم المعرفة فيه، وهو ظاهر الحديث، أو يفنيهم عن حسهم في ذلك الوقت، حتى يشهدوا معاني الذات، ويتلذذوا برؤيتها، ثم يردهم إلى حسهم.

والحاصل: أن تجلي الذات على قسمين:

قسم يكون بوسائط كثيفة ظاهرها ظلمة وباطنها نور، ظاهرها حكمة وباطنها قدرة، ظاهرها حس وباطنها معنى، وهو تجلي هذه الدار.

وقسم يكون بوسائط لطيفة نورانية ظاهرها نور وباطنها نور، ظاهرها قدرة وباطنها حكمة، ظاهرها معنى وباطنها حس، وهو تجلي دار الآخرة.

فالعارفون لما حصل لهم الشهود والمعرفة في هذه الدار، وفي تلك الدار لا يحجبهم عن الله حور ولا قصور، بل دائماً في النظرة والسرور والنصرة والحبور، وذلك أنهم لما عرفهم به هنا لم يحجبهم هنالك، يموت المرء على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، بخلاف العامة فإنهم لما حجبهم هنا بشهود أنفسهم، انحجبوا هناك عن رؤية معبودهم، إلا في وقت مخصوص على وجه مخصوص، ولذلك كتب ابن العربي الحاتمي إلى الإمام الرازي فقال له: تعال نعرفك بالله اليوم قبل أن تموت، فإذا تجلى الله لعباده أنكرته ولم تعرفه.

وسئل الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه عن رجل يدعي أنه يرى الله يبصره، فاستدعاه فسأله عن ذلك فقال: نعم، فانتهره ونهاه عن هذا القول. ثم قيل له: أمحق هو أم مبطل؟ فقال: هو محق ملبس عليه. وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال، ثم خرق من بصيرته إلى بصره، فنفذ فرأى بصره ببصيرته، وبصيرته يتصل شعاعها بنور شهوده، فظن أن بصره رأى ما شاهدته بصيرته، وإنما رأى بصره ببصيرته فحسب. انتهى.

والحاصل: أنه انعكس بصره في بصيرته فرآه ببصيرته وظن أنه رآه يبصره. ومعنى ذلك أن الروح ما دامت محجوبة بالبشرية كان النظر إنما هو للبصر الحسي، فلا يرى إلا الحس، فإذا استولت الروحانية على البشرية انعكس نظر البصر إلى البصيرة، فلا يرى البصر إلا المعاني التي كانت تراها البصيرة.

[الروح لا تصبر عنه تعالى]

وإنما أمرك في هذه الدار أن تنظر إليه في مكُوناته تسليّة لك عن شهود ذاته والنظر إليه، إذ لا صبر للمحب عن محبوبه كما أبان ذلك بقوله:

114 - (لَمَّا عَلِمَ مِنْكَ أَنَّكَ لَا تُصْبِرُ عَنْهُ، فَأَشْهَدَكَ مَا بَرَزَ مِنْهُ)

قلت: لما فضل الحق سبحانه هذه الروح التي هي لطيفة نورانية من أصلها، وتغربت عن وطنها، تعشقت إلى أصلها، وتعطشت إلى محبة سيدها، فلما علم الحق سبحانه أنها لا تصبر عنه، ولا تقدر أن تراه على ما هو عليه من كمال جلاله ونور بهاء جماله ما دامت في هذا السجن الذي هو قفص البدن، أشهدتها الحق تعالى ما برز منه من تجلياته في مظاهر مكُوناته وآثار صفاته، لكن لا بد للحسنة من نقاب وللشمس من سحاب، فبرزت أنوار الجبروت إلى رياض الملكوت، فغطتها سحائب الحكمة وآثار القدرة، فبقيت الروح تتعشق إلى أصلها من وراء سحائب الأثر، فإذا انقشع السحاب ورفع الحجاب لقي كل حبيب حبيبه، وعرف كل إنسان مثواه ومستثراه، فقنعت الروح بشهود المعاني خلف رقة الأواني. وإليه أشار الشيخ الفوث أبو مدين رضي الله عنه بقوله:

فلولا معانيكم تراها قلوبنا إذا نحن أبقاؤها وفي النوم غبنا
لمتنا أسى من بعدكم وصباية ولكن في المعنى معانيكم معنا

[تعددت الطاعات بسبب ملل النفس]

ومما تستأنس به الروح عن صدمات المحبة اشتغالها بالخدمة كما أشار إلى ذلك بقوله:

115 - (لَمَّا عَلِمَ الْحَقُّ مِنْكَ وُجُودَ الْمَلَلِ لَوْنًا لَكَ الطَّاعَاتِ)

قلت: من كرمه تعالى وحسن اختياره لك أيها العبد أنه لما علم أنك لا تقدر أن تصبر عنه أشهدك ما برز منه، ولما علم الحق سبحانه أن من عباده من لا يقدر أن يشهده فيما برز منه أشغله بخدمته، ولما علم أنه ربما يملّ من خدمة واحدة لوّن له طاعته، لأن من شأن النفس أن تملّ من تكرار الشيء الواحد. وفي ذلك يقول الشاعر⁽¹⁾:

لا يُضْلِحُ النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ مُدْبِرَةً إِلَّا التَّنْقُلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: فلوّنت له الطاعة لثلاثة أوجه:

أحدها: رحمة به ليستريح من لون إلى لون.

الثاني: إقامة للمحجة عليه، إذ لا عذر له في الترك.

الثالث: ليثبت له النسبة في العمل بوجود التخيير في الجملة، فتكمل الكرامة

وتسهل الطاعة.

(1) هو أبو العنابية: إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العنزي أبو إسحاق المولود سنة 130 هـ والمتوفى سنة 211 هـ. [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

[شره النفس أدى إلى تقييد الطاعة بالوقت]

ومن دواعي الملل وجود الشره، وهو الحرص، وموجبه هو الإطلاق في العمل،
فلذلك قيدت الطاعة بأعيان الأوقات كما أبان ذلك بقوله:

115 - (وَعَلِمَ مَا فِيكَ مِنْ وُجُودِ الشَّرِّهِ فَحَجَّرَهَا عَلَيْكَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ)

الشره: خفة في النفس توجب المسارعة للعمل والإسراع فيه، وينتج آفات ثلاثاً،
أولها: الترك عند الدوام لِتَرْوِي النَّفْسَ وَضِيْقَهَا. الثاني: الملل وهو التثاقل إن لم يكن
ترك. الثالث: الإخلال بالحقوق لوجود العجلة.

والحجر بالوقت، فيه فوائد ثلاث، أولها: منع الشره إذ لو كانت مرسله لوقعت
النفس فيها على وجه الشره. الثاني: نفي التسويف [إذ] لولا الوقت لكانت تعدد من زمن
إلى زمن فيؤدي إلى التفريط. الثالث: التمكين من العمل والتمكُّن فيه، إذ لولا الوقت
لأهمل العمل ولم يحافظ عليه لغلبة الهوى ولم يحفظه استعمالاً للحفظ. انتهى.

[المطلوب إقامة الصلاة لا وجودها فقط]

ثم بين وجه التحجير، وهو الإتقان والإقامة، فقال:

115 - (لِيَكُونَ هَمُّكَ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ لَا وُجُودَ الصَّلَاةِ)

قلت: السر في تحجير الصلاة في بعض الأوقات لتشتاق النفس إليها وترتاح بها،
فحصل فيها الخشوع والحضور وقرّة العين، بخلاف ما إذا كانت دائمة فيها فلا تتعشق
إليها، بل ربما تمل فتوقعها على غير تمام. والمقصود منك حركة قلبك لا حركة
جسمك، «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم»⁽¹⁾.
ليس الشأن حركة الأشباح إنما الشأن خضوع الأرواح، فالسر في تحجير الصلاة عنك
في بعض الأوقات أن يكون همك إقامة الصلاة، وهو إتقانها والقيام بحقوقها الظاهرة
والباطنة، لا وجود الصلاة من غير إقامة، فهي بيته خاوية فهي إلى العقوبة أقرب.

قال الإمام القشيري رضي الله عنه: إقامة الصلاة هو القيام بأركانها وسننها، ثم
الغيبة عن شهودها برؤية من يصلّي له، فنفوسهم منه مستقبلة إلى القبلة وقلوبهم مستقرة
في حقائق الوصلة. انتهى.

وقال المؤلف رضي الله عنه: إقامة الصلاة حفظ حدودها مع حفظ السر مع الله
عز وجل، لا يختلج بسرك سواء. انتهى.

ثم ذكر وجه كون المطلوب هو الإقامة دون الوجود من حيث هو، فقال:

115 - (فَمَا كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمٌ)

قلت: لأن الإقامة في اللغة: هو الإكمال والاتقان. يقال: أقام فلان داره إذا

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم ظلم المسلم ونخله...، حديث رقم (2564) [4/1987] ورواه ابن حبان
في صحيحه، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من التفرغ...، حديث رقم (394) [2/119] ورواه غيرهما.

أكملها وجعل فيها كل ما يحتاج إليه، فإقامة الصلاة اتقانها كما تقدم، وضد الإقامة هو الإخلال والتفريط، فليس كل مصل مقبلاً، فكم من مصل ليس له من صلاته إلا التعب. وفي بعض الأحاديث: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً»⁽¹⁾. وفي حديث آخر عنه ﷺ: «إذا صلى العبد فلم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها، لُفَّتْ كما يُلَفُّ الثوبُ الخلق، ثم يُضْرَبُ بها وجهه»⁽²⁾. أو كما قال عليه السلام. فالمصلون كثير والمقيمون قليل، ناهل الأشباح كثير، وأهل القلوب قليل.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: كل موضع ذكر فيه المصلون في موضع المدح فإنما جاء لمن أقام الصلاة إما بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها. قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: الآية 3] ، ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ [إبراهيم: الآية 40] . ولما ذكر المصلين بالغفلة قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: الآية 5] ولم يقل: فويل للمقيمين الصلاة. انتهى.

[مراتب الخشوع]

واعلم أن الخشوع في الصلاة على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: خشوع خوف وانكسار وإذلال، وهو للعباد والزهاد. المرتبة الثانية: خشوع تعظيم وهيبة وإجلال، وهو للمريدين السالكين. المرتبة الثالثة: خشوع فرح وسرور وإقبال، وهو للواصلين من العارفين، ويسمى هذا المقام: قرّة العين كما يأتي إن شاء الله.

ثم اعلم أن الصلاة التي لا يصحبها خشوع ولا حضور هي باطلة عند الصوفية غير مقبولة عند العلماء، وقالوا: ليس للعبد من صلاته إلا ما حضر فيها قلبه، ويعين على الخشوع الزهد في الدنيا، وهذا هو الدواء الكبير، إذ محال أن تكون عندك بنت إبليس [أي الدنيا] ولا يزورها أبوها، فلا يتأتى الخلوص من الخواطر ما دامت في القلب،

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب، من لم تنه صلاته...، حديث رقم (508) [305 / 1] والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب حديث رقم (5944) [622 / 3] ورواه غيرهما.

(2) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه بكر، حديث رقم (3095) [263 / 3] ونصه كاملاً: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الصلاة لوقتها وأسبغ لها وضوؤها وأتم لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها خرجت وهي بضاء مسفرة تقول: حفظك الله كما حفظتني. ومن صلى الصلاة لغير وقتها فلم يسبغ لها وضوؤها ولم يتم لها خشوعها ولا ركوعها ولا سجودها خرجت وهي سوداء مظلمة تقول: ضيعك الله كما ضيعتني. حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق ثم ضرب بها وجهه». ورواه غيره.

وقليلها هو كثيرها ، فمن بقيت فيه بقية منها فإنه تأتيه الخواطر على حسبها ، فمحال أن تكون شجرة الدنيا في قلبك وتسلم من الخواطر .

ومما يعين أيضاً على الخشوع ، الإكثار من ذكر الله بالقلب والقالب ، وإدمان الطهارة لأن الظاهر له تعلق بالباطن إذا طهر هذا طهر هذا ، وبالله التوفيق .

[نتائج الصلاة وثمراتها]

ثم ذكر نتائج الصلاة وثمراتها ومرجعها إلى ست ، كل واحدة توصل إلى ما بعدها ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْسُنُ ٱلنَّاسِ﴾ [النجم : الآية 42] فأشار إلى الأولى بقوله :
116 - (الصَّلَاةُ طَهْرَةٌ لِلْقُلُوبِ)

قلت : إنما كانت الصلاة مطهرة للقلوب من المساوي والعيوب لما فيها من الخضوع والانكسار والذل والافتقار والتذلل والاضطرار ، فإذا خضع القلب لهيبة الجلال طهر من سائر العلل ، لأن طلب العلو والرفعة هو أصل العلل وعنصرها ، ومن شأن النفس وطبيعتها طلب العلو والاستكبار والتعزز والافتخار ، لأنها جاءت من عالم العز فلا ترضى إلا بالعز .

فلما رُكبت في هذا القالب الجسماني ، ردتها القهرية إلى العبودية ، وجعلتها لها باباً للوصول إلى حضرة الربوبية ، فلا يطمع لها في الرجوع إلى أصلها إلا بانكسارها وذلها ، ولذلك قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه : أتيت الأبواب كلها فوجدت عليها ازدحاماً ، فأتيت باب الذل والانكسار فوجدته خالياً ، فدخلت منه وقلت : هلموا إلى ربكم . هكذا سمعته من أشياخنا .

فإذا انكسرت وذلّت رجعت لأصلها ووصلت ، وإذا تعززت واستكبرت حُجبت وطردت ، وإذا طردت بعدت ، وكلما بعدت عن الحضرة الربانية استحكمت فيها الشهوات الجسمانية والأخلاق الشيطانية ، فاتصفت حينئذ بكل خلق دني ، وبعدت من كل خلق سني .

فإذا أراد الله تعالى أن يرحمها بالقرب من جنابه والوقوف ببابه ألهمها الصلاة وحببها إليها ، حتى إذا تطهرت من الذنوب ، ومحيت عنها المساوي والعيوب ، قربت من حضرة الحبيب ومناجاة القريب ، فقرعت الباب وطلبت رفع الحجاب ، وهذا معنى قوله :

116 - (وَأَسْتَفْتَاخَ لِبابِ الْغُيُوبِ)

وهي النتيجة الثانية من نتائج الصلاة ، قلت : المراد بالغيوب أسرار الملكوت وأسرار الجبروت ، وإنما كانت الصلاة استفتاحاً لباب الغيوب لما اشتملت عليه من تطهير الظاهر والباطن .

قال الحكيم محمد بن علي الترمذي رضي الله عنه: هي عرش الموحدين، هيأها رب العالمين لأهل رحمته في كل يوم خمس مرات، حتى لا يبقى عليهم دنس من الأغيار. انتهى.

فإذا تطهر الظاهر بالطهارة الحسية، والباطن بالطهارة المعنوية، استحق الدخول إلى الحضرة القدسية، فأول ما يتحف به قربه إلى الباب وسماع خطاب الأحياء من وراء حجاب، فيتمتع بمناجاة الأحياء ولذيق الخطاب وهو معنى قوله:

117 - (الصَّلَاةُ مَحَلُّ الْمُنَاجَاةِ)

وهي النتيجة الثالثة، قلت: المناجاة: هي المساررة والمكالمة مع الأحياء، فمناجاة العبد ربه بالتلاوة والأذكار، ومناجاة الرب لعبده بالتفهم والفتح ورفع الأستار، وفي الحديث الصحيح: «المصلّي يناجي ربه»⁽¹⁾ وقال أيضاً عليه السلام: «يقول الله تعالى: قُتِمَتِ الصَّلَاةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ تَعَالَى: حَمْدُنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَجْدُنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَوُضَّ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: هَذِهِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ الْآيَةَ، قَالَ اللَّهُ: هَذِهِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»⁽²⁾ الحديث. فلا يزال المصلّي يناجي ربه ويطلب قربه حتى تتمكن المحبة من القلب والإقبال من الرب، فتصفو المحبة من كدر الجفا، ويتصل المحب مع حبيبه في محل الصفا، وهو معنى قوله:

117 - (وَمَعْدِنُ الْمُصَافَاةِ)

وهي النتيجة الرابعة. قلت: المعدن: هو محل الذهب والفضة، استعير هنا لصفاء القلوب والأرواح، لتصفيتها من لوث صلصال الأشباح، فالمصافاة خلوص المناجاة من تشويش الحس وكدر الهواجس، فهي أرق وأصفى من المناجاة كما قال ابن الفارض رضي الله عنه:

وَلَقَدْ خَلَوْتُ مَعَ الْحَبِيبِ وَبَيَّنَّنَا سِرَّ أَرْقٍ مِّنَ النَّسِيمِ إِذَا سَرَا

وهذه مصافاة العبد لربه، ومصافاة الرب لعبده بالإقبال عليه حتى لا يدعه لغيره. وفي الخبر: «أن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه». فإذا تمت التصفية وعظمت المحبة وكثر العطش وظهر الدهش، استحقت الروح رفع الحجاب وفتح الباب، فتدخل إلى حضرة الأحياء، ويرتفع بينها وبينهم الحجاب،

(1) رواه النسائي في السنن الكبرى، باب (11) هل يعظ المعتكف وذكر...، حديث رقم (3360) [2/264] والربيع الأزدي في مسنده، باب في القراءة في الصلاة، حديث رقم (227) [1/97] ورواه غيرهما.
(2) رواه مسلم في صحيحه، باب وجوب قراءة الفاتحة...، حديث رقم (395) [1/296] وابن حبان في صحيحه، ذكر كيفية قسمة فاتحة الكتاب...، حديث رقم (776) [3/54] ورواه غيرهما.
(3) هذا الخبر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

فتخرج من ضيق الأشباح إلى فضاء عالم الأرواح، أو من ضيق الملك إلى سعة عالم الملكوت وهو معنى قوله:

117 - (تَسْبِغُ فِيهَا مَيَادِينُ الْأَسْرَارِ)

وهي النتيجة الخامسة. قلت: الميادين جمع ميدان، وهو مجال الخيل، استعير هنا لفضاء عالم الملكوت، فإذا تنزهت الروح في عالم الملكوت، وجالت بفكرتها في سعة أنوارها، أشرقت عليها أنوار سنا الجبروت، وهو معنى قوله:

117 - (وتشرق فيها شوارق الأنوار)

وهي النتيجة السادسة. قلت: أراد بالأسرار أسرار الذات وهو لأهل الفناء، وبالأنوار أنوار الصفات وهو لأهل البقاء، والله أعلم.

وأراد الشيخ بهذه الصلاة التي تنقله من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، صلاة أهل الاعتناء، وهم أهل السلوك على يد الشيوخ، لا صلاة أهل الغفلة وصلاة أهل المجاهدة من العباد والزهاد، فليس لهم هذا السير، والله تعالى أعلم.

قال أبو طالب [المكي في كتابه قوت القلوب]: حَدَّثْتُ أَنَّ الْمَوْقِنَ إِذَا تَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ تَبَاعَدَتْ عَنْهُ الشَّيَاطِينُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِينَ خَوْفًا مِنْهُ لِأَنَّهُ يَتَأَهَّبُ لِلدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ، فَإِذَا كَبَّرَ حَجَبَ عَنْهُ إِبْلِيسُ، وَضَرَبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ بِسِرَادِقٍ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَوَاجِهَهُ الْجِبَارُ بِوَجْهِهِ، فَإِذَا قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أَطَّلَعَ الْمَلِكُ فِي قَلْبِهِ، فَإِذَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ أَكْبَرُ مِنَ اللَّهِ، فَيَقُولُ الْمَلِكُ: صَدَقْتَ اللَّهُ أَكْبَرُ فِي قَلْبِكَ كَمَا تَقُولُ، فَيَتَشَمَّعُ فِي قَلْبِهِ نُورٌ يَلْحَقُ مَلَكُوتَ الْعَرْشِ، فَيُنْكَشِفُ لَهُ بِذَلِكَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَكْتُبُ لَهُ حَشْرَ ذَلِكَ النُّورِ حَسَنَاتٍ.

قال: وإن الغافل الجاهل إذا قام إلى الرضوء احتوشته الشياطين كما يحتوش الذباب على نقطة العسل، فإذا كبر أطلع الملك في قلبه، فإذا كل شيء في قلبه أكبر من الله عنده، فيقول: كذبت ليس الله في قلبك كما تقول، فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء، فيكون حجاباً لقلبه عن الملكوت، قال: فيرد ذلك الحجاب صلواته، وتلتقم الشياطين قلبه، ولا يزال تنفخ فيه، وتنفض وتوسوس وتزيتن له حتى ينصرف من صلواته ولا يعقل ما فعل « انتهى [رقد جاء بالخبر: «لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات»⁽¹⁾».

[حكمة حصر الصلاة في خمس]

ثم ذكر حكمة حصرها في عدد معلوم وهو خمسة فقال:

117 - (قَلِمَ وَجُودَ الضَّعْفِ مِنْكَ فَقَلَّلَ أَعْدَادَهَا)

وهي خمس بعد أن كانت خمسين، فمن لطفه سبحانه بك أيها الإنسان قلل أعدادها

(1) أورده الرازي في التفسير الكبير، تفسير سورة البقرة، آية (269) [58/7]. والغزالي في إحياء علوم الدين، كتاب أسرار الصوم [220/1].

مع سعة الزمان، فجعل عليك صلاة في أول نهاره شكراً لما أظهره لك من باهر أنواره، وليكون نهوضك إليه في أول قيامك جبراً لما حصل من غفلتك في طول منامك .
وجعل عليك صلاة في وسط نهاره إخماداً عنك لما أظهره في ذلك الوقت من وقود ناره .

وجعل عليك صلاة قرب انصراف النهار ليكون شاهداً لك بوجود طاعتك عند الملك الغفار، ولتشهد عليك ملائكة الرحمن بالصلاة عند الملك الديان .
وأوجب عليك صلاة في أول زمان الليل استفتاحاً لذلك الزمان بوجود طاعتك كما استفتحت أول نهارك، واستحفاظاً لما يتوقع من عجائب الليل .
ثم لما أردت أن تنام عن سيدك، وتغفل عن ربك، وتتمتع بفراشك، أمرك أن تودعه بحضورك معه، وأن يكون آخر عهدك به وجود طاعتك .
فهذا كله جذب منك لحضرته واستخراج منك لشكر منته . «عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل»⁽¹⁾ .

وحين قلل أعدادها لما علم احتياجك إلى منته كثر أمدادها، وإليه أشار بقوله :

117 - (وَعَلِمَ أَحْتِيَاجَكَ إِلَى فَضْلِهِ فَكَثَّرَ أَمْدَادَهَا)

المراد بالأمداد الجزاء الذي رتب عليها، فجعل كل صلاة بعشر، فهي خمس وهي خمسون، خمس في الحس وخمسون في المعنى، أي الثواب، وإذا فعلت في الجماعة كانت كل واحدة بخمس وعشرين وكل درجة بعشر، فكان عدد صلاة الجماعة مائتين وخمسين في كل صلاة، والله ذو الفضل العظيم .

وتفاوتت الدرجة أيضاً بكثرة الجماعة وكمالها وبقدر الحضور والخشوع، والغيبة ورفع الستور ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁽²⁾ [السجدة: الآية 17] .

وتفاوتت أيضاً بقدر البقع كبيت الله الحرام والمسجد النبوي وبيت المقدس، وبقدر رتبة الإمام [فقد جاء في الأثر]، «من صلى خلف مغفور [له] غفر الله له»⁽²⁾ .
والله تعالى أعلم .

[طلب العوض يستوجب وجود الصدق في العمل]

لكن لا ينبغي لك أيها الفقير أن تلتفت إلى هذا الحظ، فإن فضل الله كثير لمن رفع همته إلى العلي الكبير، كما أبان ذلك بقوله :

118 - (مَتَى طَلَبْتَ هَوْضاً عَنْ حَمَلٍ طَوَيْتَ بِوُجُودِ الصُّدْقِ فِيهِ، وَيَكْفِي الْمُرِيبَ

وَجِدَانُ السَّلَامَةِ)

(1) رواه ابن أبي عاصم في السنة برقم (573) [1/ 251] ورواه غيره وفيه : (يقادون بدل يساقون) .

(2) أورده ابن الحاج : محمد بن محمد العبدري القاسمي المالكي في المدخل [4/ 218] و[2/ 278] .

قلت: متى صدر منك عمل من أعمال البر، وطلبت الحق سبحانه أن يجازيك عليه، طالبك الحق تعالى بوجود الصدق فيه، وهو سر الإخلاص ولبه، الذي هو التبري من الحول والقوة، وانعزال النفس عن رؤية العمل لها بالكلية، بعد تحقيق الحضور والسلامة من الوسوس والخواطر والهواجس، حتى تكون صلاتك بالله والله، غائباً فيها عما سواه، قد ملا قلبك عظمة الله، فغبت في الله بالله.

فإن تحققت فيك هذه الأمور صح لك أن تطلب ما رتب الحق سبحانه على العمل من أنواع الجزاء والأجور، وإن لم تتحقق من نفسك هذه الأمور، فاعلم أن عملك مدخول، فاستحي من الله أن تطلب الجزاء على عمل مدخول، فيكفيك من الجزاء وحصول المطلب السلامة من الهلاك والعطب، يكفيك من طلب حسن نواله السلامة من عقابه ونكاله، يكفي المريب، وهو المتهم وجدان السلامة من العقوبة فيما اتهم فيه.

وأنت أيها الإنسان طولبت بالأعمال والإخلاص فيها وإتقانها وإنمام إقامتها، فأنت بطاعة مشوبة بالخواطر والوسوس، وعلى تقدير سلامتها من ذلك، فطلبك الجزاء يقتضي رؤية نفسك ووجود الفعل منك، وهو شرك تستحق عليه العقوبة، فيكفيك من عطائه وجود السلامة من عقابه.

وقال خير النساج⁽¹⁾ رضي الله عنه: مبرات أعمالك ما يليق بأفعالك، فاطلب مبرات فضله فإنه أتم وأحسن. قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ وِرْثَمَتِيهِ فِدَاكَ لِيَقْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [بونس: الآية 58]. ومعنى كلامه رضي الله عنه: أن جزاء أعمالك ما يليق بأفعالك الناقصة، وجزاء الناقص ناقص، فاطلب منه ثمرة فضله فإنه كامل من كل وجه، فهو أتم وأكمل، والله تعالى أعلم.

[قبول العمل عين الجزاء عليه]

وكيف تطلب الجزاء على عمل لست له فاعلاً، ولا علمت كون القبول له حاصلًا، كما أشار إليه بقوله:

119 - (لا تَطْلُبْ حَوْضاً عَلَيَّ عَمَلٍ لَسْتُ لَهُ فَاعِلاً، يَكْفِي مِّنَ الْجَزَاءِ لَكَ عَلَيَّ
الْعَمَلِ أَنْ كَانَ لَهُ قَابِلاً)

قلت: قد تقرّر عند أهل الحق أن العبد مجبور في قالب مختار، فليس له فعل ولا اختيار، وإنما الفاعل هو الواحد القهار، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: الآية 68]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: الآية 96]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشكور: الآية 29].

(1) هو محمد بن إسماعيل، وسمي خير النساج لأنه خرج إلى الحج فأخذه رجل على باب الكوفة وقال له: أنت عبدي واسمك خير واستعمله الرجل في نسج الخبز، عاش 120 سنة وتاب في مجلسه كل من إبراهيم الخواص والشبلي (الرسالة القشيرية [1/24]).

وقال ﷺ: «كل شيء بقضاء وقدر حتى المعجز والكيس»⁽¹⁾ أي النشاط. وقال عليه السلام: «كلٌ يسر لما خلق له، فأما من كان من أهل السعادة فسيسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسيسر لعمل أهل الشقاوة»⁽²⁾ ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْمُتَّيِبِينَ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَدَّلَ وَأَسْتَفَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْمُتَّيِبِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: الآية 5 - 10] الآية.

فإذا تقرر هذا فكيف يطلب العبد الأجر على عمل ليس هو فاعله، وعلى تقدير نسبته إليه فالجزاء متوقف على القبول، فمن أين تدري هل يكون مقبولاً أم لا؟ وإذا تفضل عليك بالقبول على ما هو عليه من النقص والخلل، فهذا يكفيك في جزائك على العمل، فلولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول.

فلولا أن الله سبحانه تفضل على عباده بالعفو والحلم ما قبل عملاً قط، إذ تصفية الأعمال كادت أن تكون من المحال. قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: الآية 91] أي عظموه حق تعظيمه، وقال تعالى: ﴿كَلَّا لِنَأْتِيَنَّهُ مَا أَمَرُ﴾ [عبس: الآية 23] أي لم يقض الإنسان ما أمره سيده على الوجه الذي أمر به.

وانظر قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: الآية 16] لم يقل الحق تعالى: نتقبل منهم لأنه يقتضي أنه كامل بل عداه بمن المفيدة للتجاوز، كأنه قال: أولئك الذين يتجاوز عنهم في أحسن ما عملوا فتقبلها منهم، ولو لم يتجاوز عنهم فيها ما تقبلت منهم، ولكن الكريم لا ينتقد، بل يقبل كل ما يُعطاه، لعظيم كرمه وغناه.

[الخلق لله تعالى والنسبة لنا]

فالحمد دائماً لله حيث خلق فينا العمل وأعطانا عليه غاية المنى والأمل، كما أشار إلى ذلك بقوله:

120 - (إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ، خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ)

قلت: الحق تعالى فاعل بالمشيئة والاختيار لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، أي لا يسأل عما يفعل حقيقة وهم يسألون شريعة. ثم وإن الحق سبحانه وتعالى قسم عباده على ثلاثة أقسام:

قسم أعدهم للانتقام، فأظهر فيهم اسمه المنتقم واسمه القهار، وأجرى عليهم صورة العصيان بحكمته، ونسبها إليهم بعدله وقهره، ولو شاء ربك ما فعلوه، ولو شاء الله

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب كل شيء بقدر، حديث رقم (2655) [4/2045] وابن حبان في صحيحه، ذكر الأخبار بأن كل شيء بمشيئة الله جل وعلا، حديث رقم (6149) [14/17].

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْمُتَّيِبِينَ﴾ [الليل: الآية 10]، حديث رقم (4666) [4/1891] ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، حديث رقم (2647) [4/2039] ورواه

ما أشركوا فقامت الحجة عليهم باعتبار النسبة وإظهار الحكمة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلْمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُضِّلَتْ: الآية 46] ، ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَبَلَّغْتَ لَكُم مَّوَدِعَهُمْ لِيُخَلِّقُوا فِيهَا مَن تَشَاءُ﴾ [التعل: الآية 118] .

ونسب أعدهم الله للحلم ليظهر فيهم اسمه الحلیم واسمه الرحيم، أجرى عليهم العصيان وحلاهم بالإيمان، فاستحقوا العقوبة على العصيان، ثم إن الحق تعالى حلم عليهم وعفا عنهم وأدخلهم الجنان .

ونسب أعدهم الله للكريم ليظهر فيهم اسمه الكريم واسمه الرحيم، خلق فيهم الطاعة والإحسان، وحلاهم بالإسلام والإيمان، وربما زادهم التجلي بالإحسان، فأدخلهم نسيح الجنان، ومثعهم بالنظر إلى وجه الرحمن .

فإذا أراد الله تعالى أن يلحفك بهؤلاء السادات هيأك لأنواع الطاعات، وخلق فيك القررة على فعل الخيرات، ثم نسب إليك ذلك الفعل، فقال: يا عبدي فعلت كذا وكذا من الخير، فأنا أجازيك عليه، أدخل الجنة برحمتي، وترق إلى مقامك بعملك، فمقامك حيث انتهى عملك. قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّبَدِّئُهُ أَهْلًا وَهَاتُوا لَهُم مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: الآية 20] ، ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نَضَلْنَا بِمَعْصِيَتِهِمْ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَخْيَرِ أَكْبَرُ دَرَجَتِي وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: الآية 21] ، وقال تعالى: ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التعل: الآية 32] .

ثم ينبغي لك أيها الإنسان أن تتأدب مع الملك الديان، فلا تنسب إليه النقص والعصيان، وإنما أغوتك نفسك والشيطان، قال تعالى: ﴿فَلَا تَفْرَنَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرَنَكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [الغمان: الآية 33] أي الشيطان، فما كان من الكمال فانسبه إلى الكبير المتعال، وما كان من النقصان فامسحه في منديل النفس والشيطان .

[مَدَامَكَ لَكَ وَمَدَائِحُكَ لَهُ تَعَالَى]

ثم إن هذه النسبة التي نسبها الله تعالى لعبده بما خلق فيه بها يستحق المدح والذم، فإذا خلق فيه الطاعة ونسبها إليه استحق المدح بلسان الشرع، وإذا أجرى عليه المعصية وقضاها عليه استحق الذم بلسان الشرع أيضاً، كما أشار إليه بقوله:

121 - (لا نِهَابَةَ لِمَدَامِكَ إِنْ أَرْجَمَكَ إِلَيْكَ، وَلَا تَفْرُغُ مَدَائِحُكَ إِنْ أَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ)

قلت: إذا أراد الله إهانة عبد وإذلاله، رده إلى نفسه وهواه فأحيل عليها ووكل إليها، فيوليه ما نولى، فإذا استولى عليه الهوى أعماه وأصمته، وفي مهاوي الردى أسقطه .

فالهوى مختصر من الهوان وموجب له كما قال البرعي رحمه الله:

لا تَتَّبِعِ النَّفْسَ فِي هَوَاهَا إِنْ اتَّبَعَ الْهَسْوَى هَوَانَ

وإذا أراد الله إعزاز عبده وعنايته أظهر عليه جوده وكرمه، فتولاه وحفظه ولم يتركه مع نفسه وهواه طرفة عين ولا أقل من ذلك.

فلا نهاية لمذامك أيها الإنسان إن رددك إلى نفسك، وحكمها فيك وتركتك مع هواك، لأن ذلك من علامة الإهمال وسقوطك من عين الكبير المتعال، والعياذ بالله من كل خسر ووبال.

ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك، فتولاك بحفظه ورعاك بعنايته وحجزك عن نفسك وحال بينك وبين تدبيرك وحدسك. ومن دعائه عليه السلام: «إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وهورة وذنوب وخطيئة وإني لا أثق إلا برحمتك»⁽¹⁾.

والحاصل: أنك إن كنت بربك تَكْمُلَ عَزْكَ ولا يتناهى مدحك، وإن كنت بنفسك تكامل ذلك ولا يتناهى ذمك. كما قال الشاعر⁽²⁾:

إذا كنا به تهنأ دلالا على كل الحرائر والمبيد

وإن كنا بنا عدنا إلينا فعتطل ذلنا ذل اليهود

أو تقول: من أهمله الله وتركه مع نفسه وهواه لا نهاية لمذامه وقبائحها، فإن للنفس من النقائص ما لله من الكمالات، ومن تولاه الله وأظهر جوده عليه ولم يتركه مع نفسه، وأزعجه عن حظه، وحال بينه وبين هواه، فلا نهاية لمدائحها، إذ كمالات الله لا نهاية لها، وما هنا إلا مظاهره، فكما لا نهاية لجلاله، كذلك لا نهاية لجماله، والله تعالى أعلم.

هذا آخر الباب الثاني عشر، وحاصله: تعظيم الأوراد، والتأهب لورود الإمداد، وتصفية البواطن من الأكدار، لتشرق عليها شمس الأنوار، وهي شمس العرفان، فيفنى العارف عن التدبير والاختيار، فكل يوم ينظر ما يفعل الواحد القهار، فيأنس حينئذ بكل شيء ويتأدب مع كل شيء، ويعظم كل شيء ولا يستوحش من شيء لمعرفته تعالى في كل شيء، فيستأنس في هذه الدار بالنظر إلى الله في حجاب صفاته، وهي مظاهر مكوّناته، وسيكشف له في تلك الدار عن كمال ذاته من غير حجاب صفاته، وذلك أنه لما علم أنه لا يصبر عنه أشهده ما برز منه.

ولما علم أن من عباده من لا يقدر أن يشهده في مكوّناته أشغله بخدمته، وعلم أيضاً أنه إن دام على عمل واحد ربما حصل له الملل، لَوْن له الطاعة والعمل، وعلم ما

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير، ضمرة بن زيد بن ثابت، حديث رقم (4932) [5\157] والبيهقي في شعب الإيمان، الفصل الثاني في ذكر آثار وأخبار...، حديث رقم (753) [1\474] ورواه غيرهما.

(2) لم أقف على اسم هذا الشاعر.

في عبده من الشره، فحجرها عليه في بعض الأوقات، ليكون همّه إقامة الصلاة لا وجود الصلاة، ثم ذكر ثمراتها ونتائجها، ونهاك عن طلب العوض عليها، لكونك لست عاملاً لها، وإنما هو فضل من الله عليك، خلق فيك القوّة ونسبها إليك، فإن رددك إلى نفسك وتركك مع هواك لا تتناهى مدامك، وإن أخذك عن نفسك وتولأك بجوده وفضله لا تفرغ مدائحك حيث صرت ولياً من أوليائه وصفيّاً من أصفياؤه، جعلنا الله منهم بمته وكرمه آمين.

هذا آخر النصف الأول والله المستعان على التمام

بجاه نبيّه المصطفى بدر التمام ﷺ وعلى آله الكرام،

وهذا أول النصف الثاني،

فنقول وبالله نستعين

إِعْلَانُ الْعَمَلِ

عَلَى

إِتْقَانٍ أَمِينٍ

فِي شَرِكَةِ الْحَاكِمِ

لِلْعَارِفِ بِاللَّهِ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدَ بْنَ عَجِيْبَةَ الْحَسَنِيَّ
المتوفى نحو سنة ١٢٦٦ هـ

قَدْبَهُ وَنَقْمَهُ وَصَمَمَهُ وَنَسَقَهُ وَعَلَوْهُ عَلَيْهِ
السَّيِّئُ الدُّكْتُورُ عَاصِمُ بْنُ إِسْحَاقَ الْكِبَالِيَّ
الْحُسَيْنِيُّ الشَّاذِلِيُّ التُّرُقَاوِيُّ

الجزء الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[الباب الثالث عشر]

[التعلق بأوصاف الربوبية والتخلق بأوصاف العبودية]

قال المؤلف نفعنا الله به وبعلومه آمين: فإذا أردت أن يظهر جوده عليك، وتبسط مواهبه لديك، فتحقق بوصفك وتعلق بوصفه، كما أبان ذلك بقوله رضي الله عنه:

122 - (كُنْ بِأَوْصَافِ رَبِّهِ مُتَعَلِّقًا، وَبِأَوْصَافِ عِبَادِيَّتِكَ مُتَحَقِّقًا)

قلت: أوصاف الربوبية هي العز والكبرياء والعظمة والغنى والقدرة والعلم، وغير ذلك من أوصاف الكمالات التي لا نهاية لها. وأوصاف العبودية هي الذل والفقير والعجز والضعف والجهل، وغير ذلك مما يناسب العبودية من النقائص.

وكيفية التعلق بأوصاف الحق، هو أن تلتجئ في أمورك إليه، وتعتمد في حوائجك عليه، وترفض كل ما سواه، ولا ترى في الوجود إلا إياه، فإذا نظرت إلى عزه وكبريائه وعظمته تعززت به، ولم تتعزز بغيره، وصغر في عينك دونه كل شيء، وإذا نظرت إلى وصفه تعالى بالغنى تعلقت بغناه، واستغنيت عما سواه، ولم تفتقر إلى شيء، واستغنيت به عن كل شيء، وإذا نظرت إلى وصفه تعالى بالقدرة والقوة لم تلتجئ في حال عجزك وضعفك إلا إلى قدرته وقوته واستضعفت كل شيء، وإذا نظرت إلى سعة علمه وإحاطته اكتفيت بعلمه واستغنيت عن طلبه، وقلت بلسان الحال: علمه بحالي يغني عن سؤالي. وهكذا في جميع الأوصاف والأسماء، فكلها تصلح للتعلق والتخلق والتحقيق.

وكيفية التخلق بأوصافه تعالى أن تكون في باطنك عزيزاً قوياً به، عظيماً كبيراً عنده، قوياً في دينه وفي معرفته، عالماً به وبأحكامه، وهكذا.

وحاصلها: استعمال الحرية في الباطن والعبودية في الظاهر.

وكيفية التحقق بأسماء الله تعالى: أن تكون تلك المعاني فيك راسخة متمكنة، متحققاً فيك وجودها، فالتخلق مجاهدة والتحقق مشاهدة، أي يكون وجودها عزيزياً.

وكيفية التخلق بأوصاف العبودية: هو التحقق بالذل في الظاهر حتى يصير الذل

عندك حرفة وطبيعة، لا تأنف منه بل تستحليه وتغبط به، وكذلك الفقر والضعف والجهل وسائر أوصاف العبودية، تتحقق بوجودها في ظاهرك حتى يكون ذلك شرفاً عندك .
وقال الشيخ زروق رضي الله عنه : أوصاف الربوبية أربعة تقابلها أربعة هي أوصاف العبودية .

أولها : الفنى ويقابله الفقر . الثاني : العز ويقابله الذل . الثالث : القدرة ويقابلها العجز . الرابع : القوة ويقابلها الضعف .

وكل هذه متلازمة إن وجد واحدها وجد جميعها، فمن استغنى بالله افتقر إليه، ومن افتقر إلى الله استغنى به، ومن تعزز بالله ذل له، ومن ذل له تعزز به، ومن شاهد قدرته رأى عجز نفسه، ومن رأى عجز نفسه شاهد قدرة مولاه، ومن نظر ضعف نفسه رأى قوة مولاه، ومن رأى قوته علم ضعف نفسه، لكن إن كان البساط النظر لأوصافك فأنت الفقير إلى الله، وإن كان البساط النظر إلى أوصافه فأنت الغني بالله .

وهما يتعاقبان على العارف، فتارة يغلب عليه الغنى بالله فتظهر عليه آثار العناية، وتارة يظهر عليه آثار الفقر إلى الله فيلتزم الرعاية، فحين غلب الغنى بالله على حبيب الله أطعم ألفاً من صاع، وحين غلب عليه الفقر إلى الله شدّ الحجر على بطنه من الجوع فافهم انتهى .

قلت : والتحقيق ما قدمناه من أن التعلق بأوصاف الربوبية يكون في الباطن، والتحقق بأوصاف العبودية يكون في الظاهر . فالحرية في الباطن على الدوام، والعبودية في الظاهر على الدوام . فحرية الباطن هي شهود أوصاف الربوبية، وهو معنى التعلق بها، لكن إن كان مجاهدة فهو تعلق، وإن كان طبيعة وغريزة فهو تحقق . أو تقول : إن كان حالاً فهو تعلق، وإن كان مقاماً فهو تحقق، وعبودية الظاهر هي شهود أوصاف العبودية قياماً بالحكمة وسترأً للقدرة .

والحاصل : أن عظمة الربوبية ظهرت في مظاهر العبودية، فمن نظر للعظمة صرفاً تحقق بعظمة الربوبية، ومن نظر لظاهر المظهر تحقق بأوصاف العبودية، والكامل ينظر لهما معاً، فيتحقق بعظمة الربوبية في الباطن، ويتحقق بأوصاف العبودية في الظاهر، فيعطي كل ذي حق حقه . فالجمع في باطنه مشهود، والفرق في ظاهره موجود، والله تعالى أعلم .

[منع ادعاء وصف الربوبية رغم الخصوصية]

فإن أظهر أوصاف الربوبية، فقد تعدى طوره وجهل قدره، فلا بد أن تؤدبه القدرة، وإلى ذلك أشار بقوله :

123 - (مَنَّكَ أَنْ تَدَّهِيَ مَا لَيْسَ لَكَ مِمَّا لِلْمَخْلُوقِينَ، أَفَبِيحُ لَكَ أَنْ تَدَّهِيَ وَضْفَهُ وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟)

قلت: الحق تعالى غيور، فلا يحب لعبده أن يفشي سر خصوصيته، ولا يرضى لعبده أن يشاركه في أوصاف ربوبيته، فمن غيرته تعالى أن ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية، ولولا ذلك لكان سر الربوبية مبتدلاً ظاهراً وذلك مناقض لحكمته، وكيف وهو يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية 83] ومن غيرته تعالى أن يختص بأوصاف الربوبية، ونهانا عن إظهارها والتحلّي بها حالاً أو مقالاً، وذلك كاتصاف العبد بالعزّ والعظمة والكبر وطلب الرياسة والعلو أو ادعاء ذلك بالمقال، فإن فعل شيئاً من ذلك استحق من الله الطرد والنكال. ففي الحديث القدسي عن رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قصمته»⁽¹⁾، وقال أيضاً ﷺ: «لا أحد أغير من الله فلذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»⁽²⁾.

وفي البخاري في قصة سيدنا موسى عليه السلام، أنه خطب على الناس خطبة ذرفت منها العيون، فقام إليه رجل فقال له: هل تعلم أحداً أعلم منك، فقال: لا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه [تعالى]، فقال له: بلى عبدنا خضر هو أعلم منك. فكان من شأنهما ما قصّ الله في كتابه. فانظر كيف أدبه بطلب غيره حتى صار تلميذاً له يأمره وينهاه بقوة وصوله من عظم قدره وجلالة منصبه، وما ذلك إلا لإظهار شيء من الحرية، فكل من أظهر الحرية رده إلى العبودية بالقهرية، وكل من أظهر العبودية حقّق له في باطنه الحرية وملّكه الكون بالكلية، فمن تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره.

ومن غيرته تعالى أيضاً أن حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والفواحش: كل ما فحش قبحه وعظم جرمه؛ كالزنا والغصب والسرقة والتعدي وأكل أموال اليتامى وغير ذلك من حقوق العباد، فإذا كان منعك أن تدّعي ما ليس لك مما هو للمخلوقين من العرض الفاني، فكيف يبيح لك أن تدّعي وصفه من العزة والكبرياء وهو ربّ العالمين، فإذا ادعيت ما ليس لك سلبك ما ملّكتك، وإذا تحققت بوصفك وسلّمت له وصفه منحك ما لم يكن عندك، وأتاك ما لم يؤت أحداً من العالمين.

(1) رواه الحاكم في المستدرک، کتاب الإیمان، حدیث رقم (203) [129/1] بلفظ: «الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصمته». ورواه غيره. وأما اللفظ الوارد في النص فقد رواه ابن حبان وغيره باختلاف يسير في آخره، وفيه: «في واحدة منهما قذفته في النار» بدل «واحداً منهما قصمته». صحيح ابن حبان، ذكر الإخبار بأن من تقرب إلى الله قدر شبر... حدیث رقم (328) [35/2].

(2) روى نحوه البخاري في صحيحه، باب قول النبي ﷺ: «لا شخص...» حدیث رقم (6980) [6/2698]، وابن أبي عاصم في السنة، باب (110) حدیث رقم (522) [1/230] ونص رواية ابن أبي عاصم هو: عن المغيرة بن شعبة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا شخص أغير من الله تعالى، ولا شخص أحب إليه العذر من الله عز وجل ومن أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين، ولا شخص أحب إليه المدح من الله تعالى ومن أجل ذلك وعد الجنة».

تثبيته : اعلم رحمك الله ووفقك للتسليم لأوليائه أن الحرية إذا تحققت في الباطن لا بد من رشحات تظهر على الظاهر، قال الشاعر⁽¹⁾ :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
ولذلك تجد أهل الباطن رضي الله عنهم جلهم أقوياء في الظاهر، فربما تصدر منهم مقالات تستخرجها القدرة منهم، فيظن الجاهل بحالهم أن ذلك دعوى وظهور وليس كذلك، وإنما ذلك رشحات من قوة الباطن لا قدرة لهم على إمساكها، منها ما يكون تحدثاً بالنعم، ومنها ما يكون نصحاً للعباد ليعرفوا حالهم، فينتفعون بهم في طريق الإرشاد، ومن هذا الأمر رفضهم كثير من أهل الظاهر المتعمقون في العبادة أو المتجمدون على ظاهر الشريعة، أو من لم تطل صحبته معهم في الطريقة وإن كان كاملاً .

ومن ذلك ما وقع للشيخ زروق رضي الله عنه مع أبي المواهب التونسي رضي الله عنه حين ظهرت عليه آثار القوة الباطنية حتى قال فيه الشيخ زروق : دعواه أكبر من قديمه . وليس كذلك فإن الشيخ أبا المواهب عظيم الشأن، راسخ القدم في العرفان، أخذ عن أبي عثمان المغربي وكان يقول : لبست خرقة التصوف من رسول الله ﷺ . وله شرح حسن على الحكم⁽²⁾ ، وله كلام رائع نظماً ونثراً، ومن نظمه رضي الله عنه :

مَنْ فَاتَهُ مِنْكَ وَصَلَ حَقُّهُ النَّدْمُ وَمَنْ تَكُنْ هَمُّهُ تَسْمُو بِهِ الْهَمُّ
وَنَاطَرَ فِي سَوَى مَعْنَاكَ حَقُّ لَه يَقْتَضِ مِنْ جَفْنِهِ بِالذَّمِّعِ وَهَوَ دَمُّ
وَالسَّمْعُ إِنْ جَالَ فِيهِ مَنْ يُحَدِّثُهُ سَوَى حَدِيثِكَ أَمْسَى وَقَرَّةَ الصُّمِّمِ
فِي كُلِّ جَارِحَةٍ عَيْنٌ أَرَاكَ بِهَا مَنِّي وَفِي كُلِّ عَضْوٍ بِالشَّنَاءِ فَمُ
فَبِإِنْ تَكَلَّمْتُ لَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِكُمْ وَكُلُّ قَلْبِي مَشْفُوفٌ بِحَبِيبِكُمْ
أَخَذْتُمْ الرُّوحَ مِنِّي فِي مُلَاطِفَةٍ فَلَسْتُ أَعْرِفُ غَيْراً مُذْ عَرَفْتُكُمْ
نَسِيتُ كُلَّ طَرِيقٍ كُنْتُ أَعْرِفُهَا إِلَّا طَرِيقاً تُؤَدِينِي لِرَبِّعِكُمْ
فَمَا الْمَنَازِلُ لَوْلَا أَنْ تَحُلَّ بِهَا رَمَا الدِّيَارُ وَمَا الْأَطْلَالُ وَالخِيمِ
لَوْلَاكَ مَا شَاقَّنِي رِبْعٌ وَلَا طَلَلٌ وَلَا سَعَتْ بِي إِلَى نَحْوِ الْحَمَى قَدَمُ

[خرق العوائد]

وهذا الأمر الذي ذكرنا من القوة التي في العارفين لا يجهله إلا من لم يبلغ مقامهم، وحسب من لم يبلغ مقامهم التسليم . وسر هذه القوة التي ظهرت في العارفين هو من جهة الروح، وذلك أن الروح جاءت من عالم العز والقوة، فلما ركبت في هذا البدن حجبت وقهرت، فأرادت الرجوع إلى أصلها فطلبت بالعز الأصلي والقوة الأصلية فمنعت منه،

(1) هو زهير بن أبي سلمى، حكيم الشعراء في الجاهلية، اخته الخنساء، كانت قصائده تسمى الحوليات . توفي سنة 13 ق . هـ .

(2) مطبوع في الدار بتحقيقنا .

وأنت من كوة الذل والافتقار وخرقت عوائد نفسها، فانخرقت لها حينئذ الحجب فرجعت إلى أصلها، فلما رجعت إلى أصلها اتصفت بالقوة التي كانت لها، فأمرت أن تجعل ذلك في باطنها ففعلت، لكن ربما رشح شيء من ذلك على الظاهر غلبة.

ولذلك ذكر الشيخ خرق العوائد بأثر ذكر التحقق بالعبودية، فقال:

124 - (كَيْفَ تُخْرِقُ لَكَ الْعَوَائِدُ، وَأَنْتَ لَمْ تُخْرِقِ مِنْ نَفْسِكَ الْعَوَائِدُ؟)

قلت: العوائد: كل ما تعودته النفس وألفته واستمرت معه حتى صعب خروجها عنه، سواء كان ظلمانياً أو نورانياً كتتابع الفضائل وكثرة النوافل، وهي على قسمين: عوائد ظاهرة حسية، وعوائد باطنة معنوية.

فمثال العوائد الحسية: كثرة الأكل والشرب والنوم واللباس، وخلطة الناس والدخول في الأسباب، وكثرة الكلام والمخاصمة والعتاب والاستغراق في العبادة الحسية أو العلوم الرسمية، وغير ذلك.

ومثال العوائد المعنوية: حب الجاه والرياسة وطلب الخصوصية وحب الدنيا والمدح، وكالحسد والكبر والمعجب والرياء، والطمع في الخلق، وخوف الفقر وهم الرزق، والمظاظة والقسوة، وغير ذلك مما تقدم.

فمن خرق من نفسه عوائدها الحسية بالرياضات القهرية، خرفت له العوائد الحسية كالطيران في الهواء، والمشى على الماء، ونفوذ الدعوة وغير ذلك من الكرامات الحسية.

ومن خرق من نفسه عوائدها المعنوية خرفت له العوائد الباطنة؛ كرفع حجب الغفلة وتطهير القلوب، وكشف الحجاب وفتح الباب، وتحقيق العرفان والترقي إلى مقام الإحسان، وهذا هو المعبر عند الأكياس وهو المطلوب من سائر الناس.

تنبيه: وأما خرق العوائد الحسية فقد تكون لمن ليست لهم خصوصية كالسحرة وأرباب الشعوذة، نعم من جمع بينهما خرفت له فيهما. فكيف تطلب أيها المرید أن تخرق لك عوائد نفسك حتى تدخل حضرة قدسك وأنت لم تخرق عوائد نفسك، فما حجب النفس عن الشهود إلا ما تعودته من رؤية هذا الوجود، فلو غابت عن رؤية هذا الوجود لتحقق لها أمر الشهود ولا يمكن أن تغيب عنه إلا بخرق عوائد نفسها.

قال الشيخ أبو المواهب رضي الله عنه: من ادعى شهود الجمال قبل تأدبه بالجلال فإرضه فإنه دجال، ولا جلال أعظم على النفس من خرق عوائدها، كتبديل العز بالذل والغنى بالفقر والجاه بالخمول وغير ذلك.

وقال أبو حمزة البغدادي رضي الله عنه: علامة الصوفي الصادق أن يفتقر بعد الغنى، ويذل بعد العز، ويخفى بعد الشهرة. انتهى. فهذه الأخبار كلها تدل على أن

خرق عوائد النفس شرط في تحقق نيل الخصوصية، فمن ادعاها قبل أن يخرقها فهو كذاب، كما تقدم عن أبي المواهب.

فخرق العوائد إبدالها بضعدها كتبديل كثرة الأكل والنوم بالجوع والسهر، وكتبديل كثرة اللباس بالتقليل منه، أو ما خشن من الثياب كالمرقعات ونحوها، وكتبديل الخلطة بالعزلة، والأسباب بالزهد، والكلام بالصمت، وسوء الخلق بحسن الخلق، وكتبديل حب الجاه والرياسة بالذل والخمول وسقوط المنزلة عند الناس، وحب الدنيا بالزهد فيها والفرار منها، كاتصافه بالتخلية من الرذائل والتخلية بالفضائل.

فإذا تحقق المرید بهذه الأمور خرقت له العوائد على ما يريد، حتى يكون بسم الله عنده موافقة لكن من الله، فيكون أمره بأمر الله ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: الآية 20].

ولا بد في خرق العوائد الباطنية من شيخ كامل جامع بين حقيقة وشريعة يحملك بهيمته، فإذا رميت يدك في نفسك حملتك الهمة ونصرتك القدرة فقتلتها بالمرّة، وأما إذا لم يكن لك شيخ فكلما قتلتها رجعت أكبر مما كانت، ولا تموت النفس الحية إلا مع الأموات.

[وجوب مرافقة حسن الأدب للطلب]

وخرق العوائد الباطنية، التي هي رفع الحجب وشهود المحبوب، لا يكون بمجرد الطلب دون السعي في السبب مع تحقق الأدب كما نبّه عليه بقوله:

125 - (ليس الشأن وجود الطلب، إنما الشأن أن تُرزق حُسن الأدب)

قلت: قد تقدم في أول الكتاب أن الطلب كله مدخول عند المحققين أولي الألباب لما يقتضيه من وجود النفس والوقوف مع الحس، إذ العارف المحقق لم تبق له حاجة يطلبها، لأنه قد حصل له الغنى الأكبر وفاز من مولاه بالحظ الأوفر، وهو معرفة مولاه والغيبة عما سواه، ماذا فقد من وجدك؟ فليس الشأن وجود صورة الطلب وإنما الشأن أن تستغني به عن كل مطلب، وترزق معه حسن الأدب، والاكتفاء بعلم الله، والوقوف مع مراد الله.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: والأدب على ثلاثة أوجه:

آداب في الظاهر وذلك بإقامة الحقوق، وآداب في الباطن بالإعراض عن كل مخلوق. وآداب فيهما وذلك بالانحياش للحق والدوام بين يديه على بساط الصدق. وذلك هو جملة الأمر وتفصيله وتفريعه وتأصيله. انتهى.

[وجوب الطلب بلسان الحال]

فالطلب عند العارفين ليس هو بلسان المقال وإنما هو بلسان الحال، وهو

الاضطرار وظهور الذلة والافتقار كما نبه عليه بقوله :

126 - (مَا طَلَبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الْإِضْطِرَارِ ، وَلَا أَسْرَعَ بِالْمَوَاهِبِ إِلَيْكَ مِثْلُ الذَّلَّةِ وَالْإِفْتِقَارِ)

قلت : إنما كان طلب العارفين بلسان الحال دون المقال لما حققهم به من وجود معرفته حتى شهدوا منته في محنته ونعمته في نعمته ، فإذا تجلّى لهم بالقوة والجلال تلقوه بالضعف والإذلال ، فحينئذ يتجلّى لهم باسمه الجميل فيمنحهم كل جميل ، وإذا تجلّى لهم باسمه العزيز أو القهار تلقوه بالذلة والافتقار ، فتتوارد عليهم المواهب الغزار . فإذا أردت أيها العارف أن تطلب من مولاك شيئاً جلياً أو دفعاً فعليك بالاضطرار .

والاضطرار : هو أن يكون كالغريق في البحر أو الضال في التيه القفر ، ولا يرى لغيائه إلا مولاة ، ولا يرجو لنجاته من هلكته أحداً سواه ، فما طلب لك من مولاك شيء مثل اضطرارك إليه والوقوف بين يديه متحلياً بحلية العبيد ، هنالك تنال كل ما تريد ، كما قال الشاعر⁽¹⁾ :

أدب العبيد تذلل والمعبود لا يدع الأدب
فإذا تكامل ذله نال الممودة واقسرب

وإذا أردت ورود المواهب عليك ، وهي العلوم الدنية والأسرار الربانية ، فلا شيء أسرع لك بها مثل الذلة والافتقار بين يدي الحلیم الغفار ، يكون ذلك قلباً وقالباً ، فينبغي لك حينئذ أن تستعد لكتب المواهب ونيل المراتب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَلْصَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ [التوبة : الآية 60] ، وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْثِفُ السُّوءَ وَيَجْمَعُ لَكُمْ خُلُقَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَدَّكُرُونَ ﴾ [النمل : الآية 62] ، وقال أيضاً : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : الآية 123] ، وقال ﷺ : « إن النصر مع الصبر وإن الفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسراً »⁽²⁾ . وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنه : ما أظهر عبد فاقة إلى الله في شيء إلا قال الله تعالى للملائكة : «الولا أنه لا يحتمل كلامي لأجبهه لبيك لبيك» . انتهى .

[الوصول إلى الله بما منه إليه]

فإذا طلبت الدخول مع الأحباب ، فقف ذليلاً حقيراً بالباب ، حتى يرفع بينك وبينهم الحجاب من دون حيلة منك ولا أسباب ، وإنما هو فضل من الكريم الوهاب ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

127 - (لَوْ أَنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ فَنَاءٍ مَسَاوِيكَ ، وَمَخَوْ دَعَاوِيكَ ، لَمْ تَصِلْ

(1) لم أقف على اسم هذا الشاعر .

(2) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء من كلام سهل بن عبد الله التستري [202 / 10] .

إِلَيْهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَصِّلَكَ إِلَيْهِ سَتَرَ وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ، وَغَطَى نَعْتَكَ بِنَعْتِهِ،
فَوَصَّلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ، لَا بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ)

قلت: الوصول إلى الله هو العلم به وبإحاطته بحيث يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل، وهذا لا يكون إلا بعد موت النفوس، وحط الرؤوس، وبذل الأرواح وبيع الأشباح لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: الآية 111] أي جنة المعارف لأهل الجهاد الأكبر، وجنة الزخارف لأهل الجهاد الأصغر، ولقوله عليه السلام: «موتوا قبل أن تموتوا»⁽¹⁾. وقال في لطائف المنن: لا يدخل على الله إلا من بايين أحدهما الموت الأكبر وهو الموت الحسي، والثاني الموت الذي تعنيه هذه الطائفة، يعني موت النفوس. وقال الششتري رضي الله عنه:

إِنْ تُرِدْ وَصَلْنَا فَمَوْتُكَ شَرْطٌ لَنْ يَنَالَ الْوَصَالَ مَنْ فِيهِ قَضَلُهُ
وَقَالَ أَيْضًا:

لَيْسَ يُدْرِكُ وَصَالِي كُلُّ مَنْ فِيهِ بَقِيَّةٌ

وقال الشيخ أبو الحسن [الشاذلي] رضي الله عنه: لا يصل الولي إلى الله تعالى ومعه شهوة من شهواته، أو تدبير من تدبيراته، واختيار من اختياراته. انتهى.

وهذه التصفية ليست هي من فعل العبد وكسبه، وإنما هي بسابق عناية ربه، فلو كان العبد لا يصل إلى الله تعالى إلا بعد فناء مساويه ومحو دعاويه من حيث هو هو لم يصل أبدًا، لكن الحق تعالى من كرمه وجوده إذا أراد أن يطوي عنه مسافة البعد أظهر له من أنوار قدسه ونعوت وصفه ما يغيب به العبد عن شهود نفسه، فحينئذ تفنى المساوي وتمتحن الدعاوي، فيحصل الوصول ويبلغ المأمول بما من الله إلى العبد من سابق العناية والوداد، لا بما من العبد إلى الله من الكد والاجتهاد.

وإن شئت قلت: فناء المساوي: هو التطهير من أوصاف البشرية، وهي الأخلاق المذمومة من حيث هي، ومحو الدعاوي: وهو التبري من الحول والقوة بحيث لا يرى لنفسه فعلاً ولا تركاً ولا نقصاً ولا كمالاً، وإنما هي غرض لسهام الأقدار تجري عليها أحكام الواحد القهار. فتحقيق هذين الأمرين على الكمال مع وجود النفس كاد أن يكون من المحال، لكن الحق تعالى لكرمه وجوده إذا رأى منك صدق الطلب وأراد أن يوصلك إليه، وصلك إلى ولي من أوليائه، وأطلعك على خصوصيته واصطفائه، فلزمت

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2669) [2/384] والهروي في المصنوع [1/371] وأورده غيرهما.

الأدب معه، فما زال يسير بك حتى قال لك : ها أنت وربك، فحينئذ يستر الحق تعالى وصفك الذي هو وصف العبودية بوصفه الذي هو وصف الحرية، فتتحسن أوصاف البشرية بظهور أوصاف الروحانية، ويغطي أيضاً نعتك الذي هو الحدوث بنعته الذي هو القدم، أو غطي نعتك الذي هو العدم بنعته الذي هو الوجود.

وللقطب أبي مدين التلمساني رضي الله عنه :

فانتبهت للخطاب	وسمعتُ منِّي
كُلِّي عن كلي غاب	وأنا عنِّي مُسْفِنِي
وارتسفع لي الحجاب	وشهِدْتُ أنِّي
مسا بسقي لسي أثر	غُبت عن أثري
لم أجد مَنْ حضر	في الحقيقة غسيري

وبالله التوفيق.

[خلاصة ما ورد في الباب الثالث عشر]

هذا آخر الباب الثالث عشر، وحاصله: أمرك بالتعلق بأوصاف الربوبية، والتحقق بأوصاف العبودية، وعدم مشاركتك له في وصف الحرية، وما تعودت به من ذلك فاخرق لها تلك العوائد هنالك حتى تتهذب وتتأدب وتكتفي بعلم الحال عن وجود الطلب، فيكون طلبها شاهد حالها من الذلة والانكسار وظهور الفاقة والاضطرار، فحينئذ تترادف عليها المواهب، وتنال بذلك غاية المطالب ومنتهى الرغائب، وهو الوصول إلى حضرة القدس ومحل الأنس من غير حيلة ولا اكتساب، وإنما هو منة من الكريم الوهاب، من عليها بالوصول، وتفضل عليها بالقبول، كما أشار إلى ذلك في أول الباب الرابع عشر فقال:

[الباب الرابع عشر]

[ستره تعالى جعل الأعمال أهلاً للقبول]

وقال رضي الله عنه :

128 - (لَوْلَا جَمِيلُ سِتْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ أَهْلًا لِلْقَبُولِ)

قلت : لأن العمل الذي يكون أهلاً للقبول هو الذي تتوفر فيه شروط القبول ، وهو سر الإخلاص وغاية الحضور والتبري فيه من الحول والقوة ، وهذا في غاية الندور ، فلولا أن الله سبحانه تفضل علينا بجميل ستره ، فغطى مساوينا بجلال لطفه وبره ما كان عمل أهلاً للقبول أصلاً ، ولكن الذي من بوجود الأعمال يمن بوجود القبول والإقبال . قال بعضهم : ما هناك إلا فضله ولا نعيش إلا في ستره ، ولو كشف الغطاء لكشف عن أمر عظيم .

قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف : الآية 16] فعبّر بعن التي تدل على التجاوز . ولم يقل نتقبل منهم فكأنه قال : أولئك الذين نتجاوز عنهم في أعمالهم فنتقبلها منهم ، والله تعالى أعلم .

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : «البلاء والهوى والشهوة معجونة بطين آدم»⁽¹⁾ انتهى . قيل : وهو معنى قوله تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان : الآية 2] أي أخلاط فاختلط به البلاء والهوى والشهوة فركب ابن آدم منها ، فلزمته الثلاثة ما دامت بنيته قائمة وبشريته موجودة ، فإذا انهدمت البشرية حسناً أو معنى لم يبق حكم النطفة الأمشاجية ، وصار الحكم للروح النورانية ، والله تعالى أعلم .

[الافتقار إلى حلمه تعالى في الطاعات]

فإذا تقرر أن عمَلنا مدخول وليس أهلاً للقبول لولا جميل ستره المأمول ، علمت أن افتقارنا إلى علمه وعفوه في حال الطاعة أعظم من افتقارنا إليه في حال المعصية كما أبان ذلك بقوله :

129 - (أَنْتَ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا أَطَعْتَهُ، أَخْوَجُ مِنْكَ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا عَصَيْتَهُ)

قلت : وذلك لأن الطاعة بساط العز والرفعة ، وللنفس فيها شهوة وامتعة ، ولأن الناس يلحظون صاحب الطاعة الظاهرة ، وينظرونه بعين التعظيم ، ويبادرون إليه بالخدمة

(1) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ، حديث رقم (7018) [4/351] .

والتكريم، وكل ما عظم في عين الخلق سقط من عين الحق، إن كان يفرح بذلك ويقنع به دون الملك الحق.

بخلاف المعصية، فإنما هي بساط الذل والانكسار ومحل السقوط والاحتقار، وكل ما سقط من عين الخلق عظم في عين الحق، فكان العبد في حال طاعته لربه أحوج إلى حلمه وعفوه منه في حال معصيته، لأن الطاعة التي ينشأ عنها العز والاستكبار أبعث من المعصية التي تورث الذل والافتقار، بل في الحقيقة ليست بطاعة لأن الطاعة التي توجب البعد ليست بطاعة، والمعصية التي توجب القرب ليست بمعصية، وفي الحديث: «يقول الله تبارك وتعالى: أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»⁽¹⁾، ومن كان الله عنده فهو أعظم من ألف مطيع توجب له طاعته طرده وبعده.

وقال الشيخ أبو يزيد رضي الله عنه: توبة المعصية واحدة وتوبة الطاعة ألف توبة. وكان ﷺ إذا صلى استغفر ثلاثاً تعليماً للأمة في شهود التقصير، وإلا فلا استغفار من طاعة ولا ذنب⁽²⁾ على المختار ﷺ.

[الستر عن المعصية والستر في المعصية]

ولما كانت المعصية بساط الذل والاحتقار، كما تقدم، وهي أقرب لمقام العبودية، والطاعة بساط العز والرفعة فافتقرت إلى حلم الله أكثر، صار الناس يطلبون الستر في المعصية أو عنها خوفاً مما ينشأ عنها كما أبان ذلك بقوله:

130 - (الْستْرُ عَلَى قِسْمَيْنِ: سِتْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَسِتْرٌ فِيهَا. فَالْعَامَّةُ يَطْلُبُونَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى السِتْرَ فِيهَا خَشْيَةً سُقُوطِ مَرْتَبَتِهِمْ هِنْدَ الْخَلْقِ، وَالْخَاصَّةُ يَطْلُبُونَ مِنَ اللَّهِ السِتْرَ عَنْهَا خَشْيَةً سُقُوطِهِمْ مِنْ نَظَرِ الْمَلِكِ الْحَقِّ)

قلت: الستر هو الحفظ والتغطية، وهو في الحسن من الآفات والبليات التي توجب هلاكه، وفي المعنى من الفضيحة والمقت وسقوط المرتبة.

وهو باعتبار المعصية على قسمين: قسم يقع الستر فيها فلا يفضح صاحبها، وقسم يقع الستر عنها فلا يقع العبد فيها ولو طلبها، إما شمله من حفظ الله ورعايته.

فالعامّة يطلبون الستر من الله فيها مع وقوعها لتلا يسقطوا من عين الخلق، فهم يستخفون من الناس، ولا يستخفون من الله وهو معهم، وذلك لضعف إيمانهم وقلة يقينهم وانطماس بصيرتهم.

(1) أورده المجلدوني في كشف الخفاء، حديث رقم (614) [234/1] والمناوي في فيض القدير، حرف الهمزة [519/1]. وعلي القاري في الأسرار المرفوعة برقم (70) [117/1]. وأورده غيرهم.

(2) ولا ذنب: أي ولا ذنب من طاعة إلا إن تلبس صاحبها بالثياب.

وفي بعض الأخبار: يقول الله تبارك وتعالى: «يا عبادي إن كنتم تعتقدون أنني لا أراكم فالخلل في إيمانكم، وإن كنتم تعتقدون أنني أراكم، فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم»⁽¹⁾ اهـ.

وأما الخاصة فهم يطلبون من الله الستر عنها والعصمة منها، خشية أن يسقطوا من عين الحق، فإذا وقعت منهم معصية بادروا إلى الاعتذار، وصحبهم الخجل والانكسار، ثم جدوا في سيرهم، ولم يقفوا مع نفوسهم، إذ لا وجود لها في نظرهم، ولا التفات لهم إلى الخلق، إذ لم يبق في نظرهم إلا الملك الحق.

وأما خاصة الخاصة فلا يطلبون شيئاً ولا يخافون من شيء، صارت الأشياء عندهم شيئاً واحداً، واستغنوا بشهود واحد عن كل واحد، فهم ينظرون ما يبرز من عنصر القدرة فيتلقونه بالقبول والرضى، فإن كان طاعة شهدوا فيها المنّة، وإن كان معصية شهدوا فيها القهرية، وتأدبوا مع الله فيها بالتوبة والانكسار قياماً بأدب شريعة النبي المختار ﷺ.

[الحمد لمن ستر عنك المساوىء الموجبة للأذية والنقم]

ثم إذا ستر الحق تعالى مساويك وذنوبك، ثم توجه الناس إليك بالتعظيم والمجد والتكريم، فاعرف منّة الله عليك، وانظر من الممدوح في الحقيقة هل أنت أو من ستر مساويك؟ كما أبان ذلك بقوله:

131 - (مَنْ أَكْرَمَكَ فَإِنَّمَا أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سِتْرِهِ، فَالْحَمْدُ لِمَنْ سَتَرَكَ، لَيْسَ الْحَمْدُ لِمَنْ أَكْرَمَكَ وَشَكَرَكَ)

قلت: إذا كان الحق تعالى تولّى حفظك برعايته، وستر مساويك بستر عنايته، فغطى وصفك بوصفه ونعته بنعته، ثم توجه الناس إليك بالتعظيم والتمجيد والتكريم، فاعرف منّة الله عليك، وانعزل عن شهود نفسك، فمن أكرمك، فإنما أكرم فيك جميل ستره ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: الآية 83]، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: الآية 21].

فالحمد في الحقيقة إنما هو لمن ستر لا لمن أكرمك، إذ لو أظهر للناس ذرة من مساويك لمقتوك وأبغضوك، فاشكر الله على ما أسدى إليك من الكرم، وغطى عليك من المساوىء التي توجب أنواع الأذية والنقم.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: الخلق كلهم إنما يتعاملون بينهم بستر مولاهم،

(1) أورده أبو الفرج عبد الرحمان البغدادي في جامع العلوم والحكم [162/1]. وعلي القاري في مرقاة المفاتيح، الفصل الثاني [5/177].

ولو خَلاَ عَبْدٌ مِنْ سِتْرِهِ لَأَبْغَضَهُ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ . وَلِلَّهِ فِي الْقَائِلِ (*) :

يظنون بي خيراً وما بي من خير ولكنني عبد ظلوم كما تدري
سترت عيوبي كلها عن عيونهم والبسني ثوباً جميلاً من الستر
فصاروا يُحبونني وما أنا بالذي يُحبُّ ولكن شبهوني بالغير
فلا تفضحني في القيامة بينهم وكن لي يا مولاي في موقف الحشر

ولما بلغت الإذابة كل مبلغ من حبيب الله ﷺ ما زاد علي أن قال : « لا غنى لي
عن عافيتك ، عافيتك أوسع لي »⁽¹⁾ الحديث . انتهى .

[صحبة الحق لك رغم عيوبك]

وإذا تحققت أن الذي أكرمك هو الذي ستر عيوبك وغطى مساويك بعد اطلاعه
على خفاياها وعلمه بخباياها ، فاتخذه صاحباً وكن له مراقباً ودع الناس جانباً ، كما نبه
عليه بقوله :

132 - (ما صحبك إلا من صحبك وهو بعيبك عليم ، وليس ذلك إلا مولاك
الكريم)

قلت : وإذا علمت أنه ليس لك صاحب إلا مولاك ، فاعرف حقيقة صحبته والزم
الأدب في ظاهره وباطنه ، واستحي منه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك .
وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال لأصحابه : « استحبوا من الله حق الحياء ، قالوا : إنا
نستحيي والحمد لله ، قال : ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ
الرأس وما وهى والبطن وما حوى ، وتذكر القبر والبلى ، فمن فعل ذلك فقد استحيى من
الله حق الحياء »⁽²⁾ اهـ .

فالصاحب الذي يدوم لك هو الذي يصحبك وهو عالم بعيبك ، لأن ذلك داع
للسلامة من التكلف والرياء والتصنع ، وليس ذلك إلا مولاك العالم بخفاياك المطلع

(*) لم أقف على اسم هذا القائل .

(1) رواه الطبراني في الدعاء ، باب الدعاء عند الكرب والشدة ، حديث رقم (1036) [1/315] والبيهقي في مجمع الزوائد ، باب خروج النبي ﷺ إلى الطائف [6/35] ولغظه : عن عبد الله بن جعفر قال : لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ إلى الطائف ماشياً على قدميه ، فدعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه فانصرف فأتى ظل شجرة فصلى ركعتين ثم قال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين إلى من تكلمني إلى عذر يتجهمني أو إلى قريب ملكته أمري إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك لك العفي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

(2) رواه الحاكم في المستدرک ، كتاب الرقاق ، حديث رقم (7915) [4/359] والترمذي في سننه ، باب 24 ، حديث رقم (2458) [4/637] .

على سرك وعلانيتك، إن عصيته سترك، وإن اعتذرت إليه قبل عذرك.
وقد قيل من الحكمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْكَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: الآية 111] مع أن الكل ملكه ثلاثة أشياء، أحدها: البشارة بعدم الرد بالعيب لأن المشتري عالم به. الثاني: ليسلم العبد نفسه إليه فيتولى تدبيره إذ لا يتم بيع إلا بالتسليم. الثالث: إظهاراً لتمام الفضل في ظهور النسبة لله سبحانه وذكر الصحبة في جانب الحق، في الحديث: «أنت الصاحب في السفر»⁽¹⁾.
واعلم أن الأمر الذي يرغب في الصحبة ويعقد المحبة والمودة أمران، أحدهما: ما تقدم من كون الصاحب يغطي شينك بحلمه ويستر وصفك بوصفه. والثاني: كونه يحبك ويطلبك إلى حضرته من غير غرض ولا منفعة له في صحبتك.
والى الثاني أشار بقوله:

[الصحبة الحقيقية المنزهة عن الأغراض والأعراض]

132 - [و] خَيْرٌ مَنْ تَصَحَّبُ مَنْ يَطْلُبُكَ لَكَ لَا لِشَيْءٍ يَعُودُ مِنْكَ إِلَيْهِ

قلت: ولا يوجد هذا الوصف المجيد إلا للغني الحميد الفعال لما يريد، يحب من يشاء بلا علة ولا سبب، ويمقت من يشاء بلا ضرر يلحقه ولا تعب، يقرب من يشاء بلا عمل، ويبعد من يشاء بلا زلل، ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: 112]، ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: 31]. وكلامنا إنما هو مع أهل التحقيق.

وأما باعتبار الحكمة وأهل التشريع فلا يظلم ربك أحداً، ولكن فاعل السبب هو فاعل المسبب، من وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه. وللجيلي رحمه الله:

إذا كنت في حكم الشريعة عاصياً فإني في حكم الحقيقة طائع
فخير من تصحبه، أيها الإنسان، مولاك الذي يطلبك لحضرته، ويجتبيك لمحبه
من غير نفع يعود منك إليه، وإنما هو برور وإحسان منه إليك، فكيف تتركه وتطلب
الأنس بغيره، وضرره أقرب من نفعه.

قال بعضهم: جرب الناس تجدهم عقارب، فإذا طلبت الصحبة فاصحب العارفين
الذين ينهضك حالهم ويدلك على الله مقالهم. والله در صاحب العينية الشيخ عبد الكريم
الجيلي حيث يقول في عينيته:

فَسَمُرٌ وَلَذُّ بِالْأَوْلِيَاءِ فَإِنَّهُمْ لَهَمٌ مِنْ كِتَابِ الْحَقِّ تِلْكَ الْوَقَائِعُ
هُمْ الدُّخْرُ لِلْمَلْهُوفِ وَالْكَنْزُ وَالرَّجَاءُ وَمِنْهُمْ يَنْالُ الصَّبَّ مَا هُوَ طَامِعٌ

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب ما يقول إذا ركب إلى السفر...، حديث رقم (1342) [2/978] ورواه أبو داود في سننه، باب ما يقول الرجل إذا سافر، حديث رقم (2599) [3/33] ورواه غيرهما.

بهم يهتدي للعين من ضل في العمى بهم يُجذبُ العشاقُ والرَبْعُ شاسعُ
همُ القصدُ والمطلوبُ والسؤلُ والمُنَى واسمُهُم للصببِ في الحُبِّ شافعُ
همُ الناسُ فالزَمَ إن عَرَفْتَ جنابَهُم ففيهم لضرَّ العالمين منافعُ

وقال في التحذير من صحبة غيرهم من الغافلين والعوام:

وقاطع لمن واصلت أيام غفلة فما واصل العُدَّالُ إلا مقاطعُ
وجانب جناب الأجنبي لو أنه لقرب انتساب في المنام مضاجعُ
فللنفس من جلايسها كل نسبة ومن خلة للقلب تلك الطبائعُ

والحاصل: أن صحبة من يوصل إلى الله، فما هي إلا صحبة الله إذ ما ثم سواء، والنظر إلى العارف بالله فإنما هو نظر إلى الله، إذ لم تبق فيه بقية عليه لغير الله، فصار نوراً محضاً من نور الله، وفيهم قال عليه السلام: «إن لله رجلاً من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً»⁽¹⁾ انتهى. وهم موجودون لا ينقطعون أبداً، ظاهرون ظهور الشمس لا يخفون إلا على من أراد الله منه طرداً وبعداً، والعياذ بالله من السلب بعد العطاء، ومن سوء القضاء وشماتة الأعداء وعضال الداء وخيبة الرجاء وزوال النعمة وفجأة النعمة آمين.

[ثمرة إشراق نور اليقين]

ثم فائدة صحبة العارفين هو حصول اليقين كما أشار إليه بقوله:

133 - (لَوْ اشْرَقَ لَكَ نَوْرُ الْيَقِينِ لَرَأَيْتَ الْآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَرَحَّلَ إِلَيْهَا،
وَلَرَأَيْتَ مَخَاسِنَ الدُّنْيَا قَدْ ظَهَرَتْ كَسِفَةَ الْقَمَرِ عَلَيْهَا)

قلت: اليقين: هو العلم الذي لا يزاحمه وهم، ولا يخالطه ريب، ولا يصحبه اضطراب. مشتق من يقن الماء إذا حبس ولم يجري، شبه به العلم إذا صحبته الطمأنينة ولم يبق للقلب فيه تحرك ولا اضطراب.

وإشراق نوره هو ظهور أثره على الجوارح، فيظهر فيها الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ويظهر منه الانحياش إلى الله، والاشتياق إلى حضرة جماله، والسكون والخضوع تحت قهر جلاله، ولهج اللسان بذكره، وشغل القلب بالفكرة في عظمته، وهيمان الروح في حضرة قربه، وسكرها من شراب حبه، وشهود قربه. ومن علامته أيضاً أن يصير الغيب شهادة. ولنا في هذا المعنى:

فلا ترضى بغير الله حباً وكن أبداً بعشق واشتياق

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

ترى الأمر المغيّب ذا عيان وتحظى بالوصول وبالتلاق
فلو أشرق نور اليقين في قلبك لرأيت الآخرة الآتية حاضرة لديك أقرب إليك من
أن ترحل إليها، إذ هي الراحلة إليك والمدركة لك، ولرأيت محاسن الدنيا الوهمية
الفانية ظهرت كسفة الفناء عليها، أي قد انكسف نور وجودها بظهور ظلمة فنائها، فصار
ما كان ظاهراً باطناً، وما كان باطناً صار ظاهراً، وما كان كثيفاً صار لطيفاً، وما كان
لطيفاً صار كثيفاً، وما كان غيباً صار شهادة، وما كان شهادة صار غيباً، كما رآها حارثة
رضي الله عنه حين أخبر عن حقيقة إيمانه .

فقد روي عن أنس رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يمشي إذ استقبله شاب
من الأنصار فقال له النبي ﷺ: «كيف أصبحت يا حارثة»، قال: أصبحت مؤمناً بالله
حقاً، فقال له: «انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك»، فقال: يا رسول
الله عزفت نفسي عن الدنيا - أي أدبرت وهربت - فأسهرت ليلي وأظلمات نهاري فكأنني
بعرش ربي بارزاً وكأنني انظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنني انظر إلى أهل النار
يتعارون فيها. فقال له: أبصرت فالزم عبد نور الله الإيمان في قلبه، قال: يا رسول الله
ادع الله لي بالشهادة، فدعا له رسول الله ﷺ فقتل يوم بدر شهيداً فجاءت أمه إلى رسول
الله ﷺ فقالت: يا رسول الله قد علمت منزلة حارثة مني فإن يكن في الجنة أصبر، وإن
لم يكن في الجنة ترى ما أصنع، فقال: «أوهبلت، أجنة هي، إنها جنان وإن ابنك
أصاب الفردوس الأعلى» فرجعت وهي تضحك وتقول: بخ بخ يا حارثة⁽¹⁾ انتهى .

وكما رآها معاذ بن جبل رضي الله عنه حين دخل على النبي ﷺ وهو يبكي، فقال
له: كيف أصبحت يا معاذ، قال: أصبحت مؤمناً، فقال: إن لكل قول مصداقاً، ولكل
حق حقيقة فما مصداق ما تقول، فقال: يا رسول الله ما أصبحت صباحاً قط إلا ظننت
لا أمسي، وما أمسيت قط إلا ظننت لا أصبح، ولا خطرت خطوة قط إلا ظننت أنني لا
أتبعها بأخرى، وكأنني أنظر إلى كل أمة جائية، كل أمة تدعى إلى كتابها معها نبيها
وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله، وكأنني أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل
الجنة، فقال ﷺ: «هرفت فالزم»⁽²⁾. فهذان الرجلان الأنصاريان أشرق نور الإيقان في
قلوبهما، وشرح الله به صدورهما، فرأوا ما كان أجلاً عاجلاً، وما كان آتياً واصلاً .

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن النور إذا دخل القلب انشرح له

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (10590) [362 / 7] ورواه الحكيم الترمذي في نوادر
الأصول، في سر العمل وعلانيته، [74 / 4] ورواه غيرهما .

(2) رواه بلفظه القزويني في التدوين في أخبار قزوين [17 / 1] ورواه غيره باختلاف يسير في لفظه منهم ابن
أبي شيبه في مصنفه حديث رقم (30423) [170 / 6].

الصدر وانفسح»، قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها، قال: «نعم، التجاني عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله»⁽¹⁾ أو كما قال عليه السلام.

[توهم الغيرية هو الحجاب عن التجليات الحقيقية]

قلت: فإذا تكامل إشراق نور الإيقان غطى وجود الأكران، ووقع العيان على فقد الأعيان، ولم يبق إلا نور الملك الديان، كما أشار إلى ذلك بقوله:

134 - (ما حَجَبَكَ مِنَ اللَّهِ وَجُودٌ مَوْجُودٌ مَعَهُ إِذْ لَا شَيْءَ مَعَهُ، وَلَكِنْ حَجَبَكَ عَنْهُ تَوْهَمٌ مَوْجُودٌ مَعَهُ)

قلت: الحق تعالى ظاهر ونوره للبصائر باهر، وإنما حجبه مقتضى اسمه الحكيم واسمه القاهر، فما حجبك عن شهود الحق وجود شيء معه، إله مع الله تعالى الله عما يشركون، ولكن حجبك عن شهوده توهم وجود موجود معه ولا شيء معه، وكما كان ولا شيء بقي ولا شيء، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، فالفعل لا يصدر من غير صفة والصفة لا تفارق الموصوف، فالفعل متحد والفاعل واحد، والصفة متحدة والمتصف بها واحد.

وللشعري رضي الله عنه:

صفاتي لا تخفى لمن نظر ذاتي معلومة تلك الصور

فان عن الإحساس ترى عبّر

وسبب توهم الغيرية عدم الفكرة، وسبب عدم الفكرة حب العاجلة، فهي الشاغلة للقلوب عن السير إلى حضرة علام الغيوب. وحكمة حب الدنيا ظهور القهرية، فمن قهارته تعالى أن احتجب بلا حجاب، وغطى نور شمسه بالأسحاب، وأيضاً قوالب العبودية حجبت مظاهر أنوار الربوبية، ووجود الحكمة ستر ظهور القدرة.

وقال بعض العارفين: الحق تعالى منزّه عن الأين والجهة والكيف والمادة والصورة، ومع ذلك لا يخلو منه أين ولا مكان ولا كم ولا كيف ولا جسم ولا جوهر ولا عرض، لأنه للطفه سار في كل شيء، ولنوريته ظاهر في كل شيء، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف غير متقيّد بذلك، ومن لم يذق هذا ولم يشهده فهو أعمى البصيرة محروم عن مشاهدة الحق. انتهى. ومن كلام ابن وفا رضي الله عنه:

هو الحق المحيط بكل شيء هو الرحمن ذو العرش المجيد

(1) روى نحوه الحاكم في المستدرک علی الصحیحین، کتاب الرقاق، حدیث رقم (7862) [4/346] والبيهقي في شعب الإيمان، حدیث رقم (10552) [7/352] ورواه غيرهما.

هو النورُ المبيِّنُ بغيرِ شكٍ هو الربُّ المُسَحَّبُ في العبيدِ
هو المشهودُ في الأشهادِ يبدُرُ فيُخفيه الشهودُ عن الشهيدي
هو العينُ العيانُ لكلِّ غيبٍ هو المقصودُ مِن بيتِ القصيدي
جميعُ العالمينَ له ظلالُ سجدُ في القريبِ وفي البعيدِ
وهذا القدرُ في التحقيقِ كافٍ فكفَّ النَّفْسَ عَنْ طَلَبِ المزيدِ

وبالجملة فمن غلب عليه شهود الأحدية، وكوشف بسر الوجدانية، واستغرق في الحقيقة العيانية، انقطع عن الشعور بنفسه، وغاب عن السوى بالكلية، وإن رد إلى الشعور به رآه قائماً به وظاهراً فيه وبه، وحكماً من أحكامه. انتهى.

وقال في لطائف المنن: وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال، والظل لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود، ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم، وإذا ثبتت ظلية للآثار لم تنسخ أحدية المؤثر لأن الشيء إنما يشفع بمثله ويضم إلى شكله، كذلك أيضاً من شهد ظلية الآثار لم تعقه عن الله، فإن ظلال الأشجار في الأنهار لا تعوق السفن عن التسيار. ومن ها هنا تبين لك أن الحجاب ليس أمراً وجودياً بينك وبين الله تعالى، ولو كان بينك وبينه حجاب وجودي للزم أن يكون أقرب إليك منه، ولا شيء أقرب من الله، فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب. انتهى.

[سبب رؤية الأكوان ظهوره تعالى فيها]

ولما قرّر أمر الوحدة ونفى وجود الغيرية استشعر سائلاً يقول له: وهذه المكوّنات الظاهرة فما تقول فيها مع ثبوت الوحدة؟ فأجاب بأنها قائمة به، ولولا ظهور نوره فيها ما ظهرت، كما بين ذلك بقوله:

135 - (لَوْلا ظُهُورُهُ فِي الْمُكُونَاتِ مَا وَقَعَ عَلَيْهَا وُجُودُ إِنْصَارٍ
وَلَوْ ظَهَرَتْ صِفَاتُهُ، أَضْمَعَلَتْ مُكُونَاتُهُ)

قلت: كان الله ولا شيء معه، فكانت الخمرة الأزلية القديمة لطيفة خفية نورانية روحانية، وليس هناك شكل ولا رسم، متصفة بصفات المعاني والمعنوية، متسمية بأسمائها القديمة، منعوتة بنعوت الجلال والجمال، فاقتضت الخمرة ظهور حسناتها وجمالها، واقتضت الصفات ظهور آثارها، والأسماء ظهور مطالبها، فقبضت الصفات من النور اللطيف قبضة نورانية لمقتضى اسمه الظاهر واسمه القادر، فطلبها أيضاً اسمه الباطن واسمه الحكيم، فأبطنها في حال ظهورها وغطاها في حال بروزها، فكانت ظاهرة باطنة، ثم تفرّعت تلك القبضة على تفاريع كثيرة بعدد الصفات، وتفرّعت على أجناس كثيرة بتنوع الأسماء، فالماء واحد والزهر ألوان، وفي ذلك يقول صاحب العينية:

وكل الوري طراً مظاهراً طُلعتي مرأى بها من حُسنٍ وجهي لامعُ

ظهرت بأوصاف السيرية كلها أجل في ذوات الكل نوري ساطع
فبحر الجبروت فيفاض إلى عالم الملكوت. ثم احتجب بالحكمة فصار ظاهره
ظلمة وباطنه نوراً، ظاهره حكمة وباطنه قدرة، ظاهره ملك وباطنه ملكوت، والجميع
جبروت، فإذا تقرر هذا علمت أن الأكوان لا وجود لها من ذاتها، فلولا ظهور الحق بها
ما ظهرت، ولا وقع عليها أبصار الخلق، كما قال القائل:

من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عيّن محال⁽¹⁾
وقال آخر:

فلم يبق إلا الحق لم يبق كائن فما تمّ موصول وما تمّ بائن
بذا جاء برهان العيان فما أرى بعيني شيئاً غيره إذ أعين

وظهوره تعالى بواسطة تجليات الأكوان فيه لطف كبير، إذ لا يمكن شهوده
ومعرفته إلا بواسطة هذه التجليات، ولو ظهر بالأوصاف التي كان عليها في الأزل بلا
واسطة لتلاشت الكائنات واضمحلت.

وفي الحديث: «عجابه النور لو كشف عنه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه
بصره»⁽²⁾ انتهى. وهذا معنى قوله: لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته، أي لو ظهرت
نعوته الأصلية الأزلية لاضمحلت المكونات الحديثة، إذ الكائنات كلها تكثيف للأسرار
اللطيفة التي هي نعوت الخمرة الأزلية التي أشار إليها ابن الفارض في خمريته بقوله:

صفاء ولا ماء ولطف ولا هراً ونوراً ولا ناراً وروح ولا جسم
تقدم كل الكائنات حديثها قديماً ولا شكلاً هناك ولا رسم

(1) هذا البيت هو أحد أبيات قصيدة للشيخ القطب أبو مدين التلمساني شعيب بن الحسن الأندلسي من
مشاهير الصوفية توفي سنة 594 هجرية. والقصيدة كاملة هي:

اللّه قل وذر الوجود وما حوى	إن كنت مرئياً بلوغ كمال
فالكل دون الله إن حقت عدم	على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والموالم كلها	لولاه في محور وفي اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته	فوجوده لولاه عيّن محال
فالعارفون فنوا ولما يشهدوا	شيئاً سوى المتكبر المتعالي
ورأوا سواه على الحقيقة هالكاً	في الحال والماضي والاستقبال
فالمح بعقلك أو بطرفك هل ترى	شيئاً سوى فصل من الأفعال
وانظر إلى علو الوجود وسفله	نظراً تؤيده بالاستدلال
تجد الجميع يشير نحو جلاله	بلسان حال أو بلسان مقال
هو ممسك الأشياء من علو إلى	سفل ومبدعها بغير مثال

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب (79) في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام...» حديث رقم (179) [1] /
[16] وابن ماجه في سننه، باب فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم (195) [1/70] ورواه غيرهما.

فلو ظهرت الأسرار اللطيفة لتلاشت الكائنات الكثيفة، إذ لا ظهور للكثيف إذا رجع لطيفاً، وما مثال الكون إلا كالثلجة ظاهرها جامد وباطنها مائع، فإذا ذوّبت الثلجة رجعت إلى أصلها ماء ولم يبق للثلجة أثر، فكذلك المكوّنات الحسية، إذا ظهرت أسرارها اللطيفة التي قامت بها، ذابت ذواتها الكثيفة، وتلاشت ورجعت لأصلها. وإلى هذا المعنى أشار صاحب العينية بقوله:

وما الكونُ في التمثالِ إلا كثلجَةٍ وأنتَ لها الماءُ الذي هو نابغُ
فما الثلجُ في تحقيقنا غيرَ مائه وغيرانٍ في حُكْمِ دعتهُ الشرائعُ
ولكن بذوب الثلجِ يُرفعُ حُكْمُهُ ويُوضعُ حُكْمُ الماءِ والأمرُ واقعُ
فمن وقف مع ظاهر الثلجة أنكر الماء الذي في باطنها وكان جاهلاً بحقيقتها، ومن نفذ إلى باطنها عرف أصلها وفرعها. وكذلك الأكوان ظاهرها غرة لمن وقف مع كثافتها، وباطنها عبرة لمن نفذ إلى أصلها. وقد مثلوا أيضاً الكون بصورة جبريل حين كان يتصوّر في صورة دحية، فمن رآه كثيفاً قال: دحية، وأنكر أن يكون ملكاً. ومن عرف أصله لم ينكره ولم يقف مع ظاهره، فإذا تَلَطَّفَ ورجع إلى أصله ذهبَت تلك الصورة واضمحلت، فكذلك الكون إنما هو خيال، فما دام موجوداً في الحس رثي وظهر، فإذا رجع إلى أصله بظهور أسراره التي قام بها اضمحل ولم يبق له أثر. وقد أشار إلى هذا صاحب العينية أيضاً بقوله:

تجَلَّيْتُ بِالتَّحْقِيقِ فِي كُلِّ صُورَةٍ ففِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ جَمَالِي لَوَامِعُ
فَمَا الْكُونُ فِي التَّمَثَالِ إِلَّا كدَحِيبةٍ نَصُورُ رُوحِي فِيهِ شَكْلٌ مُخَادِعُ
ويستون هذه الأسرار التي قامت بها الأكوان: معاني، ويستون الأكوان: أواني حاملة للمعاني، فلو ظهرت المعاني لاضمحلت الأواني، ومن وقف مع حس الأواني حجب عن أسرار المعاني. وفي ذلك يقول الششتري رضي الله عنه:

لا تَنظُرْ إِلَى الْأَوَانِسِي وَخَضُّ بِحَرِّ الْمَعَانِي
لَمَعْلُوكٌ تَرَانِسِي

وقال ابن الفارض:

ولطفُ الأواني في الحقيقة تابعٌ للطفِ المعاني والمعاني بها تُسمو
فالأواني كلها لطيفة في الحقيقة تابعة للطف المعاني لأنها منها، وإنما تكثفت في حق أهل الحجاب الذين وقفوا مع ظواهر الأشياء، واشتغلوا بخدمة الحس قلباً وقالباً، فعظم عليهم الحس، وقويت دائرة حسهم، وغلظ الحجاب في حقهم، فعبادتهم حسية وفكرتهم حسية، وذلك لصحبتهم أهل الحس، ولو صحبوا أهل المعاني لاشتغلوا بخدمة المعاني حتى تتلطف لهم الأواني.

قلت: ومما من الله علي بصحبة أهل المعاني، أني إذا نظرت إلى الكون بعين بصيرتي من عرشه إلى فرشه، ذاب وتلاشى ولم يبق له أثر، والله ذو الفضل العظيم.

[ظهور المكونات ببطونه تعالى وبطونها بظهوره تعالى]

ثم استدل على ظهوره في المكونات بقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية 3] فأشار إلى تفسير الظاهر والباطن بقوله:

136 - (أظهر كل شيء بأنه الباطن وطوى وجود كل شيء بأنه الظاهر)

قلت: مضمته أن اسمه تعالى الباطن يقتضي ظهور الأشياء حساً ليكون باطناً بسبب ظهور حسها لأن الحس رداء أسرار المعاني، واسمه الظاهر يقتضي بطون الأشياء، أي هلاكها واضمحلالها، ليكون ظاهراً بما ظهر منها. هذا معنى قوله: أظهر كل شيء بأنه الباطن، أي بسبب أنه الباطن ليتحقق بطونه بها، وطوى وجود كل شيء بسبب أنه الظاهر ليتحقق انفراده بالظهور فيها.

والحاصل: أن الحصر في قوله تعالى: «هو الظاهر» يدل على أنه لا ظاهر معه، فانطوى وجود الأشياء واضمحل له. وقوله: «هو الباطن» يدل على أنه لا باطن سواه فبطنت الأشياء كلها بعد ظهورها، فدل كلامه سبحانه أن ما ظهر به هو الذي بطن فيه، والذي بطن به هو الذي ظهر فيه، وإلا لم يصح الحصر.

فإن قلت: المتقابلان لا يجتمعان كالضدين وكيف جمعتهما في ذات واحدة، قلت: لم يتواردا على محل واحد بل ذلك باعتبارين، فاسمه الظاهر باعتبار الحس في عالم الحكمة، واسمه الباطن باعتبار المعنى في عالم القدرة، فالحكمة ظاهرة والقدرة باطنة.

فتمحصل: أن الحق سبحانه ظاهر في بطونه باطن في ظهوره، ما ظهر به هو الذي بطن فيه، وما بطن به هو الذي ظهر فيه، أي ما ظهر فيه بحكمته، هو الذي بطن فيه بقدرته، وما بطن فيه بقدرته، هو الذي ظهر فيه بحكمته.

تنبيه: قد كنت سألت الشيخين، أعني شيخنا وشيخه⁽¹⁾، عن الخمرة الأزلية قبل تجليها، هل تسمى ظاهرة باطنة، أو إنما تسمى باطنة فقط لللطافتها حينئذ، فأجابني: بأن ما كان هو الذي ظهر، وليس الذي ظهر غير ما كان في الأزل «كان الله ولا شيء معه»⁽²⁾ وهو الآن على ما عليه كان. يعني أن الذات العلية كما كانت متصفة بصفاتهما وأسمائهما في الأزل بقيت كذلك فيما لا يزال، فكان في الأزل ظاهراً باطناً وبقي بعد التجلي كذلك ظاهراً لنفسه باطناً عن خلقه، ما تجلى به ظاهراً هو فيه أيضاً باطن.

(1) أي شيخه الشيخ محمد البوزيدي وشيخ العربي الدرقاوي رحمهما الله تعالى.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

وقال الفاشاني في شرح تائيه ابن الفارض⁽¹⁾ ما نصه بعد كلام: وأظهر الحق تعالى سر ذاته وصفاته في مظاهر أفعاله، وما كان لخفائه عليه قبل ذلك، كما حكاه [ابن الفارض] عن المحبوبة بلسان الجمع في قوله:

مظاهرُ لي فيها بدوتُ ولم أكنُ عليَّ بخفافٍ قبلَ موطنِ برزة
ولكن ليتجلى باسمه الظاهر آخراً كما كان متجلياً باسمه الباطن أولاً، والعجب كل العجب أنه تعالى ما ظهر بشيء من مظاهر أفعاله إلا وقد احتجب به كما قال:

بدت باحتجابٍ واختفت بمظاهر علي صبغ الثلويين في كل برزة

[عدم الوقوف مع ذوات المكوّنات]

ثم بين كيفية النظر والاعتبار في المكوّنات لتعرف ظهوره تعالى فيها، فقال:

137 - (أَبَاحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِي الْمُكُونَاتِ . وَمَا أَدْنَى لَكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَوَاتِ الْمُكُونَاتِ ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ [يونس: 101] فَتَحَ لَكَ بَابَ الْأَفْهَامِ، وَلَمْ يَقُلْ أَنْظُرُوا السَّمَوَاتِ لِقَلَّ يَدُلُّكَ عَلَى وُجُودِ الْأَجْرَامِ)

قلت: إنما أبرز الله هذه المكوّنات وأظهر هذه العوالم ليعرف بها ويظهر نوره فيها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبْتُمْ﴾ [الدخان: الآية 38] ، ﴿مَا خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: الآية 39] وقال تعالى: ﴿الْحَسْبُ لَنَا مَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: الآية 115] .

ولنا في هذا المعنى:

ما أثبت لك العوالم إلا لتراها بعين من لا يراها
فأزق عنها رقتي من ليس يرضى حالة دون أن يرى مولاهما
فأباح لك أيها الإنسان أن تنظر ماذا في السماوات والأرض من النور اللطيف الذي قامت به الأشياء، وما أباح لك أن تقف مع ذوات المكوّنات، تقف مع القشر وتحجب عن اللب. فمن وقف مع ظاهرها كان محجوباً، ومن نفذ إلى باطنها كان عارفاً محجوباً، ولأجل هذا السر قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ [يونس: الآية 101] أي ما فيها من عظمتها، ومعاني أسرار ذاتها، وكمال قدرته وإرادته، وسائر صفاته.

فقد فتح لك باب الأفهام، جمع فهم، أي فتح لك باب الفهم لتدخل بها من ظاهر القشر إلى باطن اللب حتى تعرفه في كل شيء وتفهم عنه كل شيء، ولو قال الحق تعالى: «قل انظروا السماوات» لذلك على الأجرام وسدّ لك باب الأفهام، وكيف يدلك على الأجرام وهي أغيار، والأغيار مانعة من الدخول إلى شهود الأنوار. ومثال ذلك في التقريب: لو قال لك قائل: انظر هذه الثلجة لذلك على ظاهر جرمها، ولو قال لك:

(1) مطبوع في الدار بتحقيق الشيخ أحمد فريد المزدي.

انظر ما في هذه الثلجة، لفتح لك باب الفهم إلى نظر ما في باطنها من الماء دون الوقوف مع ظاهر جرمها.

واعلم أن الحق سبحانه ندب عباده إلى معرفة ذاته، ودرجهم إليها شيئاً فشيئاً، فمنهم من قصر ومنهم من وصل، فدرجهم أولاً إلى توحيد الأفعال، وأنه لا فاعل سواه، فقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصر: الآية 68] ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: الآية 107] ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: الآية 96] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّاكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: الآية 253] وقال في فعل غير الآدمي: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: الآية 56]، وفي شأن الطير: ﴿مَا يُتِمِّسِكُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: الآية 19]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أُمَّاتُكُمْ﴾ [الأنعام: الآية 38] أي في فهر قبضتنا مقدره آجالها، مقسومة أرزاقها، معدودة أنفاسها، محفوظة أجسامها، معلومة أماكنها، ظاهرة أشباحها، باطنة أنوارها.

وقال في توحيد الصفات: وإنه لا سميع ولا بصير ولا قدير ولا متكلم إلا الله ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: الآية 1] أي دون غيره، فلا سمع ولا بصر إلا به سبحانه. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: الآية 30]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية 30] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال تعالى في توحيد الذات: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: الآية 3] ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى: الآية 35] على تفسير أهل الإشارة، وهم أهل الباطن. وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية 115]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: الآية 10].

وقد يجمع الحق تعالى في آية واحدة توحيد الصفات ويرقى إلى توحيد الذات كقوله تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ أَحَقُّ﴾ [القصص: الآية 53].

ثم رقاهم إلى الشهود بقوله: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ أَحَقُّ أَوْلَمْ يَكُفِّ بِرَبِّكَ أَنَّ هَلْ كُلُّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الأنعام: الآية 103] ﴿لَقَدْ أَتَيْنَا الْأَنْبِيَاءَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّهِمْ إِلَّا أَنْتَ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [القصص: الآيتان 53، 54].

فحصل: أن الأشياء كلها قائمة بالله، أثبتا ليعرف بها، ثم محاها بوحدانيته كما أشار إلى ذلك بقوله:

138 - (الأكوانُ ثابتةٌ بإثباته، وممحووةٌ بإحديته ذاته)

قلت: الأكوان: هي ما ظهر في عالم الشهادة، أو تقول: ما دخل عالم التكوين،

وهي موجودة بوجود الحق، قائمة به، ثابتة بإثباته ليعرف بها، ممحوة بأحدية ذاته، لانفراد وجوده، فمن أثبتها لنفسها فقد جهله فيها، وحجب بها عن شهود موجدتها، ومن أثبتها بالله فقد عرفه فيها، وشهد فيها مولاهما، فالشبوت للأكوان أمر عرضي، والحق اللازم هو وجود أحدية الحق تعالى، والأحدية مبالغة في الوحدة، ولا تتحقق إلا إذا كانت الوحدة بحيث لا يتمكن أن يكون أشد وأكمل منها، فمن مقتضى حقيقتها محو الأكوان وبطلانها بحيث لا توجد، إذ لو وجدت لم تكن أحدية، ولكان في ذلك متعدداً وأثنية.

[خلاصة ما ورد في الباب الرابع عشر]

هذا آخر الباب الرابع عشر، وحاصله: تحويش العباد إلى الله وتحبيبه إليهم بذكر ما اشتمل عليه الحق سبحانه من الكرم والإحسان وغاية اللطف والمبرة والامتنان، وذلك أنه سبحانه منّ علينا أولاً بالطاعة والعمل، وتفضل علينا ثانياً بالقبول مع ما اشتمل عليه عملنا من النقص والخلل، ثم إذا وقعت منا معصية أو زلل، غطانا بستره وبمغفرته لنا تفضلاً، وإذا توجهنا إليه بقلوبنا، سترنا منها، وعصمنا، ليعظم قدرنا، ويظهر شكرنا، فنتخذه صاحباً وندع غيره جانباً، فحينئذ تشرق في قلوبنا أنوار اليقين، ونرحل إلى الآخرة في أقرب حين، ثم تشرق علينا أنوار الإحسان، فتنتطوي لنا رؤية الأكوان بشهود نور الملك الديان، فحينئذ ينشر محاسننا للعباد، فيقبلون علينا بالثناء والمحبة والوداد، كما أبان هذا بقوله في أول الباب الخامس عشر.

[الباب الخامس عشر]

[مدح الناس لك حسب ظنهم بك وذكرك لنفسك حسب علمك بها]

وقال رضي الله عنه :

139 - (الناسُ يمدحونك لما يظنونهُ فيكَ، فكُنْ أَنْتَ دَائِمًا لِنَفْسِكَ لِمَا تَعَلَّمُهُ

مِنْهَا)

قلت: إذا مدحك الناس بشيء ليس هو موجوداً فيك، فاعلم أن ذلك هو اتف من الحق يهتفون بك، ويحوشونك إلى الزيادة، ويقولون لك الخير أمامك، فلا تقنع بذلك ولا تركز إلى ما هنالك، بل ارجع إلى نفسك باللوم، ولا يفرنك ثناء القوم، فإنهم لا يعلمون منك إلا القشر الظاهر، وأنت تعلم من نفسك اللب الباطن.

وكان بعضهم⁽¹⁾ يقول: اللهم اجعلني خيراً مما يظنون ولا تؤاخذني بما يقولون واغفر لنا ما لا يعلمون. وإنما قلنا: مدائح الناس هو اتف الحق، إذ ليس في الوجود إلا الحق ربنا، ما خلقت هذا باطلاً سبحانه، فأهل الفهم عن الله يستمعون إلى الخطاب، فإذا سمعوه مدحهم بشيء نظروا، فإذا كان فيهم علموا أنه تنبيه لهم على مقام الشكر، وإن لم يجدوه فيهم علموا أنه تنبيه لهم على تحصيل ذلك المقام، ولهذا لما سمع أبو حنيفة يوماً يمدحونه بقيام الليل كله، وكان لا يقوم إلا نصفه جعل يقوم الليل كله، وقد ذم الله قوماً أحبوا أن يمدحوا بما لم يفعلوا، فقال: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [آل عمران: الآية 188].

[سبب استحياء المؤمن من الله تعالى]

ثم إن ذمك لنفسك إذا توجه الخلق إليك بالمدح إنما هو حياء من ربك، حيث ستر عيوبك وأظهر محاسنك، وهو الذي نبه عليه بقوله:

140 - (المؤمن إذا مدح أستحيا من الله أن يُثنى عليه بوضف لا يشهدُه من

نفسه)

قلت: قد تقرر أن التحقيق ما ثم إلا سابقة التوفيق. ومن تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك، فإذا أطلق الثناء عليك بشيء لا نسبة لك فيه، وإنما أنت محل لظهوره، فاستحيا منه تعالى أن يثنى عليك بشيء تعلمه أنه من فعل غيرك، أو لم يظهر عليك شيء منه أصلاً، فإن مدحت بشيء زائد على ما ظهر فيك، فاطلب منه القوة على المزيد، فإن

(1) هو خليفة رسول الله ﷺ سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه كما أورده الإمام النووي في تهذيب الأسماء، باب أبي بكر الصديق، فصل في استخلافه [480/2].

ربك فقال لما يريد، ولا يضررك مدحك بما تفعل إن لم تقصد التعرض للمدح، ففي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «هل تدرون من المؤمن؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: المؤمن من لا يموت حتى يملاً مسامحة مما يحب، ولو أن عبداً اتقى الله في بيت في جوف بيت إلى سبعين بيتاً على كل بيت باب من حديد البسه الله تعالى رداء عمله حتى يتحدث به الناس ويزيدون والكلام مثل ذلك في فجوره، قيل: وكيف يزيدون يا رسول الله؟ قال: إن التقى لو استطاع أن يزيد في بره لزيد والفاجر لو يستطيع أن يزيد في فجوره لزيد»⁽¹⁾.

[يقينك وظن الناس]

كما أشار إليه بقوله:

141 - (أَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ تَرَكَ يَقِينَ مَا عِنْدَهُ لِيُظَنَّ مَا عِنْدَ النَّاسِ)

قلت: اليقين الذي عنده: هو علمه بمساويه وخفايا عيوبه، وما انطوت عليه سرائره من النقائص والتقصير. وظن ما عند الناس: هو ما يرون على ظاهره من الكمالات وأنوار الطاعات التي تصحبها العلل الباطنية والحفظ النفسانية، فيتوجهون إليه بالمدح والثناء، فإذا قنع بذلك وفرح بما هنالك، فهو أجهل الناس وأحمق الناس، إذ قد قنع بعلم الخلق ولم يخف من مقت الحق، والمطلوب من الفقير عكس هذا، وهو أن ينقبض عند المدح وينبسط عند الذم حتى يستويان عنده، هذا إن كان المادح من أهل الدين والخير، وأما إن كان جاهلاً أو فاسقاً فلا غباوة أعظم من الرضى بمدحهم والفرح به.

وقال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: تزكية الأشرار هجنة لك وحبهم لك عيب عليك.

فينبغي للفقير أن يخفي محاسنه وأعماله التي يُمدح عليها، ويظهر ما يسقط به من أعينهم مما هو مباح كما تقدم في الخمول.

وكان شيخ شيخنا مولاي العربي [الدرقاوي] رضي الله عنه يقول: فينبغي للفقير ألا يكون صيته أكبر من قدمه، بل يكون قدمه أكبر من صيته، وقدره أكبر من دعواه. انتهى. فيكون جلالي الظاهر جمالي الباطن، فكل ما تظهره على ظاهرك من الجلال يدخل في باطنك قدره من الجمال، وكل ما تظهره من الجمال يدخل قدره في باطنك من الجلال، فتزيين الظواهر يخرب البواطن، وتخریب الظواهر يزيّن البواطن.

[الثناء على الله تعالى بما هو أهله]

فإذا أظهرت الجلال وأخفيت الجمال ثم أطلق الثناء عليك الكبير المتعال بما لست له أهلاً فأثني عليه بما هو أهله كما أبان ذلك بقوله:

142 - (إِذَا أَطْلَقَ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَلَسْتَ بِأَهْلِ فَاثْنٍ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ)

(1) رواء المقدسي في الأحاديث المختارة، برقم (1721) [100/5] وأورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في سر العمل وعلانيته [83/4].

قلت: إذا أطلق الله تعالى الثناء عليك على السنة خلقه بما لا تعلمه من نفسك ولست بأهل له، فائن على الله بما هو أهله، أي بما يستحقه من التعظيم، ليكون ذلك شكراً لنعمة إطلاق الألسنة بالثناء عليك، وأيضاً فإنه هو الذي ستر عنهم مساويك وأظهر لهم محاسنك، ولو أظهر لهم ذرة من مساويك لمقتوك وأبغضوك، فإن العبد محل النقائص والحق تعالى محل الكمالات، فكل ما ظهر عليك من الكمالات فإنما هي رشحة من كمالاته تعالى. فالثناء في الحقيقة إنما هو لله، فإذا وقع عليك فردته أنت إلى أصله، وفي الحقيقة ما وقع إلا في أصله، ولكن لما اختلف القصد اختلف الحكم. فالناس في حالة المدح والذم على ثلاثة أقسام:

قسم يفرحون بالمدح ويكرهون الذم، لأن نفوسهم غالبية عليهم، ولا شك أنها تفرح بالعز والرفعة وتنقبض بالذم والضعفة، وهم العوام الغافلون. وقسم يكرهون المدح ويحبون الذم، لأنهم في مجاهدة نفوسهم، فكل ما يؤلمها ويقتلها أقبلوا عليه، وكل ما يحييها ويقويها فروا منه، وهم العباد والزهاد والسائرون من المرئدين.

وقسم يفرحون بالمدح لشهوده من مولاهم، وينقبضون من الذم لشهودهم جلال من به تولاهم، وهم العارفون.

[الانقباض بالذم والانبساط بالمدح]

وقد أشار إلى القسم الثاني والثالث بقوله:

143 - (الرُّهَادُ إِذَا مَدِحُوا انْقَبَضُوا لِشُهُودِهِمُ الثَّنَاءِ مِنَ الْخَلْقِ، وَالْعَارِفُونَ إِذَا مَدِحُوا انْبَسَطُوا لِشُهُودِهِمْ ذَلِكَ مِنَ الْمَلِكِ الْحَقِّ)

قلت: أما العباد والزهاد فلأنهم محجوبون برؤية الخلق عن شهود الحق، فإذا مدحوا شهدوا ذلك من الخلق، وحجبوا عن الجمع بالفرق، فانقبضوا وخافوا على نفوسهم أن تغتر بذلك أو تقف هنالك، وهم عاملون على ما تموت به نفوسهم وتحيا به قلوبهم. ولا شك أن المدح لها فيه حظ وافر، فربما تميل إلى ذلك فتعتقد المزية على الغير، فيوجب لها التكبر والرضى⁽¹⁾، وهما أصل كل معصية.

وأما الذم فلا حظ لها فيه، وإنما فيه موتها وفي موتها حياتها، فلذلك إذا مدحوا انقبضوا، وإذا ذموا انبسطوا.

وأما العارفون الواصلون فلأنهم فانون عن أنفسهم باقون بربهم غائبون عن الخلق بشهود الملك، فإذا أثني عليهم رأوا السنة الخلق أقلام الحق، وشهدوا الجمع في عين

(1) والرضى: أي الرضى عنها وهي أمانة بالسوء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: الآية 53]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. وقال العارفون: نفسك ما دامت بك حية فهي لك حية.

الفرق، فرحوا بمدح مولاهم، وانبسطوا عند من تولاهم، فيزدادون له حباً وشوقاً ويفنون فيه شغفاً وعشقا، وفي مثل هؤلاء ورد الحديث: «إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه»⁽¹⁾.
وإذا ذموا انقبضوا سكوناً تحت قهريه الحق وأدباً مع جلاله.

وفي تعبير آخر: الناس في المدح والذم على أربعة أقسام: عوام جهال، وعباد زهاد، ومريدون سالكون، وعارفون واصلون.

فأما العوام: فنفسهم غالبية عليهم، ودائرة الحس محيطة بهم، محط نظرهم الخلق، غافلون عن طلب الحق، إذا مدحوا وأقبل عليهم الخلق فرحوا وبطروا لنيل مرادهم وتحصيل أغراضهم، والنفس الأمازة مجبولة على حب الإمارة، وإذا ذموا وأدبر عنهم الحق انقبضوا وحزنوا لفوات ما أملوا، فهؤلاء قلوبهم خربة من النور.

وأما العباد والزهاد فهم مجتهدون في العبادة، فارون من الخلق، طالبون رضى الحق، مستوحشون من الناس، تحققوا منهم الإيأس، فإذا أقبلوا عليهم بالمدح والثناء انقبضوا وخافوا أن يشغلهم عما هم فيه، وإذا ذموا وأدبر عنهم الخلق فرحوا وانبسطوا لتفرغهم حينئذ للعبادة وإقبالهم على ما هم عليه من المجاهدة.

وأما المریدون السالكون فهم عاملون على قتل نفوسهم وحياة قلوبهم، فإذا ذموا وأدبر الخلق عنهم فرحوا، لما في ذلك من موت نفوسهم وحياة قلوبهم، وإذا مدحوا انقبضوا خوفاً على قوة نفوسهم وضعف قلوبهم، إذ في موت النفس حياة القلوب، وفي حياة القلوب موت النفوس.

وأما العارفون، فقد ظفروا بنفوسهم ووصلوا إلى شهود معبودهم، فهم يستأنسون بكل شيء لمعرفة الله تعالى في كل شيء، يأخذون النصيب من كل شيء، ويفهمون عن الله في كل شيء، فإذا مدحوا انبسطوا بالله لشهودهم المدح من الله وإلى الله ولا شيء في الكون سواه، وليس أحد أحب إليه المدح من الله كما في الحديث، وإذا ذموا انقبضوا تأدباً مع جلال الله أو شفقة على عباد الله «من هادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»⁽²⁾ نصار بسطهم بالله وقبضهم بالله، واستغنوا به عما سواه.

[علامة عدم الصدق في العبودية]

ثم من علامة الكمال تحقيق الاعتدال واستواء الأحوال في ثمانية خصال: المدح والذم، والعز والذل، والقبض والبسط، والمنع والعطاء. وقد تقدم بعضها. وأشار إلى الأخيرتين بقوله:

144 - (مَهْمَا كُنْتَ إِذَا أُعْطِيتَ بَسَطْتَكَ الْعَطَاءُ، وَإِذَا مُنِعْتَ قَبَضْتَكَ الْمَنْعُ، فَاسْتَدِلُّ

(1) رواه الحاكم في المستدرک، ذکر أسامة بن زيد بن حارثة...، حديث رقم (6535) [3/690] ورواه

الطبراني في المعجم الكبير، عن أسامة بن زيد، حديث رقم (424) [1/170] ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب التواضع، حديث رقم (6137) [5/2384] وابن حبان في صحيحه،

ذكر الإخبار عما يجب من الثقة بالله، حديث رقم (347) [2/58] ورواه غيرهما.

بِذَلِكَ عَلَى ثُبُوتِ طُفُولِيَّتِكَ، وَعَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبودِيَّتِكَ)

قلت: الطفولية والتطفل: هو الدخول في قوم وليس منهم ولم يستأذنهم، والطفيلي: هو الذي يأتي للوليمة من غير دعوة، وهو منسوب إلى رجل من أهل الكوفة من بني عبد الله بن غطفان، كان يقال له طفيلي الأعراس، كان يأتي إلى الولائم من غير أن يدعى إليها. فشبّه المؤلف كل من دخل مع القوم ولم يتحقق بما تحققوا به من استواء الأحوال بهذا الطفيلي.

فإذا كنت أيها الفقير إذا أعطيت حظوظك ومناك، واتصلت بعوائذك وهواك من الغنى والعز والجاه والبسط والصحة والعافية، وغير ذلك من الحظوظ والشهوات، انبسطت وفرحت، وإذا منعت من حظوظك وشهواتك، وأبدلك [الله تعالى] الغنى بالفقر والعز بالذل والجاه بالخمول والبسط بالقبض والصحة بالمرض والعافية بالبلية انقبضت وجزعت، فاستدل بذلك على ثبوت نطفلك على كلامهم، ولا نسبة لك من مقامهم، وإنما أنت طفيلي الأعراس ما زلت في غضة النعاس، واستدل بذلك أيضاً على عدم صدقك في عبوديتك، إذ الصدق في العبودية يقتضي استواء النعمة والبلية، كما قال الشاعر⁽¹⁾:

أحباي أنتم أحسن الدهر أم أسا فكونوا كما شئتم أنا ذلك الخيل

قال أبو عثمان الحيري رضي الله عنه: لا يكمل الرجل حتى يستوي قلبه في أربعة أشياء: في المنع والعطاء، والعز والذل انتهى. فإذا كان الفئير يتضعضع عند الجلال وينهزم عند حملة الأبطال، فاهلم أنه ضعيف الحال متطفل على مقامات الرجال. كما قال القائل⁽²⁾:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نساها

هذا آخر الباب الخامس عشر. وحاصله: آداب المرید في المدح والذم، ومرجعها إلى خمسة:

الأول: ذم النفس عند مدحها بما ليس فيها.

الثاني: استحياؤه من الله أن يمدح بوصف لا يشهده من نفسه.

الثالث: أن يرجع إلى يقين ما عنده فيعمل عليه، ولا يغتر بظن ما عند الناس فيعتمد عليه.

الرابع: أن يكثر من الحمد والشكر لمولاه، حيث ستر عيوبه وأظهر توفيقه وهده.

الخامس: أن يكون معتدل الحال سليم القلب، فلا يحزن عند الذم، ولا يفرح عند المدح.

(1) هو سلطان العاشقين الشيخ عمر بن الفارض المتوفى سنة 632 هجرية [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

(2) هو أبو بكر الشبلي: دلف بن جحدر المولود سنة 247 هـ والمتوفى سنة 334 هجرية.

[الباب السادس عشر]

[لا يأس ولا قنوط مع رحمة الله وفضله]

وقال رضي الله عنه :

145 - (إِذَا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ فَلَا يَكُنْ سَبِيًّا لِئَاسِكَ مِنْ حُصُولِ الْأَسْتِقَامَةِ مَعَ رَبِّكَ،
فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ)

قلت : السائر الصديق أو الواصل إلى التحقيق كالراكب المغير جاداً في المسير كد من السرعة أن يطير ، فإذا وقعت منه كبوة أو سقطة أو صدرت منه عشرة أو هفوة استوى على جواده واستمر على إغارته في طلب مراده ، فإذا سقط وجعل يتمرغ في سقطته كان ذلك دليلاً على فترته وعدم تحصيل طلبته ، فإذا وقع منك أيها الفقير ذنب فلا يكن سبياً يقطعك عن الله ، أو يؤيسك من الاستقامة مع الله ، فيتضاعف عليك وبال المعصية وتعظم في حَقِّك المصيبة والبلية ، فقد يكون ذلك رحمة بك وتنبيهاً لك من سينتك كحصول ملل وفترة ، فإذا سقطت نهضت ، وإذا قمت جددت ، وقد يكون ذلك آخر ذنب قدره الله عليك .

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر :
الآية 53] الآية . وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَفْسُقْ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر : الآية
56] ، وقال تعالى : ﴿ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَدِّجِ اللَّهِ إِلَّا الْفُؤْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : الآية 87] .

وقال رسول الله ﷺ : « كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون »⁽¹⁾ . وقال عليه
السلام : « إن الله يحب كل مفتن تواب »⁽²⁾ يعني كثير الذنب كثير التوبة . قال تعالى :
﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّبِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : الآية 222] فهذه الآيات تقوي رجاء العباد
وتوجب الاعتدال والسداد .

[منشا الرجاء والخوف]

وقد بين أصل الرجاء والخوف ومنشأهما ، فقال :

146 - (إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الرَّجَاءِ فَاشْهَدْ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ
يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الْخَوْفِ فَاشْهَدْ مَا مِنْكَ إِلَيْهِ)

(1) رواء الحاكم في المستدرک ، کتاب التوبة والإنابة ، حديث رقم (7617) [272 / 4] وابن ماجه في
سننه ، باب ذكر التوبة ، حديث رقم (4251) [1420 / 2] ورواه غيرهما .

(2) ورد بلفظ : « خياركم كل مفتن تواب » رواه البزار في مسنده ، باب ما روى النعمان بن سعد عن علي ،
حديث رقم (700) [280 / 2] والقضاعي في مسند الشهاب ، حديث رقم (1271) [239 / 2] ورواه
غيرهما .

قلت: إذا أردت أيها الإنسان أن يتقوى رجاؤك في الكريم المنان، فاشهد ما منه إليك من الإحسان واللطف والمبرة والامتنان، نهل عودك إلا حسناً، وهل أسدى إليك إلا منناً، عليك بسط منته ولك هياً جنته، أنعم عليك في هذه الدار بغاية الإنعام، وما قنع لك بذلك حتى أعد لك دار السلام باقية مستمرة على الدوام، ثم أتحنك بالنظر إلى وجهه الكريم تماماً على سابق إحسانه القديم.

وإذا أردت أن يفتح لك باب الحزن والخوف، فاشهد ما منك إليه من الإساءة والتقصير في العبادة، أو من موافقة الشهوة والاسترسال مع الغفلة، فإنك إن شهدت ذلك دام حزنك وقوي خوفك، وربما كان سبباً في سوء ظنك بربك، فتزل قدم بعد ثبوتها. وفي الحديث: «لو لم تذنّبوا للذهب لذهب الله بكم ولجاء بقوم آخرين يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم وهو الغفور الرحيم»⁽¹⁾. فدل الحديث على أن شهود الكرم أفضل عند الله من شهود الانتقام.

«وخلصتان ليس فوقهما شيء من الخير، حسن الظن بالله وحسن الظن بعباد الله، وخلصتان ليس فوقهما شيء من الشر، سوء الظن بالله وسوء الظن بعباد الله»⁽²⁾ كما في الحديث.

وبقيت مرتبة ثالثة وهي الغيبة عن الرجاء والخوف بشهود ما من الله إلى الله وهو مقام أهل الشهود، فلذلك اعتدل أمرهم في جميع الأحوال، نفعنا الله بذكرهم آمين.

[فوائد القبض]

ثم إن ثمرة الرجاء ونتيجته البسط، وثمره الخوف ونتيجته القبض، فلذلك ذكره بعدهما فقال:

147 - (رُبَّمَا أَفَادَكَ فِي لَيْلِ الْقَبْضِ مَا لَمْ تَسْتَفِئْ فِي إِشْرَاقِ نَهَارِ الْبَسْطِ ﴿لَا تَذُرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكَ نَفْعًا﴾)

قلت: القبض والبسط حالتان يتعاقبان على الإنسان كتعاقب الليل والنهار، فالليل محل السكون والقرار، والنهار محل التحرك والانتشار. القبض لا حظ فيه للنفس، والبسط تأخذ النفس حظها منه، وما لا حظ فيه للنفس أقرب للسلامة وأعظم للإفادة، فربما أفادك في ليل القبض من انخناس النفس وذهاب الحس وموالاته الأوس ما لا تستفيده في نهار البسط، فالقبض له فوائد، والبسط له فوائد، والعبد لا يدري أيهما

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، حديث رقم (2749) [2106/4]، وأحمد في المسند، عن أبي هريرة، حديث رقم (8058) [309/2] ورواه غيرهما، والحديث ليس في آخره جملة (وهو الغفور الرحيم).

(2) نصف الحديث الأخير رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب حديث رقم (2988) [199/2] ونصه: «خلصتان ليس فوقهما شيء من الشر، الشرك بالله والضر بعباد الله».

أقرب له نفعاً، فتعيّن الوقوف مع ما يواجهه من جهة الحق فيلتقاه بالقبول والأدب.

[مطالع الأنوار الإلهية]

وإذا كان العبد جاهلاً بمنفعتيها كجهله بالأنفع من الآباء والأبناء، تعيّن متابعة الحق باتباع مراده وانتهاجه حاله من غير نحول ولا انتقال ولا تشوف إلى غير ما هو فيه من ذلك الحال، فبذلك يتنور قلبه ويتطهر سرّه ولبه، فتتكشف عنه الحجب والأستار، ويتهيأ لحمل الأنوار والأسرار كما أبان ذلك بقوله:

148 - (مَطَالِعُ الْأَنْوَارِ، الْقُلُوبُ وَالْأَسْرَارِ)

قلت: المطالع: جمع مطلع وهو محل طلوع الشمس وغيرها، والأنوار هنا: الواردات والكشوفات التي تكشف الحجب وترفع رداء الصون عن مظاهر الكون، وقد تقدم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر عند كثير من الصوفية شيء واحد وما هي إلا الروح تتطور بحسب التصفية والترقية.

فما دامت مشغولة بحفظها وشهواتها فهي نفس ونورها مكسوف.

فإذا انزجرت وعقلت بعقال الشرع إلا أنها تميل إلى المعاصي والذنوب، فتارة تعصي وتتوب، وتارة تحن وتؤوب، سميت عقلاً ونورها قليل لأنها محبوسة في سجن الأكوان معقولة بالدليل والبرهان.

فإذا سكنت عن المعاصي إلا أنها تتقلب بين الغفلة واليقظة، وبين الاهتمام بالطاعة والمعصية سميت قلباً، وهو أول مطالع الأنوار، فتشرق عليه أنوار التوجه، فلا تزال تترادف عليه الواردات، حتى يسكن إلى الله ويطمئن بذكر الله، فحينئذ تسمى روحاً، وهو أول مطالع أنوار المواجهة، فهذه الأنوار ينكشف الحجاب وينفتح الباب وتدخل في حضرة الأحباب.

فإذا تصفّت من غبش الحس، وتطهرت من كدر الأغيار، سميت سرّاً، وهو أول مطالع أنوار المشاهدة.

فإذا تزكّت من لوث الأنوار وهر الوقوف مع المقامات أو الالتفات إلى الكرامات، سميت سر السر، وهو أول مطالع أنوار المعاينة والمكالمة، ثم لا حال ولا مقام ﴿يَتَأَهَّلَ يَتَرَبَّ لَا مَقَامَ لَكَ﴾ [الأحزاب: الآية 13] فارجعوا.

وأما الترقّي في العلوم والمعارف فلا نهاية له على الأبد.

فالقلوب مطالع ومشارك أنوار التوجه.

والأسرار مطالع ومشارك أنوار المواجهة، والمشاهدة والمعاينة والروح والسر قريب بعضها من بعض في المرتبة، فلذلك سكت الشيخ عن الأرواح لاندراجها في الأسرار.

والحاصل: أن النفوس والعقول الظلمة غالبية عليهما لانهماكهما في الحس، وأما القلب والروح والسر فهي مطالع الأنوار، أي محل طلوعها وإشراقها، إلا أن القلب مطلع لأنوار التوجه، والروح والسر مطلقان لأنوار المواجهة.

[مدد نور القلب]

ثم بين ابتداء مطلع هذا النور وهو القلب، ثم يشرق على الروح ثم على السر، فقال:

149 - (نورٌ مُستودِعٌ في القلوبِ، مَدَدُهُ مِنَ النُّورِ الْوَارِدِ مِنْ خَزَائِنِ الْغُيُوبِ)

قلت: النور المستودع في القلوب، هو نور اليقين، ويكون أولاً ضعيفاً كنور النجوم وهو نور الإسلام، ثم لا يزال يتقوى ويستمد من النور الوارد من خزائن الغيوب حتى يكون كنور القمر، وهو نور الإيمان، ثم لا يزال ينمو بالطاعة والذكر والصحبة حتى يكون كنور الشمس وهو نور الإحسان.

وخزائن الغيوب: هي أنوار الصفات، وأسرار الذات، فمنها تستمد أنوار الإسلام وأنوار الإيمان، ثم تشرق أنوار الإحسان فيتغطى وجود الأكوان. قال في التنوير: ولو انهتك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان، ولاشرق نور الإيقان فغطى وجود الأكوان. انتهى.

واهلم أن وجه اصطلاح الصوفية رضي الله عنهم في ترتيب الإسلام أولاً، ثم الإيمان [ثانياً]، ثم الإحسان [ثالثاً]. أن العبد ما دام مشغولاً بالعبادة الظاهرة الحسية سمي ذلك المقام مقام الإسلام، فإذا انتقل العمل للقلب وهو اشتغاله بتصفية القلب بالتخلية والتحلية وتحقيق الإخلاص سمي ذلك مقام الإيمان، فإذا انتقل العمل للروح وللسر وهو الفكرة والنظرة سمي مقام الإحسان، بخلاف الفقهاء فإنهم يقدمون الإيمان على الإسلام، فيقولون: لا يصح شيء دون الإيمان ولا مشاحة في الاصطلاح ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ [البقرة: الآية 60].

[أنواع أنوار الكشف]

ثم ذكر ثمرة النور وهي الكشف عن حقائق الأشياء، فقال:

150 - (نورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ آثَارِهِ، وَنورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ أَوْصَافِهِ)

قلت: أصل النور من حيث هو الكشف، فالنور الحسي يكشف عن المحسوسات، والنور المعنوي يكشف عن المفهومات. أو تقول: نور الحس يكشف عن الأواني، والنور المعنوي يكشف عن المعاني، ولا عبرة برؤية الأواني خاوية عن المعاني. ثم إن النور المعنوي ينقسم على ثلاثة أقسام باعتبارها، القوة والضعف.

فنور الإسلام الذي هو كالنجوم يكشف لك الحق تعالى به عن وجود آثاره فتستدل بها على صانعها .

ونور الإيمان الذي هو كالقمر يكشف لك به عن ثبوت أوصافه ، فلا يتحرك شيء أو يسكن إلا تراه بقدره الله وإرادته وعلمه وحياته إلى آخر صفاته .

ونور الإحسان يكشف لك به عن حقيقة ذاته ، فلا ترى شيئاً إلا رأيت صانعه فيه بواسطة تجلياته ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [التور: الآية 35] فنهاية كشف النور الأول الفناء في الأفعال ، ونهاية كشف النور الثاني الفناء في الصفات ، ونهاية كشف النور الثالث التمكين في الفناء في الذات .

واستغنى الشيخ عن النور الثالث بذكر النور الثاني ، لأن الفناء في الصفات قريب من الفناء في الذات ، لأن الصفات لا تفارق الموصوف ، فمن كان يرى سمعه بالله وبصره بالله وحركته بالله يرى وجوده بالله ، ولذلك استغنى بعضهم بالفناء في الذات عن الفناء في الصفات لتقاربهما ، فمهما تحقق أحدهما تحقق الآخر ، والله تعالى أعلم .

[انحجاب القلوب بالأنوار وانحجاب النفوس بكثائف الأغيار]

ثم المطلوب من العبد هو الترقى من نور شهود الأثر إلى نور الصفات ، ثم إلى نور شهود الذات ، وقد تقف بعض القلوب مع النور الأول فتحجب عن الثاني ، ومع الثاني فتحجب عن الثالث ، كما أبان ذلك بقوله :

151 - (رُبَّمَا وَقَفَّتْ الْقُلُوبُ مَعَ الْأَنْوَارِ ، كَمَا حُجِبَتِ النَّفُوسُ بِكَثَائِفِ الْأَغْيَارِ)

قلت : قد تقف بعض القلوب مع أنوار المقامات دون الوصول إلى الغايات ، فتحجب عن الوصول كما حجبت النفوس بكثائف المحسوسات عن إدراك لطائف المعاني والمفهومات ، وذلك إما لعدم شيوخ التربية أو لضعف الهمة عن الترقية ، فقد ينكشف لبعض القلوب عن سر توحيد الأفعال ، فتفنى في العمل وتذوق حلاوته ، فتقف معه وهواتف الحقيقة تناديها الذي تطلبه أمامك .

وقد ينكشف لها عن سر توحيد الصفات ، وتلوح لها أنوار المقامات ، كتتحقيق الزهد والورع وصحة التوكل والرضى والتسليم وحلاوة المحبة والاشتياق إلى غير ذلك ، فتقنع بذلك وتقف هنالك ، والمطلوب هو الكشف عن سر توحيد الذات وأنوار الصفات ، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: الآية 42] .

فالنور عبارة عن الحلاوة والقوة التي يجدها المرید في باطنه من مزيد إيمان وقوة إيقان ، فحلاوة الخدمة لأهل الفناء في الأفعال ، وحلاوة الذكر الحسي اللساني أو القلبي لأهل الفناء في الصفات مع الحجاب ، وحلاوة الفكر والنظرة لأهل الفناء في الذات .

وإن شئت قلت: ربما وقفت القلوب مع أنوار الأحوال، فتحجب عن مقامات الرجال، أو مع أنوار المقامات، فتحجب عن معرفة الذات، ولذلك قال الشيخ [عبد السلام] بن مشيش لتلميذه الشيخ أبي الحسن [الشاذلي]: أشكو إلى الله من برد الرضى والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار. خاف رضى الله عنه أن يحجب بحلاوة الرضى والتسليم عن شهود الذات.

وشبهه الشيخ رضى الله عنه حجب القلوب بالأنوار، بحجب النفوس بالأغيار، لاشتراكهما في الحجب عن الله، لكن حجب النفس بالأغيار أشد، لأنها ظلمة والظلمة أشد حجاً من النور. فالقلوب نورانية حجبت بالنور، والنفوس ظلمانية حجبت بالظلمة، وكثائف الأغيار هي ما ظهر من بهجة الدنيا وزخرفها وغرورها وزهرتها، وهي التي أشار إليها الحق تعالى بقوله: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ [آل عمران: الآية 14] الخ الآية، ويدخل فيها ما يلائمها من حب الجاه والرياسة، وحب المدح والتعظيم، وغير ذلك من شهواتها وعواندها، وهي التي حجبت جل الناس وساقتهم إلى الخيبة والإفلاس، نسأل الله العصمة بمنه وكرمه.

ويدخل في الأغيار العلوم العقلية واللسانية، فالاشتغال بها والوقوف مع حلاوتها من أشد الحجب عن معرفة الله، أعني المعرفة الخاصة.

ويدخل فيها أيضاً الكرامات الحسية كالطيران في الهواء والمشي على الماء، فالوقوف مع ذلك من أشد الحجب أيضاً، ولذلك قال بعضهم: أشد حجاً عن الله العلماء ثم العبّاد ثم الزهاد، فسبحان من حجب العلماء بعلمهم عن معلومهم، والعباد بعبادتهم عن معبودهم، والصالحين بصلاحهم عن مُصلحهم، والله من وراء ذلك كله.

[حكمة ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر]

وحكمة وجود هذه الأنوار الحسية والأغيار الظلمانية تغطية وستر لأنوار السرائر الباطنية كما أبان ذلك بقوله:

152 - (سَتَرَ أَنْوَارَ السَّرَائِرِ، بِكَثَائِفِ الظُّوَاهِرِ، إِجْلَالاً لَهَا أَنْ تُبْتَدَلَ بِوُجُودِ الإِظْهَارِ، وَأَنْ يُنَادَى هَلِيهَا بِلسانِ الأَشْتِهَارِ)

قلت: أنوار السرائر: هي العلوم اللدنية والمعارف الربانية، ويجمعها علم الربوبية الذي يجب كتمه عن غير أهله، ومن أباحه أبيع دمه، وهو الذي قتل بسببه [الحسين بن منصور] الحلاج.

وكثائف الظواهر: هي البشرية الظاهرة.

أو تقول: أنوار السرائر: هي الحرية الباطنية، وكثائف الظواهر: هي العبودية الظاهرة.

أو تقول: أنوار السرائر: هي علم القدرة الباطنية، وكثائف الظواهر: هي علم الحكمة الظاهرة، فأنوار السرائر معان لطيفة رقيقة سترها الله تعالى بالكثائف الظاهرة، ولذلك وقع الإنكار على أهلها قديماً وحديثاً حتى قال الكفار: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعْمَ وَيَسْبِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان: الآية 7]، وقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بِأَكْلِهِمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُونَ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٤٢﴾ [المؤمنون: الآية 33].

ووقوع الإنكار على أولياء الله سنة ماضية، وحكمة ذلك إجلال وتعظيم لها أن تبتذل وتظهر بوجود الإظهار، وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار، فلا يبقى لها سر ولا عز، ولهذا طوبى الأولياء بالخمول واستعمال الخراب والتليس.

ويحتمل أن يريد بأنوار السرائر معاني الصفات السارية في الذات، وبكثائف الظواهر المحسوسات الظاهرة، فلا ظهور للصفات إلا بالذوات الحسية، ولا قيام للذوات إلا بالصفات، فستر الله سبحانه صفاته الأزلية اللطيفة بظهور الذوات البشرية الكثيفة، صوناً لسر الربوبية أن يبتذل بالإظهار، أو ينادى عليه بلسان الاشتهار.

والحاصل: أن الأشياء كلها قائمة بين ذات وصفات، بين حس ومعنى، بين قدرة وحكمة، فستر الحق سبحانه معاني أسرار الذات اللطيفة بظهور الذوات الكثيفة، وستر المعنى اللطيف بالحس الكثيف، وستر القدرة بالحكمة، والكل من الله وإلى الله ولا موجود سواه، وهذه الكثائف الظاهرة هي أردية وقمص للمعاني اللطيفة.

[خلاصة ما ورد في الباب السادس عشر]

هذا آخر الباب السادس عشر، وحاصله: آداب السائر في حال سيره بحيث لا يقف مع معصية، ولا يركن إلى طاعة، ولا يغلب عليه خوف ولا رجاء ولا قبض ولا بسط، بل يبرز من الغيب فيتلقاه بالمعرفة والرحب، فإذا فعل ذلك أشرقت عليه الأنوار، فتخرجه من رق الآثار حتى تفضي به إلى شهود الملك القهار، لكن لا بد للحسناء من نقاب وللشمس من سحاب ولليواقيت من صوان، فخفيت الأنوار بكثائف الأغيار إجلالاً لها أن تبتذل بوجود الإظهار، وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار. فمن أجل ذلك أخفى أولياءه في خلقه، فلا يطلع عليهم إلا من أراد أن يخصه بما خصهم به من سره، كما أبان ذلك في أول الباب السابع عشر، بقوله:

[الباب السابع عشر]

[الدليل على أوليائه تعالى هو الدليل عليه

والوصول إليهم هو الوصول إليه تعالى]

وقال رضي الله عنه :

153 - (سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الدَّلِيلَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُوصِلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْهِ)

قلت : الدليل : هو الموصل للمطلوب ، فإذا سار الحق تعالى بك إلى ولي عارف به ودلّك عليه ، فقد سار بك إلى معرفته ودلّك عليه ، فمهما دلّك على وليه وأطلعك على سرّه فقد دلّك عليه قطعاً ، ووصلك إلى حضرته سريعاً ، فلم يجعل الحق سبحانه الدلالة على أوليائه والوصول إليهم إلا من جهة الدلالة عليه ، ولم يوصل أحداً إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه ، فلاجل هذه الملازمة وعدم الانفكاك تعجّب الشيخ من ذلك .

وقال شيخنا رضي الله عنه في قول المؤلف رضي الله عنه : وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به ، قال : وصولك إليه وصولك إلى عارف به ، يعني مهما وصلك إلى عارف به وأطلعك عليه فقد وصلك إليه ، ومهما حجبتك عن العارفين به فقد حجبتك عنه ، فلا طريق إلى معرفة الله إلا من طريق معرفتهم ، ولا دليل على الله ، أعني على معرفته الخاصة العيانية ، إلا من حيث الدليل عليهم . وكما حجب الحق سبحانه ذاته المقدسة بعزّته وقهرته ، كذلك حجب أوليائه بما أظهر عليهم من أوصاف البشرية ، فلا يعرفهم إلا من سبقت له العناية الربانية ، إذ لا يعرف الخواص إلا الخواص .

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه : معرفة الولي أصعب من معرفة الله ، فإن الله معروف بكماله وجماله ، ومتى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب . ثم قال : وإذا أراد أن يعرفك بولي من أوليائه ، طوى عنك شهود بشريته ، وأشهدك وجود خصوصيته . انتهى .

وأيضاً فإن الولي لا يعرف بالصورة الظاهرة ، وإنما يعرف بالمعاني الباطنة ، لأن الله لا يعا بالصور «رب أشعث أظفر ذي طمرين»⁽¹⁾ لو أقسم على الله لأبره في اسمه»⁽²⁾ ، فمن أراد معرفته بالصورة فلا يعرفه ، لأنه لا يرى إلا بشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ،

(1) الظُّمْر : الثوب الخلق البالي والجمع أطمار (المعجم الوجيز).

(2) رواه الحاكم في المستدرک ، كتاب الرقاق ، حديث رقم (7932) [4 / 364] والطبراني في المعجم الأوسط ، باب من اسمه إبراهيم ، حديث رقم (861) [1 / 264] ورواه غيرهما .

فالعين لا ترى إلا الأجسام الكثيفة التي يطرأ عليها ما يطرأ على أهل الحجاب، ولم يدرك ما انطوت عليه الصورة من المعاني اللطيفة والأسرار المنيفة، فمن أراد الله سعادته رزقه الاعتقاد والتصديق أولاً، ثم الهداية والتوفيق ثانياً، فالتصديق بأسرار الولاية أول المعرفة، ولهذا قال الشيخ أبو الحسن [الشاذلي]: التصديق بطريقتنا هذه ولاية.

[الإطلاع على غيب الملكوت لا يعني الاستشراق على أسرار العباد]

قال الشطبي⁽¹⁾: وهذه الأسرار التي انطوت عليها أسرار الأولياء واحتجبت عن العامة هي أسرار الملكوت الغيبية التي أشار إليها بقوله:

154 - (رُبَّمَا أَظْلَعَكَ عَلَى غَيْبِ مَلَكُوتِهِ، وَحَجَبَ عَنْكَ الْإِسْتِشْرَافَ عَلَى أَسْرَارِ

الْعِبَادِ)

قلت: الملكوت مبالغة في الملك، هذا باعتبار اللغة. وأما باعتبار اصطلاح الصوفية، فالعوالم ثلاثة: ملك وملكوت وجبروت.

فالملك: ما يدرك بالحس والوهم.

والملكوت: ما يدرك بالعلم والفهم.

والجبروت: ما يدرك بالبصيرة والمعرفة.

وهذه العوالم محلها واحد وهو الوجود الأصلي والفرعي. وإنما تختلف التسمية باختلاف النظرة وتختلف النظرة باختلاف الترقى في المعرفة، فالوجود عند المحققين من العارفين واحد، قسم لطيف غيب لم يدخل عالم التكوين، وقسم كثيف دخل عالم التكوين فالأول يسمى عالم الغيب، والثاني عالم الشهادة. وما كان خفياً في عالم الغيب ظهر في عالم الشهادة.

فمن نظر إلى حسن الأشياء الظاهرة سماه ملكاً ويسمى أيضاً عالم الحكمة وعالم الأشباح.

ومن نظر إلى أسرار المعاني القائمة بالأواني، وهي أسرار الذات القائمة بأنوار الصفات سماه ملكوتاً.

ومن نظر إلى الأسرار الأزلية التي كانت حال الكنزية التي لم تدخل عالم التكوين سماه جبروتاً.

وسمي اللطيف الباقي على أصله الذي لم يدخل عالم التكوين الذي هو أول كل شيء وآخر كل شيء ومحيطاً بكل شيء جبروتاً، فإن ضم الفرع إلى أصله والكثيف إلى اللطيف سمي الجميع جبروتاً.

وهذه المعاني لا يفهمها إلا أهل الأذواق بصحبة أهل الأذواق، وحسب من لم

(1) لعله أبا عبد الله محمد بن علي الشطبي [وليلى الشطبي] الزرواني [انظر فهرس الفهارس والأبواب ومعجم المعاجم والمسلسلات للشيخ عبد الحى بن عبد الكبير الكتاني].

يبلغ لهذا المقام التسليم وإلا وقع في الإنكار على أولياء الله بما لم يحط به علماً .
ولنرجع إلى كلام الشيخ رضي الله عنه فنقول : ربما كشف الله عنك الحجاب وترقيت
إلى الدخول مع الأحباب ، فأخرجك من سجن رؤية الأكران إلى شهود المكوّن ، ومن عالم
الأشباح إلى عالم الأرواح ، فأطلعك على غيب ملكوته فأبصرت الكون كنه نوراً فائضاً من
بحر الجبروت ، فألحقته بأصله ، وفنيت عن شهود المُلْك الذي هو عالم الفرق بشهود
الملكوت الذي هو عالم الجمع الذي قال فيه [الشيخ] ابن البناء⁽¹⁾ :

مهما تعدّيت عن الأجسام أبصرت نور الحق ذا ابتسام
وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد رحمة بك لأنك قد تحجب بذلك عن
شهود الملكوت ، فلا عبرة عند المحققين بمكاشفة أسرار العباد ، فقد تكون عقوبة في حق
صاحبها كما يأتي ، وقد يكون ذلك لمن لا استقامة له أصلاً كالكهان والسحرة وغيرهم .

والغالب أن أهل شهود الملكوت يحجبون عن مكاشفة أسرار العباد لاشتغالهم
بما هو أعظم وأحظى عند الله ، وإنما تكون المكاشفات عند العباد والزهاد وأهل
الرياضات والمجاهدات ، ولا تنكر أن تكون عند العارفين ، فقد تجتمع لهم المكاشفة
والكشف ، أي مكاشفة أسرار العباد وكشف الحجاب عن الفؤاد ، إلا أن الغالب هو
استفراق الروح في شهود نور الملكوت دون الاستشراف على أسرار العباد التي هي من
عالم الملك .

[قد يكون الاطلاع على أسرار العباد فتنة]

وقد تكون وبالاً في حق المرید، كما أبان ذلك بقوله :

155 - (مَنْ أَطَّلَعَ عَلَى أَسْرَارِ الْعِبَادِ وَلَمْ يَتَخَلَّقْ بِالرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ كَانَ أَطْلَاعُهُ فِتْنَةً
عَلَيْهِ، وَسَبَبًا لِحَرِّ الْوَبَالِ إِلَيْهِ)

قلت : الاطلاع على أسرار العباد قبل التمكين في الشهود والتخلُّق بأخلاق الملك
المعبود فتنة عظيمة وبليّة ومصيبة ، وذلك لأنه قبل التمكين في المعرفة قد يشتغل بذلك قلبه
ويتشوّش خاطره ولبّه ، فيفتره عن الشهود ويفتنه عن الرسوخ في معرفة الملك الودود .

وأيضاً ما دامت النفس حية ولم يقع الفناء عنها قد يمتقد بذلك المزية على
الناس ، فيدخله الكبر والعجب وهما أصل المعاصي ، فكان اطلاعه حينئذ على أسرار
العباد سبباً في جرّ هذا الوبال ، أي العقوبة ، إليه ، وهو التكبر على الناس واعتقاد المزية

(1) هو الشيخ الفقيه الصالح الولي الناصح أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف التجيبي ، المعروف بابن
البناء السرقسطي ، بضم القاف نسبة إلى سرقسط بنده يتخوم الجزيرة ، كان أصل نسبه منها ، ثم استقر
بفاس وبها توفي (الفتوحات الإلهية لابن عجيبة ، ص 4 طبعة دار الكتب العلمية - بيروت) .

عليهم وهو سبب البعد عن الله، بخلاف ما إذا تمكَّن في معرفة الحق وتخلَّق بأخلاقه وتحقق بمعاني صفاته وأسمائه، فإنه يكون على خُلُقِ الرَّحْمَنِ، فإذا اطلع على معاصي العباد ومساويهم رحمهم وسترهم وحلم عليهم، وقد قال عليه السلام: «الخلق عيال الله وأقربكم إلى الله أرحمكم بعياله»⁽¹⁾، وقال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء»⁽²⁾.

وروي أن إبراهيم عليه السلام حدث نفسه أنه أرحم الخلق، فرفعه الله حتى أشرف على أهل الأرض، فأبصر أعمالهم وما يفعلون فقال: يا رب دمر عليهم، فقال له الله تعالى: أنا أرحم بعبادي منك يا إبراهيم فلعلهم يتوبون ويرجعون⁽³⁾.

[المعصية والطاعة وحظ النفس فيهما]

ولما كان الاطلاع على أسرار العباد قد يدرك بكثرة الطاعات والاجتهاد، فقد تقصد النفس بالطاعة هذا الحظ الدنيء وهو مرض خفي نبت عليه الشيخ بقوله:

156 - (حَظُّ النَّفْسِ فِي الْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ؛ وَحَظُّهَا فِي الطَّاعَةِ بَاطِنٌ خَفِيٌّ، وَمُدَاوَاةُ مَا يَخْفَى صَعْبٌ هِلَاجَةٌ)

قلت: حظ النفس في المعصية هي: متعة البشرية الظاهرة؛ كالأكل والشرب والنكاح وسماع اللهو وغير ذلك مما هو أذواق الحس التي هي محرمة، وحظها في الطاعة هي: طلب الكرامات وخوارق العادات والاطلاع على المفاتيح وكسب الخصوصية والمنزلة عند الناس، ومداواة هذا المرض الخفي أصعب من مداواة الأول الجلي، لأن مداواة المرض الحسي الخفي أصعب من مداواة الجلي، فكذلك المعنوي الباطني، فما كان جلياً متعلقاً بالنفس أصعب مما كان خفياً متعلقاً بالروح، فالأول يمكن دواؤه بالعزلة والفرار من مواطن الأشرار، وبصحبة الأخيار وبكثرة الطاعة والأذكار، بخلاف الثاني، فلا تزيده الطاعة إلا كثرة ونوة إذ بها صارت تطلب حظها، فلا يداويها من هذا إلا خوف مزعج أو شوق مقلق، أو ولي عارف محقق يصحبه بالمحبة والتصديق.

قال بعضهم: من عسرت عليه نفسه فنيسلمها إلى شيخ التربية، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسَتَرْضِعُنَّ لَهُنَّ آخَرَ﴾ [الطلاق: الآية 6] وإن عسرت عليكم أنفسكم فسترضِعْ لِنَفْسِكُمْ

(1) لم أجده بهذا اللفظ، إنما رواه أبو يعلى في مسنده بلفظ: «الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لبعياله» حديث رقم (3315) [6/65] ورواه الطبراني في المعجم الأوسط، حديث رقم (5541) [5/356] ورواه غيرهما.

(2) رواه أبو داود في سننه، باب في النهي عن اللعب بالنرد، حديث رقم (4941) [4/285].

(3) نفس المرجع السابق، وأبو نعيم في حلية الأولياء (قسامة بن زهير) [3/103].

نفسٌ أخرى حتى يكمل أوان فطامها ، فإن لم يكن واحد من هذه مات وهو سقيم ، ولم يلق الله بقلب سليم .

فالواجب على العبد اتهام نفسه ومرآة قلبه ، فإذا استحلت النفس شيئاً من الطاعات وألفته أخرجها إلى غيرها ، ولو كانت مفضولة في ظاهر أمرها ، وسيأتي للشيخ : إذا التبس عليك أمران انظر أثقلهما على النفس ، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً .

وقال الجنيد رضي الله عنه : ضاقت عليّ نفسي ليلة حتى لم أطق الصبر ، فخرجت ذاهباً على وجهي ، فانتهيت إلى رجل مطروح في المقابر مغطى الرأس ، فلما أحس بي قال : أبو القاسم ، قلت نعم ، قال : متى يصير داء النفس دواءها ، فقلت : إذا خالفت هواها صار داءها دواءها ، فقال لنفسه : اسمعي فقد أجبتك بهذا مراراً وأنت تقولين : حتى أسمع ذلك من الجنيد . قال الجنيد : فأنصرفت وما عرفته . انتهى .

[دخول الرياء على العبد في العمل الخفي كما الجلي]

ثم فسّر الشيخ ذلك الداء الذي يكون خفياً في الطاعة ببعض جزئياته وهو أعظمها ، فقال :

157 - (رُبَّمَا دَخَلَ الرِّيَاءُ عَلَيْكَ ، مِنْ حَيْثُ لَا يَنْظُرُ الْخَلْقُ إِلَيْكَ)

قلت : الرياء : هو طلب المنزلة عند الناس ، وقصد ذلك بعمل صالح سواء كان ذلك العمل ظاهراً للناس وهو الغالب ، أو خفياً عنهم ، فقد يكون الرياء في العمل الخفي فيدخل الرياء عليك حيث لا ينظر أحد إليك ، وهذا أصعب من الأول لأنه أخفى من ديب النمل كما في الحديث .

وقال بعضهم : من أعظم الرياء من رأى العطاء والمنع والضرر والنفع من الخلق .

وقال بعضهم : أقسام الرياء ثلاثة كلها علة في الدين :

الأول : وهو أعظمها ، أن يقصد بعمله الخلق ولولا هم لم يعمل .

الثاني : أن يعمل للمدحة والثناء .

الثالث : أن يعمل لله ويرجو على عمله الثواب ورفع العقاب ، وهذا النوع جيد من

وجه ، معلول من وجه . [فهو] عند العارفين رياء ، وعند عامة المسلمين إخلاص ، وقد

قيل في قوله تعالى : ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: الآية 10] هو السالم من الرياء

ظاهراً وباطناً بحيث لا يريد عامله حظاً دنيوياً ولا آخروياً .

وللمرائي علامات لا تخفى .

منها نشاطه في الجلوة وكسله في الخلوة ، أو إتقان العمل حيث يراه الناس

وتساهله حيث لا يراه . إلا الله .

ومنها التماسه بقلبه توقير الناس له وتعظيمه ومسارعتهم إلى قضاء حوائجه، وإذا قصر أحد في حقه الذي يستحقه عند نفسه استبعد ذلك واستنكره، ويوجد تفرقة بين إكرامه وإكرام غيره، وإهائته وإهانة غيره من أقرانه، حتى ربما يظهر بعض سخفاء العقول ذلك على ألسنتهم فيتوعدون من قصر في حقهم بمعاجلة الله لهم بالعقوبة، وأن الله تعالى لا يدعهم حتى ينتصر لهم ويأخذ ثأرهم، فإن وجد أفقر هذه الأمارات في نفسه فليعلم أنه مراثي بعمله وإن أخفاه عن أعين الناس.

ولا يسلم من الرياء الجلي والخفي إلا العارفون الموحدون، لأن الله تعالى ظهرهم من دقائق الشرك، وغيب عن نظرهم رؤية الخلق بما أشرق على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة، فلم يرجو منهم حصول منفعة، ولم يخافوا منهم وجود مضرة، فأعمال هؤلاء خالصة وإن عملوها بين أظهر الناس. ومن لم يحظ بهذا وشاهد الخلق وتوقع منهم حصول المنافع ودفع المضار فهو مرء بعمله وإن عبد الله تعالى في قنة جبل بالنون، أي أعلاه، قاله الشيخ ابن عباد رضي الله عنه. انتهى الخ.

[من الرياء محبتك أن يعلم الخلق بخصوصيتك]

ومنها: أي ومن علامة الرياء الخفية أيضاً، استشراف العبد وتطلعه أن يعلم الناس بخصوصيته كما أشار إليه بقوله:

158 - (اسْتِشْرَافُكَ أَنْ يَعْلَمَ الْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ، دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ صِدْقِكَ فِي

عِبَادَتِكَ)

قلت: إذا خصك الحق تعالى أيها الفقير بخصوصية من خصوصية خواصه، كزهده أو ورعه أو توكله أو رضاه أو تسليمه أو محبة أو يقين في القلب أو معرفة، أو أظهر على يدك كرامة حسية أو معنوية، أو استخرجت فكرتك حكماً أو مواهب كسبية أو لدنية، ثم استشرفت، أي تطلعت، وتمنيت أن يعلم الخلق بخصوصيتك بأن يطلعوا على تلك الخصوصية التي خصك الله بها، فذلك دليل على وجود الرياء الخفي في باطنك، ودليل على عدم صدقك في عبوديتك، بل أنت كاذب فيها، إذ لو كنت صادقاً في عبوديتك لاكتفيت بعلم الله، ونعت بمراقبته إياك، واستغنيت به عن رؤية غيره.

فالواجب على الفقير إذا خصه الله بخصوصية كتمها وجعلها وستراً إلا عن شيخه، فإن أظهرها فهو على خطر، فقد يكون تحدثاً وقد يكون تبجحاً، وفي الكتمان السلامة. قال شيخ شيوخنا المجذوب رضي الله عنه:

احفر لسرك وذكرو في الأرض سبعين قاما

وخل الخلاتق يشكرو إلى يوم القياما

وقال بعضهم: ما أخلص عبد قط إلا أحب أن يكون في جُيب لا يُعرف، ولهذا كان إسقاط المنزلة شرطاً في هذا الطريق، فإن تحقق العبد بالمعرفة ومشاهدة الوجدانية، جاز له الإخبار بالوجدانية بأعماله والإظهار لمحاسن أحواله، بناء منه على نفي الغير وأداء الواجب من الشكر.

كان بعض السلف يصبح فيقول: صليت كذا وكذا ركعة، وتلوت كذا وكذا سورة. فيقال له: أما تخشى من الرياء، فيقول: ويحكم وهل رأيتم من يراني بفعل غيره.

والحاصل: من فني عن نفسه وتحقق بشهود ربه فلا كلام عليه، وقد قالوا: من أحب الخفا فهو عبد الخفا، ومن أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن لم يرد غير ما أراد الله به فهو عبد الله حقاً.

[الاكتفاء بنظر الله تعالى]

ثم علمك الشيخ الدواء في ترك الاستشراف إلى الخلق وهو الاكتفاء بنظر الحق، فقال:

159 - (غَيْبٌ نَظَرَ الْخَلْقِ إِلَيْكَ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَغَيْبٌ عَنْ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ عَلَيْكَ)

قلت: الخلق في التحقيق عدم، والوجود إنما هو الله الواحد الأحد، فوجود السوى كالهباء في الهواء، أو كظلال الأشخاص إن فتسته لم تجده شيئاً، فغيب عنك أيها الفقير نظر الخلق إليك، اكتفاء بنظر الحق إليك، إذ لا نظر لسواه، وغيب عن إقبالهم عليك بالتعظيم والتكريم بشهود إقبال الملك الكريم، فغيب عن الوهم بثبوت العلم بإقبالك على الخلق إيدبارك عن الحق، وإيدبارك عن الخلق إقبالك على الحق، ولا يجتمعان.

وفي الحديث عنه عليه السلام في وصيته لابن عباس: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، جنفت الأقلام وطويت الصحف»⁽¹⁾.

وقال الشيخ أبو الحسن [الشاذلي]: أيسر من نفع نفسي لنفسي فكيف لا أياس من نفع غيري لها، ورجوت الله لغيري فكيف لا أرجوه لنفسي.

وقال في لطائف المنن: اعلم أن مبنى لولي على الاكتفاء بالله والقناعة بعلمه والاعتناء بشهوده، قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: الآية 3]،

(1) رواه الحاكم في المستدرک علی الصحیحین، ذکر عبد الله بن عباس حدیث رقم (6303) [3/ 623] حدیث رقم (2516) [4/ 667] ورواه غیرهما.

وقال سبحانه: ﴿الْيَسَّ اللَّهُ يَكْفِي عَبْدَهُ﴾ [الرؤس: الآية 36] ، وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: الآية 14] ، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنْتَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الضلت: الآية 53] .

فسبيل أمرهم في بدايتهم الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق ، وإخفاء الأعمال وكتُم الأحوال ، تحقيقاً لفنائهم وتثبيتاً لزهدهم وعملاً على سلامة قلوبهم ، حتى إذا تمكن اليقين ، وأيدوا بالرسوخ ولتمكين ، وتحققوا بتحقيق الفناء وردوا إلى وجود البقاء ، فهناك إن شاء الحق أظهرهم هادين إليه عباده ، وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شيء إليه .

وقال سهل بن عبد الله [التستري]: لا ينال العبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين: حتى يسقط الناس من عينه ، فلا يرى في الدارين إلا هو وخالفه ، فإن أحداً لا يقدر أن يضره ولا ينفعه ، وتسقط نفسه عن قلبه فلا يبالي بأي حال يرويه . انتهى . والله در القائل⁽¹⁾ :

فليتك تحلو والحياة مريرةً وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبينني وبين العالمين خراب
إذا صخ منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب⁽¹⁾

وقال بعضهم: ما لي وللناس ، كنت في بطن أمي وحدي ، وخرجت إلى الدنيا وحدي ، ونموت وحدي ، وندخل قبري وحدي ، ونسأل وحدي ، ونبعث من قبري وحدي ، ونحاسب وحدي ، فإن دخلت الجنة دخلت وحدي ، وإن دخلت النار دخلت وحدي . ففي هذه المواطن لا ينفعني أحد نما لي وللناس . انتهى بالمعنى .

[ثمرة معرفة الحق تعالى عند كل شيء]

ثم إنه لا تتحقق الغيبة عن نظر الخلق بنظر الحق إلا بمعرفة الحق عند كل شيء وشهوده في كل شيء كما أبان ذلك بقوله :

160 - (مَنْ صَرَفَ الْحَقَّ شَهْدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَنْ فَنِيَ بِهِ غَابَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ،
وَمَنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُؤْزِرْ عَلَيْهِ شَيْئاً)

قلت: معرفة الحق: هو شهود ربوبيته في مظاهر عبوديتك ، أو تقول: هي الغيبة عن الغيرية بشهود الأحدية . أو تقول: هي الترفي من شهود عالم الأشباح إلى شهود

(1) نسبت هذه الأبيات الثلاث إلى كل من الشيخ الحسين بن منصور الحلاج المتوفى سنة 309 هـ وأبي فراس الحمداني: الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربيعي المتوفى سنة 357 هـ [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

عالم الأرواح، فيكون جسمك مع الأشباح وروحك مع الأرواح. قال [ابن البناء] في المباحث [الأصلية]:

واستشعروا شيئاً سوى الأبدان يدعونه بالعالم الروحاني والفناء: هو أن تبدو لك العظمة فتسبك كل شيء، وتغيبك عن كل شيء سوى الواحد الذي ليس كمثلته شيء وليس معه شيء، أو تقول: هو شهود حق بلا خلق، كما أن البقاء هو شهود خلق بحق.

والمحبة: أخذ الحق قلب من أحب من عباده، فلا يكون له عن نفسه أخبار ولا مع غير محبوبه قرار. فمن عرف الحق شهدته في كل شيء ولم ير معه شيئاً، لنفوذ بصيرته من شهود عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح، ومن شهود عالم الملك إلى شهود نساء الملكوت.

والفرق بين الفاني والعارف، أن العارف يثبت الأشياء بالله، والفاني لا يثبت شيئاً سوى الله. العارف يقرر القدرة والحكمة، والفاني لا يرى إلا القدرة. العارف يرى الحق في الخلق كقول بعضهم: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه، والفاني لا يرى إلا الحق يقول: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله. العارف في مقام البقاء، والفاني مجذوب في مقام الفناء. الفاني سائر والعارف متمكن واصل، ومن أحب الله لم يؤثر عليه شيئاً من حظوظه وهوى نفسه ولو كان فيه حتف أنفه، كما قال القائل:

قالت وقد سألت عن حال عاشقها بالله صفة ولا تنقص ولا تزد
فقلت لو كان رهن الموت من ظمأ وقلت قف عن ورود الماء لم يرد

والكلام في المحبة طويل.

ذكر الشيخ [ابن عطاء الله السكندري] في [كتاب] لطائف المتن: منه جملة صالحة، وكلام الشيخ رضي الله عنه من باب التذلي، فالمعرفة أعلى المقامات وقبلها الفناء، وقيل: للفناء المحبة أي أولها، فأول ما يقذف الله في قلب عبده الذي يريد أن يصطفيه لحضرته ويعرفه به محبته، فلا يزال يلهج بذكره ويتعب جوارحه في خدمته ويتعطش إلى معرفته، فلم يزل يتقرب إليه بالنوافل حتى يحبه الحق، فإذا أحبه أفناه عن نفسه وغيبه عن حسه، فكان سمعه وبصره ويده وجملته، ثم رده إليه وأبقاه به، فعرفه بي كل شيء، وراه قائماً بكل شيء، ظاهراً في كل شيء، والله تعالى أعلم.

ولهذا الذي ذكره الشيخ علامات تدل على تحقيق تلك المقامات، فمن وجدها في نفسه كانت دعواه لتلك المقامات أو بعضها صحيحة، ومن لم يجدها في نفسه كانت دعواه لها كاذبة وفضيحة. فليعرف قدره ولا يتعدّ طوره، وبالله التوفيق.

[وجوه احتجاب الحق تعالى]

ولما كانت المعرفة تقتضي ظهور الحق في كل شيء حتى تراه ظاهراً في كل

شيء، بين وجه احتجابه وخفائه فقال:

161 - (إِنَّمَا حَجَبَ الْعَوَّ عَنْكَ، شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنْكَ. إِنَّمَا أَحْتَجِبُ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ،

وَخَفِيَّيَ عَنْ الْأَبْصَارِ لِعِظَمِ نُورِهِ)

قلت: ذكر في حكمة خفائه تعالى مع شدة ظهوره ثلاث حكم:

الحكمة الأولى: شدة القرب، ولا شك أن شدة القرب توجب الخفاء كسواد

العين من الإنسان، فإن الإنسان لا يدرك سواد عينه لشدة قربه منه، والله تعالى أقرب إليك من كل شيء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ

مِنَ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ [ق: الآية 16] فشدة قربه منك موجب لاضمحلالك.

الحكمة الثانية: في خفائه تعالى شدة ظهوره، ولا شك أن شدة الظهور موجب

للخفاء.

وقد مثلوا ذلك بقرص الشمس حين يعظم شعاعه ويتقوى إشراقه، فإن الأبصار

الضعيفة لا تقوى على مشاهدته مع شدة ظهوره، فصار شدة الظهور موجباً للخفاء، كما قال الشاعر^(*):

وما احتجبت إلا برفع حجابها ومن عجب أن الظهور تستر

الحكمة الثالثة: شدة نوره، ولا شك أن شدة النور موجب لعدم الإدراك، فإن البصر

لا يقاوم النور الباهر. وفي حديث مسلم في قصة الإسراء، قلنا: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه»⁽¹⁾ بلفظ الاستهام، أي غلبني النور كيف أراه. وأنشدوا⁽²⁾:

بالنور يظهر ما ترى من صورة وبه وجود الكائنات بلا امنرا
لكنه يخفى لفرط ظهوره حساً ويدركه البصير من الورى
فإذا نظرت بعين عقلي لم تجد شيئاً سواه على الذوات مصورا
وإذا طلبت حقيقة من غيره فبذيل جهلك لا تزال معثرا

وهذا النور الذي نتكلم فيه هو النور الأصلي الذي فاض من بحر الجبروت إلا أنه

تستر بالحكمة والعزة والقهرية.

[خلاصة ما ورد في الباب السابع عشر]

هذا آخر الباب السابع عشر، وحاصله: ثلاثة أمور:

الأول: تلازم الدلالة على أولياء الله للدلالة على الله، بحيث لا ينفك أحدهما

عن الآخر في الغالب.

(*) هو الشيخ أبو العباس المرسي وارث الإمام أبي الحسن الشاذلي، توفي سنة 686 هجرية.

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب في قوله عليه السلام: «نور أنى أراه»، حديث رقم (178) [1/161] وابن حبان في صحيحه، ذكر الخبر الدال...، حديث رقم (58) [1/254] ورواه غيرهما.

(2) لم أقف على اسم هذا المنتشد.

الثاني: تفسير أسرار الولاية، وهي الاطلاع على أسرار غيب الملكوت دون اشتراط الاطلاع على أسرار العباد، لأن ذلك قد يكون فتنة في حقه وسبباً في عقوبته، إذا لم يتمكن من معرفته مع ما فيه من حفظ النفس، فربما تقصده بطاعتها فيكون رياء في حقها، وهو من الأمراض الباطنية التي يصعب علاجها، كالاستشراف إلى اطلاع الناس على خصوصيته، ودواؤه الغيبة عنهم والاكتفاء بنظر الله عن نظر غيره.

الأمر الثالث: علامة وجود هذه الأسرار في العارف وهي شهود الحق في كل شيء وفناؤه عن كل شيء، وإيثار محبته على كل شيء، فإن قلت: كيف يشهده وهو غيب، قلت: بل هو ظاهر في كل شيء، وإنما حجبه شدة قربه وشدة ظهوره وعظيم نوره، وإذا علمت أنه قريب، وأنه أقرب إليك من روحك وقلبك، اكتفيت بنظره واستغنيت بعلمه عن طلبه، فإن كان ولا بد من الدعاء فليكن عبودية ومناجاة وتملقاً لا سبباً للعطاء، كما أبان ذلك في أول الباب الثامن عشر بقوله:

[الباب الثامن عشر]

وقال رضي الله عنه :

162 - (لا يَكُنْ طَلْبُكَ تَسْبِيًّا إِلَى الْعَطَاءِ مِنْهُ، فَيَقْلَ فَهْمُكَ عَنْهُ. وَلْيَكُنْ طَلْبُكَ لِإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ، وَقِيَاماً بِحَقُوقِ الرَّبُوبِيَّةِ)

قلت: إن كان ولا بد من الطلب فليكن إظهاراً للعبودية وقياماً بحقوق الربوبية، فلا يكن طلبك من الحق سبباً إلى العطاء منه فيقل فهمك عنه، لأن الفهم عن الله يقتضي الاكتفاء بعلمه والاستغناء بمعرفته، فلا يحتاج إلى شيء، ولا يتوقف على شيء، ماذا فقد من وجده تعالى، فلا يكن محط نظرك إلا ما يبرز من عنصر القدرة، ولا تشتهي إلا ما يقضيه عليك مولاك. قيل لبعضهم: ماذا تشتهي، قال: ما يقضي الله تعالى.

وقال بعضهم: فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه، وإلا فالرب يفعل ما يشاء.

قيل: إن سيدنا موسى عليه السلام قال: يا رب أطعمني فإني جائع، فأوحى الله إليه: قد علمت ذلك، قال: يا رب أطعمني، قال له: حتى أريد. وهذا مقام أهل النهايات. وأما أهل البدايات فيرخص لهم في طلب الحاجات وفي كثرة الدعاء والتضرعات، فالدعاء في حقهم واجب أو مندوب وفيهم ورد الترغيب في الدعاء والإلحاح فيه، قال تعالى: ﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [خافر: الآية 60]، وقال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: الآية 62].

وورد في بعض الأخبار: أن الله تعالى قال لسيدنا موسى عليه السلام: سلني حتى ملح عجينك⁽¹⁾. تشريعاً للضعفاء، لأن الأنبياء عليهم السلام بعثوا معلمين للضعفاء والأقوياء.

وينبغي أن يتأدب في الدعاء فلا يدعو بممنوع شرعاً ولا ممتنع عقلاً، ويكون بتلطف وانكسار وظهور فاقة واضطرار لا بانبساط وإدلال⁽²⁾، فإن ذلك مقام الرجال أهل المكانة والكمال.

[الطلب اللاحق لا يكون سبباً في العطاء السابق]

ثم بين وجه ما ذكره من كون الدعاء إنما يكون عبودية لا سبباً في العطاء، فقال:

163 - (كَيْفَ يَكُونُ طَلْبُكَ اللَّاحِقُ، سَبَبًا فِي عَطَائِهِ السَّابِقِ؟ جَلَّ حُكْمُ الْأَزَلِ، أَنْ يَنْضَافَ إِلَى الْعِلَلِ)

(1) إدلال: من أدل عليه. وتدلل: انبط، ودل المرأة ودلالها: تدلها على زوجها، وذلك أن تربه جراءة عليه في نتج.

(2) أورده أبو الفرج البغدادي في جامع العلوم والحكم، [225 / 1] وعلي القاري في مرقاة المفاتيح، الفصل الثاني، [177 / 5].

قلت: العطاء السابق: هو ما تعلق به علمه القديم قبل أن تظهر تجليات الأكوان، ولا شك أن الله سبحانه قدر في الأزل ما كان وما يكون إلى أبد الأبد، فقد قسم الأرزاق الحسية والمعنوية وقدر الأجال، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ ﴿١٤٥﴾﴾ [القدر: الآية 49]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الزهد: الآية 8]، وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْجِرُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأصناف: الآية 34]، وقال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرٍ وَلَا يُغَيَّرُ مِنْ غَيْرِهِ ﴿١٠١﴾﴾ [الطير: الآية 11]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِتَنفِيسِ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُرَجَّلًا ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران: الآية 145].

فإذا علمت أيها الإنسان أن القضاء والقدر قد سبق برزقك وأجلك، وأنه قد سبقت قسمتك وجودك فماذا تطلب؟ وإذا طلبت فكيف يكون طلبك اللاحق سبباً في عطائه السابق؟ إذ قد سبق منه العطاء قبل أن يكون منك الطلب، جلّ - أي عظم - وتعالى حكم الأزل القديم أن يضاف إلى العلل والأسباب الحادثة، إذ محال أن يتقدم الحادث على القديم لا وجوداً ولا حكماً.

وقال بعضهم^(١): ليس [في] الإمكان أبدع مما كان، أي باعتبار العلم والمشية لا باعتبار القدرة. فالمراد بما كان: القدر والقضاء السابق، فما كونه القدرة وأظهرته لا يمكن أن يكون أبدع منه من حيث تعلق العلم القديم، فلا يمكن تخلفه وإن كان العقل يجوز أن يخلق الله تعالى أبدع منه والقدرة سالحة، ولكن لما سبق به العلم ونفذ به القضاء، لم يكن أبدع منه.

[عنايته بك قبل ظهورك]

ومما يدلّك على أن طلبك ليس سبباً في عطائه لك، وجود عنايته بك قبل ظهورك الذي أشار إليه بقوله:

164 - (هِنَايَتُهُ فَيْكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ، وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَاجِهَتَكَ هِنَايَتُهُ، وَقَابَلَتَكَ رِهَائَتُهُ؟ لَمْ يَكُنْ فِي أَرْزَلِهِ إِخْلَاصٌ أَحْمَالٍ، وَلَا وَجُودٌ أَحْوَالٍ. بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا مَخْضُ الْإِفْضَالِ، وَعَظِيمُ النَّوَالِ)

قلت: مما تواترت به الأخبار والنقول، ووافق المنقول المعقول، أن ما شاء الله يكون وما لم يشأ ربنا لم يكن، ومشيته تعالى قديمة لأنها عين إرادته وإرادته على وفق علمه وعلمه قديم، فكل ما يبرز في عالم الشهادة فإنما هو ما قدره الحق في عالم الغيب

(١) هو الإمام حجة الإسلام أبو حامد: محمد الغزالي المتوفى سنة 505 هجرية. وهذه العبارة أثار الجدل بين علماء الكلام، وكلام الشيخ أحمد بن عجيبة رحمه الله تعالى فيه تضمن الرد على منتقدي هذه العبارة.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، عن ابن عباس، حديث رقم (12988) [238 / 12] وابن السني الدينوري في عمل اليوم والليلة، باب ما يوصى به الغلام إذا عقل، حديث رقم (425) [374 / 1] ورواه غيرهما.

«جفت الأقلام وطويت الصحف»⁽¹⁾ قال تعالى: ﴿مَا آصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: الآية 22] أي نظهرها، فلا سعادة ولا شقاء إلا وقد سبق بهما القدر والقضاء.

فإذا علمت ذلك أيها الإنسان اكتفيت بعلمه السابق عن طلبك اللاحق، وبقي طلبك عبودية وأدباً مع الربوبية، وإلا فعنايته فيك سابقة على وجودك لا شيء منك تستحق به عنايته ومنتته.

وأين كنت حين واجهتك عنايته في أزله حين سبقت لك منه العناية، وكتبك في جملة أهل الرعاية والهداية؟ ثم لما استنطقك يوم الميثاق أقررت بربوبيته.

وأين كنت حين قابلتك رعايته وحفظه وأنت في ظلمة الأحشاء حين أجرى عليك رزقه من عرق الدم، وحفظك في ذلك المستودع حتى اشتدت أعضائك وقويت أركانك، فأخرجك إلى رفقه وما يسر لك من رزقه؟ لم يكن في أزله حين واجهتك عنايته ولا في مستودعك في الرحم حين قابلتك رعايته، إخلاص أعمال ولا وجود أحوال تستحق بهما وجود النوال، بل لم يكن في ذلك الوقت إلا محض الإفضال وعظيم النوال.

وهنا انتهت معرفة العارفين، أعني حين تحققوا بسابق القدر غابوا عن أنفسهم في وجود معروفهم، فاستراحوا واستظلوا في ظل الرضى والتسليم وهب عليهم من جنات المعارف نسيم، لكن اختلفت أحوالهم في حال نهايتهم، الماء واحد والزهر ألوان.

فمنهم: من يغلب عليه الهيبة والحياء، من كان بالله أعرف كان له أخوف. وفيهم قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: الآية 28].

ومنهم: من يغلب عليه الشوق والاشتياق.

وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: غيبي الشوق يوماً فقلت: يا رب إن أعطيت أحداً من المحبين ما تسكن به قلوبهم قبل لقائك فأعطني ذلك، فقد أضرني القلق. فرأيت في النوم كأنه أوقفني بين يديه وقال: يا إبراهيم، أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن قلبك قبل لقائي، وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه، فقلت: يا رب تهت فلم أدر ما أقول، فاغفر لي وعلمني ما أقول، فقال، قل اللهم رضني بقضائك، وصبرني على بلائك، وأوزعني شكر نعمائك.

ومنهم: من تغلب عليه السكينة في القلب لأن العلم واليقين يوجبان السكون والطمانينة، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته، قال تعالى: ﴿أَلَا يَنْصُرُ اللَّهُ نَظْمِينَ الْقُلُوبِ﴾ [الرعد: الآية 28].

ومنهم: من يغلب عليه الدهش والحيرة، قال بعضهم: أعرف الناس بالله أشدهم

تحيراً فيه . وفي الحديث : «اللهم زدني فيك تحيراً»⁽¹⁾ .

ومنهم : من يغلب عليه التواضع والخضوع والذل والانكسار ، قال الجنيد : العارف كالأرض يطؤها البر والفاجر ، وكالسحاب يُظلُّ الأحمر والأبيض ، وكالمطر يسقي الماشي والراشي .

ومنهم : من تتسع معرفته ويخوض بحار التوحيد فلا يكدره شيء ولا يُسلط عليه شيء ، بل يأخذ النصيب من كل شيء ، ولا يأخذ من نصيبه شيء ، يأنس بكل شيء ولا يستوحش من شيء .

قال أبو تراب : العارف به يصفو كدر كل شيء ، ولا يكدره شيء . انتهى .
وقال أبو سليمان الداراني : إن الله يفتح للعارف على فراشه ما لا يفتح له وهو قائم يصلي . وقال بعضهم : العارف من أنس بذكر الله حتى استوحش من خلقه وافتقر إلى الله تبارك وتعالى فأغناه عن خلقه ، وذل إلى الله تبارك وتعالى فأعزه الله في خلقه .

[تشوف العباد لظهور سر العناية]

ولما كان الاعتماد على السابقة يقتضي ترك العمل بين سر ذلك بقوله :

165 - (عَلِمَ أَنَّ الْعِبَادَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَى ظُهُورِ سِرِّ الْعِنَايَةِ فَقَالَ : ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 105] ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلَّاهُمْ وَذَلِكَ لَتَرَكُوا الْعَمَلَ أَهْتِمَاداً عَلَى الْأَزْلِ فَقَالَ : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56])

قلت : لما أخبر الله سبحانه في كتبه على السنة رسله أن المدار إنما هو على السابقة ، فمن سبقت له العناية لا تضره الجناية ، تشوق الخلق كلهم إلى ظهور سر هذه العناية ، فكل واحد يظن أنه من أهلها ، فأخبرهم الحق تعالى أن ذلك السر إنما هو للبعض دون البعض ، فقال : ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: الآية 105] فأسندهما إلى مشيئته دون مشيئتهم ، فعلموا أن ذلك إنما هو للبعض دون الكل ، لأن كل واحد يطمع أنه من ذلك البعض ، فربما يتركون العمل ويعتمدون على سابق الأزل ، فأخبرهم الحق تعالى : أن ذلك السر له علامات تدل على من هو من أهله ومختص به ، فقال : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية 56] فالرحمة هنا هي العناية السابقة ، وهي قريبة من المحسنين الذين أحسنوا عبادة ربهم ، وأحسنوا إلى عباد ربهم .

فحصل أن سر العناية إنما تظهر على المحسنين المتقين لأعمالهم ، المخلصين في عبودية ربهم ، فمن استند إلى الحكم السابق وترك العمل فهو مغرور أو مطرود لإبطاله الحكمة ، ومن استند إلى العمل دون النظر للقدرة والمشية السابقة فهو جاهل

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع . وهذه العبارة هي من كلام العارفين بالله تعالى يعبرون بها عن مقام الحيرة المحمودة التي تفيد حق اليقين وليس المذمومة التي تفيد الظن والشك .

بعيد من الحضرة غافل، ومن جمع بينهما فهو محقق كامل. وسر العناية إليه إن شاء الله واصل.

[استناد الأشياء إلى المشيئة]

ثم بين ما تقدم من حكم المشيئة، فقال:

166 - (إِلَى الْمَشِيئَةِ يَسْتَنْدُ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَا تَسْتَنْدُ هِيَ إِلَى شَيْءٍ)

قلت: المشيئة والإرادة شيء واحد، وإليهما تستند الأشياء كلها، قال تعالى: ﴿رَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية 30]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: الآية 112] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على سق المشيئة لكل شيء.

وأما هي فلا تستند إلى شيء، ولا تتوقف على شيء، فلا نتوقف على سؤال ولا على طلب، فما شاء الله كان من غير سبب ولا سؤال، وما لم يشأ ربنا لم يكن، قرَّب من شاء بلا عمل، وبعد من شاء بلا سبب، لا يُسأل عمَّا يفعل وهم يسألون. فقاعدة التحقيق ما ثمَّ إلاَّ سابقة التوفيق.

قال أبو بكر الواسطي رضي الله عنه: إن الله لا يقرب فقيراً لأجل فقره ولا يبعد غنياً لأجل غناه، وليس للأعراض عنده خطر حتى بها يوصل وبها يقطع، ولو بذلت الدنيا والآخرة ما أوصلت إليه بها، ولو أخذتها كلها ما قطعك بها.

قرَّب من شاء بغير حلة، وقطع من شاء من غير حلة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: الآية 40] فانظر إلى المشيئة حقيقة، والنظر إلى السبب شريعة. أو تقول: النظر إلى المشيئة قدرة، والنظر إلى الأسباب حكمة. ولا بد من الجمع بينهما.

قال الشطبي: واعلم أن الناس أربعة: فاظر في السوابق لعلمه بأن الحكم الأزلي لا يتغير باكتساب العبد.

ونافظ في العواقب لعلمه بأن الأعمال بخواتمها.

ونافظ للوقت لا يشتغل بالسوابق ولا بالعواقب غير أداء ما كلف به من حكم الوقت، عالم بأن العارف ابن وقته، لا يهتم بماض ولا مستقبل، ولا يرى غير الوقت الذي هو فيه.

ونافظ لله وحده لعلمه بأن الماضي والمستقبل والحال متقلبون في قبضته متصرفون في حكمه، والأوقات كلها قابلة للتغير وتبديل الحال، فلا يراها وإنما يراقب من كل شيء بيده.

وقد أراد بعضهم الخروج من بين يدي بعض المشايخ فقال له الشيخ: أين تريد،

فقال: يا سيدي لثلاث أشغلك عن وقتك، فقال له: ليس عند الله وقت ولا ممت، إنما نرى رب الوقت لا الوقت، ومن تمكّنت فيه حالة الشهود غاب بالموجد عن الوجود ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَنْفِكَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: الآية 18].

حكى أن رجلاً قال لأبي يزيد: أين أبو يزيد، فقال له: ليس هنا أبو يزيد.

وقال رجل للشبلي: أين الشبلي، قال: مات لا رده الله.

إنما عنى الشبلي: لا رده الله لإحساسه عند مشاهدته لربه. ورأى أبو يزيد رجلاً في المسجد يسأل عنه فقال له: وأنا أطلبه منذ سنين، فظن أنه مجنون، فلما أعلم أنه هو قال له: يا سيدي عليك أسأل ولك أطلب، فقال له أبو يزيد: الذي تطلب قد ذهب في الداهيين في الله بالله فلا رده الله.

[خلاصة ما ورد في الباب الثامن عشر]

هذا آخر الباب الثامن عشر، وحاصله: آداب السؤال والطلب، وأنه ينبغي أن يكون عبودية لا سبباً في العطاء، إذ قد سبقت قسمتك في الأزل قبل أن يكون منك طلب، فعنايته سابقة يختص برحمته من يشاء، لكن الحكمة تقتضي وجود العمل فوجود العمل أمانة على خصوصية الأزل مع توقف ذلك على المشيئة، لأنها يستند إليها كل شيء، ولا تستند هي لشيء، فلزم السكون والأدب حتى في ترك الطلب. كما بيّن ذلك في أول الباب التاسع عشر بقوله:

[الباب التاسع عشر]

[ترك الطلب للأدب]

وقال رضي الله عنه :

167 - (رُبَّمَا دَلَّهْمُ الْأَدَبُ، عَلَى تَرْكِ الطَّلَبِ)

قلت : الظاهر أن رُبَّ هنا للتكثير لأن الغالب على العارفين وأهل الفناء السكوت والسكون تحت مجاري الأقدار ، فصدور الطلب منهم نليل ، لأن العارف فإن عن نفسه غائب عن حسه ، ليس له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله قرار ، فلا يتصور منه سؤال ولا فوات مأمول ، «من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»⁽¹⁾ ، الأشياء تشتاق إليه وهو غني عنها ، «اشتأقت الجنة إلى عمار وصهيب وبلال»⁽²⁾ كما في الحديث .
والحاصل : أن العبد ما دام غائباً عن نفسه ، فإن في شهود ربه ، منقطعاً عن حسه ، لا يتصور منه طلب أصلاً ، إذ الطلب يقتضي وجود الإثنية ، والفرض أنه غريق في بحر الوحدة ، فطلبه حينئذ سوء أدب في حقه ، فإن رُدَّ إلى الشعور بنفسه وهو مقام البقاء قد يتصور منه السؤال على وجه العبودية لا على وجه الاقتضاء والطلب كما تقدم . ثم بين مستندهم في ترك الطلب ، فقال :

167 - (أَعْتَمَاداً عَلَى قِسْمَتِهِ، وَأَشْتِغَالاً بِذِكْرِهِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ)

قلت : أما الاعتماد على القسمة الأزلية فقد تقدم الكلام عليها في الحكمة قبل هذه . وأما الاشتغال بالذكر عن المسألة فقد تقدم قريباً في الحديث «من شغله ذكرى عن مسألتي [أعطيته أفضل ما أعطي السائلين]»⁽³⁾ . وقال الواسطي رضي الله عنه : ما جرى لك في الأزل خير من معارضة الوقت ، يعني بالطلب للحظ . وقال القشيري : إذا وجد في قلبه إشارة إلى الدعاء دعا ، كما إذا وجد نشاطاً أو انبساطاً للدعاء فالدعاء أولى ، وإذا وجد في قلبه قبضاً فالسكوت أولى .

وقال بعضهم : ما سألت الله تعالى بلساني شيئاً منذ خمسين سنة ولا أريد أن أدعو ولا أن يدعى لي . انتهى .

وذلك لأن الله سبحانه ليس بغافل حتى يذكر ، بل هو عليم بخفيات أمرك ،

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب ، من شغله ذكرى عن مسألتي حديث رقم (584) [1/340] والبيهقي في شعب الإيمان حديث رقم (572) [1/413] ورواه غيرهما .

(2) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع . والذي ورد : «اشتأقت الجنة إلى ثلاثة : علي وعمار وسلمان» رواه الحاكم في المستدرک . ذكر إسلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حديث رقم (4666) [3/148] . ورواه غيره .

(3) هذا الحديث سبق تخريجه .

فيأتبك منها ما قسم لك . كما بين ذلك بقوله :

168 - (إِنَّمَا يُدَكِّرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِغْفَالُ)

وقد قال تعالى : ﴿رَمَا اللَّهُ يَتَقَدَّرُ عَمَّا تَتَمَلَّوْنَ﴾ [البقرة: الآية 74] ولا يحتاج إلى تنبيه

لأنه لا يهلك فيما هو من قسمتك . كما بينه بقوله :

168 - (وَإِنَّمَا يُنَبِّئُهُ مَنْ يُمَكِّنُ مِنْهُ الْإِهْمَالُ)

والحق تعالى لا يجوز عليه الإهمال لكمال قدرته وإحاطة علمه، ولكن حكمته اقتضت ارتباط الأسباب والعلل [بالمسببات والمعلولات] وتقديم الأشياء وتأخيرها، قال تعالى : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: الآية 8] فمن كمل يقينه اكتفى بتدبير الحق عن تدبيره، واستغنى بعلم الله عن استعجاله، ورضي بتصريف الحق فيما يفعل فيكون إبراهيمياً حنيفياً، ولا شك أن من كان على ملة إبراهيم عليه السلام اقتدى به . وقد كان بين السماء والأرض حين رمي به فاستغنى بعلم الله عن سؤاله، فكانت حالة سيدنا إبراهيم عليه السلام في ذلك الوقت الاستغراق في الحقيقة، فلما رد للشرائع دعا فقال : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: الآية 41] ، ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِيقِي وَالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: الآية 83] .

[فضل الفاقات]

وكذلك الأنبياء عليهم السلام أكثروا من الدعاء للتشريع والتعليم وإظهار الفاقات التي هي مواسم وأعياد كما أبان ذلك بقوله :

169 - (وَرُودُ الْفَاقَاتِ أَهْيَادُ الْمُرِيدِينَ)

قلت : الأعياد جمع عيد، وهو ما يعود على الناس بالأفراح والمسرّة، فالعوام فرحهم ومسرّتهم بالحفظ والعوائد الجسمانية، والخواص فرحهم بإقبال الملك عليهم، ووجود قلوبهم، وشفاء وقتهم من كدرات الأغيار، والغالب أن هذه المعاني إنما توجد عند الفاقة والحيرة والإضطرار حيث ينقطع حظ النفس فيها، لأن النفس كلما ضيّقت عليها رحلت إلى عالم الملكوت، وفي ذلك العالم راحتها وفرحها ومسرّتها . قال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ ﴿٤١﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النازعات: الآيات 40، 41] ، وهما جنتان معجلة وموجلة، فلأجل هذا آثرت الصوفية الفقر على الغنى، والشدة على الرخاء، والذل على العز، والمرض على الصحة، لما يحصل لهم بذلك من الرقة والحلاوة، وكلما ازدادوا فاقة زادهم الله قرباً وولاء .

وقال أبو إسحق الهروي رضي الله عنه : من أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف فليختر سبعاً على سبع : - فإن الصالحين اختاروها حتى بلغوا سنام الخير - اختاروا الفقر على الغنى، والجوع على الشبع، والدون على المرتفع، والذل على العز،

والتواضع على الكبر، والحزن على الفرح، والموت على الحياة. انتهى.
وأنشدوا⁽¹⁾ في أعياد العارفين:

قالت هنا العيد بالبشرى فقلت لها العيد والبشرى عندي يوم لقياك
اللّه يعلم أن الناس قد فرحوا فيه وما فرحتي إلا برؤياك

[وجه كون الفاقات أعياد]

ثم بين وجه كون الفاقة عيداً، فقال:

170 - (رُبَّمَا وَجَدْتَ مِنَ الْمَزِيدِ فِي الْفَاقَاتِ، مَا لَا تَجِدُهُ فِي الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ.
الْفَاقَاتُ بُسْطُ الْمَوَاهِبِ. إِنْ أَرَدْتَ وُرُودَ الْمَوَاهِبِ عَلَيْكَ، صَحِّحِ الْفَقْرَ وَالْفَاقَةَ
لَدَيْكَ ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: 60]

قلت: إنما كان الإنسان يجد في الفاقة من المزيد ما لا يجده في الصوم
والصلاة، لأن الفاقة من أعمال القلوب، والصوم والصلاة من أعمال الجوارح، والذرة
من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، الفاقات قوت الروح،
والصوم والصلاة قوت القلب، والروح محل المشاهدة، والقلب محل المراقبة، وما
بينهما معلوم.

قال بعضهم: اعلم أن المدد الذي هو الفتح الرباني إنما يقع في القلوب الفارغة
من العوائق والشواغل، وقد يوجد العبد كثير الصلاة والصيام وبياب قلبه مسدود
لاشتغاله بأمور دنياء، وهم الأكثر من الناس، وقد يوجد العبد قليل الصوم والصلاة
وبياب قلبه مفتوح للعلوم اللدنية والتنزلات الفهيمية، وهم الأقلون من الناس، وكل
العبادات يدخلها الرياء إلا الخمول لكونه لا حظ للنفس فيه. انتهى.

وفي بعض الأخبار، يقول الله تبارك وتعالى لعبده: «سبكتك بالفاقة لتكون ذهباً»
الحديث⁽²⁾. قال في التنوير⁽³⁾: اعلم أن في البلايا والفاقات من أسرار الألفاف ما لا
يفهمه إلا أولر البصائر، ولو لم يكن إلا تذلل النفس وتحقيرها وقطعها عن حظوظها
لكان في ذلك غاية المطلوب منها، وقد قيل: حيثما وقعت الذلة وقعت معها النصر.
قال الله العظيم: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: الآية 123] اهـ.

فإن أردت أيها الفقير بسط المواهب وورودها عليك فصحيح الفقر والفاقة لديك،
فإذا صححت الفاقة والفقر عندك، فاستعد لكتب المواهب، فإنها ترد عليك كالسحاب،

(1) منشد هذه الأبيات هو العارف بالله تعالى أبو بكر الشبلي دلف بن جحدر المتوفى سنة 334هـ.

(موسوعة الشعر العربي، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

(2) هذا الخبر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب.

وقد قلت في هذا :

وإن تردن بسط المواهب عاجلاً ففي الفاقة ربح المواهب ينشر
وإن تردن عزاً منيعاً مزيداً ففي الذل يحفي العز بل ثم يظهر
وإن تردن العرفان فافن عن الورى وعن كل مطلوب سوى الحق تظفر
تري الحق في الأشياء حين تلطفت ففي كل موجود حبيبي ظاهر
والمراد بالمواهب، معارف وكشوفات وطمانينة وحكم وعلوم وأسرار ترد على
القلوب من خزائن الغيوب حال صفائها وتصفيتها من الغيرية، وأصنى ما يكون القلب
حين تذهب النفس، وذهاب النفس إنما يكون بترك حظوظها، ولا يتحقق ذلك في
الغالب إلا في حال الفاقة والفقر، ولذلك كانوا يفرحون بالفقر ويحزنون من الغنى .
فتح على بعضهم بشيء من الدنيا، فقال : هذه عقوبة لم أدر ما سببها .

وقال الشبلي : الفقير لا يستغني بشيء دون الله . وقال السهروردي في عوارف
المعارف : الفقر أساس التصوف وبه قوامه ، ويلزم من وجود التصوف وجود الفقر لأن
التصوف اسم جامع لمعاني الفقر والزهد مع زيادة أحوال لا بد منها للصوفي وإن كان
فقيراً زاهداً .

ونال بعضهم : نهاية الفقر بداية التصوف لأن التصوف اسم جامع لكل خلق سني
والخروج عن كل خلق دني ، لكنهم اتفقوا أن لا دخول على الله إلا من باب الفقر ، ومن لم
يتحقق بالفقر لم يتحقق بشيء مما أشار إليه القوم ، والتحقق بالفقر هو الاستئناس به
والإغباط بحصوله والاستقرار معه حتى يكون عنده أحلى من لعسل ويكون الماء عنده أمر
من الحنظل ، فحينئذ تترادف عليه المراهب وتتسع له المعارف حتى يكون أغنى الأغنياء .
هذا واستشهد المؤلف رضي الله عنه بالآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ
وَالْمَسْكِينِ ﴾ [التوبة : الآية 60] إشارة إلى أن ما يهبه الله تعالى من المواهب والمعارف ،
إنما هي صدقة ومنة لا جزاء على الأعمال والأحوال ، لأن الصدقة لا تكون في مقابلة
عمل ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

* * *

ثم التحقق بالفقر مجموعه التحقق بأوصاف العبودية وهي الذل والمعجز
والضعف ، كما بين ذلك بقوله :

171 - (تَحَقَّقْ بِأَوْصَالِكَ يُمِدُّكَ بِأَوْصَالِهِ . تَحَقَّقْ بِذُلِّكَ يُمِدُّكَ بِعِزَّتِهِ ، تَحَقَّقْ
بِعَجْزِكَ يُمِدُّكَ بِقُدْرَتِهِ ، تَحَقَّقْ بِضَعْفِكَ يُمِدُّكَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ)

قلت : أوصاف العبودية أربعة يقابلها من أوصاف الربوبية أربعة ، أولها : من العبد
الفقر ومن الله الغنى . الثاني : من العبد الذل ومن الله العز . الثالث : من العبد المعجز
ومن الله القدرة . الرابع : من العبد الضعف ومن الله القوة .

والتحقق بالوصف هو التحلي والاتصاف به قلباً وقالباً ، ويكون ذلك بادياً بين

خلقه فلا يتحقق الغنى لله حتى يظهر الذُّل بين عباده، فمن أراد أن يمدّه الله بالغنى به عما سواه فليتحقق بالفقر مما سواه، كما قال الشيخ أبو الحسن [الشاذلي] في حربه الكبير: نسألك الفقر مما سواك، والغنى بك حتى لا نشهد إلا إياك. ومن أراد أن يمدّه الله بالعز الذي لا يفنى فليتحقق بالذل لله والتواضع بين خلقه، فمن تواضع دون قدره، رفعه الله فوق قدره ومن أراد أن يمدّه الله بالقدرة الخارئة للعوائد فليتحقق بمعجزه ويتبرأ من حوله وقوته، ومن أراد أن يمدّه الله بالقوة على طاعة مولاه ومجاهدة نفسه وهواه فليتحقق بضعفه ويسند أمره إلى سيده، فبقدر ما تعطي تأخذ، وبقدر ما تتخلق تتحقق، وبقدر ما تتحقق بوصفك يمدك بوصفه.

روي أن بعض الملوك قال لبعض الفقراء: ما يكون لك من حاجة فارفعها إليّ، فقال له الفقير: قد رفعت حوائجي لمن هو أقدر منك، فما أعطاني منها رضيت به، وما منعتني منها رضيت عنه. فقل له: ولا لك حاجة عندي، قال: بلى، قال: وما هي، قال: لا تراني ولا أراك.

فهذا هو التعلق بوصف الربوبية والتعزز بالله الذي لا يفنى عزّه، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَالرَّسُولُ، وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المتألقون: الآية 8] ومن تعزز بالله ذلك له كل شيء. وقد حج شيبان الراعي مع سفيان الثوري، فلما كانا في البرية عرض لهما سبع، فأخذ سفيان خارج الطريق، ومضى إليه شيبان ثم عرك أذنه، فلم يزد أن حرّك ذنبه وبصيص وانصرف، فقال له سفيان: ما هذا يا شيبان، فقال له: لو شئت أن أركبه إلى مكة لفعلت.

وكانت عجوز تأتي كل يوم لبيت السري السقطي فتكنس بيته وتسوق له بعض القوت، فسئل: من هي، فقال: الدنيا سخرها الله لي لما زهدت فيها. وفي هذا المعنى ورد الحديث، يقول الله تعالى للدنيا: «يا دنيا اخدمني من خدمني وأتعبي من خدمك»⁽¹⁾.

وقال إبراهيم بن أدهم: من طلب الفقر استقبله الغنى، ومن طلب الغنى استقبله الفقر، والغنى هو الغنى بالله.

وقال سهل رضي الله عنه: لم يشم رائحة اليقين من ركن لغير الله. وقال أبو تراب: رأيت شاباً في البادية يمشي بلا زاد، فقلت: في هذا الموضع بلا زاد، قال: لست أرى غير الله، فقلت اذهب الآن حيث شئت.

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب، يا دنيا اخدمني... حديث رقم (1454) [325/2] والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (8064) [239/5] ورواه غيرهما.

وقال إبراهيم الخواص : لقيت فقيراً في البادية، فقلت له : إلى أين، فقال : إلى مكة، قلت : بلا زاد ولا راحلة، فقال : الذي بمسك السماوات والأرضين ويحفظهما لا يعجزه قوتي بلا سبب ولا علاقة، فقلت : صدقت. ثم رأيت بعد ذلك في مكة وهو يطوف ويقول :

يا عين سحي أبدأ يا نفس موتي كسدا
ولا تحببي أحداً إلا الإله الصمدا

فلما رأني قال لي : ما زلت على ضعف يقينك، فقلت : لا بل أعلم أن الله على كل شيء قدير. انتهى.

[خلاصة ما ورد في الباب التاسع عشر]

هذا آخر الباب التاسع عشر، وحاصله : أن العارفين ربما دلهم الأدب على ترك الطلب اكتفاء بعلم الله، إذ لا يُذَكَّرُ إلا الغافل ولا يُنَبَّه إلا الساهي، وتعالى الله عن الأمرين علواً كبيراً، فإذا نزلت بهم فاقة أو شدة لم يسألوا رفعها، بل فرحوا بها، وجعلوها مواسم وأعياداً لما يجدون فيها من المزيد، وما يهب على قلوبهم من نسيم التوحيد والتفريد، وهي المواهب الربانية والعلوم اللدنية، فتحققوا بأوصافهم وأمدّهم بأوصافه، فصاروا في الظاهر عبداً وفي الباطن أحراراً، في الظاهر فقراء ضعفاء أذلاء وفي الباطن أغنياء أقرباء أعزاء، وهذه هي الكرامة العظمى دون الكرامة الحسية، كما أشار إلى ذلك في أول الباب الموفي عشرين.

[الباب الموفي عشريين]

[ظهور الكرامة على من لم تكمل استقامته]

فقال: رضي الله عنه:

172 - (رُبَّمَا رُزِقَ الْكِرَامَةُ، مِنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ الْإِسْتِقَامَةُ)

قلت: الكرامة الحسية: هي خرق الحس العادي كالمشي على الماء، والطيران في الهواء، وطى الأرض، ونبع الماء، وجلب الطعام، والاطلاع على المغيبات، وغير ذلك من خوارق العادات.

والكرامة المعنوية: هي استقامة العبد مع ربه في الظاهر والباطن، وكشف الحجاب عن قلبه حتى عرف مولاه، والظفر بنفسه ومخالفة هواه، وقوة يقينه وسكونه وطمأنينته بالله، والمعتبر عند المحققين هي هذه الكرامة.

وأما الكرامة الحسية فلا يطلبونها ولا يلتفتون إليها، إذ قد تظهر على يد من لم تكمل استقامته، بل قد تظهر على يد من لا استقامة له أصلاً كالسحرة والكهان، وقد تظهر على أيدي الرهبان، وليست بكرامة إنما هي استدراج.

[كرامة الإيمان وكرامة العمل]

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان، كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوي والمخادعة، فمن أعطيهما ثم جعل يشاق إلى غيرهما فهو عبد مفتر كذاب. انتهى.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: ليس الشأن من تطوى له الأرض، فإذا هو بمكة أو غيرها من البلدان، إنما الشأن من تطوى له صفات نفسه، فإذا هو عند ربه.

[الكرامة الحقيقية]

قلت: والكرامة الحقيقية هي الاستقامة على الدين وحصول كمال اليقين، وأما خوارق العادات الحسية، فإن صحبتها الاستقامة ظاهراً وباطناً وجب تعظيم صاحبها لأنها شاهدة له بالكمال مما هو فيه، وإن لم تصحبها استقامة فلا عبرة بها.

والغالب أن أهل الباطن كرامتهم باطنية؛ ككشف الحجب ومزيد الإيمان ومعرفة الشهود والعيان، وكذلك عقوبة من آذاهم جلها باطنية لا يتفطنون لها؛ كقساوة القلب

والانهماك في الذنوب والغفلة عن الله والبعد عن حضرته ولكن لا يشعرون، وهي أعظم من العقوبة في الحسن.

والحاصل: أن أهل الاستقامة الظاهرية كرامتهم ظاهرة حسية، وأهل الاستقامة الباطنية كرامتهم باطنية معنوية. أهل الظاهر من آذاهم عوقب في الظاهر، وأهل الباطن من آذاهم عوقب في الباطن، وقد لا يعاقب لأنهم رحمة [أو] كل من قرب منهم شملته الرحمة، كان قربه تسليماً أو إنكاراً، هم قوم لا يشقى جليسهم على قدم النبي ﷺ حيث قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»⁽¹⁾ وكل ولي أراد الله تعالى أن ينتفع الناس على يده لا يعاجل بالعقوبة من آذاه، اقتداء برسول الله ﷺ، حيث خيره ملك الجبال فحلم ﷺ وعفا وقال: «لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله»⁽²⁾ والله تعالى أعلم.

[علامة إقامة الحق لك في الشيء]

وأعظم الكرامة الفهم عن الله، والرضى بقضاء الله، وترك التدبير والاختيار مع الله، وإقامة العبد حيث أقامه الله كما أبان ذلك بقوله:

173 - (مِنْ عَلامَاتِ إقامَةِ الْحَقِّ لَكَ فِي الشَّيْءِ إِدامَةُ إِيّاكَ فِيهِ مَعَ حُصولِ

النَّاتِجِ)

قلت: إذا أقام الحق تعالى عبده في حالة لا يستقبحها الشرع ولا يذمها سليم الطبع، فلا ينبغي له الانتقال عنها بنفسه حتى يكون الحق تعالى الذي أدخله فيها هو الذي يتولى إخراجها منها، ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: الآية 80] فالمدخل الصدق أن تدخل في الشيء بالله لا بنفسك، والمخرج الصدق أن تخرج منه بالله لا بنفسك، فإذا أقامك الحق تعالى في الأسباب فلا تخرج منها بنفسك فتتعب، فامكث حتى يخرجك الحق تعالى بإشارة صريحة من شيخك أو من هاتف من عند ربك. وقد تقدم هذا في أول الكتاب.

ومن علامة إقامة الله تعالى لك في ذلك الشيء الذي أنت فيه، إقامة الحق إياك في ذلك الشيء مع حصول النتائج وسلامة الدين، والمراد بالنتائج ما يترتب عليه من

(1) رواه البخاري في صحيحه، حديث الغار، رقم (3289) [1282/3] وفي باب إذا عرض الذي...، حديث رقم (6530) [2539/6] ورواه مسلم في صحيحه، باب غزوة أحد، حديث رقم (1792) [1417/3] ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب إذا قال أحدكم آمين...، حديث رقم (3059) [1180/3] ولفظه: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً». ورواه مسلم بلفظه، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، حديث رقم (1795) [1420/3] ورواه غيرهما.

إعطاء حقه الواجب والمستحب، كأداء الزكاة وإطعام الجائع وستر العريان وبتغائة اللهفان، وغير ذلك من أنواع الإحسان.

وإذا أقامه الحق تعالى في نشر العلم الظاهر، فعلامة إقامة الحق فيه، تعليمه الله ونفع عباد الله والزهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله، والتواضع والصبر على جفاء المتعلمين، وهكذا سائر الحرف إذا كان فيها على المنهج الشرعي فلا ينتقل عنها بنفسه، وإذا أقامك الحق تعالى في التجريد فالزم الباب وتحل بالأداب حتى يفتح لك الباب. فعلامة إقامته إياك فيه حصول نتائجه، وهي الترقى في الأحوال والمقامات حتى تبلغ النهايات.

والمقامات هي التوبة والتقوى والاستقامة والزهد والورع والخوف والرجاء والرضى والتسليم والإخلاص والصدق والطمانينة والمراقبة والمشاهدة والمعرفة، وكل مقام له علم وعمل وحال، فأوله علم وثانيه عمل وثالثه حال ثم مقام، فإذا بلغ إلى مقام المعرفة وتمكن فيها انقطعت المقامات.

[التعبير من بساط النفس ومن بساط الحق تعالى]

قال بعضهم: في بحر التوحيد غاصت الأحوال وانطمست المقامات ﴿وَأَنَّ إِنْ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: الآية 42] فحينئذ يغمس في بحر الإحسان، فإذا عبر من بساط إحسان الله له لم يصمت إذا أساء، كما أبان ذلك بقوله:

174 - (مَنْ عَبَّرَ مِنْ بَسَاطِ إِحْسَانِهِ أَصْمَتَتْهُ الْإِسَاءَةُ، وَمَنْ عَبَّرَ مِنْ بَسَاطِ إِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْهِ لَمْ يَصْمُتْ إِذَا أَسَاءَ)

قلت: أهل التعبير، وهم أهل التذكير، الذين يذكرون عباد الله، ويعبرون عما منحهم الله به من العلوم والمواهب والفتوحات والكرامات، على قسمين: علماء وعارفون، أو تقول: أهل الحجاب وأهل الفتح.

فأهل الحجاب يعبرون من بساط إحسان أنفسهم، فيقولون فعلنا كذا، ورأينا كذا، وفتح علينا في كذا، وانعلوا أيها الناس كذا واتركوا كذا، فإذا وقعوا في زلة أو هفوة سكتوا حياء من الله وخوفاً أن يأمرؤا بما لم يفعلوا، لأنهم باقون مع نفوسهم محجوبون عن ربهم، فإذا فعلوا طاعة فرحوا بها واعتمدوا عليها، وإذا فعلوا زلة حزنوا وجزعوا وسقطوا في أيديهم، فلما عبروا من بساط إحسان نفوسهم أصمتهم الإساءة.

وأهل الفتح من العارفين يعبرون من بساط إحسان الحق غائبين عن شهود الخلق، فانون عن أنفسهم، باقون بربهم، فهؤلاء إذا عبروا عمّا منحهم الله من المعارف والأسرار والعلوم والأنوار والكرامات والفتوحات والمواهب، وذكروا فأمرؤا ونهوا، دام تعبیرهم ونفع تذكيرهم، فإذا أساءوا لم تصمتهم إساءتهم، لأن إساءتهم من

أنفسهم، وتعبيرهم من بساط إحسان الله إليهم، وإحسانه لا يُكَدِّرُهُ شيء .
 وقولنا: من أنفسهم، أعني أدباً فقط إذ هم لا يشهدون إلاً تصريف الحق فيهم،
 فلذلك لم تصمتهم إساءتهم، لأنهم مغموسون في بحر المنة لا يشهدون في الكون
 سواه، وأيضاً من عبر من بساط نفسه نادته مساويه: اسكت، أما تذكر فعلك القبيح
 ووصفك الذميمة، فيسكت خجلاً .

[أنوار الحكماء تسبق أقوالهم]

ومن عبر من بساط إحسان الله غابت عنه مساويه لغيبته في محاسن مولاه، فلا
 يشهد إلاً إياه، فإذا أراد أن يعبر سبق نور معرفته إلى قلوب عباده، فيسري فيهم التعبير
 ويأخذ بقلوبهم التذكير، كما أبان ذلك بقوله:

175 - (تَسْبِقُ أَنْوَارُ الْحُكَمَاءِ أَقْوَالَهُمْ. فَحَيْثُ صَارَ التَّنْوِيرُ، وَصَلَ التَّعْبِيرُ)

قلت: الحكماء: هم العارفون بالله الذين يتكلمون بالله ويصمتون بالله، غائبون
 عن أنفسهم يشهدون ما من الله إلى الله، فإذا أرادوا أن يعبروا عمّا منحهم مولاهم من
 العلوم والمعارف، سبق نور شهودهم إلى القلوب المستمعة فتسري فيهم على قدر
 صدقهم .

فمنهم من يدخل النور سوידاء قلبه، ومنهم من يقف النور على ظاهر قلبه، ومنهم
 من يشرق النور على طرف قلبه، فإذا عبر العارف عن المقامات والأحوال وصل التعبير
 على قدر سريان النور، فمن وصل النور إلى سويداء قلبه نهض من ساعته إلى ربه، ومن
 وصل إلى ظاهر قلبه خشع وخضع وعزم على البر والتقوى، ومن وصل إلى طرف قلبه
 عرف الحق وصدق، فحيثما صار التنوير وصل التعبير .

وقولنا في تفسير الحكماء: هم العارفون مأخذنا فيه قوله عليه السلام: «رأس
 الحكمة مخافة الله»⁽¹⁾ انتهى . وأعرف الناس بالله أشدهم له خشية، وفيهم قال الله
 تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: الآية 28] .

فأهل التنوير هم الحكماء وهم العارفون بالله . والله در القائل في وصفهم حيث
 قال⁽²⁾:

هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ أَيَسَارُ ذَوُو يَسْرِ سُؤَسُ مَكْرَمَةُ أَبْنَاءِ أَيَسَارِ
 لَا يَنْطِقُونَ بِغَيْرِ الْحَقِّ إِنْ نَطَقُوا وَلَا يَمَارُونَ إِنْ مَارُوا بِإِكْثَارِ

(1) رَوَاهُ الْقِضَاعِيُّ فِي مَسْنَدِ الشَّهَابِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ (115) [100/1] وَالدَّبْلَمِيُّ فِي الْفَرْدَوْسِ بِمَأْثُورِ
 الْخَطَّابِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ (3258) [270/2] .

(2) قَائِلُ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ هُوَ الشَّاعِرُ عَبِيدُ بْنُ الْمَرْنَدَسِ الْكَلَابِيِّ، جَاهِلِيٌّ (انظُرِ الْحِمَاسَةَ الْبَصْرِيَّةَ لِمُصَدِّرِ الدِّينِ
 عَلِيِّ بْنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ) .

من تلق منهم ثقل لاقيث سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري
وقولنا في وصفهم: يشهدون ما من الله إلى الله، يعني أنهم غائبون عن أنفسهم لا
يرون إلا تصريف الحق في مظاهر أنواره.

[علامة الكلام الذي يسبقه التنوير]

ثم ذكر علامة التعبير الذي يسبقه التنوير والذي يسبقه التكدير، فقال:

176 - (كُلُّ كَلَامٍ يَبْرُزُ وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ الْقَلْبِ الَّذِي مِنْهُ بَرَزَ)

قلت: علامة الكلام الذي يسبقه التنوير: هو تأثيره في القلوب، وتهيجه
الأرواح، وتشويقه الأسرار، فإذا سمعه الغافل تنبه، وإذا سمعه العاصي انزجر، وإذا
سمعه الطائع زاد نشاطه وعظم شوقه، وإذا سمعه السائر طوى عنه تعب سيره، وإذا
سمعه الواصل تمكن من حاله.

فالكلام صفة المتكلم، فإذا كان المتكلم ذا تنوير وقع في قلوب السامعين، وإذا
كان ذا تكدير فحد كلامه آذان المستمعين، فكل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه
برز، ولذلك قال سيدنا عليّ كرم الله وجهه: «من تكلم عرفناه من ساعته، ومن لم يتكلم
عرفناه من يومه».

وقالوا أيضاً: الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان
حدّه الآذان.

وقال بعض العارفين: من كان قلبه روحانياً كان كلامه معنوياً ينزل من القلوب في
أوسع ساحاتها، ومن كان قلبه نفسياً كان كلامه حسيّاً. يعني لا يتكلم إلا في الحس ولا
يخوض إلا فيه، ومن مثل هذا الحذر الحذر، لأن قلبه ميت فكلامه كله على الميتة،
والميتة هي الجيفة.

قال عليه السلام: «الدنيا جيفة وطلابها كلاب»⁽¹⁾ فمن تكلم على الدنيا فمثلته كالكلب ولا
خير في كلب ولو كان عالماً.

[حسن العبارة وجلاء الإشارة]

ثم إن هذه الكسوة التي تبرز على الكلام إنما هي من نتائج الإذن من الله فيه، وأما
إذا لم يكن إذن فيه فلا كسوة عليه كما أبان ذلك بقوله:

177 - (مَنْ أُذِنَ لَهُ فِي التَّفْبِيرِ فَهَمَّتْ فِي مَسَامِعِ الْعَلْقِي عِبَارَتُهُ، وَجُلِبَتْ إِلَيْهِمْ

إِشَارَتُهُ).

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (1313) [1/492].

قلت : الإذن في التعبير إنما يكون على يد الشيخ الكامل العارف الذي أهله الله للتربية ونصبه للتوصيل والترقية ، فإذا رأى على تلميذه أهلية التذكير أذن له في التعبير ، فإذا عبر أخذ بمجامع القلوب وفاض من لسانه أسرار علم الغيوب ، فتحسن في مسامع الخلق عبارته ، وتجلى إليهم إشارته ، أي تظهر وتفهم ، ولا عبرة عند المحققين بلحن الكلام وإعراجه ولا خطأ في رفعه ونصبه من صوابه ، وإنما العبرة بالمعاني دون القوالب والأواني .

يحكى أن بعض النحويين دخل مجلس الحسن بن سمعون ليسمع كلامه ، فوجده يلحن فانصرف ذاماً له ، فبلغ ذلك الحسن ، فكتب له : إنك من كثرة الإعجاب رضيت بالوقوف دون الباب ، فاعتمدت على ضبط أقوالك مع لحن أفعالك ، وأنت قد تهت بين خفض ورفع ونصب وجزم ، فانقطعت عن المقصود ، هلاً رفعت إلى الله جميع الحاجات ، وخفضت كل المنكرات ، وجزمت عن الشهوات ، ونصبت بين عينيك الممات ، والله يا أخي ما يقال للعبد لِمَ لَمْ تكن معرباً ، وإنما يقال له : لِمَ كنت مذنباً . ليس المراد فصاحة المقال وإنما المراد فصاحة الفعال ، ولو كان الفضل في فصاحة اللسان لكان سيدنا هارون أولى بالرسالة من سيدنا موسى حيث يقول : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ [القصاص : الآية 34] انتهى . ومما ينسب للخليل رحمه الله أو لسيبويه :

لسان فصيح مُعرب في كلامه فيا لينه من وقفة العرض يسلم
ولا خير في عبد إذا لم يكن تقياً وما ضرراً ذا تقوى لسانٌ مُعجم
والحاصل أن من اجتمع فيه الحال وفصاحة المقال فهو كمال الكمال ، وذلك لأنه ينتفع بكلامه بعد موته كالغزالي والششتري والشاذلي والمرسي والشيخ رضي الله عنهم ، فقد عظم النفع بكلامهم وأعظمهم المؤلف رضي الله عنه ، وقد شهد له شيخه بهذا المعنى فقال : والله لا يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله . وما تخلص التصوف ولا تهذب إلا على يديه ، فقد قرَّب المدارك وبين المسالك في أحسن عبارة وأوجز لفظ وإشارة ، جزاه الله عن المسلمين خيراً .

[بروز الحقائق مكسوفة الأنوار]

ثم بين رضي الله عنه الكلام الذي لم يؤذن لصاحبه في التعبير عنه ، فقال :

177 - (رُبَّمَا بَرَزَتِ الْحَقَائِقُ مَكْسُوفَةً الْأَنْوَارِ ، إِذَا لَمْ يُؤذَنْ لَكَ فِيهَا بِالْإِظْهَارِ)

قلت : قد يتكلم الإنسان بحكم وحقائق مع فصاحة وبلاغة ، لكنها مكسوفة الأنوار مطموسة الأسرار ليس فيها حلاوة ولا عليها طلاوة ، سبب ذلك عدم الإذن فيها ، إذ لو أذن له في التعبير لظهر عليها كسوة التنوير .

قال [ابن عطاء الله] في لطائف المنن : وسمعت أبا العباس [المرسي] يقول : كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة ، وكلام الذي لم يؤذن له [أن] يخرج مكسوف الأنوار ، حتى أن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد

على الآخر . انتهى .

قلت : وينبغي لأهل التعبير أن يخاطبوا الناس بقدر ما يفهمون ، فليس التعبير لأهل البداية كأهل النهاية . وفي الحديث : «خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون»⁽¹⁾ . وذكر في البداية والوسط والنهاية ، وكل واحد يأخذ نصيبه ويشرب من منهله ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَفْرَبَهُمْ﴾ [البقرة : الآية 60] وهذه كانت طريقة الجنيد رضي الله عنه ، يلقي الحقائق على رؤوس الأشهاد ، فقبل له في ذلك فقال : علمنا محفوظ أن يأخذه غير أهله .

[سبب صدور عبارات التوحيد من العارفين]

ثم عبارتهم بعد الإذن لا تكون إلا لحكمة بينها الشيخ بقوله :

178 - (عِبَارَاتُهُمْ إِمَّا لِفَيْضَانٍ وَجِدٍ ، أَوْ لِقَضْدِ هِدَايَةِ مُرِيدٍ)

قلت : ما اشتملت عليه قلوب العارفين من المعارف وأسرار التوحيد وغوامض العلوم التي لا تطيقها جل الفهوم ، هو سر من أسرار الله ، وهم أمناء الله عليها ، فلا يطلعون عليها إلا من رأوه أهلاً لها ، إلا من كان مغلوباً على حاله لا يقدر على إمساكها ، وهو من لم يتمكن من حاله فيها ، فعبارتهم إذاً إما لفيضان وجد غلبه فلم يقدر على إمساكها ، أو لأجل هداية مرید وإرشاده ، وترقيته إلى مقام استحق الاطلاع عليه ، وإلا فلا يظهرون من تلك الأسرار قليلاً ولا أقل من القليل ، وقد تقدم قول بعضهم : قلوب الأحرار ، قبور الأسرار وقال آخر⁽²⁾ :

لا يكتُم السرَّ إلا كل ذي ثقة فالسرَّ عند خيار الناس مكتوم

ثم بيّن حال الفريقين ومقام الرجلين ، فقال :

178 - (الأوّل حال السالّكين)

وهم المستشرفون من السائرين ، حققوا ولم يتمكنوا ، فهم مملوكون في يد الأحوال ، إذا غلب عليهم الوجد ، فاضوا ولم يشعروا ، وإذا رجعوا إلى أنفسهم ندموا واستغفروا .

ثم بيّن حال الثاني فقال :

178 - (والثاني حال أزباب المكنة والمحققين) .

وهم الراسخون المتمكنون ، فلا يعبرون عن تلك الأسرار إلا لأجل هداية المریدين وتربية السالّكين وترقية السائرين ، وأمّا لغير هؤلاء فلا ، فإن عبّر عنها السالك

(1) أورده المجلوني في كشف الخفاء بلفظ : «أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» حديث رقم (592) [225 / 1] .

(2) لم أقف على اسم هذا الآخر .

لا عن غلبة وجد كان في ذلك نوع من الدعوى، وإن عبّر عنها المتمكن من غير قصد هداية كان في ذلك إفشاء لأسرار الربوبية، وهي عندهم أعزّ من الكبريت الأحمر، وقد كان الرجل يخدمهم سنين، فلا يظهرون له منها قليلاً ولا كثيراً، حتى إذا رآه أعطى نفسه وفلسه، وبذل روحه بالكلية، أشاروا إليه إشارة خفية.

ثم من الله على أهل هذا الزمان برجال كرام من أصحابهم بالصدق منحوه من الأسرار في يسير من الزمان ما لم يدركه المتقدمون في الأزمنة الطويلة، جزاهم الله عن الأمة المحمدية خيراً.

وقد تكلم الشيخ أبو الحسن [الشاذلي] على حال السالكين والواصلين بكلام طويل ذكره في لطائف المنن، ونقله الشطبي⁽¹⁾ فقال: إن لله عبادة محق أفعالهم بأفعاله، وأوصافهم بأوصافه، وذاتهم بذاته، وحمّلتهم من أوصافه ما يعجز عن سماعه عامة الخلق، فهم مغرقون في بحر الذات وتيار الصفات، فنوا عن أفعالهم، ثم فنوا عن صفاتهم، ثم فنوا عن ذاتهم وبقوا بذات الله تعالى، ولم يبق لهم منهم شيء، ومن كان في الله تلفه كان على الله خلفه، ومن صح فناؤه صح بقاؤه.

قال الشيخ أبو الحسن: كل يقين إيمان، وليس كل إيمان إيقاناً، فالإيمان ربما تدخله الغفلة والإيقان لا تدخله الغفلة، المؤمن يتجلى له الحق دون كل شيء، والموقن يتجلى له الحق في كل شيء، المؤمن فان عن كل شيء فلم يشهد مع الله شيئاً، والموقن باق في كل شيء، فهو يشهد الله في كل شيء. انتهى.

[فائدة العبارة]

ثم بيّن المؤلف رضي الله عنه فائدة التعبير وثمره العبارة فقال:

179 - (العبارة قوت لعائلة المستمعين، وليس لك إلا ما أنت له آكل)

قلت: العائل هو الفقير، والعائلة جمع له، فعبارة العارفين قوت لقلوب الفقراء الطالبين لزيادة إيقان قلوبهم ومشاهدة محبوبهم، فلا يزالون في حضارة الشيوخ وعيالهم حتى يكمل إيقانهم وترشد أحوالهم، فحينئذ يستقلون بأنفسهم. وعلامة رشدهم أنهم يأخذون النصيب من كل شيء، ولا ينقص من حالهم شيء، يفهمون عن الله في كل شيء، ويعرفونه في كل شيء، ويشربون من كل شيء، فإذا كانوا كذلك فقد استقلوا بأنفسهم وتأهلوا لإرشاد غيرهم [إذا أذن لهم شيخهم بذلك].

وعبارة الشيوخ للمريدين كل واحد يأخذ ما يليق بحاله، فالشيوخ يذكرون في الجملة، فيذكرون أحوال البدايات والنهايات والوسط، وكل واحد يأخذ ما يليق به ﴿قَدْ هَدَىٰ سَكُّلٌ أَنَابِسَ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: الآية 60] فلا يتعلق المبتدي بمذاكرة المنتهي فيفسد،

(1) هو الشيخ محمد بن علي بن محمد بن حسن الأندلسي أبو عبد الله المعروف بالحاج الشطبي المتوفى سنة 963 هـ.

كما إذا أكل الطفل الصغير طعام الكبير يقف في حلقه، وإذا أكل الكبير طعام الصغير لا يشبعه. هذا معنى قول الشيخ: وليس لك منها إلا ما أنت له آكل، أي ليس لك من قوت العبارة إلا ما أنت قادر على أكله، وإلا غصصت به، والله تعالى أعلم.

وقد سألتني بعض الإخوان عن قوت الروحانية والبشرية، فقلت: قوت البشرية معلوم وقوت الروحانية على أوزان قوت البشرية، فالصبي لا يطيق الطعام الخشن حتى يكبر، كذلك الروح تربي شيئاً فشيئاً، فتطعم أولاً ذكر اللسان فقط، ثم ذكر القلب مع اللسان، ثم ذكر القلب فقط، ثم ذكر الروح وهو الفكرة، ثم ذكر السر وهو النظرة، ثم تأكل كل شيء وتشرب من كل شيء حتى تسرط⁽¹⁾ الكون بأسره، فلو أعطيتها الفكرة أو النظرة الذي هو طعام الرجال أول مرة وهي في مقام الأطفال للفظته وطرحته، فإذا بلغت الروح، [لها] أن تأكل كل شيء، وتشرب من كل شيء، فقد صح لها أن تطير في الملكوت الأعلى، وتذهب حيث تشاء، وقد يختلف الشرب لجماعة من آية واحدة لاختلاف مقامهم.

قال الشيخ عبد الكريم القشيري: كان فقيه يقرئ ببغداد اثنين وعشرين علماً فخرج يوماً قاصداً مدرسته فسمع قاتلاً يقول:

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صفار فقد ضاق الزمان على الصفار
فخرج هائماً على وجهه إلى مكة، فلم يزل يعبد الله بها حتى مات رحمه الله.
ففهم من الشاعر انصراف العمر وضيق زمان الدنيا كله.

[قد يعبر عن المقام كل من المستشرف والواصل]

ثم إن العبارة لا تدل على حال المعبر، فقد يكون فوق ما يقول، وقد يكون دون ما يقول، كما أشار إلى بيان ذلك بقوله:

180 - (رُبَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْمَقَامِ مَنْ اسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ، وَرُبَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ،
وَذَلِكَ مُلْتَبِسٌ إِلَّا عَلَى صَاحِبِ بَصِيرَةٍ)

قلت: العبارة لا تدل على نهاية المعبر ولا وصوله إلى ما عبر عنه، فقد يعبر عن المقام من لم يصل إليه ولكن استشرف عليه، وقد يعبر عنه من وصل إليه، وربما عبر عن المقام وقدمه [أي مقامه] فوق ما عبر عنه وذلك ملتبس، إذ لا يعرف المستشرف من الواصل إلا ذو بصيرة نافذة، يعني من نتج عليه في المعرفة، فكل من فتح عليه في معرفة الله ورفع عنه الحجاب عرف كلام الواصل من المستشرف، فليس من خالط البلد ووصفها ثم نعتها، كمن استشرف عليها ولم يدخلها، ثم جعل ينعتها.

(1) من سرط الطعام والنسيء. واسترطه بلعه، وبابه فهم، وفي المثل: لا تكن حلواً فسرط ولا مرّاً فتعس، أي ترمى من الفم للمرارة (لسان العرب) و(مختار الصحاح).

قال المؤلف رضي الله عنه : الاستشراف والوصول ليس إلا مراتب التوجه للتحقق بالعجز، فمن وصل لمعرفة العجز عن الوصول فهو الواصل، لكن العجز لا يكون إلا بعد الاتصاف به حقيقة لا مجازاً، وذلك أن الجاهل عجزه حالي قهري والعارف عجزه جلالي رحمانى .

قلت : المراد بالعجز في حقه الحيرة والدهش أولاً، ثم العجز عن الإحاطة والكنه ثانياً . ثم قال : يشهد لذلك أن الجاهل متى تحرك وقع في الحفظ، والعارف لا يتحرك إلا بالحقوق، والجاهل نصيبه الوهم والعارف نصيبه الفهم، الجاهل طالب للعلم والعارف طالب للمعلوم، الجاهل تابع بنظرة للصور الحسية، والعارف غائص ببصيرته مع الأرواح المعنوية، وجميع المراتب والمقامات مراحل بين الحس والمعنى، وانتقال من الهياكل الجسمية للعوالم القلبية، ثم من العوالم القلبية إلى الحقائق الروحانية، ثم من الحقائق الروحانية إلى الأسرار الربانية، ثم من الأسرار الربانية إلى المعارف التوحيدية . انتهى .

[ضرر تعبير السالك عن وارداته]

ثم لا ينبغي للسالك أن يعبر عن هذه الأسرار إذا واجهته في طريق السلوك، كما أبان ذلك بقوله :

181 - (لا يَنْبَغِي لِلْسَّالِكِ أَنْ يُعْبَرَ عَنْ وَاِرِدَاتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُقِلُّ عَمَلَهَا فِي قَلْبِهِ، وَيَمْنَعُهُ وُجُودَ الصِّدْقِ مَعَ رَبِّهِ)

قلت : المريد في حال سيره مأمور بالكتمان لعلمه وعمله وحال وارداته، إفشاؤه لعمله من قلة إخلاصه، وإفشاؤه لأحواله من نلة صدقه مع ربه، وأيضاً الأحوال تأتي من حضرة قهار فتزعج القلوب خوفاً وتقلقها شوقاً، فإذا أفضى ذلك كان تبريداً لها وإطفاء لنورها، كمن غلت قدرته فصب فيها الماء البارد، فيطول عليه غليانها ثانياً، ولو قلل نارها وحركها لاستفاد إدامها، كذلك الواردات الإلهية تفتح القلوب لتحركها إلى النهوض إلى مولاها، فإذا أفشاها وذكرها للناس قل عملها في قلبه، ودل على عدم صدقه فيها مع ربه .

قلت : ومن ذلك استعمال الأحوال التي نمت النفوس لا ينبغي إفشاؤها، فللنفس حظ في ذلك، لأنها مجبولة على حب المدح والذكر الحسن ولو من الإخوان .

وكثيراً ما تستعمل هذه الأحوال في حال السؤال، فلذلك ذكره بأثره .

أو تقول لَمَّا كَانَ التَّعْبِيرُ عَنِ الْوَارِدَاتِ الْإِلَهِيَّةِ مِمَّا يُوْجِبُ الْإِقْبَالَ وَالتَّعْظِيمَ فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى الْعَطَاءِ، فَيَحْتَاجُ إِلَى آدَابِ الْقَبْضِ، بَيِّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

182 - (لَا تَمُدَّنَّ يَدَكَ إِلَى الْأَخْذِ مِنْ الْخَلَائِقِ إِلَّا أَنْ تَرَى أَنَّ الْمُنْطَبِيَّ فِيهِمْ مَوْلَاكَ، فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ فَخُذْ مَا وَافَقَ الْعِلْمَ)

قلت: مد اليد إلى الأخذ من الخلائق على قسمين: إما أن يكون من غير سؤال، أو بعد السؤال، ولكل واحد منهما أحكام.

أما الأخذ من غير سؤال فشرطه أمران، أحدهما: علمي، والآخر: صوفي. أما العلمي فلا يأخذ ممن كسبه حرام ولا مخلط، ولا محجور عليه كالصبي والمجنون والعبد.

وأما الصوفي فلا يقبض حتى يعرف ممن يقبض علماً وحالاً، فإن اتسعت معرفته وتحقق فناؤه بحيث لم يبق له نظر للواسطة أصلاً فربما يسلم له القبض مطلقاً، لأنه يقبض من الله ويدفع بالله، ولكن الكمال هو الجمع بين الحقيقة والشريعة، وقد كان كثير من الصوفية الحقيقيين يقبضون جوائز السلطان ثم يدفعونها على أيديهم.

وأما القبض بعد السؤال فالكلام عليه من وجهين، الأول: في جواز السؤال ومنعه. والثاني: فيما يقبضه بعد أخذه.

أما حكم السؤال فأصله الجواز؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [التعنى: الآية 10] فلو كان ممنوعاً ما نهى الله عن نهره. ثم تعتريه الأقسام الخمسة يكون واجباً ومندوباً ومباحاً ومكروهاً وحراماً.

فأما الواجب، فهو ما يكون لسد الرمق بحيث إذا ترك السؤال مات، فهذا واجب عليه، فلو تركه حتى مات مات عاصياً، فأوجبه الشارع خوفاً على فوات حياة البشرية الحسية، وأوجبه الصوفية أيضاً على من خاف فوات حياة الروحانية بحيث منعه الرياسة من حظ رأسه وذبح نفسه، فقد نقل [أحمد بن محمد] القسطلاني في [إرشاد الساري إلى] شرح صحيح البخاري عن ابن العربي المعافري أنه قال: هو واجب على المرید في البداية. فتحصل أنه واجب حيث يخاف فوات حياة البشرية أو الروحانية. وإليه أشار ابن البناء [المرقسطي] بقوله [في المباحث الأصلية]:

وما علس السائل من تأويل لأجل قهر النفس والتذليل
فممن أولى الأذواق والأحوال من كان راضئ النفس بالسؤال
قالوا ولا خير إذا في العبد ما لم يكن قد ذاق طعم الرد

وبالجملة: فهو لرياضة النفس واجب أو مندوب. وكان إبراهيم الخواص تعرض عليه الألف فلا يقبلها، وربما سأل من يعرف من الناس الدرهم والدرهمين لا يزيد على ذلك.

وأما المندوب، فهو أن يسأل لغيره فهو من التعاون على البر، فيسأل الطعام ليطعمه من يستحي، أو يسأل اللباس أو غير ذلك، وقد سأل النبي ﷺ لأصحابه حين قدموا عليه عراة. ويدخل في المندوب ما كان لرياضة النفوس حيث لم يخف عليه كما تقدم.

وأما المكروه، فهو أن يسأل لقوت البشرية مع القدرة على الاستغناء عنه بسبب

من الأسباب، وهذا ما لم ينقطع للعبادة ويتجرد إلى الذكر. وأما المنقطع إلى الله فلا بأس به، وقد فعله كثير من العارفين المحققين. فقد كان أبو جعفر الحداد، وهو شيخ الجنيد، يسأل باباً أو بابين أو ثلاثاً بين العشاءين، فكانت العامة تتمعجب منه أولاً ثم عرف بذلك، فكان لا يعيبه عليه العامة ولا الخاصة مع جلالة قدره وعلو معرفته بربه.

وكان الشيخ أبو سعيد الخراز إذا اشتدت به الفاقة يمد يده ويقول: من عنده شيء لله. وأكثر الرجال على هذه الحال فطعموا الدنيا الفانية لإيثارهم الأخرى الباقية، وكل ذلك لا يقدر بشريعة ولا حقيقة ولا يطفىء نور المعرفة. وقد أشار ابن البناء⁽¹⁾ إلى هذين القسمين، أعني المندوب والمكروه، فقال:

وَكُفِرُوا سِوَالَهُ لِنَفْسِهِ ثُمَّ أَبَاخُوهُ لِأَجْلِ جَنْبِهِ
وَلَمْ يَمَعُدُوهُ مِنْ السُّؤَالِ لَكِنْ مِنْ الْعَمَلِ عَلَى الْأَعْمَالِ
إِذْ كَانَ خَيْرُ الْخَلْقِ فِي أَتْرَابِهِ يَسْأَلُ أَحْيَاناً إِلَى أَصْحَابِهِ

وأما المباح، فهو أن يسأل لحاجته الغير ضرورية، كسؤاله لقضاء دينه أو ما يزيد على ستر عورته وسد رمقه، أو غير ذلك مما ليس بضرورة لكنه محتاج إليه.

وأما المحرم، فهو أن يسأل تكثراً وزيادة على ما يكفيه، وفي الحديث: «من له أربعون درهماً فالسؤال عليه حرام»⁽²⁾. وفيه ورد الحديث: «أنه يبعث يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم»⁽³⁾. ومن المحرم أيضاً ما فيه إلحاح وإضرار بالمسؤول، قال تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَكَ النَّاسُ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: الآية 273].

وسبب دخول السؤال في هذه الطائفة أن شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل العمراني رضي الله عنه كان له جاه ووزارة ورياسة في فاس، فلما دخل في يد الشيخ ورأى صدقه وجده قال له: أرى لك خمرة لم يقدر عليها أحد قبلك، ولولا ما رأيت فيك من الصدق والجِدِّ ما دللتك عليها. قال: وما هي يا سيدي، فقال: السوق للسؤال. وينبغي أن يكون في حال السؤال يده مشيرة إلى الخلق وقلبه معلق بالحق. قال في المباحث:

وَأَدَابُ الصُّوفِيِّ عِنْدَ الْمَسْأَلَةِ أَنْ يَدْخُلَ السُّوقَ إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ

(1) سبقت الإشارة إليه.

(2) ليس بحديث، إنما هو من أقوال العلماء، أورده المروزي في اختلاف العلماء [108/1] والمنذري في الترغيب والترهيب، كتاب الصدقات [326/1] وأورده غيرهما.

(3) ونصه كما في صحيح البخاري، باب من سأل الناس تكثراً، حديث رقم (1405) [536/2]: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم». وهو عند مسلم، باب كراهة المائة للناس، حديث رقم (1040) [720/2].

لسانه يشير نحو الخلق وقلبه معلق بالحق
 هذا ما تيسر لنا في حكم السؤال، والذي يظهر لنا أن تركه اليوم أحسن من
 استعماله، إذ زالت هيئته وصار حرفه من الحرف، فصارت نفس كثير من الفقراء تبطش
 إليه، وما ذلك إلا لما فيه من الحظ عندها، والله تعالى أعلم.
 وأما ما يأخذه من السؤال، فإن كان فقيراً إليه أخذه، وإن كان غنياً عنه تصدق به
 خفية بالليل مثلاً.

وكان شيخ شيخنا رضي الله عنه يقول: كان قصدنا من السؤال قوت الأرواح،
 فلما خرج منه قوت الأشباح تبارك الله، يعني فيأخذه من اضطر إليه، وبالله التوفيق.

وهذه الحكمة التي ذكرها الشيخ هي من أعظم المهمات التي يحتاج إليها أهل
 التجريد، وليس مقصوده الكلام على السؤال إنما مقصوده الدلالة على تربية اليقين وعدم
 التشوف إلى المخلوقين، فلا يعلق قلبه بالمخلوق، فإن تشوف إليه فينبغي ألا يقبض ما
 يعطاه، ولا يمد يده إلى الأخذ منه حتى يرى أن المعطي هو الله، ويكون ذلك ذوقاً وحالاً.

قال عيسى عليه السلام: «لا تهتموا بالرزق فإن الذرة على صفرها تؤتى كل يوم
 برزقها» الحديث⁽¹⁾، وقال أيضاً عليه السلام: «عجبت لمن يعمل للدنيا وهو يرزق فيها
 بلا عمل، ولا يعمل للآخرة وهو لا يرزق فيها إلا بالعمل»⁽²⁾. وقال ﷺ: «من كان همه
 الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كان همه الدنيا جعل الله فقره
 بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له، وأن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه»⁽³⁾.

وكان يحيى بن معاذ يقسم أنه لا تسكن الحكمة قلباً فيه ثلاث خصال: هم
 الرزق، وحسد الخلق، وحب الجاه. وكان حبيب العجمي يخدم الحسن البصري،
 فصنع حبيب طعاماً لإفطارهما، وإذا بسائل فأعطاه جميعه، فقال الحسن: يا حبيب إنك
 كثير اليقين قليل العلم، فهلا أعطيته النصف ونتقوت بالنصف، فقال: يا سيدي ثوابه
 لك وأنا أستغفر الله. فلما جن الليل، وإذا بقارع على الباب، فخرج حبيب فوجد عبداً
 معه طعام كثير والشتاء ينزل والغلام يبكي، فقال له: ما هذا، قال: طعام، قال لي
 سيدي إن قبله منك الحسن البصري فأنت حر لوجه الله وقد طال عليّ الرق، فقال

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) روى نحوه الترمذي في سننه، حديث رقم (2465) [4/642] وابن حبان في صحيحه، ذكر وصف
 الغنى... حديث رقم (680) [2/454] ورواه غيرهما. ونصه عند الترمذي هو: عن أنس بن مالك
 قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي
 راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق شمله ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له».

حبيب: لا إله إلا الله عتق رقبة وإطعام جائع. ثم دخل به على الحسن وقال: يا سيدي إنك كثير العلم قليل اليقين، فقال: يا حبيب تقدمناك وسبقتنا. انتهى.

[استحياء العارف من رفع حاجته إلى مولاه]

فهذه حكاية جنود من جنود الله تعالى تقوي اليقين، وتوجب الثقة برب العالمين، فيستحي العبد من الله أن يرفع حاجته إليه، فأولى أن يرفعها إلى غيره، كما بين ذلك بقوله:

183 - (رُبُّمَا اسْتَحْيَا الْعَارِفُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إِلَى مَوْلَاهُ لِاِكْتِفَائِهِ بِمَشِيئَتِهِ، فَكَيْفَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَى خَلِيقَتِهِ؟)

قلت: العارف: هو الذي بلغ من التقرب والقرب حتى امتحق عن نفسه بالكلية، وزالت عنه الأينية والغيرية بحيث لم يبق له عن نفسه إخبار ولا مع غير مولاه قرار، فإذا أراد أن يسأل عبودية استحي من مولاه أن يثبت معه سواه اكتفاء بمشيئته وتحقيقاً لأحدينه، فإذا كان يستحي من مولاه أن يرفع حوائجه إليه، فكيف لا يستحي منه أن يرفعها إلى غيره؟ فلا جرم أن الحق سبحانه يعطيه أفضل ما يعطي السائلين، ويؤنه في مقعد صدق مع النبيين والصدّيقين.

وقال سهل بن عبد الله [التستري]: ما من وقت إلا والله تعالى مطلع فيه على قلوب عباده، فأبى قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلط عليه الشيطان وحجبه عنه. انتهى.

وقيل للواسطي: لم لا تسأل الله شيئاً، فقال: أخشى أن يقال لي: إن سألتنا الذي لك عندنا فقد اتهمتنا، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت الأدب معنا، وإن سلمت الأمر لنا، ونظرت بنظرنا، أجرينا لك الأمور على مقتضى الموافقة. انتهى.

[خلاصة ما ورد في الباب الموفي عشرين]

هذا آخر الباب الموفي عشرين، وحاصله: الكلام على الكرامات وما ينشأ عنها من العبارات، لأن الكرامات الحقيقية هي الاستقامة على العبودية ومشاهدة أنوار الربوبية، فإذا تحقق ذلك في الولي فاض بالحكم، وأذن له في التعبير، فحينئذ ربما يقبل عليه الخلق بالعطاء، فإذا عرف فيهم مولاه حل له الأخذ من أيديهم وإلا فلا.

وأما السؤال منهم لقوت البشرية، فلا يتصور من العارفين استحياء من الله واكتفاء بعلمه ومشيئته. هذا مقام الواصلين. وأما السانرون فهم عاملون على مجاهدة نفوسهم، فإن ثقل عليها السؤال قدموها إليه، وإن ثقل عليها الفاقة والصبر والاكتفاء بالمشيئة والعلم قدموه، كما بين ذلك الشيخ رضي الله عنه في أول الباب الحادي والعشرين بقوله:

[الباب الحادي والعشرون]

[اختيار الأثقل على النفس]

قال رضي الله عنه :

184 - (إِذَا أَلْتَبَسَ عَلَيْكَ أَمْرَانِ فَانظُرْ أَثْقَلَهُمَا عَلَى النَّفْسِ فَاتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ لَا يَثْقُلُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا كَانَ حَقًّا)

قلت : هذا ميزان صحيح في حق السائرين المشتغلين بالجهاد الأكبر ، قال تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ [الحج : الآية 78] ، وقال : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [المنكوت : الآية 69] فكل ما يثقل على نفس المرید وتنفر منه فهو حق ، فالوجب على المرید اتباعه ، وكل ما يخف عليها فهو باطل ، وفيه حظها ، فالواجب عليه اجتنابه .

وهذا الأمر يختلف اختلافاً كثيراً ، فرب نفس يثقل عليها غير ما يثقل على الأخرى ، فليكن العبد على نفسه بصيرة ، ويصير معها على عكس مرادها ، هكذا يستمر معها ، يخالفها فيما تأمر ، ويتهمها فيما تستحسنه .

فإذا تزكّت وتطهرت من الحس ، ولم يبق فيها بقية ، فحينئذ يجب عليه موافقتها ، إذ لا يتجلى فيها حينئذ إلا الحق فقد ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ [الإسراء : الآية 81] فبصير أمر العارف معكوساً مع السائر ، فالسائر يضره التدبير والاختيار والعارف ينفعه ، والسائر تضره الخلطة والعارف تنفعه ، السائر يضره الكلام والعارف ينفعه ، السائر تضره الدنيا ويهرب منها ، والعارف غائب عنها لا تضره وربما تنفعه .

والحاصل : أن الواصل معكوس مع السائر في أموره كلها ، وبالله التوفيق .

ويجب على من أراد جهاد نفسه أن يلقيها إلى شيخ التربية ، إذ قد يلتبس عليه أمرها ، وعلى فرض علمه بما يثقل عليها لا قدرة له على مجاهدتها إلا بهمة الشيخ ، هذه سنة الله في عباده ، فإن النفس لا تريد أن تخرج عن رأيها ومرادها أبداً ، فالواجب إسلامها إلى من يعينه عليها ، وانظر التكاليف الشرعية تجدها مخالفة لهوى النفس ، ومن لا يلقي تياده للشرع فهو كافر ، وما كفر من كفر إلا بتبع الأهواء ، والله تعالى أعلم .

وها هنا ميزان آخر تعرف به العمل الذي فيه حظ النفس وهواها ، وما لا حظ لها فيه [ر] هو أن تعرض عليها الموت وأنت في ذلك العمل ، فإن رضيت بالموت وهي في ذلك العمل فالعمل صحيح ، وإن لم ترض بالموت وهي في ذلك العمل فالعمل باطل ،

فكل عمل لا تهزمه بالموت فهو صحيح، وكل عمل تهزمه بالموت فهو باطل، يعني فيه الهوى والحفظ.

[من علامة اتباع الهوى]

ثم ذكر الشيخ ميزاناً آخر يعرف به اتباع الهوى من الحق فقال:

185 - (مِنْ عَلَامَاتِ أَتْبَاعِ الْهَوَى الْمُسَارَعَةُ إِلَى نَوَافِلِ الْخَيْرَاتِ، وَالتَّكَاسُلُ حِينَ

الْقِيَامِ بِالْوَجِبَاتِ)

قلت: هذا ميزان آخر، وإن شئت قلت: هو داخل في الميزان الأول، إذ من شأن النفس أن يثقل عليها الواجب لمشاركة الناس لها فيه، إذ جل الناس يفعلونه فلا يظهر لها فيه مزية على غيرها، وهي أبداً تحب الخصوصية، بخلاف النوافل فإنها تبطش إليها وتحب أن تنفرد بها، إما لطلب المدح والثناء، وإما لطلب الأجور من القصور والحدور، وهذا كله عند المحققين من الحفظ الجلية أو الخفية.

فالمسارعة إلى نوافل الخيرات وفضائل الطاعات مع التكاثر عن الفروض الواجبات من علامة الهوى، فيجب على الإنسان أن يقدم الفروض الواجب، ولا يقدم عليه إلا ما هو من كماله كالنوافل قبله وبعده إعانة على الحضور فيه، فإن حصل الحضور استغنى عن الوسيلة.

والنافلة الكبرى عندنا هو الاستغراق في مشاهدة مولاه بين فكرة ونظرة، أو ما يوصل إلى هذا المقام من مذاكرة أو ذكر، ومن رفض الدنيا بحذافيرها وغاب عن نفسه وجنسه، فقد جمع الفرائض والنوافل كلها، ولو بات نائماً وظل مفطراً.

وفي بعض أخبار سيدنا داود عليه السلام قال: يا رب أين أجدك، فقال له: اترك نفسك وتعال، أي غب عنها تجدني أقرب إليك منها.

[حكمة تقييد الطاعات بالأوقات]

ولما كان من شأن النفس الأمانة التكاثر عن الطاعات قيدها الحق تعالى بأعيان الأوقات، كما أبان ذلك بقوله:

186 - (قَيْدُ الطَّاعَاتِ بِأَعْيَانِ الْأَوْقَاتِ كَمَا لَا يَمْنَعُكَ عَنْهَا وُجُودُ التَّسْوِيفِ،

وَوَسَّعَ عَلَيْكَ الْوَقْتَ كَمَا تَبْقَى لَكَ حِصَّةُ الْأَخْتِيَارِ)

قلت: من شأن النفس تسويق العمل وتطويل الأمل، فلو تركت مع اختيارها ما توجهت قط إلى ربها، ولما علم الحق سبحانه أن من عباده من لا تنهضه المحبة ولا يسوقه إليه مجرد الرغبة، وإنما تسوقه إليه سلاسل الامتحان بتخويف النيران، أو شبكة الطمع بنعيم الجنان، أو وعد من حاد عن طاعته بالعذاب الأليم، ووعد من أطاعه وتقرب إليه بالنعيم المقيم، ثم فرض عليهم ما تظهر فيه طاعته من الأحكام والفرائض، وعين لها أوقاتاً

مخصصة، إذ لو ترك ذلك لاختيار عباده ما أقبل عليه بها إلا القليل من أهل محبته ووداده .
ومن رحمته تعالى أن وسع عليهم في تلك الأوقات، فبقي لهم في ذلك ضرب من الاختيار، فوسع الظهر مثلاً إلى العصر، والعصر إلى الاضطرار، والمغرب إلى العشاء، والعشاء إلى نصف الليل، والصبح إلى قرب الطلوع، فقد قيد لك أيها العبد الطاعات التي أوجبها عليك بأعيان الأوقات، لئلا يمنعك التسويف من فعلها، فيؤدي ذلك بك إلى تركها، ووسع عليك الوقت لئبقى لك حصة أي ضرباً ونصيباً من الاختيار، إذ لو ضيق عليك الوقت لكان ذلك في غاية الحرج والاضطرار، فالحمد لله على منته وسعة رحمته .

[سَوْقُ الْحَقِّ لِبَعْضِ عِبَادِهِ بِالسَّلَاسِلِ]

ولما ذكر حكمة توقيت الطاعة ذكر حكمة إيجابها على عباده، فقال :

187 - (عَلِمَ قَلَّةَ نُهُوضِ الْعِبَادِ إِلَى مُعَامَلَتِهِ، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ وُجُودَ طَاعَتِهِ، فَسَاقَهُمْ إِلَيْهَا بِسَلْسِلِ الْإِيجَابِ. عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ أَوْجَبَ عَلَيْكَ وُجُودَ خِدْمَتِهِ، وَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكَ إِلَّا دُخُولَ جَنَّتِهِ)

قلت : هذه حكمة أهل الظاهر .

وحاصلها : أن الحق سبحانه من حكمته لما علم من عباده قلة النهوض إلى معاملته لأنه قال ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سَبَأُ: الآيه 13] ، وقال أيضاً : ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: الآيه 24] فلما علم ذلك أوجب عليهم طاعته، وأوعدهم على تركها بالعقوبة، فساقهم إليه بسلاسل الإيجاب، ثم ذكر الشيخ حديثاً ورد في شأن الأسارى إشارة إلى أن العبد لا اختيار له فهو أسير في يد قدرة القدير والحديث مشهور، وهو قوله عليه السلام : «عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل»⁽¹⁾ لأنه عليه السلام كان يدعو إلى الله وإلى دخول حضرته، فمن وافقه نجا، ومن خالفه جعل له السلسلة في عنقه وساقه إلى حضرة ربه . ولفظ الحديث : «عجب الله من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل»⁽¹⁾ .

ثم إن الحق سبحانه غني عن الانتفاع بالمنافع، فما أمرك بهذا ونهاك عن هذا إلا لما لك فيه من جلب المنافع ودفع المضار، أوجب عليك وجود طاعته وما أوجب عليك إلا دخول جنته .

قال بعض الحكماء : واعلم أن في الطاعات تفاوتاً ودرجات .

قلت : والتحقيق إنما هما قسمان، قسم أطاع على التكليف وهم أهل التكليف، وقسم أطاع على التعظيم وهم أهل التعليم والتعريف . أهل الحجاب أطاعوا خوفاً

(1) رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (8000) [2/302] ونصه : «عجب ربنا من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل» . وابن حبان في طبقات المحدثين بأصبهان، الطبقة الثامنة، حديث رقم (217) [2/376] وأورد الحديث غير هذا .

وظمماً، وأهل العيان أطاعوا حباً وشكراً، وهو مقام الأنبياء وخواص الأولياء. قال عليه السلام: «أفلا أكون عبداً شكوراً»⁽¹⁾. فالحكمة عند أهل الباطن في وجوب الخدمة، إنما هي إظهار لستر سر الربوبية التي هي في مظاهر العبودية، فالربوبية بلا عبودية نقص يلزم عليه إبطال حكمته والعبودية بلا ربوبية محال لا يتصور وجوده.

مَنْ لَا وَجُودَ لِدَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ فَرُجُودُهُ لِرُؤَاةِ عَيْنِ مُحَالٍ^(*)
ولأجل هذا المعنى كان العارفون إذا تحققوا هذا السر، وهو أن العبودية لا وجود لها من ذاتها، وإنما حكمة وجودها صور سر الربوبية بإظهار أحكام العبودية، وعرفوا ذلك حالاً وذوقاً كانت عبادتهم شكراً وكانوا فيها محمولين غير حاملين، عملهم بالله لله، فعبادة هؤلاء كثيرة عظيمة في المعنى وإن كانت قليلة في الحس، ولا تقل أبداً إذ تصرفاتهم كلها عبادة، نومهم عبادة، وأكلهم عبادة، ومشيهم عبادة، وفي مثل هؤلاء ورد الحديث: «نوم العالم عبادة»⁽²⁾. وقال أيضاً: «رجال يدخلون الجنة على الفرش الممهدة، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: الذاكرون لله كثيراً»⁽³⁾ أو كما قال عليه السلام. ذكره المنذري.

[الإنقاذ من الشهوة والإخراج من الغفلة]

وقال أبو سليمان: قد يدرك العارف على فراشه ما لا يدركه في صلاته، ولا يستغرب العبد من نفسه بلوغ هذا المقام، فإن فضل الله لا ينال بسبب، وقدرة الله صالحة لدرك كل مطلب، كما أبان ذلك بقوله:

188 - (مَنْ اسْتَغْرَبَ أَنْ يُنْقِذَهُ اللَّهُ مِنْ شَهْوَتِهِ، وَأَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وُجُودِ غَفَلَتِهِ، فَقَدْ اسْتَعَجَزَ الْقُدْرَةَ الْإِلَهِيَّةَ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّراً﴾).

قلت: لا شك أن الحق تعالى لا يعجزه شيء، فهو الغالب على أمره، وقلوب عباده بيده يصرفها كيف شاء ويقلبها حيث شاء، فمن كان منهمكاً في الغفلة مستغرقاً في بحار الشهوة فلا يستغرب أن ينقذه الله من غفلته، وأن يخرج من وجود شهوته، فإن ذلك قدح في إيمانه، وكيف يستغرب ذلك وربنا تعالى يقول: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

(1) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب قيام النبي ﷺ، حديث رقم (1078) [380/1] ورواه مسلم في بابين أحدهما: باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم (2819) [4/2171] ورواه غيرهما.

(*) أحد عشرة أبيات للشيخ أبي مدين النلمساني: شعيب بن الحسن الأندلسي المتوفى سنة 594 هـ (الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

(2) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (6731) [247/4].

(3) ولقطه: لعن أبي سعيد الخدري [رضي الله عنه] أن رسول الله ﷺ قال: «ليذكرن الله قوم في الدنيا على الفرش الممهدة يدخلهم الله الدرجات العلى». رواه أبو يعلى في مسنده برقم (1110) [359/2] وابن حبان في صحيحه، ذكر الخبر الدال على أن المرء قد ينال بحسن السريرة...، حديث رقم (398) [2/124] ورواه غيرهما.

مُقَدِّرًا ﴿ [الكهف: الآية 45] وأنت من ذلك الشيء، وقال تعالى في حق العصاة: ﴿يَتَوَبَّأُوْا الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: الآية 53]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: الآية 39] إلى غير ذلك من الآيات. وقال عليه السلام: «لو أذنبتم حتى تبلغ خطاياكم هنان السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم»⁽¹⁾.

وليتذكر من تقدم قبله من أهل الغفلة والعصيان ثم صار من أهل المشاهدة والعيان، كانوا لصوصاً فصاروا خصوصاً، كإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وأبي يعزى، وكثير ممن يتعذر حصره. وقد ذكر القشيري في أول رسالته منهم رجالاً قدمهم أولاً تقوية لرجاء المذنبين، وليذكر الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً، ثم سأل راهباً عن التوبة، فقال له: لا توبة لك، فكمثل به المائة، ثم سأل عالماً فدلّه على التوبة وأمره بالذهاب إلى قرية فيها قوم يعبدون الله، فقصدهم فمات بالطريق فأخذته ملائكة الرحمة، والحديث في البخاري⁽²⁾ مطولاً.

[ورود الظلم للتعريف باليمن]

وقد تسلط الله على عباده الانهماك في الشهوات ويحبسه في سجن الغفلات ثم يمنّ عليه بالتوبة والتيقظ من الغفلة، ويدخله مع أحبائه مداخل الحضرة ليعرف قدر ما أظهر الله عليه من المنّة كما أبان ذلك بقوله:

189 - (رُبَّمَا وَرَدَتِ الظُّلْمُ عَلَيْكَ، لِيُعْرَفَكَ قَدْرَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ).

قلت: لا شك أن نيل الشيء بعد الطلب ألد وأعز من المُسَاقِ بغير تعب، والمحبة بعد القطيعة أحلى من المحبة بلا قطيعة، والصفاء بعد الجفاء أصفى من الصفاء بلا جفاء، وفضام النفس عن مألوفاتها وعوائدها أشد معالجة من النفس السلسلة المنقادة من غير تعب، فيكون الأجر أو القدر على قدر التعب.

فهذه حكمة تقديم ورود الغفلة والشهوة على العبد، ثم ينقذه منها ليعلم قدر هذه النعمة التي أنعم الله بها عليه، فربما أورد عليك أيها الإنسان الحق تعالى، الظلم جمع ظلمة، وهي الأغيار والأكدار وحب الشهوات والعوائد، فتفرق في بحارها وتسجن في سجون ظلماتها، ثم ينقذك منها في ساعة واحدة، وذلك لتعرف بعد الفتح قدر ما منّ الله

(1) ولنظمه: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب عليكم». رواه ابن ماجة في سننه، باب ذكر التوبة، حديث رقم (4248) [2/1419] ورواه أحمد الكنانى في مصباح الزجاجة، حديث رقم (1526) [4/246].

(2) حديث الغار، حديث رقم (3283) [3/1280] ورواه مسلم في صحيحه، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث رقم (2766) [8-2119] وروى هذا الحديث غيرهما.

به عليك، فتزداد محبة وشكراً، ويعظم السر عندك محلاً وقدرأً، فتعرف حقه وتصونه
عمن لا يستحقه، ولأجل هذا جعل الله الجنة محفوفة بالمكارة ليعرف العباد بعد دخولها
قدر النعمة التي من الله بها عليهم، وكذلك جنة العارف محفوفة بالمكارة ليعرف العارف
قدر السر الذي كشف به والخير الذي منحه الله إياه.

واعلم أن هذه الظلم التي ترد على القلوب فتحجبها عن علاّم الغيوب هي ناشئة
بحكمة الله من الدنيا والنفس والشيطان، فمن زهد في الدنيا وغاب عن نفسه وأطلق يده
منها، وذكر الله حتى احترق الشيطان وذاب، دخل مع الأحباب وفتح له عن علم
الغيوب الباب.

وقال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده خيراً زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة
وبصره بعيوب نفسه»⁽¹⁾ قيل: يا رسول الله أي الناس شر، قال: «الأغنياء» يعني
البخلاء. ثم قال عليه السلام: «ومن عظم غنياً لأجل غناه كان عند الله كعابد وثن،
ومن أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة سنة»⁽²⁾ اهـ.

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «ما أحبني من أحب المال، وما أحبني من
أحب الدنيا، فإنه لا يسع في قلب واحد حبي وحبها أبداً. يا موسى، ما خافني من
خاف الخلق، وما توكل علي من خاف فوات الرزق، يا موسى خمس كلمات ختمت
لك بها التوراة، إن عملت بهن نفعك العلم كله، وإلا لم ينفعك شيء منه:

الأولى: كن واثقاً برزقي المضمون لك.

الثانية: لا تخافن ذا سلطان.

الثالثة: لا ترى عيب غيرك.

الرابعة: لا تدع محاربة الشيطان.

الخامسة: لا تأمن مكري حتى ترى نفسك في الجنة.

قلت: وهذا كله تشريع لغيره والأنبياء كلهم مطهرون معصومون، وكل ما ورد

(1) ليس بحديث، أورده المزني في تهذيب الكمال [346/26] ولفظه: قال موسى بن عبيدة الربذي عن
محمد بن كعب القرظي: إذا أراد الله بعبده خيراً زهده في الدنيا وفقهه في الدين وبصره بعيوبه، ومن
أوتيهن أوتي خير الدنيا والآخرة. ورواه أبو القاسم علي بن هبة الله الشافعي في تاريخ مدينة دمشق
[144/55]، وقال أبو الفضل العراقي في المغني عن حمل الأسفار: رواه منصور الديلمي في مسند
الفردوس من حديث أنس دون قوله ورغبه في الآخرة وزاد فقعه في الدين. [حديث رقم (4007)
[1106/2]].

(2) رواه الرازي في مشيخته [انظر مشيخة الشيخ الأجل أبي عبد الله محمد الرازي للشيخ أبي طاهر
السلفي، الشيخ الثامن والثلاثون، حديث رقم 107 [272/1]. الشطر الثاني من الحديث أورده
المناري في فيض القدير، حرف السين، [61/6]، أما الشطر الأول فلم أجده.

فيهم من التعليم والتربية فالمراد به غيرهم، وبالله التوفيق.

[معرفة قدر النعم]

ثم مَنْ مَنْ الله عليه فأخرجه من أسر نفسه، وأطلقه من سجن غفلته، فلم يعرف هذه النعمة سلبها من ساعته، كما أشار إلى ذلك بقوله:

190 - (مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ النُّعْمِ بِوُجْدَانِهَا، عَرَفَهَا بِوُجُودِ فَقْدَانِهَا).

قلت: هذا الذي ذكره الشيخ مجرب صحيح، وذلك أن العبد قد تترادف عليه النعم والعوافي فلا يعرف قدرها ولا تعظم عنده كل التعظيم، فإذا سلبها وضرب بالبلاء والأوجاع والمصائب فحينئذ يعرف قدر العافية، وكذلك الفقير يكون مصحوباً بالحضور والفكرة والنظرة فلا يعظم عنده قدرها، فإذا أصابته الغفلة ورجع إلى الحس وفقد قلبه عرف قدر ما كان عنده، فإذا التجأ واضطر إلى الله ردّ إليه ما سلبه.

ويستعين العبد على معرفة قدر النعم بالتفكير فيها وبالتفكير في حال نفسه قبل وجودها، كل نعمة ينظر إلى وجود ضدها الذي كان موجوداً فيه قبل ذلك، فلا شك أنه يعرف قدرها فيشكرها فتدوم عليه.

وأما من لم يتفكر في حال النعم فلا يعرف قدرها، فيغفل عن شكرها فيسلب منها وهو لا يشعر، قال بعضهم: شكر الله تعالى باللسان هو الاعتراف بالنعمة على وجه الخضوع، وشكر الله باليد هو الاتصاف بالخدمة على وجه الإخلاص، وشكر الله بالقلب هو مشاهدة المنة وحفظ الحرمة.

وقال الجنيد رضي الله عنه [شكر النعمة]: ألا ترى نفسك أهلاً للنعمة وألاً تعصي الله بنعمته. انتهى.

[القيام بحقوق الشكر]

فإن قلت: كيف أقوم بشكر النعم وهي لا تحصى؟

قلت: القيام بها هو الاعتراف بها للمنعم وحده، وإلى هذا المعنى أشار الشيخ بقوله:

191 - (لَا تُدْهِشْكَ وَارِدَاتُ النُّعْمِ عَنِ الْقِيَامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ).

قلت: قد يتفكر الإنسان في نفسه وما به من النعم، فيجد نفسه مغموساً في النعم، حسية ومعنوية، فينظر في نعمة البصر، في نعمة السمع، في نعمة الشم، في نعمة الذوق، في نعمة الكلام، في نعمة العقل، في نعمة اليدين، في نعمة الرجلين، في نعمة

الصحة والعافية، في نعمة الكفاية، في نعمة الأهل، في نعمة الأولاد، ثم في نعمة الهداية إلى الإسلام، ثم في نعمة الإيمان، ثم في نعمة الطاعة، ثم في نعمة العلم، ثم في نعمة من يستعين به من الإخوان، ثم في النعمة الكبرى. نعمة الشيخ فيما أعد الله له بعد الموت [وهو النعيم] الذي لا نهاية له، فإذا وجد نفسه مغموراً في النعم، فلا يدهش منها ويتحقر في نفسه عن القيام بشكرها، فإن الاعتراف بها ومعرفتها والإقرار بها أنها من الله بلا واسطة هو شكرها، وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: الآية 2] كاف في شكر اللسان، ألا ترى أن الجنة هي من أعظم النعم، فكان شكر أهل الجنة فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: الآية 2]، قال تعالى: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [بونس: الآية 10].

وقال العارف:

لك لحمد مولانا على كل نعمة ومن جملة النعماء قولي لك الحمد
فلا حمد إلا أن تُمنّ بنعمة فسبحانك لا يقوى على حمدك العبد
قال داود عليه السلام: إلهي إن ابن آدم ليس فيه شعرة إلا وتحتها نعمة وفوقها نعمة، فمن أين يكافئها، فأوحى الله تعالى إليه: يا داود إنني أعطي الكثير وأرضى باليسير، وإن شكر ذلك أن تعلم أن ما بك من نعمة فمني.

ولما كان أعظم النعم وأشرفها هو دواء القلب وشفائه من مرض الهوى، الذي قيده في سجن الغفلة وعرضه لغضب المولى، نبه الشيخ على ذلك ليعرف العبد قدر هذه النعمة إذا كان شفاه الله، أو يطلب من الله إخراجها من تلك النعمة إذا لم يكن شفاه الله، فقال:

[الداء العضال]

192 - (تَمَكُّنُ حَلَاوَةِ الْهَوَى مِنْ الْقَلْبِ هُوَ الدَّاءُ الْعُضَالُ).

قلت: حلاوة الهوى على تسمين، هوى النفس، وهوى القلب.

نهوى النفس يرجع لشهواتها الجسمانية، كحلاوة المآكل والمشرب والملابس والمراكب والمناكح والمساكن.

وهوى القلب هو شهواته المعنوية؛ كحب الجاه والرياضة والعز والمدح والخصوصية والكرامات، وحلاوة الطاعات الحسية؛ كمقام العباد والزهاد وحلاوة علم الحروف والرسوم.

نأما علاج هوى النفس فأمره قريب يمكن علاجه بالفرار من أوطان ذلك والزهد وصحبة الأخيار، وأما علاج هوى القلب إذا تمكن فهو صعب وهو الداء العضال الذي

أعضل الأطباء، أي أعجزهم وحسبهم عن علاجه، فلا يزيده الدواء إلا تمكناً.

[إخراج الشهوة من القلب]

وإنما يخرجها وارد إلهي بعناية سابقة بواسطة أو بغير واسطة، كما أشار إلى ذلك

بقوله :

193 - (لا يُخْرِجُ الشَّهْوَةَ مِنَ الْقَلْبِ إِلَّا خَوْفٌ مُزْجِعٌ، أَوْ شَوْقٌ مُقْلِقٌ).

قلت: الشهوة إذا تمكنت من القلب صعب علاجها، فلا يمكن خروجها في العادة إلا بوارد قهري جلالتي أو جمالي، فالوارد الجلالتي: هو خوف مزعج، فيزعجك عن شهوتك ويخرجك عن وطنك وأهلك.

والوارد الجمالي: هو شوق مقلق، فيقلقك عن مراداتك وحفظك، فينسيك نفسك ويؤنسك بربك، ولأجل صعوبة هذا المرض كان أشد حجاباً عن الله العلماء، ثم العباد، ثم الزهاد لأن هذه الشهوة خفية، لأن صاحبها أضلّه الله على علم الآية⁽¹⁾، فهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، أي أضلهم عن طريق الخصوص وبقوا في طريق العموم.

أما العلماء الظاهريون فهم يعتقدون أنه لا فضيلة فوق علمهم حتى أنني سمعت من بعضهم يقول: إن مقام الإحسان هو مقامهم الذي هو فيه من العمل بظاهر الكتاب والسنة، ولا مقام فوق ذلك، فكيف يمكن إخراج هذا إلا بعناية سابقة.

وأما العباد والزهاد فهم يقولون أيضاً: هذه غاية المحبة والطاعة، ويزيدهم بعداً ما يروونه من الكرامات الحسية فيزدادون حجاباً وتمكناً في حالهم.

وأما العوام وأهل الغفلة فهم أقرب الناس إلى الانقياد والنفوذ إلى ربهم.

وفي الحديث عنه ﷺ قال: «أكثر أهل الجنة البله»⁽²⁾ أي المغفلون، ومما بذلك على أن الشهوة القلبية أصعب من الشهوة النفسية قصة آدم والشيطان، فإن آدم عليه السلام كانت شهوته في بطنه فتداركه الله بعنائه، والشيطان كانت شهوته في قلبه قال: أنا خير منه، فطرد إلى يوم القيامة.

[أقسام الخوف والشوق]

ثم اعلم أن الخوف على قسمين: خوف العوام، وخوف الخواص. خوف العوام من العقاب والعذاب، وخوف الخواص من القطيعة والحجاب.

والشوق أيضاً على قسمين: شوق العوام للحرور والقصور، وشوق الخواص

(1) يقصد قوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا مِنْ أَعْلَى السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ مِنْ تَحْتِهِ نَارٌ فَمَا يَسْتَوِي ۚ وَلَقَدْ جَاءَ ذِكْرَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَجْرِي ۚ فَهُمْ فِيهَا يَصْتَوِي ۚ وَمَا كَانَ لِأُولَئِكَ أَنْ يَرْتَدُّوا عَلَيْهَا خِلَافًا بِمَا كَفَرُوا ۚ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَوِي ۚ﴾ [الزمر: 64-65].

(2) سنن ترمذي من بعد الله ﷺ [المناجاة: 123].

(2) رواه القضاعي في مسند الشهاب [641: إن أكثر أهل الجنة البله] حديث رقم (989) [110/2] والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (1463) [1/362] ورواه غيرهما.

للشهود والحضور. شوق العوام لنعيم الأشباح وشوق الخواص لنعيم الأرواح. شوق العوام ناشيء عن قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنًا وَرِضْوَانٌ مِمَّنْ اللَّهُ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: الآية 72]. وشوق الخواص ناشيء عن قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِمَّنْ اللَّهُ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: الآية 72] جعلنا الله من أعظمهم قدراً وأكملهم محلاً وفضلاً، آمين بمنه وكرمه.

[عدم محبة العمل المشترك والقلب المشترك]

فإذا دخل الخوف أو الشوق إلى القلب، أخرج كل ما فيه من الأغيار ومليء بالمعارف والأنوار، فحينئذ تخلص الأعمال وتزكو الأحوال ويقبل عليه ذور العظمة والجلال، كما أبان ذلك بقوله:

194 - (كما لا يُحِبُّ الْعَمَلَ الْمُشْتَرَكَ، كَذَلِكَ لَا يُحِبُّ الْقَلْبَ الْمُشْتَرَكَ، الْعَمَلُ الْمُشْتَرَكُ لَا يَقْبَلُهُ، وَالْقَلْبُ الْمُشْتَرَكُ لَا يَقْبَلُ عَلَيْهِ).

قلت: العمل المشترك: هو الذي تصحبه الحفظ النفسانية دنيوية أو أخروية، والقلب المشترك: هو الذي يكون فيه حب السوى، فالعمل الذي تصحبه الحفظ مدخول والمدخول غير مقبول، يقول الله تعالى: «أنا أضى الشركاء من الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي فبيري تركته وشريكه»⁽¹⁾، والقلب الذي فيه حب شيء من السوى ملطخ بالهوى لا يليق لحضرة المولى. قال تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: الآية 26] يا داود، طهر لي بيتاً أسكنه. والله در الششتري حيث يقول:

لي حبيب إنما هو غيبور يطل في القلب كظير خذور
إذا رأى شيئاً امتنع أن يسرور

فمن حصن أعماله بالإخلاص استحق القبول وكان من الخواص، ومن حصن قلبه من الأغيار امتلاً بالعلوم والأنوار، ونبتت منه المعارف والأسرار.

واهلم أن العمل المشترك هو الذي يدخله ثلاث علل: إما رياء، أو عجب، أو طلب عوض.

أما الرياء، فهو الشرك الأصغر، وقد تقدم الحديث: «من عمل عملاً أشرك فيه معي فبيري تركته وشريكه».

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب من أشرك في عمله...، حديث رقم (2985) [2289/4] وروى نحوه ابن خزيمة في صحيحه، باب الزجر عن الاستمجال...، حديث رقم (938) [67/2] وروى نحوه غيرهما.

وفي حديث مسلم: ثلاثة أول من تسعر بهم جهنم يوم القيامة. فذكر القاريء لغير الله، والشجاع الذي يقاتل لغير الله، والغني الذي يتصدق لغير الله⁽¹⁾.

وأما العجب، فهو رؤية النفس وإسناد العمل إليها، ورؤية المزية لها على الناس، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: الآية 32] قيل: معناه إذا عملت عملاً فلا تقل عملت ولا تظهره عند من يعظّمك لأجل علمه بذلك لأن رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث مهلكات، شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»⁽²⁾.

وقال زيد بن أسلم: معنى لا تزكوا أنفسكم، لا تعتقدوا أنها بارّة. قال رسول الله ﷺ: «لو لم تذبوا لغشيت عليكم ما هو أكبر من الذنوب، العجب»⁽³⁾.

قال بعض السلف: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً.

وقيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئاً؟ قالت: إذا ظن أنه محسن. والمعجب أعمى عن آفات نفسه وعمله، والعمل إذا لم يُتفقد ضاع، وإنما يُتفقد عمله من غلب عليه خوف الله وخوف ذنوبه ولا يريد الشناءة على نفسه وحمدها وتزكيتها وربما أعجب برأيه وعقله فيستنكف عن سؤال غيره، ولا يسمع نصيح ناصح لنظره من سواه بنظر الاستحقار. نسأل الله السلامة والعافية.

وأما طلب العوض والجزاء، فقد تقدم مراراً الزجر عنه، وأنت إن طالبت بالجزاء طالبك بسر الإخلاص، ويكفي المريب وجدان السلامة، فكل عمل فيه بعض هذه

(1) صحيح مسلم، باب من قاتل للرياء والسمعة...، حديث رقم (1905) [3/1513] ونصه: عن سليمان بن يسار، قال: تفرّق الناس عن أبي هريرة، فقال له نائل (اسم رجل من العرب) أهل الشام: أيها الشيخ، حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ. قال: نعم. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد، فأتى به، فعرفه نعمه فعرفها. قال فما عملت فيها؟ قال: قاتلت نيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل. ثم أمر فُسحِبَ على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل تعلّم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمت العلم وعلمته وقرأت نيك القرآن. قال: كذبت. ولكنك تعلّمت العلم ليقال: عالِم. وقرأت القرآن ليقال هو قاريء، فقد قيل. ثم أمر به فُسحِبَ على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كده، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تُحب أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت. ولكنك فعلت ليقال: هو جواد. فقد قيل. ثم أمر به فُسحِبَ على وجهه ثم أُلقي في النار.

(2) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (5452) [5/328] والقضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (325) [1/214] ورواه غيرهما.

(3) روى نحوه القضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (1447) [2/320] وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد، باب ما جاء في العجب، [10/269] وأورده غيرهما.

الآفات فإن الله لا يقبله قبول الخواص .

وأما القلب المشترك فهو الذي يدخله ثلاث أيضاً : حب الدنيا، أو حب الخصوصية، أو النعم الأخروية . وكلها قاذحة في الإخلاص مخرجة عن درجة التوحيد الخاص، وبالله التوفيق .

[خلاصة ما ورد في الباب الحادي والعشرين]

هذا آخر الباب الحادي والعشرين، وحاصله : ذكر ميزان الأعمال والأحوال الصحيحة والسقيمة، وحاصل هذا الميزان، كل ما يثقل على النفس فهو صحيح، وكل ما يخف عليها فهو سقيم . ومن جملة ما يثقل عليها القيام بالفرض الواجب دون النوافل، فإنها تخف عليها، فلما علم الحق سبحانه ذلك منها قيد الفرائض بأوقات معلومة كي لا يمنعها التسوية، لأن جلّ النفوس يقلّ نهوضها إلى حضرة القدرس، وليس للحق سبحانه غرض فيما فرض، وإنما ساقهم إلى جنته بسلاسل امتحانه .

فمن غلبته نفسه على النهوض إلى الطاعة وأسرت شهوته عن اللحوق بالسباق، فلا يستغرب أن ينقذه الله منها، فإن قدرة القادر كتمح البصر أو أقرب، وربما تكون تلك الشهوة أو الغفلة في حقتك نعمة، وذلك لتعرف منة الله عليك حين ينقذك منها، فإن كثيراً ممن أنعم الله عليهم لم يعرفوا قدرها فسلموا منها .

فإذا أنعم عليك بإنقاذك من نفسك وإلحاقك بخواص جنسك فانغمست في النعم فلا تندش عن شكرها .

فإقرارك بالمنعم قيام بشكرها، فإذا رأيت من حبسته نفسه وتمكن داء الهوى من قلبه فاعلم أن ذاك هو الداء العضال، فلا يخرج منه إلا خوف مزعج أو شوق مقلق .

فإذا أزعجه الخوف أو الشوق، تفرغ قلبه وخلص عمله فيقبل الله عليه، فإذا أقبل عليه ملأه بالأنوار، فمنها ما يصل إلى سويداء قلبه، ومنها ما يقف على ظاهر قلبه كما أبان ذلك بقوله في أول الباب الثاني والعشرين .

[الباب الثاني والعشرون]

[أنوار الإيمان وأنوار الإحسان]

وقال رضي الله عنه :

195 - (أنوارٌ أذن لها في الوصول، وأنوارٌ أذن لها في الدخول).

قلت : أما الأنوار التي أذن لها في الوصول، فهي أنوار الإيمان وهي لأهل الدليل والبرهان، لأن قلوبهم لم تتفرغ من الأغيار، ولم تمح منها صور الآثار، فلما جاءت وجدت داخل القلب مملوءاً بصور الآثار، فوقفت في ظاهر القلب.
وأما الأنوار التي أذن لها في الدخول، فهي أنوار الإحسان من الشهود والعيان، وذلك لأنهم لما فرغوا قلوبهم مما سوى ربهم دخلتها الأنوار، فوجدت متسعاً، فسكنت سوידاء قلوبهم.

وعلاوة النور الواصل والداخل، أن صاحب النور الواصل للظاهر فقط تراه تارة مع الدنيا، وتارة مع الآخرة، تارة مع حظ نفسه وتارة في حق ربه، تارة مع الغفلة وتارة مع اليقظة.

وصاحب النور الداخل لسويداء القلوب لا تراه إلا مع ربه لا يشغله عنه حظوظ الدنيا ولا حظوظ الآخرة غائباً عن نفسه حاضراً مع ربه.

وفي هذا المعنى قال رسول الله ﷺ : «النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح»⁽¹⁾ قيل : فهل له من علامة يا رسول الله، قال : «نعم، التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والتزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور»⁽²⁾. انتهى.

ثم اعلم أن الأنوار التي أذن لها في الوصول عامة لجميع المؤمنين، وقد تقدم قول أبي الحسن [الشاذلي] : لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض⁽³⁾.

[القلب المملوء بصور الآثار لا تدخله الأنوار]

وأما الأنوار التي أذن لها في الدخول، فهي خاصة بالخواص، أهل التفرغ من

(1) روى نحوه الطبري في تفسيره [27 / 8] وسعيد بن منصور في سننه قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام : الآية 125] . . . حديث رقم (918) [88 / 5] ورواه غيرهما.

(2) هذا الحديث سبق نخريجه .

(3) أورده الثعالبي في تفسيره، تفسير سورة الطور [218 / 4].

الأغيار ولوث الأنوار، فأما من كان قلبه محشواً بصور آثارها فلا يطمع في نيل أسرارها كما أبان ذلك بقوله :

196 - (رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ الْأَنْوَارُ، فَوَجَدْتَ الْقَلْبَ مَحْشُورًا بِصُورِ الْأَثَارِ، فَأَرْتَعَلْتَ مِنْ حَيْثُ نَزَلَتْ).

قلت : رب هنا للتكثير، أي كثيراً ما ترد عليك أنوار عالم الغيب لتغيبك عن عالم الشهادة، فتجد قلبك محشواً بصور عالم الشهادة، فترحل عنك وتتركك محبوساً في يدها .

أو تقول : كثيراً ما ترد عليك أنوار المعاني لتخرجك من سجن الأواني، فتجد قلبك مملوءاً بها، فتتركك في وسطها محجوباً بها .

أو تقول : كثيراً ما ترد عليك أنوار المنكوت فتجد قلبك محشواً بظلمة الملك فتتركك في ظلمة الكون .

أو تقول : قد ترد عليك أنوار الجبروت، فتجد قلبك محشواً بأنوار الملكوت فرحاً بها قائماً ببهجتها، فتتركك واقفاً معها وتنادي عليك : القناعة من الله حرمان، الذي تطلب أمامك . ولو كان العلم ينتهي إلى حد محدود لم يقل الله تعالى لسيد العارفين : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : الآية 114] .

قال عليه الصلاة والسلام : « كل يوم لا أزداد فيه علماً لا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم »⁽¹⁾ أو كما قال عليه السلام .

[شرط ملء القلب بالمعارف والأسرار]

فالمانع للقلب من دخول الأنوار هو وجود الأغيار كما أشار إلى ذلك بقوله :

197 - (فَرَّغْ قَلْبَكَ مِنَ الْأَغْيَارِ، يَمْلَأُ بِالْمَعَارِفِ وَالْأَسْرَارِ).

قلت : التفرغ : هو الخلو من الشيء والتنظيف منه، والأغيار : جمع غير بكسر الغين وفتح الياء، ويصح أن يكون بفتح الغين وسكون الياء، وهو أليق . والمراد به حينئذ السوى، وإنما جمعه لتعدد أنواعه كما قالوا في جمع العالمين .

يقول رضي الله عنه : فرغ قلبك أيها الفئير من الأغيار، وهو ما سوى الله بحيث لا يتعلق قلبك بشيء من الكون علوياً أو سفلياً، دنيوياً أو أخروياً، حسيماً أو معنوياً، كحب الخصوصية وغيرها من المحفوظ، فإذا رحل قلبك من هذا العالم بالكلية ولم يبق فيه إلا محبة مولاه، فإنه يملؤه بالمعارف بحيث يكشف عنك حجاب الوهم ويذهب

(1) رواه الطبراني في الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (6636) [6/367] وابن راهويه في مسنده،

حديث رقم (1128) [2/553] ورواه غيرهما .

عنك ظلمة الحس، فتشاهد الأشياء كلها أنواراً ملكوتية مشاهدة ذوقية تمكينية، ويملؤه أيضاً بالأسرار وهي أسرار الجبروت، فتغيب بالجمع عن الفرق وبشهود الجبروت عن شهود الملكوت، وتكاشف بأسرار القدر فيهب عليك نسيم برد الرضى والتسليم، وأنت في حضرة النعيم المقيم عند الملك الكريم.

[الفرق بين المعارف والأسرار]

فالأسرار على هذا أبلغ من المعارف، فالمعارف أنوار الملكوت، والأسرار أنوار الجبروت، لأن السائر قد يكشف له عن نور الملكوت فيشهد الكون كله نوراً، لكنه مفتقر إلى تلك الأنوار ليرقى بها إلى التمكين في شهود الذات، كافتقار القارىء إلى النظر في الرسوم، فإذا حفظ القارىء المعنى وتمكّن منه محا الرسوم ولم يفتقر إليها، كذلك السائل يكشف له أولاً عن نور الكون فيغيب في النور عن ظلمة الحس، ثم لا يزال في السير حتى يقبض المعنى وينمكّن منه، فلا يحتاج إلى مشاهدة، فيستغني عن نور الملكوت بنور الجبروت، فيمتحي السوى عن عين قلبه بالكلية ويغيب عن نفسه وحنه بشهود الأحدية. والله در قول الشاعر⁽¹⁾:

إن تلاشى الكون عن عين قلبي شاهد السُرُ غيبه في بيان
فاطرح الكون عن عيانك وامح نقطة الغيب إن أردت تراني
ومن أراد سرعة السير إلى هذا المقام فليفرغ قلبه وينظفه على التمام، فيقدر التخلية تكون التحلية، ويقدر التصفية تكون الترقية، ولأجل هذا نهوا السائر عن التزوج وعن التعلق بالأسباب، إذ لا يخلو من علفة، فإذا تمكن من المعنى لم يبق له مراد إلا مراد معروفه، صار كل ما يبرز من عند مولاه تلقاه بالقبول.

[استبطاء إقبال النفس]

فإن طال بالمرید السفر وتأخر عنه الفتح والظفر، فلم يدرك هذه الأسرار، ولم يكشف له عن تلك الأنوار، فلا يستبطن من ربه النوال فإنه جواد كريم، ولكن يستبطن منه وجود الإقبال. وإني ذلك أشار بقوله:

198 - (لا تَسْتَبْطِئُهُ مِنْهُ [تعالى] النوال، وَلَكِنْ اسْتَبْطِئُهُ مِنْ نَفْسِكَ وَجُودِ

الإقبال).

قلت: الحق سبحانه جواد كريم حلیم رحيم، من تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أناه يمشي أناه هرولة كما في الحديث⁽²⁾. فإن

(1) لم أقف على اسم هذا الشاعر.

(2) الذي رواه البخاري في صحيحه، باب ما يذكر في الذات... حديث رقم (6970) [2694/6]

ونصه: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا =

توجهت إليه بقلبك ثم تأخر الفتح مِنْ قَبْلِهِ ، فلا تستبطن منه النوال ، أي العطاء ، وهو كشف الحجاب ، ولكن استبطن من نفسك وجود الإقبال ، فلعل إقبالك عليه لم يكن بكليتك ، فإن الله سبحانه يقول بلسان الحال : «وليس يدرك وصالي كل من فيه بقية ، أو كان بحرف أو خط» . وأما لو زالت أغيارك لأشرفت أنوارك ، ولو تطهرت من جنابة الغفلة لاستحقت الدخول إلى مسجد الحضرة . وقد يكمل إقبالك ويفوتك الأدب مع سيدك وهو استبطاؤك النوال ، ولو صح منك الإقبال .

ثم نادى الحق من أرجائها أدخلوها بسلام آمنين
فإن أردت عقد شرائها قلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: الآية 111] هذا ما اشترى العبد الثواب من الملك الوهاب بثمن قيمته الخروج من ذل المعاصي إلى عز الطاعة ، ومن تعب الحرص والطمع إلى راحة الزهد والورع ، شهد بذلك عدول القلب واللسان ، وصحيح ما نزل من القرآن وبتاريخ حل عقدة الإصرار من وقت الإنابة ﴿وَمَنْ أَوْفَّ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية 111] قال له : نعم . ثم تصدق بماله وخرج معه إلى الله . انتهى .

[الفرق بين حقوق في الأوقات وحقوق الأوقات]

ثم من صح إقباله على الله لم يضيع شيئاً من الأوقات في غير طاعة مولاه كما نبه على ذلك بقوله :

199 - (حُقوقُ في الأوقات يُمكنُ قضاؤها ، وحُقوقُ الأوقات لا يُمكنُ قضاؤها) .

قلت : أما الحقوق التي في الأوقات : فهي الطاعة التي عين الله تعالى لها وقتاً محدوداً ؛ كالصلوات الخمس والسنن المؤكدة ، وكذلك الزكاة والصيام لهما وقت محدود في العام ، فإذا خرج وقتها أمكن قضاؤها ، وإن كان يُسمى مُفترطاً لكن بعض الشر أهون من بعض .

وأما حقوق الأوقات بأنفسها فهي مراقبة الحق أو مشاهدته كل واحد على قدر وسعه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: الآية 286] ، وهذه الحقوق إذا فات وقتها لا يمكن قضاؤها ، إذ الوقت الثاني له حق مخصوص لا يسع غيره ، فما من لحظة إلا

معها إذا ذكرني ، فإن ذكرني لمي نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منهم ، وإن تقرب إلي شيراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة . ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الذكر . . . حديث رقم (2675) (4/2062) ورواه غيرهما .

ويجب عليك فيها أن تكون عاملاً لله مشتغلاً فيها بما يوصلك إلى قربه ورضاه، وهذا معنى قوله :

199 - (إِذَا مَا مِنْ وَثِقٍ يَرِدُ إِلَّا وَلِلَّهِ عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ، وَأَمْرٌ أَكِيدُ، فَكَيْفَ تَقْضِي فِيهِ حَقَّ غَيْرِهِ؟ وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ اللَّهِ فِيهِ).

قلت : ما من وقت أو لحظة ترد عليك أيها العبد إلا والله عليك فيها حق جديد، من ذكر أو فكرة أو نظرة أو من مراقبة أو مشاهدة أو من خدمة حسية أو معنوية، ﴿قَدْ حَكَّرَ كُلُّ أَنَاثٍ مَشْرَبَهُنَّ﴾ [البقرة: الآية 60].

وأمر أكيد من التحقق بالعبودية والقيام بوظائف الربوبية، فإن غفلت عن الحق الجديد أو الأمر الأكيد في وقت ما ودخل الوقت الثاني فقد فاتك القضاء وندمت على ما مضى، فكيف يمكن أن تقضي في الوقت الثاني حق غيره وهو أيضاً له حق يجب عليك أن تؤديه فيه، فلا يمكنك أن تقضي حق الوقت الأول في الوقت الثاني، وأنت لم تقض حق الله فيه، أي في الوقت الثاني.

والحاصل، أن كل وقت له حق، فإن فات فلا قضاء له، ولذلك قالوا في الآداب: التصوف هو ضبط الأنفاس وحفظ الحواس. والآنفاس: هي دقائق الساعات وضبطها: هي عمارتها بأنواع الطاعات، فإذا ضيع حقوق الساعات خرج عن أدب التصوف، والله تعالى أعلم.

قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: أوقات العبد أربعة لا خامس لها، نعمة أو بلية، أو طاعة أو معصية، وله على عبده في كل وقت منها حق، ففي النعمة الشكر، وفي البلية الصبر، وفي الطاعة شهود المنة، وفي المعصية اللجأ والإنابة وطلب الإقالة بالمعنى. وفي هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام: «من أعطي فشكر، وابتلي فصبر، وظلم فغفر، وأذنب فاستغفر»، ثم سكت عليه السلام، فقالوا: ما له يا رسول الله، قال: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَأْمُرْ لَهُمْ مَهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية 82] ⁽¹⁾، أي لهم الأمن يوم القيامة وهم مهتدون في الدنيا. وقيل: لهم الأمن في الدارين، وهم مهتدون إلى حضرته في الكونين.

[تعذر القيام بحقوق الأوقات على التمام]

واعلم أن القيام بحقوق الأوقات على التمام يكاد أن يكون متعذراً في حق البشر، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: الآية 91] أي ما عبده حق عبادته وما عرفوه حق معرفته، فلهذا كانت حقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها لأنها راجعة لحفظ

(1) رواه ابن كثير في تفسيره، سورة الأنعام، حديث رقم (1378) وأورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول [209/4] وأورده غيرهما.

الأنفاس والخطرات، وقد أعيا الرجال حفظها في حال الصلاة فكيف في كل وقت؟ لكن قد يختص برحمته من يشاء.

[عمر ك رأس مالك]

ثم في تضييع حقوق الأوقات تضييع العمر الذي هو أعز من الكبريت الأحمر، وهو الذي نبه عليه بقوله:

200 - (ما فات من عُمرِكَ لا عِوضَ لَهُ، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لا قِيمَةَ لَهُ).

قلت: عمر المؤمن هو رأس ماله، فيه ربحه وخسرانه، فمن شدَّ يده عليه كان من الفائزين، ومن ضيَّعه في البطالة والتقصير كان من الخاسرين، فما فات منه في غير طاعة ربه لا عوض له إذ ما ذهب لا يرجع أبداً، وما حصل لك منه لا قيمة له تفي بقدره، إذ لو اشتريت ساعة منه بملء الأرض ذهباً لكان نزرأ في حقه، لأن ساعة منه تذكر الله فيها تنال بذلك ملكاً كبيراً ونعيماً مقيماً لو بيعت الدنيا بحذاقيرها ما بلغت منه عشر العشر، ولأجل هذا المعنى اشتدت محافظة السلف الصالح على الأوقات وبذلوا مجهودهم في اغتنام الساعات ولم يقنعوا من أنفسهم إلا بالجد والتشمير، ولم يسمحوا لها في الراحة والبطالة بقليل ولا كثير.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «لا تأتي على العبد ساعة لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة يوم القيامة»⁽¹⁾. وقال الجنيد رضي الله عنه: الوقت إذا فات لا يستدرك وليس شيء أعز من الوقت. وفي معناه قيل^(*):

السباق السباق قولاً وفعلًا حذر النفس حسرة المسبوق

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: أدركت أقواماً كانوا على أنفاسهم وأوقاتهم أشد حفظاً وأحرص شفقة منكم على دنائركم ودراهمكم، كما لا يخرج أحدكم درهما ولا ديناراً إلا في ورود منفعة واستجلاب فائدة، كذلك كانوا لا يضيِّعون نفساً من أنفاسهم في غير طاعة أبداً.

وجاء في الخبر⁽²⁾: أن أهل الجنة بينما هم في نعيمهم إذ سطع لهم نور من فوق أضاءت منه منازلهم كما تضيء الشمس لأهل الدنيا، فينظرون إلى رجال من فوقهم أهل عليين يرونهم كما يرى الكوكب الدرّي في أفق السماء، وقد فضلوا عليهم في الأنوار والجمال والنعيم كما فضل القمر على سائر النجوم، فينظرون إليهم يسرون على نُجُب^(**)

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(*) القائل هو الواسطي كما في تفسير الثعالبي للثعالبي تفسير سورة التوبة [1/284].

(2) روى نحوه السيوطي في الدر المنثور، سورة طه، الآية 72-76. أخرج نحوه عبد بن حميد...

[587/5] وأبو نعيم في حلية الأولياء، ترجمة عون بن عبد الله بن عتبة [4/247].

(***) الفرس الكريمة (لسان العرب).

تسرح بهم في الهواء يزورون ذا الجلال والإكرام، فينادي هؤلاء: يا إخواننا ما أنصفتمونا، كنا نصلي كما تصلون ونصوم كما تصومون، فما هذا الذي فضلتم به علينا، فإذا النداء من قبل الله عز وجل: «إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويعطشون حين تروون، ويعرون حين تكسون، ويذكرون حين تنسون، ويبكون حين تضحكون، ويقومون حين تنامون، ويخافون حين تأمنون، بذلك فضلوا عليكم اليوم»⁽¹⁾. فذلك قوله تعالى:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: الآية 17] اهـ.

[العبودية لله تعالى والحرية مما سواه]

ومما يعين على حفظ الأوقات واتصال الطاعات الزهد في السوى ومحبة المولى، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره وخدمه وخضع له وكان عبداً حقيقة له، كما أشار إلى ذلك بقوله:

201 - (ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً).

قلت: القلب إذا أحب شيئاً أقبل إليه وخضع له وأطاعه في كل ما يأمره، إن المُجِب لمن يحب مطيع، وهذه حقيقة العبودية الخضوع والطاعة، وليس للقلب إلا جهة واحدة وليس للإنسان إلا قلب واحد، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ﴾ [الأحزاب: الآية 4] وإذا كان للقلب جهة واحدة، فمهما أقبل بها على مولاه أعرض عمّا سواه وكان عبداً له حقيقة، وإذا أقبل على هواه أعرض قطعاً عن مولاه وكان عبداً لسواه، والحق سبحانه لا يرضى لعبده أن يكون عبداً لغيره، قال تعالى في ذم من كان عبداً لهواه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عِنتاً فَمَن يَهْدِيهِ مَن بَعْدَ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: الآية 23] فالآية نص في ذم من أحب هواه واتخذها رباً من دون مولاه.

قال رحمه الله: «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة - زاد في رواية: والزوجة - تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»⁽¹⁾. وقيل للجنيذ: من العبد؟ قال: من بقي في قلبه أدنى علاقة لغير الله لأن [العبد] المكاتب عبد ما بقي عليه درهم [لسيده]. قيل له: ومن الحر؟ قال: من تخلص من رق طبعه، واستنقذ قلبه من شهوات نفسه.

وكان للشبلي تلميذ فكساه رجل يوماً جبة، وكان على رأس الشبلي قلنسوة، فخطر على قلب التلميذ محبة القلنسوة ليجمعها مع الجبة فكاشفه الشيخ، فأزال له العبة وجمعها مع القلنسوة، ورمى بهما في النار وقال له: لا تبقى في قلبك التفاتاً لغير الله.

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، حديث رقم (2730) [3/1057] وابن ماجه في سننه، باب في المكثرين، حديث رقم (4135) [2/1385] ورواه غيرهما.

وأنكر عليه بعض أهل الظاهر المتجمدين على ظاهر الشريعة جهلاً بالمقصود، لأن أعمال الصوفية مبنية على العبادة القلبية، لأن الأعمال الظاهرة إن لم يوافقها القلب كانت أشباحاً خاوية وبالله التوفيق.

واعلم أن من تخلص من رقب طبعه، واستنقذ من أسر نفسه، فقد تحقق بمحبة ربه. والمحبة لها بداية ووسط ونهاية.

نأول المحبة وبدايتها ملازمة امتثال الأمر واجتناب النهي، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية 31].

ووسطها لهج اللسان بالذكر، وتعلق القلب بشهود المحبوب.

ونهايتها لا تُدرك بالعبارة ولا تلحقها الإشارة. وفي هذا المعنى قيل:

فلم يبق إلا الله لا رب غيره حبيب لقلب غاب عن كل مقصد
هنيئاً لمن قد نال حب حبيبه وخاض بترك الغير أكرم مورد
نعيم بلا حد لديه مسجود على عدد الأنفاس في كل مشهد

روي أن أبا يزيد رضي الله عنه كان يحذاء المنبر، فقرأ الخطيب: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: الآية 91] فصبر نفسه حتى طار الدم من عينه، فهذه المعاني لا تدركها العامة ولا الخاصة وإنما يذوقها خاصة الخاصة. وأنشدوا:

وحفك لو أفنيت قلبي صباية لكنت على هذا حبيباً إلى قلبي
أزيد على عدل العذول تشوقاً ووجداً على وجد وحباً إلى حب
أبى القلب إلا أنت في كل حالة حبيباً ولو دارت عليه يد الكرب
فلا تبتلبيه بالبعاد وإنما تلذذ أنفاس المحبين بالقرب

[الله تعالى غني عن كل ما سواه ومفتقر إليه كل ما عداه]

ومعنى محبة الله لعبده حين يقبل عليه هو تقريبه لحضرته وهدايته لمحبه من غير نفع له في ذلك، إذ لا تنفعه طاعة من أقبل عليه ولا تضره معصية من أدبر عنه، إذ هو غني عن الكل، كما أشار إلى ذلك بقوله:

202 - (لا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ، وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ، وَإِنَّمَا أَمْرُكَ بِهَدْيِهِ، وَنَهَاكَ عَنْ هَدْيِهِ، لِمَا يَعُودُ عَلَيْكَ. لا يزيد في عزه إقبال من أقبل عليه ولا ينقص من قدره إدبار من أدبر عنه).

قلت: الحق سبحانه غني عن كل شيء مفتقر إليه كل شيء، لا تنفعه طاعة الطائمين ولا تضره معصية العاصين، وسيأتي في المناجاة [الإلهية]: «إلهي تقدس رضاك أن تكون له علة منك، فكيف تكون له علة مني، أنت الغني بذاتك أن يصل إليك

النفع منك فكيف لا تكون غنياً عني» انتهى . فلا تنفعه أيها العبد طاعتك فيكون محتاجاً إليها تعالى الله عن ذلك ، ولا تضره معصيتك فيكون مقهوراً بها وهو القاهر فوق عباده ، وإنما أمرك بالطاعة ليقربك إليه ، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية 56] وإنما نهاك عن المعاصي لما جعل فيها من علامة البعد عن حضرته ، فما أمرك الله بشيء إلا وفيه تقرب و آداب لنحضره ، وما نهى الله عن شيء إلا وفيه ضرر وإبعاد عن الحضرة لما فيه من سوء الأدب .

والتحقيق ، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: الآية 23] ، لا يزيد في عزه إقبال من أقبل عليه لأن عزته أزلية قديمة ، ولا ينقص من قدره إدبار من أدبر عنه لأنه غني عن العالمين . وفي الحديث القدسي : «لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» الحديث . أخرجه مسلم في صحيحه .

ومن أسمائه تعالى : القدوس . قال بعضهم : معناه أنه منزّه عن كل كمال لا يليق بذاته ، ولا يقال إنه منزّه عن النقائص ، إذ لا تصح نسبتها إليه حتى ينزه عنها . قال بعضهم : لو أراد الخلق تنزيه الخالق ما استطاعوا إلا بلسان العجز ولذلك قال ﷺ : «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»⁽¹⁾ انتهى . وأنشدوا :

لا يعلم الله إلا الله فاتشدوا والسدين دينسان إيمان وإشراك
وللمقول حدود لا تجاوزها والمعجز عن درك الإدراك إدراك

فهذا أوائل المعرفة ، وأما وسطها ، فهو اغتراف من بحر الحقيقة واستشراق على غوامض الطريقة ، ولا تسعه كل عقول العامة ، وإنما يخوض فيه الخاصة .

فأول المعرفة دلالة الصنعة على الصانع ، ووسطها دلالة الصانع على الصنعة ، وغايتها تلاشي كل ما دون الحق ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: الآيات 26، 27] انتهى . قاله الشطبي مختصراً .

[خلاصة ما ورد في الباب الثاني والعشرين]

هذا آخر الباب الثاني والعشرين ، وحاصله : الترويب في تحصيل الأنوار بالتفرغ من الأكدار ، فإذا فرغت قلبك وتأخر الفتح عليك ، فلا تستبطيء منه وجود النوال ولكن

(1) رواه مسلم في صحيحه ، باب ما يقال في الركوع والسجود ، حديث رقم (482) [1/350] والحاكم في المستدرک ، كتاب الوتر ، حديث رقم (1150) [1/449] ورواه غيرهما .

استبطن من نفسك وجود الإقبال، ولا يكمل إقبال العبد على ربه حتى يستغرق الأوقات كلها في طلبه، فكل وقت من العمر لا ثمن له ولا يمكنه التفرغ لحفظ الأوقات حتى يتحرر من رق الكائنات، فإذا تحرر مما سواه كان عبداً حقيقة لمولاه فحينئذ اجتناب ولحضرتة اصطفاه من غير منفعة له فيه ولا ضرر، وإنما يعود نفعه له وضرره عليه، إذ لا يزيد في عزه إقبال من أقبل ولا ينقصه إدبار من أدبر، وإنما وصل من وصل بمحض فضله، وأبعد من أبعده بمحض عدله.

[الباب الثالث والعشرون]

[معنى الوصول إلى الله تعالى]

ومعنى وصول العبد إلى مولاه علمه بنور عظمة ربه وسناؤه، كما أبان ذلك في أول الباب الثالث والعشرين بقوله:

وقال رضي الله عنه:

203 - (وَصُورُكَ إِلَيْهِ [تعالى] وَصُورُكَ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ، وَإِلَّا فَجَلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ شَيْءٌ أَوْ يَتَّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ).

قلت: قد ذكر أهل الفن في هذا المقام اصطلاحات وألفاظ تداولوها بينهم تقريباً لفهم المعاني، فمنها السير والرحيل وذكر المنازل والمناهل والمقامات.

ومنها الرجوع والوقوف، وكل ذلك كناية عن مجاهدة النفوس ومحاربتها، وقطع العوائق والعلائق عنها، أو الوقوف مع شيء منها.

ومنها الوصول والتمكين والسكون والطمأنينة.

ومنها المشاهدة والمكالمة والمجالسة والمساورة وغير ذلك، وكل ذلك كناية عما أدركته أرواحهم وذائقته أسرارهم من عظمة الحق وجلاله، وسيأتي تفسير شيء من ذلك في محله إن شاء الله.

ومعنى الوصول عندهم: تحقيق العلم بوجوده وحده، فوصولك إليه هو شعورك بعدمك، حتى يكون عدمك عندك ضرورياً وعلمك بوجوده كذلك، وهذا الأمر كان حاصلًا لك في نفس الأمر لكن لم تشعر به.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي [العمراني]: الناس كلهم يشاهدون ولا يعرفون. وسمعت شيخنا يقول: الناس كلهم في البحر، أي في بحر الوحدة، ولكن لا يشعرون. فوصول العبد إلى الله هو تحقيق العلم بوجوده والغيبة عن نفسه وعن كل ما سواه، وإلا تكن كذلك بأن تعتقد أن الوصول يكون حسياً. فجَلَّ رَبُّنَا: أي تعالى وترفع أن يتصل به شيء للزوم تحيزه، أو يتصل هو بشيء للزوم افتقاره وحصره، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

واعلم أن هذا العلم بالله يكون كسبياً، ثم لا يزال يغيب عن نفسه وحسه سكرة بعد سكرة وحيرة بعد حيرة حتى يصحو وينجلي عنه ضباب الحس وسحاب الجهل وظلمة النفس، فتشرق عليه شمس النهار وتنجلي عنه ظلمة الأغيار. وفي ذلك قيل⁽¹⁾:

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس سار

(1) القائل هو الشيخ عمر الرافعي المتوفى سنة 1299 كما في الموسوعة الشعرية، إصدار المجمع الثقافي، أبو ظبي وجاءت الأبيات على النحو الثاني:

الناس في سَدَفِ الظلام ونحن في ضوء النهار
أي ليل وجودي صار مشرقاً مضيئاً بسبب شهود ذاتك، وظلام ليل القطيعة سار
في جلّ الناس، الناس في جوف ظلمة الأكوان ونحن في ضوء شمس العرفان.

[معنى القرب من الله تعالى]

ومنها، أي من اصطلاحاتهم، ذكر القرب والاستشراق والمراقبة. وفسر الشيخ
معنى القرب، فقال:

204 - (قُرْبِكَ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ مُشَاهِداً لِقُرْبِهِ، وَإِلَّا فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ وَوَجُودُ قُرْبِهِ).

قلت: إذا حققت أن الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته، علمت علم يقين أن
الأكوان والمكان والزمان لا وجود لها، وأن الحق كما كان وجوده وحده ولا أين ولا
مكان، بقي كذلك لا أين ولا مكان ولا زمان، نور أحديته محاط وجود الأكوان، فانتفى
بوجوده الزمان والمكان، ولم يبق إلا الواحد المنان.

وفي البخاري عنه عليه السلام: «يقول الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدي
الليل والنهار»⁽¹⁾، فالوجود الحقيقي إنما هو لذاته وأثر صفاته، تجلّى واستتر واختفى
فيما ظهر، فإذا علمت هذا علمت أنه تعالى قريب من كل شيء محيط بكل شيء، ولا
شيء إلا الذي ليس كمثل شيء، لكن حكمة الحكيم أثبتت الحوادث والقديم، فمن فتح
الله عين بصيرته شهد عدمه لوجوده، فأبصر الحق محيطاً به وماحياً لوجوده، ومن طمس
الله عين بصيرته لم ير إلا الفرق ولم يدرك إلا البعد، فإذا أراد الله أن يقربه إليه فتح
شعاع بصيرته، فيبصر الحق قريباً منه ومحيطاً به.

فمعنى قربك من الحق أن تكون مشاهداً لقربه منك قرب وجود وإحاطة، وذلك
بعد أن تلتفت عوالمك وفنيت دائرة حسك، وحينئذ يتحقق قربك منه، قال تعالى:
﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: الآية 60]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ
بِرَبِّكَ أَنْتُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَاهِدُونَ﴾ [الأنعام: الآية 53] الآية، وإن لم تعتقد هذا واعتقدت
وجود نفسك وثبوت حسك الوهمي، فلا تشاهد إلا البعد، فمن أين أنت ووجود قربك
الحسي، من نوره اللطيف حتى تراه بعين الحس، فما دمت في عالم الأشباح فأنت بعيد
من عالم الأرواح في حال قربك منه كما قال القائل⁽²⁾:

لَبِلِي بِوَجْهِكَ مُشْرِقًا	فِي كُلِّ مَمْنَى كَالْمَنَارِ
وَيَدُونَ وَجْهِكَ مُظْلِمًا	وظلاماً فِي النَّاسِ سَارِي
فَالنَّاسُ فِي سَدَفِ الظُّلَمِ	مِن لِنُورِ وَجْهِكَ بِأَفْتِقَارِ
قَدْ شَاقَّهُمْ بَدْرُ السَّمَاءِ	مِنْ وَنَحْنُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ

(1) حديث رقم (4549) و(5827) و(7053) ورواه مسلم في صحيحه، باب النهي عن سب الدهر،
حديث رقم (2246) [4/1762] ورواه غيرهما.

(2) هو الشيخ أبو مدين التلمساني شبيب بن الحسن الأندلسي المتوفى سنة 594 هـ.

ومن عجب إنسي أحسن إليهم وأسأل شوقاً عنهم وهم ممّي
وتبكيهم عيني وهم بسوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي
سبحان من بعد قوماً في حال قربهم، وقرب قوماً في حال بعدهم .
وقال الشيخ زروق رضي الله عنه في شرح هذه الحكمة: القرب في الجملة على
ثلاثة أوجه:

أحدها: قرب الكرامة وهو تقرب الحق عبده حتى يكون شاهداً لقربه منه،
فيتولاه دون ما سواه .

الثاني: قرب الإحاطة، إحاطة العلم والقدرة والإرادة وعموم التصرف، وهذا هو
قرب الحق من عبده .

الثالث: قرب المناسبة والمسافة، ولا يصح في جناب الربوبية لاستحالة المسافة
عليه ونفي مناسبة العبد للرب . فتقدير الكلام قريب منه على وجه الكرامة أن تكون
مشاهداً لقربه منك على وجه الإحاطة، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه على وجه
التناسب والمسافة . انتهى .

[ورود الحقائق الإلهية على قلب العارف مجملة ثم يكون البيان]

ومن حصل على مقام القرب والوصول ترد عليه الحقائق العرفانية والأسرار الربانية
والعلوم اللدنية، تارة ترد مجملة ثم يقع التفصيل، وتارة مفصلة وهو غالب واردة أهل
التمكين، والغالب أن هذه الواردات إنما ترد بعد الفتح والوصول ولذلك قال:

205 - (الْحَقَائِقُ تَرِدُ فِي التَّجَلِّي مُجْمَلَةً، وَبَعْدَ الْوَحْيِ يَكُونُ الْبَيَانُ. ﴿إِذَا قَرَأْتَهُ
فَأَنبَحُ قُرْآنَهُ ﴿٧٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿٧٩﴾﴾ [الْبَيَانَةُ: 18، 19].

قلت: الحقائق هي ما يرد على قلب العارف من تجليات العلوم والحكم
والمعارف، فتارة تكون علوماً، وتارة تكون حكماً ومعارفاً، وتارة تكون كشافاً بغيث
كان أو سيكون، وحكمة ذلك أن الروح إذا تخلصت وتصفيت من غيش الحس كان
غالب ما يتجلى فيها حقاً. ثم إن هذه الحقائق قد ترد في حال التجلي مجملة فيقيدتها
الإنسان كما تجلت ثم يتفكر فيها فيتبين معناها، فبعد الوعي وهو الحفظ، يكون البيان .

ثم استدلل بآية الوحي لأن الوحي على أربعة أقسام: وحي إلهام، ووحى منام،
ووحى إعلام، ووحى أحكام. فشاركنا الأولياء الأنبياء في ثلاثة: وحي إلهام، ووحى
منام، ووحى إعلام، وهو الفهم عن الله . وانفردت الأنبياء بوحى الأحكام، فالأولياء
لهم وحي الإلهام ويكون أولاً مجملاً في القلب فإذا قرأه وأظهره تتبعه وبيئته، قال
تعالى: ﴿إِذَا قَرَأْتَهُ فَأَنبَحُ قُرْآنَهُ ﴿٧٨﴾﴾ [الْبَيَانَةُ: الآية 18] كما قرأناه عليك ثم ﴿إِنَّ عَلَيْنَا
بَيَانَهُ ﴿٧٩﴾﴾ [الْبَيَانَةُ: الآية 19] حتى تفهمه وتبينه للناس . كان عليه السلام يعالج من التنزيل
شدة مخافة أن ينساه، فلما نزلت الآية كان يستمع لجبريل، فإذا فرغ قرأه كما أنزل،

فالوحي الذي هو وحي أحكام مصون فلا ينسى بخلاف وحي الإلهام، فلذلك ينبغي للولي أن يقيّد تلك الواردات قريباً، فإن الحكمة في حال التجلّي تكون كالجبل، فإذا غفل عنها ترجع كالجمال، فإذا غفل عنها بعد رجعت كالثور ثم كالكبش ثم كالبيضة ثم تغيب، ولذلك كان شيخ شيوخنا سيدي [العمراني المعروف بالجمال] علي رضي الله عنه لا تفارقه الدواة والقلم والقرطاس ليقيد المواهب، وكذلك كان أشياخنا وكانوا يأمرون بذلك.

قلت: وجل هذا الشرح الذي نقيده إنما هو مواهب لأنني أكتب الحكمة ولا أدري ما أكتب.

وكان بعض العارفين يقول لأصحابه: إذا كنت أتكلم عليكم أكون أستفيد من نفسي ما يجريه الله على لساني كما تستفيدون أنتم مني. وفي ذلك يقول ابن الفارض رضي الله عنه:

ولا تك ممّن طيشته طروسه بحيث استخفت عقله واستفرت
فشم وراء السنقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة
تلقيته مني وعني أخذته ونفسي كائت من عطائي ممدتي

وكان الشيخ أبو الحسن [الشاذلي] رضي الله عنه إذا استفرق في الكلام وفاضت عليه العلوم يقول: هلا رجل يقيّد عنا هذه الأسرار، هلموا إلى رجل صيره الله بحر العلوم. أو كلاماً نحوه. وكان يحضر مجلسه أكابر وقته كعز الدين بن عبد السلام وابن الحاجب وابن عصفور وابن دقيق العيد وعبد العظيم المنذري، وكان عز الدين بن عبد السلام إذا سمع كلامه يقول: هذا كلام قريب عهد بالله.

فهذه الحقائق التي يفيضها الحق تعالى على قلوب أوليائه فينطقون بها، تكون أولاً مجملة فإذا حفظت وتقيدت تبين معناها، فمنها ما تدركه العقول ويطابق المنقول، ومنها ما لا تفهمها العقول فتكلها إلى أربابها ولا تنتقدها عليهم بمجرد سماعها. وانظر قول ابن الفارض رضي الله عنه:

فشم وراء السنقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة

ومع هذا كان الشيخ أبو الحسن [الشاذلي] رضي الله عنه يقول: إذا عارض كشفك الصحيح الكتاب والسنة، فاعمل بالكتاب والسنة، ودع الكشف وقل لنفسك: إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف والإلهام. ومثل هذا أيضاً قول الجنيد: إن النكته لتقع في قلبي من جهة الكشف فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل، الكتاب والسنة، ولا يلزم من عدم العمل بها انتقادها على أهلها، فإن العلم واسع له ظاهر وباطن ومسائل الإلهامات تارة ترد على حسب العلم الظاهر، وتارة ترد على حسب العلم الباطن، فإن لم تفهم فسلم، ودع ما تعرف لما لا تعرف.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول: من آداب مجالسة الصديقين أن تفارق ما تعلم لتظفر بالسر المكنون. انتهى. يعني إن أردت أن تظفر بما عندهم من السر المكنون فأسقط عنهم الميزان في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، وأما ما دمت تزن عليهم بميزان علمك فلا تشم رائحة من سرهم.

وكان شيخ شيوخنا سيدي علي [الجميل] رضي الله عنه يقول: طريقتنا لا ينال منها شيئاً إلا من يصدق بالمحال، فإن أردت يا أخي أن يهب عليك نسيم أسرارهم ونفحات مواهبهم فدع ما تعرف إلى ما لا تعرف، واغتسل من علمك وعملك حتى تبقى فقيراً إلى ما عندهم كما فعل شيخ طريقتنا الشاذلي رضي الله عنه.

ولقد حدثني من أثق به أن الشيخ أبا الحسن [الشاذلي] رضي الله عنه طلع إلى الشيخ ابن مشيش رضي الله عنه بالميزان فسم يشم رائحة الولاية فرجع، ثم طلع ثانياً كذلك فرجع كما طلع، فلما أسقط الميزان واغتسل من علمه وعمله وطلع فقيراً أغناه الله، قال له الشيخ ابن مشيش: يا أبا الحسن طلعت إلينا فقيراً من علمك وعملك فأخذت منا غنى الدارين. انتهى. نفعنا الله بذكرهم ونفع علينا ما نفع عليهم حتى نستغني بهم غنى لا فقر معه أبداً، آمين.

[هدم الواردات الإلهية لعوائد الأهواء والشهوات]

ثم إن هذه الواردات التي تتجلى بالحفائق والعلوم إنما هي واردات أهل النهاية، وأما واردات أهل البداية فإنها تأتي قوية نهائية، إما بخوف مزعج أو شوق مقلق، لثَرَحْلِهِ عَنْ شَهْوَاتِهِ وَعَوَائِدِهِ، وَهِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّيْخُ بِقَوْلِهِ:

206 - (مَنْ وَرَدَتْ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَيْكَ، هَدَمَتْ الْعَوَائِدَ حَلِيكَ. ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾).

قلت: الوارد الإلهي: هو قوّة شوق أو اشتياق، أو محبة يخلقها الله في قلب العبد، وقد تنشأ عن قوة خوف أو هيبة أو جلال، فتزعجه تلك القوّة إلى النهوض إلى مولاه، فيخرج عن عوائده وشهواته وهواه، ويرحل إلى معرفة ربه ورضاه. وقد تترادف عليه أنوار تلك المحبة والشوق فتغيبه عن حسه بالكلية، وهو الجذب.

وإنما جمع الواردات باعتبار تلك المحبة والشوق، فإنها لا تهدم عوائدها إلا إن كثرت وتزايدت، وتسمى أيضاً هذه الواردات نفحات. قال عليه السلام: «إن لله نفحات فتعرضوا لنفحاته»⁽¹⁾.

(1) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم 1، حديث رقم (2856) [3/180] ونصه: «إن لربكم عز وجل في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها لعل أحدكم أن تصيبه منها نفحة لا يشقى بعدها أبداً».

فمن لم ترد عليه هذه الواردات اختياراً فليتعرض لها بصحبة العارفين أهل الإكسير الذي يقلب الأعيان، فإن صحبهم ولم ترد عليه فليخرق عوائد نفسه من الظاهر فإنها تدخل منه إلى الباطن، فمتى وردت عليك حينئذ تلك الواردات الإلهية هدمت العوائد عليك وأفسدتها لديك، فترد عزك ذلاً، وغناك فقراً، وجاهك خموراً، ورياستك تواضعاً وحنواً، وكلامك صمتاً، ولذيد طعامك خشيناً، وشبعك جوعاً، وكثرة كلامك صمتاً، وقرارك في وطنك سياحة وسفراً، هكذا شأن الوارد الإلهي يخرب العوائد ويهدمها، فهو كملك جبار ذي جيش طغاة دخل قرية أو مدينة فأفسد بناءها وغير عوائدها. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: الآية 34] أي نزعوها وخربوها ﴿وَجَعَلُوا أَمْثَلًا أَهْلِهَا أُذَلَّةً﴾ [النمل: الآية 34] أي رؤساءها أتباعاً مرووسين ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: الآية 34] أي هذا شأنهم، والاستشهاد بالآية في غاية الحسن والمناسبة.

[علة هدم الوارد للعوائد النفسية]

ثم ذكر الشيخ علة هدم الوارد عوائد الإنسان، فقال:

207 - (الوارد يأتي من حضرة قهار، لأجل ذلك لا يصادمته شيء إلا دمغه ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾).

قلت: إنما كان الوارد الذي يرد على قلوب السائرين أو الطالبين قوياً شديداً لأنه يأتي من حضرة اسمه تعالى القهار، ليدمغ بقهريته كل ما رجد في النفس أو القلب من الأغيار. وإنما قلنا: من حضرة اسمه القهار لأن الحق تعالى له حضرات بعدد أسمائه، فاسمه تعالى القهار يتجلى من حضرة قهريته، واسمه الجميل يتجلى من حضرة جماله، واسمه الجليل يتجلى من حضرة جلاله، واسمه الرحيم يتجلى من حضرة رحمته، واسمه الحليم يتجلى من حضرة حلمه، واسمه الكريم يتجلى من حضرة كرمه، وهكذا فكل اسم يخرج تجليه على وفق حضرته.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهَدْنَا خِزْيَانَهُ﴾ [الجبر: الآية 21] ولو كان هذا الوارد الذي يرد على قلوب أهل البداية من حضرة الرحيم أو الحليم أو الجميل ما أمكن أن يدفع بحكمة الله ما صادمه من الباطل. وشبه الشيخ الباطل وهو كل ما سوى الله بحيوان له دماغ، فإذا ضرب دماغه وتشتت مات، كذلك الباطل إذا صادمه الحق أهلكه وتشتت دماغه، فالوارد الإلهي محض حق، فإذا صادم الباطل دمغه وقتله، ولذلك أتى بالآية التي نزلت في شأن القرآن مع الكفر، فإن الكفر تشتت واضمحل حين نزل القرآن، كذلك السرى إذا تجلى الحق بفهرية نوره تشتت واضمحل. وكان الشيخ أبو العباس

[المعري] رضي الله عنه كثيراً ما ينشد هذه الأبيات في هذا المعنى:

فَلَوْ عَايَنْتُ عَيْنَاكَ يَوْمَ تَزْلُزَلْتُ أَرْضُ السُّنْفُوسِ وَدُكَّتِ الْأَجْبَالُ
لِرَايَتِ شَمْسِ الْحَقِّ يَسْطَعُ نَوْرُهَا عِنْدَ التَّزْلُزْلِ وَالرَّجَالِ رَجَالُ

قال: والأرض أرض النفوس، والجبال جبال العقل، يعني أن الوارد الإلهي إذا ورد قوياً من حضرة قهاريته تعالى ذلك وجود النفوس، وتدكدكت منه جبال العقول، فيكشف له حينئذ عن أسرار خارجة عن مدارك العقول غير مدركة بعبارة النقول، فيصير صاحب هذا الوارد كله حقاً لا يصادم شيئاً إلا دمه.

[انتفاء الحجاب عن الحق تعالى]

فلله دره ما أدق نظره في مناسبة الكلام وحسن التخليص لكل مقام حيث قال:

208 - (كَيْفَ يَحْتَجِبُ الْحَقُّ بِشَيْءٍ وَالَّذِي يَحْتَجِبُ بِهِ هُوَ فِيهِ ظَاهِرٌ، وَمَوْجُودٌ حَاضِرٌ؟)

قلت: قد كرر الشيخ هذا المعنى في كتابه مراراً تحريضاً على [مقام] الجمع وتحذيراً من [مقام] الفرق، فقد تقرر أن الحق تعالى ليس محجوباً بشيء، ولا يصح أن يحتجب بشيء، إذ لو احتجب بشيء وجودي لكان ذلك من أثر قدرته، وقدرته لا تفارق ذاته، فالصفة لا تفارق الموصوف، فما ظهر شيء من بحر الجبروت إلا كان نوراً من أنواره وأثراً من آثار صفاته. وقد قال صاحب العينية⁽¹⁾:

فَاَوْصَافُهُ وَالْأَسْمُ وَالْأَثَرُ الَّذِي هُوَ الْكَوْنُ عَيْنُ الذَّاتِ وَاللَّهُ جَامِعٌ
فلذلك تعجب الشيخ من تصوّر الحجاب في حقه تعالى مع أن كل ما يبرز من عنصر القدرة كله نور من نور ملكوته، فائضاً متدفقاً من بحر جبروته، فتحققت الوحدة وانتفى الحجاب بالكلية، فكل موجود نور الحق فيه حاضر موجود.

[عدم الحضور في الأعمال لا يستوجب تركها]

ثم إن الواردات هي الأحوال والأحوال نتائج الأعمال في الغالب، فلذلك ذكر الشيخ العمل وأمره ألا تتركه حيث لم تذق حلاوته.

والعمل منه ما يجد العمل ثمرته وهو الحال والحلاوة، ومنه ما لا يجد ثمرته عاجلاً فلا ينبغي تركه ولا ييأس من ثمرته ولا من قبوله كما أبان ذلك بقوله:

209 - (لَا تَيْأَسْ مِنْ قَبُولِ عَمَلٍ لَمْ تَجِدْ فِيهِ وَجْهَ الْحُضُورِ، فَرُبَّمَا قَبِلَ مِنْ

(1) هو الشيخ القطب عبد الكريم الجيلي ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني، وقد سبقت الإشارة إليه وإلى عينته.

الْعَمَلِ مَا لَمْ تُدْرِكْ ثَمَرَتَهُ عَاجِلاً).

قلت: قد تقدم قوله: من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول، ولا يقتضي المفهوم أنه إن لم يجد ثمرة فليس بمقبول بل هو مسكوت عنه، فإن توفرت فيه شروط القبول من جهة الشريعة، إن صحبه الإخلاص والتقوى والإتقان الشرعي فهو مقبول عند الله إن شاء الله، سواء وجد ثمرة أم لا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [السائدة: الآية 27]، وقال ﷺ: «لا يقبل الله من مسمع ولا مرأه»⁽¹⁾ فإن كنت متقياً لله في ظاهره وباطنه على قدر استطاعتك ومخلصاً لله في أعمالك، ثم لم تجد حلاوة العمل ولا حضور قلبك فيه، ولم تجد ثمرة من أحوال الراجدين وأذواق العارفين، فلا تيأس من قبوله عند الله، فليس وجود الحال ولا الحلاوة شرطاً في العمل إنما هي علامة والعلامة لا يلزم طردها، فربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرة عاجلاً، فيعطيك ثوابه آجلاً، فلا ينبغي لك أن تستحقر عملك فتتركه لعدم حضورك فيه أو لعدم وجدان حلاوته، بل يجب عليك أن تدوم عليه حتى تجني ثمرة، فمن قرع الباب يوشك أن يفتح له.

قال عليه السلام: «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل»⁽²⁾. وقال: «إن الله لا يعمل حتى تملوا»⁽³⁾. فالمراد من العمل القيام برسم العبودية وتعظيم جانب الربوبية، وليس المراد منها طلب الأحوال والمقامات، فإن ذلك قدح في الإخلاص عند أهل التوحيد الخاص.



وقد يكون الحال سبباً في الحجاب لمن وقف معه واستحلاه، ولذلك قال بعضهم: اتقوا حلاوة الطاعة فإنها سموم قاتلة، أي لمن وقف معها ولم ينفذ إلى شهود

(1) رواه ابن السري في الزهد، باب السعة، حديث رقم (874) [442 / 2] ووقفه على عبد الله ونصه: «عن مالك بن الحارث عن عبد الرحمان بن يزيد قال: كان الربيع بن خيثم يأتي علقمة يوم الجمعة فيتحدث عنده فيرسلون إلي فأجيب فأتحدث معهم، فأرسلوا إلي يوماً فجننت، فقال لي علقمة: ألم تر ما أتانا به الربيع بن خيثم؟ قلت: وما هو؟ قال: ثنا رجل من أهل الكتاب قال ألم تر إلى كثرة دعاء الناس وقلة الإجابة ذلك أن الله لا يقبل إلا الناخلة والناخلة الخالصة، فقلت: فقد قال عبد الله مثلها، قال: وما قال؟ قلت: أما سمعته يقول: «والذي لا إله غيره لا يقبل الله من مسمع ولا مرأه ولا لأعب إلا داع دعاء ثابتاً من قلبه؟ قال: بلى».

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب لن يدخل الجنة بعمله...، حديث رقم (2816) [2169 / 4] والنسائي في السنن الكبرى، باب في المصلي يكون بينه وبين الإمام سترة، حديث رقم (838) [274 / 1] ورواه غيرهما.

(3) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر العملة التي من أجلها أمر...، حديث رقم (353) [67 / 2] والطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه عثمان، حديث رقم (3729) [107 / 4] ورواه غيرهما.

المعبود بها، فلا تكن عبد الحال وكن عبد المحوّل [من حال إلى حال إلى مقام]، كما نبّه على ذلك المؤلف بقوله :

210 - (لا تُزَكِّبَنَّ وَإِرْدَاً لا تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ السَّحَابَةِ الْإِمْطَارَ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْهَا وُجُودُ الْإِثْمَارِ).

قلت : ثمرة الوارد هو هدم العوائد واكتساب الفوائد والتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل . وإن شئت قلت : ثمرة الوارد الصادق هو ما ينشأ عنه من الذلّة والانكسار والخشوع والسكينة والوقار والحلم والزهد والسخاء والإيثار، والتخلص من رِقّ الشهوات الجسمانية، والعوائد النفسانية، والخروج من سجن الأكوان، والترقي إلى فضاء الشهود والعيان، والتحرّر من يد الأغيار، والتمحض إلى تحقيق المعارف والأسرار .

فإذا ورد عليك وارد ولم يترك فيك هذه الخصال فلا تزكّه واتهم نفسك فيه لثلا يكون شيطانياً، فإن الوارد الإلهي تعقبه برودة وسكون وزهد وطمأنينة وفترة، والوارد الشيطاني تعقبه حرارة وقساوة وتكبر وصورلة ورؤية نفس، فليس المراد من الحال فرحه وخفته وشطحاته، إنما المراد منه ثمرته، فهو كسحابة الأمطار، فليس المراد منها وجود الأمطار، وإنما المراد ما ينشأ عنها من وجود الأثمار .

[عدم طلب الواردات بعد بسط أنوارها]

فلا تطلب بقاء الحال فقد يكون بقاؤه ضرراً لك، فإن دوام الأمطار يعود نفعها ضرراً، وإلى ذلك أشار بقوله :

211 - (لا تَطْلُبَنَّ بَقَاءَ الْوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بَسَطْتَ أَنْوَارَهَا، وَأَوْدَعْتَ أَسْرَارَهَا، فَلَكَ فِي اللَّهِ غِنَى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ).

قلت : طلب الشيء يدل على محبته ومحبة الشيء عبودية له، والحق تعالى لا يحب أن تكون عبداً لغيره، فلا تطلب معه حالاً ولا مقاماً، فإن وردت عليك الأحوال، وهي الواردات الإلهية، ثم انقشعت وانصرفت، فلا تطلب بقاءها بعد أن بسطت في قلبك أنوارها، فأخرجت منه ظلمة الأغيار وصور الآثار، وأودعت أسرارها من مزيد الإيقان وشهود العيان .

أو تقول : لا تطلب بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها من هدم عوائد نفسك عليك، فتحررت من رِقّ الشهوات الجسمانية والعوائد النفسانية، وتخلّيت من الرذائل وتحلّيت بالفضائل، فهذه آثار أنوار الواردات .

وبعد أن أودعت أسرارها في قلبك من اليقين والطمأنينة والمعرفة، أو من الزهد والرضى والتسليم، أو من الخشوع والتواضع والذلّة والانكسار، فهذه علامة صدق الوارد وحصول نتيجته، فإذا حصلت النتيجة فلا حاجة لك لشيء، فلك في الله غنى عن

كل شيء، فلا تفتقر إلى شيء وليس يغنيك عنه تعالى شيء. وقال الشاعر⁽¹⁾:
لكل شيء إذا فارقت عوضه وليس لله إن فارقت من عوض
وسئل أبو سليمان الداراني عن أفضل ما يتقرب به إلى الله، فقال: أقرب ما
يتقرب به إلى الله أن يطلع على قلبك وهو لا يريد من الدنيا والآخرة سواه. وفي ذلك
قيل⁽²⁾:

من عرف الله فلم تغنه معرفة الله فذاك الشقي
ما يصنع العبد بعمز الغني والعمر كل العمر للمتقي

[دليل عدم وجدانك له تعالى]

فإذا حصل لك الغنى بالله استغنيت عن كل ما سواه، فلا تتطلع إلى بقاء حال ولا
وارد ولا مقام سوى شهود الملك العلام، فتطلعك إلى بقاء حال أو وارد دليل على عدم
غناك به، كما أبان ذلك بقوله:

212 - (تَطَلُّمَكَ إِلَى بَقَاءِ غَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وَجْدَانِكَ لَهُ).

قلت: إذ لو وجدته ما طلبت شيئاً ولا افتقرت إلى شيء أصلاً، فكل من يفرح
بالوارد والحال فهو غير متحقق بالوصول، وكل من يفتقر لغير الله فليس بعارف بالله،
وكل من يحتاج إلى شيء، أو يركن إلى شيء، فليس من الله في شيء، وليس على
شيء. وكثيراً ما كنت نقول للفقراء: كل من نروه يزور غير الشيخ بعد أن قبض الورد،
فهو باق من العوام ولم يدخل بلاد الخصوص لقلة صدقه، ولو دخل بلاد الخصوص
لاجتمعت همته وانجم قلبه، واستغنى عن ماء غيره فتعطشه إلى غير شيخه دليل على
أنه لم يشرب من مائه. والله در القائل، ويقال إنه الغزالي⁽³⁾، حيث قال:

كَانَتْ لِقَلْبِي أَهْوَاءٌ مَفْرَقَةٌ فَاسْتَجَمَعْتُ مَذْرَأَتَكَ الْعَيْنُ أَهْوَانِي
فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسَدُهُ وَصَرْتُ مَوْلَى الْوَرَى مُذْ صَرْتُ مَوْلَانِي
تَرَكَتُ لِلنَّاسِ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ شَغْلًا بِذِكْرِكَ يَا دِينِي وَدُنْيَانِي

(1) لم أرف على اسم هذا الشاعر.

(2) القائل هو عمر بن الفرغان كما في تفسير الثعالبي لأبي إسحاق أحمد الثعالبي النيسابوري، تفسير
سورة الحجرات آية 14 [89/9].

(3) القائل هو الحسين بن منصور الحلاج المتوفى سنة 309 وتمة الأبيات:

ما لامني فيك أحبابي وأعدائي
أشعلت في كبدي نارين واحدة
إلا لففلتهم عن عظم بلواني
بين الضلوع وأخرى بين أحساني
(الموسوعة الشعرية، المجمع الثقاني، أبو ظبي).

[دليل عدم الوصلة به تعالى]

ومن علامة الغنى به أيضاً الأثر به والوحشة من غيره، فالله يغني عن كل شيء ولا يغني عنه شيء، فإذا فقد حالاً أو مقاماً سوى شهود ربه ثم استوحش منه فهو بعيد من الحضرة، كما أبان ذلك بقوله:

213 - (وَأَسْتِيحَاشُكَ لِفَقْدَانِ مَا سِوَاهُ دَلِيلٌ عَلَى قَدَمِ وُضُلَّتِكَ بِهِ).

قلت: استيحاؤك بفقدان الأحوال والواردات دليل على عدم وصلتك [به تعالى]، إذ لو وصلت إليه لم تستوحش من فقدان شيء، وفي الحقيقة ما فقدت شيئاً، وهذه علامة الغنى بالله أنه إذا فقد شيئاً مما هو في العادة يؤلم فقدته كالولد مثلاً أو قريباً أو فاته عبادة حسية مثلاً أو غير ذلك، فإنه يرجع للمعرفة، فالله يغني عن كل شيء، وهو المقصود من العبيد. قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ﴾ [التعديد: الآية 23].

قال في التنوير: اعلم أن الله سبحانه إنما يدخلك في الحال لتنال منه لا لينال منك، وإنما جاءت لتحمل هدية التعريف من الله إليك فيها.

وإنما يفتضح المُدَّعون بزوال الأحوال بعزلهم عن مراتب الإنزال، هنالك يبدو العوار وتنهتك الأستار.

فكن عبداً لله لا عبد العليل، وكما كان لك رباً ولا علة، فكن عبداً له ولا علة، لتكون له كما كان لك. انتهى.

[خلاصة ما ورد في الباب الثالث والعشرين]

هذا آخر الباب الثالث والعشرين، وحاصله: الكلام على القرب والوصال، وما ينشأ عن ذلك من مقامات الإنزال ونتائج الأحوال، والغنى بالله عنها في كل حال، فهذا هو النعيم على الدوام، والاتصال الذي فتح به الباب الرابع والعشرين.

[الباب الرابع والعشرون]

[باب النعيم والعذاب]

فقال رضي الله عنه :

214 - (النَّعِيمُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ فَإِنَّمَا هُوَ بِشُهُودِهِ وَأَقْتِرَابِهِ، وَالْعَذَابُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِوُجُودِ حِجَابِهِ، فَسَبَبُ الْعَذَابِ، وَجُودُ الْحِجَابِ، وَإِثْمَامُ النَّعِيمِ، بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ)

قلت: نعيم الروح وعذابها إنما هو بشهود ربها واحتجابها، وذلك بعد تخلصها من عالم الأشباح وترقيتها إلى عالم الأرواح، فيكون حينئذ نعيمها روح الوصال وريحان الجمال، وعذابها احتجابها عن شهود ذلك الجمال وبعدها عن الكبير المتعال، وهذا الأمر حاصل في دار الدوام لجميع الأنام، لأنه تميز الحق من الباطل، وعرف كل واحد مثواه ومستقره، فأهل الجنان أحسوا بالرضى والرضوان، فهم عالمون بقرب الحق منهم ورضاه عنهم لكنهم متفاوتون في العلم، فمنهم من يعلم من وراء الرداء، ومنهم من يعرف داخل الرداء. وفي البخاري: «وما بين الناس وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»، ولا يفهم هذا الرداء إلا أهل الأذواق.

وأما أهل النار فأحسوا بالبعد من الواحد القهار فتضاعف عذابهم في دار البوار، ولو أن الحق تعالى تجلّى لهم بصفة جماله لأنساهم ذلك اليوم عذابه، ولو أنه تعالى احتجب عن أهل الجنة لضاق عليهم فسيح الجنان ولانقلب نعيمهم نقمة وعذاباً.

أما من كان في دار الدنيا عارفاً فلا يحتجب الحق تعالى عنه، كما شهده هنا بوسائط أنواره يشهده ثم ببطائف أسرارها، بل ثم أولى لغلبة المعنى على الحس والقدرة على الحكمة.

وأما من كان هنا محجوباً فهو ثم أيضاً محجوب. قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهَوَّ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ [الإسراء: الآية 72]. وللآية تفسيران، ظاهر وباطن، لكن في دار البقاء يرق الحجاب لرقه الأبدان ولطافتها، فلذلك صار نعيمهم لا يكمل إلا بشهود القرب، فإذا فقدوه تنغص نعيمهم، لأن في تلك الدار صار الحكم للأرواح، وفي هذه الدار الحكم للأشباح، إلا من ترقى هنا إلى عالم الأرواح فهو من أهل الجنة، فنعيمه نعيم الأرواح وهو روح الوصال وشهود الكمال، فنعيمه بشهود اقترابه ورضوانه، فلو

زال عنهم شهود القرب أو انقطع عنهم مدد الرضوان لضاق عليهم فيح الجنان .
وأما نعيم الأشباح وعذابها ، أعني من كان محجوباً بها ، فإنما هو لموافقة ما يلائم
طبعه أو مخالفته ، فإذا جاء ما يلائمه من صحة وعافية وجمال حسي فهو في حقه نعيم ، وإذا
جاء ما يخالف طبعه من وجع أو فقد أو منع أو فتنة فهو عذاب في حقه ، إذ لا حظ له في لذة
القرب ومرارة البعد ، فإنما حظه من النعيم نعيم البهائم ، نعم لو قدرنا أن العادة تخرق له
ويتجلى الحق تعالى له في حال عذابه الحسي بصفة جماله لنسي ذلك العذاب .

والحاصل : أن كلام الشيخ إنما هو في حق أهل القرب أو الشهود بحيث يجد لذة
القرب وحلاوة الشهود ، ويحس بمرارة البعد وضيق الحجاب في هذه الدار وفي تلك
الدار .

فانظر هؤلاء السادات لما عرجوا عن عالم الأشباح إلى عالم الأرواح لم يبق لهم
نعيم ولا عذاب إلا نعيم الأرواح أو عذابها ، وأما عذاب الأشباح فقد غابوا عنه ، فكان
نعيم هؤلاء وقوت أرواحهم هو ذكر ربهم وشهود نوره أو اقترابه حتى صار لهم غذاء لا
بقاء لهم إلا به ولا غنى لهم عنه ، ولو فقدوه لفارقت أرواحهم أشباحهم . وفي ذلك
قيل (*) :

بالقوت إحياء الجسوم وذكره تحيياً به الألباب والأرواح
هو عيشهم ووجودهم وحياتهم حقاً وروح نفوسهم والراح

[سبب الهموم والأحزان]

والحاصل أن نعيم الأرواح التي تشاهد محبوبها لا ينقطع عنها ، فنعيم العارفين
لا ينقطع لأن قرب الحق لا ينقطع ، فمن بعدت نفسه أحس بالعذاب ولزمه الهموم
والأحزان والنصب ، كما أبان ذلك بقوله :

215 - (ما تجدُّ القلوبُ مِنَ الهمومِ والأحزانِ ، فلأجلِ ما مُنِعَتْ مِنْ وُجودِ
العيانِ)

قلت : إنما كان سبب الهموم هو فقد الشهود لأن الحق تعالى قريب على الدوام ،
رقيب على الدوام ، فمن كان قريباً من الحبيب فكيف يحس بفراق شيء أو فواته ، نظر
الحبيب يُغيب عن كل بعيد وقريب ، وأيضاً كل ما ينزل من عند الحبيب فهو حبيب ، فلا
يلحقه شيء مكروه عنده حتى يهتم به ، ولا يفوته محبوب سوى محبوبه حتى يحزن
عليه ، ففي محبوبه اجتمعت المحاسن كما قال القائل (*) :

تذلل له تحظي برؤيا جماله ففي وجه من تهوى الفرائض والنفل

(*) لم أقف على اسم القائل .

وفي هذا المعنى أيضاً قال صاحب العينية [الشيخ عبد الكريم الجيلي]:
 تلذُّ لي الآلامُ إذ كنت مُسقمي وأن تختبرني فهو عندي صنائع
 وبالجملة، من كان نظره إلى محبوبه ومشاهداً لنوره وجماله لم يبق له هم ولا
 غم. كما قال ابن الفارض في شهود الخمرة:
 فما سكنتُ والهمُّ يوماً بموضعٍ كذلك لم يسكن مع الشَّمِّ القم
 وقال أيضاً:

ولو خطرث يوماً على خاطرٍ امرئٍ أقامت به الأفراخُ وارتحلَّ الهمُّ
 وبالجملة، من كان عبداً لله غائباً عما سواه لم يبق له شيء من الهم، لأنه قد
 حصلت له المعية التي توجب النصر والظفر بكل ما يريد، ألا ترى قول رسول الله ﷺ
 لأبي بكر: «لا تحزن إن الله معنا»⁽¹⁾ حين أحرق به المشركون فكان عليه الصلاة
 والسلام في محل العيان، فلم يهمه شيء ولم تقرب من ساحته الأحزان، وكان أبو بكر
 في ذلك الوقت موقناً غير مشاهد، فدلَّه عليه السلام على مقام الكمال لأن الشهود فوق
 الإيفان. وأنشدوا⁽²⁾:

كَبُرَ الْعِيَانُ عَلَيَّ حَتَّى أَتَى صَارَ الْيَقِينُ مِنَ الْعِيَانِ تَوْهَمًا

[تمام النعمة على السالك]

ومن جملة ما وقع من الاهتمام به لمن لم يكمل يقينه أمر الرزق وخوف الخلق
 حتى قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: من ضمنها لي ضمننت له الولاية، أشار
 الشيخ إلى الأول بقوله:

216 - (مِنْ تَمَامِ النُّعْمَةِ عَلَيْكَ أَنْ يَرَزُقَكَ مَا يَكْفِيكَ، وَيَمْنَعُكَ مَا يُطْفِئُكَ).

قلت: من تمام نعمة الله على عبده أن يوجه همته إليه ويفرغ قلبه من التعلق بغيره
 كائناً ما كان، فيرزقه ما يكفيه عن التعلق بغيره وهو الغنى بالله، إذ لا نعمة أعظم من الغنى
 بالله والغيبة عما سواه، ويكفيه كل ما يطغيه حتى يشتغل به عن ربه، فإذا رزقك الحق
 تعالى ما يكفيك لقيام بشريتك أكلاً ولباساً ومسكناً، ولقيام روحانيتك علماً وعملاً وذوقاً
 ومعرفة، ومنعك ما يطغيك ويشغلك عن حضورك مع ربك، فقد أتم نعمته عليك، فاشكره
 على ما أسدى إليك وتوجه إليه وحده فما تعذر عليك، رادفع ما يشغل قلبك من النهوض
 إليه، إن الله يدافع عن الذين آمنوا، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.
 وقد استعاذ عليه السلام مما يشغل القلب وينسي الرب فقراً أو غنى، فكان يتعوذ

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب مناقب المهاجرين... حديث رقم (3452) [3/1336] ورواه مسلم، باب في حديث الهجرة... حديث رقم (2009) [4/2309] ورواه غيرهما.

(2) المنشد هو المتنبي أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي أبو الطيب المولود سنة 303 هـ المنوفى سنة 354 هـ [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

من الفقر المنسي والغنى المطغي، وقال: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»⁽¹⁾. وقال عليه السلام: «خير الذكر الخفي - أي في القلب، وهو الفكرة - وخير الرزق ما يكفي»⁽²⁾. وقال عليه السلام: «ما طلعت شمس إلا وبجناحيها ملكان يسمعان الخلاق غير الثقلين، أيها الناس هلموا إلى ربكم ما قل وكفى خير مما كثر وألهى»⁽³⁾. وقال عليه السلام: «ليس الغنى بكثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»⁽⁴⁾. وفي ذلك قيل: غنى النفس ما يكفيك عن سد خلة فإن زدت شيئاً عاد ذاك الغنى فقراً^(*)

[على السالك ان يأخذ كفايته]

وإنما كانت الكفاية نعمة والزيادة عليها نقمة، كما قال الشيخ، لأن النفوس مجبولة على حب العطاء وكرهية الفقد، فإذا أعطاهما فرحت، وإذا أزال عنها حزنت، فمن أراد أن يدوم فرحه فلا يأخذ فوق كفايته ما يحزن على فقده، كما أبان ذلك بقوله:

217 - (لِيَقِلَّ مَا تَفْرَحُ بِهِ، يَقِلَّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ)

قلت: فإذا أردت أن يدوم سرورك فلا تملك شيئاً تحزن على فقده، لأن حزنك على فقده دليل محبتك له، فإذا اقتصرت على الضرورة والحاجة من مال أو جاه أو عز أو غير ذلك فلا تجد ما تفقده حتى تحزن عليه. قيل لبعضهم: لم لا تغتم، قال: لأنني لا أقتني ما يغمني. وفي ذلك قيل^(**):

ومن سره أن لا يرى ما يسوؤه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقداً
فإن صلاح السمره يرجع كله فساداً إذا الإنسان جاز به الحداً

- (1) رواه مسلم في صحيحه، باب في الكفاف والقناعة، حديث رقم (1055) [730/2] وابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن قوله **كفياً**...، حديث رقم (6344) [254/14] ورواه غيرهما.
- (2) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن ذكر العبد ربه...، حديث رقم (809) [91/3] رواه أحمد في المسند، حديث رقم (1477) [177/1] ورواه غيرهما.
- (3) رواه الحاكم في المستدرک، تفسير سورة حم...، حديث رقم (3662) [482/2] وابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يكون للمرء من ماله...، حديث رقم (3328) [121/8] ونص الحديث: «عن أبي الدرداء عن النبي **ﷺ** قال: «ما طلعت شمس قط إلا بجنتيها ملكان يناديان يسمعان من على الأرض غير الثقلين: أيها الناس هلموا إلى ربكم ما قل وكفى خير مما كثر وألهى. ولا غربت إلا بجنتيها ملكان يناديان: اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممكناً تلفاً».
- (4) رواه البخاري في صحيحه، باب الغنى...، حديث رقم (6081) [2368/5] ومسلم في صحيحه، باب ليس الغنى...، حديث رقم (1051) [726/2] ورواه غيرهما.
- (*) القائل هو سالم بن وابصة [انظر ديوان الحماسة للشبريزي].
- (**) القائل هو عبد الله بن عبد الله بن طاهر كما في باب الآداب لعبد الملك بن محمد أبي منصور الثعالبي المتوفى سنة 429 هجرية. [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

يُحكى أنه رفع لبعض الملوك قدح من فيروزج⁽¹⁾ مرصعاً بالجواهر لم ير له نظير، ففرح به الملك فرحاً شديداً، فقال لبعض الحكماء عنده: كيف ترى هذا، فقال: أراه مصيبة وفقراً، فقال: كيف ذلك، فقال: إن انكسر كان مصيبة لا صبر لها، وإن سرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله، وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقير، فاتفق انكسار القدح، فعظمت مصيبة الملك به، فقال: صدق الحكيم لبيته لم يحمل إلينا. انتهى.

[الولاية التي لا تدوم]

وهنا ميزان آخر أحسن من هذا، وهو أنك إذا أطلقت من نفسك وجعلتها غرضاً لسهام أقدار ربك لا تعارضه فيما يفعل بك، لا شك أنك تستريح ويدوم فرحك، لأنك حينئذ منتظر ما يبرز من عند الحبيب فتلقاه بالرضا والترحيب، وهذه حلاوة برد الرضا والتسليم، فإن صاحبها شهود الفاعل المختار فهو النعيم المقيم، وهذه هي الولاية الكبرى من تقلدها لا يعزل عنها أبداً، كما أشار إلى ذلك بقوله:

218 - (إِنْ أَرَدْتَ أَنْ لَا تُغْزَلَ فَلَا تَتَوَلَّ وَلايَةً لَا تَدُومُ لَكَ).

قلت: الولاية التي لا تدوم: هي الولاية التي تأتي من جهة الفرق، وهي ولاية الخلق كخطة السلطنة والقضاء والقيادة وغير ذلك من الخطط التي قلدها الله بعض عباده، ويدخل فيها أيضاً ولاية المال إذا كان يُعَظَّم من أجله، أو النسب إذا كان خالياً عن التقوى، أو العلم إذا كان خالياً عن العمل، وغير ذلك من رياسة الدنيا فإنها تفتنى وتنقطع ويعقبها ذل وفقير.

والولاية التي تدوم: هي الولاية التي تأتي من جهة الجمع، وهي العز بالله والغنى به والمعرفة له والغيبة عما سواه، فلا شك أن هذه ولاية لا تنقطع وشرف لا ينفد وعز لا يببّد.

يحكى أن سيدي عبد الله بن المبارك، وكان من تابع التابعين ومن العلماء العاملين الزاهدين، قدم على هارون الرشيد، فلما دخل العسكر انكب عليه العسكر لزيارته، فوقع من الازدحام ضجة كبيرة حتى تقطعت النعال وارتفعت الغبرة، فأشرفت أم ولد هارون من قصر الخشب، فلما رأت كثرة الناس وازدحامهم، قالت: ما هذا، قالوا: هذا عالم خراسان، فقالت: هذا والله هو الملك والعز لا ملك هارون الذي يجمع الناس بالسوط والعصى.

وأيضاً الولاية التي تدوم تنسحب عليه وعلى ذريته، ثم تدوم فيهم على قدر جاهه عند الله وعظيم ولايته، فكل من عظمت ولايته دامت على أولاده وأتباعه بقدر تلك الولاية، وهو معنى قوله تعالى على بعض التفاسير: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرْكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: الآية 9] الآية، أي وليخشى الذين خافوا على أولادهم

(1) الفَيْرُوزِج: هو ضرب من الأصباغ. ويطلق على الحجر الكريم المعروف، وذكر له الأطباء خواص. (تاج العروس: فرزج).

فإن الله يحفظه فيهم . وقيل في قوله تعالى : ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف : الآية 82] أنه كان جدهم السابع ، فحفظ الله كنز اليتامى ببركة صلاح الجد ، والله تعالى أعلم .

[نهاية عز الدنيا مرارة]

وأما إن توليت الولاية التي لا تدوم فكن فيها على حذر ولا تغتر بحلاوة بدايتها فإن نهايتها مرارة ، كما أبان ذلك بقوله :

219 - (إِنْ رَغَبْتَكَ الْبِدَايَاتُ ، زَهَدَتْكَ النَّهَايَاتُ)

قلت : الولاية التي لا تدوم كعز بمال أو جاه أو عشيرة أو غير ذلك من عز الدنيا ، أولها حلو لمتعة النفس ووجود حظها فيها ، وآخرها مر لفقدها تلك الولاية ولو بالموت ، ولما يعقبه من الذل والهوان ، ولذلك قال عليه السلام : «إنكم ستحرصون على الإمارة ، وستصير حسرة وندامة يوم القيامة نعمت المرضعة وبنت الفاطمة»⁽¹⁾ . فإن رغبتك في هذه الولاية التي تفتنى حلاوة بدايتها زهدتك فيها مرارة نهايتها ، فإن غرتك بظاهر بهجتها فاعتبر بباطن حسرتها ، إن رغبتك فيها حلاوة إقبالها زهدتك فيها مرارة إدبارها ، قال الشيخ أبو علي الثقفى رضي الله عنه : أف لأشغال الدنيا إذا أقبلت ، وأف من حسرتها إذا أدبرت ، والعاقل لا يركن إلى شيء إذا أقبل كان فتنة وإذا أدبر كان حسرة . وأنشدوا⁽²⁾ في ذلك :

وَمَنْ يَحْمَدِ الدُّنْيَا لشيءٍ يَسُرُّهُ فَسَوْفَ لِعَمْرِي عَنْ قَرِيبٍ يَلُومُهَا
إِذَا أَدْبَرَتْ كَانَتْ عَلَى الْمَرْءِ حَسْرَةً وَإِنْ أَقْبَلَتْ كَانَتْ كَثِيرًا هَمُومَهَا

وكتب علي كرم الله وجهه إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه : مثل الدنيا كمثل الحية ليئن لمسها قاتل سمها ، فاعرض عن كل ما يعجبك فيها لقلّة ما يصحبك منها ، ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها ، وكن أسراً ما تكون فيها أحزن ما تكون منها ، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن إلى سرورها أشخص إلى مكروهاها . فمن نظر الدنيا بعين الإنصاف كفاه منها أقل الأوصاف ، إذ ليس فيها شيء محمود إلا وقابله شيء مذموم ، كالجمال بالانصراف والذهب ، والشباب بالهرم ، والصحة بالسقم ، والفرح بالحزن ، والعز بالذل ، والحياة بالموت .

فمن وقف مع ظاهر الدنيا نادته هوائف باطنها : إنما نحن غرة⁽³⁾ فلا تغتر ، وهذا

(1) رواه أحمد في المسند ، عن أبي هريرة ، حديث رقم (10165) [2/476] وأورده الجزري في النهاية في غريب الأثر ، باب الرأ مع الضاد [2/230] . وقال المناوي في فيض القدير : قال القاضي : شبه الولاية بالمرضعة وانقطاعها بموت أو عزل بالفاطمة أي نعمت المرضعة الولاية فإنها تدرّ عليك المنافع واللذات العاجلة وبنت الفاطمة المنية فإنها تقطع عنك تلك اللذات والمنافع وتبقى عليك الحسرة والتبعة [2/555] .

(2) لم أف على اسم المنشد لهذين البيتين .

(3) الغرة : الغفلة والغار بالتشديد العاقل تقول : اغتر الرجل واغتر بالشيء خدع به . والغرّ بفتح الخاء والغرور بالفتح : الشيطان . والغرور بالضم ما اغتر به من متاع الدنيا (مختار الصحاح) .

معنى قوله :

219 - (إِنَّ دَعَاكَ إِلَيْهَا ظَاهِرٌ، نَهَاكَ عَنْهَا بَاطِنٌ)

قلت : ظاهرها خضرة حلوة وباطنها خبيثة مرة . قال عليه السلام : «الدنيا حلوة خضرة»⁽¹⁾ ، فأخبر عليه السلام أن ظاهر الدنيا خضرة حلوة وباطنها سم قاتل ، وقد شبهها بعض الحكماء بسبعة أشياء : شبهها بالماء المالح يفرق ولا يروي ، ويضر ولا ينفع . قلت : وكذلك الدنيا تُفرق صاحبها في حبها ويموت عطشاناً منها .

وشبَّهها بظلِّ الغمام يغرّ ويخذل ، قلت : وهو الذي يغطي بعض المواضع ، فإذا أشرقت الشمس تقشع عنه .

وشبَّهها بالبرق الخاطف ، يعني في سرعة الذهاب والاضطراب ، وبسحاب الصيف يضر ولا ينفع ، وبزهر الربيع يغرّ بزهرته ثم يصفّر نتراه هشيماً ، وبأحلام النائم يرى السرور في منامه ، فإذا استيقظ لم يجد في يده شيئاً إلا الحسرة ، وبالعسل المشوب بالسم الزعاف يعر ويقتل انتهى .

[حكمة جعل الدنيا محل الأقدار والأغيار]

ثم علل كون الدنيا محلاً لهذه الأقدار والأغيار فقال :

220 - (إِنَّمَا جَعَلَهَا مَحَلًّا لِلْأَغْيَارِ، وَمَعْدِنًا لِلْأَقْدَارِ، تَزْهِيداً لَكَ فِيهَا)

قلت : إنما رسم الله الدنيا بهذه الأوصاف من كونها محلاً للأغيار والأحزان ، ومعديناً لوجود الأقدار والفتن تزهداً لك فيها ، فتقبل بكلينيك عليه وتتوجه بهمتك إليه ، أو لتعرض عن الدنيا وتقبل على الآخرة .

وأيضاً لو بسطت لك الدنيا لكرهت لقاء الله فيكره الله لقاءك ، ولو بسطت لك العوافي والنعم لركنت الروح إلى هذا العالم فتبقى دائماً في عالم الأشباح ، والمقصود منك هو الرحيل إلى عالم الأرواح ، فضيق الحق تعالى عليك هذا العالم السفلي لترحل منه بهمتك إلى العالم العلوي ، فهو منه سبحانه إنعام وإحسان لكنها في قالب الامتحان ، فلا يذوقها إلا أولو البصائر الحسان .

[سبب تشديد البلاء والمحن]

فهذا ما أشار إليه بقوله :

221 - (عَلِمَ أَنَّكَ لَا تَقْبَلُ النَّصِيحَ الْمُجَرَّةَ فَذَوَّقَكَ مِنْ ذَوَائِقِهَا، مَا يُسَهِّلُ عَلَيْكَ

وُجُودَ فِرَاقِهَا)

قلت : قد علم الحق سبحانه أن من عباده من لا يقبل النصيح بمجرد القول ، فلا

(1) رواه مسلم في صحيحه ، باب أكثر أهل الجنة الفقراء . . . حديث رقم (2742) [4/2098] والحاكم في المستدرک ، كتاب الغنى . . . حديث رقم (8543) [4/551] ورواه غيرهما .

يزهد في الدنيا بمجرد سماع الوعظ، إذ كثير من أهل العلم والفهم يسمعون القرآن يقرعون عليها ويحذرونهم من غرورها وهم غائبون عن ذلك التذكير، مشغولون بما يوجب لقلوبهم التذكير، فلما أراد سبحانه أن يصطفي لحضرته من شاء من عباده نغصها عليهم وشدد عليهم البلاء والمحن، وأجرى على ظاهرهم موقع الفتن، كل ذلك عناية ربهم ليذوقوا مرارة باطنها، فلا يفتروا بحلاوة زخرف ظاهرها.

سئل عليه السلام: من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال: «الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها واهتموا بأجلها حين اهتم الناس بعاجلها»⁽¹⁾. فكل ما ينزل بالولي من هذه التعريفات الجلالية التي تغير النفس وتقهرها فهو خير كثير في حقه، فقد قالوا: الامتحان بقدر الامتكان، وكل محنة تزيد مكنة، واختبار الباقي يقطع التباقي، فقد تبقى في القلب بقية من حب شيء من هذا العالم أو ركون لشيء من الدنيا، فيسلط عليه من يشوشه عليه وينغصه لديه، كل ذلك عناية به ليرحل من هذا العالم إلى عالم الملكوت.

[العلم النافع]

فإذا تحقق رحيله استوى عنده الحلو والمر والعز والذل والغنى والفقر، لأنه تحقق أن كلاً من عند الله وما في الوجود سواه. وهذا هو العلم الحقيقي الذي هو العلم النافع، وإليه أشار بقوله:

222 - (الْعِلْمُ النَّافِعُ هُوَ الَّذِي يَنْبَسِطُ فِي الصَّدْرِ شِعَاعَهُ، وَيُكْشِفُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ قِنَاعَهُ)

قلت: العلم النافع هو علم القلوب، ومرجه إلى تصفية القلوب من الرذائل وتحليلتها بالفضائل، أو تقول: مرجه إلى التخلية والتحلية، فيبحث أولاً عن عيوب النفس وعيوب القلب وعيوب الروح وعيوب السر، فبطهر كل واحد من عيوبه، فإذا تطهر من الجميع تحلى بصفات الكمال كالإيمان والإيقان والطمانينة والمراقبة والمشاهدة، وتحلى أيضاً بالحلم والرافة والسخاء والكرم والإيثار وسائر الأخلاق الحسنة، فشعاع العلم الذي ينبسط في الصدر هو ثلج اليقين وبرد الرضى والتسليم، وحلاوة الإيمان مواجيد العرفان، وينشأ عن ذلك مخافة الله وهيبته والحياء منه والسكون والطمانينة، وغير ذلك مما تقدم من الأخلاق الحسنة.

والقناع الذي ينكشف به عن القلب هو الغفلة، راسب الغفلة هو الرضى عن

(1) هذا الحديث سبق تخريججه.

النفس، وسبب الرضى عن النفس هو حب الدنيا الذي هو أصل كل خطيئة، فمن حب الدنيا ينشأ الحسد والكبر والحقد والغضب والشح والبخل وحب الرياسة والقساوة والفظاظة والقلق وغير ذلك من العيوب. فإذا انكشفت هذه الأمور عن القلب انبسط فيه شعاع العلم الذي هو ثلج اليقين وبرد الرضى، وما تقدم ذكره، لأن العلم بالله نور في القلب وينبعث منه شعاع تنبسط في الصدر فتكسبه الزهد في الدنيا، فإذا زهد في الدنيا اتسع صدره باليقين والرضى والتسليم وغير ذلك من المحاسن.

والحاصل أن العلم الذي يوجب الخشية هو العلم النافع وغيره ليس بنافع، وإليه أشار بقوله:

223 - (خَيْرُ الْعِلْمِ مَا كَانَتْ الْخَشْيَةُ مَعَهُ)

فإن لم تكن خشية فلا خير فيه لأنه حجة على صاحبه، وإليه أشار بقوله:

223 - (الْعِلْمُ إِنْ قَارَنَتْهُ الْخَشْيَةُ فَلَكَ، وَإِلَّا فَعَلَيْكَ)

قلت: لأن العلم الذي تصحبه الخشية يمنع صاحبه من الغفلة وأسبابها، ويزهده في كل ما يشغل عن العمل به، ويرغبه في كل ما يقربه إلى ربه، فيكون عوناً له على الوصول إلى معرفة الله، والقريب من ساحة رضاه، فإن لم تقارنه الخشية كان وبالاً عليه، لأنه حينئذ حجة عليه لأن المعصية مع العلم أقبح من المعصية مع الجهل. وفي الحديث عنه عليه السلام قال: «ويل للجاهل مرة وويل للعالم إذا لم يعمل عشر مرات»⁽¹⁾، ذكره الغزالي.

وقال في لطائف المنن: فشاهد العلم الذي هو مطلوب الله تعالى من عباده الخشية لله، وشاهد الخشية موافقة الأمر، أما علم تكون معه الرغبة في الدنيا والتعلق لأربابها وصرف الهمة لاكتسابها والجمع والادخار والمباهاة والاستكبار وطول الأمل ونسيان الآخرة، فما أبعد من هذا علمه من أن يكون من ورثة الأنبياء عليهم السلام، وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التي كان بها عند الموروث، ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كمثّل الشمعة تضيء على غيرها وهي تحرق نفسها، جعل الله العِلْمَ الذي عَلِمَهُ مَنْ هَذَا وصفه حجة عليه وسبباً في تكثير العقوبة لديه، انتهى.

[الرجوع إلى علم الله تعالى والقناعة به]

ومن علامة العلم النافع القناعة بعلم الله والاكتفاء بنظره، وثمره القناعة عدم المبالاة بدم الناس ومدحهم وإقبالهم وإدبارهم اكتفاء بعلم الله ونظره كما أبان ذلك بقوله:

224 - (مَنْ أَلَمَّكَ هَدْمُ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْكَ، أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِالدَّمِّ إِلَيْكَ، فَأَرْجِعْ إِلَى

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

عِلْمِ اللَّهِ فِيكَ فَإِنْ كَانَ لَا يُقْنِعُكَ عِلْمُهُ، فَمُصِيبَتُكَ بِعَدَمِ قَنَاعَتِكَ بِعِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ الْأَذَى مِنْهُمْ)

قلت: إذا سلط الله عليك خلقه ليختبرك هل أنت غني به أو بخلقك، فأدبروا عنك أو اشتغلوا بدمك ثم ترجعت من ذلك فارجع إلى علم الله فيك واطلاعه عليك إذ لا يخفى عليه شيء من أمرك.

فإن كفاك ذلك وقنعت به وأنست بذكره أو شهوده استوى عندك ذمهم ومدحهم وإقبالهم وإدبارهم، بل ربما أثرت إدبارهم إذ فيه راحتك وتفريغ قلبك مع ربك.

فإن لم تقنع بعلم الله ولم تكتف بنظره وتأسفت على إدبارهم أو تألمت من أذاهم، فمصيبتك بضعف إيمانك وذهاب يقينك أشد من مصيبة ذم الناس وإدبارهم عنك، لأن هذا موجب لسخط الله وغضبه وسقوطك من عين محبته، وأما إذاية الخلق وبعدهم عنك، فرحمة بك، وأيضاً إذا اشتغل الناس بدمك وإضرارك فانظر أنت مقامك مع ربك.

قال أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه: من أحب أن يعرف بشيء من الخير أو يذكر به فقد أشرك مع الله في عبادته، لأن من عمل على المحبة لا يحب أن يرى عمله غير محبوبه.

[حكمة أذى الخلق لأوليائه تعالى]

ثم ذكر حكمة وجود الأذى من الخلق لأولياء الله فقال:

225 - (إِنَّمَا أُجْرَى الْأَذَى عَلَى أَيْدِيهِمْ، كَيْ لَا تَكُونَ سَاكِنًا إِلَيْهِمْ، أَرَادَ أَنْ يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى لَا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ)

قلت: الروح إذا ركنت إلى هذا العالم السفلي، وسكنت فيه، وأحبت ما فيه، تعذر نقلها إلى عالم الملكوت الذي هو العالم الروحاني، لما ألفتها من حب الأهل والأولاد والأصحاب والعشائر، فمن حكمة الله تعالى ولطفه وإبراره بولييه أن يحرك عليه ما ركنت إليه نفسه، وألفتها روحه الأحب فالأحب، فأول من ينكره أهله وأولاده، ثم جيرانه وأحبابه، ثم ينكره العالم بأسره، فإذا رأت الروح أن هذا العالم أنكرها وضاق عليها رحلت إلى مولاها، ولم يبق لها تشوف إلى هذا العالم أصلاً، فحينئذ يكمل وصلها ويتحقق فناؤها وبقاؤها، فلو بقيت النفس على ما هي عليه من السكون تحت ظل الجاه والعز ما رحلت من هذا العالم أصلاً، وكلما قوي على الأولياء الأذى دل على علو مقامهم عند المولى، فإنما أجرى الحق سبحانه الأذى على أيدي الخلق إليك إذ هو المجري والمنشئ، فلا فاعل غيره، كي لا تكون ساكناً بقلبك وروحك إليهم، فيعوقك ذلك عن العروج إلى الملكوت.

أراد الحق تعالى أن يزعجك عن كل شيء من هذا العالم حتى لا تركز إلى شيء ولا يشغلك عن شهوده شيء، إذ محال أن تشهد وتشهد معه سواه أو تحبه وتحب معه

سواه، أبت المحبة أن تشهد غير محبوبها، فإذا تمكّنت المحبة وكمل الشهود ردهم إن شاء إلى عباده مرشدين إليهم بالله.

قال في لطائف المنن: اهلم أن أولياء الله تعالى حكمهم في بدايتهم أن يسلم الخلق عليهم ليتطهروا من البقايا وتكمل فيهم المزايا، وكى لا يساكنوا هذا الخلق باعتماد أو يميلوا إليهم باستناد، ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه، ولذلك قال عليه السلام: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تقدرُوا فادهوا له»⁽¹⁾، كل ذلك ليتخلص القلب من رق إحسان الخلق ويتعلق بالملك الحق.

ثم قال: وقال الشيخ أبو الحسن: اهرب من خير الناس أكثر من أن تهرب من شرهم، فإن خيرهم يصيبك في قلبك وشرهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في بدنك خير من أن تصاب في قلبك، ولعدو تصل به إلى الله خير من حبيب يقطعك عن الله.

إذا تقرر هذا علمت أن إذاية الخلق للولي سنة ماضية، يعني سنة أنبياء الله ورسله ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [فاطر: الآية 43]، وانظر أحوال نبينا عليه الصلاة والسلام وما رأى مع قريش.

وحين انتقل إلى المدينة لم تكن له راحة بين جهاد وتعليم ومعاناة أحبار يهود بالإذاية والتشغيب حتى لقي الله تعالى.

وكذلك أصحابه معه، وبعده لم تكن لهم راحة وجلهم ماتوا مقنولين، فقد مات الصديق مسموماً، ومات الفاروق مقتولاً، وعثمان مذبحاً، وسيّدنا علي مضروراً بالسهم مسموماً حتى مات، والحسن مسموماً، والحسين مقتولاً، رضي الله تعالى عنهم.

وقد سعي بالجنيد وأصحابه للسلطان وأتى بهم للسيف ثم لطف الله بهم.

وذكر [أبو بكر] التجيبي أن الشبلي رفع إلى السلطان، وأخرج أبو يزيد [البسطامي] من مدينة بسطام مراراً وهذا أمر شهير.

قال بعض الحكماء: إذا أراد الله ظهور الحق جعل من خلقه من يعانده ويريد إخماده فيكون ذلك سبباً لظهوره وإيضاحه، ولذلك سلط الله على كل نبي عدواً من المجرمين وعلى الأولياء كذلك. وأنشدوا⁽²⁾:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

(1) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الأمر بالمكافأة لمن صنع إليه معروف، حديث رقم (3408) [199/8] وأبو داود في باين أحدهما: باب عطية من سأل، حديث رقم (1672) [128/2] ورواه غيرهما.

(2) المنشد هو أبو تمام: حبيب بن أوس بن الحارث الطائي المولود سنة 188 والمتوفى سنة 231 هجرية (الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
وعلاوة التأييد هو حفظ التوحيد في أوقات الشدة بحيث يكون إبراهيمياً، فإذا
رُمي في نار الجلال وتعرض له الكون يقول له: ألك حاجة، يقول له العارف: أما إليك
فلا، وأما إلى الله فبلى، فحينئذ يقول الله لنار الجلال يا نار كوني برداً وسلاماً على
وليي، فينقلب حرها برداً وسلاماً. قال سيدنا إبراهيم الخليل: ما رأيت نعيماً قط مثل
تلك الأيام التي كنت فيها في النار.

قلت: وكذلك نار الجلال ليس يشبهها نعيم حين تنقلب برداً وسلاماً، برد الرضى
وسلام التسليم، فيكمل النعيم. واعلم أن إذابة الخلق هي إحدى القواطع التي قطعت
الناس عن الولاية لا يصبر عليها إلا الصديقون. فذكر الشيخ حكمة ذلك وسره.

[حراس الحضرة]

ومن القواطع أيضاً الشيطان والنفس، فأشار الشيخ إلى كيفية دفع إذابة الشيطان
بقوله:

226 - (إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَغْفُلُ عَنْكَ، فَلَا تَغْفُلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصِيَتِكَ بِيَدِهِ).

قلت: اعلم أن الحق تعالى جعل بحكمته الشيطان والنفس والناس حراس
الحضرة، فلا يدخل الحضرة حتى يخرق فيهم ويجوز عنهم لأنهم واقفون بالباب وكلهم
الله بباب حضرته وقال لهم: لا تتركوا أحداً يدخل إلا من يغلبكم.

فوقفوا بالباب، فإذا جاء من يريد الدخول تعرض له الخلق، فبعبون له الطريق
وينكرون من يعرفها.

فإذا غلبهم جاءه الشيطان يطول عليه مدة الفتح ويخوفه من الفقر ويقول له: متى
يفتح الله عليك، نيل: يكون، وقيل: لا يكون، فإذا غلبه وزاد تعرضت له النفس تقول
له: كيف ترك دنياك وجاهك وعزك إلى شيء يكون أو لا يكون؟

فإذا غلبها قال له الحق تعالى: مرحباً بك وأهلاً، ولكن القواطع لا يزول طمعها
عنه حتى يسكن في الحضرة، ولذلك قالوا: والله ما رجع من رجع إلا من الطريق، وأما
من وصل فلا يرجع.

فإذا علمت أيها الفقير أو الإنسان، أن الشيطان لا يغفل عنك ساعة لأن له بيتاً في
صدرك من جهة شمالك، فإذا غفلت عن ذكر الله تعالى وسوس، وإذا ذكرت الله
انخنس، فإذا علمت ذلك فلا تغفل أنت عن ناصيتك وناصيته بيده وهو الحق تعالى،
فإذا اشتغلت بالله رده عنك وكفاك أمره، قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾
[النساء: الآية 76] وقد حذر الله تعالى منه في كتابه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ

فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴿ [فاطر: الآية 6] ففهم قوم أن الشيطان لهم عدو فاشتغلوا بمحاربتة، ففاتهم محبة الحبيب، وفهم قوم أن الشيطان لكم عدو وأنا لكم حبيب، فاشتغلوا بمحبة الحبيب فكفاهم عداوة العدو، كما قال الشيخ أبو العباس.

وقال الشيخ [أحمد] زروق رضي الله عنه: وإنما يندفع الشيطان بالتوكل والإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [التحل: الآية 99].

قلت: ومن عرف الله ذاب الشيطان من نوره فلم يبق يعرف إلا الله، ولذلك قال بعضهم: نحن قوم لا نعرف الشيطان، قيل له: أو ليس قد ذكره الله في كتابه، قال: أجل ولكن اشتغلنا بالله فكفانا أمره حتى نسيناه، وبالله التوفيق.

[حكمة تسليط الشيطان]

ثم ذكر حكمة وجوده فقال:

227 - (جَعَلَهُ لَكَ عَدُوًّا لِيَحْوِشَكَ بِهِ إِلَيْهِ)

قلت: لم يخلق الله شيئاً عبثاً، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُولًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: الآية 191] فإيجاد الشيطان له حكم.

أولها: انحياس عباده إليه، لأن العبد الضعيف إذا رأى عدواً يطلبه هرب إلى سيده، والتجأ إلى حصنه فيكفيه أمره.

الثانية: قيام الحجة على عباده، فإذا خالفوا أمره قال لهم: أتبعتم عدوي وعصيتم أمري. قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ﴾ [الأنعام: الآية 149].

الثالث: كونه منديلاً للعار تمشح فيه أوساخ الأقدار، وكذلك النفس والدنيا.

الرابعة: ظهور مزية المؤمن بمجاهدته ومحاربتة، فهذه جگم في تسليط الشيطان على الإنسان، والله غالب على أمره وهو العليم الحكيم.

حكاية: روي أن الشيطان تعرض لسهل بن عبد الله التستري وهو يضحك، فقال له سهل: مما ضحكك يا لعين وقد أبليت ويثست من رحمة الله، فقال: يا سهل أنا شيء والله تعالى يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: الآية 156]، فقال سهل: إنه يقول ﴿فَسَأْكُتِبُهَا لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: الآية 156] فأين أنت من التقوى، فقال: التقوى صفة العبد والرحمة صفة الرب، وأين الفاني من الباقي، فلم يجد سهل جواباً.

قلت: وقد يجاب بأن هذه الشبهة مبنية على النظر للفرق، وأما على [مقام]

الجمع فالرحمة وصفه، والتقوى فعله، وفعله يقيد وصفه، والكل منه وإليه ﴿لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: الآية 23].

[حكمة تسليط النفس]

ثم ذكر حكمة ظهور النفس، فقال:

227 - (وَحَرَّكَ عَلَيْكَ النَّفْسَ لِيَدُومَ إِقْبَالَكَ عَلَيْهِ)

قلت: إنما حرَّك الحق تعالى عليك النفس ليدوم إقبالك وتوجهك إليه، لأن النفس لما غلبت عليها البشرية جرتها إليها، فهي دائماً تهوي بك إلى أرض الشهوات، وأنت دائماً تريد أن تعرج إلى سماء الحقوق والواجبات، هي تريد أن تركز إلى أصلها من عالم الصلصال والطين، وأنت تريد أن تردّها إلى أصل روحانيتها في أعلى عليين، هي تريد السكون في عالم الأشباح، وأنت تريد أن ترقبها إلى عالم الأرواح، فهي دائماً تريد التسفل، وأنت دائماً تريد الترقى، فهذا معنى دوام إقبالك عليه، فالنفس والشيطان نعمتان في الباطن، إذ لولاهما ما تحرَّكت إليه ولا تحقق سيرك إليه، ولذلك كان شيخنا مولاي العربي [الدرقاري] رضي الله عنه إذا اشتكى إليه أحد النَّفْسِ يقول: أما أنا فجزاها الله عني خيراً ما عليّ إلا فضل الله وفضلها، والله ما ننسى جميلها، يشير لهذا المعنى الذي ذكرناه، وهما نعمتان في الظاهر لمن وقف معهما وحجب بهما.

والحاصل أن النفس والشيطان والدنيا والناس قواطع لمن قطعوا به الطريق، موصلات للحضرة لمن وفقَّ للتحقيق، وسبق له من الله التوفيق. والنفس أصعب من الشيطان لأنه عدو متصل وأنت به شفيق، فهي أقبح من سبعين شيطاناً في قطع الطريق. وذكر ابن القسطلاني عن أحمد بن سهل رحمه الله أنه قال: أعداؤك أربعة:

أولها: الدنيا، وسلاحها لقاء الخلق، وسجنها الخلوة.

الثاني: الهوى، وسلاحه الكلام وسجنه الصمت.

الثالث: الشيطان، وسلاحه الشبع وسجنه الجوع.

الرابع: النفس، وسلاحها النوم وسجنها السهر.

[خلاصة ما ورد في الباب الرابع والعشرين]

هذا آخر الباب الرابع والعشرين، وحاصله: ذكر غاية النعيم وهو شهود نور وجهه الكريم، فمن تحقق به فلا تعتربه أحزان ولا هموم. ثم ذكر القواطع التي تقطع عنه وهي: الدنيا وما يتعلق بها من رياسة علم غير نافع وجاء وغيره، والخلق وما يتعلق بإذائتهم، والشيطان والنفس، لكن ذكرهم على وجه التحقيق لا على وجه التشريع، فإذا تخلَّص من هذه القواطع في الحسن أفضى إلى شهود نور عظمة ربه في تجلياته، فيتواضع مع الأشياء كلها لمعرفة فيها، كما أشار إلى ذلك في الباب الخامس والعشرين بقوله:

[الباب الخامس والعشرون]

[المتكبر من أثبت لنفسه تواضعاً]

وقال رضي الله عنه :

228 - (مَنْ أَثَبَّتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضِعاً فَهُوَ الْمُتَكَبِّرُ حَقًّا، إِذْ لَيْسَ التَّوَاضُّعُ إِلَّا عَنِ رِفْعَةٍ، فَمَنْ أَثَبَّتَ لِنَفْسِكَ رِفْعَةً فَأَنْتَ الْمُتَكَبِّرُ حَقًّا)

قلت: التواضع: هو مجاهدة النفس في وضعها وسقوطها، فهي تريد الرفع وأنت تريد السقوط، فإذا حققت ونظرت بعين فكرتك وجدت الأشياء كلها مستوية معك في الخلقة والتجلي من النملة إلى الفيل، فالمتجلي في النملة هو المتجلي في الفيلة، فأنت والكلب في حقيقة الخلقة سواء، وإنما وقع التفضيل في التشريع والحكمة عند أهل الفرق، فأهل الفرق يرون المزية لأنفسهم عما سواهم، فإذا تساوا بأنفسهم مع الأشياء رأوا أنهم قد تواضعوا، وفي الحقيقة إنما تكبروا لأنهم أثبتوا المزية لأنفسهم ورفعوها ثم أثبتوا لها التواضع، فهم المتكبرون على خلق الله حقاً.

ولعارفون بالله لم يثبتوا لأنفسهم مزية قط، رأوا الأشياء كلها سواء، خلقاً واحداً ونوراً واحداً، فلم يثبتوا لأنفسهم رفعةً ولا وضماً فهم متواضعون من أول مرة. فتواضعهم حقيقي أصلي، فمن أثبت لنفسه تواضعاً ورأى أنها تواضعت دون قدرها فهو المتكبر حقاً، حيث جعل لها قدراً زائداً على خلق الله، إذ ليس التواضع وإثباته للنفس إلا عن رفعة لها أولاً، فمتى أثبتت لنفسك أيها الفقير تواضعاً فأنت المتكبر حقاً، ولا تكون متواضعاً حتى ترى الأشياء كلها مثلك أو أحسن منك إن عصيت ربك.

قال أبو يزيد: ما دام العبد يرى في الخلق أشر منه فهو متكبر، ولا يكون متواضعاً حتى لم يثبت لنفسه حالاً ولا مقالاً.

وقال الجنيد رضي الله عنه: من رأى نفسه قد تواضعت فهو يحتاج إلى تواضع، ولو تبرأ منها ومن تواضعها لكان متواضعاً انتهى.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «إنما الكرم التقوى، وإنما الشرف التواضع، وإنما الغنى اليقين، والمتواضعون في الدنيا هم أصحاب المناير يوم القيامة. إذا تواضع العبد رنعه الله إلى السماء السابعة، ولا يزيد التواضع للعبد إلا رفعة، فتواضعوا ليرفعكم الله، وإذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين من أمتي فتكبروا عليهم، فإن ذلك مذلة لهم وصغار بهم»⁽¹⁾ انتهى.

(1) جزء الحديث الأخير: «إذا رأيتم المتواضعين...» أورده الخزالي في إحياء علوم الدين، بيان فضيلة التواضع، [341/3].

أوحى الله إلى موسى عليه السلام: «إنما أقبل عمل من تواضع لعظمتي ولم يتكبر على خلقي، وألزم قلبه خوفاً، وقطع النهار بذكرى، وكف نفسه عن الشهوات من أجني»⁽¹⁾ انتهى.

[التواضع الكامل]

ثم فسر التواضع الكامل، فقال:

229 - (لَيْسَ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ نَوْقٌ مَا صَنَعَ، وَلَكِنَّ الْمُتَوَاضِعَ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ دُونَ مَا صَنَعَ).

قلت: التواضع الحقيقي هو الذي ينشأ ممن يشاهد الأشياء كلها منه، فإذا تواضع معها رأى أنها تستحق أكثر من ذلك التعظيم، وأن نفسه في الدناءة والذل دون، أي أسفل مما صنع من التواضع، وليس المتواضع الذي يرى لنفسه مزية على الأشياء، فإذا تواضع معها رأى أن نفسه فوق وأفضل مما صنع من التواضع، فهذا هو المتكبر لأنه أثبت لنفسه تواضعاً مما تستحقه، وهذه الحكمة كأنها بين وتتميم لما قبلها.

يحكى عن أبي الحسن بن الكرني، أستاذ الجنيد رضي الله عنهما، أن رجلاً دعاه ثلاث مرات إلى طعامه ثم يرده فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله داره في المرة الرابعة، فسأله عن ذلك فقال: قد ربيّضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيعود، ويرمى له عظم فيجيب، ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبتك.

قال أبو طالب رضي الله عنه: وحدثت عن بعض الصوفية أنه وقف على رجل يأكل فمد يده وقال: إن كان ثم شيء لله تعالى، فقال: اجلس فكل، فقال: أعطني في كفي. فأعطاه في كفه فقعده في مكانه يأكل فسأله عن امتناعه من الجلوس معه، فقال: إن حالي مع الله تعالى الذل فكرهت أن أفارق حالي.

[التواضع الحقيقي]

ثم إن التواضع منه ما يكون مجاهدة وتصنعاً، وهو مجاهدة أهل اليمين من السائرين، ومنه ما يكون اختيارياً حقيقياً وهو تواضع العارفين لأنه ناشئ عن شهود

(1) روى نحوه أبو بكر القرشي في التواضع والخمول، باب التواضع، حديث رقم (86) (1/116) ونصه كاملاً: عن إسماعيل بن أمية نال: قال الله تبارك وتعالى لموسى ﷺ: «إني إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعظم على خلقي وألزم قلبه خوفاً وقطع النهار بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجلي وأطعم الجائع وكسى العاري أوى الغريب فذلك الذي يشرق نور وجهه يوم القيامة مثل الشمس يدعوني فألبس له ويسألني فأعطيه وأجعل له في الجهالة حليماً وفي الظلمات نوراً أكلاه بمزتي وأستحفظه ملائكتي، فمثل ذلك العبد في الناس كمثل جنات عدن في الجنان لا تنقطع ثمارها ولا تغير عن حالها».

عظمة المعبود، فلا يتخلف إلا في وقت الغفلة وهو قليل، وهو الذي أبانه بقوله :
230 - (التَّوَاضُّعُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ مَا كَانَ نَاشِئاً عَنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ وَتَجَلِّي صِفَتِهِ)

قلت : التواضع الحقيقي هو تواضع العارفين لأنه ناشيء عن شهود عظمة الحق وتجلي ذاته وصفاته، وهو من عطف التفسير لأن تجلي الصفات هو عين عظمة الذات، وذلك أن الحق تعالى كان في أزله القديم متصفاً بصفاته ومتسماً بأسمائه في خفاء ولطف لم يعرفه أحد، فلما أراد أن يُعرف أظهر بقدرته وإرادته عظمة ذاته المقدسة متصفاً بصفاته الأزلية، فتجلت القدرة لعظمة الذات، فشهود عظمة الذات هو شهود تجلي الصفات، وإليه أشار صاحب العينية بقوله :

فَأَوْصَافُهُ وَالْأَسْمُ وَالْأَثَرُ الَّذِي هُوَ الْكَوْنُ عَيْنُ الذَّاتِ وَاللَّهُ جَامِعٌ

فالتواضع الحقيقي هو الذي ينشأ عن شهود عظمة الذات ونور الصفات، فلذلك ترى العارفين يتواضعون مع الحجر والمدر وكل شيء لمعرفتهم [الحق تعالى] في كل شيء .

[شهود صفاته تعالى]

والحاصل أن التواضع الحقيقي إنما هو للعارفين لأنهم حين شهدوا عظمة الحق خرجت عنهم أوصاف نفوسهم، إذ لا يخرج عن الوصف إلا شهود الوصف، كما ذكره بقوله :

231 - (لَا يُخْرِجُكَ عَنْ الْوُصْفِ إِلَّا شُهُودُ الْوُصْفِ)

فلا يخرجك عن أوصاف نفسك الذميمة إلا شهود أوصاف ربك العظيمة، فلا يخرجك عن دناءة نفسك إلا شهود كرم ربك، فلا يخرجك عن شهود أوصافك الحادثة إلا شهود أوصاف ربك القديمة، فيخرجك عن شهود فعلك بشهود فعله، وعن شهود صفاتك بشهود صفاته، وعن شهود ذاتك بشهود ذاته .

فما دام العبد لم يشاهد أوصاف ربه العظيمة لا يمكنه أن يخرج عن أوصاف نفسه اللثيمة خروجاً كلياً، وإنما يكون ذلك مجاهدة تارة له وتارة عليه بين طلوع ونزول، بخلاف ما إذا شاهد أوصاف ربه، فإنه يغيب عن نفسه، قد تولاه محبوبه فكان سمعه وبصره ويده ورجله ومؤيداً له، فلا يتصرف إلا بالله، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم . وأنشدوا⁽¹⁾ :

إذا حَزَّتْ الفِسخَارُ فلا تبالِ بنقصٍ في الجبلِ أو كمالِ

فما التَّانِيثُ في اسمِ الشمسِ نقصٌ ولا التَّذْكِيرُ فخرٌ للهلالِ

يشير إلى أنه إذا تحقق الفناء في الذات والبقاء بالله، فلا نقص للنفس ولا كمال،

وإنما الكمال للكبير المتعال، فله الحمد والثناء على كل حال .

(1) لم أقف على اسم هذا المنشد .

[انشغال المؤمن بالثناء على الله تعالى]

كما قال الشيخ رضي الله عنه :

232 - (الْمُؤْمِنُ يَشْغَلُهُ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ عَنِ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ شَاكِرًا، وَتَشْغَلُهُ حُقُوقُ اللَّهِ عَنِ أَنْ يَكُونَ لِحُظْوَيْهِ ذَاكِرًا)

قلت : النفس عند تحقق الفناء لا وجود لها حتى تذكر ، ولا فعل لها حتى تشكر ، فليس للعارف عن نفسه أخبار حتى يخبر عنها بفعل شيء فضلاً عن أن يشكر لها وصفاً ، قد استفرقه شهود فعل الحق عن فعله ، وشهود وصف الحق عن شهود وصفه ، وشهود نور ذات الحق عن شهود ذاته ، فيشغله الثناء على الله عن الالتفات إلى ما سواه ، إذ لا يشهد في الكون إلا إياه ، وتشغله حقوق الحق عن الالتفات إلى حظوظ النفس ، إذ لا نفس مع الفناء ، فلا يبقى إلا حقوق العالم الأسنى ، فتقلب الحظوظ في حقه حقوقاً ، لأنهم إذا نزلوا من عرش الحضرة إلى أرض الحظوظ نزلوا بالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين ، نزلوا بالله ومن الله وإلى الله ، فليس لهم نظر إلى سواه ، قد تخلصت أرواحهم من طلب الحظوظ معجلة أو مؤجلة ، نفسانية أو روحانية ، إن صدر منهم عمل رآه منة من الله ، فيستحيون أن يطلبوا عليه عوضاً أو غرضاً .

[المحب الحقيقي]

كما أبان ذلك بقوله :

233 - (لَيْسَ الْمُحِبُّ الَّذِي يَرْجُو مِنْ مَحْبُوبِهِ عِوَضًا، أَوْ يَطْلُبُ مِنْهُ عَرَضًا)

قلت : لا شك أن المحبة التي تكون على الحروف والحظوظ ليست بمحبة ، وإنما هي مصانعة لقضاء الحاجة ، فمن أحب أحداً ليعطيه أو ليدفع عنه فإنما أحب نفسه ، إذ لولا غرض نفسه فيه ما أحبه .

ومما لا يستحسن أيضاً في حكم المحبة والهوى ، إظهار الحزن أو الكآبة من أجل الجفاء من المحبوب أو الشكوى بذلك ، بل الواجب هو التجلُّد والتصبر على جفاء المحبوب حتى يظفر بالمطلوب . وفي ذلك قيل :

إن شكوت الهوى فما أنت منا أحمل الصد والجفا يا مُعنى
تدعي مذهب الهوى ثم تشكو أين دعواك في الهوى قل لي أيننا
لو وجدناك صابراً لهوانا لأعطيناك كل ما تتمنى⁽¹⁾

(1) هذه الأبيات من البحر الخفيف وهي للشيخ العارف بالله تعالى محمد الحراق المتوفى سنة 1261 هجرية . (نفس المرجع السابق).

وقال آخر⁽¹⁾:

الحبُّ ديني فلا أبغي له بدلا والحسنُ مَلِكٌ مطاعٌ جازٌ أم عدلا
والنفسُ عَزَّتْ ولكن فيك أبدلُها والذلُّ مرٌّ ولكن في رضاك حلا
يا من عذابِي عذبٌ في محبَّتِه لا أشتكي منك لا صدأً ولا مللا
وإن شئت قلت: المحبة هي أخذ الرب بقلب العبد بحيث لا يلتفت إلى غيره، أو
أخذ جمال المحبوب بمحبة القلب حتى لا يجد مساعاً للالتفات لسوى المحبوب،
فمتى وقع الالتفات نقص الحب على قدره.

قال بعض الناس لامرأة: إني أحبك، فقالت: وكيف وخلفك من هو خير مني.
فالتفت فقالت: قبحك الله مِنْ مُحِبٍّ تدعي المحبة وتلتفت للغير. وكذلك العبد إذا
ادعى محبة سيده ثم أحب شيئاً، أو استحسن شيئاً من السوى، أو اشتكى شيئاً، أو
خاف شيئاً سوى محبوبه فهو ناقص المحبة أو مدعيها، ومن ادعى ما ليس فيه فضحته
شواهد الامتحان.

[المحبة على العوض مدخولة]

ثم علل الشيخ كون المحبة على العوض مدخولة، فقال:

233 - (فَإِنَّ الْمُحِبَّ مَنْ يَبْدُلُ لَكَ، لَيْسَ الْمُحِبُّ مَنْ تَبْدُلُ لَهُ)

قلت: المحب في الشيء هو الذي يبذل نفسه وفلسه فيه ويزهد في جنسه من
أجله، ولا يصح ذلك على التمام إلا في جانب الذي أسبغ عليك سرايغ الإنعام، أنعم
عليك أولاً بالإيجاد، وثانياً بالإمداد، وأعطاك كل ما تريد وملكك الكون كله تتصرف
فيه كما تريد، قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ مِنْ صَكْلِ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: الآية 34]، وقال:
﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: الآية 29]، فهذا سبب محبة العوام.

وأما محبة الخواص فهي ناشئة عن شهود جماله وبهائه، فغابوا في شهود جماله
وتأهوا في حضرة بهائه، وأنشدوا⁽²⁾:

يا ساقِي القوم من شذاه الكل لما سقيت تأهوا

غابوا وبالسكر فيك طابوا وصرحوا بالهوى وفاهوا

فهؤلاء باعوا أرواحهم في طلب مولاهم، ثم استقلوا ما باعوا، واستحيوا مما
بذلوا لقلّة ما أعطوا في جانب ما طلبوا، وفي ذلك يقول سلطان العشاق ابن الفارض

(1) هو ابن حبيش أبو بكر محمد بن يوسف بن الحسن، أصله من الأندلس من مرسية، رحل إلى تونس،
توفي سنة 686هـ. (نفس المرجع السابق).

(2) المنشد هو الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله النميري الششتري الأندلسي المرلود سنة 610 هـ في
ششت إحدى قوى وادي آش في جنوبي الأندلس، والمتوفى سنة 668 هـ [المولود الشعري، المجمع
الثقافي، أبو ظبي].

رضي الله عنه :

لو أن روحني في يدي ووهبتها لمبشري بقدمكم لم أنصف
 ما لي سوى روحني وبأذل روحه في حب من يهواه ليس بمسرف
 فلئن رضيت بها فقد أسعفتني يا خيبة المسعى إذا لم تسعف
 قال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه : حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن
 أحبته حتى لا يبقى لك منه شيء .

وقال الشيخ أبو الحسن [الشاذلي] رضي الله عنه : المحب على الحقيقة من لا
 سلطان على قلبه لغير محبوبه ولا مشيئة له مع مشيئته .

وبالجملة ، فأمر المحبة كبير وبحرها خطير ، وفي ذلك قالوا : ما خاضوا بحر
 الريح حتى خاضوا بحر الخسارة ، لا تنال إلا بذبح النفوس وترك الفلوس .
 إن ترد وصلنا فموتك شرط لا ينال الوصال من فيه فضله

[محاربة النفوس ومجاهدتها]

فما تحقق سير السائرين ورحيلهم إلى المحبوب [لأ] بمحاربة النفوس ومجاهدتها
 وقتلها كما أبان ذلك بقوله :

234 - (لَوْلَا مَيَادِينُ النُّفُوسِ مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ)

قلت : الميادين جمع ميدان بكسر الميم وبفتحها ، وبه صدر في القاموس وهو
 مجال الخيل ، ثم استعير هنا لمحاربة النفوس ومجاهدتها ، فهي تارة تكرر عليه فتظفر به
 وتارة يكرر عليها فيظفر بها ، وفي هذا المعنى قال شيخ شيوخوا المجذوب رضي الله
 عنه :

سأيس من النفس جهدك وصبَّح ومسَّ عليها
 لعلها تدخل بيدك فتعود تصطاد بها

فقد بين رضي الله عنه كيفية مجاهدتها ، وعلمك الحيلة في أخذها ، وذلك أن
 تدخل معها شيئاً شيئاً ، فتعلمها الصمت وحده ثم العزلة ، ثم تقدمها للخراب شيئاً
 شيئاً ، تقدمها للقليل فإذا استأنست به زدتها شيئاً آخر ، وهكذا ، فأحب الأعمال إلى الله
 أدومها وإن قل ، ولا يعلسها البطالة ، فورده من العمل الذي تموت به لا يتركه .

قال بعض العارفين : انتهى سير الطالبين إلى الظفر بنفوسهم ، فإن ظفروا بها
 وصلوا ، وما ذكرته من السياسة للنفس والاحتياط عليها هو الصواب . قال في
 المباحث :

واحتل على النفس قُرْبٌ حيلُهُ أنفع في النصر من قبيلته

وأما إن حَمَلَهَا من أول مرة ما لا تطيقه: فإنها تسقط وتمل وربما ترجع بالكلية. قال ﷺ: «اكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا»⁽¹⁾. وقال: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»⁽²⁾. والمنبت هو المنقطع.

وحاصل ما ذكره الشيخ في هذه الحكمة: أن الناس على قسمين:

قسم لا سير لهم إذ لا توجه لهم إلى الله، فهم واقفون مع ظاهر الشريعة، كلما أباحته الشريعة أخذوه [سواء] كان ثقیلاً على النفس أو خفيفاً، بل لا يأخذون إلا الخفيف لأنهم يقصدون رخص الشريعة وتسهيلها مما يوافق هواهم.

وقسم شاق⁽³⁾ نفوسهم إلى حضرة الملك وغلبهم الشوق فتوجهوا إلى حضرته واشتغلوا بمجاهدة نفوسهم ومحاسبتها، فكل ما يثقل عليها أدخلوها فيه وهي تموت، وكل ما يخف عليها جنبوها منه وهي تبكي، هكذا يدومون عليها حتى ترتاض وتلين.

فكل من ملك نفسه فقد ملك الوجود بأسره، فلولا مجاهدة النفوس ومحاربتها في هذه الميادين ما تحقق سير السائرين، إذ لا يتحقق السائر من القاعد إلا بمخالفة الهوى وخرق العوائد، فمن خرق عوائد نفسه حتى استوى عنده العز والذل والفقر والغنى وغير ذلك من مكروهات النفوس، فقد تحقق سيره ووصوله، ومن لم يقدر على تغيير شعرة من نفسه فلا سير له ولا وصول.

قال أبو عثمان الحيري: لا يكمل الرجل حتى يستوي قلبه في أربعة أشياء: في المنع والعطاء والعز والذل، يعني أنه يكون عنده الذل كالعز، والمنع كالعطاء لا ينقص منها.

وقال محمد بن خفيف رضي الله عنه: قدم علينا بعض أصحابنا فاعتلّ، وكان به علة البطن، فكنت أخدمه وأخذ منه الطست طول الليل، قال: فغفوت مرة فقال لي: نمت لعنك الله، فقيل له: كيف وجدت نفسك عند قوله لعنك الله، قال: كقولك رحمك الله.

وقال بعضهم: حقيقة زوال الهوى من القلب حب لقاء الله في كل نفس من غير اختيار حالة يكون عليها، فإذا وجد المرید هذه العلامات في نفسه فقد خرج من عالم جنسه ووصل إلى حضرة قدسه، وكان كما قال الشاعر⁽⁴⁾:

لك الدهر طوعاً والأنام عبيد نعش كل يوم من أيامك عيد

(1) رواه أبو داود في سننه، باب ما يلزم به من القصد في الصلاة، حديث رقم (1368) [48/2] وابن ماجه في سننه، باب ذكر الذنوب، حديث رقم (4240) [1417/2] ورواه غيرهما.

(2) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب القصد في العبادة...، حديث رقم (4520) [18/3] والقضاعي في مستد الشهاب، (726) إن هذا الدين متين...، حديث رقم (1147) [184/2] ورواه غيرهما.

(3) يقال: شاق إليه شوقاً وتشوقاً واشتاق اشتياًقاً، والشوق والاشتياق: نزاع النفس إلى الشيء والجمع أشواق (لسان العرب).

(4) لم أقف على اسم هذا الشاعر.

وكما قال سيدي أبو العباس بن العريف رضي الله عنه في هذا المعنى:

بدا لك سرّاً طالَ عنكَ اكتتامةُ ولاخ صباح كنت أنت ظلامه
فأنت حجاب القلب عن سرّ غيبه ولولاك لم يطبع عليه ختامه
فإن غبت عنه حلّ فيه وطبت على مركب الكشف المصون خيامه
وجاء حديث لا يمل سماعه شهى إلينا نثره ونظامه
إذا سمعته النفس طاب نعيمها وزال عن القلب المعنى غرامه

فإن لم يجد المرید هذه العلامات فليستمر على سيره ولا يمل ولا يفتر، فمن عرف ما قصد هان عليه ما ترك. وهذا الكلام إنما هو مع من أسعده الله فوصله إلى شيخ التربية، وأما من لم يصل إليه فلا يطمع في السير أبداً ولو جمع العلوم كلها وصحب الطوائف كلها، وهذا أمر ذوقني لا أقلد فيه أحداً، فقد صلينا كثيراً وصمنا كثيراً واعتزلنا كثيراً وذكرنا كثيراً وقرأنا القرآن كثيراً، والله ما عرفنا قلوبنا ولا ذقنا حلاوة المعاني حتى صحبنا الرجال أهل المعاني، فأخرجونا من التعب إلى الراحة، ومن التخليط إلى الصفا، ومن الإنكار إلى المعرفة.

قال [تاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندري] في لطائف المنن: إنما يكون الاقتداء بولي ذلك الله عليه، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشريته وعرفك وجود خصوصيته، فألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد، يعرفك برعونات نفسك ودفائنها وكمائنها ودقائقها، ويدلك على الجمع على الله، ويعلمك الفرار مما سوى الله، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله.

قال: فإن قلت: فأين من هذا وصفه، لقد دللتني على أغرب من عنقاء مغرب، فاعلم أنه لا يعوزك وجدان الدالين، وإنما يعوزك وجدان الصدق في طلبهم، جد صدقاً تجد مرشداً، وتجد ذلك في كتاب الله، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: الآية 62]، وقال: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [معدن: الآية 21] فلو اضطرت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمان إلى الماء والخائف إلى الأمن، لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطرت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته لوجدت الحق منك قريباً ولك مجيباً، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك ولتوجه الحق بتيسير ذلك عليك. انتهى.

وقال أيضاً في لطائف المنن: وليس شيخك من سمعت منه إنما شيخك من أخذت عنه، وليس شيخك من واجهتك عبارته إنما شيخك من سرت فيك إشارته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك من واجهك مقاله إنما شيخك من نهض بك حاله، [و] شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى

ودخل بك على المولى، [و] شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك حتى تجلّت فيه أنوار ربك، [و] نهض بك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، ولا زال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه، فزج بك في نور الحضرة، وقال: ها أنت وربك. انتهى.

والسير هنا إلى الله تعالى مجازي [وهو] عبارة عن قطع العلائق والعوائق، وإلاً فالأمر كما قال الشيخ:

[لا مسافة بيننا وبين الحق تعالى نقطعها]

234 - (إِذْ لَا مَسَافَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَطْوِيَهَا رِحْلَتِكَ، وَلَا قُطْعَةَ بَيْنِكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَمْحُوَهَا وَضَلَّتْكَ)

قلت: هذا سؤال عن بحث مقدر كأن قائلاً قال له: هل بيننا وبينه مسافة حتى يتحقق سير السائرين إليه، فقال: لا مسافة بينك وبينه إلا حجاب النفس الكثيفة وعلائق القلب الكونية، فخرق عوائدها وقطع شهواتها.

وقطع العلائق والعوائق هو السير إلى الله، فمن خرق عوائد نفسه زالت عنه الحجب الظلمانية، ومن قطع علائق القلب فاضت عليه العلوم الربانية، وأشرقت عليه الشموس العرفانية، وهذا هو الوصول، فلا مسافة بينك وبينه حسية حتى تطويها رحلتك، ولا قطعة بينك وبينه، أي لا حاجز بينك وبينه، حتى تمحوها وصلتك. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْتِسُوًّا بِرَبِّهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية 16] فما حال بيننا وبينه إلا توهم وجود نفوسنا، فلو غبنا عنها لوجدنا أنفسنا في الحضرة ولا يمكن الغيبة عنها إلا بموتها، وموتها في مخالفة عوائدها.

قال الشيخ أبو مدين: من لم يميت لم ير الحق.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: لا دخول على الله إلا من بايين، إما بالفناء الأكبر الذي هو الموت الطبيعي، أو بالفناء الأصغر الذي تعنيه هذه الطائفة.

وقال بعضهم: لا يدخل على الله حتى يموت أربع موتات، الموت الأحمر: وهو مخالفة النفس، والموت الأسود: وهو احتمال الأذى من الخلق، والموت الأبيض: وهو الجوع، والموت الأخضر: وهو لبس المرقعات.

قال الشطبي رضي الله عنه: ومن الناس من تحجبه المجاهدة عن المشاهدة، فتسطوا عليه الأحوال فتحول بينه وبين الغاية القصوى. ومناهج الخلق متفاوتة لا تجري على منهاج واحد، قال الله العظيم: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعةً وَمِنْهَاجاً﴾ [العنكب: الآية 48] ﴿وَلِكُلِّ وَجْهٌ هُوَ مَوْبِئٌ فَأَسْتَبِيحُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا كُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: الآية 148]، وكل شخص إنما يعبر عن وجهته التي خصه الله بها.

[الإنسان جوهرة المكنونات]

فتحصل أذ الإنسان إذا جال مع النفس في ميدانها، فجاهدها حتى هذبها وطهرها من الأوصاف الحاجبة لها، رجعت نفسه حينئذ إلى أصلها، وهي الحضرة التي كانت فيها إذ لم تكن بينها وبين الحضرة إلا الحجب الظلمانية، فلما تخلّصت منها رجعت إلى أصلها نوراً مشرقاً في قالب ظلماني، فصارت عنده ياقوتة مكنونة تنطوي عليها أصداف المكنونات كما أبان ذلك بقوله:

235 - (جَعَلَكَ فِي الْعَالَمِ الْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ لِيُعْلِمَكَ جَلَالَتهَ قَدْرِكَ بَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْكَ أَصْدَافُ مَكُونَاتِهِ)

قلت: قد عظم الله سبحانه هذا الإنسان وجعله نخبة الأكوان، اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره، فيه ملك وملكوت، ونور وظلمة، وغيب وشهادة، وعالم علوي وسفلي، وقدرة وحكمة، وحس ومعنى، فقد جعلك الله أيها الإنسان ناشئاً في العالم المتوسط بين ملكه وهو بشريتك، وملكوته وهو روحانيتك.

أو تقول: [جعله] بين ملكه وهو عالم الأشباح وملكوته وهو عالم الأرواح، فليست أيها الإنسان ملكاً فقط فتكون كالبهائم والجمادات، ولا ملكوتياً فقط فتكون كالملائكة، ولكن جعلك مركباً من ملك وملكوت لتظهر مزيتك بالمجاهدة والمشاهدة، ولذلك خصصت بالخلافة، وتقدمت لحمل الأمانة، ثم تمتع بالنعيم والنظر إلى وجهه الكريم، ثم انقسمت الناس على قسمين:

فمنهم من غلبت بشريتهم على روحانيتهم، وملكهم على ملكوتهم، وظلمتهم على نورهم، فبقوا في ظلمة الأكوان، ومنعوا من الشهود والعيان، وهم عوام المسلمين.

ومنهم من غلبت روحانيتهم على بشريتهم، ونورهم على ظلمتهم، وملكوتهم على ملكهم، وهم الخواص العارفون السائرون إليه بمجاهدة نفوسهم في ميدان الحرب، وهو مجال الفرسان، فمنهم السابق المقرب، ومنهم اللاحق المحبب كل واحد على قدر صدقه في محبة سيده.

وظاهر كلام الشيخ أن الإنسان شيء زائد على البشرية والروحانية لأنه قال: جعلك الله في العالم المتوسط بين الملك، وهو البشرية، والملكوت وهو الروحانية، فيقتضي أنه شيء ثابت بينهما، والتحقيق أن الإنسان هو المجموع من الجسد والروح فهو بنفسه عالم متوسط، أي مركب من ملك وملكوت.

وإنما جعلك بين ملك وملكوت ليعلمك جلالته قدرتك وفخامة أمرك، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: الآية 70] ، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿١﴾

وليعلمك أيضاً أنك جوهرة نفيسة مصونة في صدف نفيس، وهو الكون بأسره تنطوي عليك أصداف مكوّناته من عرشه إلى فرشه، فأنت أيها الإنسان كالياقوتة في صدف، الأرض تُقَلِّك، والسماء تُظِلُّك، والجهات تكتنُفُك، والحيوانات تخدمك وتنفعُك، والجمادات تدفع عنك، وأنت في وسط الجميع، فالأفلاك دائرة بك، والشمس والقمر منيران لما أنت فيه، فأنت جوهرة الصدف ولباب الكون ومداره عليك.

ومما ينسب لأبي العباس المرسي رضي الله عنه :

يا تائهاً في مَهْمِهِ عَن سِرِّهِ انظُرْ تجذُ فيك الرجودَ بأسره
أنتَ الكمالُ طريفةً وحقيقةً يا جامماً سِرَّ الإلهِ بأسره

وقال [الشيخ ابن البناء] في المباحث [الأصلية]:

يا سابقاً في موكبِ الإبداع ولاحقاً في جيشِ الاختراع
إعقلُ فأنتَ نسخةُ الرجودِ لئله ما أعلاك من موجود
أليسَ فيك العرشُ والكرسي والعالمُ العلوي والسفلي
ما الكونُ إلا رجلٌ كبير وأنتَ كونٌ مثله صغير

[الإنسان هو العالم الأكبر]

قلت: إنما يكون الإنسان نسخة من العالم أو كوناً صغيراً ما لم تغلب روحانيته على بشريته، ومعناه على حسه، ونوره على ظلمته، وأما إن غلبت روحانيته على بشريته ومعناه على حسه فقد صار حينئذ ملكوتياً جبروتياً قد استولى على الكون بأسره، وصار هو العالم الأكبر والكون نسخة منه. وفي ذلك يقول ابن الفارض رضي الله عنه:

وإني وإن كنتُ ابنَ آدمَ صورةً فلي فيه معنى شاهدٌ بأبوتي

إذ الروح لم يسعها أرض ولا سماء كما بين ذلك بقوله:

236 - (إِنَّمَا وَسِعَكَ الْكَوْنُ مِنْ حَيْثُ جُثْمَانِيَّتِكَ، وَلَمْ يَسَعَكَ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتِ

رُوحَانِيَّتِكَ)

قلت: الروح إذا نصّفت وتطهرت من كدرات الحس عرجت إلى عالم الجبروت، فلم يحجبها عن الله أرض ولا سماء ولا فلک ولا عرش ولا كرسي، بل بصير ذلك في جوفها كشيء تافه، وهذا أمر مذوق عند العارفين إذا نظروا إلى الكون بأسره ذاب ورجع ماء، فإذا شربوه صار في قلوبهم كنقطة، وهم متفاوتون في إحاطتهم بالكون، فمنهم من يصير عنده كالبيضة، ومنهم من يصير عنده كالخردلة، وذلك بحسب اتساع النظرة وضيقها، فكلما جالت الروح في بحر الجبروت صغر الكون عندها حتى لا تحس به،

ولذلك قال بعضهم : لو كان العرش في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحس به .
فقد وسعك أيها الإنسان الكون وحصرك من حيث جثمانيتك وبشريتك وهيكلك
المحصور ، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك ، لأن روحك متصلة بعالم الجبروت
المحيط ، فلما تكثفت وانحصرت في هذا الهيكل لزمته القهرية ، فانحجبت بالحكمة
وتقيدت بالقدرة ، فما دامت البشرية كثيفة بحب الشهوات والعوائد فهي محجوبة ، فإذا
تلطفت بذكر الله ، وانخرق عنها حجاب الحس ، رجعت إلى أصلها فاتصلت ببحرها ،
فصار الملكوت والملك في طي قبضتها ، فلم يسعها حينئذ أرض ولا سماء ، ولا
يحصرها عرش ولا فرش ، ولذلك قيل : الصوفي لا تقله الأرض ولا تظله السماء .

وفي الحديث القدسي : يقول الله تعالى : « ما وسعني سمائي ولا أرضي ولكن
وسعني قلب عبدي المؤمن »⁽¹⁾ أي الكامل ، وهو العارف والله تعالى أعلم .
فالجبروت : هو المعاني اللطيفة القديمة التي لم تدخل عالم التكوين ،
والملكوت : ما دخل عالم التكوين باعتبار جمعه ولحوقه بأصله ، والملك : ما دخل
التكوين واعتقد فيه الفرق .

وأهل الجمع لا ملك عندهم ، وإنما عندهم الملكوت والجبروت فما داموا
يفرقون بين النور اللطيف والنور الكثيف فعندهم الملكوت والجبروت ، فإذا ضموا كل
شيء إلى أصله لم يبق إلا الجبروت .

وأهل الفرق أثبتوا الملك بوجههم ، وحججوا به عن الله ، والله غالب على أمره .

[الخروج من هيكل الذات]

فما دام العبد مسجوناً بالكون محصوراً في بشريته فهو في سجن الأكوان ، فإن
تفدت بصيرته وعرجت روحه إلى الملكوت خرج من السجن إلى الفضاء ، كما بين ذلك
بقوله :

237 - (الكَائِنُ فِي الْكَوْنِ وَلَمْ تُفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ الْغُيُوبِ مَسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ ،
وَمَخْصُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ)

قلت : ميادين الغيوب هي ما أدركته الروح حين خرجت من ضيق الأشباح إلى
عالم الأرواح ، ومن فضاء الشهود إلى معرفة الملك المعبود ، فما دام الإنسان في
الكون بحيث لا يشهد إلا الكون ، ولا يدرك إلا الحس ، ولم تفتح له ميادين الغيوب ،
أي لم يخرج إلى فضاء الشهود ، فهو مسجون بمحيطاته ، أي بالأكوان المحيطة به

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء ، حديث رقم (2256) [255 / 2] .

كالسمرات والأفلاك الدائرة به، فهو في سجن الأكوان محصور أيضاً في هيكل ذاته، أي في شكل بشريته وكثائف جسمه، فإذا غلبت روحانيته على بشريته فقد خرجت من حصر الهيكل، وإذا نفذت بصيرته إلى فضاء الملكوت أو بحار الجبروت فقد خرجت من سجن الأكوان إلى شهود المكوّن، فحينئذ تتحرر من رق الأكوان وتحظى بنعيم الشهود والعيان.

وأما ما دام محصوراً في الهيكل مسجوناً في الأكوان فهو محجوب عن الله، ولو كان عائماً بالعلوم الرسمية متبحراً فيها، إذ لا يزيده التغلغل فيها إلاّ حجاباً عن الله. وقد قال الشيخ أبو الحسن: التغلغل في علم الظاهر يضر بصاحبه في علم الخصوص، أو ما هذا معناه.

[الأكوان معك]

وقال في قوت القلوب⁽¹⁾: كل من لم يفتح له في هذا العلم أي علم الباطن، فهو من أهل اليمين، وكل من فتح له في علم الباطن، فهو من المقربين السابقين. انتهى.

وهو ظاهر لأن علم الرسوم لا يخرج من سجن الأكوان، فهو مع الأكوان على الدوام، وإذا كان مع الأكوان فإنه لم يشهد المكوّن كما قال الشيخ رضي الله عنه:

238 - (أَنْتَ مَعَ الْأَكْوَانِ مَا لَمْ تَشْهَدْ الْمَكُونُ، فَإِذَا شَهِدْتَهُ كَانَتْ الْأَكْوَانُ مَعَكَ)

قلت: ما دام العبد مقيداً في سجن الأكوان ومحصوراً في هيكل جسمه، فالأكوان حاكمة عليه، فهو يحبها ويعشقها وهي تبغضه وتبعده عن ربه، وهو يفتقر إليها وهي غنية عنه، وهو يميل إليها ويحرص عليها وهي تفر منه، وهو يخاف منها ويهابها وهي تخوفه وترعبه، فإذا شهد مكوّناتها وغاب عنها وتحرر من رقبها كانت حينئذ هي خادمته وهو حاكم عليها، وهي تحبه وتعشقه وهو مشغوف بحب خالقها، وهي تفتقر إليه وهو غني عنها، وهي تحرص عليه وهو زاهد فيها، وهي تخاف منه وتهابه وهو في أمن منها، فالجنة تشاق إليه وهو غني عنها.

وفي الحديث: «اشتاقت الجنة إلى ثلاثة علي وعمار وبلال»⁽²⁾ كانوا من أهل الصفة، والنار تهابه وهو في غيبة عنها. وقد ورد في الحديث أنها تقول يوم القيامة: «جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي»⁽³⁾ أو كما قال عليه السلام، فأنت أيها الإنسان

(1) كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي، مطبوع في الدار بتحقيقنا.

(2) روه المزني في تهذيب الكمال، باب الرأى، [306/33].

(3) روه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (668) [258/22] والديلمي في الفردوس، حديث رقم (2365) [65/2] ورواه غيرهما. وأول الحديث: «تقول النار للمؤمن يوم القيامة».

محبوس مع الأكوان في عالم الأشباح، مقيد في قيودها، فهي حينئذ تتصرف فيك كيف شاءت حين تكون تحبها وتحرص عليها وتشتاق إليها كائنة ما كانت، شهادية أو غيبية ما لم تشهد المكوّن وتعرفه، فإذا شهدت المكوّن وعرفته كانت الأكوان معك، لأنك تكون حراً عنها، وهي مملوكة لك لا تحب منها شيئاً من حيث كونيتها، ولا تخاف منها شيئاً كذلك، لأنك قد رحلت عنها إلى عالم الأرواح، فحينئذ تكون في قبضتك تتصرف بها كيف شئت، لأنك حينئذ تصير خليفة لله في أرضه، الكون كله في قبضتك وعند همتك، لأنك علقت همتك بالله، فصبر الأشياء عند همتك.

[الخصوصية لا تنفي البشرية]

ولا يلزم من رفع الهمّة عن الأكوان استغناؤه عما تحتاج إليه البشرية مما يفوم به وصفها اللازم لها، وإليه أشار بقوله:

239 - (لا يُلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الْخُصُوصِيَّةِ هَدْمُ وَصْفِ الْبَشَرِيَّةِ)

المراد بالوصف البشري، ما جعله الله محتاجاً إليه بحكمته في قوام بدن الإنسان من أكل وشرب ولباس ومسكن، وما فطره عليه من شهوة مباحة كمنكاح وشهوة غير محرّمة، فهذه الأوصاف لا ينافي وجودها وجود الخصوصية، فقد قال تعالى في الرسل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: الآية 20]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الزهد: الآية 38] نعم وصف البشرية في حق أهل الخصوصية ليس هو كغيرهم لأن أهل الخصوصية أمرهم كله بالله، انقلبت حظوظهم حقوقاً بخلاف غيرهم، أنفسهم غالبية عليهم فتقلباتهم كلها في حظوظ أنفسهم.

فإذا تقرر هذا علمت أنه لا يلزم من ثبوت الخصوصية وهي الولاية والمعرفة أو الحرية، ومعناها واحد، عدم وصف البشرية، فالخصوصية محلها البواطن، ووصف البشرية محلها الظواهر، ولذلك اختلفت الأولياء والأنبياء والرسل عن الناس لظهور أوصاف البشرية عليهم، فكيف تعرف رجلاً يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب وينام ويتزوج النساء، فلا يعرفهم إلا من أراد الله سعاده.

وما وقع الإنكار على الأنبياء والأولياء إلا لاعتقادهم أن أوصاف البشرية تنافي ثبوت الخصوصية، فقد قال الكفار في حقه عليه السلام: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ بِأَكْلِ الطَّعَامِ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: الآية 7] فرد الله تعالى عليهم بعدم تنافيهما فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الفرقان: الآية 20] الآية، فهذه الأوصاف التي ذكرنا لا ينفك الطبع البشري عنها، وهي موجودة مع خصوصية النبوة والولاية.

[ضرورة التطهر من الأوصاف المذمومة]

وأما الأوصاف التي هي مذمومة كالحسد والكبر والبغض والعجب والرياء والغضب والقلق وخوف الفقر وهم الرزق والتدبير والاختيار وغير ذلك، فهذه لا بد من التطهير منها في خصوصية النبوة والولاية، وقد تقدم قوله: اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك، لتكون لنداء الحق مجيباً ومن حضرته قريباً.

أما في حق النبي فتطهيره منها واجب لأنه معصوم من جميع النقائص، وأما في حق الولي فليس بواجب لكنه محفوظ، فقد يصدر منه شيء من هذه الأوصاف المذمومة على سبيل الهفوة والزلّة ولا تنافي وجود خصوصيته لكنه لا يصر عليها ولا يدوم فيها، فقد يصدر من الولي الغضب مثلاً والقلق والتدبير والاختيار وغير ذلك لكنه كالريح يضرب ويسرح.

قال في النصيحة الكافية: وقد تكون للولي هفوة وهفوات وزلّة وزلات ولكن لا يصر عليها.

وقيل للجنيد: أيزني العارف، فسكت ثم قال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

ثم ضرب مثلاً لنور الخصوصية مع ظلمة البشرية الحسية، فقال:

239 - (إِنَّمَا مَثَلُ الْخُصُوصِيَّةِ كإِشْرَاقِ شَمْسِ النَّهَارِ، ظَهَرَ فِي الْأَفْقِ وَلَيْسَتْ مِنْهُ. تَارَةً يَبْقِيُ ذَلِكَ عَنْكَ فَيَرُدُّكَ إِلَى حُدُودِكَ، فَالنَّهَارُ لَيْسَ مِنْكَ وَإِلَيْكَ، وَلَكِنَّهُ وَارِدٌ هَلَيْكَ)

قلت: مثل نور الربوبية الذي أشرقه الله في قلوب أوليائه وستره بظهور البشرية كمثل نور الشمس إذا أشرق على الآفاق، وهو الفضاء الذي بين السماء والأرض فإن الفضاء قبل ظهور الشمس مظلم ليس فيه نور.

فإذا أشرقت عليه الشمس رجع نوراً صافياً، فنور أنيته ليست من ذاته وإنما هي من الشمس، كذلك نور الربوبية هو مستودع في باطن البشرية.

فإذا أراد الله تعالى أن يظهر خصوصية عبده أشرق ذلك النور على ظاهر بشريته، فتستولي روحانيته على بشريته، فلا يبقى للبشرية أثر فتصير البشرية كلها نوراً، فنور البشرية ليس منها ولكنه وارد عليها.

فتارة تشرق شمس أوصافه [تعالى] وهي الوجود والقدم والبقاء وسائر أوصافه السلبية والوجودية والمعاني والمعنوية على نيل وجودك الظلماني الكثيف. فتذهب أوصافك الحادثة العدمية بظهور أوصافه القديمة الأزلية، فيتحقق الوصال ويذهب الانفصال.

وتارة يقبض ذلك النور ويغيبه عنك ويرده إلى باطنك ، فترجع إلى شهود عبوديتك ويردك إلى حدودك ، وهذا حال الوارد الإلهي إذا فاض على الإنسان غيبه عن نفسه واقتطعه عن حسه ، فلا يرى إلا أوصاف ربه وينكر وجود نفسه من أصله .

فإذا سكن الوارد رجع إلى شهود نفسه بربه ، ورجع ذلك النور إلى باطنه فيكون باطنه نوراً على الدوام ، وظاهره تارة يغلب عليه ذلك النور وتارة تغلب عليه الظلمة أي العبودية .

فنور الوارد ليس من الإنسان من حيث بشريته ولكنه وارد عليه من حيث روحانيته ، كما أن نور الأفق ليس هو من ذات الأفق لكنه وارد عليه من إشراق شمس النهار عليه .

وها هنا مثال آخر وهو الحديد والفحمة إذا جعلتهما في النار ونفخت عليهما ، فإنهما يرجعان من جنس النار وتكسو النار الحديد كله والفحمة كلها ، فإذا بردا رجع الحديد حديداً والفحمة فحمة ، كذلك البشرية إذا استولت عليها الروحانية صارت كلها روحانية معنوية ، فلا ترى إلا المعاني ولا تحس إلا إياها .

واعلم أن الناس في هذا النور على ثلاثة أقسام : قسم نوره حده الباطن ولم يصعد من شعاعه شيء لظاهره وهم العوام .

وقسم استولى نورهم على ظاهرهم وباطنهم ، وهم المجدوبون في حضرة الله .
وقسم امتلأ باطنهم نوراً وصعد شعاعه على ظاهرهم فاستولى على الظاهر على الدوام ، وهم السالكون بعد الجذب الراسخون في المعرفة ، والله تعالى أعلم .

[كيفية الترقى إلى الخصوصية]

ثم ذكر الطريقة الموصلة إلى الخصوصية فقال :

240 - (دَلَّ بِوُجُودِ آثَارِهِ عَلَى وُجُودِ أَسْمَائِهِ ، وَبِوُجُودِ أَسْمَائِهِ عَلَى ثُبُوتِ أَوْصَافِهِ ، وَبِثُبُوتِ أَوْصَافِهِ عَلَى وُجُودِ ذَاتِهِ ، إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَقُومَ الْوُصْفُ بِنَفْسِهِ) .

قلت : هذه طريقة الترقى ، فوجود الأثر يدل على وجود القادر والمريد والعليم والحق مثلاً ، فالقادر يدل على قيام القدرة به بحيث لا تفارقه إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه ، فلزم من وجود الأثر وجود المؤثر ، وهنا افترق أهل الظاهر من أهل الباطن ، فأهل الظاهر أثبتوا من وجود الأثر وجود الأسماء والصفات ولم يقدرُوا على شهود الذات ، غلبهم الحس عن شهود المعنى ولوهم عن ثبوت العلم ، وشهود الحكمة عن شهود القدرة .

وأهل الباطن لما فرغوا قلوبهم من الأغيار ، وباعوا نفوسهم للواحد القهار ، فتح

الله عين بصيرتهم ، وأطلعهم على مكنون سره ، فأفردوا الحق بالوجود ، وانتفى عن بصيرة نظرهم كل موجود ، إذ محال أن تفارق الصفة موصوفها أو تقوم بنفسها ، فلزم من وجود الصفات وجود الذات ، وهذا هو سر الخصوصية الذي خص الله بها أوليائه ولم يشاركه فيه غيرهم ، بين أهل الجذب من أهل السلوك ، وأهل التدلي من أهل الترقى ، فقال :

240 - (فَأَرْبَابُ الْجَذْبِ يَكْشِفُ لَهُمْ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ صِفَاتِهِ، ثُمَّ يُرْجِعُهُمْ إِلَى التَّعَمُّقِ بِأَسْمَائِهِ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ آثَارِهِ، وَالسَّالِكُونَ عَلَى عَكْسِ هَذَا فَنَهَايَةُ السَّالِكِينَ بَدَايَةُ الْمَجْذُوبِينَ، وَبَدَايَةُ السَّالِكِينَ نَهَايَةُ الْمَجْذُوبِينَ. لَكِنْ لَا يَمْنَعُ وَاحِدٌ، فَرُبَّمَا التَّقْيَا فِي الطَّرِيقِ هَذَا فِي تَرْقِيهِ، وَهَذَا فِي تَدْلِيهِ)

قلت : عباد الله المخصوصين بسر الخصوصية في سيرهم على قسمين : منهم من يبدأ بالجذب ثم يرد إلى السلوك ، ومنهم من يبدأ بالسلوك ثم يدركه الجذب ثم يصحو .

فأرباب الجذب يكشف لهم أولاً من غير مجاهدة عن شهود الذات فيسكر بشهود نورها ، فينكر الواسطة أصلاً وينكر الشرائع إلا أنه مغلوب ، ثم يرد من شهود الذات إلى شهود الصفات ، فلا يرى إلا صفات الحق تكثفت وظهرت وينكر الأثر ، ثم إذا شهد الصفات تعلق بالأسماء اللازمة لها ، ثم يرجع إلى شهود آثاره فيقوم بأحكام عبوديته .

والسالكون على عكس هذا فيستدلون بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه على وجود صفاته ، وبوجود صفاته على وجود ذاته كما تقدم . فنهاية السالكين وهي شهود الذات بداية المجذوبين . ونهاية المجذوبين ، وهي شهود الأثر بداية السالكين ، ولكن ليس بمعنى واحد بل أحدهما نازل يشهد الأشياء بالله ، والآخر صاعد يشهد الأشياء بنفسه لله ، فربما التقيا في الطريق كشهود الصفات والتعلق بالأسماء مثلاً هذا في ترقيه وهذا في تدليه ، فإذا وصلا معاً اجتمعا لأن المرتقي يرجع للأثر الذي انتهى إليه المجذوب بعد شهود الذات ، ويكون رجوعه بالله فيجتمعان معاً في مقام البقاء ، والمرقي أكمل من المتدلي في التربية لأنه فاسق شدائد الطريق وأهوالها ، بخلاف المجذوب ، فإنه كان محمولاً وهو نادر إذ الغالب على الناس السلوك ثم الجذب .

والطريق الشاذلية الغالب عليها الجمع بين الجذب والسلوك من أول قدم ، ومعنى الجذب هو اختطاف الروح من شهود الكون إلى شهود المكون .

واعلم أن الناس في الجملة على أربعة أقسام : سالكون فقط ، مجذوبون فقط ، سالكون ثم مجذوبون ، ومجذوبون ثم سالكون . فالأولان لا يصلحان للتربية والإرشاد ، أما السالك فقط فلأنه ظاهري محض فلا نور له في باطنه يجذب به . وأما المجذوب فقط فلا سلوك عنده يسير به ، والآخران يصلحان للتربية مع أفضلية الأول .

واعلم أيضاً أن حقيقة السلوك الأول هو شهود خلق بلا حق، وحقيقة الجذب هو شهود حق بلا خلق، وحقيقة السلوك الثاني هو شهود خلق بحق والله تعالى أعلم.

[انوار التوحيد والشهود والعيان معنوية]

ثم ما يدركه الواصل من أنوار الشهود والعيان ليست هي حسية يدركها كل إنسان، وإنما هي معاني قلبية وأسرار باطنية ملكوتية كما أبان ذلك بقوله:

241 - (لا يُعْلَمُ قَدْرُ أَنْوَارِ الْقُلُوبِ وَالْأَسْرَارِ إِلَّا فِي غَيْبِ الْمَلَكُوتِ، كَمَا لَا تَنْظَرُ أَنْوَارُ السَّمَاءِ إِلَّا فِي شَهَادَةِ الْمَلِكِ)

قلت: اعلم أن الناس كلهم عندهم النور في قلوبهم بدليل قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»⁽¹⁾ أي على أصل النشأة الأولية وهي القبضة النورانية، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [التور: الآية 35]. قال أهل تفسير الظاهر: أي نور أهل السماوات والأرض، وهو عام في كل موجود فيهما، فقد تحقق أن النور سار في الجميع.

فمن الناس من حجب عن هذا النور وعمي عنه، وهو من وقف مع ظاهر الملك، وهو قشر الكون وحسه الظاهر، ويسمى عالم الأشباح، ولم ينفذ إلى باطنه وهو الملكوت، ويسمى عالم الأرواح، فهذا محجوب عن نوره الباطني لا يرى إلا النور الحسي، لأنه مسجون في سجن الأكوان محصور في ظلمة الحس والوهم.

ومن الناس من نفذت بصيرته إلى شهود النور الباطني فيه، ولم يقف مع القشر، بل نفذ إلى شهود اللب، وهو نور الملكوت وأسرار الجبروت، وهو الذي أشار إليه في المباحث بقوله:

مهما تعديت عن الأجسام أبصرت نور الحق ذا ابتسام
وهذا النور أيضاً هو الذي تراه قلوب العارفين دون الغافلين كما أشار إليه الشيخ الحسين بن منصور الحلاج بقوله:

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يرى للناظرين
فإذا تحققت هذا علمت أنه لا يعلم بالبناء للمفعول، أي لا يظهر قدر أنوار القلوب الغيبية وشرفها، وأنوار الأسرار القدسية وكمالها إلا في غيب الملكوت والجبروت.

فأنوار القلوب لا يعلم قدرها إلا في غيب الملكوت، وهي الأنوار المتدفقة من بحار الجبروت. فمن لم ينفذ إلى شهود الملكوت لم يعلم قدرها بل لم يعرفها أصلاً.

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب ما قيل في أولاد المشركين، حديث رقم (1391) [1/465] وابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، حديث رقم (128) [1/336] ورواه غيرهما.

وأنوار الأسرار لا يعلم قدرها إلا في غيب الجبروت، وهي الأنوار الأصلية الأزلية وهو ما لم يدخل عالم التكوين.

فمن كان محجوباً في عالم الملك لا يعلم قدر أنوار الملكوت ولا يحس بها، بل ينكرها كما شهدناه ممن يدعي الخصوصية وهو بعيد منها.

ومن كان واقفاً مع أنوار الملكوت لا يعلم قدر أنوار الجبروت، ومن نفذ منهما شهد الجميع.

وكما لا تظهر الأنوار الغيبية إلا في غيب الملكوت أو الجبروت كذلك لا تظهر أنوار الملك، وهي الأنوار الحسية إلا في عالم الشهادة، وهو عالم الحس، ويسمى عالم الملك.

والحاصل أن أنوار القلوب هي أنوار الملكوت، وأنوار الأسرار هي أنوار الجبروت، وهي غيبية لا يعلم قدرها إلا من ترقى إلى عالم الملكوت أو الجبروت، فحينئذ يدركها ويعلم قدرها علماً وحالاً والله تعالى أعلم.

تنبيه: قد رأيت كثيراً ممن شرح هذا الكتاب غلط في تفسير الملك والملكوت والجبروت فزعموا أن الملك هو عالم الدنيا، والملكوت هو عالم الآخرة، والجبروت ما لا يعلمه أحد، وهذا غلط إذ لو كان كما زعموا ما صح الترقى من ملك إلى ملكوت وإلى جبروت، إذ يلزم على تفسيرهم أن الملك لا يرجع ملكوتاً والملكوت لا يصير جبروتاً، وهو غير سديد إذ قد نص كثير من المحققين أن أهل الملكوت لا يرون الملك أصلاً، وأهل الجبروت يحجبون عن الملكوت، هكذا ذكره النقشبندي في شرح الهائية.

والصواب أن المحل واحد، وهو الوجود الأصلي والفرعي، فما لم يدخل عالم التكوين من عظمة الباري تعالى فهو عالم الجبروت، وأما ما دخل عالم التكوين: فمن الحق بأصله وجميع فيه فهو في حقه ملكوت، ومن فرقه وحجب به فهو في حقه ملك.

فتحصل أن المحل واحد، والأمر إنما هو اعتباري، تختلف التسمية باختلاف النظرة، وتختلف النظرة باختلاف الترنى في المعرفة، فمن وقف مع الكون كان في حقه ملكاً، ومن نفذ إلى شهود النور الفائض من الجبروت إلا أنه وآه كثيفاً نورانياً ولم يضعه إلى أصله في اللطافة سمي في حقه ملكوتاً، ومن ضمه إلى أصله ولم يفرق بين النور الكثيف سمي جبروتاً.

[بشائر العاملين]

ولا بد لمن أراد أن تكشف له هذه الأنوار، ويدرك هذه المقامات من وجود أعمال ومقاسات أحوال، فإذا عمل عملاً وذاق حلاوته، فليستبشر بالفتح الذي هو جزء الساترين، وهو الذي أشار إليه بقوله:

242 - (وَجِدَانُ ثَمَرَاتِ الطَّاعَاتِ عَاجِلًا، بِشَائِرِ الْعَامِلِينَ بِوَجُودِ الْجَزَاءِ عَلَيْهَا
أَجَلًا)

قلت: من وجد في بدايته حلاوة مجاهدته فليستبشر بوجود مشاهدته، ومن لم يجدها فلا ييأس من روح الله، فإن لله نفحات تهب على القلوب فتصبح عند علام الغيوب، أو تقول: من وجد ثمرة عمله في الدنيا فليستبشر بوجود الجزاء آجلاً في الآخرة.

[طلب العوض قاذح في الإخلاص]

وهذا الجزاء الذي يستبشر به لا ينبغي قصده، ولا طلبه لئلا يكون ذلك قدحاً في الإخلاص كما أبان ذلك بقوله:

243 - (كَيْفَ تَطْلُبُ الْعِوَضَ عَلَى عَمَلٍ هُوَ مُتَّصِدٌّ بِهِ عَلَيْكَ؟ أَمْ كَيْفَ تَطْلُبُ
الْجَزَاءَ عَلَى صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إِلَيْكَ؟)

قلت: العبد إنما هو آلة مسخرة، فإذا سخره ربه تحرك وإلا فلا، وإذا كان كذلك فلا نسبة لك في العمل إلا ظهوره عليك حكمة، فكيف تطلب العوض على عمل هو متصدق به عليك؟ وإذا منَّ عليك بصدق العبودية، وهو سر الإخلاص، فكيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك؟

وعبر في جهة العمل بالصدقة التي تكون للمحتاجين، وفي جهة الصدق بالهدية التي تكون للمحبوبين، لأن العمل الناس مشتركون فيه، إذ جل الناس في العمل، والإخلاص قليل وأهله أقل من القليل، وهم الخواص أو خواص الخواص.

قال الشيخ أبو العباس [الحرسى] رضي الله عنه في قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما أنا رحمة مهداة»⁽¹⁾: الأنبياء لأممهم عطية ونبينا لنا هدية، ولعطية للمحتاجين والهدية للمحبوبين.

وقال أبو بكر الواسطي رضي الله عنه: مطالبة الأعواض على الطاعة من نسيان الفضل.

وقال أبو العباس أحمد بن عطاء [الآدمي]⁽²⁾: أقرب الأشياء إلى مقت الله رؤية النفس وأفعالها، وأشد من ذلك مطالبة الأعواض على أفعالها. انتهى.

(1) رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي المَسْتَدْرَكِ عَلَى الصَّحِيحِينَ، كِتَابُ الإِيمَانِ، حَدِيثٌ رَقْمُ (100) [91 / 1] وَالتَّطَبُّرِيُّ فِي المَعْجَمِ الأَرْسَطِ، حَدِيثٌ رَقْمُ (2981) [223 / 3] وَرَوَاهُ غَيْرُهُمَا.

(2) هُوَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَهْلِ بْنِ عَطَاءِ الأَدَمِيِّ، أَبُو العَبَّاسِ مِنْ كِبَارِ مَشَائِخِ الصُّوفِيَّةِ وَعُلَمَائِهِمْ. تَمَاتَ الخِرَازِ بِعَظَمِ شَأْنِهِ، وَهُوَ مِنْ أَقْرَانِ الجَنْبِيدِ وَصَحْبِ إِبرَاهِيمَ المَارَسْتَانِيِّ. مَاتَ سَنَةَ 309 هـ [الرَّسَالَةُ القَشِيرِيَّةُ].

[سبق الأنوار للأذكار وسبق الأذكار للأنوار]

وأعظم الأعمال التي توجد ثمرتها عاجلاً وأجلاً هو ذكر الله، وثمرته هو النور الذي يشرق في القلب فيضمحل به كل باطل، والناس في هذا النور على قسمين: قسم سكن النور قلوبهم فهم ذاكرون على الدوام، وقسم يطلبون وجوده بأذكارهم، وإلى هذا أشار بقوله:

244 - (قَوْمٌ تَسْبِقُ أَنْوَارُهُمْ أَذْكَارُهُمْ، وَقَوْمٌ تَسْبِقُ أَذْكَارُهُمْ أَنْوَارُهُمْ)

قلت: أما القوم الذين تسبق أنوارهم أذكارهم فهم الواصلون. وأما الذين تسبق أذكارهم أنوارهم فهم السائرون.

الأولون لهم أنوار المواجهة لا تفارقهم، فهم ذاكرون على الدوام، فإذا أرادوا أن يذكروا باللسان سبقت إلى قلوبهم الأنوار، فكانت هي الحاملة لهم على وجود الأذكار. وأما الآخرون فلهم أنوار التوجه وهم طالبون لها محتاجون إليها فهم يجاهدون أنفسهم في طلب تلك الأنوار.

* * *

[أحوال الذاكرين]

ثم بين حال الفريقين، فقال:

245 - (ذَاكِرٌ ذَكَرَ لِيَسْتَنِيرَ بِهِ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِرًا، وَذَاكِرٌ أَسْتَنَارَ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِرًا)

قلت: فالذي ذكر ليستنير قلبه هو الذي يسبق ذكره نوره، فهو من القوم الذين تسبق أذكارهم أنوارهم، والذي استنار قلبه فكان ذاكراً هو الذي يسبق نوره ذكره، فهو من القوم الذين تسبق أنوارهم أذكارهم، وهم العارفون بالله لا تجدهم إلا في حضرة الله بين ذكر أو فكرة أو نظرة أو إرشاد إلى الحضرة، فقلوبهم ممتلئة بالأنوار وأرواحهم دائماً في حضرة الأسرار.

[الذكر الظاهر دليل الشهود الباطن]

ثم إن وجود الذكر في الظاهر عنوان وجود الشهود في الباطن، إذ لولا وارد ما كان ورد، وهو الذي أبانه بقوله:

246 - (مَا كَانَ ظَاهِرٌ ذِكْرٍ، إِلَّا عَنْ بَاطِنٍ شُهُودٍ وَفِكْرٍ)

قلت: إذا كان الظاهر مشتغلاً بذكر الله فهو علامة وجود محبة الله في الباطن، إذ من أحب شيئاً أكثر من ذكره، ولا تكون المحبة إلا عن ذوق ومعرفة، فلا يكون ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود أي شهود كان، وإن كان لا يشعر بشهوده، فما ذكرت الروح حتى فنيت، ولا فنيت حتى شهدت، فكل من فني في ذكر الله، فإن روحه شهدت جمال الحضرة، أو تفكرت في جمال المذكور وبهائه، أو في حسن ثوابه وجزاته.

فتحصل أن وجود الذكر في الظاهر ناشيء إما عن شهود في الباطن، وهو حال المريدين أو العارفين، أو ناشيء عن فكرة وهو حال الطالبين للجزاء. فإن الناس في الذكر على ثلاثة أقسام: قسم يطلبون الأجور، وقسم يطلبون الحضور، وقسم وصلوا ورفعوا الستور.

[الشهادة في الظاهر فرع الإشهاد في عالم الذر]

ثم بيّن وجه كون ذكر الظاهر ناشئاً عن شهود الباطن، فقال:

247 - (أَشْهَدُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْتَشْهِدَكَ فَنَطَقْتُ بِالْهَيْبَةِ الظَّوَاهِرُ، وَتَحَقَّقْتُ بِأَحْدِيثِهِ

الْقُلُوبُ وَالسَّرَائِرُ)

قلت: الروح في أصل ظهورها في غاية الطهارة والصفاء، فحين أبرزها الله تعالى في عالم الذر كانت عالمة درّاسة، فأشهدها الله تعالى عظمته وجلاله وبهاءه وكمال وحدانيته، فقال لها حينئذ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: الآية 172] فكلها أقرت بالربوبية، فلما ركبتها في هذا القلب، فمنها من أقرت بذلك العهد، ومنها من جهلت وأنكرت، فقد أشهدك الحق تعالى حين كنت في عالم الأرواح ربوبيته ووحدانيته، فعلمتها وحققتها من قبل أن يستشهدك، أي يطلب منك تلك الشهادة، فحين طلبها منك وجد روحك عالمة، فنطقت بالهَيْبَةِ التي عرفتها في عالم الذر ألسنة الظواهر، وتحققت بأحديته التي شهدتها قبل التركيب للقلوب والسرائر، فكل ما ظهر من الإقرار بالربوبية في عالم الشهادة، فهو فرع الإشهاد المتقدم في عالم الغيب، وكل ما ظهر من التحقق بالأحادية للقلوب، فهو فرع العلم السابق في علم الغيوب، فالواجب على العبد أن يكون جامعاً بين إقرار الظاهر وتوحيد الباطن، فالأول فرق والثاني جمع، وإلى هذا المعنى أشار الجنيد رضي الله عنه بقوله:

قد تحققت بسري حين ناجاك لساني فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان
إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ عياني فلقد صيرك الوجد من الأحشاء داني

[كرامات الذكر]

ثم بيّن كرامات الذكر المتقدم فقال:

248 - (اَكْرَمَكَ بِكَرَامَاتٍ ثَلَاثٍ: جَعَلَكَ ذَاكِرًا لَهُ وَلَوْلَا فَضْلُهُ لَمْ تَكُنْ أَهْلًا

لِجَرِيَانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ، وَجَعَلَكَ مَذْكُورًا بِهِ إِذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْكَ، وَجَعَلَكَ مَذْكُورًا حِنْدَهُ فَتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ)

قلت: لقد أكرمك الحق تعالى أيها الإنسان كرامات كثيرة وأنعم عليك نعماً غزيرة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَمُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: الآية 34] وأجل

الكرامات وأعظمها كرامات الذكر. وفي الحديث: «ما من يوم إلا والله فيه نعم ينعم الله بها على عباده وما أنعم الله على عبد أفضل من أن يلهمه ذكره»⁽¹⁾، أو كما قال عليه السلام. ذكره المنذري⁽²⁾.

ومرجع هذه الكرامات إلى ثلاثة أمور:

الكرامة الأولى: جعلك ذاكراً له، ومن أين لعبد ذليل أن يذكر سيدياً جليلاً؟ ولولا فضله عليك لم تكن أهلاً لجريان ذكره على لسانك.

الكرامة الثانية: جعلك مذكوراً به حيث ذكرك بنفسه حين ذكرته، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: الآية 152] وإذا كنت مذكوراً بسبب ذكره لك فقد ثبتت خصوصيتك عنده، فأى كرامة أعظم من هذه، فقد حقق نسبته لديك حيث أثبت لك الخصوصية، وقال لك: يا وليي ويا صفيي، فمن أين أنت وهذه النسبة لولا أن الله تفضل عليك.

قال بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: الآية 45] أي ولذكر الله لعبد أكبر من ذكر العبد لله.

الكرامة الثالثة: حيث جعلك مذكوراً عنده في الملائكة المقربين. ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه، وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، وإن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»⁽³⁾ انتهى.

وفي حديث آخر: «ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله فيه إلا غشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»⁽⁴⁾.

(1) رواه الطبراني في الدعاء، باب ما جاء في فضل ذكر الله تعالى، حديث رقم (1857) [520/1]

ونصه: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم ولا ليلة إلا الله عز وجل من يمن به على عباده وصدقة وما تم الله على أحد من عباده أفضل من أن يلهمه ذكره». ورواه غيره.

(2) في الترغيب والترهيب، كتاب النوافل، الترغيب في المحافظة على ثلثي عشرة ركعة من السنة في اليوم والليلة، حديث رقم (1006) [266/1].

(3) هذا الحديث سبق تخريججه.

(4) رواه البخاري في صحيحه، باب مناقب علي بن أبي طالب... حديث رقم (3498) [1357/3].

وابن حبان في صحيحه، ذكر فتح الله جل وهلا خير على يدي علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حديث رقم (6932) [377/15] ورواه غيرهما. ورواه الحاكم في المستدرک بلفظ: «يا علي لأن

يهدي الله على يديك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس (264) ذكر أبي رافع مولى رسول الله ﷺ رضي الله عنه) حديث رقم (6537) [690/3] ورواه الطبراني في المعجم الكبير، عن أبي رافع،

حديث رقم (994) [332/1] ورواه غيرهما.

وكان يحيى بن معاذ رضي الله عنه ينول: يا غفول، يا جهول، لو سمعت صرير القلم حين يجري في اللوح المحفوظ بذكرك لَمُتَّ طرباً.

[الذكر وإطالة العمر]

فإذا عمرت أوقاتك بذكر الله فعمرك طويل، وإن قلت أيامه كما أبان ذلك بقوله:
249 - (رُبُّ هُمْرٍ اتَّسَعَتْ آمَادُهُ، وَقَلَّتْ أُمْدَادُهُ. وَرُبُّ هُمْرٍ قَلِيلَةٌ آمَادُهُ، كَثِيرَةٌ أُمْدَادُهُ)

قلت: رب هنا للتكثير في الموضوعين، فكثير من الأعمار اتسعت آماده جمع أمد، وهو الزمان، أي كثير من الناس طالت أعمارهم، واتسعت أزمتهم، وقلَّت أمدادهم أي فوائدهم، فلم يحصلوا على شيء حيث اشتغلوا بالبطالة والتقصير حتى مضت تلك الأيام كطيف المنام وأضغاث أحلام، وكثير من الأعمار قلت آمادهم، أي أزمتهم وكثرت أمدادهم أي فوائدهم فأدركوا من فوائد العلم والأعمال والمعارف والأسرار في زمن قليل ما لم يدركه غيرهم في الزمن الكثير.

ومثال ذلك أهل الجذب مع السلوك وأهل السلوك وحده، فإن أهل الجذب الموافقين للسالكين في الأعمال يطوون في ساعة واحدة من مسافة القرب ما لم يدركه أهل السلوك في سنين، وذلك أهل الفكرة مع أهل الخدمة، فكرة ساعة خير من عبادة سبعين سنة، وفي ذلك قال الشاعر⁽¹⁾:

كسَلٌ وَقِيَتْ مِنْ حَسْبِي قَدْرُهُ كَأَلْفِ حَجَّةٍ

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: أوقاتنا كلها ليلة القدر. أي كل وقت عندنا أفضل من ألف شهر عند غيرنا. قال القاضي أبو بكر بن العربي المعافري تلميذ الغزالي: لمت الشيخ أبا حامد على انقطاعه واعتزاله عن الخلق وقطع انتفاعهم بما وهبه الله له من العلم الظاهر والباطن. فقال متمثلاً:

قَدْ تَيْمَمْتُ بِالصَّعِيدِ زَمَاناً وَأَنَا الْآنَ قَدْ ظَفَرْتُ بِالْمَاءِ

مَنْ سَرَى مَطْبِقَ الْجَفُونِ وَأُضْحَى فَاتَسْحاً لَا يَرُدُّهَا لِلْعَمَاءِ

أي من كان يمشي مسدود العينين، وأضحى، أي صار، فاتحاً لعينه لا يرجع

للعماء.

(1) هو الشيخ أبو الحسن الششتري هذا وقد سبق ذكره.

وقال في القوت⁽¹⁾: فإن البركة في العمر أن تدرك في عمرك القصير بيقظتك ما فات غيرك في عمره الطويل بغفلته، فيرتفع لك في السنة ما يرتفع له في عشرين سنة، وللخصوص من المقربين في مقامات القرب عند التجلي بصفات الرب إلحاق برفع الدرجات وتدارك لما فات عند أذكاهم وأعمال قلوبهم اليسيرة في هذه الأوقات.

[إدراك الأسرار الربانية بالزمن اليسير]

فالبركة في العمر هي إدراك الإمداد العظيمة في الآماد القليلة كما تقدم وكما بيته بقوله:

250 - (مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي عُمُرِهِ أَدْرَكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ الزَّمَنِ مِنْ مِثْلِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ دَوَائِرِ الْعِبَارَةِ، وَلَا تَلَحُّهُ الْإِشَارَةُ)

قلت: ليست البركة في العمر بكثرة أيامه وطول أزمانيه، وإنما البركة في العمر أن تصحبه العناية وتهب عليه ريح الهداية، فيدرك في يسير من الزمان من منن الله تعالى، أي من علومه ومعارفه وأسراره ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، لأن ما أدركه أوسع من ضيق العبارة، إذ قال تعالى⁽²⁾: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»⁽³⁾. فقد يدرك العارف من دقائق الأسرار ما تعجز عنه عبارة اللسان كل ذلك في أقل زمان. وغالب هذا يحصل من ملاقات الرجال وصحبتهم، فإن المدد الذي يحصل للإنسان في ساعة واحدة معهم لا يحصل في أزمنة طويلة مع غيرهم ولو كثرت صلاتهم وصيامهم، إذ ليست العبارة بكثرة الأوراد إنما العبارة بكثرة الإمداد: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أحوالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»⁽⁴⁾. ذكره⁽⁴⁾ في الجامع⁽⁴⁾.

والذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، والعمل مع المعرفة ليس كالعمل مع الجهل، وذلك معلوم.

قال الشيخ الحضرمي في بعض وصاياه: من كان يستمد من محبرة الجمع [مقام الفناء بالذات] فهو يكتب ما يكون وما لا يكون.

(1) كذب قوت القلوب للشيخ أبي طالب المكي وقد سبقت الإشارة إليه.

(2) من: أي من كتاب قوت القلوب للشيخ أبي طالب المكي رحمه الله تعالى.

(3) هذا الحديث سبق تخريجه.

(4) يفسد الطبراني في الجامع الصغير أو الكبير أو المتوسط. والحديث رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم ظلم المسلم وخذله...، حديث رقم (2564) (4/1946) ونصه: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». والحديث رواه غير مسلم أيضاً.

[الخدلان]

وسبب البركة في العمر هو التفرغ من الشواغل والشواغب، فمن كثرت شواغله وشواغبه لا بركة له في عمره، لأنه منع من تصريفه في طاعة مولاه بمتابعة شهواته وتحصيل مناه. ومن تفرغ من الشواغل ولم يقبل على مولاه فهو مخذول مصروف عن طريق استقامته وهداه كما أبان ذلك بقوله:

251 - (الخدلان كل الخدلان أن تفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه، وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه)

قلت: إذا قلت شواغلك في الظاهر وعوائقك في الباطن، ثم لم تتوجه إليه في ظاهرك، ولم ترحل إليه في باطنك، فهو علامة غاية الخدلان الكبير، لأن جل الناس ما حبسهم عن التوجه إلى الله إلا كثرة أشغالهم الحسية، فاشتغلت جوارحهم بخدمة الدنيا في الليالي والأيام والشهور والأعوام حتى انقرض العمر كله في البطالة والتقصير. فهذا هو الخدلان الكبير.

ومن الناس من قلت شواغلهم الظاهرة لوجود من قام لهم بها لكن كثرت علائقهم في الباطن لكثرة ما تعلق بهم من الشواغب، فهم مغرقون في التدبير والاختيار والاهتمام بأمور من تعلق بهم من الأنام، لا سيما من كان له جاه ورياسة ونخطة أو سياسة، فهذا باعتبار العادة بعيد من الإقبال على مولاه إلا إن سبقت له سابقة عناية فتجره إلى رحمة ربه ورضاه.

والحاصل أن الخير كله في التخفيف من الشواغل والعلائق، فمن تفرغ منهما فهو قريب من الحضرة. وأما من كثرت شواغله وعوائقه فأمره بعيد، لأن فكرته مشغولة بالعلائق والمخاطف، فمهما هم بالسير جذبتهم المخاطف إليها وبقي مرهوناً معها، وهو الذي أشار إليه بقوله:

[الفكرة]

252 - (الفكرة سير القلب في ميادين الأغيار)

فمن لا تفرغ له لا فكرة له، ومن لا فكرة له لا سير له، ومن لا سير له لا وصول له. فالفكرة هي سير القلب إلى حضرة الرب، وذلك السير في ميادين الأغيار، أي في مجال شهود الأغيار ليستدل بها على وجود الأنوار، فهذه فكرة أهل الحجاب.

وفكرة أهل الشهود سير الروح في ميادين الأنوار أو سير السر في ميادين الأسرار. فتكلم الشيخ على بداية الفكرة ولم يتكلم على نهايتها، ولو تكلم عليهما معاً لكان أحسن كما فعل فيما يأتي حيث قال: الفكرة فكرتان إلخ.

وقال الشيخ [أحمد] زروق رضي الله عنه: الفكرة انبعاث القوة الإدراكية في عالم الغيب والشهادة ليدرك حقيقة الأشياء على ما هي عليه، ومن وجد ذلك فهو عارف. انتهى.

وقيل: إنما عبر الشيخ بالأغيار وهي المخلوقات لقوله عليه السلام وقد رأى قوماً يتفكرون فقال لهم: «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون الله حق قدره»⁽¹⁾ انتهى.

قلت: إنما نهى عليه السلام عن التفكير في كنه الذات وإدراك الحقيقة، وأما التفكير في عظمة الذات وقدمها وبقائها ووحدايتها وتجلياتها في ظهورها وبطونها فهذا لا ينهى عنه، لأنه سبب المعرفة مع العجز عن إدراك الكنه.

والتحقيق أن أهل الحجاب لا يحل لهم التفكير إلا في المصنوعات، وأما أهل العرفان فلا يتفكرون إلا في عظمة الذات أي في عظمة الصانع وتوحيده وقدمه وبقائه وظهوره واحتجابه، وفي الغيبة عن الحس وشهود المعنى، أو في الغيبة عن الكون بشهود المكوّن، أو في الغيبة عن الظلمة بشهود النور.

[سراج القلب]

وهو سراج القلب الذي أشار إليه بقوله:

253 - (الفكرة سراج القلب فإذا ذهبت فلا إضاءة له)

قلت: الفكرة في عظمة الباري وتوحيده نور، فإذا كان القلب مشغولاً بالفكرة في عظمة الحق فهو منور بنور الحق، وإذا خلا من الفكرة في الحق دخلته الفكرة في الأغيار، وهي ظلمة ولا تجتمع الظلمة والنور أبداً، فالفكرة سراج القلب، فإذا ذهبت الفكرة في الحق انطفأ نوره بدخول ظلمة الكون، فلا إضاءة له، ولذلك قال الجنيد رضي الله عنه: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الله في ميدان الفكرة على بساط التوحيد. انتهى.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: أربعة من حازهن فهو من الصديقين المقربين، ومن حاز منهن ثلاثة فهو من أولياء الله المقربين، ومن حاز منهن اثنين فهو من الشهداء المؤمنين، ومن حاز منهن واحدة فهو من عباد الله الصالحين.

أولها: الذكر، وبساطه العمل الصالح، وثمرته النور.

الثاني: الفكرة، وبساطه الصبر، وثمرته العلم.

الثالث: الفقر، وبساطه الشكر، وثمرته المزيد منه.

(1) رواه أبو الشيخ ابن حبان الأصبهاني في العظمة، باب الأمر بالتفكير في آيات الله عز وجل، حديث رقم (5) [9/1] وخرجه السيوطي في الدر المنثور، قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَهَكَ الْمُنْتَهَى﴾ [التجم: الآية 42] [662/7] ونص الرواية هو: «عن ابن عباس قال: مر النبي ﷺ على قوم يتفكرون في الله فقال: تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لن تقدرون قدره».

الرابع : الحب ، وبساطه بغض الدنيا وأهلها ، وثمرته الوصول إلى المحبوب .

[فكرة التصديق والإيمان وفكرة الشهود والعيان]

ثم بيّن فكرة البداية والنهاية ، فقال :

254 - (الفكرة سراج القلب ، فإذا ذهب فلا إضاءة له)

قلت : فكرة أهل التصديق والإيمان هي سير القلب في ميادين الأغيار ، فهم يتفكرون في المصنوعات ليتوصلوا إلى معرفة الصانع وقدرته وعلمه وحياته وغير ذلك من سائر صفاته وهم الذين قال الله فيهم : ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة : الآية 3] .

وفكرة أهل الشهود والعيان هي سير الروح في ميادين الأنوار ، قد انقلبت الأغيار في حقهم أنواراً ، والدلائل مدلولات ، والغيب شهادة ، وهم الذين أطلعهم الله على سر قوله تعالى : ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس : الآية 101] .

ثم بيّن حال الفريقين فقال :

254 - (فالأولى لأرباب الاختيار) .

قلت : الفكرة الأولى ، وهي فكرة تصديق وإيمان لأصحاب الاعتبار ، وهم أهل الاستدلال يستدلون بالصنعة على الصانع ، وهم السائرون إلى الله بأنوار التوجه .

254 - (والثانية لأرباب الشهود والاستبصار) .

قلت : الفكرة الثانية : وهي فكرة شهود وعيان لأرباب الشهود والاستبصار لأنهم ترقوا من شهود الدليل إلى المدلول ، ومن الأثر إلى المؤثر ، ومن الأغيار إلى شهود الأنوار ، ومن الفرق إلى الجمع ، ومن الملك إلى الملكوت ، فما يشهدون إلا أنوار الملكوت تدفقت وأنصبت من بحار الجبروت ، فهم غرقى في بحار الأنوار مطموس عنهم وجود الآثار ، فإن ردوا إليه رأوه قائماً بالله ومن الله وإلى الله ، فما أعظم قدرهم عند الله وفي مثلهم قال القائل :

هم الرجال وعُبن أن يقال لمن لم يتصف بمعاني وصفهم رجل

حققنا الله بما حققهم به أمين . هذا آخر الباب الخامس والعشرين وبها ختمت

الأبواب وما بقي إلا المراسلات والمناجاة .

[المراسلات]

[الكتاب الأول]

رسالة في السلوك إلى حضرة ملك الملوك

وحاصل المراسلات ثلاثة كتب، وجواب. فأول الكتب رسالة في السلوك إلى حضرة ملك الملوك، بدايتها ونهايتها، ونصّها:

[بداية السلوك إلى الله تعالى]

وقال رضي الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه:

(أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْبِدَايَاتِ، مَجْلَاةُ النِّهَايَاتِ)

قلت: البدايات: ما يظهر على المرید في أول دخوله [في الطريق] من مجاهدة ومكابدة وصدق وتصديق، وهو مظهر ومجلة للنهايات، أي يتجلى فيها ما يكون في النهايات، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، فمن رأينا جاداً في طلب الحق باذلاً نفسه وفلسه وروحه وعزه وجاهه ابتغاء الوصول إلى التحقق بالعبودية والقيام بوظائف الربوبية، علمنا إشراق نهايته بالوصول إلى محبوبه، وإذا رأينا مقصراً في ذلك علمنا قصوره عما هنالك. وأنشدوا⁽¹⁾:

بقدر الكد تكتسب المعالي ومن طلب العلاء سهر الليالي
تريد المرء ثم تنام ليلاً يغوص البحر من طلب اللئالي

[إشراقات النهايات بإشراق البدايات]

وبالجملة، من رأيت صادق العزم في البداية فاعلم أنه من أهل العناية، ومن كان في سلوكه معتمداً على الله ومفوضاً أمره إلى الله كانت غاية سلوكه الوصول إلى الله كما نبه عليه بقوله:

(وَإِنْ مَنْ كَانَتْ بِاللَّهِ بَدَايَتُهُ، كَانَتْ إِلَيْهِ نَهَايَتُهُ)

قلت: البداية بالله هي أن لا يرى لنفسه حولاً ولا قوة لا في عمل ولا في حال ولا في مجاهدة ولا في مكابدة، بل ما يبرز منها من الأعمال أو من الأحوال، رآه منته من الله وهدية إليه، فإن كان هكذا فقد صحت بالله بدايته وإليه تكون نهايته، ومما يتأكد النظر إليه في البداية تصحيح ما يفتقر إليه في سلوكه من علم الشريعة وعلم الطريقة، فالعمل بلا علم جنائية، والعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية.

(1) المنشد هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي [ديوان الشافعي 1/ 90].

[المشتغل بالله تعالى والمشتغل عنه]

فإذا حصل المرید ما یحتاج إلیه فی بدايته من إنقار طهارته وصلاته وصومه ، فلیشتغل بطاعة ربه ویعرض عما یشغله عنه ، كما أبان ذلك بقوله :

(وَالْمُشْتَغَلُ بِهِ هُوَ الَّذِي أَحْبَبْتَهُ وَسَارَعْتَ إِلَيْهِ، وَالْمُشْتَغَلُ عَنْهُ هُوَ الْمُؤَثَّرُ عَلَيْهِ)

قلت : ال موصولة فی الموضعین ، أي الذي تشتغل به فی جميع أوقاتك وتصرف إلیه کلیتک هو الحبيب الذي تسارع إلیه ، وأفضل أشغالك ذكره ، وليكن ذكراً واحداً وقصداً واحداً تبلغ مرادك إن شاء الله ، والذي تشتغل عنه ، أي تغيب عنه ، هو المؤثر علیه بفتح الثاء ، أي هو الذي تركته وآثرت حب الله علیه .

والحاصل أن الذي تشتغل به وتقصده هو الذي أحببته وسارعت إلیه ، والذي تغيب عنه هو الذي تركته وآثرت حب الله علیه ، فلا جرم أن الله یبلغك ما ترید إن الله یرزق العبد علی قدر همته .

وأعظم ما یشغل عنه المرید ویغيب عنه حب الدنيا ، فإنه سم قاطع ، ولا يمكن السير إلی الله بصفاء القلوب مع بقاء شيء منها ، وقليلها کثیرها .
وأنشدوا^(١) :

لا تحقرن ضعيفاً عند رؤيته إن البعوضة تدمي مقلّة الأسد
وللشرارة حقر حين تنظرها وربما أضرمت ناراً على بلد

[صدق الطلب إلى الله تعالى]

ثم هذا الذي تشتغل به وتسارع إلیه هو أيضاً يطلبك ويسارع إلیك ، وإن تقربت إلیه شبراً تقرب إلیك ذراعاً ، كما أبان ذلك بقوله :

(وَإِنْ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ اللَّهَ يَطْلُبُهُ صَدَقَ الطَّلَبُ إِلَيْهِ)

قلت : اليقين : هو سكون القلب وطمانينته بحيث لم يبق فيه اضطراب ولا ريب في جميع الأمور ، وطلب الله لعبده من وجوه ، منها أنه يطلبه بالقيام بحقوق العبودية ووظائف الربوبية ، ومنها أنه يطلبه بالتوجه إلیه والفرار مما سواه ، ويطلبه بالعكوف في حضرته على بساط الأدب والمحبة .

[التوكل على الله تعالى]

فمن أيقن أن الله يطلبه بهذه الوجوه صدق الطلب إلیه ، وصدق الطلب : هو أفراد القلب والقالب لجهة المطلوب بحيث لم يبق له التفات لغيره ، فلم يشق إلا به ولا يعتمد إلا علیه كما أشار إلی ذلك بقوله :

(وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ الْأُمُورَ بِيَدِ اللَّهِ انْجَمَعَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ)

(١) لم أقف على اسم المنشد .

قلت: قال تعالى: ﴿وَأَلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: الآية 123] فاعبده وتوكل عليه، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: الآية 154] فمن علم أن الأمور كلها بيد الله، أمر الدنيا وأمر الآخرة والنفوس والقلوب، لم يبق له نظر إلى سواه، وانجمع بكليته عليه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: الآية 3] أي كافيته، ومن كان الله كافيته ماذا يفوته.

حكى عن بعض المشايخ أنه دخل بركة الحجاز مع أصحابه بغير زاد، فلما طالت عليهم المدة وأجهدهم الجوع انحرف الشيخ عن الطريق وهز شجرة فأسقطت رطباً جنياً فاكلوا منها إلا شاباً، فقال له الشيخ: لِمَ لَمْ تَأْكُلْ، قال: إني نويت التوكل على الله ورفضت الأسباب جملة، فكيف أجعلك عندي بمنزلة السبب حتى تكون النفس متشوفة لما علمت منك؟ ثم لم يصحبهم تصحيحاً ليقينه وإتماماً لعقده.

[رفض الدنيا وأهلها]

ومما يعين على تحقيق اليقين وصدق التوكل رفض الدنيا وأهلها، وإليه أشار بقوله:

(وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِنَاءِ هَذَا الْوُجُودِ أَنْ تَنْهَدِمَ دَعَائِمُهُ، وَأَنْ تُسَلَّبَ كَرَامِيَتُهُ)

قلت: قد حكم الله على هذا الوجود الظاهر أن يصير باطناً، فلا بد أن تنهدم دعائمه، وهي ما يستقل به وجوده في العادة، وهي هنا استعارة عن هدم وجوده وتبديله في خلق آخر. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: الآية 48]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصاص: الآية 88] على تأويل أهل الظاهر.

ولا بد أيضاً أن تسلب كرامته، والمراد زوال بهجته وجماله، وهي زينة الدنيا التي ذكرها الله بقوله: ﴿زِينَةَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران: الآية 14] فمن تيقن بفناء هذا الوجود وزوال هذا العرض الفاني جعل الدنيا محلاً للعبور يعبر منها إلى دار البقاء، فيصبر على شدتها ولأوائها حتى تنقضي عنه أيام الدنيا.

[العاقل]

فهذا هو العاقل الذي ذكره بقوله:

(فَالْعَاقِلُ مَنْ كَانَ بِمَا هُوَ أَبْقَى، أَفْرَحَ بِئِنَّهُ بِمَا هُوَ يَفْنَى)

قلت: لأن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والتزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور، كما قال عليه السلام⁽¹⁾. فالعاقل هو الذي يميز بين الحق والباطل والنافع والضار والحسن والقيح، وكل ما يفنى وإن طال فهو قبيح،

(1) ونص الحديث كما رواه الحاكم في المستدرک، كتاب الرقاق، رقم (7863) [4/346] هو: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ فَمَنْ يُرِدْ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرُهُ =

وكل ما يبقى وإن غاب فهو مليح . قال بعضهم : يا عجباً للمطمئن للدنيا والراكن إليها
والحريص عليها وهو يرى سرعة زوالها وكثرة قلبها بأهلها ومفاجأة نوائبها . وأنشدوا⁽¹⁾ :
أين الملوك وأبناء الملوك ومن كانوا إذا الناس قاموا هيبته جلسوا
كأنهم قط ما كانوا ولا خلقوا ومات ذكرهم بين الوري ونسوا
حفظوا الملابس لما ألبسوا خللاً من التراب على أجسادهم وكسوا

[من تشرق عليه الأنوار]

ثم من فرح بالباقي وأعرض عن الفاني تشرق عليه الأنوار وتلوح له الأسرار، كما
أبان ذلك بقوله :

(قَدْ أَشْرَقَ نورهُ، وَظَهَرَتْ تَبَاشِيرُهُ)

قلت : قد أشرق نوره بحلاوة الزهد في الدنيا والإقبال على المولى لأن حب
الدنيا ظلمة، فإذا خرج من القلب دخله النور، وهو حلاوة الزهد وراحة القناعة وبرد
الرضى ونسيم التسليم، وظهرت تباشيره، أي مبشرات تبشره بالإقبال وروح الوصال
وجنة المعارف والجمال . وأنشدوا⁽¹⁾ :

إذا هبت علينا من جَمَاكُم نسيما تذكّرنا الوصالا
مبشرة بإقبال وسعد وعزٍ دائم دهرأ طويلا
مبلغاً شذا تلك المعاني مذكرة ربّاهَا⁽²⁾ والظُلُولَا⁽²⁾
فذلك خيرٌ وقتٍ بالمُعَنَى وأحسنُ ما تعاطى السُّلُوبَا

[الإعراض عن الدنيا]

فحين أشرق نوره وظهرت تباشيره أعرض عن الدنيا بالكلية، كما أبان ذلك
بقوله :

(فَصَدَفَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ مُغْضِيًا، وَأَعْرَضَ عَنْهَا مُؤَلِّيًا)

قلت : الصدوف هو الإعراض والتولي، أي فأعرض هذا السائر إلى الله عن الدنيا
بحذافيرها مغضياً بصره، أي مغمضاً عيني بصيرته عن النظر إلى زهرة هذه الدار

لِلْإِسْلَامِ ﴿ [الأنعام : الآية 125] فقال رسول الله ﷺ : «إن النور إذا دخل الصدر انفسح، فقيل : يا
رسول الله هل لذلك من علم يعرف قال : نعم، التجافي عن دار الفرور والإنابة إلى دار الخلود
والاستعداد للموت قبل نزوله» .

(1) لم أقف على اسم هذا المنشد .

(2) الظُّلُّ : ما شخص من آثار الدار، والجمع أطلال وطلول . والربوة أرض مرتفعة والجمع الربى .
(الصحاح في اللغة للجوهري والعين للفراهيدي) .

وبهجتها ممثلاً في ذلك قول المولى لرسوله المصطفى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾ [طه: الآية 131] أي أصنافاً من الكفار ﴿زَهْرَةَ أَحْيَوةِ الدُّنْيَا لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: 131]، وأعرض عن هذا قلباً وقالوا مولياً ظهره عنها مقبلاً بوجهه إلى المولى.

قال الشطبي: واعلم أن الإعراض عن الدنيا إنما هو بالقلب، ومتى كان القلب معلقاً بها لم ينفع زوالها من اليد ولا قطع أسبابها، بل المطلوب زوالها من القلب سواء كانت في اليد أو لم تكن. قال تعالى لمن أعطاه ملك الأرض بحذافيرها، [وهر] سليمان عليه السلام: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْنِك بِمَقَرِّ حَيْثُ أَنْتَ﴾ [ص: الآية 39] وقال فيه أيضاً: ﴿يَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: الآية 30] وقال تعالى لمن نزعها منه بحذافيرها سيدنا أيوب عليه السلام: ﴿وَوَيْبْنَا لَهُ دَأْوَهُمْ وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْ عِبَادِهِ مُنْجِبِينَ﴾ [ص: الآية 43]. ثم قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا يَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: الآية 44] لكن من علامة حب الآخرة ترك الدنيا، وعلامة تركها أن لا يفرح بالموحود منها، ولا يتأسف على ما فاته منها، ولا يمكن ذلك إلا بترك الانتصار للنفس ومخالفتها. وأنشدوا:

يا نفس في التقريب كل مذلة فتجرعي ذل الهوى بهوان
وإذا حللت بدار قوم دارهم فلهم عليك تعزز الأوطان
ومثل الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه عن الدنيا، فقال:
أخرجها من قلبك واجعلها في يدك فإنها لا تضرك.

[الدنيا ممر وليست مستقر]

ثُمَّ إِنَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا لَا وَطْنَ لَهُ فِيهَا، وَإِنَّمَا وَطْنُهُ عِنْدَ مَوْلَاهُ، كَمَا بَيَّنَّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

قَلِمٌ يَتَّخِذُهَا وَطْناً، وَلَا جَعَلَهَا سَكْناً

قلت: لأن من توطن الشيء فقد قام فيه والساثر لا مقام له إلا عند مولاه. وكان سيدنا عيسى عليه السلام يقول في شأن الدنيا: «اعبروها ولا تعمروها»⁽¹⁾. وقال عليه السلام: «ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب سافر في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ثم راح عنها وتركها»⁽²⁾.

[إنهاض الهمة إلى الله تعالى]

فليست الدنيا دار إقامة ولا سكناً وإنما هي قنطرة من هنا إلى هنا. فالعارف لا

(1) أورده أبو الفرج البغدادي في جامع العلوم والحكم [380 / 1].

(2) رواه أبو يعلى في مسنده، تابع مسند عبد الله بن مسعود، حديث رقم (5229) [148 / 9] وأحمد في المسند، عن عبد الله بن عباس، حديث رقم (2744) [301 / 1] وروى نحوه غيرهما.

يكون مع غير الله قراره لأن همته كلها عند الله، كما قال:

(بَلْ أَنهَضْ أَلِهْمَةَ فِيهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَصَارَ فِيهَا مُسْتَعِينًا بِهِ فِي الْقُدُومِ

عَلَيْهِ)

قلت: النهوض: هو القيام كأن السائر إلى الله أنهض همته وأقامها من هذا العالم يريد بها دخول عالم الملكوت. وإنهاض الهمة يكون بامتنال أمره والاستسلام لقهره والاستعانة به على سفره. وهو معنى قوله: وصار فيها مستعيناً به في القدوم عليه، والقدوم على الله هو الوصول إلى معرفته وتحقيق العلم به، ولا يصح ذلك إلا بالتبري من الحول والقوة، ومن ظن أن اجتهاده يوصله لمرغوبه فقد جهل، ومن صح اعتماده على الله وصل. ثم بين السر فقال:

(فَمَا زَالَتْ مَوَاطِيئُهُ عَزِيمِهِ لَا يَقِرُّ قَرَارُهَا)

قلت: الماطية: في اللغة هي المركوب، واستعيرت هنا للعزم القوي، أي فما زال عزمه قوياً وروحه شائقة لا يقرب قرارها، أي لا يسكن قرارها في موطن دون سيدها لأن الشوق أفلقها، وخوف فوات اللحوق أزعجها، فهي في السير على الدوام كما قال:

(دَائِمًا تَسْبَارُهَا)

قلت: إنما دام سيرها لثقل عوائقها، لأنها لما عرضت عن الدنيا مولية عنها قلت عوائقها لأن الدنيا شبكة العوائق وأصل العلائق، وكل من قطع عروقها من قلبه ذهب عنه العلائق كالشيطان الذي هو أبوها، فلما طلق له بنته تركه. وكالنفس لأن قوامها الدنيا فلما ذهب ماتت، وكالناس لأن الدنيا جيفة والناس كلابها فلما تركت لهم جيفتهم سلمت منهم، فدام سيرها إلى أن وصلت إلى أصل وطنها، وهي الحضرة كما بينه بقوله:

[الإناخة بحضرة القدس]

(إِلَى أَنْ أَنَاخَتْ بِحَضْرَةِ الْقُدْسِ، وَبَسَاطِ الْأَنْسِ)

قلت: الإناخة: هي النزول وحط الحمول، ولما وصلت الروح إلى مشاهدة الأحباب وفتح لها الباب، أزال ما كان عليها من الأثقال، وجلست على بساط النزاهة والكمال، وهي حضرة القدس أي التنزيه التي هي دائرة الولاية المقتضية للعباد تحنقه بتقدیس مولاہ عن كل وصف لا يليق بذاته، حتى عرف أنه أجل من أن يعرف وأعظم من أن يوصف فيقول: لا أحصي ثناء عليك، فيفرق في التعظيم ويتمكن في التقديس، فينعكس تقديسه عليه بحيث يحفظه مولاہ، فلا يعصيه بل يكون مقدساً بتقدیس الحق إياه، إذ قدس مولاہ، فقدسه مولاہ كل على ما يليق بوصفه، ومن هذا التقديس ينسى كل شيء بمولاہ فيأنس به دون ما سواه في عين إجلاله والهيبة منه تعظيماً لا فرقاً، أو تذلاً في عين الإذلال فافهم. قاله الشيخ زروق رضي الله عنه.

[أسرار الحضرة]

وبساط الأنس هو محل الفرحة بقرب الحبيب ومناجاة القريب ليغيب عن كل شيء ويتأنس به في كل شيء. ثم بين أسرار الحضرة، وهي ست، فقال:

(مَحَلُّ الْمَفَاتِحِ وَالْمُوجِهَةِ، وَالْمُجَالَسَةِ وَالْمُحَادَثَةِ، وَالْمُشَاهَدَةِ وَالْمُطَالَعَةِ)

قلت: أما المفاتيح، فهي مفاتيح علم الغيوب، فأنت تفتحه بطلب العطاء وهو يفتحك بكشف الغطاء، أنت تفتحه بطلب الزيادة وهو يفتحك بتوالي الإفادة، أنت تفتحه بالترقي في المقامات وهو يفتحك بأسرار العلوم والمكاشفات.

وأما المواجهة، فهي مواجهة أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، فأنت تواجهه بأنوار التوجه وهو يواجهك بأنوار المواجهة، وهي كشف الحجاب وفتح الباب، أنت تواجهه بالطاعة وهو يواجهك بالمحبة، وأنت تواجهه بالإقبال وهو يواجهك بالوصول، أنت تواجهه باستكشاف أنوار الملكوت وهو يواجهك بكشف أسرار الجبروت.

وأما المجالسة، فهي مجالسة الأدب والهيبة، فأنت تجالسه بالأدب والحياء وهو يجالسك بالتقريب والاجتباء، أنت تجالسه بمراقبته وهو يجالسك بحفظه ورعايته، أنت تجالسه بذكره وهو يجالسك بيره، أنا جليس من ذكرني، كما في الحديث⁽¹⁾.

وأما المحادثة، فهي المكالمة القلبية، وهي الفكرة والجولان في عظمة الجبروت، فأنت تحادثه في سره بمناجاته وسؤاله وهو يحادثك بمزيد إحسانه ونواله، أنت تحادثه بدوام حضوره في سره ولبك وهو يحادثك بإلقاء العلوم والأسرار والحكم في قلبك، أنت تحادثه في عالم الشهادة وهو يحادثك في عالم الغيب، وفي التحقيق ما ثمّ إلا عالم الغيب ظهر في عالم الشهادة. وفي هذا المعنى قال الجنيد: لي أربعون سنة وأنا نحدث الحق والناس يرون أنا نحدث الخلق. وقالت رابعة العدوية رضي الله عنها:

ولقد جعلتُك في الفؤادِ محدثي وأبحثُ جسمي مَنْ أرادَ جلوسي
فالجسمُ مني للجليسِ مؤانسٌ وحبیبٌ قلبي في الفؤادِ أنيسي

وأما المشاهدة، فهي كشف حجاب الحس عن نور القدس، أو تقول: كشف رداء الصون عن الكون. فأنت تشاهد ذاته في عالم ملكوته وهو يشاهدك في عالم ملكه، أنت تشاهد ربوبيته وهو يشاهد عبوديتك.

والحاصل: أن المشاهدة من العبد هي شهود العظمة بالمعظمة كما قال شيخنا رضي الله عنه: ومشاهدة الرب للعبد هي إحاطة علمه بأحواله وأسواره.

وأما المطالعة، فهي مطالعة أسرار الملك والملكوت والجبروت وأسرار القدر،

(1) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث.

فأنت تطالعه بالتوجه إليه وهو يطالعك بالترقي إليه، أنت تطالع موقع قضائه وقدره فتلقاها بالقبول والرضى، وهو يطالع أحوالك وسرائرك فيكشف عنك الحجب ويوسع عليك الفضاء، أنت تطالعه بالتقرب والإقبال وهو يطالعك بالمحبة والوصال فيتلقاك بالإقبال والوصال. وهذه الأسرار لا يذوقها إلا أهل الأذواق، فكل واحد يذوق منها على قدر شربه ووجدته، والله تعالى أعلم.

[الحضرة معشش قلوب أوليائه]

فإن سكنت الروح في هذه المراتب صارت الحضرة مأواها ومشاها، كما بين ذلك بقوله:

(فَصَارَتْ الْحَضْرَةُ مُعَشِّشَ قُلُوبِهِمْ، إِلَيْهَا يَاوُونَ، وَفِيهَا يَسْكُنُونَ)

قلت: عش الطير وكره الذي ياوي إليه، فكان أرواح العارفين طيور الحضرة تطير في الملكوت، وتسرح في الجبروت، ثم تأوي إلى عش العبودية في الظاهر وعش الشهود في الباطن. فالحضرة التي هي معشش قلوب العارفين هي حضرة الذات إليها ياوون، أي يرجعون بعد الطيران إلى فضاء الملكوت وأسرار الجبروت، وفيها يسكنون لا يخرجون منها أبداً، كما قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الجبر: الآية 48] ومحلها في أعلى عليين وهو عرش قلوب العارفين:

[النزول إلى أرض العبودية]

(فَإِذَا نَزَلُوا إِلَى سَمَاءِ الْحَقُوقِ، أَوْ أَرْضِ الْحُظُوظِ، فَبِالْإِذْنِ وَالْتَّمَكِينِ، وَالرُّسُوحِ فِي الْبَقِيْنِ)

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: التوحيد عرش والشريعة المطهرة كرسي ذلك العرش، والحقوق المفضلة فيها سماؤها، والحظوظ النفسانية أرضها، فكل حقيقة لا تصحبها شريعة لا عبرة بصاحبها، وكل شريعة لا تعضدها حقيقة لا كمال لها. انتهى.

قلت: النزول هنا مجاز، كأن الحرية عرش والعبودية سماء أو أرض، أو تقول: الحقيقة عرش والشريعة أرض، فما دامت الروح في بحر الوحدة كأنها في عرش الرحمن، فإن نزلت إلى العبودية كأنها نزلت إلى السماء أو الأرض.

وظاهر كلام الشيخ ومن تبعه من الشراح أن النزول إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ خروج عن الحضرة وليس كذلك، إذ من كان عمله بالله وتصرفاته كلها بالله لا خروج له عن الحضرة، وإنما النزول في حقه بالقلب فقط دون القلب، فالقلب لا يخرج من عشه أبداً بعد أن تمكن منه، فكل من بلغ أن يكون علمه بالله ومن الله وإلى الله، لا يكون تنزله للشريعة خروجاً عن الحضرة، لا سيما الصلاة التي هي معدن المصافاة، فيها تتسع ميادين الأسرار، وتشرق فيها شوارق الأنوار، اللهم إلا أن يحمل

النزول في كلامه على أنه بالقلب دون القلب كما تقدم، وبدل على هذا قوله فيما يأتي:
بل دخلوا في ذلك بالله إلخ.

قلت: إن العارفين اتفقوا أن العمل بالله أفضل من العمل لله، لأن العمل بالله مشاهدة والعمل لله مراقبة، ومقام المشاهدة أعلى من مقام المراقبة، فالصلاة مع المشاهدة أفضل من الصلاة مع المراقبة، وما ألزمه الخواص غير لازم.

نال في التسهيل: وإذا كانت العلوم منجاً إلهية ومواهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يدخر لكثير من المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين. ونزولهم إلى سماء الحقوق أو أرض الحفظ إنما يكون بالإذن والتمكين، أما الإذن في نزولهم إلى الحقوق بإذن شرعي، إذ حقوق الشريعة كلها موقته، والتمكين فيها هو سهولتها، والتمكين منها بحيث لا يعارضه عارض يمنع منها شرعاً أو طبعاً، وأما الإذن في نزولهم إلى أرض الحفظ فبالإلهام والإعلام، بحيث ينأى في الأمر حتى يفهم أنه مراد الحق تعالى، وقد كان شيخ المشايخ الجيلاني رضي الله عنه في حال سياحته لا يأكل حتى يقال له: بحقي عليك إلا ما أكلت.

قلت: وكل من كان عنده الفهم عن الله لا يتصرف إلا بالإذن من الله، وبعض من طبع الله على قلبه من جلامدة⁽¹⁾ الفقهاء ينكر هذا، وهو معذور في بلاد الضعف إذ من جهل شيئاً عاداه. والمراد بالتمكين هو صحة الفهم عن الله حتى لا يبقى له تزلزل إنه مراد الحق بحيث لم ير له معارض شرعي ولا عادي، وكذلك الرسوخ في اليقين هو الثبوت في المعرفة في حال إرادة الفعل.

[أدب النزول إلى أرض العبودية]

ثم ذكر مفهوم قوله بالإذن والتمكين، فقال:

(كَلَّمْ يَنْزِلُوا إِلَى الْحَقِّ بِسُوءِ الْأَدَبِ وَالْغَفْلَةِ، وَلَا إِلَى الْحُظُوظِ بِالشُّهُوةِ وَالْمُتَعَةِ)

قلت: أما النزول بسوء الأدب، فهو أن يكون نزولهم في طلب الأجور أو الحروف وهو الجزاء. وأما الغفلة فهي رؤية النفس في حال العمل، وهو عندهم ذنب يستغفرون منه، فاستغفارهم بعد الصلاة إنما هو من حضور نفوسهم في عملهم، ولذلك قيل:

* وجردك ذنب لا يقاس به ذنب *

والحاصل: أن أهل الحضرة نزولهم بالله وعملهم بالله، لا يرون لأنفسهم حراً ولا قوة، ولا يطلبون من ربهم جزاء ولا أجر، إذ محال أن يطلب الجزاء على عمل

(1) الجلمد: الصخر/ الشديد الصلب، ورجل جلمد شديد صلب (تهذيب اللغة للأزهري).

غيره، هذا في حال نزولهم إلى سماء الحقوق.

وأما نزولهم إلى أرض الحظوظ فإنما هو لأداء حقوق العبودية، فليس نزولهم بشهوة النفس ونيل متعتها لتحقق فنائها وموتها، قد انقلبت حظوظهم حقوقاً.

وقال سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: إذا وافق الحق الهوى كان كالزبد مع العسل، يعني إذا وافقت النيّة الصالحة الهوى كان كالزبد مع العسل. وقال عليه السلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه ثابماً لما جئت به»⁽¹⁾.

[حقيقة مقام الفناء]

فتمحصل أن مقام الزوال يقتضي الفناء عن الحظوظ كلها ولم يبق إلا الواحد الأحد، كما أبان ذلك بقوله:

(بَلْ دَخَلُوا فِي ذَلِكَ بِاللَّهِ وَلِلَّهِ وَمِنَ اللَّهِ وَالِىُّ اللَّهُ)

قلت: بل للإضراب عما تقدم من دخولهم في الحقوق بسوء الأدب والغفلة أو نزولهم لأرض الحظوظ بالشهوة والتمتعة، وإنما دخلوا في الحقوق أو الحظوظ بالله لتحقق فنائهم عن أنفسهم، والله لتحقق إخلاصهم، ومن الله لشهودهم الفعل من الله، وإلى الله لتحققهم أن الأمور ترجع كلها إلى الله، قال تعالى: ﴿وَالِىُّ الْأُمُورِ كُلُّهُ فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [مؤد: الآية 123] فأمر العباد كله قائم بالله وصادر منه ومثته إليه.

ثم استدل بالآية الكريمة على أن الدخول في الأشياء والخروج منها يكون بالله، فقال:

(﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقِي وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقِي﴾ [الإسراء: 80] لِيَكُونَ نَظَرِي إِلَى حَوْلِكَ وَلِقَوْلِكَ إِذَا أَدْخَلْتَنِي، وَأَسْتَسْلِمِي وَأَنْقِيَادِي إِلَيْكَ إِذَا أَخْرَجْتَنِي، ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: 80] يَنْصُرْنِي رَيْبِي وَلَا يَنْصُرُنِي عَلَيَّ، يَنْصُرُنِي عَلَى شُهُودِ نَفْسِي، وَيُفْنِنِي عَنْ دَائِرَةِ حِسِّي).

قلت: الآية لها تفسير ظاهر وتفسير باطن انتهى. أعني على طريق أهل الإشارة. أما تفسير أهل الظاهر فقالوا: هذه الآية نزلت في فتح مكة وأن الله تعالى أمر رسوله عليه السلام يقول هذا الدعاء عند دخولها حال فتحها، ومعناه: رب أدخلني مكة مدخل صدق، أي إدخال صدق بأن يكون دخولي بك واعتمادى عليك ناصراً لدينك بحولك

(1) رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة، باب ما يجب أن يكون هوى المرء...، حديث رقم (15) [1] / 12 والطوسي في الأربعين.

وقوتك، وهذا كقوله عليه السلام في بعض أدعيته حين كان يقدم من سفره: «صدق الله وعده ونصر عبده وأمر جنده وهزم الأحزاب وحده»⁽¹⁾، وأخرجني من مكة مهاجراً إلى جهاد عدوك مخرج صدق، أي إخراج صدق بأن أكون منصوراً بك معصوماً بحفظك ورعايتك ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطٰنًا﴾ [الإسراء: الآية 80]، أي برهاناً دامغاً لكل باطل نصيراً ينصرنني على من عاداني.

وأما تفسير أهل الباطن فهو ما أشار إليه الشيخ رضي الله عنه مستدلاً بالآية على أن دخول العارفين في الأشياء كلها يكون بالله وخروجهم منها يكون بالله، فقال:

وقل أيها العارف ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي﴾ [الإسراء: الآية 80] في الأشياء حقوقاً كانت أو حظوظاً ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: الآية 80] أي إدخال صدق بأن أكون في ذلك الإدخال بك معتمداً فيه على حولك وقوتك، متبرئاً من حولي وقوتي، ومن شهود نفسي ﴿رَأْخِرْجِنِي﴾ [الإسراء: الآية 80] منها ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: الآية 80] أي إخراج صدق بأن أكون مأذوناً فيه بإذن خاص مصحوباً بالخشية وسر الإخلاص، وهذا معنى قوله: (ليكون نظري إلى حولك وقوتك إذا أدخلتني) في الأشياء (وانقيادي إليك إذا أخرجتني) منها ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ [الإسراء: الآية 80] أي من مستبطن أمورك بلا واسطة ولا سبب ﴿سُلْطٰنًا﴾ [آل عمران: الآية 151] أي برهاناً قوياً، وليس ذلك إلاً وارد قوي من حضرة قهار لا يصادمه شيء إلاً دمه، فيحق الحق ويزهق الباطل ويكون ذلك (نصيراً السلطان ينصرنني ولا ينصر عليّ) أي ينصرنني على الغيبة عن الحسن وعن شهود السوي حتى نعد عنهما برؤية مولاهما، ولا ينصر عليّ الوهم والحس وشهود الغيبة.

[النصرة على النفس والفناء عن الحسن]

ثم بين ذلك فقال:

(يُنْصِرُنِي عَلَى شُهُودِ نَفْسِي)

أي يقويني على الغيبة عنها، فإذا انصرت على شهودها انهزم عني وذهب شهودها وبقي شهود ربها، فالنصرة على الشيء هو غلبته حتى يضمحل وينقطع، وكان شهود النفس عدواً يحاربك ويقطعك عن شهود ربك، فإذا نصرك الله عليه غلبته ودفعت عنه، فتتصل حينئذ بشهود محبوبك، وإذا فني شهود النفس فني حينئذ وجود الحسن،

(1) رواء البخاري في صحيحه، باب ما يقول إذا رجع من الحج أو العمرة أو الغزوة، حديث رقم (1703) [637/2] وابن حبان في صحيحه، ذكر ما يقول المرء عند قفوله من الأسفار، حديث رقم (2707) [424/6] ورواه غيرهما.

وهو معنى قوله :

(وَيُفْنِنِي عَنْ دَائِرَةِ حَسِّي)

فإذا فنيت دائرة الحس بقي متسع المعاني وفضاء الشهود، وهذه هي الولادة الثانية، فإن الإنسان بعد أن خرج من بطن أمه، وهي الولادة الأولى، بقي مسجوناً بمحيطاته محصوراً في هيكل ذاته، قد التقمه الهوى وصار في بطن الحس والوهم وسجن الأكوان المحيطة بجسمانيته .

فإذا فَنِيَتْ دَائِرَةُ حَسِّيْهِ وخرج من بطن عوائده وشهوات نفسه نقيت روحه الكون بأسره، وخرجت إلى شهود مكوّنها، فقد ولد مرة ثانية، وهذه الولادة لا يعقبها فناء ولا موت، قال تعالى: ﴿لَا يَدْرُقُونَ فِيهَا أَلَمَ الْأُولَى﴾ [الدخان: الآية 56] وهذا معنى قول سيدنا عيسى عليه السلام: «ليس منا من لم يولد مرتين»⁽¹⁾.

وقال بعض الحكماء في قوله عليه السلام: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»⁽²⁾. قال: الهجرة هجرتان، هجرة صغرى وهي هجرة الأجساد من أوطانها، وهجرة كبرى وهي هجرة النفوس عن مألوفاتها وعوائدها، وهو معنى قوله عليه السلام: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»⁽³⁾ جعل الجهاد الأكبر هو جهاد النفس، والجهاد الأصغر هو جهاد الجسم. وقال أيضاً عليه السلام: «الهجرة باقية إلى يوم القيامة»⁽⁴⁾ يعني الهجرة الحسية والمعنوية، فكل بلد لا يجد فيها من يعينه على دينه أو لا يجد فيها قلبه تجب الهجرة عنها، وكل شهوة تقطعه عن ربه تجب الهجرة عنها وبالله التوفيق.

هذا آخر الكتاب الذي أرسله إليّ بعض إخوانه، وحاصله بيان السلوك من أوله إلى آخره فهو يكفي ذوي الألباب عن مطالعة كل كتاب.

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع. وأورد الشارح الشيخ أحمد بن عجيبة في تفسير البحر المديد عبارة: [قال بعض الأولياء] بدل عبارة [قول سيدنا عيسى عليه السلام] (البحر المديد، سورة النساء، آية 23).

(2) رواه ابن أبي عاصم في الجهاد، النية في الجهاد، حديث رقم (261) [2/619] ورواه البخاري في صحيحه بلفظ: «لا هجرة ولكن جهاد ونية» حديث رقم (1737) [2/651] ورواه مسلم أيضاً برقم (1353) [2/986] ورقم (1864) [3/1488] يرواه غيرهما.

(3) هذا الحديث سبق تخريجه.

(4) أخرج نحوه ابن حجر العسقلاني في المطالب العالية، باب الهجرة من دار العدو... حديث رقم (2024) ولفظه: «الهجرة باقية ما قوتل المشركون».

[المراسلات]

[الكتاب الثاني]

رسالة في بيان الوصول إلى بحر الحقيقة

ثم ذكر الكتاب الثاني الذي أرسله لبعض إخوانه أيضاً، فقال:

(وقال رضي الله عنه مما كتب به إلى بعض إخوانه)

قلت: وكانت الرسالة المتقدمة في بيان السلوك بدايتها ونهايتها، وهذه الرسالة في بيان الوصول إلى بحر الحقيقة مع مراعاة حرمة الشريعة طرفان وواسطة، قوم فرطوا، وقوم أفرطوا، وقوم توسطوا وجمعوا. بيّن الشيخ الأقسام الثلاثة تمييزاً للتقسيم، فأشار إلى أصل التقسيم فقال:

(إِنْ كَانَتْ عَيْنُ الْقَلْبِ تَنْظُرُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ فِي مَنَّتِهِ، فَالشَّرِيعَةُ تَقْتَضِي أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ شُكْرِ خَلِيقَتِهِ)

قلت: عين القلب: هي البصيرة، ومن شأنها أن لا ترى إلا المعاني دون المحسوسات، كما أن البصر لا يرى إلا المحسوسات دون المعاني، والحكم للغالب منهما، فمن غلب بصره على بصيرته لا يرى إلا الحس وهو الغافل، ومن غلبت بصيرته على بصره لا يرى إلا المعاني، وهي معاني التوحيد وأسرار التفريد، فالبصيرة لا ترى إلا نور الحق دون ظلمة الخلق، لكن لا بد من إثبات الحكمة، فإن كانت عين القلب تنظر إلى أن الله واحد في منته بل واحد في جميع تصرفاته، فالشريعة والحكمة تقتضي، أي: تطلب أن لا بد من شكر خليقته. قال تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ [النعمان: الآية 14] فإذا أنعم الله عليك بنعمة، كانت دنيوية أو دينية على يد واسطة، فعليك في ذلك وظيفتان، إحداهما قلبية، وهي اعتقادك أنها من الله بلا واسطة، وأن ما سواه مقهور على إيصالها. والثانية لسانية، وهي أن تدعوله وتثني عليه عملاً بالشريعة.

فقد روى النعمان بن بشير عنه رضي الله عنه أنه قال: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله»⁽¹⁾، ومن أسمائه تعالى الشكور فليتخلق العبد بذلك

(1) رواه أحمد في المسند، حديث أسامة بن شريح، رقم (18472) [278 / 4] والقضاعي في مسند الشهاب، باب (272 من لم يشكر القليل . . .) [حديث رقم (377) [239 / 1] ونص رواية أحمد هو: عن النعمان بن بشير قال: قال النبي ﷺ على المنبر: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب».

وحكمة اعتبار الواسطة ثلاث .

أولها : أنها إرسال من الحق تحمل الهدايا إليك ، ومن الكرم إكرام الرسل .
 وثانيها : أنها أواني تصل فيها إليك المنافع ، ومن الحكمة ترفيع آية المنافع .
 وثالثها : ما في ذلك من دفع مئة الوهم إذ الوهم يقتضي بطبعه الميل لمن أحسن إليك ، فإذا كافأته باللسان فقد أعتقت من رق إحسانه .

● ثم قسم الناس باعتبار الحقيقة إلى طرفين وواسطة كما تقدم ، فقال :

(وَإِنَّ النَّاسَ فِي ذَلِكَ عَلَى أَقْسَامٍ ثَلَاثَةٍ)

إما واقف مع الحس ناظر للأسباب ، أو غائب عن الحس وعن رؤية الأسباب ،
 أو جامع بينهما . أو تقول : إما عامة أو خاصة ، أو خاصة الخاصة . ثم أشار إلى الأول
 فقال :

(غَافِلٌ مُنْهَمِكٌ فِي غَفْلَتِهِ)

أي مسترسل في غفلة مستغرق في نومه لا يبالي بما وقع منه ولا يتنبه من نومه .

● ثم بين أصل غفلة فقال :

(قَوِيَتْ دَائِرَةُ حِسِّهِ)

أي قوي تكثيف حسه الدائر به ، فتكثف حينئذ حجاب عظم جهله فعظمت غفلة ،
 ولو فنيت دائرة حسه لاتصلت روحه بعالم الملكوت أو الجبروت فلم تر إلا الجمع ، أو
 ترى الجمع في عين الفرق ، والفرق في عين الجمع ، لكن لما قويت دائرة حسه انطمس
 نور بصيرته ، كما قال :

(وَإِنْظَمَسَتْ حَضْرَةُ قُدْسِيهِ)

أي انطمست عنه حضرة القدس ، وهي شهود المعاني الملكوتية لانطماس
 بصيرته ، لأن هذه المعاني لا تدركها إلا البصيرة ، فلما انطمست البصيرة ، بقوة كثافة
 الحس انطمس نور حضرة القدس عنه .

ثم ذكر ما ترتب على انطماس حضرة القدس وهو شهود الخلق دون الحق فقال :

(فَنَظَرَ الْإِحْسَانَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ ، وَلَمْ يَشْهَدْهُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

قلت : كل من لم يفن عن دائرة حسه ، ولم يغب عن شهود نفسه بشهود ربه لا
 يطمع أن يتحرر من رق إحسان الخلق إما اعتقاداً أو استناداً ، ولو جاهد نفسه في
 مرعات التوحيد فلا بد من الطبع أن يسرق ، بخلاف من تحقق بالزوال وغرق في بحر
 الوحدة فلا يسرقه شيء ، وعلى تقدير غفلة فيكون سريع الانتباه .

● ثم بين حال الفريقين في نظر الإحسان من المخلوقين ، فقال :

(إِنَّمَا أَهْتَقَاداً فَشِرْكُهُ جَلِيٌّ)

أي لا خفاء في أن من نسب الفعل لغير الله استقلالاً أنه كافر خارج عن الإيمان وإن كان ظاهره متوسماً بوظائف الشريعة ، لأن من اعتقد خالقاً أو رازقاً مع الله استقلالاً فهو كافر بالإجماع .

● ثم ذكر الثاني بقوله :

(وَإِنَّمَا اسْتِنَاداً فَشِرْكُهُ خَفِيٌّ)

قلت : الاستناد : هو الميل الخفي بحيث إذا قلت له : من الذي رزقك ، يقول : الله ، لكن الغالب أن قلبه يسبق إلى رؤية الخلق قبل رؤية الخالق ، وربما يقول بلسان الحال أو المقال : لولا الذي جاء من قبله ما كان ، ولولا الأسباب ما كانت المسببات ، فوقفه مع ارتباط الأسباب دون النفوذ إلى مسبب الأسباب هو شركه الخفي ، ولو نبذ الأسباب ونفذت بصيرته إلى شهود مسبب الأسباب ، لتبرأ من الشرك الجلي والخفي ، ولتحلى بمقام الإخلاص الكامل الوفي . وإليه أشار بقوله :

(وَصَاحِبُ حَقِيقَةٍ غَابَ عَنِ الْخَلْقِ ، بِشُهُودِ الْمَلِكِ الْحَقِّ ، وَفَنِي عَنِ

الْأَسْبَابِ بِشُهُودِ مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ)

قلت : الحقيقة هي شهود نور الحق في مظاهر الخلق ، أو شهود نور الربوبية في قوالب العبودية ، فصاحب الحقيقة هو الذي يغيب عن الخلق بشهود نور الملك الحق ، ويفنى عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب ، فإن كان مع مراعاة الحكمة فهو كامل ، وإن كان من غير مراعاة الحكمة ، فإن كان غائباً مصطليماً فهو معذور وهو الذي بينه بقوله :

(فَهُوَ عَبْدٌ مُوَاجِهٌ بِالْحَقِيقَةِ) أي كوشف بنورها (ظَاهِرٌ عَلَيْهِ سَنَاهَا)

أي نورها ، فلما دهمته الأنوار سكر ونكر الحكمة ، فهو باعتبار ما قبله كامل لاستغراقه في بحر الوحدة ، وهو معذور في نفيه الحكمة لغلبة وجدّه وظهور سكره ، وباعتبار ما بعده ناقص لقصور نفعه على نفسه ، وإن كان قد سلك الطريق وأتى على غايتها حتى وصل إلى التحقيق ، كما بين ذلك بقوله :

(سَالِكٌ لِلطَّرِيقَةِ)

أي لولا سلوكه مع الطريق ما استنارت له معالم التحقيق ، وإنما فاتته أنوار التشريع وأسرار الحكمة ، وأما الطريق فقد سلكها وأتى على غايتها كما ذكره :

(قَدْ اسْتَوْلَى عَلَى مَدَاهَا)

يعني على غايتها، فلا وصول للحقيقة إلا بعد سلوك الطريقة وتحقيق ظاهر الشريعة، قال تعالى: ﴿وَأَتُوا التَّبُوتَ مِنْ أَنْوَابِكُمْ﴾ [البقرة: الآية 189] فلا باب لبيت الحقيقة إلا من جهة الشريعة والطريقة، فإذا وصل إلى الحقيقة، فمن الناس من يكون صدره ضيقاً، فلا يحتمل تلك الأنوار ولا يطيق مشاهدة تلك الأسرار، فيغيب في شهود الوحدة وينكر الحكمة.

ومن الناس من يكون واسع الصدر قوي النور، فإذا أشرقت عليه أنوار الحقيقة لم تغلبه عن القيام بالحكمة، وصار برزخاً بين حقيقة وشريعة، هكذا يكون سيره بين فناء وبقاء، حتى يتمكن فيهما ويعتدل أمره بينهما، وهذه حالة الأقياء والطريقة الشاذلية جُلُّها هكذا يسير أهلها بين حقيقة وشريعة حتى يقع التمكين والاعتدال.

● ثم كمل الشيخ هذا القسم الذي غلبت عليه الحقيقة فقال:

(غَيْرَ أَنَّهُ خَرِيقُ الْأَنْوَارِ)

أي غلبت عليه أنوار الحقيقة حتى غاب عن أحكام الشريعة.

(مَظْمُوسُ الْأَثَارِ)

أي غائب عن شهود الكون من حيث إن الحق أثبتة ليعرف به، وهذا لما أشرقت عليه أنوار الحقيقة ضم الفروع إلى أصولها، وأنوار الملكوت إلى الجبروت، وأنكر الوسائط لغلبة السكر عليه كما بيّنه بقوله:

(قَدْ قَلَبَ سُكْرُهُ عَلَيَّ صَخْرَهُ)

السكر: وارد قوي يغيب القلب عن شهود الحس، والصحو: ذهاب ذلك الوارد حتى يرجع القلب إلى الإحساس بعد الغيبة (ر) غلب عليه أيضاً.

(وَجَمَعَهُ عَلَيَّ فَرْقَهُ)

الجمع: رؤية الحق بلا خلق، والفرق: رؤية الخلق بلا حق، فإن كان بعد الجمع فهو رؤية الخلق والحق [وهو الفرق الثاني النوراني].

والحاصل أن أهل الجمع لا يشهدون إلا الحق، وأهل الفرق لا يشهدون إلا الخلق، ويستدلون به على الحق، وأهل الفرق في الجمع يشهدون الخلق والحق، أعني يشهدون الوسائط والموسوط من غير فرق بينهما.

(و) غلب عليه أيضاً (فَنَالَهُ عَلَيَّ بِقَائِهِ) الفناء الغيبة عن الخلق بشهود الحق، والبقاء شهود الخلق بالحق إن كان بعد الفناء، وإن كان قبل الفناء فهو شهود خلق بلا حق، وهو محل أهل الحجاب.

(و) غلب عليه أيضاً. (غَيْبَتُهُ عَلَيَّ حُضُورِهِ) الغيبة: انقطاع القلب عن ملاحظة

الخلق، والحضور: مشاهدة حضرة المولى بعد الغيبة عن شهود الحس والسوى. فهذه أحوال أهل الجذب من السالكين، فإن كان لهم شيخ فلا بد أن يخرجهم إلى السلوك وهو مقام البقاء، الذي أشار إليه الشيخ بقوله:

(وَأَكْمَلُ مِنْهُ هَبْدٌ شَرِبَ فَأَزْدَادَ صَحْوًا، وَغَابَ فَأَزْدَادَ حُضُورًا، فَلَا جَمْعُهُ يَحْجُبُهُ عَنْ فَرْقِهِ، وَلَا فَرْقُهُ يَحْجُبُهُ عَنْ جَمْعِهِ، وَلَا فَنَائِهِ يَضُرُّهُ عَنْ بَقَائِهِ؛ وَلَا بَقَاؤُهُ يَضُدُّهُ عَنْ فَنَائِهِ، يُعْطِي كُلُّ ذِي قِسْطٍ قِسْطَهُ. وَيُؤْفِي كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ)

قلت: هذا هو القسم الثالث، وهو مقام خاصة الخاصة، وهم أهل الرسوخ والتمكين، فكلما شربوا من خمر الحقيقة زاد صحوهم وتجوهر عقولهم، وكلما غابوا عن شهود الخلق بشهود الحق زاد حضورهم، فتراهم مستغرقين في الفكرة والنظرة ومع ذلك يحسون بدبيب النملة، حتى يظن من لم يبلغ مقامهم أنهم من أهل الغفلة لكثرة ما بهم من الفطنة، وهم مستغرقون في الحضرة، وقد كان عليه السلام يصلي بالناس فإذا سمع بكاء الصبي خفف شفقة على أمه، فأهل هذا المقام الكامل لا يحجبهم جمعهم عن فرقهم، فهم مجموعون في فرقهم مفروقون في جمعهم، يشهدون الحق في حال شهودهم الخلق، ولا يصددهم فناؤهم عن بقائهم، فهم فانون عن أنفسهم باقون بربهم، ولا بقاؤهم يصددهم عن فنائهم، فظاهرهم مشغول بالحس مثلاً، وباطنهم معمور بالمعنى، يعطون كل ذي حق حقه، فيعطون الحقيقة حقها بشهود الحق في الباطن، والشريعة حقها باستعمال الجوارح في حقوقها في الظاهر، ويوفون كل ذي قسط قسطه، فيوفون الناس قسطهم من الإحسان، والحق حقه في توحيده بالجنان، أو تقول: أفردوا الحق بالإنعام وشهود الإحسان، وأثنوا على الوسائط باللسان، أو تقول: أعطوا الربوبية حقها بشهود الإحسان منه وحده، وأعطوا الخليقة حقها بشكر الوسطة إقامة لرسم العبودية.

والحاصل أن هذا المقام هو كما قال الشاذلي رضي الله عنه: الجمع في باطنك مشهود، والفرق على لسانك موجود.

تشبيه: قد رأينا كثيراً من الناس يترامون على هذا المقام الكامل من غير صحبة ولا جذب، ويزعمون أنهم يصلون إليه بإتقان علم الشريعة وعملها، وهو غلط إذ لا سبيل إلى هذا المقام إلا بمروره على المقام الذي قبله، وهو الجذب والاختطاف من شهود الأكوان إلى شهود المكوّن، ولا بد من سكر ثم صحو، وجذب ثم سلوك، وجمع ثم فرق، وفناء ثم بقاء، نعم قد يكون بعض الأفراد أقوياء يجذبون إلى حضرة الحق مع مشاهدة الخلق، ويسيروا بين جذب وسلوك كما تقدم في الطريقة الشاذلية وأمثالها. وأما من لم يصحب العارفين الذين سلكوا هذه المقامات، فلا يطمع في نيل هذا المقام أبداً إلا الفرد النادر الذي لا حكم له، والله تعالى أعلم.

● ثم استدل على المقام الثاني وهو الجذب والفناء، والثالث وهو الصحو والبقاء بقضية السيدة عائشة مع أبيها في قضية الإفك، فقال:

(وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصُّدَيْقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَمَّا نَزَلَتْ بَرَاءَتُهَا مِنَ الْأَفْكِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا عَائِشَةُ أَشْكُرِي رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَا أَشْكُرُ إِلَّا اللَّهَ)

قلت: قضية الإفك مشهورة مذكورة في سورة النور⁽¹⁾، تولى شرحها أهل الظاهر إلا أن ظاهر كلام الشيخ رضي الله عنه: أن القائل لها هو أبوها، والذي في الصحيح أن الذي قال لها اشكري رسول الله ﷺ هي أمها.

وفي رواية: فقالت لي أمي لما نزلت براءتي من السماء: قومي إلى رسول الله ﷺ، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أشكر إلا الله. ويمكن الجواب بأن ذلك وقع بإشارة أبيها، أو قاله معاً، أو سكوته كأنه رفاق، والله تعالى أعلم.

● ثم ذكر الجواب عن امتناعها من شكر الواسطة فقال:

(دَلَّهَا أَبُو بَكْرٍ عَلَى الْمَقَامِ الْأَكْمَلِ، مَقَامِ الْبَقَاءِ الْمُقْتَضِي لِإِثْبَاتِ الْأَثَرِ)

قلت: المراد بإثبات الأثر بعد الفناء عنه إثباته بالله ونفيه بالله جمعاً بين القدرة والحكمة، وإنما كان هذا أكمل مما قبله لأن هذا حاز المقامين، أعطى القدرة حقها في الباطن وهو الشهود، والحكمة حقها في الظاهر وهي العبودية. فهو سالك بنفسه دال لغيره، كامل عالم مُعَلِّمٌ عَارِفٌ مُعْرَفٌ، وهي غاية القصد والطلب، لأنه مقام الخلافة التامة والمنافع العامة. ولا شك أن الخير العام خير من الخير الخاص، والخير العام هو الذي يعطي كل ذي حق حقه، ويوفي كل ذي قسط قسطه.

وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ مع قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فقال له: اتق الله حق تقاته بقلبك، واتق الله بجسمك ما استطعت فتكون جامعاً للشريعة والحقيقة. انتهى.

● ثم استدل على إثبات الأثر بالكتاب والسنة فقال:

(وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَعِيرِ﴾ [الغمان: 14])

فأمر أولاً بشكر من تولى نعمة الإيجاد، وأمر ثانياً بشكر من ظهرت على يديه نعمة الإمداد. فالواسطة ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، والآية صريحة في إثبات الواسطة أدباً، والغيبة عنها عقد لأجل التوحيد.

(1) الآية 11 وما بعدها. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِاللَّهِ مُصِيبَةً يَنْكُرُونَ﴾ [النور: 11].

● ثم ذكر دليل الستة، فقال:

(وقال صلوات الله وسلامه عليه: لا يَشْكُرُ اللهُ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ)⁽¹⁾

قلت: يصح في اسم الجلالة الرفع على الفاعلية والنصب على المفعولية، ومعنى الأول الله تعالى لا يشكر فعل من لم يشكر الناس ولا يحبه. وعلى الثاني من لم يشكر الناس فلا يشكر الله، أي فلا يسمى شاكراً لله. وتقدم حديث النعمان بن بشير: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله»⁽²⁾.

ثم بين الجواب عن امتناعها من شكر الواسطة في ذلك الوقت، فقال:

(وَكَانَتْ هِيَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مُضْطَلَمَةً عَنْ شَاهِدِيهَا)

قلت: الاصطلام: نعت الحيرة ومحل الدهشة والغيبة، أي كانت رضي الله عنها في ذلك الوقت غائبة عن حالها، فانية عن حسها كما هو حال الجذب. وقوله: في ذلك الوقت، يقتضي أنه لم يكن ذلك شأنها على الدوام، وإنما هو عارض قهري ووارد إلهي اختطفها عن حسها، كما عرض ذلك لخليل الله إبراهيم حين عرض له جبريل فقال له: ألك حاجة، فقال: «أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى»⁽³⁾، فلم يلتفت إلى الواسطة فقال له: سل، فقال: «حسبي من سؤالي علمه بحالي»⁽³⁾. وكقوله عليه السلام: «لي وقت لا يسمني فيه غير ربي»⁽⁴⁾. فكانت عائشة رضي الله عنها في ذلك الوقت.

(غائبة عن الآثار، فلم تشهد إلا الواجد القهار).

قلت: ومما يقوي عذرهما في شكر الله وحده قول رسول الله ﷺ: «يا عائشة اشكري الله فإن الله تعالى قد برك»⁽⁵⁾ فهي راجعة لأمره في عدم شكره، كما قاله ابن أبي جمرة لكن بضميمة ما ذكره المؤلف، إذ لا يصح مع الصحو إهمال الوسائط في المقام الأكمل. قاله الشيخ [أحمد] زروق رضي الله عنه.

فهذا آخر الرسالة التي كتبها لبعض إخوانه، وهي في غاية الإتقان والكمال، فلو لم يكن في هذا الكتاب إلا هذه الرسالة مع التي قبلها لكانت كافية، فجزاء الله عن أهل الطريقة خيراً.

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه أحمد في المسند عن النعمان بن بشير، حديث رقم (18472) [278 / 4] والقضاعي في مسند الشهاب، (272 من لم يشكر القليل . . .) حديث رقم (377) [239 / 1] ورواه غيرهما.

(3) رواه الطبري في تفسيره [45 / 17] والسيوطي في الدر المنثور [641 / 5].

(4) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2159) [226 / 2] والهروي في المصنوع [258 / 1].

(5) رواه البخاري في صحيحه، باب حديث الإفك، حديث رقم (3910) [1517 / 4] ومسلم في صحيحه، باب في حديث الإفك . . . حديث رقم (2770) [2129 / 4] ورواه غيرهما.

[المراسلات]

[الكتاب الثالث]

رسالة في قرّة العين التي تكون في الصلاة وهي الفرح بالله تعالى

ولما كانت صلاة العارفين ليست كصلاة الغافلين، تكلم في هذه الرسالة الثالثة على قرّة العين التي تكون في الصلاة، هل هي خاصة بالأنبياء وللأولياء نصيب من ذلك، فقال رضي الله عنه :

(لما سئل عن قوله صلوات الله وسلامه عليه: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»⁽¹⁾ هل ذلك خاص به أم لغيره منه شُرِبَ ونصيب؟ فأجاب: إِنَّ قُرَّةَ الْعَيْنِ بِالشُّهُودِ، عَلَى قَدْرِ الْمَعْرِفَةِ بِالشُّهُودِ.

قلت: قرّة العين كناية عن شدة الفرح، لأن بكاء الفرح دمه بارد، والقرّ بالضم هو البرد، يقال في الدعاء: أقرّ الله عينك، أي أفرحك حتى تبرد عينك بدموع الفرح. ومضمن كلام الشيخ في جوابه: أن قرّة العين في الصلاة متفاوتة على قدر التفاوت في المعرفة والشهود، والمعرفة على قدر التخلية [من سوء الخلق] والتخلية [بمكارم الأخلاق].

فمعرفة عليه السلام لا يوازيها معرفة، وشهوده عليه السلام لا يقرب منه شهود، لكن قد تحصل المشاركة في مطلق الشهود من حيث هو وتكون القرّة على قدره، فإذا لورثته عليه السلام قسط ونصيب من قرّة العين على قدر صفاء مشربهم وتفرغ قلوبهم وأسرارهم، فالعلماء ورثة الأنبياء، فمن جملة ما ورثوه قسط من قرّة العين في الصلاة، ولذلك كانوا يغيبون فيها، ويجدون من النعيم واللذة فيها ما تعجز عنه العبارة، وقد كان منهم من يقطع الليل كله في ركعة، ويختم القرآن في كل ليلة، فلولا ما كانوا يجدون من حلاوة المناجاة ما دامت لهم تلك الحالة.

ويفهم هذا من قول الشيخ في الجواب: أن قرّة العين بالشهود على قدر المعرفة بالشهود. فأتى بعبارة عامة تصدق بكل من له نصيب من الشهود، لكن قرّة عين الرسول ﷺ لا يوازيها قرّة عين أحد، وكذلك الأنبياء عليهم السلام بعد النبي ﷺ، وإلى هذا أشار بقوله:

(1) رواه الحاكم في المستدرک، كتاب النکاح، حدیث رقم (2676) [2/174] والبيهقي في السنن الكبرى، باب الرغبة في النكاح، حدیث رقم (13232) [7/78] ورواه غيرهما.

(والرسول صلوات الله وسلامه عليه ليسَ مَعْرِئَةً كَمَعْرِفَتِهِ، فَلَيْسَ قُرَّةً حَيْنَ

كُفْرَتِهِ)

قلت: لم يؤنث الفعل المجازي التانيث في الموضوعين، وإنما كانت معرفته عليه السلام لا يساويها معرفة لأنه أول قدمه في مقام الإحسان، إذ لا مجاهدة له ولا سير له باعتبار الوصول، لأنه واصل من أول قدم، فنهاية الأولياء بداية الأنبياء، ونهاية الأنبياء بداية الرسل، وبدايته عليه السلام من نهاية الرسل، وإنما قلنا: لا سير له باعتبار الوصول لأن السير في مجاهدة الأرصاف المذمومة، وهو مطهر منها كما قال القائل⁽¹⁾:

خُلِيفَتُ مَبْرَأٌ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِيفْتَ كَمَا تَشَاءُ
[وأجمل منك لم تر قط عيني وأكمل منك لم تلد النساء]

وأما السير بمعنى الترقى فهو ثابت له على الكمال، فقد كان عليه السلام يترقى في الساعة الواحدة مقامات، ويستغفر من المقام الذي يترقى منه.

وحكي عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أنه كان يستشكل قوله عليه السلام: «إنه ليفان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»⁽²⁾ وفي رواية: «مائة مرة»⁽²⁾ حتى رأى النبي ﷺ فقال: يا مبارك غين أنوار لا غين أغيار، ففهم حينئذ أن ذلك الغين، وهو التغطية، إنما هي تتفاوت بالقوة والضعف باعتبار الكشف، فكما كشف له عن مقام رأى ذلك المقام نقصاً باعتبار ما بعده، ورآه حجاباً وتغطية لما فوّقه وهكذا. وعظمته تعالى لا نهاية لها، ولذلك قال [الحق تعالى] له: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [آية 114] وقال أبو العباس [المرسي] رضي الله عنه: الأنبياء عليهم السلام خلقوا من الرحمة ونبينا عليه السلام هو عين الرحمة. قل تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية 107].

وقال الشيخ الحضرمي رضي الله عنه بعد كلام ذكره: فهو ﷺ مظهر الحق، الأكبر، وهو أكبر مظاهر الحق في الوجود، فلذلك كان كل حرف من كلماته يوازي الجرم الغفير، وكل قطرة من فيض بحره توازي البحر الزاخر الكبير، وأعظم من ذلك بألف ألف نقيير وقطمير⁽³⁾. لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون. انتهى المراد منه.

(1) هو عبد الله بن محمد بن عامر الشبراري، تولى مشيخة الأزهر، من مؤلفاته الإتحاف بحب الأشراف. توفي سنة 1171 هجرية.

(2) رآه مسلم في صحيحه، باب استحياب الاستغفار، حديث رقم (2702) [4/2075] وابن حبان في صحيحه، ذكر لفظ ثم يعرف معناه... حديث رقم (931) [3/211] ورواه غيرهما.

(3) القَطْمِيرُ والقَطْمَارُ بكسرهما: شَقُّ النَّوَاةِ أَوْ القِشْرَةُ التي فيها ويسعمل للشيء الهَيِّنُ النَّزْرُ الحَقِيرُ قال الله تعالى: ما يملكون من قطمير، ويقال: ما أصبت منه قطميراً أي شيئاً (تاج العروس [1/3413]). والتفكير: نقرة في ظهر النواة ومنها تنبت النخلة. وهي كناية عن أقل القليل [التفسير الكبير للرازي، تفسير سورة النساء، آية ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَبِيْرًا﴾ [النساء: 53] [106/10].

فتحصل أن مقامه عليه السلام في العرفان لا يوازيه مقام، وكذلك قرّة عينه عليه السلام لا ينالها غيره من الأنبياء والأولياء، وإنما يكون لهم من ذلك شرب ونصيب على قدر شهودهم ومعرفتهم.

قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: إنما قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: الآية 1] ولم يقل: بنبيه ولا برسوله، ليفتح باب السريان لغيره، فمن له قسط من العبودية له قسط من الإسراء. ولما كان له عليه السلام كمال العبودية كان له كمال الإسراء، فأسري بروحه وجسده وليس ذلك لغيره، انتهى.

فإذا وقع الإسراء بالروح إلى الملكوت حصلت له قرّة العين في العبادة على قدر إسرائها، وإسراؤها على قدر تصنيفها من العلائق والعوائق، والله تعالى أعلم. ولما كان جوابه بأن قرّة العين بالشهود على قدر معرفته بالمشهود، فيه خفاء عن المقصود بيّنه بقوله:

(وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِي صَلَاتِهِ بِشُهُودِ جَلَالِ مَشْهُودِهِ، لِأَنَّهُ قَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ فِي الصَّلَاةِ وَلَمْ يَقُلْ بِالصَّلَاةِ)

قلت: لأن الأصل في الظرفية أن تكون على بابها، فقُرّة عينه ﷺ إنما هي بشهود ربه ومساررته ومكالمته، فالصلاة إنما هي محل لتلك القرّة لا بها تكون القرّة. وأما قوله عليه السلام: «أرحنا بها يا بلال»⁽¹⁾ فالباء سببية، أي أرحنا بسببها وراحته عليه السلام إنما هي بمناجاة ربه لا بغيرها.

● ثم ذكر علة كونه عليه السلام لا تقرّ عينه بالصلاة وإنما تقرّ عينه بربه، فقال: (إذ هو صلوات الله وسلامه عليه لا تقرّ عينه بغير ربه) فلا فرح له إلا به ولا سرور له إلا في إقباله، قد رفع همّته عن الكونين، وخلع نعله من الدارين، ولأجل ذلك قال فيه القائل⁽²⁾:

له همم لا منتهى لكبرها وهمّته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشاز جودها على البر كان البر أندى من البحر
(وَكَيْفَ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَقَامِ)

وهو مقام الإحسان إذ به تحصل قرّة العين.

(وَيَأْمُرُ بِهِ مَنْ سِوَاهُ) من الأنام.

(لقوله صلوات الله وسلامه عليه: اغْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ)

قال الشيخ [أحمد] زروق رضي الله عنه: لم يقع في الحديث بهذا اللفظ، وإنما

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (6215) [6/277] والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، رقم (5604) [10/442].

(2) لم أقف على اسم هذا القائل.

وقع في تفسير الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. انتهى.

قلت: وفيه نظر، فإن في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قلت: يا رسول الله أوصني، قال: «اعبد الله كأنك تراه، واحدد نفسك في الموتى، واذكر الله عند كل حجر وعند كل شجر، وإذا صملت سيئة فاصمل بجانبها حسنة تمنحها، السر بالسر والعلانية بالعلانية» انتهى رواه الطبراني كما في [الترغيب والترهيب] للمنزدي.

● ثم من كان يعبد الله كأنه يراه، فلا يمكن أن يلتفت إلى رؤية ما سواه، كما بينه بقوله:

(وَمُحَالٌ أَنْ يَرَاهُ وَيَشْهَدَ مَعَهُ سِوَاهُ)

قلت: لأن ثبوت السوى حجاب، فلا يصح الشهود حتى يزول كل موجود ولا يبقى إلا واجب الوجود، ويرى ما سواه كأنه ضلال أو خيال عند التحقيق مفقود.

فإن قلت: إذا كان السوى مفقود فلم قال عليه السلام في تفسير الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه»، وقال لمعاذ: «اعبد الله كأنك تراه» فأتى بكاف التشبيه، إذا كانت الرؤيا حاصلة، فكيف يشبهه عليه السلام بمن يرى.

فالجواب: أنه عليه السلام في محل التشريع والتحقيق، وهذا الحديث وقع في محفل كبير، فيه من هو من أهل المراقبة، وفيه من هو من أهل المشاهدة، فأتى بكلام يقبله الخاص والعام، فالكل مخاطب بإتقان العبادة كأنه يشاهد، فمنهم من بلغ ذلك ذوقاً، ومنهم من يكون منه ذلك مجاهدة.

وأيضاً شهود أنوار الملكوت سر من أسرار الربوبية لا تفسى لغير أهلها، ولو قال عليه السلام: أن تعبد الله لأنك تراه، أي ترى أنوار جبروته متدفقة لرياض ملكوته لكان فيه إفشاء لسر الربوبية ولا يفهمه إلا الخواص، وقد قال عليه السلام: «خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون»⁽¹⁾ فأتى بكلام موجه يقبله أهل الظاهر وأهل الباطن. فأهل الظاهر يتركون الكاف على بابها، وأهل الباطن يجعلونها بمعنى اللام، لأن رؤية البصيرة عندهم في معد العيان، لأن البصر إذا فتحت البصيرة غلبت عليه ولم يبق له حكم أصلاً. وأيضاً الرؤية إذا أطلقت إنما تنصرف للبصر، فلو لم يأت بالتشبيه لتوهم أن الله تعالى يرى بالبصر الحسي، وهو محال. قال الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: الآية 103] أي الحسية، وإنما تراه البصائر المفتوحة، فإذا انفتحت البصيرة استولت على البصر، فلا يرى البصر إلا ما تراه البصيرة من أنوار الملكوت، والله تعالى أعلم.

(1) رواه البخاري بلفظ: «حدثوا الناس بما يعرفون، أنحبون أن يكذب الله ورسوله». (الصحيح، باب من خص بالعلم قوماً...، حديث رقم (127) [59/1] وروى الحديث غير البخاري.

ولما قرّر الشيخ أن قرّة عينه ﷺ إنما هي بالله لا بالصلاة بحث معه باحث فأشار إلى البحث بقوله :

(فإن قال قائل: قد تكون قرّة العين بالصلاة لأنها فضل من الله، وبارزة من عين منة الله، فكيف لا يفرح بها؟ وكيف لا تكون قرّة العين بها وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: 58])

قلت: مضمن البحث أن قوله عليه السلام: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» يمكن أن تكون في بمعنى الباء، أي بالصلاة، ويكون وجه الفرح بها لأنها فضل من الله ورحمة وبارزة من منة الله، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: 58] فقد أمر الله تعالى عباده بالفرح بفضل الله وبرحمته والصلاة من ذلك، فيجب الفرح بها وهي معنى قرّة العين، فأجاب:

(فقال: أعلم أن الآية قد أرمأت) أي أشارت (إلى الجواب، لمن تدبّر سير الخطاب، إذ قال: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: 58] وما قال فبذلك فافرح يا محمد، قل لهم فليفرحوا بالإحسان والتفضل، وليكن فرحك أنت بالمتفضل، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ اللَّهُ تُمَّ ذَرَهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91])

قلت: مضمن الجواب أن قرّة العين بالصلاة إنما يصح أن تكون في حق غيره ﷺ من أولياء أمته لأنهم يفرحون بفضل الله وإحسانه لأنها علامة على رضوانه، وأما هو ﷺ فلا تكون قرّة عينه إلا بالله، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: 58] ولم يقل: فبذلك فافرح يا محمد، فدل خطاب الآية أن الفرح بالتفضل والرحمة إنما هو لأمة ﷺ وهو إنما يكون فرحه بالله لا بشيء دونه كقوله في آية الأنعام: ﴿قُلْ اللَّهُ تُمَّ ذَرَهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91].

والتحقيق هو أن يقال: من تحقق بنعيم شهود الربوبية لم يكن فرحه إلا بشهود محبوبه دون غيره كائناً من كان، ومن كان مقيماً في محل العبودية ولم يذق شيئاً من مطالعة أنوار الربوبية لم يكن فرحه إلا بفضل الله ورحمته، ومن ذاق ولم يتحقق يكون فرحه بهذا، أي تارة بهذا وتارة بهذا. فعلى هذا يكون لأكابر أمته ﷺ قسط من الفرح بالله دون ما سواه، لكن لا يبلغون مقام الرسول عليه السلام، لأن شهوده عليه السلام لا يساويه شهود، فتكون قرّة عينه كذلك، والله تعالى أعلم.

خاتمة في ذكر الحديث الذي أشار إليه الشيخ وما يتعلق به .

روي أن جابر بن عبد الله صنع طعاماً لرسول الله ﷺ فاجتمع هو ونفر من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم فتذاكروا في

الطاعة لله ولرسوله إلى أن قال أبو بكر: إنما حُبب لي من الدنيا يا رسول الله ثلاث، إنفاق مالي عليك، والجلوس بين يديك، وكثرة الصلاة عليك.

وقال عمر: وأنا حُبب إليّ من الدنيا ثلاث: إكرام الضيف، والصيام في الصيف، والضرب بين يدي رسول الله ﷺ بالسيف.

وقال عثمان: حُبب إليّ من الدنيا ثلاث: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام. وقال علي مثل ذلك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «وأنا حُبب إليّ من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة»⁽¹⁾.

فنزل جبريل فقال: وأنا حُبب إليّ من الدنيا ثلاث: تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، وعبادة المرضى. ثم غاب وظهر وقال: يا رسول الله وربّ العزة يقول: «وأنا حُبب إليّ من الدنيا ثلاث: لسان ذاكر، وقلب شاكراً، وجسم على البلاء صابراً. انتهى ذكره الشطبي، فإله أعلم بصحته. غير أنه كلام صحيح في نفسه.

والحكمة في النساء الترغيب في كثرة النكاح ليكثر النسل بمن يعمر هذا العالم. وأما الطيب فإنه ﷺ كان طيباً نفحه الله في الوجود فتعطرت به الأكوان، فكان عليه السلام ينفح طيباً مس طيباً أو لم يمسه، وكان يستعمل الطيب الكسبي يستر به الطيب الوهي، خشية أن يتغالى الناس فيه كما تغالوا في عيسى عليه السلام. وقيل: إن الطيب من صفة أهل الجنة، وقد كان عليه السلام في الجنة فتطيب بطيبها، والله تعالى أعلم.

(1) هذا الخبر لم أجده بهذا اللفظ فيما لدي من مصادر ومراجع. وإنما ورد بالفاظ أخرى مثقاربة منها ما رواه الحاكم في المستدرک، كتاب النكاح، حديث رقم (2676) [2/174] ولفظه: 'حُبب إليّ النساء والطيب وجعلت قرى عيني في الصلاة'.

[المراسلات]

[الكتاب الرابع]

الرسالة الرابعة في الفرح بالمنن

● ثم ذكر الرسالة الرابعة في الفرح بالمنن بعد أن قدم الفرح بالله، فقال: رضي الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه:

(النَّاسُ فِي رُودِ الْمِنَنِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ)

يعني عوام وخواص وخواص الخواص.

● ثم ذكر مقام العوام فقال:

(فَرِحَ بِالْمِنَنِ لَا مِنْ حَيْثُ مُهْدِيهَا وَمُنْشِبِهَا، وَلَكِنْ بِوُجُودِ مُنْعَتِهِ فِيهَا)

قلت: وهذا كالبهيمة ليس شأنه وهمه إلا نفسه وحسّه. والله در ابن البنا حيث قال [في المباحث الأصلية]:

واعلم بأن عصبية السجهاال بهائم في صورة الرجال

● ثم ذكر حكمه فقال: (فَهَذَا مِنَ الْغَافِلِينَ)

لأنها، أي النعم، إذا أقبلت عليه اشتغل بها عن ذكر معطيها تلذذاً وترفهاً، وإذا أدبرت اشتغل فكره بطلبها والحرص عليها، وإذا نالها شغلته متعتها عن شكرها، فيكون ذلك سبباً في زوالها. قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية 7] وربما.

(يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رُحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: 44] فالآية

وإن نزلت في الكفار فحكمها عام، فكل من اشتغل بنعم الدنيا وزخارفها عن ذكر الله وما طلب منه يصدق عليه أنه فرح بما أوتي. فبينما هو منهمك في غفلة مستغرق في شهوته أخذه الموت بغتة فإذا هو ملبس أي آيس من الرجوع إليها ومن الانتفاع بها، وقد عرف بفقدانها.

● ثم ذكر القسم الثاني وهو مقام الخواص، فقال:

(وَفَرِحَ بِالْمِنَنِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ شَهِدَهَا مِنْهُ مِمَّنْ أَرْسَلَهَا، وَنِعْمَةً مِمَّنْ أَوْصَلَهَا)

قلت: ويستفيد أيضاً إقبال من أرسلها عليه وذكره بها، أوحى الله تعالى إلى سيدنا موسى عليه السلام: «يا موسى اعلم أنني إذا أعطيتك ثمرة مسوسة، فإني قد ذكرتك بها، فاشكرني عليها، فإنه لا يعطيكها غيري». انتهى. فتكون تلك النعمة سبباً يجره إلى

محبة المنعم فيترقى إلى الدرجة الثالثة .

● ثم ذكر شاهد هذا القسم من القرآن ، فقال :

(فَيُضِدُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿قَدْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس : 58] .

قلت : يعني فيكون فرحه بفضل الله ، وهو الإيمان ، ورحمته وهو القرآن ، وغير ذلك هو أي فضل الله ورحمته خير مما يجمعون من حطام الدنيا وشهواتها الغرارة .
وأنشدوا⁽¹⁾ :

طَلَّقِي الدُّنْيَا ثَلَاثًا وَالتَّمِيمِ زَوْجًا سِوَاهَا
تُؤْتِي إِلَى رَبِّكَ مِنْهَا وَاحْتَرِسْ قَبْلَ أَذَاهَا
إِنَّهَا زَوْجَةٌ سَوِيءٌ لَا تُبَالِي مَنْ أَنْسَاهَا
إِنَّهُ نَفْسَكَ عَنِ الْغَيْبِ وَجَانِبِ هَوَاهَا

قيل : إن بعض العباد أراد إبليس فتنته ، فجاءه من باب الرغبة في الدنيا ، فوجده قد سده بالزهد والقناعة . فجاءه من باب الشهوة ، فوجده قد سده بدوام الحزن والكآبة . فجاءه من باب الضعف والجدة ، فوجده قد سده بالتواضع والاستكانة ، فصاح وقال : هذا عبد قد تحصن مني ، فليس لي عليه سبيل .

● ثم ذكر القسم الثالث ، وهم خواص الخواص ، فقال :

(وَفَرِحَ بِاللَّهِ مَا شَغَلَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِ ظَاهِرٌ مُتَعْتِبَهَا ، وَلَا بَاطِنٌ مِنْتَهَا)

قلت : ظاهر متعتها هو حظ البشرية ، وهي اللذة الحسية ، وهو حال أهل المقام الأول ، أعني الغافلين ، وباطن منتها هي ذكر المنعم وإقباله عليه وهو حال أهل المقام الثاني .

● وأشار إلى حال أهل المقام الثالث فقال :

(بَلْ شَغَلَهُ النَّظَرُ إِلَى اللَّهِ عَمَّا سِوَاهُ)

من المتعة الحسية أو المعنوية (و) شغله (الجمع) على الله بالتوكل (عليه) فكفاه شؤونه وأموره حتى لم يبق له اهتمام بغير مولاه بل أغناه به عما سواه (فلا يشهد إلا إياه) ولا يحب شيئاً سواه .

● ثم ذكر مصداق هذا القسم الثالث ، فقال :

(﴿قُلِ اللَّهُ نَزَّ ذَرَّتُمْ فِي حَوَاضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾)

قلت : المراد بالقول في هذا المقام القول القلبي ، أي اذكر الله عنى الأشياء كلها

تفن ولم يبق إلا مولاها، ثم اترك الناس في وهمهم يلعبون. ومن جملة الأشياء النعم التي يتجلى بها، فإذا ذكر الله عليها غاب في شهوده عنها، واستغنى به عن كل ما سواه. قال الشبلي رضي الله عنه: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة.

وقال أبو محمد الحريري رضي الله عنه: من رأى النعم ولم ير المنعم فقد حجب عن الشكر، ومن رأى المنعم بغيبة النعم فقد شكره. انتهى.

تنبيه: كثيراً ما يستدل الصوفية بهذه الآية على الانقطاع إلى الله والغيبة عما سواه، وهو تفسير إشارة لا تفسير معنى اللفظ، لأنها نزلت في الرد على اليهود حيث قالوا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْمَلُونَهُ قَرَاتِيسَ يُدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلَّيْتُمْ مَا لَزَّ نَعْلُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ [الأنعام: الآية 91]، فقال لهم الحق تعالى: ﴿قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ [الأنعام: الآية 91]، فلما لم يجيبوا قال الله تعالى لنبيه: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ [الجمانية: الآية 26] أي قل لهم: أنزله الله، ثم لا تجادلهم بل ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: الآية 91]. والصوفية رضي الله عنهم يقرون الظاهر على ظاهره ويقتبسون إشارات خفية لا يعرف مقصودهم غيرهم، ولذلك رد عليهم بعض المفسرين حيث لم يعرف قصدهم: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ [البقرة: الآية 60].

وأما ذكر هذا الاسم باللسان مجرداً ففيه ثلاثة أقوال، أحدها: الجواز مطلقاً. والثاني: الكرامة مطلقاً. والثالث: التفصيل، يجوز لأهل النهايات دون أهل البدايات. والمشهور الأول وعليه طريق الشاذلية ومن تعلق بهم، والله تعالى أعلم.

● ولما استدل بما في كتابنا ذكر ما في كتاب من قبلنا، فقال:

(وَقَدْ أَوْحَى إِلَيَّ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا دَاوُدُ قُلْ لِلصُّدِّيقِينَ بِي قَلْبِي فَرَحُوا، وَبِذِكْرِي فَلَيَتَنَعَّمُوا)

قلت: لا يكمل الفرح بالله حتى يخلو القلب من محبة ما سواه، فما دام العبد متعلقاً بشيء من السوى فلا يكمل فرحه بالله ولا يتم تنعمه بذكر الله. أو تقول: ما دامت الروح مسجونة في سجن الهيكل لا يتم فرحها بالله ولا تتنعم بذكر الله، فإن تخلصت من سجن البدن، وتحررت من رقب الأكران، كمل فرحها بالواحد المنان، وأنشدت:

أنتم سروري وأنتم مشتكى ألمي وأنتم في ظلام الليل أقماري
فإن نطقت نلم أنطق بغيركم وإن صمتت فأنتم عقد إضماري

وهذا هو الفرح الحقيقي والسرور الأصلي وما سواه أعراض لأغراض.

قال المقدسي: السرور أعلى من الفرح لأن الفرح ربما شيب بالمحزن الذي هو مقابله، والسرور لا حزن معه. وقيل: هما شيء واحد.

وقال بعضهم: السرور على ثلاثة أقسام: بداية ووسط ونهاية. فبداية السرور يذهب به خوف القطيعة وظلمة الجهل ووحشة الفراق، وأما وسطه فإنه يكشف حجاب العلم، ويفك رِقّ التكليف، وينفي التدبير والاختيار، وأما غايته فإنه يسحر آثار الوحشة، ويقرع باب المشاهدة، ويضحك وجه الروح لبشارة التجلي، ففي بداية الفرح والسرور يحصل التصديق، وفي وسطه يحصل الأنا، وفي نهايته يحصل الجمع والوصال. انتهى.

وقد ضرب بعضهم مثلاً للأقسام الثلاثة، أعني من يفرح بالنعم من حيث إنه ينال فيها شهوته، أو يشهد فيها مثته ومعونته، أو يفرح بالمنعم وحده، فقال: مثل ذلك كثلاثة رجال قدموا على السلطان فأعطى لكل واحد فرساً وسيفاً.

أما أحدهم فقال: هذا فرس نتمتع به ونركب عليه في حوائجي ونقاتل به عدوي، ففرح به من حيث يقضي به مآربه وشهواته، وليس في قلبه محبة للملك إنما جاء لقضاء حاجته.

وأما الآخر فقال: هذا فرس نستعين به على خدمة الملك وعلى القدوم عليه وعلى مجاهدة عدوه. ففرح بالفرس من حيث إنه يستعين به على حوائج الملك ومآربه دون حوائج نفسه.

وأما الثالث فقال: إن الملك يحبني ويعظمني حتى أعطاني هذا الفرس، فهذا اعتناء من الملك وإقبال عليّ. ففرح بالفرس من حيث إنه يدل على محبة الملك له واعتنائه به. فهذا مثل للأقسام الثلاثة. وقد أشبع [الإمام محمد] الغزالي الكلام في هذا المعنى في باب الشكر⁽¹⁾ فانظره إن شئت.

● ثم ختم رسالته بدعاء مناسب، فقال:

(وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ فَرَحَنَا وَإِيَّاكَ بِهِ) أي دون غيره، والمخاطب هو المرسل إليه هذه البطاقة، أو كل من يطالع كتابه، أو يحفظه أو يعمل به، أو من يسمعه وقرىء عليه، وإذا كان فرحنا به وحده كنا من القسم الثالث الذي هو مقام خواص الخواص، ومن كان فرحه بالله كان راضياً به ومرضياً عنه كما قال:

(وَالرُّضَا مِنْهُ) أي ويجعل فرحنا بالرضى من قبله بحيث لا نرضى بشيء

(1) باب الشكر الموجود في كتابه الشهير (إحياء علوم الدين).

دون رضاه عنا، فنكون راضين به مرضياً عنا. قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: الآية 119]. ومن تحصن بها تحصن من الغفلة بحصن منيع ولذلك قال:

(وَأَنْ لَا يَجْعَلَنَا مِنَ الْغَافِلِينَ) الذين يفرحون بالنعم دون شهود المنعم. وقد اشتمل دعاؤه على الأنسام الثلاثة من باب التذلي، فالفرح بالله هو المقام الثالث، وبالرضى منه هو الثاني، واحترز من الأول بعدم جعله منه، وإذا خرج من حرز الغفلة حصل على اليقظة، وهي جماع التقوى الذي أشار إليه بقوله:

(وَأَنْ يَسْلُكَ بِنَا مَسْلَكَ الْمُتَّقِينَ) الذين اتقوا الشرك والمعاصي أولاً، والشهوات والعوائد ثانياً، ولسوية والغيرية ثالثاً، وهو معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: الآية 93]، فالتقوى على ثلاثة أقسام بحسب المقامات.

فتقوى أهل مقام الإسلام حفظ الجوارح من المخالفات اتقاء سخط الله، وإليهم توجه الخطاب بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التقوا: الآية 16]. وتقوى أهل مقام الإيمان حفظ القلوب من الهفوات والخطرات وإليهم توجه الخطاب بقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهَرُ مَمْلُومَتٌ فَمَنْ رَضَ فِيهِكَ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَسَلِّمُهُ اللَّهُ وَكَرَّوْهُوا فَلَيْكَ خَيْرٌ الزَّادِ الْقَوِيُّ وَأَتَّقُوا بِنَاوِلِ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: الآية 197]. فإذا تطهر القلب من الهفوات والخطرات منح بشهود معاني الصفات.

وتقوى أهل مقام الإحسان حفظ السر مما سوى الله، فإذا تطهر السر من الأغيار منح بشهود الأنوار وهي عظمة الذات، ولكل مقام من مقامات التقوى بواعث تبعث على تقواهم.

فالباعث لأهل مقام الإسلام على تقواهم رجاء الثواب وخوف العقاب، فتقواهم على سبيل الخوف والرجاء.

والباعث لأهل مقام الإيمان على تقواهم شهود الجلال والجمال، فتقواهم على سبيل الهيبة والحياء.

والباعث لأهل مقام الإحسان على تقواهم شهود العظمة والكمال، فتقواهم على المحبة والتعظيم.

ومن حصل مقام التقوى وحاز منها الغاية القصوى دام عليه السرور والفرح

وذهب عنه الحزن والترح .

قال ذو النون : رأيت شيخاً في الركب يمشي وبيده مصحف وهو يقرأ ويهتز ويرقص في مشيته ، فقلت : يا شيخ ما هذا الرقص ، فقال : قلت في نفسي عبد من أنا ، وكلام من أنا أتلو ، وبيت من أنا قاصد ، فهزتني حالة الفرح وأطربني ذلك من غير قصد مني انتهى .

● ثم توسل فيما طلب بمنّة الله وكرمه فقال :

(بِعَنِّي وَكَرَمِي) أي إنما أطلب ما تقدم من منّة الله وكرمه لا بسبب عمل ولا حال ، وكل هذا اعتماد على مولاه فيما أولاه وتولاه في مبدئه ومنتهاه .

[المناجاة]

وها هنا انتهى الكتاب وما بقي إلا مناجاة الكريم الوهاب . قال بعض الشراح : هذه المناجاة على قسمين : قسم يقضي بالتعريض والتأهب ، وقسم يشهد بالتحقيق والتأدب . وأكثر ما يظهر فضلها للتالي في رقت الأسحار وبعد صلاة الصبح ، فلها هناك سر عظيم وفتح جسيم ، فمن لازمها في ذينك الوقتين وجد بسطاً زائداً على العادة ، ولها خواص وأسرار يعرفها من جربها من العبّاد والزّهّاد والطلّابين لمعرفة رب العالمين .

[الافتقار إلى الله تعالى]

ووجه مناسبتها لما قبلها ، أن القلب إذا انبسط بالفرح بالحبيب انطلق اللسان لمناجاة القريب ، فقال في أولها :

1 - (إِلَهِی اَنَا الْفَقِيرُ فِي غِنَايَ ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي؟)

قلت : إنما ابتدأ مناجاته بالتحقيق بانفقر لما يعقبه من سرعة الغنى . وقد قلت في قصيدة تقدمت :

تحقق بوصف الفقر في كل لحظة فما أسرع الغنى إذا صُحِّحَ الفقر
يقول رضي الله عنه : أنا الفقير في غنای الوهمي الإدعائي ، فكيف لا أكون فقيراً
في فقري الحقيقي الأصلي؟ أو يقول : أنا الفقير في حالة حياتي التي يظهر فيها صورة
غنای بعشیرتي وأحبابی ، فكيف لا أكون فقيراً بعد مماتي حين يتخلف عني أحبابی
وجیرتی . قال القائل⁽¹⁾ :

أنا الفقيرُ إليكم والغنيُّ بكم وليس لي بعدكم حرصٌ على أحدٍ
ولله در القائل⁽¹⁾ :

إنني إليك مع الأنفاس محتاج لو كان في مفرقي⁽²⁾ الإكليلُ والتاجُ
وفي إظهار الفاقات إلى الله ، وإنزال حوائجه بساحة مولاه مع رفع الهمة عما
سواه من الحفظ والمكانة وعزارة القدر عند الله ، ما يكلّ عن وصفه اللسان ، ويعجز
عن حمله واسع الجنان .

وقال أبو القاسم القشيري : من أشار إلى الله ثم رجع بحوائجه إلى غيره أفقره الله
إلى الخلق ، ثم نزع له الرحمة من قلوبهم ، ومن شهد محل افتقاره إلى الله ورجع
بحوائجه إليه أغناه الله من حيث لا يحتسب ، وأعطاه من حيث لا يرتقب .

(1) لم أقف على اسم هذا القائل .

(2) المَفْرُق : وسط الرأس وهو الذي يفرق فيه الشعر ، والفرق : موضع المفرق من الرأس ، وفرق الرأس : ما بين الجبين إلى الدائرة (لسان العرب) .

فليثق العبد بربه وليشتغل بما أمر به ، وليكن كما قال بهلول المجنون : نعبده كما أمرنا وهو يرزقنا كما وعدنا . ولا يتعلق بمخلوق أصلاً قلباً ولا قالباً ، وليمح الخواطر التي تخطر بباله من هذا المعنى قبل أن تستحكم فيه ، فيعاقب بالحرمان ويرمى بالخذلان . وأنشدوا⁽¹⁾ :

مددت يدي أرجو نوالاً ورحمة وما لي شفيح غير جودك والرجا
فجد لي بعفو منك وارحم تذليلي فأنت الذي أعطيتني الفقر واللجا

[وصفنا الجهل]

ثم إن الفقر والجهل من أوصاف العبودية ، كما أن الغنى والعلم من أوصاف الربوبية ، فلما أدلى بفقره إلى غنى مولاه ، أدلى بجهله إلى سعة علم مولاه ، فقال في المناجاة الثانية :

2 - (إلهي أنا أَلْجَاهِلُ فِي عِلْمِي ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهُولاً فِي جَهْلِي؟)

قلت : يقول رضي الله عنه : أنا الجاهل في علمي العارض الذي علمتني ، فكيف لا أكون جاهلاً في جهلي الأصلي الذي فيه أركزتني؟ أو يقول : أنا الجاهل في حال نسبتي إلى العلم الذي علمتني ، فكيف لا أكون جهولاً في جهلي الذي هو أصلي ومحلي؟ وما نسبة علم العبودية في جانب علم الربوبية إلا كمنقرة العصفور من البحر كما قال الخضر عليه السلام لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام : قال تعالى : ﴿ وَمَا أُرِيْتُمْ مِنْ آلَائِهِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : الآية 85] ، وقال : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة : الآية 255] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْتَ أَخْرَجْتَهُمْ مِنْ بَطْنِ أُمَمِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [التحل : الآية 78] فالعلم العارض لا يدفع الجهل الأصلي ، هذا باعتبار الحكمة والنظر إلى أصل البشرية . وأما الروحانية فأصلها علامة دراكة لأنها نموذج رباني ولطيفة نورانية ، فإنما حجبها كثافة البشرية وظلمة الطبيعة كما قال [الشيخ ابن البناء] في المباحث [الأصلية] :

فلم تزل كل نفوس الأحياء علامة دراكة للأشياء
وإنما تسحبها الأبدان والأنفس النزرع والشيطان
فكل من أذاقهم جهاده أظهر للقاعد خرق المعاده

[عدم السكون إلى العطاء وعدم اليأس في البلاء]

ثم إن من تحقق بفقره الأصلي لا يسكن إلى غناه العارض ، ومن تحقق بجهله الأصلي لا يسكن إلى علمه الفرعي ، فإن الأمور كلها بيد الغني الكريم والقلوب كلها

(1) لم أقف على اسم هذا المنشد .

بيد المدبر الحكيم، كما أبان ذلك في المناجاة الثالثة بقوله :

3 - (إِلَهِي إِنَّ اخْتِلَافَ تَدْبِيرِكَ، وَسُرْعَةَ حُلُولِ مَقَادِيرِكَ، مَنَعَا جِبَادَكَ الْعَارِفِينَ بِكَ عَنِ السُّكُونِ إِلَى عَطَاءٍ، وَالْيَأْسِ مِنْكَ فِي بَلَاءٍ)

قلت : اختلاف التدبير هو إقامة كل عبد في حكمته على حسب إرادته ومشيبته من فقر أو غنى، من علم أو جهل، من عز أو ذل، من قبض أو بسط، من سقم أو صحة أو مرض، من إيمان أو كفر، إلى غير ذلك من اختلاف آثار القدرة وتنوع مظاهر الحكمة. وسرعة حلول المقادير هو تبديل تلك الأحوال في أسرع حال من فقر إلى غنى ومن غنى إلى فقر، ومن علم إلى جهل ومن جهل إلى علم، ومن عز إلى ذل ومن ذل إلى عز، ومن قبض إلى بسط ومن بسط إلى قبض، ومن سقم إلى صحة ومن صحة إلى سقم، ومن إيمان إلى كفر والعياذ بالله، ومن كفر إلى إيمان.

فقلوب الخلق بيد الله الواحد القهار يقلبها كيف يشاء، ويختار ويفعل بها ما يشاء ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء : الآية 23] فإذا تحقق العبد بهذا امتنع من أن يسكن إلى ما أعطاه مولاه، لأنه قد يسلبه ذلك في ساعة واحدة، وامتنع أيضاً أن يياس من مولاه في وقت شدته وبلواه. قال تعالى : ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح : الآيتان 5، 6] ودوام الحال من قضايا المحال، لكن لم يتحقق بهذا ذوقاً إلا العارفون، فلذلك لا يسكنون إلى عطاء، ولا يياسون في بلاء، بل يسكنون إلى من بيده المنع والعطاء، فلذلك لا يزول اضطرابهم ولا يكون مع غير الله قرارهم. ودليل ما قاله الشيخ قوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن : الآية 29] ولا مفهوم لليوم، بل في كل لحظة هو في شأن، يرفع أقواماً ويخفض آخرين، يعز قوماً ويذل آخرين، يميت قوماً ويحيي آخرين، يعطي قوماً ويمنع آخرين، من أمور يبيدها لا يبتدئها.

وقال الشطبي في هذا المحل : فقلوب العارفين تشاهد بنوره ولا مشاهد للحق سواء، ومنازلات الربوبية خارجة عن رسوم البشرية، فعلامة العارف أن يكون قلبه مرآة يرى فيه ما غاب عن غيره، وجللاء القلب لا يكون إلا بنور الإيمان والإيقان، فعلى قدر قوة الإيمان يكون نور القلب، وعلى قدر نور القلب تكون مشاهدة الحق، وبقدر مشاهدة الحق تكون المعرفة بأسمائه وصفاته، وبقدرهما يكون التعظيم لذاته، وبقدر التعظيم لذاته يكون كمال العبد، وبقدر كماله يكون استغراقه في أوصاف العبودية، وبقدر استغراقه في أوصاف العبودية يكون قيامه بحقوق الربوبية، وما قدروا الله حق قدره، انتهى.

قلت : وبقدر قيامه بحقوق الربوبية يكشف له عن أسرار الألوهية.

[لؤم النفس]

ومن أوصاف العبودية بعد الفقر والجهالة، الخساسة واللامة، كما أن من

أوصاف الربوبية بعد الغنى والعلم، الإحسان والكرم. فأدلى الشيخ بذكر لآمة نفسه إلى كرم مولاه وإحسانه، فقال في المناجاة الرابعة:

4 - (إِلَهِي مِنِّي مَا يَلِيقُ بِلُؤْمِي، وَمِنْكَ مَا يَلِيقُ بِكَرَمِكَ)

اللؤم بضم اللام وسكون الهمزة هو الشح والدناءة، وفي القاموس: لؤم بالضم ضد كرم. يقول رضي الله عنه: إلهي يظهر مني من الدناءة والخساسة واللامة والمساوي ما يليق بلامتي ودناءتي، ويظهر منك من المبرة والإحسان والكرامة والامتنان وتغطية المساوي والنقصان ما يليق بكرمك الزاخر وكمال إحسانك الباهر، فقابل إساءتنا بإحسانك، وغط مساوينا بوصف كرمك وامتنانك، فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة يا أكرم الأكرمين.

وقيل: إن الله تعالى خلق ملكاً ينادي: يا ابن آدم يا مسكين كنت في العدم مفقوداً، فمن ذا الذي صيرك نسخة الوجود إلا الكريم ذو الجود، من ذا الذي أبرزك من عالم الغيب لعالم الشهود، من ذا الذي استنقذك من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، من ذا الذي تكفل بشؤونك إلا الكريم المنان، نكن مطيعاً لله تكن عبده حقاً، ولا تطع نفسك وهواك فتكون لهما رقاً. انتهى.

ومن كرمه تعالى أن سبقت رحمته غضبه، ومن كرمه أيضاً إقباله على العاصي والمطيع. ففي الحديث الصحيح: «لما خلق الله الخلق قال للقلم: اكتب، قال: وما أكتب، قال: اكتب رحمتي سبقت غضبي. نكتبه وألقى الكتاب فوق العرش»⁽¹⁾ زاد بعضهم: «فإذا كان يوم القيامة رأى الناس ذلك الكتاب فيقرأه كل من سبقت له السعادة ويحجب عن أهل الشقاوة».

وفي الحديث أيضاً: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق مائة رحمة أنزل منها واحدة إلى الأرض وأمسك عنده تسعة وتسعين، فمن تلك الرحمة الواحدة التي أهبطت إلى الأرض تراحمت الخلائق بينهم حتى أن الدابة لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»⁽²⁾، فإذا كان يوم القيامة ضم تلك الرحمة إلى التسع والتسعين ونشرها بين عباده فتسع المخلوق كافة ويحرم منها من هو كافر، وهو معنى قوله تعالى: ﴿رَزَخَمَتِي وَسَيَعَثُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: الآية 156] الآية. انتهى بالمعنى.

ويروى أن رجلاً اصطاد أفرانخاً، فلما أخذهم جعلت أمهم تطير فوقهم، ثم سقطت عليهم فضمها مع أولادها، فأتى بها النبي ﷺ فأخبره خبرها فقال عليه السلام:

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه الدارمي، باب إن لله مائة رحمة، حديث (2785) [2/413].

«أتمجبون لهذا الطائر، والله لله أرحم بعبده المؤمن من هذا الطائر بأفراخه»⁽¹⁾.

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «يخرج من النار رجلان ثم يمثلان، أي يوقفان، بين يدي الله فيؤمر برجوعهما إلى النار، فيسرع أحدهما فيلقي نفسه فيها ويتعاصى الآخر عن الرجوع، فيقال للذي رمى بنفسه: لم أقيت نفسك في النار، فيقول: لئلا أكون عاصياً في الدنيا ثم أكون عاصياً في الآخرة. ويقال للآخر: لِمَ لَمْ تَمثل الأمر كما فعل هذا، فيقول: رجوت من كرم الله أن لا يعيدني إليها بعد أن أخرجني. فيؤمر بهما إلى الجنة»⁽²⁾. وأنشدوا⁽³⁾:

ولو أن فرعونَ لمَّا طَغَى وقالَ على اللهِ قولاً عظيماً
أنابَ إلى اللهِ مستغفراً لَمَّا وجدَ اللهَ إلأ رحيماً

[لطف الحق ورافته تعالى]

وكيف لا يرجى حلمه وكرمه وشمول لطفه ورحمته، وقد سبق وجود العباد لطفه ورافته، كما أبان ذلك في المناجاة الخامسة حيث قال:

5 - (إِلَهِهِ وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ بِي قَبْلَ وَجُودِ ضَعْفِي، أَتَتَمَنُّنِي مِنْهَا
بَعْدَ وُجُودِ ضَعْفِي؟)

قلت: اللطف بانضم الرفق والمبرة وصلاح العبد في عاقبته. وفي القاموس: لطف لطفاً بالضم: رفق ودنا، ولطف الله بك: أوصل إليك مرادك بلطف. انتهى. والرافة: شدة الرحمة وأرقها. قاله في القاموس أيضاً. والضعف: ضد القوة.

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، السابع والأربعون من شعب الإيمان، حديث رقم (7131) [5/421] والصنعاني في تفسيره، سورة هود.

(2) أخرج نحوه الهيثمي في مجمع الزوائد، باب ما جاء في رحمة الله [10/384] ونصه: عن فضالة بن عبيد وعبادة بن الصامت أنهما حدثا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا كان يوم القيامة وفرغ الله تعالى من قضاء الخلق فيبقى رجلان فيؤمر بهما إلى النار فيلقت أحدهما يقول الجبار: ردوه، فيردونه، فيقول: لم التفت؟ قال: كنت أرجو أن تدخلني الجنة، قال: فيؤمر به إلى الجنة فيقول: لقد أعطاني الله عز وجل حتى إنني لو أطعمت أهل الجنة ما نقص ذلك مما عندي شيئاً، قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكره يرى السرور في وجهه». رواه أحمد ورجال وثقوا على ضعف في بعضهم.

وعن أبي سعيد وأبي هريرة قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «آخر من يخرج من النار رجلان، يقول الله لأحدهما: يا ابن آدم ما أعددت لهذا اليوم هل عملت خيراً قط، أو رجوتني؟ فيقول: لا يا رب. فيؤمر به إلى النار وهو أشد أهل النار حسرة. ويقول للآخر: هل عملت خيراً قط أو رجوتني؟ فيقول: نعم يا رب، كنت أرجو إن أخرجتني أن لا تعيدني فيها وهو آخر من يدخل الجنة». رواه أحمد والبخاري وزاد: هل خفتني، ورجال الصريح غير علي بن زيد وهو حسن الحديث.

(3) لم أقف على اسم هذا المنشد.

يقول رضي الله عنه شاكياً إلى الله ضعفه وفقره ومستمدأً من مولاه لطفه ورأفته :
 إلهي وصفت نفسك في كتابك العزيز الذي أنزلته إلينا باللطف والرفافة فقلت فيه : ﴿اللَّهُ
 لَطِيفٌ بَعْبَادِهِ﴾ [الشورى: الآية 19] ، وقلت : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ لَرُؤْفٍ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: الآية 9] ،
 واتصافك باللطف والرفافة قديم ، فإذا كنت بنا لطيفاً رحيماً قبل وجود ضعفنا ، فكيف لا
 تمنحنا من لطفك ورأفتك بعد ظهور ضعفنا؟ لطفت بنا ونحن للطف غير محتاجين ،
 أفتمنعنا منه عند احتياجنا إليه وأنت أرحم الراحمين؟ أجريت علينا رفقتك قبل أن تبرزنا
 إلى دارك أفتمنعنا منه بعد ظهورنا مع عظيم إبررك؟ ومن تفكّر في عجائب صنع الإنسان
 وما خصه الله به من كمال الخلق والإتقان وما يلحقه من ضروب المنن والإحسان ،
 وجد نفسه مغموراً في لطف مولاه مرفوقاً به في أول منشئه ومنتهاه .

قد سرى لطفه في جميع الأكران وأبهرت حكمته أفكار الإنس والجان .

[المحاسن من فضله تعالى والمساويء بعدله تعالى]

فهذه الطافه الواصلة إلينا ومحاسنه الجارية علينا ، فإن رفقتنا سبحانه للقيام
 بشكرها بمحاسن الأفعال والأقوال فذلك من فضله وكرمه ، وإن صرفنا عن شكرها
 بظهور مساوي أفعالنا فبقره وعدله ، كما أبان ذلك في المناجاة السادسة فقال :

6 - (إلهي إن ظهّرت المَحاسِنُ مِنِّي فَبِئْضَلِكُ وَلَكَ الْمِنَّةُ عَلَيَّ ، وَإِنْ ظَهَّرتِ
 الْمَسَاوِيءُ مِنِّي فَبِعَدْلِكَ وَلَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ)

قلت : ظهور المحاسن على الإنسان في أقواله وأفعاله وأخلاقه هو من منة الله
 العظيمة وهداياه الجسيمة ، لأنه عنوان المحبة والقبول وذلك هو غاية المطلوب
 والمأمول . وظهور المساويء على العبد في أقواله وأفعاله هو من عدله تعالى وقهره ،
 وإظهار الحجة عليه ، قال تعالى : ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ﴾ [الانعام: الآية 149] فلو شاء
 لهداكم أجمعين ، فالعبد ليس له مع الحق اختيار ولا قدرة على نفع ولا إضرار ، فإن
 صرفه سيده فيما يرضى فلظهور اسمه الكريم ، وإن صرفه فيما لا يرضى فلتصريف اسمه
 الحكيم ، أو لإظهار اسمه القهار أو المنتقم أو الجبار ، فالنواصي بيده ، والقلوب بين
 أصبعيه .

ولله در الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه حيث يقول في بعض أدعيته : اللهم إن
 حسناتي من عطائك وسيئاتي من قضائك ، فجد اللهم بما أعطيت على ما به قضيت حتى
 تمحو ذلك بذلك ، لا لمن أطاعك فيما أطاعك فيه الشكر ، ولا لمن عصاك فيما عصاك
 فيه العذر ، لأنك قلت وقولك الحق ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: الآية
 23] اللهم لولا عطاؤك لكنت من الهالكين ، ولولا قضاؤك لكنت من الفائزين ، وأنت

أجل وأعظم وأعز وأكرم من أن تطاع إلا برضاك، أو أن تعصى إلا بقضائك .
 إلهي ما أطعتك حتى رضيت، ولا عصيتك حتى قضيت، أطعتك بإرادتك ولك
 المنة عليّ، وعصيتك بقدرتك ولك الحجة عليّ، فوجود حجتك وانقطاع حجتي إلا ما
 رحمتني، وبفقري إليك وغناك عني إلا ما كفيتهني .
 اللهم إني لم آت الذنب جرأة مني عليك ولا استخفافاً بحقك، لكن جرى بذلك
 قلمك ونفذ به حكمك، ولا حول ولا قوة إلا بك، والعدر إليك، وأنت أرحم
 الراحمين .

اللهم إن سمعي وبصري ولساني وقلبي وعقلي بيدك لم تملكني من ذلك شيئاً،
 فإذا قضيت بشيء، فكن أنت وليي واهدني إلى أقوم سبيل، يا خير من سئل ويا أكرم من
 أعطى، يا رحمن الدنيا والآخرة أرحم عبداً لا يملك دنيا ولا آخرة .
 وقال ذو النون رضي الله عنه : رأيت جارية والصبيان يرمونها بالحجارة [وهي
 تنشد]:

يا حبيبَ القلوب أنتَ الحبيبُ أنتَ أنسي وأنتَ مِنِّي قريبُ
 يا طبيباً بذكره يتداوى كل ذي سقم فنعمَ الطبيبُ
 طلعت شمس من أحب بليل واستنارت فما تلاها غروبُ
 إن شمسَ النهار تغربُ بليل وشموسُ القلوبِ ليستَ تغيبُ
 فإذا ما الظلام أسبلَ سيراً فإلى ربها تحنُّ القلوبُ

[الله تعالى هو الكفيل والناصر]

وإذا حنت القلوب إلى مولاها وانضمت إليه بعشقها وهواها كيف يكلها إلى غيره
 وهو قد تولاه؟ وكيف لا ينصرها وهو إليه قد آواها؟ كما أبان ذلك في المناجاة
 السابعة بقوله :

7 - (إلهي كيف تكلني إلى نفسي وقد توكلت لي؟ وكيف أضام وأنت الناصر
 لي؟ أم كيف أخيب وأنت الحفي بي؟ ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك)

(إلهي كيف تكلني) أي تحوجني إلى غيرك (وقد توكلت لي) بأموري وشؤوني
 كلها حيث قلت: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: الآية 3] ، وقلت: ﴿وَمَا مِنْ
 دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: الآية 6] (وكيف أضام) أي أظلم وتنتهك حرمتي
 (وأنت الناصر لي) فتصبرني وتصبر لي وتصبر بي، وقد قلت في كتابك الحكيم: ﴿إِنَّكَ

اللَّهِ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿[الفتح: الآية 38] ، وقلت وقولك الحق: ﴿إِن تَصْرَوُا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَتْمَانَكُمْ﴾ [محمد: الآية 7] ، وقلت وحكمك حق: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: الآية 47] فانصرنا يا خير الناصرين كما نصرت أنبياءك ورسلك وخاصة أوليائك المقربين يا أرحم الراحمين (أَمْ كَيْفَ أَخِيبُ) أي أحرم وأمنع من الخير (وَأَنْتَ الْخَبِيرُ) أي المعتمي بأموري، أو الرفيق بي في جميع أحوالي، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: الآية 257] ، وقال: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: الآية 196] فتولنا يا مولانا برعايتك، وحفنا بعنايتك، واجعلنا بك منتصرين، وعليك متوكلين يا رب العالمين. (ها أنا أتوسل إليك بفقرتي إليك) حتى من فقري، وافتقاري إذ لا نسبة لي منك سوى فقري إليك، فأنا فقير إليك من كل شيء حتى من فقري، فإن كان الأغنياء قد قدموا بين أيديهم الأموال، فأنا أقدم إليك فقري في جميع الأحوال، وإن كان الأقوياء قد قدموا إليك صالح الأعمال، فأنا أقدم إليك التضرع والابتهاال.

ما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك ربي أضرع،
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة فليسن رددت فأني باب أقرع
رأي نسبة لفقر العبد من غنى مولاه؟ كما قال:

7 - (وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ)

لأنك غني عن الانتفاع بالمنافع، فاغتنا بك عن الاحتياج إلى غيرك حتى ألقاك بك لا بغيرك إنك على كل شيء ندير.

روي أن شيخ أشياخنا القصب الجامع مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه قال للشيخ أبي الحسن [الشاذلي] رضي الله عنه: يا أبا الحسن بم تلقى الله، قال: بفقري، قال له: والله لئن لقيت الله بفقرك لتلقاه بالصنم الأعظم هلا لقبته به. وكانه رضي الله عنه دله [على] الزوال عن نفسه وعن كل ما ينسب إليها من فقر وغيره.

قال الهروي رضي الله عنه: فقر العامة ترك الدنيا، وفقر الخاصة ترك الدنيا والآخرة، وفقر خاصة الخاصة ترك الدنيا والآخرة والنفس. انتهى.

وإظهار هذه الأمور بين يدي العليم الخبير عبودية فقط، ولذلك قال:

7 - (أَمْ كَيْفَ أَشْكُو إِلَيْكَ حَالِي وَهُوَ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ)

إذ محال أن يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء ﴿وَإِن تَجَهَّرَ بِأَقْوَالٍ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7] ، ﴿وَأَيُّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجَهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 15] ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴿[المثل: 13-14] ، فحسبي من سؤالي علمه بحالي (أَمْ كَيْفَ أَتَرْجِمُ لَكَ بِمَقَالِي) عما في ضميري (هو) أي مقالي (منك برز) إذ لا يوجد سواك ،

خير أن مقام الربوبية يقتضي وظائف العبودية، وهي إظهار الفاقة والاحتياج والتضرع باللسان والابتهاال دون طلب دفع ما قدر أو جلب ما لم يقدر، كما قال الشيخ أبو الحسن: ولا نسألك دفع ما تريد، ولكن نسألك التأييد بروح من عندك فيما تريد، كما أيدت أنبياءك ورسلك وخاصة الصديقين من خلقك، إنك على كل شيء قدير.

7 - (أَمْ كَيْفَ تَخِيبُ آمَالِي) أي مطامعي وحوائجي (وَهِيَ قَدْ وَقَدَّتْ إِلَيْكَ) أي نزلت بساحة كرمك، وعلى ساحل بحر وجودك، وحطت الأحمال على باب فضلك، والتجأت إلى حصن عزك، وكيف تخيبون آمال الطامعين وباب كرمكم مفتوح؟ أم كيف يحرم قاصدكم وبحر فضلكم وإحسانكم ممنوح؟ أم كيف يضام جاركم وجاء عزكم منيع؟ أم كيف يخفر جواركم ونفوذ أمركم في الأشياء سريع. وأنشدوا⁽¹⁾:

أَيْضاً عَبْدٌ فِي حِمَاكُمْ قَدْ نَزَلَ يَا مَنْ لَهُمُ كُلُّ الْأَمَانِي وَالْأَمَلِ
7 - (أَمْ كَيْفَ لَا تَخْسُنُ أَحْوَالِي) بل لا تكون إلا في غاية الحسن والكمال (و) الحال أنها (وَيْكَ قَامَتْ) إذ لا قيام للعبد إلا بالله، ولا وجود له من ذاته بذاته، وكل من كان بالله ومن الله وإلى الله فكيف يلحقه النقص والخلل؟ ولذلك قال: (وَالْيَكُ) أي قامت بقدرتك، وانتهت إلى أمرك ومرادك، فالأمور كلها أنت مبدؤها ومصدرها، وإليك منتهاها ومرجعها، قال تعالى: ﴿وَالْيَكُ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلَّهُ فَأَصْبَدَهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: الآية 123] وأنشدوا⁽²⁾:

أَقْبَلْ عَلَيْنَا لَا تَخَفْ فَلَنَا الْهُدَى وَلَنَا الْجَلَالُ مَعَ الْجَمَالِ خُذِ الصُّفَا
وَانصُدْ جَمَانَا مَا أَتَانَا مُذْنِبٌ إِلَّا نَجَا لَوْ كَانَ مِنَ الذَّنُوبِ عَلَى شَفَا
اللهم إنا قصدنا حماك خاضعين، ولجنابك منتسبين، وبحبل جوارك متمسكين، وبعز جاهك مستعزين، وبنصرك السريع منتصرين، فانصرنا ولا تنصر علينا يا خير الناصرين، حاشا عهدك الوافي ونصرك الكافي أن تخذل من دخل تحت جوارك، أو تطرد من وقف ببابك، يا خير من سئل وبأكرم من أعطى، ارحم عبداً لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً برحمتك يا أرحم الراحمين.

[لطف ورحمة الله تعالى]

8 - (إِلَهِي مَا أَلْفَقَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي) وَمَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَيْحِ فِعْلِي

(1) لم أقف على اسم هذا المنشد.

قلت : هذه المناجاة الثامنة وهي تسميم لما قبلها ، لأن الحق إذا كان وكبلاً لك وناصراً لك وحفياً بك ، فقد لطف بك وأنت لا تشعر ، فاللطف هو سوق المسار من حيث المضار ، أو سوق المنافع في قالب الفجائع .

(والحاصل) أن اللطف هو جلب الخير جلباً لطيفاً لا يعرفه إلا أهل البصائر ، فاللطف الجميل هو الذي يكون باطنه نعمة وظاهره نعمة ، باطنه جمال وظاهره جلال ، فالعارف بالله يرى نفسه مغموراً في اللطف في كل حال ، ولذلك قال الشيخ [ابن عطاء الله] رضي الله عنه فيما تقدم : من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره . وأما الجاهل بالله فلا يشعر باللطف إلا إذا كان حسياً ظاهراً جلياً ، ولذلك قال الشيخ في هذه المناجاة تواضعاً وتنزلاً :

(إِلَهِي مَا أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي) حيث جهلت لطفك الخفي وطلبت لطفك الجلي . ولو عاملنا الحق تعالى بمقتضى جهلنا ، لنزع لطفه الخفي عنا وتركنا مع مرادنا ، ولكنه سبحانه حلیم فلم يعاملنا بمقتضى جهلنا فلطف بنا مع عظيم جهلنا ، ولذلك تعجب الشيخ من شدة لطف الله به مع عظيم جهله ، وهذا كما قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه : إذا سألت الله العافية فاطلبها من حيث يعلم أنها لك عافية . وقال أيضاً في مرضه حين قال له إنسان : أسأل الله لك العافية ، قال له : ما أنا فيه هو العافية . وقد سأل العافية أبو بكر رضي الله عنه فمات مسموماً ، وسألها عمر رضي الله عنه فمات مطعوناً ، وسألها عثمان رضي الله عنه فمات مذبحاً ، وسألها علي رضي الله عنه فمات مقتولاً . انتهى .

فالعافية واللطف هو الرضى والتسليم ، وسكون القلب عند مجاري الأقدار ، والرحمة هي اللطف والمحبة والتقريب ، فالحق تعالى يريد أن يقرب عبده إليه ويطوي مسافة البعد بينه وبينه بما يسقط عليه من إذاية الخلق والفقر والأمراض وغير ذلك مما يؤلم النفس . ثم إن العبد يفر منها ويسأل الله أن يبعده منها لأجل جهله وتبجح فعله ، ولذلك ورد في بعض الأخبار يقول الله تعالى : «يا عبدي كيف أرحمك بدفع ما به أرحمك»⁽¹⁾ ، أو كما قال . وهذا معنى قوله :

9 - (وَمَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ لِعَلِي) وهو هروبي مما به رحمتي .

ويحتمل أن يريد بقبيح الفعل : الذنوب والمعاصي ، فإنها توجب المقت والبعد ،

(1) هذا الخبر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع .

فلو عاملنا بمقتضى فعلنا الذميمة لأذاقنا من بأسه الأليم، لكن رحمة الرحمن الرحيم غلبت عذابه الأليم أوحى الله تعالى إلى سيدنا موسى عليه السلام: يا موسى خاطب المذنبين باللطف واللين، وادعهم إليّ بالقول الجميل، ورغبهم في النعيم المقيم، ولا تغلظ عليهم فلو شئت أن أعجل عقوبتهم لما أمهلتهم طرفة عين، وأعلمهم أنه من تاب إليّ قبلته ومن تمادى أمهلته ومن عصاني عذبتّه، يا موسى من ذا الذي قصدني صادقاً فخيبتّه أو لجأ إليّ فأسلمته، أو سألني فمنعته أو رجع إليّ فطرده، أو تاب إليّ وما قبلته، أو تضرّع إليّ وما رحمته. انتهى.

ولما أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مَّصِيكَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: الآية 30] قال علي كرم الله وجهه فسرها النبي ﷺ بقوله: «من أخذ الله بذنبه في الدنيا فهو أكرم من أن يعذبه عليه في الآخرة، ومن عفا عنه في الدنيا فهو أعز من أن يعاقبه في الآخرة، ومن ستره في الدنيا فهو أجل من أن يفضحه في الآخرة»، قال علي: فكانت عندي خيراً من الدنيا وما فيها⁽¹⁾. وأنشدوا⁽²⁾:

سبحان مَنْ أبدعَ الأشياءَ وقَدَّرَها وَمَنْ يَجُودُ عَلَى العاصي وَيَسْتُرُهُ
يُخْفِي القبيحَ وَيُبْدِي كلَّ صالِحَةٍ وَيَغْمُرُ العبدَ إحساناً وَيَشْكُرُهُ

[شدة قرب الله تعالى]

ولما كان اللطف يقتضي التهذيب والرحمة تقتضي التقريب، تعجب الشيخ من شدة قرب الحق للعبد مع شدة بعد العبد عنه، فقال في المناجاة التاسعة:

10 - (إِلَهِي مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي أَوْ مَا أَبْعَدَنِي عَنْكَ أِلهِي مَا أَرَأَيْتَ بِي لِمَا الَّذِي يَخْبِئُنِي عَنْكَ؟)

قلت: قرب الحق من العبد قرب رحمة واجتباء وتقريب واصطفاء، هذا في حق الخواص، وفي حق العوام هو قرب إحاطة وقدرة وعلم ومشينة وتصريف وقهرية، والمراد هنا هو الأول، فإنَّ بُعدَ العبدِ من ربه إنما هو بسوء أدبه، وإلا فالحق تعالى قريب من كل شيء محيط بكل شيء، ليس شيء أقرب إليه من شيء، ولا شيء أبعد إليه من شيء، وما بُعدَ العبدِ من ربه إلا وهمُّ وسوء فعله، ولذلك قال الشيخ تواضعاً وأدباً: (إِلَهِي مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي) بلطفك ورأفتك وعلمك وإحاطتك، وما أبعدني عنك بوهمي وسوء أدبي، أو ما أقربك مني بأوصاف الربوبية، وما أبعدني عنك بأوصاف العبودية، فأوصاف الربوبية رفيعة القدر عظيمة الشأن، وأوصاف العبودية خسيصة القدر

(1) أورده السيوطي في جامع المسانيد والمراسيل برقم (5901) [313 / 15].

(2) لم ألق على اسم المنشد.

دنيئة المقدار، فلا مناسبة بينهما في القدر مع تلازمهما في المحل بتحقيق الوحدة، فهما متلازمان في القيام متضادان في الأحكام، والرافة شدة الرحمة والعطف، وذلك يقتضي شدة القرب والوصول، وينفي وجود السوية والانفصال، وهو الحجاب، ولذلك تعجب الشيخ من وجود الحجاب بينه وبين مولاه مع شدة رحمته له وما حباه، إذ من تعطف عليك وآواك لا يمكن أن تلتفت عنه إلى سواه.

وفي الحكمة مكتوب: يا عبدي قد أسجدت لك الكون بما فيه، المُلْك وأملاكه والملكوت وأملاكه، فأنت أنا بما أيدتك، وأنا أنت بما قلدتك، فعش للأبد فمقامك لا يزاحمك فيه أحد، يا عبدي خرقت لك الحجاب، وفتحت لك الباب، وأظهرت لك الأمر المعجاب، فأبلغ قومك اللباب، ولو قالوا: ساحر أو كذاب، فأنا قد وهبتك الأخلاق، فدعهم يقولون: ﴿أَخْلَقُ﴾ [ص: 7]. يا عبدي قد جعلتك تقول للشيء كن فيكون، وما عليك إن قالوا ساحر أو مجنون، أنت تشرب من رحيق الكوثر وهم يقولون: إن هذا إلا سحر يؤثر، عرجت بسرك إلى السماء، وعلمتك خصائص الأسماء، فأنت أمين خزائن التحقيق الدال لجمع الخلق على الطريق. يا عبدي من طعن في الوزير وسفه أمره فقد رد أمر الأمير وجهل قدره، من أطاع الرسول فقد أطاع الله. انتهى.

فالله تعالى بجوده وفضله إذ اصطفى عبداً من عباده قرّبه بفضله واجتباها لحضرة قدسه، وصفاه من كشاف طبعه، وحمى شخصه من رعونات نفسه، فيصير من أهل قربه، قد ارتفع الحجاب عن عين قلبه، فزجت روحه في بحار الأحدية، وغاب سره في سباحات الألوهية، فإن كان ممن أريد الاقتداء به رد إلى شهود سر وجوده، وقد كحلت عين قلبه بسر الحقيقة، وكسيت ذاته وجوداً معاراً عليها، وهو وجود الحق المفاض على جميع الممكنات، فيرى ذاته المتوهمة ﴿كَرَّابٍ بِفَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَوْجٍ إِذَا جَاءَهُ، كُرَّ يَجِدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾ [النور: 39]، هنالك يصير العبد بالله والله، أمره بأمر الله حيث لم يبق فيه شائبة لسواه، ولا شيء يحجبه عن الله، فهذا الذي أحبه مولاه واصطفاه لحضرة قدسه واجتباها لمناجاته وأنسه، فكان سمعه وبصره وناصره وحافظه في متقلبه ومشواه، هناك يصير عارفاً به في كل حال وخصوصاً عند اختلاف الأحوال.

[مراد الله تعالى من عبده التعرف إليه في كل شيء]

كما أشار إلى ذلك في المناجاة العاشرة فقال:

11 - (إِلَهِي قَدْ عَلِمْتُ بِأَحْتِلَابِ الْأَثَارِ، وَتَنَقُّلَاتِ الْأَطْوَارِ، أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ

تَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ)

قلت: إنما اختلفت آثار القدرة لتعرف عظمة القادر، واختلافها يكون في الأجسام كالعلويات والسفليات والجمادات والمائعات والنورانيات والظلمانيات والمائيات والناريات، وكاختلافها في الحيوانات كأجناس بني آدم والأنعام والبهائم والطيور والسباع والوحوش والحشرات، رباختلافها في الأعراض كالبياض والسواد والحمرة والصفرة والزرقة والشهوية وغير ذلك من الألوان لتعرف من ذلك سعة قدرته وعلمه وعظمة ذاته المقدسة، وإنما تنقلات أطوارها من شباب وكهولة وشيخوخة، ومن مرض وصحة، وفقر وغنى، رجز وذل، وسلب ورد، ومنع وعطاء، وقبض وبسط، وجلال وجمال، وحياة وموت، إلى غير ذلك لتعرفه تعالى في كل حالة من هذه الأطوار، وعند اختلاف أجناس هذه الآثار حتى لا نجهله في شيء منها.

فإن الحق تعالى قد تعرف لعباده في أجناس مصنوعاته، وفي اختلاف أحوال قدرته، جهله من جهله وعرفه من عرفه، فلا يسمى الإنسان عارفاً حتى يعرف الله في الأشياء كلها مع اختلاف آثارها وتنقلات أطوارها، فيعرفه في الذل كما يعرفه في العز، ويعرفه في السلب كما يعرفه في العطاء، ويعرفه في المرض كما يعرفه في الصحة، ويعرفه في الجلال كما يعرفه في الجمال، إلى غير ذلك مما تقدم. ويتلون مع كل لون ويتطور مع كل طور، فالعارف هو الذي يتطور بجميع الأطوار ليقضي جميع الأوطار. والتلون مع الأشياء هو الأدب معها والخضوع مع الحق فيها، وأما من كان يعرف في الجمال دون الجلال، وفي العطاء دون المنع، وفي العز دون الذل، وفي الصحة دون المرض أو في العافية دون المحنة، أو في الغنى دون الفاقة، أو في الرخاء دون الشدة، فإنه كذاب.

قال في التنوير⁽¹⁾: كل حالة زائلة لا محالة، لأن مراد الحق أن ينقل عبده في الأطوار ويخالف عليه الآثار حتى يتعرف إليه في كل حالة خاصة بتعرف خاص، ومن أراد حالة واحدة لم يرد الكمال انتهى. فإله تعالى إنما أراد من عباده معرفته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ [الذاريات: الآية 56]. قال ابن عباس: أي ليعرفون، ومعرفته إنما تكون بتخالف الآثار وتنقلات الأطوار. وذكر غيره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: الآية 46] أن إحدى الجنتين معرفة الله، وهي جنة المعارف، والأخرى جنة الزخارف، ومن دخل المعارف لم يشتق إلى

(1) كتاب التنوير في إسقاط التدبيره للشيخ تاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندري، هذا وقد سبقت الإشارة إليه.

شيء سواها .

وقال مالك بن دينار : خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها ، قيل : وما ذاك ، قال : معرفة الله تعالى ، وقيل : إنه وُجِدَ حَجَرٌ مَكْتُوبٌ بِقَلَمِ الْقَدْرَةِ : مَنْ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَمْ يَعْرِفِ اللَّهَ لَمْ يُحَسِّنْ شَيْئاً حَتَّى يَعْرِفَ اللَّهَ ، فَإِذَا عَرَفَ اللَّهَ فَقَدْ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَمْ يَغِبْ عَنْهُ شَيْءٌ . انتهى .

ويكفي من عرف الله الراحة من كد الرزق وتعب الحرص وتشويش البال منه وتعلق الهمم به ، فإنه لم يؤت أكثر الخلق إلا من الاهتمام به ، ولو قنع العبد لاستغنى الغنى الذي لا فقر بعده ، والتوكل على الحي الذي لا يموت هو الغنى الأكبر الذي لا يلحقه فقر أبداً .

حكى أن رجلاً ضاق حاله من أجل المعيشة وطال به الكد والتعب ، فخرج هائماً على وجهه ودخل الصحراء ، فوجد قصرأ دارساً خرباً قد كشف عنه الريح [و] الرمل ، وإذا بكوخ من الرخام في حائط ذلك القصر وفيه مكتوب هذه الحكمة :

لَمَّا رَأَيْتُكَ جَالِساً مُسْتَقْبِلاً	أَيَقْنَتُ أَنَّكَ لِلْهِمُومِ قَرِينُ
مَا لَا يُقَدَّرُ لَا يَكُونُ بِحِيلَةٍ	أَبْدَأُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ
سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي وَقْتِهِ	وَأَخِرُ الْجِهَالَةِ مَتَمَّبٌ مُحْزُونُ
يَجْرِي الْحَرِيصُ وَلَا يَنَالُ بِحَرْصِهِ	شَيْئاً وَيَحْظِي عَاجِزٌ وَمَهِينُ
فَدَعِ الْهِمُومَ وَتَعَرَّ مِنْ أَثْوَابِهَا	إِنْ كَانَ عِنْدَكَ بِالْقَضَاءِ يَقِينُ
هُوَ عَلَىكَ رَكْنٌ بِرَبِّكَ وَائْتِقَا	فَأَخِرُ الْحَقِيقَةِ شَأْنُهُ التَّهْوِينُ
ظَرِّحِ الْأَذَى عَنِ نَفْسِهِ فِي رِزْقِهِ	لَمَّا نَبَيْتُنْ أَنَّهُ مُضْمُونُ

[كرم الله تعالى ومننه]

ومن نظر إلى سعة كرم الله وبره ، ثم نظر إلى عجز نفسه وفقره ، طرح أحمال الهموم عن ظهره واكتفى بعلم مولاة ونظره ، كما أشار إلى ذلك في المناجاة الحادية عشرة بقوله :

12 - (إِلَهِي كُلَّمَا احْرَسَنِي لَوْلِي أَنْطَقَنِي كَرَمُكَ وَكُلَّمَا آيَسَّنِي أَوْصَافِي أَظْمَعَتْنِي
بِتَّنَّكَ)

قلت : العبد إذا نظر أوصاف نفسه اللثيمة وأفعالها الذميمة ، استحى من الله أن يرفع إليه حاجة يطلبها ، وخرس لسانه عن النطق بها ، لأنه يرى من خساسة نفسه ولأمتها ما لا تستحق بذلك إلا العقوبة والطرده ، فإذا نظر إلى سعة كرم الله وجوده

واحسانه وبره انطلق لسانه بالسؤال وطمع فيما له من سعة العطاء والنوال . وقد تقدم قوله : إن أردت أن يفتح لك باب الرجاء فانظر ما منه إليك ، وإن أردت أن يفتح لك باب الحزن فانظر ما منك إليه .

ولا شك أن من نظر نفسه بعين الإنصاف لم يجدها أهلاً لغير العقوبة ، إما من جهة الغفلة والتقصير ، وإما من قلة الوفا بالشكر والحمد . ولهذا ورد في بعض الأدعية :
اللهم افعل بنا ما أنت له أهل ولا تفعل بنا ما نحن أهله .

قلت : كلُّ من تحقَّق زواله عن نفسه وبقاؤه بربه فلا حرج عليه في ثنائه ومدحه ، إذ ليس هو الممدوح ، وإنما الممدوح من فضله عليك ممنوح ، وكل من مد يده للتقبيل ولم يرها يد الجليل كان القطع في حقها من القليل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ [الفتح : الآية 10] ولا تكون يده يد الجليل حتى تتحقق خلافته في الأرض ، ولا تتحقق الخلافة حتى يستولي على الوجود بأسره من عرشه إلى فرشه ويصير في قلبه كحلقة في الأرض ، فإذا صار هكذا كان خليفة الله في أرضه ويده يد الملك ، فكل من بايعه فإنما بايع الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : الآية 10] .

[مساويء النفس ودعاويها]

ثم نشر الشيخ الأوصاف التي آيسته إن نظر إليها من منة الله ورحمته ، فقال في المناجاة الثانية عشرة :

13 - (إلهي من كانت محاسنهُ مساوي فكيف لا تكون مساويه مساوي؟ ومن كانت حقائقهُ دعاوي فكيف لا تكون دعاويه دعاوي؟)

قلت : محاسن الإنسان لا تخلو من خلل ونقصان ، ولو لم يكن إلا نسبتها لنفسه وفعله ورؤيتها من قوته وحوله لكان كافياً في خللها ونقصها ، فتقلب مساوي بعد أن كانت في الصورة محاسن . وإذا كانت محاسنه مساوي فكيف لا تكون مساويه مساوي ، وكذلك حقائق العبد وهي ما تحقق به من المقامات والمنازلات وأذواق العارفين ومواجيد المحبين ، لا تخلو من شوائب الدعوى ومسارقة الهوى لولا مسامحة المولى ، فإذا كانت حقائقه التي تحقق بها وذائقها لا تخلو من شوائب الدعوى ، فإذا نسبتها لنفسه كانت كلها دعاوي ، فكيف لا تكون دعاويه الفارغة دعاوي؟ فإذا علم العبد هذا استحي من مولاه أن ينسب لنفسه شيئاً من المحاسن ، أو يثبت لها نوعاً من الحقائق ، فربما يفضح على رؤوس الخلائق . ويكفي المريب وجدان السلامة .

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: يقول الله تعالى: «عبدني إنك ما استحييت مني أنسي الناس عيوبك، وأنسي بقاع الأرض ذنوبك، وأمحو من أم الكتاب زلاتك، ولا أناقشك بالحساب يوم القيامة» انتهى.

وقد فسّر النبي ﷺ الحياء فقال: «الحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر القبر والبلى وتترك أفضل زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء»⁽¹⁾ انتهى.

وَوُجِدَ رَجُلٌ نَائِمٌ فِي مَوْضِعٍ مَخَوَّفٍ كَثِيرِ السَّبَاعِ وَالْأَفَاتِ وَدَابَّتْهُ حَوْلَهُ تَرَعَى، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّكَ فِي مَوْضِعٍ مَخَوَّفٍ، فَقَالَ: إِنَّا نَسْتَحْيِي أَنْ نَخَافَ غَيْرَ اللَّهِ، ثُمَّ رَجَعَ لِنَوْمِهِ.

وسئل الجنيد عن الحياء: ما هو، فقال: شيء يتولد بين رؤية النعماء ورؤية التقصير.

وقال الفضيل: علامة الشقاوة خمسة: قلة الحياء، وقسوة القلب، وجمود العين، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل. انتهى.

[حكم الله تعالى ومشيبته]

ثم على تقدير سلامة محاسنه من المساوي وتصفية حقائقه من الدعاوي، فأمر المشيئة مبهم، والسابقة والخاتمة غير معلوم أمرهما، فلا يدري ما يفعل الله به، كما أبان ذلك في المناجاة الثالثة عشرة بقوله:

14 - (إِلَهِي حُكْمُكَ النَّافِذُ، وَمَشِيئَتُكَ الْقَاهِرَةُ، لَمْ يَتْرُكْ لِي مَقَالٍ مَقَالاً)

قلت: لا شك أن حكم الحق نافذ في خلقه لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: الآية 23] وهذا هو الذي حرك قلوب العارفين، فلم يطمئنوا بحال، ولم يعتمدوا على عمل ولا مقال، بل صاروا مضطربين إلى الله في كل حال، لأنهم قد علموا أن حكم الله نافذ كلمع البصر أو هو أقرب، ومشيبته قاهرة لا يصرفها عن إنفاذ مرادها صارف، ولا تردها همة ولي ولا عارف، ففي لحظة واحدة يقرب البعيد ويبعد القريب، ويرفع الوضيع ويضع الرفيع، ويعز الذليل ويذل العزيز، ويغني الفقير ويُفقر الغني، ويبسط المقبوض ويقبض المبسوط، ويمرض الصحيح ويصحح المريض، فكيف يصح لعاقل أن يركن إلى حاله ومقامه أو يعتمد على علمه وأعماله، أو يفتخر ببسط لسانه ومقاله، والله تعالى يقول: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، وَأَنَّهُ إِلَهُ تَحْشُرُونَ﴾ [الأنفال: الآية 24].

جذبت العناية سلمان الفارسي من أرض فارس، ونودي بلال من بلاد الحبشة،

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

وأبو طالب على باب التحقيق وقد حرم التوفيق، وقع الحكم ونفذ الأمر وسبقت المشيئة وجف القلم ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ أَلْفَ بَيْنِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية 63] اهـ.

[عدم الاعتماد على الأعمال]

وكما أن حكمه النافذ يهدم الاعتماد على الأحوال، كذلك عدله القاهر يهدم الاعتماد على الأعمال، كما أبان ذلك في المناجاة الرابعة عشرة حيث قال:

15 - (إِلَهِي كَمْ مِنْ طَاعَةٍ بَنَيْتُهَا، وَحَالَةٍ شَيْدْتُهَا، هَدَمَ اعْتِمَادِي عَلَيْهَا هَذَاكَ، بَلْ أَقَالَنِي مِنْهَا فَضْلَكَ)

قلت: لا ينبغي للعبد أن ينظر إلى شيء من طاعته وإن عظمت، ولا أن يستحسن شيئاً من أحواله وإن حسنت، فالناقد بصير والرقيب على الضمائر خبير، فكم من طاعة تعظم في عين صاحبها كأمثال الجبال لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وكم من أحوال تصفو عند صاحبها وهي عند الله مدخولة. فمن قابله بفضله عادت كبائره صفائره، ومن واجهه بعدله رجعت صفائره كبائره، ولذلك قال هنا: كم من طاعة بنيتها، أي نميتها، وكثرتها، هدم اعتمادي عليها عدلك، أي نظري إلى عدلك، فلما نظرت إلى عدلك تلاشت أعمالي واضمحلت أحوالي، وكم من حالة شيدتها ورفعتها فلما نظرت إلى عدلك وشدة مناقشتك انهدمت وتلاشت، بل أقالني منها بأن زالت نسبتها عني فضلك وهدايتك وتوفيقك، فلم تبق لي طاعة ولا حال، ورجع ذلك إلى الفاعل المختار الكبير المتعالي، فالواجب على العبد أن ينسلخ من علمه وعمله وحاله ونفسه وروحه وحوله وقوته، ويبقى فقيراً بين يدي سيده عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء.

قال بعضهم: والله ما غاص في بحر الفناء إلا من باع نفسه من الله ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: الآية 111] كيف يخوض في بحر الحقائق من لم يخلص علمه وعمله من الزيف، وصيارفة الحق بالمحك المحمدي على الساحل يردون من لا يخلص، وأين الإخلاص هذا لمن وصل إلى ساحل ذلك البحر، فكيف بمن ينكره ولا يصدق به أو يسير إليه منحرفاً دون استقامة، كما قيل⁽¹⁾:

ليس من بات قريراً عيئته	مثل من أصبح فسفراً دارساً
ليس من أكرم بالوصل كمن	ظل يهذي بلعل وعسى
ليس من أيسر أثواب التقى	مثل الذي أيسر ثوباً دنساً
ليس من يسير به مثل الذي	بات يرعى الحمى مبتثساً
ليس من شاهد صباحاً واضحاً	مثل الذي شاهد ليلاً غلساً

(1) لم أقف على اسم الغائل.

ليس مَنْ بُوِيَ رَوْضَاتِ الْحَمَى مثلَ الَّذِي اسْكَنَ قَفْرًا يَابِسًا
ليس مَنْ أَشْبَهَ غُصْنًا يَانِعًا مثلَ مَنْ أَشْبَهَ عَوْدًا يَابِسًا

[دوام العمل محبة وعزمًا]

ثم إن عدم الاعتماد على العمل لا يقتضي ترك العمل، بل يجب على العبد أن يداوم على العمل ولا يتكل عليه فإن لم يقدر على مداومته بالفعل فالمحبة والعزم، كما بين ذلك في المناجاة الخامسة عشرة بقوله:

16 - (إِلَهِي أَنْتَ تَعْلَمُ وَإِنْ لَمْ تَدِمِ الطَّاعَةُ مِنِّي فِعْلًا جَزْمًا، فَقَدْ دَامَتْ مَحَبَّةٌ وَهَزْمًا)

قلت: طاعة العبد لربه يجب أن تكون فعلاً ومحبة وعزمًا في كل لحظة ووقت، فإن لم يقدر على ذلك فليعزم على البر والتقوى وينوي فعل الخيرات، فنية المؤمن خير من عمله ﴿إِنْ يَمَلِّمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: الآية 70] أي يعطكم أفضل مما أخذ منكم من مال أو عمل.

وقال بعضهم: الفعل الجزم هو وجود العمل والمحبة، والعزم هو التوجه للعمل، وكم من متوجه لم يلحق وكم من مجد لم يسبق، لكن في العزم ظهرت الحقائق وبه جاءت الشرائع، وليس على العبد إلا القصد والجد والعزم. وأما نفوذه فقد يقدر وقد لا يقدر، والله غالب على أمره. والمراد بالعزم القصد، والنية هي توجه القلب للأمر المطلوب. انتهى.

واعلم أن متابعة العلم اختيارية ومتابعة الحال اضطرارية، فما دام العبد معه بقية اختيار وجب عليه اتباع العلم، وهو مقام السلوك، فإن غلب الحال وجب اتباعه وهو مقام الجذب، ومثل ذلك قضية الصديق حين أتى بماله كله فقال له الرسول عليه السلام: «ما تركت لأهلك؟» فقال: تركت لهم الله ورسوله⁽¹⁾. ولم يلتفت لقوله ﷺ في حال التشريع «لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس»⁽²⁾. ولما غلب الحال على العلم صار الحكم للحال، فبإياه من مقام ما أعز شأنه وأرفع قدره عند المحققين.

واعلم أن العازم على الخير فاعل والعازم على الوصول واصل، وليس على العبد

(1) رواه الحاكم في المستدرک، کتاب الزکاة، حدیث رقم (1510) [574/1] حدیث رقم (1678) [2/129]

[2/129] وأبو داود في سننه، باب في الرخصة في ذلك، حدیث رقم (1678) [2/129] ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب رثي النبي ﷺ سعد بن خولة، حدیث رقم

(1233) [1/435] ومسلم في صحيحه، باب في الوصية، حدیث رقم (1628) [3/1250]

ورواه غيرهما.

إلا الاجتهاد، فإذا بذل مجهوده وأخلص مفسوده فهو والواصل سواء.

وكان شيخ شيخنا يقول: من مات وهو في الطريق أدركته الولاية بعد الموت على التحقيق. انتهى. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا مِنَّا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: الآية 75]، وفي الحديث: «من مات في طريق الحج فهو حاج، ومن مات في طريق الجهاد فهو مجاهد»⁽¹⁾. قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوَيْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: الآية 100] ومن مات في طريق الله فهو شهيد. وفي الحديث: «من مات وهو يطلب العلم، [أي: النافع]، ليس بينه وبين النبوة إلا درجة واحدة، ومن توجه لأمر ولم يدركه نكأنما أدركه»⁽²⁾. ولا بد في مبادئ الأمور من الصبر والتحمل للمشاق وقمع النفس عن الهوى والراحة، ولذلك سمي الجهاد جهاداً، والقاصد يطلب الباب بعد أن كان يطلب سواء السبيل، فإذا وصل الباب أنتج له طلب الدخول، فإذا دخل أنتج له الوصول. فإذا وصل ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: الآية 17]، وأنشدوا⁽³⁾:

مَنْ فَاتَهُ طَلَبُ الْوَصُولِ وَنَيْلُهُ مِنْهُ فَقُلْ لَهُ مَا الَّذِي هُوَ يَطْلُبُ
حَسَبَ الْمُحِبِّ فَنَاؤُهُ عَمَّا سِوَى مُحِبُّوَيْهِ إِنْ حَاضِرٌ وَمَغِيبٌ

[عزم العبد بقهره وأمره تعالى]

ثم إن عزم العبد على الطاعة ليس هو بيده حقيقة لكنه مأمور به شرعاً، وهو الذي نبه عليه في المناجاة السادسة عشرة بقوله:

17 - (إِلَهِي كَيْفَ أَهْزِمُ وَأَنْتَ الْقَاهِرُ؟ وَكَيْفَ لَا أَهْزِمُ وَأَنْتَ الْأَمِيرُ؟)

قلت: محبة الطاعة والعزم عليها والعمل بها ليس هو من قدرة العبد وفعله في الحقيقة، وهو مأمور به من جهة الشريعة لتقوم الحجة وتظهر المحجة ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: الآية 149] إن الله لا يظلم مثقال ذرة، فمن نظر إلى الباطن وجد العبد مجبوراً، ومن نظر إلى الظاهر وجد غير معذور.

فالواجب على الإنسان، وخصوصاً العارف، أن ينظر بعين الحقيقة لبواطن

(1) روى نحوه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (5321) [282/5] وأبو يعلى في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (6357) [238/11] ولفظه: «من خرج حاجاً فمات كتب الله له أجر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمراً فمات كتب الله له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج غازياً في سبيل الله فمات كتب الله له أجر الغازي إلى يوم القيامة».

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) لم أقف على اسم المنشد.

الأمور، فيعذر الخلق لأنهم مجبورون في قوالب المختار، وينظر بعين الشريعة لظواهر الأمور فينفذ الحقوق ويقيم الحدود سترأ لسر الربوبية وإظهاراً لوظائف العبودية، لكن ذلك بلطف ولين، قلبه يحن عليه، وظاهره يغلظ عليه كالعبد يؤدب ابن سيده، وهذا مضمن هذه المناجاة، أي: كيف أعزم على الطاعة وأعقد عليها وأنت القاهر لي، فلا طاقة لي على فعلها وأنت تقهرني عنها. وهذه هي الحقيقة، وكيف لا أعزم عليها وأنت الأمر لي بها فإن لم أعزم عليها عذبتني وهذه هي الشريعة. فالواجب أن أعزم وننظر ما تفعل، فإن وفقنتي للعمل فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة، وإن لم توفقني فأنت أهل العفو والمعذرة، وأنت الفاعل المختار، فالأمر أمرك والعبيد عبيدك ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ صَكُّهُمْ﴾ [يونس: الآية 99] ولو شاء ربك لهدى الناس جميعاً.

قال الشطبي رحمه الله: أراد المؤلف أن يدل المريدين على مقام الجمع بين الحقيقة والشريعة، لأن عزم العبد مطلوب منه شريعة، ونتيجته مسلوبة منه في الحقيقة، ولا يثبت بينهما إلا من ثبته الله، فلهذا تعجب الشيخ رحمه الله من تضاد الطالبين لأنه خارج عن مقدور البشر، لكن لما كان الإنسان نسخة الوجود وأشرف كل موجود أودع فيه من أسرار حكمته ما يؤلف بين الضدين يجمع بين الكفوئين، قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن: الأيتان 19، 20] فمن ظهر أثر البرزخية على جوارحه عمل أعمال الدنيا وأعمال الآخرة، ومن ظهر أثر البرزخية على قلبه جمع بين أعمال الآخرة ومشاهدة الحضرة وأشرف نورها عليه، ومن ظهر أثر البرزخية على روحه جمع بين المشاهدة والمحبة.

ثم قال: واهلم أن الأجسام تموت وتبعث وتنشر وكذلك النفوس والأرواح. فأما موت الأجسام فهو عند الخروج من الدنيا وتبدل القصور بالقبور. وأما موت النفوس فهي عند الخروج من الحفظ وتبدلها بالحقوق. وأما موت الأرواح فهو رجوعها لعالمها النوراني، وصفة الملا الأعلى على الهاجس النفساني، فإذا لم يبق للنفس نظر إلا لله ولا للروح تعلق إلا بالله، وفني من لم يكن وبقي من لم يزل، انجمع الظاهر بالباطن والباطن بالظاهر، وتعينت المشاهدة من كل وجهة، وخوطب من سوى الحق بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصر: الآية 88] وحينئذ يهتف هاتف التجريد من مقام التفريد: ﴿لَيْسَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [حافر: الآية 16] فلم يجبه من عوالم البشرية والصور الأثرية مجيب فيجيب نفسه بنفسه: ﴿يَلِلُّ الْوَجِدِ الْفَهَّارِ﴾ [إبراهيم: الآية 48] انتهى المراد منه مختصراً.

[مقام الجمع النافي للتردد والخدمة الموصلة إليه تعالى]

وإنما أمر الله تعالى بالطاعة والعزم عليها لأنها سبب الوصول إليه حسبما جعلها الحق تعالى حكمة وشريعة كما بيّن ذلك في المناجاة السابعة عشرة بقوله:

18 - (إلهي ترُددي في الآثارِ، يوجبُ بُغْدَ الْمَزَارِ، فَأَجْمَعُنِي عَلَيْكَ، بِخِدْمَةِ تَوْصِيَّتِي إِلَيْكَ)

قلت: التردد في الآثار هو التردد بين إثباته [أي: الأثر] ونفيه، وهي حالة المستشرفين، فإذا أثبتته مستقلاً كان في حالة البعد، وإذا نفاه كان في حالة الجمع، فطلب الجمع على الدوام بحيث لا يبقى له تردد في نفيه وإثباته بالله وهو مقام البقاء، فإثبات الأثر بالنفس على الدوام هو بعد على الدوام، وهو مقام أهل الحجاب من العوام، ونفيه على الدوام هو مقام أهل الجمع من أهل الفناء والجذب، ونفيه ثم إثباته بالله هو مقام أهل البقاء قياماً بوظائف الحكمة والقدرة، وجمعاً بين الحقيقة والشريعة، وهذه المناجاة إنما تليق بأهل الاستشراف.

وقد قيل: إذا أبغض الله عبداً، والعباد بالله، طرده عن بابه وشغله عنه بمكابدة رفع حجابيه، وليس له طاقة على ذلك ما لم يكن الله في عونيه، وهو معنى لا حول ولا قوة إلا بالله، لكن العينين لا يدرك لذة الجماع، والأعمى لا يدرك رحب الساحات والبقاع.

قيل: إن بعض المجموعين على الله أراد التستر عن مقامه، فكان لا يسأل عن شيء إلا قال: هو، فقيل له: لعنك تعني الله، فسقط ميتاً. ويسمى عندهم جمع الجمع وهو خاص بخواص الخواص. وقيل: بالأنبياء عليهم السلام، وقيل: بالرسول، وقيل: بنبينا محمد ﷺ ولا يمكن الوصول إلى هذا إلا برفع الهمة عن الكونين وخلع النعلين من الدارين.

قال بعضهم: عرضت عليّ الدنيا بزخرفها وزينتها، فأعرضت عنها، فعرضت عليّ الجنان بقصورها وحورها وحُلِيِّها فأعرضت عنها فقيل لي: لو وقفت مع الدنيا لحجبناك عن الآخرة، ولو التفت إلى الآخرة لحجبناك عنها، فارض بنا عمّا سوانا وقسطك يأتيك من الدنيا والآخرة.

وقال آخر: رأيت رجلاً وضع سجادة على الماء ومضت به فقلت في نفسي: فاز الرجل وأنا لم أصلح للدنيا ولا للآخرة، فسمعت هاتفاً يقول: من لم يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا.

[لا يستدل عليه تعالى بالآثار المفتقرة في وجودها إليه تعالى]

قال الشطبي: ثم إن التردد في الآثار والنظر إليه إنما هو لأهل الدليل المفتقرين للنظر إليه ليستدلوا به على صانعه، وأمّا أهل الشهود فهم أغنياء عن الأثر لأن ظهور

الحق عندهم أظهر من غيره، بل لا وجود لغيره أصلاً. وإلى هذا أشار في المناجاة الثامنة عشرة بقوله:

19 - (إِلَهِي كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ، بِمَا هُوَ لِي وَجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ؟ أَيْكُونُ لِغَيْرِكَ مِنْ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ، حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ؟ مَتَى غِيبَتْ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ؟ وَمَتَى بَعُدَتْ حَتَّى تَكُونَ الْأَثَارُ هِيَ الَّتِي تُوَصِّلُ إِلَيْكَ؟)

قلت: قد تعجب الشيخ رضي الله عنه ممن يستدل على الله بنوره بعد كمال ظهوره، فكيف يفتقر النور بعد ظهوره إلى دليل يدل على وجوده، وكيف يحتاج إلى دليل من هو أظهر من كل دليل، أم كيف يفتقر إلى دليل من نصب الدليل. والله در القائل⁽¹⁾:

عجبت لمن يسفي عليك شهادةً وأنت الذي أشهدته كل شاهد
وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كيف يعرف بالمعارف من به عرفت
المعارف، أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده كل شيء؟ انتهى.

قلت: فيا عجباً كيف تكون الفروع أظهر من الأصول؟ ولولا الأصول لم يكن
للفروع حصول، أم كيف تكون السواقي والأنهار الجارية من البحار أظهر من تلك
البحار؟ وما فاضت أنوار الملكوت إلا من بحار الجبروت، لكن البصيرة العمياء لا
تري الشمس في أفق السماء، ومن أين ترى الشمس مقلّة عمياء.

واعلم أنّ أهل الدليل يستدلون بالصنعة على الصانع وبالشاهد على الغائب،
وأهل العيان صار الغيب عندهم شهادة والدليل عين المدلول. فالقسم الأول أهل علم
اليقين، والثاني أهل عين اليقين أو حق اليقين. القسم الأول عوام، والثاني خواص أو
خواص الخواص.

قال الشيخ أبو الحسن: أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان،
قدسوا الحق في ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه. فهو معنى قول الشيخ هنا: إلهي
كيف يستدل عليك بما أي: بالكون الذي - هو في وجوده مفتقر إليك؟ أَيْكُونُ لِغَيْرِكَ -
على تقدير وجوده - من الظهور ما ليس لك؟ متى غبت عن البصائر والعيان حتى تحتاج
إلى دليل يدل عليك؟ وذلك الدليل لا قيام له إلا بك، محال أن يظهر في الوجود غير
نورك، ومتى بعدت عن الأشياء التي قامت بك أي: بقدرتك حتى تكون الآثار هي التي
توصل إليك؟ لا مسافة بينك وبين خلقك، ولا قطعة تقطعهم عنك، إلا وجود الهم
وقاهرة الحجاب، أعادنا الله منه بمنه وكرمه.

(1) لم أقف على اسم هذا القائل.

[الاعمى من لم ير الحق تعالى رقيباً قريباً حبيباً]

وكيف تجوز عليه الغيبة وهو الرقيب القريب كما أبان ذلك في المناجاة التاسعة عشرة بقوله :

20 - (إِلَهِي هَمِيَّتْ هَيْنُ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيباً، وَخَسِرَتْ صَفْقَةً حَبِيدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيباً)

قلت : الظاهر أن هذا إخبار بأن كل عين خلت من مراقبة الحق تعالى فهي عمياء ، وكل صفة خلت من محبة الله فهي خاسرة ، ويكون العمى في حقها معنوياً فكأنها حيث لم تراقب الله تعالى ولم تستح منه عمياء ، لأن الله سبحانه يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء : الآية 1] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا صَكَّنَا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١٠﴾﴾ [يونس : الآية 61] فمن لم يعتقد هذا فهو كافر ، ومن اعتقده ولم يستح من الله فهو جاهل أعمى البصيرة . وقد قالوا : إن الحياء جله من البصر ، ألا ترى أن الأعمى قليل الحياء . فدل أن البصر الذي لم يراقب الله تعالى ، ولم يستح منه ليس ببصر وإنما هو عمى . ويحتمل أن يريد بالعين عين البصيرة ، قال بعضهم : إذا عصيت الله فاعصه بموضع لا يراك ، فمن لم يستح من نظر الحق وبارز مولاه بأنواع المعاصي ، فقد عميت عين بصيرته . وسئل بعضهم : بم يستعين العبد على حفظ بصره؟ فقال : بعلمه بأن رؤية الحق تسبق بصره . انتهى .

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان»⁽¹⁾ . والصفة هي ما تشتري جملة ، وكني بها عن حظ العبد وقسمته الأزلية . فمن كان حظه من الله المقت والبعد فصفقته خاسرة ، نسأل الله العافية .

وفي بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء عليهم السلام : «يا عبدي أنا لك محب فبحقي عليك كن لي محباً»⁽²⁾ ، فمحبة الله لعبده تقريبه واجتباؤه لحضرتة ، ومحبة العبد لله طاعته بامتثال أمره واجتناب نهيه والاستسلام لقهره . فهذه أوائل المحبة وهي كسبية ، ونهايتها كشف الحجاب ، وفتح الباب والدخول مع الأحباب ، وهذه وهبية نتيجة الكسبية ، وإلى هذا المعنى أشارت رابعة العدوية في شعرها حيث قالت :

أحبُّك حبين حبُّ الهوى وحبباً لأنسك أهلٌ لذاك

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان ، الفصل الثاني في ذكر آثار . . . حديث رقم (741) [1/470] واللالكائي في اعتقاد أهل السنة . الباب الحادي والخمسون ، حديث رقم (1686) [5/933] .

(2) أورده الرازي في التفسير الكبير ، تفسير سورة البقرة آية 65 ، [4/185] والغزالي في إحياء علوم الدين ، بيان حقيقة المحبة ، [4/296] .

فأما الذي هو حبُّ الهوى فشفلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنتَ أهلٌ له فكشفك للحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك

فأشارت رضي الله عنها إلى أن محبة العبد لله على قسمين، قسم ناشيء عن شهود الإحسان، وقسم ناشيء عن شهود الجمال.

فأما الأول الذي هو ناشيء عن شهود الإحسان فلا شك أن العبد إذا نظر إلى إحسان الله تعالى وإنعامه عليه بضروب النعم الحسية والمعنوية أحبه لا محالة، لأن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وهذا هو المسمى بحب الهوى، أي الميل، وهو مكتسب لأن الإنسان مغمور بإحسانات الله إليه، وهو متمكن من النظر فيها، فلا يزال يطالع نعمة بعد نعمة ومئة بعد مئة، وكل نعمة أعظم من التي قبلها، فتعظم محبته لمولاه وبذلك يبلغ قصد، ومُنَاه.

وأما الثاني، وهو الناشيء عن شهود الجمال، فإن العبد إذا كشف الحجاب عن قلبه وزالت عنه الموانع والقواطع رأى جمال الحق وكماله، وأشرقت أنوار الحضرة وسناها على قلبه، والجمال محبوب بالطبع، فانعقدت المحبة بينه وبين مولاه، وإنما خصصت رابعة رضي الله عنها الحب الناشيء عن شهود الجمال بالأهلية دون الأول وإن كان أهلاً للجميع، لأن هذا مئة الله لا كسب للعبد فيه، والآخر فيه سبب وعمل العبد معلول.

قال زيد بن أسلم رضي الله عنه: إن الله عز وجل ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول له: «اصنع ما شئت فقد غفرت لك»⁽¹⁾ انتهى.

(1) يؤيد هذا القول الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. ونص رواية مسلم هو: عن عبد الله بن أبي رافع، وهو كاتب علي، قال: سمعت حلياً رضي الله عنه وهو يقول: بحثنا رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: اتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها. فانطلقنا تعادي بنا خيلنا فإذا نحن بالمرأة فقلنا: اخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، بقلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، فأخرجته من عفاصها فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ قال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت امرأة ملصقة في قريش. قال سفيان: كان حلياً لهم ولم يكن من أنفسها وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب إليهم أن أتخذ فيهم بدأ يحمون بها قرابتي ولم أفعله كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام. فقال النبي ﷺ: صدق. فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: أنه قد شهد بدرًا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأنزل الله عز وجل: ﴿بِأَيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: الآية 1]. صحيح مسلم، باب من فضائل أهل بدر... حديث رقم (2494) [1941] وصحيح البخاري باب لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، حديث رقم (4608) [4/1855] ورواه غيرهما.

[بعد الفناء البقاء الموجب الرجوع للأثار]

ولما كانت نهاية المحبة الفناء في المحبوب، ونهاية [مقام] الفناء [مقام] البقاء، وهو الرجوع إلى الأثر، أشار إلى ذلك الشيخ فقال في المناجاة الموفية عشرين:

21 - (إِلَهِي أَمَرْتُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْأَثَارِ، فَأَرْجِعْنِي بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ وَهُدَايَةِ الْأَسْتَبْصَارِ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا، كَمَا دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْهَا، مَصُونٌ السَّرِّ عَنِ النَّظْرِ إِلَيْهَا، وَمَرْفُوعٌ الْهَمَّةِ عَنِ الْإِعْتِمَادِ عَلَيْهَا، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قلت: الرجوع إلى الآثار هو النزول من عش الحضرة التي هي الإغراق في بحر الوحدة والغيبة عن السوى بالكلية إلى سماء الحقوق وأرض الحفظ، فينزلون إلى سماء الحقوق أدباً مع الربوبية وقياماً بحقوق العبودية، وإلى أرض الحفظ أدباً مع الحكمة وإظهاراً لوظائف العبودية.

ومثال الأول، وهو النزول إلى سماء الحقوق، ما يلزم العبد من العبادات البدنية أو المالية مؤقتة أو غير مؤقتة.

ومثال الثاني، وهو النزول إلى أرض الحفظ ما تفتقر إليه البشرية من مأكّل ومشرب وملبس ومنكح وغير ذلك من الأمور الحاجبية. وقد أمر الله تعالى بهما ليتميز سر الربوبية من سر العبودية، أو ليظهر استغناء الربوبية بافتقار العبودية.

فطلب الشيخ رضي الله عنه أن يرده إليها بعد أن كان رحل عنها بهمته بكسوة الأنوار، وهي أنوار الشهود، فيكون رجوعه إلى الأثر بالله غائباً عن حظه وهواه. وقد كان قبل أن يرحل عنها يتعاطاها بنفسه بعد تمتعه وحظه، فلما عرف الحق غاب عن نفسه، فإذا رجع إلى رسم بشريته رجع إليه بالله، قد كساه أنوار الشهود عن الالتفات إلى سواه.

وطلب أيضاً أن يكون رجوعه إلى الآثار متلبساً بهداية الاستبصار، وهي تحقيق المعرفة في الأشياء التي يتعاطاها، كانت عبادات أو عادات، فلا يسرقه فيها طبع ولا حس، بل يدخل فيها بالله ومن الله وإلى الله، ويخرج منها كذلك، وهو معنى قوله: حتى أرجع إليك منها، أي حتى تكون تلك الأشياء هي التي تردني إليك حين نعرفك فيها ونشاهد عظمتك ونور جبروتك فيها، إذ الوجود كله مستمد من بحر جبروتك، فالعارف يشرب من كل شيء وينقوت من كل شيء. يأخذ النصيب من كل شيء ولا ينقص من نوره شيء.

فتحصل أن كسوة الأنوار: هي دخوله في العبادات وفي العادات بالله لا بنفسه، وهداية الاستبصار: هي معرفته في تلك الآثار التي نزل إليها ورجع لها.

وقوله : كما دخلت إليك منها ، معناه أنه كان مع الأكوان ، وهي حاجبة له عن شهود المكوّن ، فلما عرف ، فيها كان دخوله على الله منها ، وهذا كما قال شيخ شيوخنا المجذوب رضي الله عنه :

الخلق نوار وأنا رعيث فيهم هم الحجب الأكبر والمدخل فيهم
وإذا دخل في الأشياء بالله وشهد فيها أنوار الإله ، قطعاً كان مصون السر عن
النظر إليها على أنها كونية ، مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها ، كانت عبادات أو أسباباً
أو عادات ، لأن العارف غني بالله لا يفتقر إلى شيء سواه ولا يعتمد إلا على مولاه ،
فإنه غني حميد ، سميع بصير ، على كل شيء قدير .

[تحقيق وظائف العبودية والقيام بأداب الربوبية]

ثم إذا رجع العبد إلى الآثار ، فلا بد أن يظهر على ظاهره أثر الذل والافتقار
تحقيقاً لوظائف العبودية وقياماً بأداب الربوبية ، كما أبان ذلك في المناجاة الواحدة
والعشرين بقوله :

22 - (إلهي هذا ذلّي ظاهرٌ بينَ يديك ، وهذا حالي لا يخفى عليك ، منك أطلب
الوصول إليك ، وبك أستدِلُّ عليك ، فأهْدِنِي بِتُورِكَ إِلَيْكَ ، وَأَقِمْنِي بِصِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ
بَيْنَ يَدَيْكَ)

قلت : هذا اعتراف منه رضي الله عنه بغاية الذل والانكسار ، وإظهار لشدة الفاقة
والاضطرار ، وانطراح على باب مولاه في إظهار ذلّه وبث شكواه ، فلا شك أن الله
سبحانه قد كساه حلة العز والافتخار ، وأقامه بين خلقه بالظهور والاشتهار ، حتى صار
كلامه تتحلى به القلوب والأسماع ، ويعظم به التأثير والانتفاع ، وذلك ثمرة من تدلّل
بين يدي العزيز الحكيم الغني الكريم ، كما قيل⁽¹⁾ :

تَدَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَى لَتَكْسَبَ عِزَّةً فَكَمْ عِزَّةٌ قَدْ نَالَهَا الْمَرْءُ بِالذَّلِّ
وقال آخر⁽²⁾ :

تَدَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَى فَلَيْسَ الْهَوَى سَهْلُ إِذَا رَضِيَ لَكَ الْمَحْبُوبُ صَحَّ لَكَ الْوَصْلُ
تَدَلَّلْ لَهُ تَحَطَّى بِرُؤْيَا جَمَالِهِ فِي وَجْهِ مَنْ تَهْوَى الْفِرَاطُضُ وَالنَّفْلُ

قال ذو النون المصري رضي الله عنه : ما أعزّ الله عبداً بعزّ هو أعزّ له من أن يدلّه
على ذلّ نفسه ، وما أذلّ الله عبداً بذلّ هو أذلّ له من أن يحجبه عن ذلّ نفسه . انتهى .

والحال الذي لا يخفى على مولاه هو حال الضعف والافتقار والذل والانكسار .
وإنما يكون ظهور ذلك الحال بتحقيق المعرفة والوصول ، ولذلك وصله بقوله : منك
أطلب الوصول إليك لا من غيرك ، ولا على يد غيرك ، ولا إلى غيرك ، بل أنت تتولى

(1) و(2) لم أف على اسم القائل .

قبض أرواحنا إلى حضرتك بيدك وتحول بيننا وبين غيرك. وهو معنى قوله: وبك أستدل عليك لا بغيرك إذ لا وجود لغيرك معك، على التحقيق. وقد تقدم قول من قيل له: بم عرفت ربك، قال: عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي. وقال أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه: لا دليل على الله سواه وإنما يطلب العلم لأدب الخدمة انتهى.

وكما لا دليل عليه غيره، كذلك لا هادي إليه سواه. كما قال: فاهدني بنورك إليك أي اهدني بنور التوجه في حالة سيري إليك، وبنور المواجهة بعد وصولي إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك حتى نتحقق بالوصول إليك، فنرجع إلى رسم العبودية في عين شهود أنوار الربوبية، والله ذو الفضل العظيم.

[العلم المخزون والسر المصون]

هناك تفيض العلوم اللدنية والأسرار الربانية كما أبان ذلك بقوله في المناجاة الثانية والعشرين:

23 - (إِلَهِي عَلَّمَنِي مِنْ جَلْمِكَ الْمَخْزُونِ، وَصُنِّي بِسِرِّ أَسْمِكَ الْمَصُونِ)

قلت: العلم المخزون هو العلم الموهوب الذي يفيض على القلوب من حضرة علام الغيوب، لا ينال بحيلة ولا اكتساب، ولا يؤخذ من دفتر ولا كتاب، وإنما يعطى من حضرة الكمال مع حكمة صحبة الرجال، أو بمحض الفضل والنوال. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرّة بالله»⁽¹⁾ اهـ.

وهي أسرار الربوبية التي أخفاها الله عن خلقه ولم يطلع عليها إلا خواص أوليائه، فإذا نطقوا بها مع غير أهلها ردوا عليهم، وربما أباحوا دماءهم، ومنها الاطلاع على أسرار القدر وعجائب المغيبات، ومنها الاطلاع على مفاتيح العلوم ومخازن المفهوم، فيستخرجون بنتائج أفكارهم من درر الحكم ويواقيت العلم ما تكل عنه الألسن وتعجز عن حمله العقول.

قال أبو بكر الواسطي في قوله تعالى: ﴿وَالرَّيْحُونَ فِي الْعَمْرِ﴾ [آل عمران: الآية 7]، هم الذين رسخت أرواحهم في غيب الغيب وفي سر السر، فعرفهم ما عرفهم وخاضوا في بحار العلوم بانفهم لطلب الزيادة، فانكشف لهم من ذخائر خزائن الغيب تحت كل حرف من كتاب الله وآية من كلام الله عجائب الإدراكات الوهبية، فنطقوا بالحكمة

(1) رواه أبو منصور الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (802) [210/1] وأورده المنذري في الترغيب والترهيب حديث رقم (141) [58/1].

البالغة والألفاظ السابغة ﴿أَوْلَيْتَكَ حِزْبَ اللَّهِ﴾ [المجادلة: الآية 22] ، ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22].

وقال بعض التابعين: أسرار الله تعالى لا يبيديها إلا لأمناء أوليائه من غير سماع ولا دراسة.

وكان الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه يقول: شاركنا الفقهاء فيما هم فيه ولم يشاركونا فيما نحن فيه. وكان أكثر كلامه في العقل الأكبر الأول، والاسم الأعظم وشعبه الأربع، ودوائر الأولياء، ومقامات الموقنين، والأملاك المقربين، وعلوم الأسرار، وإمداد الأذكار، ويوم المقادير، وشأن التدبير، وعلم البدء، وعلم المشيئة، وشأن القبضة، ورجال الغيب، وعلوم الأفراد، وأخبار القيامة، وهذا كله من العلم المخزون.

وأما (سر اسمك المصون) الذي طلب فهو صيانة من رؤية الأغيار، أو الوقوف مع الأنوار دون معرفة الواحد القهار، واسمه المصون: هو اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، وسره هو ظهور تصرفه فيما طلب به، والله تعالى أعلم.

[حقائق أهل القرب ومسالك أهل الجذب]

ثم إذا تحقق الصون من الأغيار دخل القلب في حضرة الأسرار، وهي حضرة المقربين من السالكين والمجذوبين كما أبان ذلك في المناجاة الثالثة والعشرين بقوله:

24 - (إِلَهِي حَقَّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ الْقُرْبِ، وَأَسْأَلُكَ بِي مَسَالِكِ أَهْلِ الْجَذْبِ)

قلت: الحقائق جمع حقيقة، وهي إدراك معرفة الأشياء على ما هي عليه بالأصالة. وحقائق أهل القرب هي علومهم ومعارفهم وأذواقهم وكشوفاتهم.

وأهل القرب: هم المقربون، سواء كانوا من أهل المراقبة الكاملة، أو المشاهدة، أو المكاملة. فالقرب يتفاوت بتفاوت السير والتصفية، فيكون أولاً مراقبة، ثم شهوداً ووصولاً، ثم محوياً واضمحلالاً، ثم بقاء وتنزلاً، وهذا يكون بالمجاهدة والمكابدة، وهو مقام أهل السلوك من المحبين، ويكون جذباً وعناية، وهو مقام أهل الجذب من المحبوبين، وقد يكون أولاً مجاهدة وآخر جذباً وعناية وهو أعظم قدراً وأعم نفعاً وأنفع تربية، وهو الذي أراد الشيخ رضي الله عنه لأنه طلب أولاً التحقيق بحقائق أهل القرب، وهم أهل التقرب حتى أحبهم الله، ثم طلب ثانياً سلوك أهل الجذب، وهم المحبوبون الذين اجتباهم الله واختطف أرواحهم من شهود الأغيار إلى شهود الأنوار. قال تعالى: ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى: الآية 13] وهم المحبوبون، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: الآية 13] وهم المُجِبُّون. فأراد الشيخ أن يكون جامعاً بين سلوك وجذب، وهو أعظم من غيره.

وقال بعضهم: أهل القرب هم أهل الحضرة المستغرقون في الشهود، لأن الله تعالى ليس في حقه قرب ولا بعد، وإنما ذلك في حق العبد، فمن رفع الحجاب عن عين قلبه وفاضت عليه أنوار قربه رمته المراقبة للمشاهدة، والمشاهدة للمكاشفة، والمكاشفة للمعانية، والمعانية للمسامرة والمحادثة والمكالمة، وصار الحق أبدأً جليسه وأنيسه، فهذا هو التقريب للعبد بعد البعد وخرق جميع الحجب.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: أهل المحبة والشوق على قسمين:

قوم اشتاقت نفوسهم على الغيبة فلا سكون لهم إلا باللقاء، وقوم اشتاقت أرواحهم على الحضور والمعانية والشهود، فلا سكون لهم إلا بالغوص في بحر الأسرار وتنزل المعاني على قلوبهم.

وقال أبو يزيد رضي الله عنه: لله رجال لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار لكنهم على الأرائك ينظرون.

وقال سمنون⁽¹⁾: ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة لأنهم معه أبدأً. والنبي ﷺ قال: «المرء مع من أحب»⁽²⁾. وسأل جماعة من المشايخ الجنيد رضي الله عنه عن المحبة، فبكى وقال: كيف أصف عبداً ذاهباً عن نفسه، متصلاً بذكر ربه، قائماً بأداء حقوقه، ناظراً إليه بعين قلبه، قد أحرق قلبه نار هيته، وصفى شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فمِن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، وهو بالله والله ومع الله. انتهى. فقالوا: ما على هذا مزيد يا تاج العارفين. وهذا الوصف صادق بأهل السلوك والجذب، والله تعالى أعلم.

[الاستغناء بتدبير الله واختياره]

ولا شك أن من بلغ هذا المقام ورسخت المحبة والمعرفة في قلبه على التمام، لم يبق له مع محبوبه تدبير ولا اختيار ولا تشوق ولا انتظار، كما أبان ذلك في المناجاة الرابعة والعشرين بقوله:

25 - (إِلَهِي أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ عَنْ تَدْبِيرِي، وَبِاخْتِيَارِكَ لِي عَنْ اخْتِيَارِي، وَأَوْقِنِي عَلَى مَرَاكِزِ اضْطِرَارِي).

قلت: الاستغناء بتدبير الله عن تدبير النفس، وباختيار الحق عن اختيار العبد، إنما يكون بعد الغيبة عن النفس بشهود مدبر الأمور والمتصرف فيها، وهو الفاعل

(1) سمنون بن حمزة وكنيته أبو الحسن الخواص، ويقال أبو القاسم صاحب الشري السقطي وغيره. كان ظريف الخلق، أكثر كلامه في المحبة، وكان كبير الشأن مات قبل الجنيد سنة 290 هـ. (الرسالة القشيرية) (والأعلام 3/ 140).

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب علامة حب في الله عز وجل... حديث رقم (5817) [5/ 2283] ومسلم في صحيحه، باب المرء مع من أحب، حديث رقم (2639) [4/ 2032] ورواه غيرهما.

المختار الواحد، الفهار لأنه هو المنفرد بالتدبير والاختيار والمشية والافتدار. وأما قبل الغيبة عنها بمعرفة سيرها فلا يتخلص العبد من كدر التدبير وظلمة التكدير، ولذلك طلب الشيخ أن يغيبه الله بمعرفته حتى تجتمع همومه وقصوده وإرادته واختياراته في هم واحد وهو شهود محبوه، كما قال القائل⁽¹⁾:

كَانَتْ لِقَلْبِي أَهْوَاءٌ مُفْرَقَةٌ فَاسْتَجَمَعَتْ مُذْ رَأَتْكَ الْعَيْنُ أَهْوَائِي
فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ وَصَرْتُ مَوْلَى الْوَرَى مُذْ صَرْتُ مَوْلَائِي
تَرَكَتُ لِلنَّاسِ دَنِيَاهُمْ وَدِينَهُمْ شَغَلًا بِذِكْرِكَ يَا دِينِي وَدَنِيَائِي⁽²⁾

فقوله: أغثنى بتدبيرك، أي بشهود تدبيرك. وشهود تدبيره لا يكون إلا بعد معرفته كما تقدم، وطلب أيضاً الوقوف على مراكز الاضطرار، وهو التعزز في مقام العبودية في الظاهر على الدوام، لأن العارف لا يزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره باطناً، وقد تقدم هذا.

ومركز الشيء محل استقراره الذي يركز فيه، وهي هنا استعارة عن تحقق العبودية، وهي أن يعرف قدره ولا يتعدى طوره.

[الخروج من ذل النفس]

فمن تخلص من ظلمة التدبير والاختيار، ووقف على مراكز الاضطرار، فقد تحرر من ذل نفسه، وتطهر من شرك تخمينه وحده، كما أبان ذلك في المناجاة الخامسة والعشرين بقوله:

26 - (إِلَهِي أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي) وهو ذلها لغير الله بالطمع والحرص اللذين هما بذرة شجرة الذل (وَوَلَّهْنِي مِنْ شَكِّي وَشِرْكِي قَبْلَ حُلُولِ رَفْسِي).

قلت: لعل المراد بالشك هنا خطور خصيم الفرق، وهو الخصيم الظلماني، أو يريد بالشك: خواطر الرزق التي لا تثبت.

وقال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه: الشك: ضيق الصدر عند إحساس النفس بأمر مكروه يصيبها، فإذا ضاق صدره بسبب ذلك أظلم قلبه وأصابه من أجله الهم والحزن، وطهارته منه إنما تكون بوجود ضده وهو اليقين، فبه يتسع الصدر وينشرح ويزول عنه الحرج والضيق، وبقدر احتذاء القلب من نور اليقين يكون انشراح الصدر

(1) هو الحسين بن منصور الحلاج شهيد الحب الإلهي توفي سنة 309 هـ.

(2) وتتم هذه الأبيات ببيان هما:

إلا لفقلتهم عن عظم بلوائِي

بين الضلوع وأخرى بين أحشائي

ما لامني فيك أحبائي وأعدائي

أشعلت في كبدي نارين واحدة

واتساعه، وعند ذلك يجد القلب الروح والفرح بالله تعالى وبفضله. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «إن الله يقسطه وعدله جعل الروح والفرح بالرضى واليقين، وجعل الهم والعزن في السخط والشك»⁽¹⁾ انتهى.

والشرك: تعلق القلب بالأسباب عند غفلته عن مسبب الأسباب تعلق انصبي بالشرك، ويكون مبدأ ذلك هيجان الشهوة عند استيلاء طلعة الشك على القلب، فيحلو له الهوى، فيفزع إذ ذاك إلى الأسباب التي يتوصل بها إلى بغيته لا يرى غيرها، فيشتبك من أجل ذلك في حبال الشرك، وطهارته منه بضده، وهو نور التوحيد الذي يقذفه الحق تعالى في قلبه، فتطمئن بذلك نفسه وتسكن من الشره والطيش الذي أصابها، وكلما قوي التوحيد في قلبه كان خلاصه من الشرك أكثر، فتمحى من قلبه الأسباب ويثبت فيه خالص التوحيد، فإذا تطهر العبد من الشرك والشك تولاها الله بالهداية والتسديد والمعونة والتأييد.

وفي أخبار داود عليه السلام: «إن الله تعالى أوحى إليه: يا داود هل تدري متى أتولاهم، إذا طهروا قلوبهم من الشرك ونزعوا من قلوبهم الشك» انتهى.

ويحتمل أن الشيخ إنما طلب طهارته من الشك والشرك عند نزول الدواهي الطوام، لأنها مظنة الشكوك والأوهام، فلا يشك في لطف الله عند نزول قدره ولا يتعلق بسبب ولا غيره، فيكون إبراهيمياً حنيفياً إذا ألقى في نار الجلال. وقال له الكون: ألك حاجة، فيقول له بلسان حاله أو مقاله: أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى. فإذا قال له: سل، يقول له: علمه بحالي يعني عن سؤالي. فلا جرم أن الله تعالى يقول لنار الجلال: كوني على ولبى برداً وسلاماً، فتقلب جمالاً محضاً، فإذا تخلص العبد من الشك والشرك في ذلك الوقت كان موحداً حقيقياً وإبراهيمياً حنيفياً، فلا يعتمد إلا على الله ولا يستنصر إلا به كما قال الشيخ:

(بِكَ اسْتَنْصِرُ) لا بغيرك (فَأَنْصُرْني، وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ) أي أفوض أموري كلها إليك (فَلَا تَكِلْني) أي تحوجني إلى غيرك (وَأَيُّكَ أَسْأَلُ) حوائجي كلها لا من غيرك (فَلَا تُخَيِّبْني) مما رجوت لأنك كريم تستحي أن ترد من رفع يديه إليك صفرين، أي خائبين (وَلِي فَضْلِكَ أَرْغَبُ فَلَا تُحَرِّمْني) من فضلك العظيم (وَلِجَنَابِكَ) أي حماك وحرملك (أَنْتَسِبُ فَلَا تُبْعِدْني) من حماك وجوارك بسوء أدبي معك وأنت عفو حلیم (وَبِبَابِكَ أَقِفُ) وأتضرع وألزم تلك الباب وأقرع (فَلَا تَقْرُدْني) إذ ليس من شأن الكريم أن يطرد عن بابه العظيم، أو يرد من أم بحر جوده العميم.

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب، باب (708) إن الله يقسطه... حديث رقم (1116) [2/168] وأبو نعيم في حلية الأولياء، سفیان الثوري [7/130].

[رضا الله منحة وليس لعلة]

وإذا لزمنا الباب أعطاك قبل الطلب ومنحك بلا سبب، وإلى ذلك أشار في المناجاة السادسة والعشرين بقوله:

27 - (إِلَهِي تَقَدَّسَ رِضَاكَ عَنِّي أَنْ تَكُونَ لِي عِلَّةً مِنْكَ، فَكَيْفَ تَكُونُ لِي عِلَّةً مِنِّي؟)

قلت: رضا الله تعالى لا ينال بسبب ولا عمل ولا طلب، وإنما هو منح إلهية ومواهب اختصاصية ﴿بِحَمَلِ بِرَحْمَتِهِ، مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُرُّ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: 105]، فقد تنزهه وتقدس رضا الله تعالى أن تكون له علة منه لأنه قديم، فكيف تكون له علة من غيره وهو الغني الكريم؟ ولذلك قال:

27 - (أَنْتَ الْغَنِيُّ بِدَائِكَ عَنِّي أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ النَّفْعُ مِنْكَ، فَكَيْفَ لَا تَكُونُ غَنِيًّا عَنِّي؟)

فكما تنزهه رضاه وسخطه أن تكون لهما علة أو سبب، كذلك تنزهت ذاته المقدسة عن إيصال المنافع منه أو من غيره، فكما أن ذاته المقدسة قديمة كذلك أوصافه المطهرة قديمة أزلية.

قال أبو بكر الواسطي رضي الله عنه: الرضى والسخط نعتان من نعوت الحق يجريان على الأبد بما جرى به في الأزل، يظهران الوسمين [وسم الجمال ووسم الجلال] على المقبولين والمطرودين، فقد بانئت شواهد المقبولين بضيائها عليهم، كما بانئت شواهد المطرودين بظلمها عليهم.

جرت عادة الله تعالى وسنته أن من ظهرت عليه الطاعات والإحسان كان ذلك علامة الرضى والرضوان، ومن ظهرت عليه المخالفة والعصيان كان ذلك علامة السخط والخسران، وبهذا جاءت الشرائع، والمرء يموت على ما عاش عليه، والنادر لا حكم له، والله تعالى أعلم.

وقد قال بعض العلماء في قوله عليه السلام: «إن الرجل يعمل بعمل أهل النار حتى ما يبقى بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار»⁽¹⁾ إن الأول كثير بفضل الله، والثاني نادر لا حكم له كسببية رحمة الله غضبه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

[الخوف من السابقة أو الخاتمة]

ومع هذا لم تنزل الأكابر تخاف من السابقة أو الخاتمة إذ لا يدري ما سبق به القضاء والقدر كما أشار إليه الشيخ في المناجاة السابعة والعشرين بقوله:

(1) روى نحوه البخاري في أبواب عدة منها: باب (6) ذكر الملائكة...، حديث رقم (3036) [3/1174] ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، حديث رقم (2643) [4/2036] ورواه غيرهما.

28 - (إِلَهِي إِنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ هَلْبَنِي) فكم أعزم على الطاعة والقضاء يغلبني ، وكم أفر من المعاصي والقدر يقحمني ، فلا حيلة لي إلا رجاء حولك وقوتك (وَإِنَّ الْهَوَىٰ بِوَنَائِقِي) أي بحبائل (الشَّهْوَةِ أَسْرَنِي) أي ربطني وحبسني عن النهوض إلى حضرتك والفوز بدخول جنتك (فَكُنْ أَنْتَ النَّصِيرَ لِي) دون واسطة من غيرك (حَتَّى تَنْصُرَنِي) على من يصدني عنك (وَتَنْصُرَ بِي) من تعلق بجنابي أو لاذ بسبيي . وهذا كما قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : وأغنا بلا سبب واجعلنا سبب الغنى لأولياتك وبرزخاً بينهم وبين أعدائك .

ثم سأل الغنى الأكبر فقال :

28 - (وَأَغْنِي بِفَضْلِكَ حَتَّى أَسْتَغْنِي بِكَ عَنْ طَلْبِي) فإن العبد إذا تعمّر قلبه بالله استغنى به حتى عن طلبه ، وربما دلهم الأدب على ترك الطلب ، وهذه هي السعادة العظمى والولاية الكبرى ، كما قال الشيخ أبو الحسن [الشاذلي] رضي الله عنه : فالسعيد حقاً من أغنيته عن السؤال منك . وهذه نتيجة أنوار الولاية التي أشرقت في قلوب العارفين ، وهذا معنى قوله :

28 - (أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ) حتى ظهر الحق وزهق عنهم الباطل (حَتَّى هَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ) (وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الْأَغْيَارَ مِنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ) فملاؤها بأنوار شهودك فأحبوك ولم يحبوا سواك لأنهم لم يشهدوه (وَأَنْتَ الْمُؤْنِسُ لَهُمْ) بحلاوة ذكرك وشهود نورك (حَيْثُ أَوْحَشْتَهُمُ الْعَوَالِمُ) فلم يستأنسوا بشيء منها بل استوحشوا منها من حيث كونيتها ، واستأنسوا بصانعها والمتجلي فيها ، فأبدلهم الله الأنس به في الخلوات والمجالسة معه في الغلوات بحلاوة المشاهدة والمكالمة والمسارة والمناجاة ، وهذا هو النعيم المقيم والفوز العظيم . قال ذو النون المصري رضي الله عنه : بينما أنا أمشي في البادية إذ لقيتني امرأة فقالت : من أنت ، فقلت : رجل غريب ، فقلت : وهل توجد مع الله غربة .

وكتب مطرف بن الشخير إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما : وليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه ، فإن لله عبادة استأنسوا بالله ، فكانوا في وحدتهم أشد استئناساً منهم مع الناس في كثرتهم انتهى .

28 - (وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَتَّى اسْتَبَانَتْ لَهُمُ الْعَالِمُ) أي أنت الذي هديتهم طريق الوصول إلى حضرتك حتى استبانن أي ظهرت لهم معالم ، أي علامات التحقيق . وهذا من الشيخ رضي الله عنه تعريض بالسؤال وهو أعظم من التصريح ، وكأنه يقول : إلهي كما أشرقت الأنوار في قلوب أولياتك حتى عرفوك ، وكما أزلت الأغيار من قلوب أحبائك حتى أحبوك وكما آنتهم حيث أوحشتهم

العوالم وهديتهم حتى استباننت لهم المعالم، فأشرق أنوار المعارف في قلبي حتى أعرفك، وأزل الأغيار من قلبي حتى أحبك، وأنسني بك حيث أوحشتني العوالم، واهدني إلى طريق التحقيق حتى تتبين لي المعالم فأستغني بك عن كل شيء وأجدك عند كل شيء، كما قال:

28 - (مَاذَا وَجَدَ مَنْ لَقَدَكَ؟) ولو ملك الدنيا بحدافيرها فهو أفقر الفقراء،

كما قال الشاعر:

لكل شيء إذا فارقتَه عوضٌ وليس لله إن فارقت من عوض⁽¹⁾
 قيل للشبلي: أي الخسران أعظم، قال: من فاتته الجنة ودخل النار، فلما مات روي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك، قال: لم يطالبني بالبراهين على الدعاء إلا على شيء واحد، قلت ذات يوم: لا خسارة أعظم من خسران الجنة ودخول النار، فقال لي: وأي خسارة أعظم من خسران لقائي، أي شهودي ومعرفتي.

28 - (وَمَا الَّذِي لَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟) لقد ملك الوجود بأسره واستغني غني

لا فقر بعده آخر دهره (لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلًا) أي لقد خاب وخسر من أحب شيئاً دونك ورضيه بدلاً بك. وأنشدوا⁽²⁾:

سهرُ العيونِ لغيرِ وجهك باطلٌ ويكأؤهنَّ لغيرِ فقديك ضائعُ
 أبطنُ أني فيك مشتركُ الهوى هيهاتَ قد جمعَ الهوى بكَ جامعُ
 بصري وسمعي طائعانِ وإنما أنا مُبصرٌ بك في الحياةِ وسامعُ

28 - (وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَلَغَ هُنَّكَ مُتَحَوِّلاً) أي ولقد خسر من أوقفته ببابك ثم

طلب باب غيرك، وتحوّل إليه والتجأ إلى غير جنابك، فلا أخسر منه ولا أبخس صفقة من تجارته، ترك باب الكريم والتجأ إلى باب العبد اللئيم.

فقوله: متحوّلاً مفعول لبغى، بمعنى طلب، وهو اسم مفعول بمعنى المصدر،

وعنك متعلق بالمصدر، أي ولقد خسر من طلب تحوّلًا عن جنابك العظيم وبابك الكريم.

29 - (إِلَهِي كَيْفَ يُرْجَى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الْإِحْسَانَ؟) ولا تقطعه أبداً عن

الإنسان (وَكَيْفَ يُظَلَّبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ هَادَةَ الْأَمْتَانِ؟) بل امتنانك فائض على الأنام وهو واصل إليهم على الدوام، عرفه العارفون وجحدته الغافلون (يا مَنْ

(1) هذا البيت سبق ذكره.

(2) المنشد هو خالد الكاتب: خالد بن يزيد البغدادي أبو الهيثم شاعر غزل، من الكتاب أصله من خراسان، ومولده بها وتوفي في بغداد سنة 262 هـ، كان أحد كتاب الجيش في أيام المعتصم العباسي وكان يهاجي أبا تمام، وغلبيت عليه السوداء، وعاش عمراً طويلاً حتى دق عظمه ورق جلده. شعره رقيق أكثره غزل. مات سنة 262 هـ [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

أذاق أحبائه حلاوة مؤانسته) وذلك حين استوحشوا من مؤانسة غيره (فقاموا بين يديه متملقين).

قلت: التملق هو التلطف في بث الشكوى، والتوؤد بمساررة النجوى. وفي الحديث: «إذا أحب الله عبداً قال للملائكة: إذا دعا أخواها حاجة عبيدي فلاني أحب أن أسمع صوته»⁽¹⁾ فالتملق بين يدي الحبيب ومساررة القريب هي من أعظم الرغائب وأفضل المطالب لا يعرفها إلا أهل الشوق والاشتياق، كما قال الشاعر^(*):

سفينة الحب في بحر الهوى وقفت فامتن عليّ بريح منك بجريها
لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يُعانيها
لا أوحش الله منكم من يحبكم وأنس الله داراً أنتم فيها

29 - (ويا من ألبس أولياءه) العارفين (ملايس هيبته) حتى هابهم كل شيء

وخاف منهم كل شيء ولم يخافوا من شيء. وفي الحديث: «من خاف الله خاف منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه كل شيء»⁽²⁾. وحيث ألبسهم لباس هيبته (فقاموا بعزته مستعززين) لما رفعوا همته عن الخلق أعزهم الله، ولما رفعوا همته عن الدنيا أعزهم الخلق، فإن الولي إذا أراد الله أن يرده إلى خلقه لينفع به عباده ألبسه حلتين: حلة البهاء والجمال ليقبل الناس عليه بالمحبة والوصال فيغنيهم الله به، وحلة الهيبة والجلال ليُمثّل أمره إذا أمر ويُجتنب نهيه إذا نهى، وهاتان الحلتان يكساهما عند الرسوخ والتمكين، وإلى ذلك أشار بعض الشعراء، والله أعلم بقوله:

إن عرفان ذي الجلال لعز وضياء وبهجة وسرور
وعلى العارفين أيضاً بهاء وعليهم من المحبة نور
فهنيئاً لمن عرفك السهي هو واللّه دهره مسرور
فلما كانوا لله وبالله ومع الله أعزهم الله وأعز من أعزهم.

(1) روى نحوه الطبراني في المعجم الكبير، عن أبي أمامة رضي الله عنه حديث رقم (7697) [8/166] ونصه: عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: انْطَلِقُوا إِلَى عَبْدِي فَصَبُّوا عَلَيْهِ الْبَلَاءَ صَبًّا فَبَاتُونَهُ فَيَصْبِرُونَ عَلَيْهِ الْبَلَاءَ فَيُحَمِّدُ اللَّهَ فَيَرْجِعُونَ فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا صَبَبْنَا عَلَيْهِ الْبَلَاءَ صَبًّا كَمَا أَمَرْتَنَا فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَلَنِي أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ». وروى نحوه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، عن أنس بن مالك، حديث رقم (745) [1/197] وروى نحوه غيرهما.

(*) لم أقف على اسم قائل هذه الأبيات مجتمعة، هذا وقد سبقت الإشارة إلى اسم قائل البيت الثاني وهو قوله: لا يعرف الشوق... الخ. واسمه مروان بن محمد أبو الشمقمق.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان، عن وائلة بن الأسقع مرفوعاً، الفصل الثاني في ذكر آثار وأخبار... حديث رقم (974) [1/541].

قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِرُ مَنْ نَشَاءُ﴾ [آل عمران: الآية 26] قال: بأن يكون لك بك معك بين يديك انتهى. وسبب العز من الله هو ذكر الله، كما قال:

29 - (أَنْتَ الذَّاكِرُ مِنْ قَبْلِ الذَّاكِرِينَ) أي أنت الذاكر لهم من قبل أن يذكروك، فلولا ذكرك إياهم ما ذكروك.

قال أبو يزيد رضي الله عنه: غلطت في بداية أمري في أربعة أشياء: توهمت أنني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه، فلما انتبهت رأيت ذكره سبق ذكرى، ومعرفته سبقت معرفتي، ومحبه أقدم من محبتي، وطلبه لي أولاً حتى طلبته.

29 - (وَأَنْتَ الْبَادِيءُ بِالْإِحْسَانِ مِنْ قَبْلِ تَوَجُّهِ الْعَابِدِينَ) فلما بدأتهم بالإحسان توجهوا إليك بالطاعة والإذعان (وَأَنْتَ الْجَوَادُ بِالْمَعْطَاءِ مِنْ قَبْلِ طَلْبِ الْقَالِبِينَ) جلّ حكم الأزل أن يضاف إلى الأسباب والعلل.

29 - (وَأَنْتَ الْوَهَّابُ، ثُمَّ أَنْتَ لِمَا وَهَبْنَا مِنَ الْمُسْتَقْرِضِينَ) فقد وهبت لنا النعم، وأمرتنا بالسخاء والكرم، ووفقتنا لعطائها، ووعدتنا بالنعيم الجزيل عليها، فله ما أعطى وله ما أخذ، فإذا عرف العبد هذا لم تبق له وسيلة يتوسل بها إلا فضل الله وكرمه.

وفي مناجاة الجنيد رضي الله عنه: يا ذاكر الذاكرين بما به ذكروه، يا باديء العارفين بما فيه عرفوه، يا موفق العابدين لصالح ما عملوه، من ذا الذي يشفع عندك إلا بإذنك، من ذا الذي يذكرك إلا بفضلك.

واستقرض الرب من عبده ما وهبه له غاية في ترفيعه لقدره، وإبانته لشرفه ووعدته مع ذلك جزيل الثواب، نهاية في إكرامه له وتفضله عليه، وقال بعضهم: ملكك ثم اشترى منك ما ملكت ليثبت لك معه نسبة، ثم استقرض منك [ثمن] ما اشتراه، ثم وعدك عليه من العوض أضعافاً، بين فيه أن نعمه وعطاياه بعيدتان أن تكونا مشوبتين بالعلل. انتهى.

[طلب الحق تعالى سابق على طلب العبد]

قال ابن عباد رضي الله عنه: ولما بين أن طلب الحق سابق على طلب العبد، طلب منه أن يطلبه ليتحقق منه الطلب، فقال في المناجاة الثامنة والعشرين.

30 - (إِلَهِي أَطْلُبُنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ) أي اطلبني برحمتك الأزلية حتى أطلبك وأصل إليك، فإن الطلب سابق الوصول وهذه طريقة السلوك.

ثم أشار إلى طريق الجذب والعناية، فقال:

30 - (وَأَجْلِبْنِي بِمِثْلِكَ حَتَّى أَقْبَلَ هَلِكِكَ)

قلت: الجذب هو الاختطاف من شهود الأكوان إلى شهود المكوّن، والغالب أن يكون بعد التوجه والطلب والمجاهدة والتعب، وقد يجذب أولاً ثم يرد إلى السلوك،

والأول أكمل .

ثم إذا حصل طلب الرب لعبده حتى وصل إليه لا ينقطع عنه خوفه ورجاؤه، كما أبان ذلك في المناجاة التاسعة والعشرين بقوله :

31 - (إِلَهِي إِنَّ رَجَائِي لَا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصَيْتُكَ، كَمَا أَنَّ خَوْفِي لَا يُزَايِلُنِي وَإِنْ أَطَعْتُكَ)

قلت: لما كانت السابقة مبهمة والخاتمة مجهولة كان العبد بين خوف ورجاء ولو بلغ ما بلغ، فإن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، والنواصي بيد قدرته تقودها حيث شاءت. قال الشاعر⁽¹⁾:

حسبي الله توكلت عليه من نواصي الخلق طمراً في يديه
ليس للسهارب في مهربي أبداً ملجأ إلا إليه
فكيف لا يصح للعبد أن ينقطع خوفه إن أطاع، أو يقل رجاؤه إن عصى. وقد تقدم في أول الكتاب: أن خوف العارفين ورجاءهم ناشيء عن شهود صفة الجلال والجمال وهما لا يتغيران، فكذلك ما ينشأ عنهما، ولذلك وصف الشيخ نفسه بهذه الحالة الشريفة، وهي الاعتدال على الدوام ظهرت منه طاعة أو معصية. فإذا تحقق أن العبد لا مهرب له في حال عصيانه إلا وقوفه ببابه، ولا سكون له في حال طاعته إلا إلى كرمه وإحسانه، علم أنه مدفوع إليه على كل حال، وهذا معنى قوله:

32 - (إِلَهِي قَدْ دَفَعْتَنِي أَلْعَوَالِمُ إِلَيْكَ) فمهما ملت إلى شيء دفعتني عنه، أو ركنت إليه حركته عليّ حتى تدفعني إليك، فما أرحمك بي مع عظيم جهلي. وهذه علامة العناية من الله لعبده، فمهما رآه وقف مع شيء أو ركن إلى شيء، ولو كان طاعة، شوشه عليه ورحله منه.

والحاصل: أن الحق تعالى غيور لا يحب قلب عبده أن يركن إلى غيره، وهذا من كرمه تعالى وإحسانه إلى عباده، ولذلك قال:

32 - (وَقَدْ أَوْقَفَنِي هَلْمِي بِكَرَمِكَ هَلْيُكَ)

قلت: لما دفعته العوالم إليه لم يجد كريماً سواه، فأوقفه كرمه على بابه، والكريم لا تتخطاه الآمال.

قيل: معنى كرم الله: إحسانه لعباده. وقيل: الذي لا يدع حاجتهم لغيره. وقيل: الذي يعطي قبل السؤال.

(1) هو بهلول بن راشد الزاهد المغربي القيرواني الفقيه قيل كان ثقة صادقاً مجتهداً، مجاب الدعوة، خيراً، واسع العلم، ضربه أمير إفرنجية بالسياط ثم مات بعد ذلك سنة ثلاث وثمانين ومائة [شعب الإيمان للبيهقي (6/264) والوافي بالوفيات لخليل بن أبيك الصفي (10/194)].

قال الجنيد: الكريم الذي لا يحوج إلى السؤال.

وقال المحاسبي: الذي لا يبالي من أعطى ولا كم أعطى.

وقيل: إن من فهم كرم الله تعالى لم يجزع من سوء قضائه لأنه يرى المصيبة نعمة مستورة عن إدراك الخلق، كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه: ما أصابني الله بمصيبة إلا رأيت الله فيها ثلاث نعم، الأولى: حيث لم تكن في ديني، الثانية: حيث لم تكن أعظم مما وقعت. الثالثة: إن الخطايا تكفر بها، فأنا أشكر الله عليها. انتهى. ولهذا قالوا: ليس العجب ممن يلتذ بالنعيم إنما العجب ممن يلتذ بالعذاب الأليم، وذلك لا يكون إلا بخرق عادة النفس حتى تلذ بما يتألم به الناس كما قال القائل⁽¹⁾:

أريدك لا أريدك للشواب ولكنني أريدك للعقاب
وكل ما ربي قد نلت منها سوى ملذوذ وجدي بالمذاب
وقال آخر⁽²⁾:

إذا كانت الأقدار من مالك المملك فسيان عندي ما يسر وما يبكي

* * *

والحاصل: أن المحبة إذا قويت غيبت المحب عن الآلام وإلا فهي ناقصة، ومنشأ المحبة شهود الكرم كما تقدم، ومن وقف بباب كرم مولاه لا يخيب أمله ومناه، كما أبان ذلك في المناجاة الموفية ثلاثين بقوله:

33 - (إلهي كيف أخيب وأنت أملئ؟) أي محل طمعي ورجائي، والكريم لا يخيب آمال الطامعين، وهو أكرم الأكرمين.

33 - (أم كيف أهان وهلك متكلي؟) وقد قلت في كتابك العزيز: ﴿وَمَنْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: الآية 3] أي كافيه، ومن كنت كافيه وناصره لا يُهان أبداً.

حكى أن بعض الأولياء ولدت له بنية في آخر عمره، وماتت أمها، وحضرته الوفاة، فقال له رجل: أوصني عليها أكفلها، قال: لا، ولكن إذا نامت، فاحملها إلى حرم الله، ودعها في الحجر، وامض، ودعها في كفالة الله. فلما مات فعل الرجل ذلك، وصار يرقبها عن بعد، فرأتها أم الخليفة وهي تطوف، فأمرت بحملها لها، فتبنتها، وربتها حتى بلغت، وزوجتها لابن الوزير، وأصدقته عشرين ألف دينار. فانظر حال من توكل على كفالة مولاه، وآوى إلى حصن رعايته وحماه.

فما أطفه سبحانه بمن استرعاه، وما أحفظه لمن دخل حماه، اللهم اجعلنا ممن

(1) القائل: هو الشيخ الحسين بن منصور الحلاج، وقد سبقت الإشارة إليه.

(2) لم أقف على اسم هذا الآخر.

تحصّن بك فكفيته، وممن استرعاك في تركته، فرعيته يا أرحم الراحمين .

[العز بالله تعالى]

ولا شك أن من دخل تحت خفارة العزيز كان عزيزاً بالله ذليلاً له، وإليه أشار في المناجاة الحادية والثلاثين بقوله :

34 - (إِلَهِي كَيْفَ اسْتَعَزُّ وَأَنْتَ فِي الدُّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي؟)

أي كيف استعزُّ عليك وأنت في ذل العبودية أركزتني أي أقررتني واقمتني (أم كَيْفَ لَا اسْتَعَزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي؟) أي أم كيف لا استعزُّ في قلبي وروحي وسري وإليك نسبتني لما أودعت في قلبي من سر الخصوصية ونور المعرفة وقوة الحرية، فقلت: يا عبدي ويا وليي، ولا شك أن هذه النسبة توجب الافتخار على الوجود والتمسك على كل موجود، فذلُّ العارف يرجع إلى ظاهره عبودية، وعزّه يرجع إلى باطنه حرية بما شهد من أنوار الربوبية، وإليه أشار بعضهم^(*) بقوله :

نَحْنُ إِنْ كُنَّا بِهِ تَهْنَأُ دَلَالًا عَلَى سَائِرِ الْحَرَائِرِ وَالْعَبِيدِ
وَإِنْ نَحْنُ رَجَعْنَا إِلَيْهَا عَظَلَّ دُلُّنَا ذُلُّ الْيَهُودِ

[الفقر إلى الله تعالى]

ثم إنَّ الفقر أخو الذلِّ ولذلك قرَّنه به في المناجاة الثانية والثلاثين فقال :

34 - (أَمْ كَيْفَ لَا أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي فِي الْفَقْرِ أَقْمَتَنِي؟)

لأن أنفاسي بيدك، فأنا فقير إليك في كل لحظة في إيجادي وإمدادي، قال تعالى : ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: الآية 15] وهذا هو الفقر إلى نعمة الإيجاد، ثم قال تعالى : ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: الآية 19] وهذا هو الفقر إلى نعمة الإمداد (أم كَيْفَ أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي؟) حيث كفيته ما أهمني، وتكفلت لي برزقي وما تقوم به بنيتي، وأغنيته بمعرفتك حتى لا أحتاج إلى غيرك. وفي الحديث: «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»⁽¹⁾. أي الروح وغناها إنما يكون بربها .

34 - (أَنْتَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُكَ تَعَرَّفْتُ لِكُلِّ شَيْءٍ) بما أظهرت له من نور

جلالك وجمالك فصار (مسيحاً بحمدك وساجداً لك).

(*) لم أقف على اسم هذا البعض .

(1) رواه أبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح مسلم، باب كراهية الحرص على الدنيا، حديث رقم

(2343) [3/ 115] وابن حبان في صحيحه، ذكر الخبر الدال على أن المالك من حطام هذه

الدنيا...، حديث رقم (679) [2/ 453] ورواه غيرهما .

34 - (فَمَا جَهْلَكَ شَيْءٌ) فالكل عارف بك ومقرّ لك بالربوبية، إما طوعاً ظاهراً وباطناً، وإما باطناً فقط لتظهر حكمتك (وَأَنْتَ الَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ) من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار (فَرَأَيْتَكَ ظَاهِراً فِي كُلِّ شَيْءٍ) بنورك الأزلي الذي أفنى وجود كل شيء (فَأَنْتَ الظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ) وأنت الباطن لكل شيء. وفي الحديث: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»⁽¹⁾. وقد تقدمت أقسام الظهور مستوفاة في أول الكتاب.

وعبر هنا بعبارة لم تتقدم، فقال:

34 - (يَا مَنْ أَسْتَوَى بِرَحْمَانِيَّتِهِ عَلَى عَرْشِهِ فَصَارَ الْعَرْشُ غَيْباً فِي رَحْمَانِيَّتِهِ، كَمَا صَارَتِ الْعَوَالِمُ غَيْباً فِي عَرْشِهِ)

قلت: أشار إلى تفسير قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ﴾ [الرَّحْمَنُ: الآية 1]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: الآية 4] فذكر أن استواء الحق تعالى على العرش إنما هو برحمانيته، فهو مغمور في رحمانية الحق حتى صار غيباً في رحمانيته إذ لا نسبة له معها. ورحمانية الحق تعالى وصف قائم بذاته، والصفة لازمة للموصوف، فإذا غاب العرش وانطوى وجوده في رحمانية الحق، غابت العوالم أيضاً في رحمانيته، لأنها غابت في وجود العرش، فلما انطوى وجود العرش في عظمة الحق ورحمانيته، انطوى وجود العوالم كلها، لأنها في جوف العرش كحلقة في الأرض، وهو محيط بها كما أحاطت الرحمانية بالعرش، فلا نسبة له معها. ثم فسّر ذلك فقال:

34 - (مَحَقَّتِ الْأَثَارَ بِالْأَثَارِ) فالآثار الأولى هي العوالم، والآثار الثانية هو العرش، قد امتحقت الأكوان كلها في عظمة العرش حتى صارت كالعدم (وَمَحَوَّتِ الْأَغْيَارَ بِمُحِيطَاتِ أَفْلَاكِ الْأَنْوَارِ).

قلت: المراد بالأغيار هو العرش وما احتوى عليه من الآثار. أو تقول: هو كل ما دخل عالم التكوين من العرش إلى الفرش، أو ما فرض وجوده خارجاً عن العرش، وأفلاك الأنوار هي أنوار الذات والصفات، فإذا امتحقت الأغيار وهي الآثار بأنوار

(1) رواه الحاكم في المستدرک، ذکر مناقب [السيدة] فاطمة...، حديث رقم (4741) [3/170] والنسائي في السنن الكبرى، (4 قوله جل ثناؤه: ﴿الأول والآخر...﴾ حديث رقم (7668) [4/395] ورواه غيرهما.

عظمة الذات بقيت الأنوار وانفرد بالوجود الواحد القهار، فأنوار الصفات هي أنوار الذات، وأنوار الذات هي أنوار الصفات، والله تعالى أعلم.

34 - (يا مَنْ أُحْتَجَبَ فِي سُرَادِقَاتِ هِرْهِ هُنَّ أَنْ تُذَرِكَهُ الْأَبْصَارُ)

قلت: السرادقات في اللغة هي الأسوار المحيطة بالدار، وهي هنا كناية عن الحجب القهرية، وهي حجب العزة التي احتجب الحق تعالى بها عن عباده مع شدة ظهوره، ومرجعها إلى دوائر الحس والوهم والغفلة والأكينة التي على القلوب. وتنحصر في خمسة أمور:

الأول: حب الدنيا الذي زرعه الحق تعالى بقهره في قلوب الناس حتى انصرفت إليها الهمم، وتاهت فيها العقول، وتظلمت بصور خيالها القلوب، واشتبكت فيها الفكر، فلا تنصرف إلى غيرها، وبهذا احتجب جلّ العباد إلا من عصم الله.

الثاني: ارتباط الأسباب مع مسبباتها، والعوائد مع ما تعودت بها، كتوقف أمر الرزق على حركة السبب، والنبات على وجود الأمطار، وغير ذلك من ارتباط الأسباب، فظن الجاهل أنها لا تنفك عن مسبباتها، فحجبوا بها عن مسبب الأسباب، والحكيم العليم يرزق من غير أسباب، ويعطي بلا حساب، وبهذا احتجب كثير من الناس فوقفوا مع الأسباب، وحجبوا عن شهود ربّ الأرباب إلا من نفذت بصيرته من ذوي الألباب.

الثالث: الوقوف مع ظاهر الشريعة ترغيباً وترهيباً، علماً وعملاً، فقوم وقفوا مع الترغيب فانكبوا على العمل طلباً للجزاء وهم العباد، وقوم وقفوا مع الترهيب فغلب عليهم الخوف وهم الزهاد، وقوم وقفوا مع ترغيب العلم فاشتغلوا بعلم الرسوم والحروف وتركوا علم اليقين والخشية والمعرفة وهم علماء الظاهر، فحجبوا بالعلم عن المعلوم وهي معرفة الحي القيوم.

الرابع: الوقوف مع حلاوة الطاعات ولذيق المناجاة، وهي سمرم قاتلة لمن وقف معها، وهي لأهل المراقبة وبها احتجب كثير من العباد والزهاد، وقد تظهر لهم خوارق وكرامات حسية فتزيدهم حجاباً عن الله.

الخامس: ظهور أثر القدرة على هذه التجليات واتصافها بأوصاف العبودية، كالفقر والذل والجهل والمرض والموت، وغير ذلك من أوصاف البشرية التي سترت سر الخصوصية، وبهذا احتجب بعض المستشرقين على الفناء في الذات فرجعوا من حيث جاؤوا ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: الآية 18] فهذه سرادقات العز التي احتجب الحق تعالى بها، فإن العزيز هو الذي لا يترقى إليه وهم طمعاً في تقديره، ولا يسمو إلى صمدانيته فهم قصداً إلى تصويره. وقيل: العزيز من

ضَلَّتْ العقول في بحار عظمتها ، وحارت الألباب في إدراك نعمته ، وكلت الألسن عن استيفاء مدح جلاله ووصف جماله . وقال رسول الله ﷺ : « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (1) اهـ .

34 - (يَا مَنْ تَجَلَّى بِكَمَالِ بَهَائِهِ) أي حسنه وجماله (فَتَحَقَّقْتُ عَظَمَتَهُ

الأسرار) أي أسرار العارفين ، فدام سرورهم وحبورهم إلى يوم الدين ، ثم تتصل نصرتهم بنظرتهم إلى رب العالمين . وأنشدوا :

سروري بكم أضحي يجلُّ عن الوصفِ وقربي منكم بالمرودة والمعطفِ
وأنتم معي حيث استقلُّ بي الهوى فلي بكم شغلُّ عن الداني والإلفِ
سويداء قلبي أصبحت حراماً لكم تطوفُ بها الأسرارُ من عالم اللطفِ
رسائلُ ما بينَ المحبينَ أصبحت تجلُّ عن التعريفِ والرسمِ والعرفِ
رسائلُ جاءتنا برِّي (2) جنابكم عوارفُ عسرفِ فاق كلَّ شذا عَرَفِ

34 - (كَيْفَ تَخْفَى) عن بصائر العارفين (وَأَنْتَ الظَّاهِرُ ؟) وحدك لا ظهر

معك ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ [الحديد: الآية 3] فالحق هو الظاهر لكن لا تدركه أبصار المخلوقين ، ولا يرى الحادث القديم ، ولا يرى الحق إلا الحق ، فإذا فني الخلق الحادث وبقي القديم رأى القديم القديم ، وعرف الحق الحق ، فما دمت لم يُعْطَ الحق تعالى وصفك بوصفه ، ونعتك بنعته ، لا تطمع في شهوده ومعرفته مع شدة ظهور نوره .

34 - (أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الْحَاضِرُ ؟) الذي لا يخفى عليه ولا

يغيب عنه شيء وهو المحيط بكل شيء (وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ) إلى سواء الطريق والموصل إلى عين التحقيق (وَبِهِ اسْتَعِينُ) فإنه القوي المعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ) المصطفى الكريم (وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ) تسليماً دائماً إلى يوم الدين .

تَجَرَّ ما قصدنا جمعه بحول الله وقوته ، فإن وافق الحق والصواب فالمنة لله العلي الكبير ، وإلا فالعبد محل الخطأ والتقصير ، ولا سيما مع الباع القاصر والعلم القصير .

(1) هذا الحديث سبق تخريجه .

(2) الرِّيُّ : المنظر الحسن . قال الفارسي : وهو من مكان النعسة وأنه خلاف أثر الجهد والمعطر والذبول . وفي التنزيل العزيز : ﴿ أَحْسَنَ أَثَانًا رِيًّا ﴾ . (لسان العرب) / والرِّيُّ : ما رأت العين من حال حسنة من المتاع واللباس . (العين) .

وأقول كما قال الشيخ خليل⁽¹⁾: واعتذر لذوي الألباب من التقصير الواقع في هذا الكتاب، وأسأل بلسان التضرع والخشوع وخطاب التذلل والخضوع أن ينظر بعين الرضى والصواب، فما كان من نقص كملوه، وما كان من خطأ أصلحوه، فقلماً يخلص مُصنّف من الهفوات، أو ينجو مؤلف من العثرات.

ونسأل الله تعالى أن ينفع به مَنْ كَتَبَهُ أو طالعه أو حصل شيئاً منه أو سمعه أو عمل بما فيه، وأن يكسوه جلباب القبول، ويبلغ محصله كلّ مطلوب ومأمول، بجاء خير الأنام مولانا محمد الشفيع المقبول، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَعَتْرَتِهِ وَأَحْزَابِهِ أَهْلِ الْمَحَبَةِ وَالْوَصُولِ، وَسَلَامَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(1) هو الشيخ خليل بن إسحاق بن موسى، ضياء الدين الجندي، فقيه مالكي، من أهل مصر، ولي الإنشاء على مذهب مالك من أشهر كتبه: «المختصر في الفقه المالكي» وقد شرحه كثيرون، توفي سنة 776 هجرية.

فهرس المحتويات

3 تقديم
7 ترجمة شارح الحكيم سيدي الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني
10 ترجمة مؤلف الحكيم سيدي الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري
15 [مقدمتا الكتاب]

[الباب الأول]

23	1 - من علامات الاعتماد على العمل، نقصان الرجاء عند وجود الزلل
	2 - إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية
27
29	3 - سوابق الهتم لا تحرق أسوار الأقدار
30	4 - أرخ نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك
31	5 - اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك
	6 - لا تكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجبا ليأسك فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك، وفي الوقت الذي تريد، لا في الوقت الذي تريد
32	7 - لا يشككك في الوعد عدم وقوع الموعد به وإن تعين زمنه، إكلاً يكون ذلك قدحاً في بصيرتك، وإحماداً لنور سريرتك
33
	8 - إذا فتح لك رجة من التعرف فلا تبال معها إن قل عملك، فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك، ألم تعلم أن التعرف هو موردك عليك، والأعمال أنت متهديها إليه، وأين ما تهديه إليه بما هو موردك عليك
36
38	9 - تنوعت أجناس الأعمال، لتنوع إردات الأخوال
39	10 - الأعمال صور قائمة، وأزواؤها وجود سير الإخلاص فيها
40	11 - اذفن وجودك في أرض الحمول، فما نبت مما لم يذفن لا يتم نتاجه
43	12 - ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان بكرة
46	13 - كيف يشرق قلب صور الأكوام منطبعة في مرآيه
52	14 - الكون كله ظلمة وإنما انارة طور الحق فيه
54	15 - مما يدل على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه
57	16 - كيف يتصور أن يخجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء

[الباب الثاني]

- 17 - ما تَرَكَ مِنَ الْجَهْلِ شَيْئاً مَنْ أَرَادَ أَنْ يَحْدُثَ فِي الْوَقْتِ غَيْرَ مَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ فِيهِ 62
- 18 - إِحَالَتُكَ الْأَعْمَالَ عَلَى وُجُودِ الْفَرَاغِ مِنْ رُعُونَاتِ النَّفْسِ 63
- 19 - لَا تَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ لِيَسْتَعْمِلَكَ فِيهَا سِوَاهَا، فَلَوْ أَرَادَكَ لِاسْتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ 64
- 20 - مَا أَرَادَتْ هِمَّةٌ سَالِكٌ أَنْ تَقِفَ عِنْدَمَا كُشِفَ لَهَا إِلَّا وَنَادَتْهُ هَوَاتِفُ الْحَقِيقَةِ: الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ، وَلَا تَبْرَجَتْ ظَوَاهِرُ الْمُكْرَنَاتِ إِلَّا وَنَادَتْهُ حَقَائِقُهَا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ .. 66
- 21 - طَلَبُكَ مِنْهُ اتِّهَامٌ لَهُ، وَطَلَبُكَ لَهُ غَيْبَةٌ مِنْكَ عَنْهُ، وَطَلَبُكَ لِغَيْرِهِ لِقَلْبِهِ حَيَاتِكَ مِنْهُ، وَطَلَبُكَ مِنْ غَيْرِهِ لَوْجُودِ بَعْدِكَ عَنْهُ 67
- 22 - مَا مِنْ نَفْسٍ تُبْدِيهِ، إِلَّا وَلَهُ قَدْرٌ فِيكَ يُمَضِيهِ 69
- 23 - لَا تَتَرَقَّبْ فُرُوعَ الْأَغْيَارِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْطَعُكَ عَنْ وُجُودِ الْمُرَاقِبَةِ لَهُ فِيمَا هُوَ مُقِيمٌ فِيهِ 70
- 24 - لَا تَسْتَعْرِبْ وَقُوعَ الْأَكْدَارِ، مَا دُمْتَ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَإِنَّهَا مَا أُبْرَزَتْ إِلَّا مَا هُوَ مُسْتَحَقٌّ رَضْفِهَا وَوَاجِبٌ نَعْمَتِهَا 71
- 25 - مَا تَوَقَّفْتَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِيهِ بِرَبِّكَ، وَلَا تَبَسَّرَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِيَهُ بِنَفْسِكَ 72
- 26 - مِنْ عَلَامَاتِ النُّجُوحِ فِي النِّهَايَاتِ، الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ فِي الْبِدَايَاتِ 73
- 27 - مَنْ أَشْرَقَتْ بَدَايَتُهُ، أَشْرَقَتْ نِهَائَتُهُ 73
- 28 - مَا اسْتُودِعَ فِي غَيْبِ السَّرَائِرِ، ظَهَرَ فِي شَهَادَةِ الظُّوَاهِرِ 74
- 29 - شَتَانٌ بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ أَوْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ، الْمُسْتَدِلُّ بِهِ عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِيهِ، فَأَثَبَتْ الْأَمْرَ مِنْ وُجُودِ أَضْلِيهِ، وَالْأَسْتَدِلَّالُ عَلَيْهِ، مِنْ عَدَمِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ وَالْأَقَمَتِي غَابَ حَتَّى يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ وَمَتَى بَعْدَ حَتَّى تَكُونَ الْأَثَارُ مِنَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْهِ 75
- 30 - ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِمَّن سَعَتِهِ﴾ الْوَاصِلُونَ إِلَيْهِ ﴿رَمَن رِزْقُهُ﴾ السَّائِرُونَ إِلَيْهِ 76
- 31 - اهْتَدَى الرَّاجِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَارِ التَّوَجُّهِ، وَالْوَاصِلُونَ لَهُمْ أَنْوَارُ الْمُورَاجَهَةِ فَالْأَوْلُونَ لِلْأَنْوَارِ، وَهَؤُلَاءِ الْأَنْوَارُ لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ إِلَيْهِ لَا لِشَيْءٍ دُونَهُ، ﴿قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ لِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٤١﴾﴾ 77

[الباب الثالث]

- 32 - تَشَوُّفُكَ إِلَى مَا بَطَّنَ فِيكَ مِنَ الْغُيُوبِ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ تَشَوُّفِكَ إِلَى مَا حُجِبَ عَنْكَ مِنَ الْغُيُوبِ 79
- 33 - الْحَقُّ لَيْسَ بِمُحْجُوبٍ عَنْكَ وَإِنَّمَا الْمَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ، إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ لَسْتَرَهُ مَا حَجَبَهُ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَائِرٌ، لَكَانَ لَوْجُودِهِ حَاصِرٌ، وَكُلُّ حَاصِرٍ لَشَيْءٍ فَهُوَ لَهُ قَاهِرٌ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ 80
- 34 - اخْرُجْ مِنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ، عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِغُيُوبِيَّتِكَ، لِتَكُونَ لِنِدَاءِ الْحَقِّ مُجِيباً،

- 81 وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيباً
- 82 35 - أَضِلُّ كُلَّ مَعْصِيَةٍ وَعَفَلَةٍ وَشَهْوَةِ الرُّضَا عَنِ النَّفْسِ
- 83 36 - شِعَاعُ البَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ بِنِكَ، وَعَيْنُ البَصِيرَةِ تُشْهِدُكَ عَدَمَكَ لِوُجُودِهِ، وَحَقُّ البَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ وَجُودَهُ لَا عَدَمَكَ وَلَا وَجُودَكَ كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ ..

[الباب الرابع]

- 86 37 - لَا تَتَعَدَّ نِيَّةً هِمَّتِكَ إِلَى غَيْرِهِ، فَالكَرِيمُ لَا تَتَخَطَّأُ الْأَمَالَ
- 86 38 - لَا تَرَفَعَنَّ إِلَى غَيْرِهِ حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ
- 87 39 - إِنْ لَمْ تُحْسِنْ ظَنُّكَ بِهِ لِأَجْلِ حُسْنِ رَضِيهِ، فَحَسِّنْ ظَنُّكَ بِهِ لِوُجُودِ مُعَامَلَتِيهِ مَعَكَ، فَهَلْ عَوْدَكَ إِلَّا حَسَنًا وَهَلْ أَسَدَى إِلَيْكَ إِلَّا مِثْنًا
- 88 40 - الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّنْ لَا أَنْفِكَاهُ لَهُ عَنَّهُ، رَيِّظَلْبُ مَا لَا بَقَاءَ لَهُ مَعَهُ ﴿لِيَأْتِيهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ تَعْمَى الْقُلُوبُ أَلَيْسَ لِي الضُّلُوبُ﴾
- 88 41 - لَا تَرَحَّلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ فَتَكُونَ كَحِمَارِ الرُّحَى بِسِيرٍ وَالْمَكَانُ الَّذِي أَرْتَحَّلَ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي أَرْتَحَّلَ مِنْهُ، وَلَكِنْ أَرَحَّلْ مِنَ الْأَثْرَانِ إِلَى الْمَكُونِ ﴿وَأَنَّ إِلَيْكَ الْمُنْتَهَى﴾

[الباب الخامس]

- 91 42 - لَا تَضْحَبْ مَنْ لَا يُنْهَضُكَ حَالُهُ، وَلَا يَدُلُّكَ عَلَى اللَّهِ مَقَالُهُ
- 92 43 - رُبَّمَا كُنْتَ مُسِيئًا فَأَرَاكَ الْإِحْسَانَ بِنِكَ صُحْبَتِكَ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالًا بِنِكَ
- 93 44 - مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ زَاهِدٍ، وَلَا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ رَاغِبٍ
- 94 45 - حُسْنُ الْأَعْمَالِ نَتَائِجُ حُسْنِ الْأَحْوَالِ وَحُسْنُ الْأَحْوَالِ مِنَ التَّحَقُّقِ فِي مَقَامَاتِ الْإِنْزَالِ ...
- 95 46 - لَا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ اللَّهِ فِيهِ، لِأَنَّ عَفَلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ عَفَلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ فَتَعْسَى أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ عَفَلَةٍ، إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقْظَةٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقْظَةٍ، إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ، إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى الْمَذْكُورِ، ﴿وَمَا عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾

[الباب السادس]

- 98 47 - مِنْ عِلَامَاتِ مَوْتِ الْقَلْبِ عَدَمُ الْحُزْنِ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنَ الْمُوَافَقَاتِ، وَتَرْكُ النَّدَمِ عَلَى مَا فَعَلْتَ مِنْ وُجُودِ الرِّلَاتِ
- 98 48 - لَا يَعْظُمُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ عَظَمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ
- 100 49 - لَا صَغِيرَةٌ إِذَا قَابَلَتْكَ عَدْلُهُ، وَلَا كَبِيرَةٌ إِذَا وَاجَهَتْكَ لُضْلُهُ
- 101 50 - لَا عَمَلٌ أَرْجَى لِلتَّبُولِ مِنْ عَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ شُهُودُهُ، وَيُخْتَفِرُ عِنْدَكَ وَجُودُهُ
- 102 51 - إِنَّمَا أُوْرَدَ عَلَيْكَ الْوَارِدُ لِتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ وَارِدًا
- 102 52 - أُوْرَدَ عَلَيْكَ الْوَارِدُ لِتُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وُجُودِكَ، إِلَى قِضَاءِ شُهُودِكَ

- 53 - الأنوار، مطايا القلوب والأسرار 103
- 54 - النور جند القلب، كما أن الظلمة جند النفس، فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار، وقطع عنه مدد الظلم والأغيار 104
- 55 - النور له الكشف، والبصيرة لها الحكم، والقلب له الإقبال والإقبال 105
- 56 - لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك، وافرّح بها لأنها برزت من الله إليك، ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ، فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ 106
- 57 - قطع السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها، وأما الواصلون فلأنه غيبتهم بشهوده عنها 107

[الباب السابع]

- 58 - ما بسقت أخصانك إلا على بذر طمع 109
- 59 - ما فادك شيء بثل الوهم 110
- 60 - أنت حر مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت له طامع 111
- 61 - من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان، قيد إتيه بسلاسل الأمتحان 113
- 62 - من لم يشكر النعم فقد تعرض لزلواها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها 115
- 63 - خف من رجوذ إخوانه إليك ودرام إساءتك معه أن يكون ذلك استدرجاً لك، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ 116
- 64 - من جهل المرید أن يسيء الأدب فتوخر العقوبة عنه فيقول: لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد، وأرجب الإبعاد، فقد قطع المدد عنه من حيث لا يشعر، ولو لم يكن إلا منع المرید، وقد يقام مقام البعد وهو لا يدري، ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد 117
- 65 - إذا رأيت عبداً أقامه الله تعالى بوجود الأوراد، وأدامه عليها مع طول الإمداد، فلا تستحقرن ما منحه مولاه لأنك لم تر عليه سيما العارفين، ولا بهجة المحبين، فلو لا واردة ما كان ورد 122
- 66 - قوم أقامهم الحق لخدمته، وقوم اختصهم بمحبته، ﴿كَلَّا نُمَدِّدْ هَتُولَاهُ وَهَتُولَاهُ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ 123

[الباب الثامن]

- 67 - قلما تكون الواردات الإلهية إلا بغتة صيانة لها أن يدعيها العباد، بوجود الاستعداد 125
- 68 - من رأته مجيباً عن كل ما سئل، ومعبراً عن كل ما شهد، وذاكراً كل ما علم، فاستدل بذلك على وجود جهله 126
- 69 - إنما جعل الدار الآخرة محلاً لجزاء عباد المؤمنين، لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم، ولأنه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها 128
- 70 - من وجد ثمرة عمله عاجلاً، فهو دليل على وجود القبول آجلاً 129

71 - إذا أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر فيماذا يقيمك 130

[الباب التاسع]

72 - خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك 133

73 - الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها من علامات الإحترار 133

74 - ما العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له، لفنايه

في وجوده، وأنطوائيه في شهوده 134

75 - الرجاء ما قارنه حمل وإلا فهو أمنية 137

76 - مطلب العارفين من الله تعالى الصدق في العبودية، والقيام بحقوق الربوبية 138

77 - بسطك كفي لا يفتيك مع القبض، وقبضك كفي لا يتركك مع البسط، وأخرجك عنهما حتى لا

تكون لشيء دونه 139

78 - العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا 141

79 - البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح، والقبض لا حظ للنفس فيه 142

80 - ربما أعطاك فمتعك، وربما منعتك فأعطاك 143

81 - متى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء 144

82 - الأكوان ظاهرها هرة، وباطنها حبرة 145

83 - إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى، فلا تستمزن بعز يفنى 147

84 - الظن الحقيقي أن نظري مسافة الدنيا عنك، حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك 149

85 - العطاء من الخلق جزمان، والمنع من الله إحسان 151

[الباب العاشر]

86 - جل ربنا أن يعامله العبد نقداً فيجازية سيئة 154

87 - كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضىك لها أغلاً 154

88 - كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته 155

89 - من عبده لشيء يرجوه منه، أو يندفع بطاعته ورود العقوبة عنه، فما قام بحق أوصافه ... 156

90 - متى أعطاك أشهدك بره، ومتى منعتك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك، ومقبل

بوجود لظفرك عليك 157

91 - إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه 158

92 - ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول 159

93 - معصية أورتك ذلاً وأفتقاراً، خير من طاعة أورتك عزاً واستكباراً 160

94 - نعمتان ما خرج موجود عنهما، ولا بد لكل مكون منهما: نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد 162

- 95 - أَنْعَمَ عَلَيْكَ أَوْلَىٰ بِالْإِيجَادِ، وَثَانِيًا بِتَوَالِي الْإِمْدَادِ 164
- 96 - فَاقْتَكْ لَكَ ذَاتِيَّةً، وَوَرُودَ الْأَسْبَابِ مُذَكَّرَاتٍ لَكَ بِمَا خَفِيَ عَلَيْكَ مِنْهَا وَالْفَائِقَةُ الذَّائِيَّةُ لَا تُدْفَعُهَا
الْعَوَارِضُ 164
- 97 - خَيْرُ أَرْقَاتِكَ وَقْتُ تَشْهَدُ فِيهِ رُجُودَ فَاقَتِكَ، وَتُرَدُّ فِيهِ إِلَىٰ وُجُودِ ذَلَّتِكَ 165
- 98 - مَتَىٰ أَوْحَشْتُكَ مِنْ خَلْقِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الْأَنْسِ بِهِ 166
- 99 - مَتَىٰ أَطْلَقَ لِسَانَكَ بِالطَّلَبِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيكَ 167
- 100 - الْعَارِفُ لَا يَزُولُ أَضْطِرَارُهُ، وَلَا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ اللَّهِ قَرَارُهُ 168
- 101 - أَنَارَ الظُّوَاهِرَ بِأَنْوَارِ آثَارِهِ، وَأَنَارَ السَّرَائِرَ بِأَنْوَارِ أَوْصَافِهِ 169

[الباب الحادي عشر]

- 102 - لِيُخَفِّفَ عَنْكَ أَلَمَ الْبَلَاءِ عِلْمُكَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُبْلِي لَكَ، فَالَّذِي رَاجَهْتَكَ مِنْهُ الْأَقْدَارُ، هُوَ
الَّذِي عَزَدَكَ حُسْنَ الْإِخْتِيَارِ 171
- 103 - مَنْ عَلَّمَ أَنْفِكَ لُطْفَهُ عَنِ قَدْرِهِ، فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ 172
- 104 - لَا يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَنْتَبِسَ الطَّرِيقُ عَلَيْكَ، وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلَبَةِ الْهَوَىٰ عَلَيْكَ 172
- 105 - سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الْخُصُوصِيَّةِ بِظُهُورِ الْبَشَرِيَّةِ، وَظَهَرَ بِعَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ فِي إِظْهَارِ الْعِبْرِيَّةِ
..... 173
- 106 - لَا تُطَالِبِ رَبَّكَ بِتَأَخُّرِ مَطْلَبِكَ، وَلَكِنْ طَالِبِ نَفْسِكَ بِتَأَخُّرِ أَدَبِكَ 176
- 107 - مَتَىٰ جَعَلْتَكَ فِي الظَّاهِرِ مُمْتَثِلًا لِأَمْرِهِ، وَرَزَقَكَ فِي الْبَاطِنِ الْأَسْتِسْلَامَ لِقَهْرِهِ، فَقَدْ أَغْظَمَ الْإِمْنَةَ
عَلَيْكَ 176
- 108 - لَيْسَ كُلُّ مَنْ ثَبَّتَ تَخْصِيصَهُ، كَمَلَّ تَخْلِيصَهُ 176

[الباب الثاني عشر]

- 109 - لَا يَسْتَحْقِرُ الْوَرْدَ إِلَّا جَهْلُ الْوَارِدِ بِوَجْدِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَالْوَرْدُ يَنْظُرُ بِأَنْظُورِهِ هَذِهِ
الدَّارَ، وَأَوْلَىٰ مَا يُعْتَنَىٰ بِهِ مَا لَا يُخْلَفُ وَجُودُهُ الْوَرْدُ هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ، وَالْوَارِدُ أَنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْهُ، وَأَيْنَ
مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ مِمَّا هُوَ مَطْلَبُكَ مِنْهُ 178
- 110 - وَرُودَ الْإِمْدَادِ، بِحَسَبِ الْإِسْتِعْدَادِ 181
- 111 - الْغَافِلُ إِذَا أَصْبَحَ يَنْظُرُ مَاذَا يَفْعَلُ، وَالْعَاقِلُ يَنْظُرُ مَاذَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِ 182
- 112 - إِنَّمَا اسْتَوْحَشَ الْعِبَادُ وَالرُّهَادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لِغَيْبِهِمْ عَنِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَلَوْ شَهِدُوهُ فِي كُلِّ
شَيْءٍ لَمْ يَسْتَوْجِحُوا مِنْ شَيْءٍ 183
- 113 - أَمَرَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ بِالنَّظَرِ فِي مَكُونَاتِهِ وَسَيَكشِفُ لَكَ فِي تِلْكَ الدَّارِ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ 184
- 114 - لَمَّا عَلِمَ مِنْكَ أَنَّكَ لَا تَضِرُّ عَنْهُ، فَأَشْهَدَكَ مَا بَرَزَ مِنْهُ 186
- 115 - لَمَّا عَلِمَ الْحَقُّ مِنْكَ وُجُودَ الْمَلَلِ لَوْنًا لَكَ الطَّاعَاتِ 186

- 116 - الصَّلَاةُ طَهْرَةٌ لِلْقُلُوبِ 189
- 117 - الصَّلَاةُ مَحَلُّ الْمُنَاجَاةِ 190
- 118 - مَنْ طَلَبَتْ عِوَضًا عَنْ عَمَلٍ طَوَّلَتْ بِوُجُودِ الصَّدَقِ فِيهِ، وَيَكْفِي الْمُرِيبَ وَجْدَانُ السَّلَامَةِ 192
- 119 - لَا تَقْلُبْ عِوَضًا عَلَى عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ قَاعِلًا، يَكْفِي مِنَ الْجَزَاءِ لَكَ عَلَى الْعَمَلِ أَنْ كَانَ لَهُ قَابِلًا 193
- 120 - إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ نَفْسَهُ عَلَيْكَ، خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ 194
- 121 - لَا نِيَاهَةَ لِمَدَامِكَ إِنْ أَرْجَعَكَ إِلَيْكَ، وَلَا تَفْرُعُ مَدَائِحِكَ إِنْ أَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ 195

[الباب الثالث عشر]

- 122 - كُنْ بِأَوْصَافِ رُبُوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقًا، وَبِأَوْصَافِ حُبُودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقًا 201
- 123 - مَنْعَكَ أَنْ تَدْعِي مَا لَيْسَ لَكَ بِمَا لِلْمَخْلُوقِينَ، أَفِيْبِيحُ لَكَ أَنْ تَدْعِي رَضْفَهُ وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ 202
- 124 - كَيْفَ تُحْرِقُ لَكَ الْعَوَائِدُ، وَأَنْتَ لَمْ تُحْرِقْ مِنْ نَفْسِكَ الْعَوَائِدَ 205
- 125 - لَيْسَ الشَّانُ وَجُودُ الطَّلِبِ، إِنَّمَا الشَّانُ أَنْ تُرْزَقَ حُسْنَ الْأَدَبِ 206
- 126 - مَا طَلَبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الْأَضْطِرَارِ، وَلَا أَسْرَعَ بِالْمَوَاهِبِ إِلَيْكَ مِثْلُ الذُّبَّةِ وَالْإِفْتِقَارِ 207
- 127 - لَوْ أَنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ فَنَاءٍ مَسَاوِيكَ، وَمَخِرَ دَعَاوِيكَ، لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَصِّلَكَ إِلَيْهِ سَتَرَ وَضَفَكَ بِوَضْفِهِ، وَعَظَى نَعْتَكَ بِنَعْتِهِ، فَوَصَّلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ، لَا بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ 207

[الباب الرابع عشر]

- 128 - لَوْ لَا جَمِيلُ سَتْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ أَهْلًا لِلْقَبُولِ 210
- 129 - أَنْتَ إِلَى جِلْمِهِ إِذَا أَطْلَعْتَهُ، أَخْرُجُ مِنْكَ إِلَى جِلْمِهِ إِذَا عَصَيْتَهُ 210
- 130 - السُّتْرُ عَلَى قِسْمَيْنِ: سَتْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَسَتْرٌ فِيهَا فَالْعَامَّةُ يَطْلُبُونَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى السُّتْرَ فِيهَا خَشِيَّةً سُقُوطِ مَرْتَبَتِهِمْ عِنْدَ الْخَلْقِ، وَالْخَاصَّةُ يَطْلُبُونَ مِنَ اللَّهِ السُّتْرَ عَنْهَا خَشِيَّةً سُقُوطِهِمْ مِنْ نَظَرِ الْمَلِكِ الْحَقِّ 211
- 131 - مَنْ أَكْرَمَكَ فَإِنَّمَا أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سَتْرِهِ، فَالْحَمْدُ لِمَنْ سَتَرَكَ، لَيْسَ الْحَمْدُ لِمَنْ أَكْرَمَكَ وَشَكَرَكَ 212
- 132 - مَا ضَجِبَكَ إِلَّا مَنْ ضَجِبَكَ وَهُوَ بِعَيْبِكَ عَلِيمٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا مَوْلَاكَ الْكَرِيمُ 213
- 133 - لَوْ أَشْرَقَ لَكَ نَوْرُ الْيَقِينِ لَرَأَيْتَ الْآخِرَةَ الْغَرَبَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَرْحَلَ إِلَيْهَا، وَلَرَأَيْتَ مَحَاسِنَ الدُّنْيَا قَدْ ظَهَرَتْ بِسَفَاةِ الْفَنَاءِ عَلَيْهَا 215
- 134 - مَا حَجَبَكَ عَنِ اللَّهِ وَجُودٌ مَوْجُودٌ مَعَهُ إِذْ لَا شَيْءَ مَعَهُ، وَلَكِنْ حَجَبَكَ عَنْهُ تَوَهُمٌ مَوْجُودٌ مَعَهُ 217

- 135 - لَوْلَا ظُهُورُهُ فِي الْمَكُونَاتِ مَا وَقَعَ عَلَيْهَا وُجُودُ إِنْصَارٍ
وَلَوْ ظَهَرَتْ صِفَاتُهُ، أَضْمَحَلْتُ مَكُونَاتُهُ 218
- 136 - أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ بِأَنَّهُ الْبَاطِنُ وَطَوَى وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ بِأَنَّهُ الظَّاهِرُ 221
- 137 - أَبَاحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِي الْمَكُونَاتِ وَمَا أُذِنَ لَكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ دَوَاتِ الْمَكُونَاتِ ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا
فِي السَّمَوَاتِ﴾ فَتَحَ لَكَ بَابَ الْأَفْهَامِ، وَلَمْ يَقُلْ أَنْظُرُوا السَّمَوَاتِ لِثَلَا يَدُلُّكَ عَلَى وُجُودِ
الْأَجْرَامِ 222
- 138 - الْأَكْوَانُ ثَابِتَةٌ بِإِبَاتِيهِ، وَمَمْحُورَةٌ بِأَحْدِيَّةِ ذَاتِهِ 223

[الباب الخامس عشر]

- 139 - النَّاسُ يَمْدَحُونَكَ لِمَا يَنْظُرُونَ فِيكَ، فَكُنْ أَنْتَ ذَاماً لِنَفْسِكَ لِمَا تَعَلَّمُهُ مِنْهَا 225
- 140 - الْمُؤْمِنُ إِذَا مَدَحَ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ أَنْ يُشْرَى عَلَيْهِ بِرَضْفٍ لَا يَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ 225
- 141 - أَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ تَرَكَ يَقِينَ مَا عِنْدَهُ لِيُظَنَّ مَا عِنْدَ النَّاسِ 226
- 142 - إِذَا أَطْلَقَ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَلَسْتَ بِأَهْلِ قَائِنٍ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ 226
- 143 - الرَّهَّادُ إِذَا مَدَحُوا انْقَبَضُوا لِشُهُودِهِمُ الثَّنَاءِ مِنَ الْخَلْقِ، وَالْعَارِفُونَ إِذَا مَدَحُوا انْبَسَطُوا
لِشُهُودِهِمْ ذَلِكَ مِنَ الْمَلِكِ الْحَقِّ 227
- 144 - مَهْمَا كُنْتَ إِذَا أُعْطِيتَ بَسَطْتَكَ الْعَطَاءُ، وَإِذَا مُنِعْتَ قَبَضَكَ الْمَنْعُ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى ثُبُوتِ
طُغُولِيَّتِكَ، وَعَدَمِ صِدْقِكَ فِي هُبُودِيَّتِكَ 228

[الباب السادس عشر]

- 145 - إِذَا وَقَعَ مِنْكَ قَنْبٌ فَلَا يَكُنْ سَبِيًّا لِتَأْسِكِ مِنْ حُصُولِ الْأَسْتِقَامَةِ مَعَ رَبِّكَ، فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ آخِرَ
ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ 230
- 146 - إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَنْتَحَ لَكَ بَابُ الرَّجَاءِ فَاشْهَدْ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابُ الْخَوْفِ
فَاشْهَدْ مَا مِنْكَ إِلَيْهِ 230
- 147 - رُبَّمَا أَفَادَكَ فِي لَيْلِ الْقَبْضِ مَا لَمْ تَسْتَفِذْهُ فِي إِشْرَاقِ نَهَارِ التَّبْسِيطِ ﴿تَذَرُونَ أَبْنَهُمْ أَقْرَبَ لَكَ
تَنْعًا﴾ 231
- 148 - مَطَالِغُ الْأَنْوَارِ، الْقُلُوبُ وَالْأَسْرَارُ 232
- 149 - نَوْرٌ مُسْتَوْدَعٌ فِي الْقُلُوبِ، مَدْدُهُ مِنَ النُّورِ الْوَارِدِ مِنْ خَزَائِنِ الْغُيُوبِ 233
- 150 - نَوْرٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنِّ أَنْوَارِهِ، وَنَوْرٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنِّ أَوْصَافِهِ 233
- 151 - رُبَّمَا وَقَفَتْ الْقُلُوبُ مَعَ الْأَنْوَارِ، كَمَا حُجِبَتِ النَّفُوسُ بِكَثَائِفِ الْأَغْيَارِ 234
- 152 - سَتَرَ أَنْوَارَ السَّرَائِرِ، بِكَثَائِفِ الطَّوَاهِرِ، إِجْلَالاً لَهَا أَنْ تُبْتَدَلَ بِوُجُودِ الْإِظْهَارِ، وَأَنْ يُنَادَى
عَلَيْهَا بِلِسَانِ الْإِسْتِهَارِ 235

[الباب السابع عشر]

- 153 - سُبحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الدَّلِيلَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُوصِلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ
 237 أراد أن يُوصِلَهُ إِلَيْهِ
- 154 - رُبَّمَا أَطْلَعَكَ عَلَى غَيْبِ مَلَكُوتِهِ، وَحَجَبَ عَنْكَ الْإِسْتِشْرَافَ عَلَى أَسْرَارِ الْعِبَادِ
- 238
- 155 - مَنْ أَطَّلَعَ عَلَى أَسْرَارِ الْعِبَادِ وَلَمْ يَتَخَلَّقْ بِالرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ كَانَ أَطْلَاعُهُ فِتْنَةً عَلَيْهِ، وَسَبَبًا لِحَرْبِ
 239 التَّوَالِي إِلَيْهِ
- 156 - حَفِظَ النَّفْسَ فِي الْمَعْصِيَةِ ظَاهِرًا بَجَلِيًّا، وَحَفِظَهَا فِي الطَّاعَةِ بَاطِنًا خَفِيًّا، وَمُدَاوَاهُ مَا يَخْفَى
 240 صَنْبٌ عِلَاجُهُ
- 157 - رُبَّمَا دَخَلَ الرِّيَاءَ عَلَيْكَ، مِنْ حَيْثُ لَا يَنْظُرُ الْخَلْقُ إِلَيْكَ
- 241
- 158 - اسْتِشْرَافُكَ أَنْ يَعْلَمَ الْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ، دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ صِدْقِكَ فِي عِبَادَتِكَ
- 242
- 159 - غَيْبٌ نَظَرَ الْخَلْقِ إِلَيْكَ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَغَيْبٌ عَنِ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ عَلَيْكَ
- 243
- 160 - مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ قَنِيَ بِهِ هَابَ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُؤَيِّرْ عَلَيْهِ
 244 شَيْئًا
- 161 - إِنَّمَا حَجَبَ الْحَقُّ عَنْكَ، شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنْكَ إِنَّمَا أُحْتَجَبَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ، وَخَفِيَ عَنِ الْأَبْصَارِ
 246 لِعِظَمِ نُورِهِ

[الباب الثامن عشر]

- 162 - لَا يَكُنْ طَلْبُكَ تَسْبِيًّا إِلَى الْعَطَاءِ مِنْهُ، فَيَقِلَّ فَهْمُكَ عَنْهُ وَلَيَكُنْ طَلْبُكَ لِإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ، وَقِيَامًا
 248 بِحُنُوقِ الرُّبُوبِيَّةِ
- 163 - كَيْفَ يَكُونُ طَلْبُكَ الْأَحِقُّ، سَبَبًا فِي عَطَائِهِ السَّابِقِ جَلُّ حُكْمِ الْأَزْلِ، أَنْ يُنْصَافَ إِلَى الْعِلَلِ
 248
- 164 - عِنَايَتُهُ فِيكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ، وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَاجِهْتِكَ عِنَايَتَهُ، وَقَابَلْتَكَ رِعَايَتَهُ لَمْ يَكُنْ فِي أَرْزِ
 249 إِخْلَاصِ أَعْمَالٍ، وَلَا رُجُودِ أَحْوَالٍ بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا مَحْضُ الْإِلْفِصَالِ، وَعَظِيمُ التَّوَالِي ...
- 165 - عَلِمَ أَنَّ الْعِبَادَةَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَى ظُهُورِ بِيْرِ الْعِنَايَةِ فَقَالَ: ﴿يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾،
 وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلَّاهُمْ وَذَلِكَ لَتَرَكُوا الْعَمَلَ اعْتِمَادًا عَلَى الْأَزْلِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ
 251 قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾
- 166 - إِلَى الْمَشِيئَةِ يَسْتَنِدُ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَا تَسْتَنِدُ هِيَ إِلَى شَيْءٍ
- 252

[الباب التاسع عشر]

- 167 - رُبَّمَا دَلَّاهُمْ الْأَدَبُ، عَلَى تَرْكِ الطَّلَبِ
- 254
- 168 - إِنَّمَا يُذَكَّرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِحْقَاقُ
- 255
- 169 - وَرُودُ الْفَاقَاتِ أَحْيَادٌ لِمُرِيدِينَ
- 255

- 170 - رُبَّمَا وَجَدْتَ مِنَ الْمَزِيدِ فِي الْفَاقَاتِ، مَا لَا تَجِدُهُ فِي الصُّومِ وَالصَّلَاةِ الْفَاقَاتُ بَسُطُ
الْمَوَاهِبِ إِنْ أَرَدْتَ رُودَ الْمَوَاهِبِ عَلَيْكَ، صَحِّحِ الْفَقْرَ وَالْفَاقَةَ لَدَيْكَ ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ
لِلْفُقَرَاءِ﴾ 256
- 171 - تَحَقَّقْ بِأَوْصَافِكَ يُمِدُّكَ بِأَوْصَافِهِ تَحَقَّقْ بِذَلِكَ يُمِدُّكَ بِعِزَّتِهِ، تَحَقَّقْ بِعَجْزِكَ يُمِدُّكَ بِقُدْرَتِهِ،
تَحَقَّقْ بِضَعْفِكَ يُمِدُّكَ بِحِزْلِهِ وَقُوَّتِهِ 257

[الباب الموفي عشرين]

- 172 - رُبَّمَا رُزِقَ الْكِرَامَةَ، مِنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ الْإِسْتِقَامَةَ 260
- 173 - مِنْ عَلَامَاتِ إِقَامَةِ الْحَقِّ لَكَ فِي الشَّيْءِ إِدَامَتُهُ إِيَّاكَ فِيهِ مَعَ حُصُولِ النَّتَائِجِ 261
- 174 - مَنْ عَبَّرَ مِنْ بِسَاطِ إِحْسَانِهِ أَضْمَتَتْهُ الْإِسَاءَةُ، وَمَنْ عَبَّرَ مِنْ بِسَاطِ إِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْهِ لَمْ يَضُمَّتْ إِذَا
إِسَاءَةٌ 262
- 175 - تَسْبِقُ أَنْوَارُ الْحُكَمَاءِ أَقْوَالَهُمْ فَحَيْثُ صَارَ التَّنْوِيرُ، وَصَلَ التَّغْيِيرُ 263
- 176 - كُلُّ كَلَامٍ يَبْرُزُ وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ الْقَلْبِ الَّذِي مِنْهُ بَرَزَ 264
- 177 - مَنْ أُذِنَ لَهُ فِي التَّغْيِيرِ فَهَمَّتْ فِي مَسَامِعِ الْخَلْقِ عِبَارَتُهُ، وَجَلَّتْ إِلَيْهِمْ إِشَارَتُهُ 264
- 178 - عِبَارَاتُهُمْ إِمَّا لِقَيْضَانٍ وَجِدٍ، أَوْ لِقَيْضِ هِدَايَةِ مُرِيدٍ 266
- 179 - الْعِبَارَاتُ قُوَّةٌ لِعَائِلَةِ الْمُسْتَعِينِ، وَلَيْسَ لَكَ إِلَّا مَا أَنْتَ لَهُ آكِلٌ 267
- 180 - رُبَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْمَقَامِ مِنْ أَسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ، وَرُبَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ مُلْتَبِسٌ إِلَّا عَلَى
صَاحِبِ بَصِيرَةٍ 268
- 181 - لَا يَنْبَغِي لِلسَّالِكِ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْ وَاِرِدَاتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُقْلِعُ عَمَلَهَا فِي قَلْبِهِ، وَيَمْنَعُهُ وُجُودَ الصَّدِيقِ
نَعِ رَبِّهِ 269
- 182 - لَا تَمُدَّنْ يَدَكَ إِلَى الْأَخْلِ مِنْ الْخَلَائِقِ إِلَّا أَنْ تَرَى أَنَّ الْمُعْطِيَّ فِيهِمْ مَوْلَاكَ، فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ
تُخَذُ مَا وَافَقَ الْعِلْمَ 269
- 183 - رُبَّمَا اسْتَحْيَا الْعَارِثُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إِلَى مَوْلَاهُ لِإِكْتِفَائِهِ بِمَشِيئَتِهِ، فَكَيْفَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ
يَرْفَعَهَا إِلَى خَلِيقَتِهِ 273

[الباب الحادي والعشرون]

- 184 - إِذَا أَلْتَبَسَ عَلَيْكَ أَمْرًا فَانظُرْ أَثْقَلَهُمَا عَلَى النَّسْرِ فَاتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ لَا يَثْقُلُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا كَانَ حَقًّا
..... 274
- 185 - مِنْ عَلَامَاتِ آتِبَاعِ الْهَوَى الْمُسَارَعَةُ إِلَى تَوَافِي الْخَيْرَاتِ، وَالتَّكَاسُلُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْوَاجِبَاتِ
..... 275
- 186 - قَيْدُ الطَّاعَاتِ بِأَعْيَانِ الْأَوْقَاتِ كَمَنْ لَا يَمْنَعُكَ عَنْهَا وُجُودُ التَّسْوِيفِ، وَوَسَّعَ عَلَيْكَ التَّوَقُّتَ كَمَنْ
بَقِيَ لَكَ حِصَّةٌ مِنَ الْاِخْتِيَارِ 275

- 187 - عَلِمَ قَلَّةُ نُهُوضِ الْعِبَادِ إِلَى مُعَامَلَتِهِ، فَأَوْجِبَ عَلَيْهِمْ وُجُودَ طَاعَتِهِ، فَسَاقَهُمْ إِلَيْهَا بِسَلْسِلِ الْإِجْبَابِ عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلْسِلِ أَوْجِبَ عَلَيْكَ وُجُودَ خِدْمَتِهِ، وَمَا أَوْجِبَ عَلَيْكَ إِلَّا دُخْرَ جَنَّتِهِ 276
- 188 - مَنْ اسْتَعْرَبَ أَنْ يُنْقِذَهُ اللَّهُ مِنْ شَهْوَتِهِ، وَأَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وُجُودِ غَفْلَتِهِ، فَقَدْ اسْتَعْجَزَ الْقُدْرَةَ الْإِلَهِيَّةَ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ 277
- 189 - رُبَّمَا وَرَدَتِ الظُّلْمُ عَلَيْكَ، لِيَعْرِفَكَ قَدْرَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ 278
- 190 - مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ النِّعَمِ بِوُجُودِهَا، هَرَفَهَا بِوُجُودِ فَقْدَانِهَا 280
- 191 - لَا تُذْهِسْكَ وَإِرْدَاثُ النِّعَمِ عَنِ الْقِيَامِ بِحَقُوقِ شُكْرِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ بِمَا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ 280
- 192 - تَمَكَّنْ خِلَافَةَ الْهَوَى مِنْ الْقَلْبِ هُوَ الذَّاءُ الْعُضْضَالُ 281
- 193 - لَا يُخْرِجُ الشَّهْوَةَ مِنَ الْقَلْبِ إِلَّا خَوْفٌ مُزْجِجٌ، أَوْ شَوْقٌ مُقْلِقٌ 282
- 194 - كَمَا لَا يُجِبُّ الْعَمَلُ الْمُشْتَرِكُ، كَذَلِكَ لَا يُجِبُّ الْقَلْبُ الْمُشْتَرِكُ، الْعَمَلُ الْمُشْتَرِكُ لَا يَقْبَلُهُ، وَالْقَلْبُ الْمُشْتَرِكُ لَا يَقْبَلُ عَلَيْهِ 283

[الباب الثاني والعشرون]

- 195 - أَنْوَارٌ أَذِنَ لَهَا فِي الْوُصُولِ، وَأَنْوَارٌ أَذِنَ لَهَا فِي الدُّخُولِ 286
- 196 - رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ الْأَنْوَارُ، فَوَجَدْتَ الْقَلْبَ مَحْشُورًا بِصُورِ الْأَنْوَارِ، فَأَزْتَحَلَّتْ مِنْ حَيْثُ نَزَلَتْ 287
- 197 - فَرَّغْ قَلْبَكَ مِنَ الْأَغْيَارِ، يَمْلَأُ بِالْمَعَارِفِ وَالْأَسْرَارِ 287
- 198 - لَا تَسْتَبِطِ مِنْهُ [تعالى] التَّوَالِ، وَلَكِنْ اسْتَبِطِ مِنْ نَفْسِكَ وُجُودَ الْإِقْبَالِ 288
- 199 - حُقُوقٌ فِي الْأَوْثَانِ يُمَكِّنُ قَضَائِهَا، وَحُقُوقٌ فِي الْأَوْقَاتِ لَا يُمَكِّنُ قَضَائِهَا 289
- 200 - مَا فَاتَكَ مِنْ عَمْرِكَ لَا هُوَضَ لَهُ، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لَا قِيمَةَ لَهُ 291
- 201 - مَا أَحْبَبْتَ شَيْئًا إِلَّا كُنْتَ لَهُ عَبْدًا، وَهُوَ لَا يُحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِعَبْدِهِ عَبْدًا 292
- 202 - لَا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ، وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ، وَإِنَّمَا أَمْرُكَ بِهِدْيِهِ، وَنَهَاكَ عَنْ هُدْيِهِ، لِمَا يَعُودُ عَلَيْكَ 293
- لا يزيد في عزه إقبال من أقبل عليه ولا ينقص من قدره إدبار من أدبر عنه

[الباب الثالث والعشرون]

- 203 - وَصُولُكَ إِلَيْهِ [تعالى] وَصُولُكَ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ، وَإِلَّا فَجَلَّ رُبَّنَا أَنْ يَحْصِلَ بِهِ شَيْءٌ أَوْ يَحْصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ 296
- 204 - قُرْبُكَ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ مُشَاهِدًا لِقُرْبِهِ، وَإِلَّا فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ وَوُجُودُ قُرْبِهِ 297
- 205 - الْحَقَائِقُ تَرُدُّ فِي التَّجَلِّي مُجَمَّلَةً، وَبَعْدَ الْوَعْيِ يَكُونُ الْبَيَانُ ﴿فَلَمَّا قَرَأَهُ نَالِقًا كَرِهَهُ لِمُؤْمِنِيكَ لِيُنزِلَ سُلْطَانًا عَلَيْهِمْ مِنْ سَمَوَاتِهِمْ تَلْوِيحًا﴾ 298

- 206 - متى وَرَدَتْ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَيْكَ، هَدَمْتَ الْعَوَائِدَ عَلَيْكَ ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً
أَفْسَدُوهَا﴾ 300
- 207 - الْوَارِدُ يَأْتِي مِنْ حَضْرَةِ قَهَارٍ، لِأَجْلِ ذَلِكَ لَا يُصَادِمُهُ شَيْءٌ إِلَّا دَمَعَهُ ﴿بَلْ نَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى
الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ 301
- 208 - كَيْفَ يَخْتَجِبُ الْحَقُّ بِشَيْءٍ وَالَّذِي يَخْتَجِبُ بِهِ هُوَ فِيهِ ظَاهِرٌ، وَمَوْجُودٌ حَاضِرٌ 302
- 209 - لَا تَيَأَسُ مِنْ قَوْلِ عَمَلٍ لَمْ تَجِدْ فِيهِ وَجُودَ الْحُضُورِ، قَرُبًا قَبْلَ مِنَ الْعَمَلِ مَا لَمْ تُدْرِكْ ثَمَرَتَهُ
عَاجِلًا 302
- 210 - لَا تُزَكِّينَ وَارِدًا لَا تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ السَّحَابَةِ الْإِنْمَارُ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْهَا وَجُودُ
الْإِنْمَارِ 304
- 211 - لَا تَطْلُبْنَ بَقَاءَ الْوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بَسَطْتَ أَنْوَارَهَا، وَأَزْدَعْتَ أَسْرَارَهَا، فَلَكَ فِي اللَّهِ غِنَى عَنْ
كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ 304
- 212 - تَطْلُعُكَ إِلَى بَقَاءِ غَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وَجْدَانِكَ لَهُ 305
- 213 - وَأَسْتَبَحَاشُكَ لِفِقْدَانِ مَا سِوَاهُ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وَضْعِكَ بِهِ 306

[الباب الرابع والعشرون]

- 214 - النِّعِيمُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ فَإِنَّمَا هُوَ بِشَهْوِيٍّ وَأَقْتِرَابِيٍّ، وَالْعَذَابُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ
بِوُجُودِ حِجَابِهِ، فَسَبَبُ الْعَذَابِ، وَجُودُ الْحِجَابِ، وَإِثْمَامُ النِّعِيمِ، بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ .. 307
- 215 - مَا تَجِدُهُ الْقُلُوبُ مِنَ الْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ، فَلِأَجْلِ مَا مَنَعَتْ مِنْ وَجُودِ الْإِعْيَانِ 308
- 216 - مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ أَنْ يَرُزِّقَكَ مَا يَكْفِيكَ، وَيَمْنَعَكَ مَا يُطْفِئُكَ 309
- 217 - لِيَقِلَّ مَا تَفْرَحُ بِهِ، يَقِلَّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ 310
- 218 - إِنْ أَرَدْتَ أَنْ لَا تُعْزَلَ فَلَا تَتَوَلَّ وَلَا يَأْتِ لَا تَدُومُ لَكَ 311
- 219 - إِنْ رَغَبْتَكَ الْبِدَايَاتِ، زَهَدْتَكَ النِّهَايَاتِ 312
- 220 - إِنَّمَا جَعَلَهَا مَحَلًّا لِلْأَغْيَارِ، وَمَعْدِنًا لِلْأَكْمَادِ، تَزْهِدًا لَكَ فِيهَا 313
- 221 - عَلِمَ أَنَّكَ لَا تَقْبَلُ النَّصِخَ الْمَجْرَدَ فَذَوَّقَكَ مِنْ ذَوَائِقِهَا، مَا يُسَهِّلُ عَلَيْكَ وَجُودَ فِرَاقِهَا 313
- 222 - الْعِلْمُ النَّافِعُ هُوَ الَّذِي يَنْبَسِطُ فِي الصَّدْرِ شِعَاعَهُ، وَيُكْشِفُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ قِنَاعَهُ 314
- 223 - خَيْرُ الْعِلْمِ مَا كَانَتْ الْخَشْيَةُ مَعَهُ 315
- 224 - مَتَى آتَمَكَ عَدَمُ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْكَ، أَرْتَوْجُهُمْ بِالذَّمِّ إِلَيْكَ، فَارْجِعْ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ فِيكَ فَإِنْ
كَانَ لَا يُقْنِعُكَ عِلْمُهُ، فَمُصِيبَتُكَ بِعَدَمِ قِنَاعَتِكَ بِعِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ الْأَذَى مِنْهُمْ ... 315
- 225 - إِنَّمَا أُجْرَى الْأَذَى عَلَى أَيْدِيهِمْ، كَمَنْ لَا تَكُونُ سَائِمًا إِلَيْهِمْ، أَرَادَ أَنْ يُزْجِكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ،
حَتَّى لَا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ 316
- 226 - إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَغْفُلُ عَنْكَ، فَلَا تَغْفُلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصِيَتِكَ بِيَدِهِ 318

- 227 - جَعَلَهُ لَكَ عَدُوًّا لِيُحْشِكَ بِهِ إِلَيْهِ 319
- [الباب الخامس والعشرون]
- 228 - مَنْ اثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضِعًا فَهُوَ الْمُتَكَبِّرُ حَقًّا ، إِذْ لَيْسَ التَّوَاضِعُ إِلَّا عَنِ رِفْعَةٍ ، فَمَنْ اثْبَتَ لِنَفْسِكَ رِفْعَةً فَأَنْتَ الْمُتَكَبِّرُ حَقًّا 321
- 229 - لَيْسَ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ ، وَلَكِنَّ الْمُتَوَاضِعَ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ دُونَ مَا صَنَعَ 322
- 230 - التَّوَاضِعُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ مَا كَانَ نَاشِئًا عَنِ شُهُودِ عَظَمَتِهِ وَتَجَلِّي صِفَتِهِ 323
- 231 - لَا يُخْرِجُكَ عَنِ التَّوَاضِعِ إِلَّا شُهُودُ التَّوَاضِعِ 323
- 232 - الْمُؤْمِنُ يَشْعَلُهُ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ عَنِ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ شَاكِرًا ، وَتَشْعَلُهُ حُقُوقُ اللَّهِ عَنِ أَنْ يَكُونَ لِحُظُوظِهِ ذَاكِرًا 324
- 233 - لَيْسَ الْمُجِيبُ الَّذِي يَرْجُو مِنْ مَخْبُوبِهِ عِوَضًا ، أَوْ يَطْلُبُ مِنْهُ عَرَضًا 324
- 234 - لَوْلَا مِيَادِينُ النُّفُوسِ مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ 326
- 235 - جَعَلَكَ فِي الْعَالَمِ الْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ لِيُعْلِمَكَ جَلَالَهَ قَدْرِكَ بَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ ، وَأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْكَ أَضْدَافٌ مُكْرَنَاتِهِ 330
- 236 - إِنَّمَا وَسِعَكَ الْكَوْنُ مِنْ حَيْثُ جُثْمَانِيَّتِكَ ، وَلَمْ يَسْغِكَ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتِ رُوحَانِيَّتِكَ 331
- 237 - الْكَائِنُ فِي الْكَوْنِ وَلَمْ تَفْتَحْ لَهُ مِيَادِينَ الْعُيُوبِ مَسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ ، وَمَخْصُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ 332
- 238 - أَنْتَ مَعَ الْأَخْوَانِ مَا لَمْ تَشْهَدْ الْمُكُونِ ، فَإِذَا شَهِدْتَهُ كَانَتْ الْأَخْوَانُ مَعَكَ 333
- 239 - لَا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الْخُصُوصِيَّةِ عَدَمُ وَضْفِ الْبَشَرِيَّةِ 334
- 240 - ذَلِكَ بِوُجُودِ آثَارِهِ عَلَى وُجُودِ أَسْمَائِهِ ، وَبِوُجُودِ أَسْمَائِهِ عَلَى ثُبُوتِ أَرْصَافِهِ ، وَبِثُبُوتِ أَرْصَافِهِ عَلَى وُجُودِ ذَاتِهِ ، إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَقُومَ التَّوَاضِعُ بِنَفْسِهِ 336
- 241 - لَا يُعْلَمُ قَدْرُ أَنْوَارِ الْقُلُوبِ وَالْأَسْرَارِ إِلَّا فِي غَيْبِ الْمَلَكُوتِ ، كَمَا لَا تَظْهَرُ أَنْوَارُ السَّمَاءِ إِلَّا فِي شَهَادَةِ الْمَلِكِ 338
- 242 - وَجِدَانُ ثَمَرَاتِ الطَّاعَاتِ عَاجِلًا ، بِشَائِرِ الْعَامِلِينَ بِوُجُودِ الْجَزَاءِ عَلَيْهَا آجِلًا 340
- 243 - كَيْفَ تَطْلُبُ الْعِوَضَ عَلَى حَمَلٍ هُوَ مُتَّصِدِقٌ بِهِ عَلَيْكَ أَمْ كَيْفَ تَطْلُبُ الْجَزَاءَ عَلَى صِدْقِي هُوَ مُنْهَدِيهِ إِلَيْكَ 340
- 244 - قَوْمٌ تَسْبِقُ أَنْوَارُهُمْ أَذْكَارُهُمْ ، وَقَوْمٌ تَسْبِقُ أَذْكَارُهُمْ أَنْوَارُهُمْ 341
- 245 - ذَاكِرٌ ذَكَرَ لِيَسْتَشِيرَ بِهِ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِرًا ، وَذَاكِرٌ اسْتَنَارَ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِرًا 341
- 246 - مَا كَانَ ظَاهِرٌ ذِكْرٍ ، إِلَّا عَنِ بَاطِنِ شُهُودٍ وَفِكْرٍ 341
- 247 - أَشْهَدُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْتَشْهَدَكَ فَنَطَقْتَ بِالْهَيْبَةِ الظَّاهِرِ ، وَتَحَقَّقْتَ بِأَحَدِيَّتِهِ الْقُلُوبِ وَالسَّرَائِرِ .. 342
- 248 - أَكْرَمَكَ بِكِرَامَاتِ ثَلَاثٍ : جَعَلَكَ ذَاكِرًا لَهُ وَلَوْلَا فَضْلُهُ لَمْ تَكُنْ أَهْلًا لِجَرِيَانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ ،

- 342 وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً بِهِ إِذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْكَ، وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً عِنْدَهُ فَتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ
- 344 249 - رَبِّ عُمْرٍ اتَّسَعَتْ أَمَادُهُ، وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ وَرُبَّ عُمْرٍ قَلِيلَةٌ أَمَادُهُ، كَثِيرَةٌ أَمْدَادُهُ
- 345 250 - مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي عُمْرِهِ أَدْرَكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ الزَّمَنِ مِنْ مَنِ اللّهِ تَعَالَى مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ دَوَائِرِ الْعِبَارَةِ، وَلَا تَلْحَقُهُ الْإِشَارَةُ
- 346 251 - الْخِذْلَانُ كُلُّ الْخِذْلَانِ أَنْ تَتَفَرَّغَ مِنَ الشَّرَائِعِ ثُمَّ لَا تَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ، وَثِقَلْ عَوَائِقُكَ ثُمَّ لَا تُرْحَلْ إِلَيْهِ
- 346 252 - الْفِكْرَةُ سَيْرُ الْقَلْبِ فِي مَبَادِينِ الْأَغْيَارِ
- 347 253 - الْفِكْرَةُ سَرَّاجُ الْقَلْبِ فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ
- 348 254 - الْفِكْرَةُ سِرَّاجُ الْقَلْبِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ

[المراسلات]

[الكتاب الأول]

- 349 رسالة في السلوك إلى حضرة ملك الملوك

[المراسلات]

[الكتاب الثاني]

- 361 رسالة في بيان الوصول إلى بحر الحقيقة

[المراسلات]

[الكتاب الثالث]

- 368 رسالة في قرّة العين التي تكون في الصلاة وهي الفرح بالله تعالى

[المراسلات]

[الكتاب الرابع]

- 374 الرسالة الرابعة في الفرح بالمنن

[المناجاة]

- 380 1 - إِلَهِي أَنَا الْفَقِيرُ فِي غِنَايَ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيرٌ فِي فَقْرِي
- 381 2 - إِلَهِي أَنَا الْجَاهِلُ فِي عِلْمِي، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهولاً فِي جَهْلِي
- 382 3 - إِلَهِي إِنَّ أَخْتِلَافَ تَدْبِيرِكَ، وَسُرْعَةَ حُلُولِ مَقَادِيرِكَ، مَنَعَا عِبَادَكَ الْعَارِفِينَ بِكَ عَنِ السَّكُونِ إِلَى عَطَاءٍ، وَأَلْتِيَاسِ مِنْكَ فِي بَلَاءٍ
- 383 4 - إِلَهِي مِنِّي مَا يَلِيقُ بِلُؤْمِي، وَمِنْكَ مَا يَلِيقُ بِكَرَمِكَ

- 5 - إلهي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ بِي قَبْلَ رُجُودِ ضَعْفِي ، أَقْتَمْنَعْنِي مِنْهَا بَعْدَ رُجُودِ ضَعْفِي
384
- 6 - إلهي إِنْ ظَهَرَتْ أَلْمَحَابِرُ مِنِّي فَبِفَضْلِكَ وَلكَ الْبِئْتَةُ عَلَيَّ ، وَإِنْ ظَهَرَتْ الْمَسَاوِيءُ مِنِّي فَبِعَدْلِكَ
385 وَلكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ
- 7 - إلهي كَيْفَ تَكْتَلِمُ إِلَيَّ نَفْسِي وَقَدْ تَوَكَّلْتُ لِي وَكَيْفَ أَضَامُ وَأَنْتَ النَّاصِرُ لِي أَمْ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ
386 الْحَنِيءُ بِي مَا أَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ
- 7 - وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ
- 7 - أَمْ كَيْفَ أَشْكُو إِلَيْكَ حَالِي وَهُوَ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ
- 7 - أَمْ كَيْفَ تَخِيبُ آمَالِي وَهِيَ قَدْ وَقَدَّتْ إِلَيْكَ
- 7 - أَمْ كَيْفَ لَا تَحْسُنُ أَحْوَالِي رَبِّكَ قَامَتْ وَإِلَيْكَ
- 8 - إلهي مَا أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي ! وَمَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ فِعْلِي
- 9 - وَمَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ فِعْلِي
- 10 - إلهي مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي ! وَمَا أَبْعَدَنِي عَنْكَ ! إلهي مَا أَرْأَفَكَ بِي فَمَا الَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ
- 11 - إلهي قَدْ عَلِمْتُ بِأَخْتِلَافِ الْأَثَارِ ، وَتَنَقُّلَاتِ الْأَطْوَارِ ، أَنْ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ
391 شَيْءٍ ، حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ
- 12 - إلهي كُلَّمَا اخْتَرَسَنِي لِأَمِي انْقَلَبَنِي كَرَمَكَ وَكُلَّمَا آيَسَّنِي أَوْصَافِي أَظْمَعْتَنِي مِنْتَكَ
- 13 - إلهي مَنْ كَانَتْ مَحَابِرُهُ مَسَاوِي فَكَيْفَ لَا تَكُونُ مَسَاوِيَهُ مَسَاوِي وَمَنْ كَانَتْ حَقَائِقُهُ دَعَاوِي
394 فَكَيْفَ لَا تَكُونُ دَعَاوِيَهُ دَعَاوِي
- 14 - إلهي حُكْمُكَ النَّافِذُ ، وَمَشِيئَتُكَ الْقَاهِرَةُ ، لَمْ يَتْرُكَا لِي مَقَالٍ مَقَالًا
- 15 - إلهي كَمْ مِنْ طَاعَةٍ بَنَيْتَهَا ، وَحَالَةٍ شَبَدْتَهَا ، هَدَمَ اعْتِمَادِي عَلَيْهَا عَدْلُكَ ، بَلْ أَقَالَنِي مِنْهَا فَضْلُكَ
396
- 16 - إلهي أَنْتَ تَعْلَمُ وَإِنْ لَمْ تَدْمِ الطَّاعَةُ مِنِّي فِعْلًا جَزْمًا ، فَقَدْ دَامَتْ مَحَبَّةٌ وَعَزْمًا
- 17 - إلهي كَيْفَ أَعْزِمُ وَأَنْتَ الْقَاهِرُ وَكَيْفَ لَا أَعْزِمُ وَأَنْتَ الْأَمِيرُ
- 18 - إلهي تَرُدُّدِي فِي الْأَثَارِ ، يَوْجِبُ بَعْدَ الْمَزَارِ ، فَاجْتَمَعَنِي عَلَيْكَ ، بِخِدْمَةِ تَوْصِلُنِي إِلَيْكَ
- 19 - إلهي كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ ، بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ أَيْتُورُ لِيغْيِرَكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ ،
حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرُ لَكَ مَتَى غَيْبَتْ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ وَمَتَى بَعُدَتْ حَتَّى تَكُونَ
401 الْأَثَارُ هِيَ الَّتِي تَوْصِلُ إِلَيْكَ
- 20 - إلهي هَمِيئَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيًا ، وَخَيْرَتْ صَفْقَةٌ صَبَدٌ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيبًا .
- 21 - إلهي أَمَرْتُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْأَثَارِ ، فَأَرْجِعْنِي بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ الْأَسْتَبْصَارِ ، حَتَّى أَرْجِعَ
إِلَيْكَ مِنْهَا ، كَمَا دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْهَا ، مَصُونٌ السَّرُّ هِنَ النَّظَرِ إِلَيْهَا ، وَمَرْهُوعٌ الْهَيْمَةِ عَنِ الْإِعْتِمَادِ
عَلَيْهَا ، إِنَّكَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
- 404

- 22 - إلهي هذا ذلّي ظاهرٌ بينَ يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلبُ الوصولَ إليك،
405 وَبِكَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ، فَأَهْدِنِي بِبُورِكَ إِلَيْكَ، وَأَقِمْنِي بِصِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ
- 23 - إلهي علّمني من علمك المخزون، وصنني يسيراً أسميك المصون
406
- 24 - إلهي حقّقني بحقائق أهل القرب، وأسلك بي مسالك أهل الجذب
407
- 25 - إلهي اغني بتدبيرك عن تدبيرِي، وبأختيارك لي عن أختيارِي، وأزقني على مراكز اضطرابي
408
- 26 - إلهي أخرجني من ذلّ نفسي وهو ذلّها لغير الله بالطمع والحرص اللذين هما بذرة شجرة الذل
409 وَظَهْرُنِي مِنْ شَكِي وَشِرْكِي قَبْلَ حُلُولِ رَمْسِي
- 27 - إلهي تقدّس رضاك عن أن تكون له علة منك، فكيف تكون له علة مني
411
- 27 - أنت الغني بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك، فكيف لا تكون غنياً عني
411
- 28 - إلهي إن القضاء والقدر غلبي وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرنِي فكن أنت النصير لي حتى
412 تَنْصُرَنِي وَتَنْصُرَ بِي
- 28 - واغني بفضلِكَ حتى أستغني بك عن طلبِي
412
- 28 - أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووعدوك وأنت الذي أزلت
412 الْأَغْيَارَ مِنْ قُلُوبِ أَجْبَائِكَ وَأَنْتَ الْمُؤَيِّسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشْتَهُمُ الْعَوَالِمُ
- 28 - وأنت الذي هديتهم حتى استبانَت لهم المعالم
412
- 28 - ماذا رَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ
413
- 28 - وما الذي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلًا
413
- 28 - وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَعِيَ عَنْكَ مُتَحَوِّلاً
413
- 29 - إلهي كيف يُرجى سواك وأنت ما قطعْتَ الإحسانَ أم كيف يُطلبُ من غيرك وأنت ما بدلت
413 عَادَةَ الْإِمْتِنَانِ يَا مَنْ أذَاقَ أَحِبَّاءَهُ خِلَافَةَ مُوَانَسَتِهِ فَقَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ
- 29 - يَا مَنْ أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ الْعَارِفِينَ مَلَائِسَ هَيْبَتِهِ فَقَامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّينَ
414
- 29 - أَنْتَ الذَّاكِرُ مِنْ قَبْلِ الذَّاكِرِينَ
415
- 29 - وَأَنْتَ الْبَادِيءُ بِالْإِحْسَانِ مِنْ قَبْلِ تَوَجُّهِ الْعَابِدِينَ وَأَنْتَ الْجَوَادُّ بِالْعَطَاءِ مِنْ قَبْلِ طَلْبِ الطَّالِبِينَ
415
- 29 - وَأَنْتَ الْوَهَّابُ، ثُمَّ أَنْتَ لِمَا رَهَبْنَا مِنَ الْمُسْتَقْرِضِينَ
415
- 30 - إلهي أظلمني برحمتك حتى أصل إليك
415
- 30 - وَأَجْذِبْنِي بِمَنِّيكَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْكَ
415
- 31 - إلهي إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفي لا يُزِيلني وإن أظلمت
416
- 32 - إلهي قد دَفَعْتَنِي الْعَوَالِمُ إِلَيْكَ
416

- 32- وَقَدْ أَوْقَفَنِي عَلِيمِي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ 416
- 33- إِلَهِي كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ أَمَلِي 417
- 33- أُمُّ كَيْفَ أَهَانُ وَعَلَيْكَ مُتَّكِلِي 417
- 34- إِلَهِي كَيْفَ اسْتَعِزُّ وَأَنْتَ فِي الدُّلَّةِ ارْكُزْتَنِي 418
- 34- أُمُّ كَيْفَ لَا أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي فِي الْفَقْرِ أَقْمَتَنِي 418
- 34- أَنْتَ الَّذِي لَا إِلَهَ فَعِيرُكَ تَعْرِفْتُ لِكُلِّ شَيْءٍ مَسْبُحاً بِحَمْدِكَ وَسَاجِداً لَكَ 418
- 34- فَمَا جَهْلُكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الَّذِي تَعْرِفْتُ إِلَهِي فِي كُلِّ شَيْءٍ قَرَأَيْتُكَ ظَاهِراً فِي كُلِّ شَيْءٍ 419
- 34- يَا مَنْ اسْتَوَى بِرَحْمَانِيَّتِهِ عَلَى عَرْشِهِ فَصَارَ الْعَرْشُ غَيْباً فِي رَحْمَانِيَّتِهِ، كَمَا صَارَتِ الْعَوَالِمُ غَيْباً فِي عَرْشِهِ 419
- 34- مَحَفَّتِ الْأَنْوَارُ بِالْأَنْوَارِ وَمَحَفَّتِ الْأَغْيَارُ بِمُحِيطَاتِ أَفْلَاكِ الْأَنْوَارِ 419
- 34- يَا مَنْ أَحْتَجِبُ فِي سُرَادِقَاتِ جِزْوِهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ 420
- 34- يَا مَنْ تَجَلَّى بِكَمَالِ بَهَائِهِ فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتُهُ الْأَشْرَارُ 421
- 34- كَيْفَ تَخْفَى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الْحَاضِرُ 421
- 423 فهرس المحتويات